ميـر بصـــري

أعلام الأدب في العــراق الحـديث

الجُـزء الأوّلُ

تقـديـــم

د. جليل العطيّة

دار الحكمة

بسم الله الرحمن الرحيم

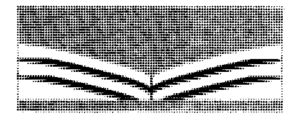
أعلام الأدب

في العراق الحديث

١

ISBN 1 - 898 209 - 456
الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street London NW1 IHJ. Tel: 071 - 3834037 / Fax: 071 - 3830116

ميرِ بصري رائد «فن التراجم» الأدب العربي الحديث

بقلم: د. جليل العطية

■١■

نشأ فنا السير والتراجم وترعرعا في أحضان علـم التاريخ، وتأثرا بمفهوم الناس عنه على مرّ العصور، فكانا تسجيلاً للأعمال والأحداث.

وعندمـا تغيّر مفهوم التاريخ، وأصبحت لـه فلسفة خاصة، أنكـر بعض الباحثين المحدثين أن تكون السيرة أو الترجمة جـزءاً من التاريخ، وبين هؤلاء كولنجـوود وتوينبي فهما يُخرجان من دائرة التـاريخ ما يتصل بالسير الـذاتية كاعترافـات القديس أوغسطين وروسو أو حياة الملكة فكتوريا لستراتشي.

يقول توينبي: إن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعيـة. وبعد أن يبين خصائص بعضهم يقـول: إذا علقنا التـاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة.

على أننا إذا استبعـدنا هذه النظرة الحديثـة، وجدنا أن فن التراجم من ناحيـة عملية هو تـاريخ في نشأته وغايته، ويمكـن أن نقرر أنه: كلما كانت الترجمة تعـرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، فإن الترجمة تحقق هدفاً تاريخياً.

وكلما كانت الترجمة تفصل المترجم عن مجتمعه ووطنه، وتجعله الهدف الأسمى وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون هشة بل مبتسرة.

ولقد وعـى ابن الجوزي ـ المؤرخ البغـدادي الشهير ـ أن التاريـخ عبارة عن مجمـوعة متنوعـة من السير والتراجم عندما قـال في مقدمة كتـابه (شذور العقـود): إن التواريخ وذِكـر السير راحـة للقلب وجـلاء للهم وتنبيـه للعقل فإنـه.. إن شَرحتْ سيرة حـازم علّمت حسن التدبير، وإن قَصّتْ قصة مفرط خوّفت من إهمال الحزم.

وفي القرون الماضية ركد فن التراجم وانكفأ، شأن ألوان الفنون والعلوم الأخرى، وفي بواكير القرن العشرين سار الكتّاب العرب باتجاهات مقاربة لما في الغرب، فتأثروا بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية، وأصبح بعضها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلّت الرغبة في تاريخ الحياة نفسها.

ومن بين المحاولات ذات الطابع الأدبي في السيرة الحديثة يمكن الإشارة إلى (حياة الرافعي) للعريان، (وعبقريات العقاد، وجبران) لميخائيل نعيمة. وأرّخ زيدان وأحمد حسن الزيات والإسكندري وحنا فاخوري للأدب العربي في عصوره المختلفة، وقدّم خير الدين الزركلي كتابه «الأعلام» الذي عني فيه بترجمة المئات من أعلام العرب والمسلمين والمستعربين، غير أن ترجمته ـ على دقتها ـ كانت موجزة، لأنه أراد استيعاب أكبر قدر من الشخصيات في كتابه.

وفي العراق عني عدد قليل من الأدباء والمؤرخين بفن التراجم لمع منهم: رفائيل بطي (ـ ١٩٥٦م) وجعفر الخليلي (ـ ١٩٨٥م) ومير بصري.

والمؤسف أن الجهود المضنية التي بذلها بطي بقيت محدودة الفائدة، لأن التراجم المهمة التي كتبها بقيت مطوية في الصحف والمجلات ولم تجمع في كتب. أما الخليلي فإن كتابه (هكذا عرفتهم) بأجزائه الستة المطبوعة، يعدّ مرجعاً لا يستغني عنه كل مَن يرغب رصد الحركة الأدبية والثقافية خلال القرن الماضي، غير أن ما يؤخذ عليه ـ رحمه الله ـ أنه رسم لوحات انطباعية لمن عرفهم كأنه كتبها من الذاكرة، لأن معظمها تفتقد إلى التوثيق والتواريخ وما أشبه.

■٢■

ولد مير شاؤل بصري في بغداد في التاسع عشر من أيلول ١٩١١ في أسرة عراقية عريقة عرفت باسم «عوبديا»، وقد ذكر الرحالة بنيامين أنه التقى عمّ أبيه الذي كان يشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية في بغداد سنة ١٨٤٨م. درس مير في مدرستي التعاون والأليانس، ولازم الأب أنستاس ماري الكرملي والدكتور مصطفى جواد حيث أخذ عنهما اللغة العربية، كما درس تاريخ العراق على عباس العزاوي والعروض على الشاعر محمود الملاح.

وعمل في الوظائف العامة والخاصة سنوات عديدة (ما بين ٢٨ ـ ١٩٥٢) أمضى شطراً منها في وزارة الخارجية. وقد أهلته كفاءته لتمثيل العراق في عدة مؤتمرات عقدت في نيويورك وباريس وغيرها. وبعد سنة ١٩٥٣ انصرف إلى الأعمال الحرة.

كان أثره الأدبي الأول شعراً منثوراً عنوانه الحرية (بغداد ١٩٢٨) على طريقة جبران والريحاني، وعمل في أوقات مختلفة محرراً اقتصادياً وباحثاً في الصحف والمؤسسات الاقتصادية العراقية.

أما المؤلفات التي أتيح له نشرها حتى الآن فهي :

مباحث في الاقتصاد العراقي (١٩٤٨)، رجال وظلال (١٩٥٥)، رسالة الأديب العربي (١٩٦٩)، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (١٩٧١)، أعلام اليهود في العراق الحديث (١٩٨٣)، أعلام السياسة في العراق الحديث (١٩٨٧)، أعلام الكرد (١٩٩١)، أغاني الحب والخلود (١٩٩١) وأنجز مؤلفات أخرى تنتظر النشر.

بقي مير بصري في بغداد يمارس نشاطه الأدبي والاقتصادي والروحي وبعد أن دخل العراق في بحر الانقلابات والاضطرابات، تعرض إلى الاعتقال والأذى (١٩٦٩) فاضطر إلى ترك وطنه (١٩٧٤). حيث استقر في لندن مواصلاً نشاطه الأدبي والاجتماعي بكل همة وتجرد وإخلاص وظل يحمل لوطنه في حنايا ضلوعه وخفقات قلبه، فمما قاله في بغداد:

على الأوطـــان في جبل وسهل ... ســلام الله، عطــر من ســلام
بــلادي حبهــا مــدي وديني ... تغلغل في ا لجوارح والعظــام
هـي الأم التـي خلقـت كيــاني ... وجـادت بــالحشاشــة والقــوام
وأرهفت المشــاعــر في حنــان ... وأوقــدت القــريحة بــالضرام
ولقنّـت المكــارم والسجــايــا ... وأوحـت بــالخواطــر والكــلام
ونــزهـت الفــؤاد من الــدنــايـا ... ورفعــت الضمير عــن الملام
رضعـت لبــانها طفــلاً صغيراً ... وذقـت نعيمهــا منــذ الفطــام
عببت من الهواء الطلق صفــواً ... ومـن مــاء ألــذّ من المدام
وكحلت العيــون بسحــر حسن ... تــلألأ في الضيــاء وفي الظــلام
فيــا للحسن من بغــداد أضفى ... على الــوديــان وشيــاً والاكــام
مغــانٍ قــد صفــا فيهــا شرابي ... وراق العيش في عــزّ المقــام

تتوزع اهتمامات مير بصري بين الشعر والقصة والرواية وكتابة التراجم والملاحم والترجمة والبحوث الاقتصادية. وقارىء آثاره التي أتيح لها النشر يقرّ له بالجودة والمستوى الرفيع في كل الفنون المختلفة التي مارسها باعتراف كبار النقاد.

يعتقد بصري أن الشعر والأدب يجب أن يرميا إلى مثل أعلى وهو التفاهم البشري والتعاون ونشر الأخوّة والمحبة والسلام.

■٣■

ويبدو لي أنه وجد أن مؤرخي العراق قد قصّروا في فن التراجم، ولعله لمس من صديقيه الكرملي ومصطفى جواد التشجيع في الانصراف إلى هذا الفن، الذي لا يجرؤ على خوضه إلاّ مَن أحاط بعدة علوم وفنون في آن واحد!

فكان أن صرف أكثر من خمسة عقود من عمره وهو يدون ويوثق ويسجل تراجم

الشخصيـات التي سـاهمت في بنـاء نهضـة العـراق الحديث على مختلف مـذاهبهم ومشاربهم فكان كتابه الحالي (أعلام الأدب في العراق الحديث) ثمرة مجهود مضنٍ.

يشمل الكتاب على تـراجم نحو مائتين وخمسين أديبـاً وشاعراً ممّن كـان لهم الأثر في بناء كيان العـراق الأدبي والثقافي والفكري خلال أكثر من قرن. ويمكن اعتبـار الشاعر عبد الغفار الأخـرس المتوفى سنة ١٨٧٥م أقدمهم وفاة، وبينهم أدباء وشعـراء لا يزالون على قيد الحياة ـ أمدّ الله في أعمارهم.

قدم بصري لكتابه الضخم الذي شرفني بكتابة هذه المقدمة له، بتوطئة موجزة تناول فيها الأدب العـربي في عصور الانحطاط والنهضة والعهـد الانتقالي وختمها بـالعبارات الآتية:

أرجو أن تكون الصفحات التالية سجـلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

ولعمـري أنه تـواضع جمّ من قبلـه، فالعمل الـذي نهض بـه جبار، لا يقـوى على تقديمه بهذا الشكل المتقن، الموثق فرد!

على أن غَيرته على الأدب والأدبـاء ذللت له الصعوبات التي واجههـا في تأليف هذا السفر الفذّ.

ينفرد مير بصري عن كل مؤرخي التراجم بنقاء العبارة، ورشاقة الأسلوب والبعد عن التعمل والتصنع، يحيط بتاريخ العراق والعـرب إحاطة واسعة، وقد رزق ذاكـرة قوية، لا ينسى ما يقيّد ولا ما لا يقيّد وغلب عليه التواضع والحياد.

ومما ينفرد به إجـادته اللغة الفرنسية واطلاعه الـواسع على الأدب الفرنسي، وقد أفاد القارىء بمعلـومات غـزيرة عندمـا عقد مقارنـات واقتبس أشياء لها صلـة بالمترجم لهم وطائفة من شعراء فرنسة وأدبائها.

ولا أريد هنـا أن أكشف كل مـزايا هذا الكتـاب الموسوعي، فيكفـي أن ألمّح إلى أنه حفظ لنـا مختـارات شعـريـة مجهولـة لشعـراء لم يسعفهم الحظ بنشر نتـاجـاتهم خـلال حياتهم، كما أن معرفته بعدد منهم مكنتـه من الاطلاع على آرائهم وأفكارهم، وإذا كان الكتاب قـد اشتمل على تراجم المشهـورين المعروفين، فإن المؤلف قـدم لهم نماذج أدبية غير معروفة.

ختامـاً أبتهل إلى البـاري عزت قدرتـه أن يمدّ في عمـر الأستاذ مير بصري ليـواصل إتحاف المكتبة العربية بنتاجاته الأدبية والتاريخية. ولي الثقة بأن (أعلام الأدب في العراق الحديث) سيأخذ مكانته اللائقة في الخزانة العربية كواحد من أهم مراجع دراسة الأدب العربي الحديث.

المحتويات

عصر الانحطاط الأخير
والعهد الانتقالي

عصر النهضة

الشعر

الشعر العامّي

عصر النهضة

النثر

الجزء الثاني

رجال الفقه والدين

الصحافة

الموجة الحديثة

شعر

الموجة الحديثة

نثر، تأريخ، قصص

الشعر الجديد

الشعر الحرّ

شعراء وأدباء

سجّلت تراجم الشعراء والأدباء الآتي ذكرهم في كتابي «أعلام الوطنية والقومية العربية» المعدّ للطبع :

(١) عبد المطّلب الحلي

(٢) خيري الهنداوي

(٣) محمد حسين آل كاشف الغطاء

(٤) محمد باقر الشبيبي

(٥) محمد مهدي البصير

(٦) عبد الرحمٰن البناء

(٧) محمد باقر الحلي

(٨) حمد فهمي المدرس

(٩) هبة الدين الشهرستاني

(١٠) أحمد عزت الأعظمي

(١١) ساطع الحصري

(١٢) محمد كاظم الخراساني

(١٣) محمد كاظم اليزدي

(١٤) محمد تقي الشيرازي

(١٥) فتح الله الأصفهاني

(١٦) محمد حسين النابيني

(١٧) مهدي الخالصي

(١٨) محمد الخالصي
(١٩) عبد الغفور البدري
(٢٠) إبراهيم صالح شكر
(٢١) علي الخطيب
(٢٢) عيسى عبد القادر
(٢٣) عبد الرحمٰن البزّاز.

سأصرف وجهي عن بلاد غدا بها — لسانيَ معقولاً وقلبيَ مقفلا
وإنّ صريح الحزم والرأي لامرىءٍ — إذا بلغته الشمس أن يتحوّلا

أبو تمام
(٨٠٤ـ٨٤٦م)

كن ابن مَن شئت واكتسب أدباً — يغنيك محموده عن النّسب
إنّ الفتى مَن يقول: ها أنَذا — ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

أبو العتاهية
(٧٤٨ـ٨٢٦م)

إذا ورّث الجهّال أبناءهم غنى — وجاهاً فما أشقى بني الحكماء!

محمد حفني ناصف
(١٨٥٧ـ١٩١٩م)



المصادر والمظانّ

هيّئت لي معلومات وافية من الشعراء والأدباء الـذين عرفتهم ومن أصدقاء الراحلين والمتصلين بهم. ووجدت في الجرائد والمجـلات العراقية والعـربية خـلال نصف قرن أو يزيد أخباراً كثيرة حرية بالتدوين. وفي الكتاب أشعار لم تنشر أو نشرت في الصحف ولم تجمع في ديوان فآثرت إثباتها تخليداً لأصحابها.

وفيما يلي جدول ببعض المراجع والمظان التي قد يرغب المتتبع في الرجوع إليها زيادة في الفائدة:

(١) مير بصري: أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (بغداد ١٩٧١).

(٢) إبراهيم الواعظ: الروض الأزهر (١٩٤٨).

(٣) محمد مهدي البصير: نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (بغداد ١٩٤٦).

(٤) خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الثالثة).

(٥) محمد صالح السهروردي: لبّ الألباب (جزآن، بغداد ١٩٣٣).

(٦) عبد الرزاق الحسني: تأريخ الصحافة العراقية (١٩٣٥).

(٧) عباس العزاوي: تأريخ الأدب العربي في العراق (بغداد، جزءان ١٩٦١ ـ ٦٢).

(٨) السيد حيدر الحسيني الحلي: العقد المفصل (جزآن).

(٩) محمد بهجت الأثري: أعلام العراق (١٩٢٧).

(١٠) رفائيل بطي: الأدب العصري في العراق العربي (جزآ ن، القاهرة ١٩٢٣).

(١١) رفائيل بطي: الصحافة في العراق (١٩٥٥).

(١٢) مصطفى علي: أدب الرصافي (١٩٤٧).

(١٣) مصطفى علي: الرصافي (الجزء الأول ١٩٤٨).

(١٤) مصطفى علي: محاضرات عن معروف الرصافي (١٩٥٤).

(١٥) جورج جبّوري : الكرملي الخالد (١٩٤٧).

(١٦) كوركيس عواد : معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء ، بغداد ١٩٦٩).

(١٧) كوركيس عواد : الأب أنستاس ماري الكرملي (١٩٦٦).

(١٨) مصطفى جواد : المباحث اللغوية في العراق (١٩٥٥).

(١٩) الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ .

(٢٠) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ .

(٢١) السيد جعفر الحلي آل كمال الدين : سحر بابل وسجع البلابل (صيدا ١٩١٣).

(٢٢) عبد الغفار الأخرس : الطراز الأنفس في شعر الأخرس (الأستانة ١٨٨٧) نشره أحمد عزت الفاروقي .

(٢٣) عبد الله الجبوري : من شعرائنا المنسيين (بغداد ١٩٦٦).

(٢٤) محمد الهاشمي : سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (بغداد ١٩٥٩).

(٢٥) محمد مهدي البصير: البركان (بغداد ١٩٥٩).

(٢٦) أحمد الصافي النجفي : التيار (دمشق ١٩٤٦).

(٢٧) محمود الحبوبي : شاعر الحياة (النجف ١٩٦٩).

(٢٨) بدر شاكر السيّاب : قيثارة الريح (بغداد الطبعة الثانية ١٩٧١).

(٢٩) محمود العبطة : بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق (بغداد ١٩٦٥).

(٣٠) حافظ جميل : اللهب المقفّى (بغداد ١٩٦٦) نبض الوجدان (بغداد ١٩٥٧) أحلام الدوالي (بغداد ١٩٧٢).

(٣١) غازي عبد الحميد الكنين : شعراء العراق المعاصرون (جزآن ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨).

(٣٢) محمد رضا الشبيبي : ديوان الشبيبي (القاهرة ١٩٤٠).

(٣٣) محمد مهدي الجواهري : ديوان الجواهري (عدة طبعات).

(٣٤) محمد مهدي الجواهري : أيها الأرق (بغداد ١٩٧١).

(٣٥) محمد مهدي الجواهري : خلجات (بغداد ١٩٧٢).

(٣٦) نعمان ماهر الكنعاني : المعازف (بغداد ١٩٥٠).

(٣٧) نعمان ماهر الكنعاني : الشعر في ركاب الحرب (بغداد ١٩٤٨).

(٣٨) عبد الحسين الأزري : ديوان الحاج عبد الحسين الأزري (بيروت) .

(٣٩) علي الشرقي : عواطف وعواصف (بغداد ١٩٥٣) .

(٤٠) علي الشرقي : ديوان علي الشرقي (بغداد ١٩٧٩) .

(٤١) معروف الرصافي : ديوان الرصافي (القاهرة ١٩٤٩) .

(٤٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي (بغداد ١٩٨٠) .

(٤٣) الدكتور محسن غياض : شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي (بغداد ١٩٧٦) .

(٤٤) الدكتور داود سلوم : تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي (بغداد ١٩٥٩) .

(٤٥) تذكرة الشعراء لعبد القادر الخطيبي الشهراباني (نشره الأب أنستاس الكرملي ، بغداد ١٩٣٦) .

(٤٦) الدكتور يوسف عز الدين : شعراء العراق في القرن العشرين (بغداد ١٩٦٩) .

(٤٧) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية (٤ أجزء ، بيروت) .

(٤٨) الدكتور شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر: في مصر (القاهرة ١٩٥٧) .

(٤٩) الدكتور جمال الدين الرمادي : من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة ١٩٦٠) .

(٥٠) محمود شكري الألوسي : المسك الأذفر (بغداد ١٩٣٠) .

(٥١) مجلة كلية الآداب (العدد ١٨ : ١٩٧٤) بغداد ، عدد خاص بأربعينية الدكتور محمد مهدي البصير.



توطئة
الأدب العربي في عصر الانحطاط

عرف العصر الذي تلا سقوط الدولة العباسية في العراق سنة ١٢٥٨م بعصر الانحطاط. فقد خمدت الحركة الأدبية وأصبح الشعر والنثر يتّسمان بالتقليد والإسفاف، وكادت المواضيع تقتصر على المدح والهجاء والرثاء والغزل والمراسلات الإخوانية. كسدت سوق الأدب وزال الإبداع والإشعاع في البلد الذي أنجب الفرزدق وابن المقفّع والأصمعي والجاحظ وبديع الزمان والحريري والفراهيدي وسيبويه وبشار وأبا نواس وأبا العتاهية وأبا تمّام وابن الرومي وابن المعتزّ والمتنبّي وابن خلكان وصفيّ الدين الحلي وأضرابهم من أساطين البلاغة والبيان والقريض.

ونبغ في عهد الانحطاط شعراء فرس وترك كانوا في طليعة أدباء الدولتين الفارسية والتركية، منهم، من رجال اللغة الفارسية: سلمان ساوجي، وخواجو كرمانو وعبيد زاكاني وحافظ، ومن رجال اللغة التركية: فضولي البغدادي المعروف في تركية بـ «رئيس الشعراء»، وقد توفي سنة ١٥٥٥م، وابنه فضلي، ورضائي وعهدي وشمسي، وحسيني المتصوف المتوفى سنة ١٥٧٧، وروحي المتوفى سنة ١٦٠٥، وغيرهم. ولا يزال الأدب التركماني مزدهراً في كركوك وأنحائها، ومن أعلامه عبد الله صافي المتوفى سنة ١٨٩٨، والشيخ رضا الطالباني المتوفى سنة ١٩١٠. وكان يعدّ أبلغ شعراء الكرد، لكنه كان ينظم باللغات التركية والفارسية والعربية أيضاً. وقد سافر إلى تركية، ومضى إلى القاهرة فعهد إليه بتدريس الفارسية لأنجال الخديوي إسماعيل، على ما قيل.

ولا بدّ من ذكر أحمد هاشم الألوسي البغدادي الأصل (١٨٨٥ ـ ١٩٣٣) الذي يعدّ من أعظم شعراء تركية في العهد الأخير، وقد عرف بشعره الرمزي وشعر الطبيعة والجمال. ومن شعراء التركمان في كركوك وأنحائها محمود هجري ددة (١٨٨١ ـ ١٩٥٢) وخضر لطفي (١٨٨٠ ــ ١٩٥٩) والأديب ناجي الهرمزي (١٨٨٧ ـ ١٩٥٢) ومحمد صادق (١٨٩١ ــ ١٩٦٧) والقاضي أحمد فائز (١٨٤٢ ـ ١٩١٨) صاحب المؤلفات باللغات العربية والتركية والكردية والفارسية.

ولعلّ خير أنموذج للأدب التركي في العراق في أوائل القرن التاسع عشر ما سجله كتاب «تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا والي

بغداد»، وهو من تأليف أو ترجمة عبد القادر الخطيبي الشهرباني. عني بنشره الأب أنستاس ماري الكرملي سنة ١٩٣٦ . ذكر هذا الكتاب تراجم مختصرة لنحو خمسين شاعراً وكاتباً عاشوا في عهد الوالي، وجلّهم إن لم نقل كلهم، من النكرات المحسوبين على الأدب ومن موظفي الولاية وكتابها. ولم يخلفوا أثراً سوى واحد هو رسول حاوي مؤلف «دوحة الوزراء» في تأريخ ولاة بغداد، وقد توفي سنة ١٨٢٦ .

أما الأدب الكردي فانتعش في السليمانية وأنحائها، وكان من أعلامه العالم الأديب رسول مستي الملقب بشيخ الحكماء (١٨٢٣ ـ ١٩٠٨) والشعراء محمد المحوي (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) وأمين يُمْني (١٨٤٥ ـ ١٩٢١) وأحمد الملا قادر (١٨٥٤ ـ ١٩١٠) وأمين فيضي (توفي ١٩٢٨) وصالح حريق (١٨٦٦ ـ ١٩٠٩) وحسن البامرني (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧) وأحمد مختار الجاف (١٨٩٦ ـ ١٩٣٣) وعبد الله كَوران (حلبجة ١٩٠٤ .. ١٩٦٢) وفائق بيكاس (١٩٠٥ ـ ١٩٤٨). ولا بدّ من ذكر الكاتب المربّي رفيق حلمي (١٨٩٨ ـ ١٩٦٠) وحسن فهمي الجاف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣). وأشهر شعراء الكرد على الإطلاق توفيق بيره مرد (السليمانية ١٨٦٧ ـ ١٩٥٠). ولا ننسى الوزيرين العالمين المؤرخ محمد أمين زكي (١٨٨٠ ـ ١٩٤٨) والبحاثة المحقق توفيق وهبي (١٨٩١ ـ ١٩٨٤) مؤلف القاموس الكردي الإنكليزي المطبوع في لندن (بالاشتراك مع الميجر أدموندس).

الأدب العربي في عصر الانحطاط

كان الأدب العربي في عصر الانحطاط مظهراً من مظاهر التقليد والجمود والجفاف. فشت العجمة في الفكر والبيان، وطغت اللهجة العامية، وغلبت التركية لغة الدواوين والطبقة الحاكمة. على أن النجف بقيت واحة عربية ازدهر فيها الفقه وعلوم الدين واللغة والشعر التقليدي. وكان أبرز ممثلي الأدب العربي في ذلك العهد:

(١) الشاعر المدّاح الشيخ كاظم الأزري (١٧٣٠ ـ الكاظمية ١٧٩٦).

(٢) الشيخ صالح التميمي (١٧٦٢ ـ ١٨٤٤) ولد في الكاظمية ودرس في النجف ومدح بشعره الولاة والأشراف.

(٣) المؤرخ عثمان بن سند البصري (١٧٦٦ ـ ١٨٢٧) مؤلف «مطالع السعود في طيب أخبار الوالي داود».

(٤) الشاعر المجيد عبد الباقي العمري (١٧٨٩ ـ ١٨٦١)، موصلي الأصل وكان معاوناً لوالي بغداد.

(٥) مفتي بغداد عبد الغني جميل (١٧٨٠ ـ ١٨٦٣) من وجهاء عصره وأغنيائه،

نظم الشعر واشتهر بمطارحاته مع عبد الغفار الأخرس، وقد نشرها المؤرخ عباس العزاوي.

(٦) الشاعر عمر رمضان الهيتي، توفي سنة ١٨٣٦.

(٧) المفتي أبو الثناء محمود شهاب الدين الألوسي. (١٨٠٢ ــ ١٨٥٤) صاحب الرحلات والمقامات والتفسير المشهور.

(٨) الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري (١٨١٩ ــ ١٨٨٥) اشتهر بمدائحه للوالي علي رضا باشا.

(٩) العالم الأديب المؤرخ إبراهيم فصيح الحيدري ولد في بغداد (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣).

(١٠) الشاعر الشيخ حمّادي آل نوح الحلّي (نحو ١٨٢٥ ـ ١٩٠٧).

(١١) الشاعر أحمد عزت باشا العمري الفاروقي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) ولد في الموصل وعاش في بغداد واستانبول وطبع ديوان الأخرس في العاصمة التركية سنة ١٨٨٧.

(١٢) الشاعر العاشق الشيخ عباس علي النجفي (١٨٢٨ ــ ١٨٥٨)، وهو صاحب القصيدة المشهورة:

عديني وامطلي وعدي، عديني ودِيني بالصبابة فهي ديني

(١٣) الشاعر أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩).

(١٤) الشاعر السيد حيدر بن سليمان الحلّي (١٨٣٠ ــ ١٨٨٧) مؤلف «العقد المفصّل» في مدائح آل كبّة. وقد اشتهر بمراثيه الحسينية الشجيّة.

(١٥) نعمان خير الدين الألوسي (١٨٣٦ ـ ١٨٩٩) وكان عالماً لغوياً أديباً.

(١٦) الشيخ جعفر الشرقي (١٨٤٤ ـ ١٨٩٢) الشاعر الفقيه، والد الشاعر الشهير علي الشرقي.

(١٧) السيد جعفر الحلي من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧) نشر ديوان شعره بعنوان «سحر بابل وسجع البلابل» وطبع في صيدا.

وقد غالى الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه «نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر» في تقييم أدب ذلك العهد، فقال: «إن أدبنا . . . يمثل كل لون من ألوان الأدب العربي القديم وكلّ فن من فنونه . . .» وقال: إنه يمثّل حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية. وبالغ في نعت الشعراء، فهذا خليفة أبي نواس والآخر خليفة أبي العتاهية وذاك صنو ابن الفارض وقرين أبي تمّام، وهلمّ جرا.

كان الشعر بضاعة كاسدة لا تكاد تحظى بشيء من التقدير المادّي أو الأدبي. والمديح والرثاء زاخران بالمبالغات الصارخة، فكأن كل ممدوح نابغة عصره وسيّد مصره، وكل مرثيّ فاق الثقلين وغادر الأرض قفراً يباباً:

فالمـوت نقّـاد على كفّـه جواهر يختار منها الجيـاد!

ونـرى السيد جعفـر الحلي يرثي القتيل ويهنىء القـاتل في نفس واحد، يـرثي الشيخ مزعل ويهنىء أخاه خزعل خان الذي اغتـاله وحلّ محله على دست إمارة عربستان. ثم نراه يمدح قاطع الطريق من عشيرة شمر فيصفه بالليث الذي أوكل رزقه ببراثنه!.

وخلاصة القـول: إن شعر عصر الانحطاط يكاد يخلو من المعـاني والأفكار الأصيلة والبوارق الصوفيـة واللمعات الذهنية واللمحات الـوجدانية. وإذا كان يمتـاز بسلامة اللغة والبلاغة في أحايين كثيرة، فإنه يتّسم بالجمود والتقليد والصرامة وضحل الخيال.

وقد ترجمت لشاعرين يمثـلان عصر الانحطاط الأخير أحدهما بغدادي (عبد الغفار الأخرس) والآخر نجفي (إبراهيم الطباطبائي).

عصر النهضة

أطلّ فجـر النهضـة الأدبيـة في مطلع المائة العشرين، وكـان في الطليعـة من روّاده الشاعـران جميل صدقي الـزهاوي ومعـروف الرصافي، ثم تبعهما عنـد إعلان الـدستور التركي محمـد رضا الشبيبـي وأخوه محمـد بـاقر وعلي الشرقي وخيري الهنـداوي وكـاظم الدجيلي ومحمود الملاح.

ونبغ من الكتّـاب والعلماء محمـود شكري الألـوسي والأب أنستـاس ماري الكـرملي وفهمي المدرس ومحمـد حسين كاشف الغطاء... ونشـأت الصحافة سنـة ١٩٠٨ مع إعـلان الحريـة، فبرز فيهـا عبد اللطيـف ثنيّان وداود صليـوا وإبـراهيم صـالح شكـر وإبـراهيم حلمي العمـر، ثم رزوق غنام وعبـد الغفـور البدري ورفـائيل بطّي وتـوفيق السمعاني وسليم حسّون...

ويمكن القول: إن الأمة العـربية «أمّة الشعر». فقد كان للشعـر منذ الجاهلية المقام البارز والأثـر البليغ في الحيـاة الاجتماعية والسيـاسية والنهضـة العلمية والأدبيـة. وكان الشعر يقـوم مقام المقالات الافتتـاحية قبل أن توجـد الصحافـة مع مزيّة أخـرى له هي سهولة الحفظ والنقل والتداول والخلود.

وقد قلت في البحث الذي قدمته بعنوان «دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري» إلى مؤتمر الأدباء العرب السـابع المعقود في بغداد في نيسان ١٩٦٩: «يضطلع الأديب بتبعـة جسيمة في بنـاء مجتمعـه والمجتمع العالمي. فـالأديب الحق يحمل مشعل التقـدم والنهوض لينير السبيل لأبنـاء أمته ووطنـه. ولئن كان ذلك صحيحـاً مذ وجـد الأدب ووجـدت رسالـة الأديب، لقد أصبحت هـذه الحقيقة أشـدّ خطراً وأبلغ أثـراً في المجتمع العربي الحديث الذي يمـرّ، من الجهة الواحدة، بطور انتقال، طـور امتدّ منذ

حقبة طويلة ولا يزال جارياً بدرجة متفاوتة وتفاعل ملحوظ في مختلف أقطار العروبة لأجل إزالة آثار التخلف واللحاق بموكب الأمم العالمة العاملة، ويخوض، من الجهة الأخرى، معركة ضارية فرضتها عليه قوى الاستعمار والرجعية. . . ».

وقلت إن الأدب العربي قام في العصور الماضية بدوره في بناء المجتمع وتوطيد أركانه، وكان من أقوى عناصر القوة والتماسك التي تربط بين أبناء الشعب العربي في أقطاره المنبسطة شرقاً وغرباً. وقد رأينا الشعراء والأدباء في العراق والوطن العربي أجمع في عصر النهضة الحديثة يلهبون مشاعر الأمة وينيرون لها طريق الحرية والاستقلال ويدعونها إلى اليقظة والانطلاق.

قامت معارك اجتماعية ووطنية وسياسية خاض غمارها الأدب وكان النصر فيها حليف قوى التقدم والعرفان. وحسبنا أن نذكر مثالاً معركة تحرير المرأة والسفور والحجاب التي احتدمت بين الأنصار والمعارضين. وقد تعرّض الزهاوي للمحنة لمقال كتبه في الدفاع عن المرأة فبقي حبيس داره أياماً خوفاً من سخط الجماهير، حتى ليخاطب زوجه قائلاً:

أبثينَ، إن أدنى العدوّ حمامي	بمسدس يذكيه أو بحسام
فتجلدي عند الرزيّة واحسبي	أني اجتمعت إليك في الأحلام

وقال الرصافي:

لقد غمطوا حق النساء فشدّدوا	عليهنّ في حبس وطول ثواء
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا	عليهنّ إلاّ خرجة بغطاء

ودعا شعراء النهضة إلى العلم والحرية. واتخذ كتّاب الرواية والقصة والمسرحية آثارهم أداة لرسالة الثقافة والاستقلال. ثم تشعبت نواحي الأدب في مناهجه وأهدافه، وظهر الشعر المنثور والحرّ ومذهب الرمزية والسّوريالية، واتّسع مجال الأثر الأدبي بنشوء البثّ الإذاعي والتلفزيوني ونقل الشعر والنثر العربي إلى اللغات الأخرى بعد أن مرّ دور الترجمة والتعريب.

وأرجو أن تكون الصفحات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة، وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

لندن، شباط ١٩٩٤

مير بصري

القصص الشعري

أولع شعراء الشباب في مطلع القرن العشرين بالقصص الشعري، وكانت قصصهم في الغالب ساذجة شجيّة تنتهي بالفواجع، وكأنّ الدهر مأساة لا تبقي على غنيّ ولا متنعّم. ولعلّ أولئك الشعراء قد تأثروا بمصطفى لطفي المنفلوطي، الأديب المصريّ الأنيق الذي كان له تأثير عظيم في النصف الأول من القرن في طول الأقطار العربية وعرضها.

حدثني عبّاس العزاوي أن الكتب والمجلات كانت ممنوعة في عهد الاستبداد الحميدي، ولم يسمح بورودها إلا بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وإطلاق حرية المطبوعات. أخذت المجلات والصحف المصرية كالمقتطف والهلال والمقتبس والزهور وغيرها ترد إلى بغداد فيتلقفها الشباب المتعلم ويطالعها بشغف ولهفة.

قال العزاوي: كنّا ننتظر وصول المجلات والكتب بنافد الصبر، فإذا تأخّر البريد مررنا بالمكتبات في سوق السراي كلّ يوم، بل كل ساعة، نسأل عنها ونستفسر عن أسباب التأخير. وكانت مقالات المنفلوطي التي تنشرها جريدة المؤيد تحظى باهتمامنا قبل غيرها، ولا سيما النظرات والعبرات والروايات المترجمة التي نشرت بعد ذلك كتباً مستقلة. فإذا وردت المؤيد أقبلنا على مطالعة مقالات المنفلوطي في المكتبة أو الطريق، ولم نصبر عن قراءتها حتى الوصول إلى الدار!

وللمنفلوطي نفسه قصص شعرية، منها منظومة «بين أسماء وعبد الله». تلك قصة أسماء بنت الصديق وولدها عبد الله بن الزبير الذي طلب لنفسه الخلافة فحاصره الحجاج بمكة وعرض عليه التسليم. لكن أمه أشارت عليه بالمضيّ في القتال حتى الموت:

إنّ أسماء في الورى خير أنثى	صنعت في الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً	تحت درع منسوجة من نجيع
قال: يا أمّ، قد عييت بأمري	بين أسر مرٍّ وقتل فظيع
خانني الصحب والزمان، فما لي	صاحب غير سيفيَ المطبوع
وأرى نجميَ الذي لاح قبلاً	غاب عنّي ولم يعد لطلوع

بــــذل القــــــوم لي الأمـــــان، فما لي غيره إن قبلتـــــــــــــــه من شفيــع
فـأجـــابـت، والجفـن قفــــر كـأن لم يكُ مــن قبلُ مـــوطنـــاً للـــدمــوع:
لا تسلّــم إلاّ الحيـــــــــــــاة وإلاّ هيكــــــــلاً شـأنـــــه وشـأن الجذوع
إنّ مـــوتـــــاً في ســـاحـــــة الحرب خير لـك من عيش ذلّــــــة وخضــــــوع

وختم الشاعر قصيدته قائلاً:

وأتـى أمّـــــــه النّعـيُّ فجـــــادت بعــــد لأيٍ بــــدمعهـــا الممنــــوع

ونظم المنفلـوطي أيضـاً رواية بـولس وفـرجيني لبرنـاردان دي سان بيير، وهي قصـة الطبيعة الساذجة والطفولة البريئة، ومطلعها:

يـــا بني الفقـــر، ســلامــاً عــاطـــراً من بنـي الـــدّنيـــا عليكم وثنـــاء

نشأ الطفلان في جـزيرة نـائية، وتمتّعـا بمشرق الشمس ومغيبها، ولعبـا معاً في ظل الأشجار الوارفـة وعلى ضفاف الجداول الرقراقـة. وقد تبادلا الحبّ وعزمـا على الزواج، لكن الفتـاة مضت إلى فرنسـة للمطـالبة بإرث لها فلم تحصل على المال. ولما عـادت إلى جزيرتها حيث ينتظرها الحبيب هاج البحر وماج، فغرقت السفينة وجرفت المياه العروس العائدة جثة لا حياة فيها ألقتها على الساحل.

كان جميل صدقي الـزهاوي من مبتدعي القصص الشعري، وقـد نظم عدة قصائد في هـذا البـاب، منها: أرملـة الجنـدي، سليمى ودجلـة، طـاغية بغـداد، الغـريب المحتضر، على قبر ابنتها، أسماء، مقتل ليلى والربيع، سعـاد بعد زواجها، ليلى وسمير، إلخ.

فأسماء فتاة تهوى أحد الشبـان، لكنّ أهلها يزفّونها إلى شيخ فانٍ له ثـلاث نساء فلا تجد مخرجاً من مأساتها إلا بتناول السمّ والموت في ميعة الصبا.

وأرملة الجندي يعضها الفقر بنابه بعد وفـاة قرينها فتصاب بالسلّ ولا تنال الكفاف من القوت مع طفلها لضآلة راتب التقاعد الذي يصرف لها.

ويقف الرصافي بين شعراء الشباب في العراق على قمة عالية لا تصل إليها الأبصار. إن منظوماته القصصيـة قصائد رائعة تجمع جمال الشكل إلى سموّ المعنى ولطف الأداء. إننـا نقـرأ «المطلقة» و «أمّ اليتيم» و «الفقـر والسّقـام» و «اليتيم في العيـد»، فنحلّق مع الشاعر في عالم روحانيّ من الرحمة والمحبّة وتخفق قلوبنا بالعواطف الإنسانية الرفيعة.

هذه المرأة تئنّ في سكون الليل، وقد لفّها الظلام والـوحشة والفقر بدثار قاس أليم، وإلى جنبها طفل جـائع ينتظر رجـوع أبيه الذي قتـل في مذبحة همجيـة. وهذه الـزوجة المخلصة المحبوبة يطلّقها زوجها لزلّـة لسانية بدرت منه يحيلها جمود المجتمع وجهله إلى مأساة لا مخرج منها.

وهذا الصبيّ اليتيم البائس، صبيح الوجه، شاحب اللون، يخرج في صباح العيد ملتفعاً بأسماله البالية فيزيد من أساه وحرمانه ضجيج الناس وفرحهم ولعب الصبيان الذين يرتدون الملابس الزاهية ويمضغون السكر والحلوى ويضحكون ويمرحون في فيض من السعادة والهناء . . .

أما موشّح الفقر والسّقام فهو أنّة المضنى الكئيب ترتفع في الظلام يطلقها الفقير المريض الذي لا يجد طبّاً لعلّته ولا نفقة لأسرته. بشير الكادح الذي كان يسعى طول النهار ليكسب قوتاً زهيداً وليعيل أخته العانس أقعده المرض عن العمل :

إنّ سقماً بـــه وعقماً ألمّا ... تـركـاه يـذوب يـومـاً فيـومـا

فهـو حينـاً يشكـو إلى السّقم عُـدْمـا ... وهـو يشكـو حينـاً إلى العُـدْم سقماً

باكياً من كليهما بانتحاب

وفي ليلة زمجرت العاصفة واكفهرّ أديم السماء والتمع البرق ودوّى هزيم الرعد، قضى بشير نحبه. ولم تلبث أخته أن تبعته إلى رحاب الموت، منطلقة من قبضة الحياة القاسية الشديدة.

لقد أبدع الرصافي الشاعر في تصوير قسوة الطبيعة وثورة عناصرها الهوج وسخرية القدر، وتجسيم الموت الذي ينشب مخالبه كالوحش الضاري في بني الفقر على الفراش البالي وفي ضياء السراج الضعيف. وبرع في الإفصاح عن رزايا الفقر وأوصاب المرض وسعار الجوع، ووصف عبرات الأرامل والأيتام وأنين المكلومين الذي يقطع الأحشاء بسيف مثلّم ويهزّ نياط القلب، والليل ساج حالك السواد، وكأنّ نجومه تصيخ إلى الزفرات المجمجمة. وبرع في تصوير البيت الخاوي المتهدّم الذي ينوء بأثقال البؤس، والجسم الهزيل الشاحب الذي يهدّه الجوع والسقام، والطفولة التي تشكو ضراوة الدهر قبل أن يتفتّح ذهنها لحقيقة الوجود، تغذيها أمها بالدموع إذا أعوز الخبز. والجمال الذي يذوي من الوجد في عنفوان الشباب، وذلّ مجتمع البؤس وتضامنه وتعاطفه وتبادله العون والحنان والنزر مما يمتلكه من حطام الأرض، وشموخ مجتمع الغنى والبذخ وعدم مبالاته واستهانته بالدموع والدماء، أليس كلّ ذلك وكثير غير ذلك قد عبّر عنه شاعرنا ألطف تعبير، ينفذ إلى مكامن ا النفس البشرية ويثير فيها أسمى العواصف والعواصف؟ وهل عجب أن يرسم الرصافي صورة حية للحزن، وهو القائل :

أنا للحزن دائماً ذو انتساب؟

إنّ الرصافي يروي قصص الأسى والألم والموت بصيغة المتكلّم، فهو قد رآها وسمعها وعاشها، أصغى إلى أنين الملهوفين وسأل عمّا أصابهم وخفف من آلامهم وودعهم يوم مماتهم الوداع الأخير وسكب على قبورهم دمعة حرّى صادقة هامعة من جفن قريح.

وقد كان إبراهيم صالح شكر، وهو الأديب الذوّاقة، معجباً باستعارات الرصافي

وتشبيهاته يعدّها من الروائع . استشهد بقوله في «أمّ اليتيم» :

أرى فحمــة الظلماء عنــد أنينهــا فـأعجـب منهــا كيف لم تتضرّمِ

فقال ـ على ما أذكر ـ إن شاعرنـا قد شبّه الأنين ضمناً بالنار فعجب كيف لم تضطرم فحمة الظلماء .

ومن تشبيهاته الأخـرى في نفس القصيدة خفوق أنين الأرملة في قلبه كـرنّة الدرهم في قلب الفقير المترب . ثم شبّـه تقطّع أحشـائه بضربـة سيف مثلّم ، ولا يخفى مـا تسببـه ثلمات حدّ السيف من الألم عنـد تمزيقها الأعصاب . ثم انظر إلى الأحـزان التي هاجت فاغـرة الفم ، وإلى الدار التي هوى بها زلزال الخطـوب إلى حضيض الشقاء ، وإلى العين التي سال دمعها بكاءً ونظرتها تبتسم ، وهلمّ جرا .

إنّ خيري الهنداوي صديق الـرصافي وعشيره لا يرقى مرقاة صـاحبه ، لكنه مع ذلك يحسن نسج القصـة الشعريـة وحبك وقـائعهـا . ففي قصيدتـه «فتـاة سلانيك» يـروي حديث حبيبين عاشا زماناً في بلهنية الصّبا وصفاء السلم والوداد ، حتى نشبت الحرب . ومضى الفتى إلى ساحة الوغى فقتل وأسرت الفتاة الحزينة .

وقصيدتـه «زينب وخـالد» أو «فتاة بغـداد وفتاهـا» ملحمة المآسي والأحـزان . ومن زينب؟ ـ هي فتاة عربية نشأت في أحضان الفضيلة والعزّ والدلال :

فجـاءت كغصن البـان يـورق نـاضراً وكـالشمـس إلاّ أنها ليـس تغـرب

خرجت ذات يـوم مع صديقـاتها في نزهة ، فـالتقت بفتاهـا جالسـاً في ظلّ دوحة . وقعت عينه عليها :

فجنّ بها حبـاً ، ولم يـدر قبلهـا بـأن الهوى يـأتي الفتى وهـو يلعب

ورأته هي أيضاً فهامت به حباً :

مضت ومضـى للحيّ ، كـلٌّ مـولّـه بصـاحبـه يـدعـو الـرشـاد فيعـزب

ومرض خالد وقد تيّمه الحبّ ،

ينـوح كما نـاح الحمام صبـابـة ويشهق مـن فـرط الغـرام وينحب

وعرفت أمـه بالسرّ الذي يطوي عليـه جوانحه ، فخطبت له الحبيبـة وهيّئت أسباب الزواج . غير أنّ القدر يقف للمحبّ السعيـد بالمرصاد ، فقد جاء جنـد جنكيز واقتادوا خالداً وزجّوه في السجن ، ثم ساقوه إلى سيواس . وماذا كانت جنايته؟

لقـد كـان صبّـاً بـالعـراق وأهلـه يثـور إذا سيمـوا الهوان ويشغـب
يـدافع عن أحسـابهم وحقـوقهم ويطعن في صـدر العـدوّ ويضرب
وهل ريبـة أن ذبّ عن مجد قـومـه فتـى عـن بنيّـات العلى لا ينكـب؟

أعـدلاً يـرى الأقـوام حبس ابن حـرّة | يغـار على مجد العـراق ويغضب؟
إذا كـان في حب الـديـار جـريـرة | فكلّ فتى فـوق البسيطـة مـذنب!

وبعد أعوام قضاها في المنفى البعيد، عاد بطل قصّتنا فوجد أمه قد ماتت. وأمدّه صديق وفيّ بالنّقود فاقترن أخيراً بحبيبته زينب. لكنه عاد إلى العمل السياسي لتخليص بلاده من ربقة الاحتلال، فقبض عليه، وهو في غمرة أفراح ختان طفله، وسيق إلى المعتقل النائي مكبلاً بالحديد. وابتلي بالسلّ فقضى نحبه بعيداً عن أهله وأصحابه.

إيه، أيها الشاعر. لقد أحكمت حلقات المأساة، وأعرت الأيام مخلباً وناباً فلا تهدأ حتى تنشب أظفارها بالأرملة واليتيم وتختم الفاجعة بلا رحمة ولا تلكّؤ. وتخاطب الأم طفلها وهي تشعر بدنو الأجل:

بنيّ، إذا مـا مـتّ مَن لـك راحـم | ومـن بـك يعنى أم لأجلـك يتعـب؟
بنيّ، يتيماً أنت بعـدي مسيّبـاً | تعيش كما عـاش اليتيم المسيّب
بنيّ، لقـد هـان الـردى بعد خـالـد | ولكنـه في يتم نفسك يصعب

وجاءت جاراتها في الصباح فوجدنها ميّتة وطفلها يعول باكياً. وشغلوا بدفنها، فسهوا عن الطفل الذي خرج من الدار يسير على غير هدى حتى غرق في دجلة.

وهذا كاظم الدجيلي وقصيدته «بوليس بغداد»، فهل نستطيع أن ننعتها بالقصة؟ إنها إلى الحكاية أقرب وبالسّرد أوثق نسباً.

يستهلّ الدجيلي قصيدته بوصف مجلس شراب، فيصف الخمرة التي تميت الأحزان والخلاّن الذين اختلسوا لحظات من السعادة والصفاء. وإذا بالشرطة تداهمهم وتلقي بهم في غيابة السجن. وهناك يلتقي الشاعر بأبناء البؤس الذين أناخ عليهم الظلم بكلكله: الفتاة المعسرة التي لم يخنها ضميرها، والمرأة الباكية التي ترضع طفلها في ذلك المكان الموحش، ولكل منهما قصة عذاب وشقاء.

ومن قصص كاظم الدجيلي الشعري قصيدته «مريم وحسّان» وهي تروي قصة «رومية من غيد بغدان» (أي بغداد) زارته قبيل الفجر ترفل في حلة لا كمّ لها ولا ردن وتتهادى في سيرها غنجاً. لكن عصابة شريرة اختطفتها. وجاءها جندي تركي فاتهمها بالخلاعة، لكن رجلاً شهماً استطاع إنقاذها. غير أن الجنود قبضوا عليه وساقوه إلى القاضي الذي أمر بحبسه، وقضى الفتى نحبه في السجن. ورأت مريم جنازته فصعقت وسقطت ميتة هي الأخرى!

وهي قصة متهافتة نظماً ومعنىً وسياقاً؛ ولا شك أنه نظمها في مستهلّ شبابه.

ويلقي إبراهيم منيب الباجه جي دلوه بين الدلاء، فينظم قصيدته «إقبال وإدبار».

فتـاة مـن الأعـراب هيفـاء مُعْصِرُ | يقـال لها في سـالف الـدهـر مَنْوَرُ

ولعلّه استعار كلمة «معصر» من عمر بن أبي ربيعة فأساء فهم معناها، فالمعصر هي التي تقدم بها العمر وليست الغيداء الشابة.

وصف حسنها وحياءها وسحر عينيها وتورّد خديها ولين عطفيها وشقرة شعرها. نشأت في قصر منيف وترعرعت في بحبوحة العزّ في ظل أب نبيل حكيم. وأتى ظالم شرير من الغرب يريد خطف الفتاة، فقتل أباها بخنجره وفرّ هارباً. واستغرقت منور في جزعها وحزنها، فوضعت نهاية لحياتها بأن رمت نفسها من سطح الدار. ثم تبعتها أمها إذ ألقت بنفسها في بئر عند قبر ابنتها!

أما عبد الرحمٰن البناء فروى في «فتاة العرب» قصة رمزية تشير إلى اعتداء الدول الغربية على السلطنة العثمانية الهرمة وتكالبها على تمزيق أشلائها.

قال البناء:

قضت حقبة في عالم الشرق زينبُ	لها المجد أمّ والفخار لها أب

عاشت زينب في صفاء ونعمة تجرّ ذيول الدلال وتمرح في روضة الشباب. تاهت يوماً في الصحراء، فلم تشعر إلا والليل قد أسبل على الكون رواقه الحالك. وأجالت طرفها في حيرة ووجوم، فرأت شبحاً قادماً خالته في بادىء الأمر صديقاً، ولما اقترب منها وجدته شيخاً أجرب من الغرب، دميم الخلقة، أحدب الظهر، أشعث الشعر. هددها بمديته فلم تغنِ عنها ضراعتها، وسلبها ملابسها وحليها. ولما طلع الصبح عادت إلى أهلها، وكانوا في أسى وقلق على مصيرها، فنادت أمها بالويل والثبور، وأهابت بالقوم إلى الثأر لابنتها:

أراكم حيارى ليس فيكم حميّة	على طفلة من أمة الشرق تسلب
فقدتم بهذا الجبن كلّ مزيّة	وعام بكم في لجّة الذلّ مركب
ألا فانهضوا واسعوا وجدّوا وسارعوا	وكرّوا على دفع الأذى وتقرّبوا
حناناً حناناً، أيّها الأمّة التي	لها عند أخذ الثأر عزم مجرّب
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهم	لهم هيبة منها المقادير ترهب؟
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهُمُ:	إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب؟

وفي منظومة أخرى يروي عبد الرحمٰن البنّاء قصة لبنى الفتاة الجميلة التي درجت في حجر أمّها الحنون. وقد ماتت الأم، واقترن الأب بامرأة شرسة خبيثة كرهت لبنى وسامتها الذلّ والعذاب، ثم لم تتورّع أن خنقتها في حندس الليل!

وماذا فعل الأب؟ لام زوجته،

ثم نادى عليّ بالنعش حتى	ندفن الميت في المقابر دفنا
فأتوه بالنعش سرّاً، وفيه	ليس يدري أقصى الأنام وأدنى

وضعــوهـــا بـــالنعش مـن غير غسلٍ ثــم ســـــاروا بها مسير الهوينـــــا
ثمّ آبـــوا بجمعهم بعـــدمـــا قـــدْ تـــركـــوهـــا في ظلمـــة اللحـــد وَسْنَى
ثم قـــالــوا من مكـرهـم حين عـــادوا: ربِّ إنّـــــا إليك نـــــرجع، إنّـــــا

وهي كما نرى قصة متهافتة متفكّكـة العرى، سقيمة اللفظ والسياق والمعنى، لكنّها تهوّل صورة اجتماعيـة فظّة من صـور المجتمع العراقي في العصـور المظلمة، وتـدعو إلى التأمل والاعتبار والإصلاح.

ولا بـدّ لنـا بعد ذلك أن نـذكـر قصيـدة الفتـاة المخدوعـة والشرطي الأثيم لمحمـد الهاشمي. لقد أحبّ صالح الشرطي فتاة طاهرة الذيل، جميلة القسمات (شأن القصص الرائجة في ذلك العهـد). وشجعته أمّها العجوز الماكرة، لكن الفتـاة أوجست منه ريبة وأحسّت أنه يريد اللهو بها لا الزواج منها. قالت الأم:

واضيعتي بعـــد عمـــر قـــد وقعت بـــه على تجاريـب إدبــــــار وإقبــــــال
دعي، ابنتي، هـــذه الأفكـــار واتّئـــدي فـإنّ غشّك لم يخطــــــر على بـــــالي
وهـل سمعـت بـأم تخدع ابنتهــــــا كيما تبيت على حـــــزن وبلبـــــال؟
مــــاذا يـــريبك منـــــه؟ إنـــه لفتى مـــؤدب النفس لا جـــافٍ ولا ســـالِ
زيـن الشمائل يسبي القلب منظـــــره يحدّث العين عـن فضـل وإجــــــلال
لـــو لم يحبّك حبّ الصـدق كـــان لـــه عـــذر بهجـرك هجـر المعـرض القــالي

ولما قضى الأثيم منها وطراً لم يكتفِ بهجرها، بل أخبر بأنها بنت مريبة فأخذت قسراً إلى المباءة العـامة. وشاء الشـاعر بعد ذلك أن يحبـك المأساة من جميع أطرافهـا، فابتلى الفتاة المسكينة بالسلّ وسرعان ما أدركها الموت.

إنّ القـاسم المشترك بين شعراء النهضـة الأدبيـة الحديثـة كان، ولا ريب، الشعـور الإنســـاني والعطف على مجتمع البـائسين. عبّر عن ذلـك الـرصـــافي، وعبّر عن ذلك الزهاوي الذي قال:

يـــا شعـــر أنت، إذا وصفتك مـــوجـزاً شكـــوى الكظيم ونفثـــة المصـــدور

وعبّر عن ذلك محمد الهاشمي إذ قال:

سـألقي نظـــــرة ملئت حنـــــانـــــاً على البـــؤســـاء مـن طَـــرْفٍ خَشُـــوع
يعيش الأغنيــــــاء على رخــــــاءٍ ونحـن نعيش في بــــؤس وجــــوع
تنـــام عيــــونهم بـــالليل، لكـن عيـــون البــــائسين بـــلا هجــــوع

ولقد اضطلع الشعر العربي في عصر النهضة برسالة سامية لحفز الهمم وطلب العلم والإصلاح وتحريـر المرأة واستقلال الوطن. ولا ريب أن القصص المنظومة كـانت جزءاً هادفاً من شعر النهضة الاجتماعية في مطلع القرن العشرين.



عصر
الانحطاط الأخير
والعهد الانتقالي



عبد الغفار الأخرس

ولد في الموصل وعاش في بغداد وتوفي في البصرة، وكان همزة الوصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين. فلقد اتصل بداود باشا آخر ولاة المماليك الذي عزل ونفي في سنة ١٨٣١ ومدح السيد عبد الرحمن النقيب الذي ولي رئاسة الحكومة الوقتية في سنة ١٩٢٠ وتوفي سنة ١٩٢٧.

ذلكم السيد عبد الغفار عبد الواحد وهب المعروف بالأخرس لحبسة كانت في لسانه، ولعله كان أنبه شعراء بغداد ذكراً وأبعدهم صيتاً في عصر الانحطاط. وقد ردّد ذكر عقلة لسانه في شعره فقال من قصيدة يمدح أبا الهدى الصيادي الرفاعي حين زار بغداد سنة ١٨٦٧، وقد اشتهر بعد ذلك بصلته الوثقى بالسلطان عبد الحميد الثاني:

فهو عن مدح سواكم أخرس ... وبكم أفصح حزب الشعرا

وقال يمدح المفتي أبا الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي:

وقد أخرستني من علاك فصاحة ... ألست تراني أخرس النطق أبكما؟

وقال:

هذا لساني يعوقه ثقل ... وذاك عندي من أعظم النوب

فلو تسببت في معالجتي ... لنلت أجراً بذلك السبب

ولد الأخرس في الموصل في نحو سنة ١٨٠٥ وقدم بغداد شاباً ولم يلبث أن ولج محافلها الأدبية واتصل بالوالي داود باشا الذي كان يعطف على العلماء والأدباء. وديوان الأخرس الذي جمعه أحمد عزت باشا الفاروقي وطبعه في الأستانة سنة ١٨٨٧ قد ضمّ مقطوعتين للشاعر قالها في عهد هذا الوالي، أولاهما بيتان قالهما «حينما حبسه المرحوم داود باشا من جهة ما زوّره عن عبد الرحمن باشا والي الموصل وكان ذلك سبباً لاتصاله به»:

أقول للشامت لما بدا ... يكثر بالتعنيف والشين

أليس يكفيني فخاراً وقد ... أصبحت في قيد وزيرين؟

ولا نعلم شيئاً عمّا زوره الأخرس عن والي الموصل فكان سبباً لسجنه في بغداد واتصاله بواليها. أما المقطوعة الثانية فقصتها أنه كان واقفاً بين يدي داود باشا فأعطاه عريضة وأمره بأن يتلوها ويلخصها فارتجل البيتين الآتيين:

فديتك لا ترجو لنطقي تكلما	فإن يراعي عن لساني يترجم
غرقت ببحر من نوالك سيدي	فكيف غريق عائم يتكلم؟

ويروي جامع الديوان في ترجمته للشاعر أن داود باشا أرسله في صباه إلى بعض بلاد الهند ليصلحوا لسانه، فقال له الطبيب: أنا أعالج لسانك بدواء فإما أن ينطلق وإما أن تموت، فقال: لا أبيع كلي ببعضي وقفل راجعاً إلى بغداد. ولا ندري مبلغ صحة هذه الرواية، فظاهرها يدل على الصناعة والتنميق. ولم يكن مألوفاً إرسال المرضى للعلاج في خارج البلاد، وكانت صلة الوالي داود باشا في آخر عهده غير طيبة بالمقيم البريطاني في بغداد وبحكومة الهند. وديوان الأخرس على كل حال خال من أية قصيدة في مدح داود باشا في إبّان ولايته، لكن الشاعر مدحه بقصيدة طويلة بعد عزله أنفذها إليه إلى الأستانة، ومطلعها:

بوادي الغضا للمالكية أربع	سقتها الحيا منّا جفون وأدمع

ويقول منها:

فهل أنت مثلي قد أضرّ بك الهوى	وهل لك قلب لا أبا لك موجع؟
لئن نشرت طي الغرام الذي لها	فقد طويت مني على الوجد أضلع

ومنها:

أراني مقيماً بالعراق على ظما	ولا منهل للظامئين ومرتع
وكيف بورد الماء والماء آجن	يبلّ به هذا الغليل وينقع؟
لعلّ — وما يجدي لعلّ — وربما	غمائم غمّ أطبقت تتقشع
يعود زمان مرّ حلو مذاقه	وشمل أحبّائي كما كان يجمع
فقد كنت لا أعطي الحوادث مقودي	وإني لريب الدهر لا أتوجع
كأني صفاة زادها الدهر قسوة	من الصمّ لا تبلى ولا تتصدع
فسالمت حرب النائبات فلم تزل	تقود زمامي حيث شاءت فأتبع
وكنت إذا طاشت[1] سهام قسيّها	وقتني الردى من صنع (داود) أدرع

ثم يذكر جود الوزير وفضله وبأسه ويقول:

أبا حسن، هل أوبة بعد غيبة	فللبدر في الدنيا مغيب ومطلع
لئن خليت منك البلاد التي خلت	فلم يخل من ذكرى جميلك موضع
ففي كل أرض من أياديك ديمة	وروض إذا ما أجدب الناس ممرع

(١) لعل الكلمة «راشت» فهي أدل على المعنى.

وهو لا يفتأ يذكر داود باشا في شعره بعد أعوام طويلة، فإذا مدح السيد علي النقيب قال:

فبورك من لا زال يورثني الغنى وذكرني أيام داود ذي الأيدي

وإذا ذكر ابتلاءه بحرفة الأدب قال:

وليس لي حرفة سوى أدب جم ونظم القريض والخطب
من بعد داود لا حرمت منى فقد مضت دولة الأدب

لقد مضت دولة الوزير داود باشا لكن دولة الأدب لم تمض، فقد وجد الشاعر الأخرس من بعده حماة ورعاة كالسيد محمود نقيب الأشراف والمفتي أبي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي ومحمد أمين الواعظ والشاعر عبد الباقي العمري والسيد علي النقيب وولديه سلمان وعبد الرحمن وعبد الغني الجميل وابنه محمّد وغيرهم من أشراف بغداد وعلمائها الذين حبوه بعطفهم وجودهم واتخذوه نديماً وزينة لدواوينهم. ومن الغرابة أن صلة الشاعر قد قطعت بالموصل مسقط رأسه أو كادت، فديوانه الضخم لا يحوي سوى قصيدة واحدة يمدح بها رئيس علماء الموصل عبد الله الفاروقي. لكنه وجد بديلاً طيباً في البصرة التي زارها غير مرة ومدح أشرافها ونقباءها واستمتع برفدهم وودهم.

كان الأخرس لطيفاً ظريفاً يضفي مع رفيقه عبد الله الخياط (المتوفى نحو سنة ١٨٩٠) على مجالس بغداد ودواوينها رائعاً من النوادر والفكاهات. وقد اعتبر الشعر تجارة يروج سوقها حيناً ويكسد أحياناً، فقال يخاطب السيد علي نقيب أشراف بغداد:

تاجرت في شعري إليك، وإنما نفق القريض لديك بعد كساده

وقال يمدح ولده السيد عبد الرحمن الكيلاني:

ربحت فيكم تجارة شعري لا رماها في غيركم بالكساد

وقال في مدح عبد الغني جميل:

أتاجر في شعري، وكل تجارة من الشعر إلا في علاك لفي خسر

وقال يرثي عبد الواحد جلبي من أعيان البصرة:

وقد كان فيك الشعر ينفق سوقه لديك ويبتاع الثناء ويشتري

ردّد هذا المعنى كثيراً في شعره لكنه كان مع ذلك عزيز النفس أبيّها، فإذا هنأ الشاعر عبد الباقي العمري بمنصبه الكبير قال:

سواي يروم المال مكترثاً به ويرغب في غير الذي أنا راغب
وإنك أدرى الناس فيما أريده وأعلمهم فيما له أنا طالب

وإذا سمت نفسه إلى المعالي اعتذر فقال:

أسفـــــاً للشعـــــر، لا حـظ لــــه في زمـــان الجهل والقـــوم اللئـــام

وقال:

لـــــــو تنبهـت لها مجتهـــــــداً كيف بـــالحظ إذا مـــا الحظ نـــامــا؟

أو رأى المقـــــدور فينـــا رأيــــه مـــا تكلفت نهوضـــاً وقيـــامـــا

وهو لا يفتأ يندب جور الزمان وظلمه فيقول:

وإن فـــاض دمعي لا أزال أريقـــه فمن كبـــد تصلى ومن لـــوعـــة تصلي

وجـــور زمـــان لـــو أرى فيـه منصفــاً لحاكمتـــــه فيــــه إلى حكـم عـــدل

أمثلي يطـــوف الأرض شرقــاً ومغـــربــاً على أرب يـــرضى من الكثـــر بـــالقلّ؟

وتقـــذفني الأسفـــار في كل وجهـــة فمن مهمـــه وعـــر إلى مهمـــه سهل

وتحرمنـي الأيـــام مـــا أستحقـــه فـــلا كـــانـت الأيـــام إذ ذاك في حلّ

وأرجع أختـــار الإقـــامـــة خـــامــلاً حليف الجهـول الـوغـد والحاسد النـذل

يطـــاولني من لست أرضـــاه مــوطئــاً وأكـــــرم نعلي أن أقيس بـــــه نعلي

وفـــاخـــرني من يحسـب الجهل فخـــره ونـــاظـــرني مـن لم يكن شكلـــه شكلي

فتبـــاً لـــدهـــر تستـــذلّ قـــرومـــه وتستكبر الأنـــــذال فيـــــه وتستعلي

أقـــامـــوا مقـــامي مـن جهلت بـزعمهم فما قـــام في عقـــد هنـــاك ولا حلّ

ولـــو طلبـــوا مثلي لعـــزّ وجـــوده ومـــا وجـــدوا مثلي وأنّـى لهم مثلي؟

إلى مَ أمنّـي نفس حـــــرّ أبيـــــة شـديـد عليهـا في الـدنى مـوقف الـذلّ؟

ويثور وهو الساكن الهادىء فيصرخ قائلاً:

تـركـت لكم، أعيـان بغـــداد، منـزلاً تجور عليـــه النـــائبـــات وتعتـــدي

ففيم مقـــامي عنـدكـم ظـــامىء الحشـــا ولا أنـــا بـــالـــواني ولا بـــالمقيّـــد

وإني عـــزيـــز النفس لـــو تعـرفـــونني ولي بينكـم ذلّ الأسير المصفّـــــــد

ويقول:

وســـاء زمـــان بعـــد أن سرّهـــا بهم فماذا يـلاقي الحرّ في الـزمـن الـوغـد؟

ويقول أيضاً:

نتنفّس عـن وجـــد تـــوقـــد جمره فأجـــرى مسيل الـدمع ينهـلّ قطـــره

وبـــات يعـــاني الهم ليس ببـــارح على قلبـــه إقـــدامـــه ومكـــرّه

تمنّى ومـــا يغني التمنّي مطـــالبـــاً حـــريّ بها لـــولا الـــدنيّـــة دهـــره

ودون أمـــانيـــه عـــوائق جمة يضيق لها في المنـــزل الـــرحب صـــدره

تحمـل أعبـــاء المتـــاعب والتقى على غـــرّة صرف الـــزمـــان وصبره

وأشقى بني هـــذا الـــزمـــان أريبـــه وأتعب مَـن فيـــه من النـــاس حـــرّه

ويقول:

إذا الحرّ ألفى الضيم شرط حياتــــه رأى الــرأي فيهــا أن يمــوت ويقبرا

ولكنه بالرغم من كل ذلك رضخ لجور الدهـر واستسلم لظروف الزمان . ولقد قيل : «إن سيّد نفســه يرث الآلام» فاطمأن شـاعرنا إلى الدعـة والخمول واتخذ ممدوحيـه أسياداً يسترفد رفدهم ويعيش في ذراهم ولا يأنف أن يقول في بعضهم :

أرانــي ـ والخــطــوب إذا ألمــت ـ رجعـــت إلى جميـــل أبي جميــل
كـأن الله وكلــــه بـــــرزقي وحــــولني على نعم الـــوكيـل

ويقول أيضاً :

كفــــاني المهمات عبــــد الغني وذلـك مـن بعض أفضــالــــه
فـإن نلت مــــالاً فمـن جـــاهـــه وإن نلت جــاهـــاً فمـن مــالـــه

إن شعر عبد الغفـار الأخرس مثال لشعر عصر الانحطاط الأدبي ، فهو شعـر جامد جافّ يغلب عليه روح المحاكاة والتقليد ويكاد يخلو من الإشراق والانطلاق والابتكار. ويمكن القول إنّ قيمته قد أصبحت تاريخية أكثر منها أدبية . أما مواضيعه فتقتصر على المديح والتهنئة والرثاء والغزل والبكاء على الطلـول وقد تتناول شيئاً من الوصف والهجاء شابتها المبالغة المستهجنة وشانها الإسراف الممجوج والتكرار المملّ . وهذا أخرسنا يهنىء السيد سلمان بنقابة الأشراف فلا يملك إلا أن يردد قول أبي العتاهية :

أتتـك النقـــــابــــة تسعى إليـك تجرّ مـن التيـــــــه أذيـــــالها
إذا لم تكـن أنـت أهــــــلاً لها مــــن الأنجبين فمــــن ذا لها؟

وهـو يكثر في نسيبـه من وصف المحبوب بـالجؤذر والغزال والمتيم بـالأسد الضرغـام ويتساءل كيف يتسنى للغزال أن يتصيّد الأسد محاكياً في ذلك ابن الفارض الذي قال :

هـل سمعتـم أو رأيتـم أســـــداً صـــاده لحظ مهـــــاة أو ظبـي؟

فإذا عرضت له مناسبة للإبداع ـ وقلما تعرض له ـ لم يستطع التحليق في شعره كما في وصفه للباخرة حين استقلها عائداً من البصرة فلم يقل فيها إلا أبياتاً متهافتة :

قـــد ركبنـــا بمــــركب الــدخـــان وبلغنــــا بـــه أقـــاصي الأمــــاني
حين دارت أفـــلاكــــه واستـــدارت فهي مثـل الأفـــلاك بـــالـــدوران

إلخ . .

ولا يخلو ديوان الأخرس مع ذلك من الشعر الطريف ، فمن ذلك وصفه لسرقة داره قبيل عيد الفطر.

يـــا ليلـــة في آخـــر الشهــــر قـــد جئت بعـــد الصـوم بـــالفطــر
كشف الصبـــاح لنـــا حــــوادثهــا وتكشفـت عن مضمـــــر الغـــدر
أصبحـت منهـــا غير مفتقـــــر أبــــداً إلى حــــرس على وكــــر

ثم يصف منزله الـذي «أخذوا مساحته يومـاً فما أوفى على شبر» ويصف صبيته الغرّ

الوجـوه، السود الحظـوظ الذيـن فرحوا بـالغلائل الحمـر فجرت دمـوعهم لضيـاعها، ويصف حليلته «نظيرة الخنسـاء» التي أسرفت في ندب أشيـائها المسروقة وفقـرها المدقع فيخاطبها قائلاً:

هـل كنت قبـل اليـــوم في سعـــة ... ومـــلابس مـن سنـــدس خضر؟
أو مـــا ذكـــرت العمـــر كيـف مضى؟ ... لا كـــان ذاك العمـــر من عمـــر!

تلك قصيـدة الأخرس في سرقـة داره. ومن الطـرافـة أن نقابلهـا بقصيـدة للشاعـر الفرنسي كليمان مـارو (١٤٩٧ ـ ١٥٤٤) Clément Marot في موضـوع مماثل. يخاطب مارو ملـك فرنسا عـن سرقة داره، فيقول: إن سـوء الحظ لا يأتي وحده بل يجلـب معه مصيبتين أو ثلاث مصـائب. ثم يقول إنـه كان لـه خادم سكّير كـذّاب جشع يجمع في نفسه كلّ الصفات المقيتة. وقد علم أن للشاعر كيساً ضخماً من النقود فابتدر غفلة منه وسرق دراهمه وملابسه، ثم امتطى ظهر حصان سيّده ومضى في الصباح الباكر دون أن يودّعه.

على أثر ذلك مـرض الشاعر مـرضاً شديـداً ألزمه الفـراش ثلاثة أشهـر، ولم يبق منه سوى الفكـر الذي ينـدب وينتحب. ولم ينفعه أطباء الملك الـذين يعودونـه ويتفقّدون صحته. ويمضي إلى القول إنـه يخجل أن يطلب من الملك إعطاءه المال، لكن الدائنين يلحّون عليه مطالبين بدفع ديونه. وأخيراً يعد الملك بأن يفي صلته بمدائحه.

ومن جميل شعر الأخرس في الغزل:

إذا كـان خصمي حـاكمي كيف أصنع ... لمن أشتكي حـــالي لمن أتـــوجع؟
غـرامي غـريمي وهـو لا شك قـاتلي ... وكم ذلّ مـن يهوى غـــرامـــاً ويخضع
أبـــاح دمي بين الـــورى من أحبـــه ... فقلـت وقلبـي بــــــالجوى يتقطـع
دمـــوعي شهـــود أن قلبـي يحبـــه ... وحـق الهوى عن حبـــــه لست أرجـع
ورامـــوا سلـــوّي في هـــواه عـــواذلي ... وحق هـــواه لست أصغـي وأسمع...
وأصبحت كـالمجنـون في حيّ عـامـر ... بليلى ومـن وجـــــدي أهيم وأولـع
فلـــو زارني في النـوم طيف خيـالـه ... لكنـت بطيـف منـــــه أرضـى وأقنـع

وقوله:

إلاّ يـــا فـــؤاداً قـــد أضرّ بـــه النـــوى ... وأشجـــــاه بــــــرق للحبيـب لموع
إذا مـــا دعـــاك الصبر يـــومـــاً عصيته ... وأنـت لما يقضي الغـــــــرام مطيـع
كتمت الهوى دهـــراً فبـــاحـت بسره ... عيـــون وأفشت مـــا كتمت دمـــوع
ويـــا منـــزلاً للّهـــو أبعـــده النـــوى ... أللمـــدنف النـــائي إليك رجـــوع؟
تـــذكـرت فيك العيش، والغصن يـــانع ... وريـق، وشمـل الظـــــاعنين جميـع

وقوله:

زيـد لـومـاً فـزاد في الحبّ وجـدا ... مستهـام تخيّل الغـيّ رشـدا
مـازح الحب مـرة فـأراه ... أن هـزل الغـرام يصبح جـدّا
ورمـى قلبـه بجـذوة نـار ... أوقـدتـه بـلاعج الشـوق وقـدا

وقوله من موشح:

حبـذا مجلسنـا من مجلس ... جـامع كـل غـريب وعجيب
نغـم العـود وشعـر الأخـرس ... ومحبّ مستهـام وحبيـب
يتعـاطـون حيـاة الأنفس ... في بـديع اللفـظ والمعنى الغـريب
بـابليّ السحـر معسـول الجنـى ... أيـن هـذا واشتيـار العسـل؟
وإذا مـرّ نسيـم بيننـا ... قلـت هـذا ويحكـم مـن غـزلي

وقوله وهو في البصرة وقد حنّ إلى بغداد:

فيـا زمن الصبـا، هـل من رجـوع ... ويـا عهـد الشبـاب متى تعـود؟
سـلام الله أحبـابي عليكـم ... إلى بغـداد يحملهـا البريـد
يهيّـج لـوعتي وجـد طـريـف ... لكـم ويشـوقني وجـد تليـد
فهـل أخبرتـم أني بحـال ... يسـاء بها من النـاس الحسـود؟ . . .

وقوله:
مـن معيـد لي أيـامـاً مضت ... كـان فيهـا الغيّ لـو أنصفت رشـدا؟
أهصر الغصن إذا مـا كـان قـدّاً ... وأشمّ الـورد إذ مـا كـان خـدّا
كم أهـاج الشـوق مـن وجـد بها ... كلما جـدده الـذكـر استجـدّا
وجـرى دمعي مـن الـوجـد فما ... يملك الطـرف لجاري الـدمع ردّا . . .

وقوله يتحسر على الشباب:
ذهبت لـذاذات الصبـا وتصرّمت ... أوقـات أنسك في الـزمـان الغابـر
وإذا امـرؤ فقـد الشبـاب فما لـه ... في اللهـو بعـد مشيبـه مـن عـاذر
ولقـد أقـول لطـامـع بـرجـوعهـا ... كيف اقتنـاصـك للغـزال النـافـر؟

وقوله في الشوق والوداع:

تحنّ نيـاق الظـاعنين، ومـا لها ... تحنّ وفي القلـب المشـوق حنين
أبـالنـوق مـا بـالنـازحين من الأسى ... ووجـد بأحشـاء الضلـوع كمين؟
ولما التقينـا للـوداع عشيّـة ... وبـاحت بـأسرار الغـرام عيـون
بـذلـت لها مـن هـذه العين عبرة ... وإني بها لـولا الفـراق ضنين
فـلا القلب لما أزمع القلب صـابـر ... ولا الـدمع من يـوم الفـراق مصـون
فلـولاك مـا قـاسيت، يـا غـايـة المنى ... حـوادث تقسـو مـرة وتلين
إذا كنت لا تـدريـن مـا الشوق بـالحشا ... سليني عـن الأشـواق كيف تكـون
جننت بـذكـر العـامـريـة، والهوى ... جنـون، ولكـن الجنـون فنـون

ومن بديع حكمياته:

نــؤمل أن يطــول بنــا الثــواء ... ونطمـع بــالبقــاء ولا بقــاء
وتغـــرينــا المطــامع بــالأمــاني ... ومــا يجري القضــاء كما نشــاء
تحدثنــا بــآمــال طــوال ... وليس حــديثهــا إلا افتراء
وإن حيــاتنــا الــدنيــا غــرور ... وسعـي بــالتكلف واعتنــاء
نسرّ بها نســاء بــه ونشقى ... ومـن عجـب نسرّ بما نســاء
ونضحـك آمنين، ولــو عقلنــا ... لحقّ لنــا التغــابـن والبكــاء
إلى مَ يصــدّنــا لعب ولهو ... عن العظــة التي فيهــا ارعــواء
وتنــذرنــا المنــون ونحن صمّ ... إذا مــا أسمع الصمّ النــداء
ظهــرنــا للــوجــود وكل شيء ... لــه بــدء لعمــرك وانتهــاء
لئـن ذهبت أوائلنــا ذهــابــاً ... فـأولنــا وآخــرنــا ســواء
نــودّع كـل آونــة حبيبــاً ... يعــزّ على مفــارقــه العــزاء
تسير بــه المنــايــا لا المطــايــا ... إلى حيث السعــادة والشقــاء
ولــو يفــدى فــديـنــاه ولكن ... أسير الموت ليس لــه فــداء

وقوله:

ومــا حيلــة الإنسـان في مـا ينــوبــه ... إذا كــان أمــر الله فيــه مقــدرا
وهبـك اتقيت الــرزء حيث رأيتــه ... فكيف بمـن يأتيك مـن حيث لا تــرى؟
ونحن مـع المقــدور نجــري إلى مــدى ... وليـس لنــا في الأمــر أن نتخيّرا

وقوله:

نــؤمـل في الــدنيــا حيــاة هنيئــة ... ومــا نحن إلا عــرضــة للمصــائب
ونغترّ في بــرق المنى وهــو خلّب ... وهيهــات مـا في الآل مــاء لشــارب
نصــدّق آمــالاً محال بلــوغهــا ... ومن أعجب الأشيــاء تصـديق كـاذب
تسـالمنــا الأيـام والقصــد حــربنــا ... ومــا هي إلا خــدعــة من محارب
ونطمـع أن تبقـى ويبقـى نعيمهــا ... فلـم يبق منهــا غير حسرة خــائب

أولع الأخرس بالخمر حتى شبهه الدكتور محمد مهدي البصير بأبي نواس ولكن أين هو منه؟ فالنواسي مجدّد في عصره، مبتكر في شعره، مفرد في وصفه، أما الأخرس فببغاء تردد معاني الأقدمين وأخيلتهم.

قال الأخرس:

أعنــدك علم بـأن الهمــوم ... على خــاطــر المرء مثـل الجرب
ولا مــن دواء لأدوائهــا ... ولا بــرء منهــا كبنت العنب
وحشر مع الغــانيــات الحســان ... إذا حشر المرء مــع مَــن أحــب
وإني فقير إلى قهــوة ... ومَـن لي بها مثـل ذوب الــذهب

تقـــوّي العظـــام وتشفي السقـــام ويـــذهب عـن شـــاربيهـــا النصب
إذا مـــزجت بـــابـن مـــاء السماء تـــولّـــد منهـــا لآلي الحبب

وقال :

قـد نحـرنـا الـزقّ يـوم العيـد نحـرا وأذبنـــــــا بلجين الكـأس تبرا
وتخيلنـــا الحميّـــا لهبـــا وحسبنـــا أنها بـــالماء تـــورى
قـــال لي الســـاقي وقـــد طـــاف بها : هـي خمر وتـــراهـــا أنـت جمرا
يـــا نـــديماً قـــد سقـــاني كأســـه اسقنيهـــا في الهوى أخـــرى وأخـــرى
إن أحلى العيـش مـــا مـــرّ على روضـــة غنـــاء والكـــاســـات تترى
ويـــد المزن وأزهـــار الـــربى نشرت مـن بعـــــد ذاك الطـيّ نشرا
لا تخف مـن وزرهـــــا في شربها أو تخشى مـع عفـــــو الله وزرا؟
راحــــة الأرواح بـــالـــراح التي لم تـــدع للهمّ في الأحشـــاء ذكـــرا

وقال :

إذا مـــا الشيخ في الكـأس احتســاهـــا غـــدا في الحال أنشـط مـن غـــلام
لئن عللتنـي يـــا صـــاح يـــومـــاً بـأحبـــابي فعللني بجـــام
ومن لي بـــالكـــرى يـــومـــاً ، لعلي أرى طيـف المليحـــة في المنـــام
ومـــا أنسى لها في الـــركب قـــولي وقـــد نظـــرت لأجفـــان دوام
نحـــولي مـــا بخصرك من نحـــول وسقمي مـــا بطـــرفك مـن سقـــام

وقال :

قـــام يجلـــوهـــا وبـــرد الليـل معلم خمرة مـــا اجتمعت يـــومـــاً مع الهم
فهـــــــــي تبر في لجين ذائب أو كنـــــار في فـــؤاد الماء تضرم
نظـم المزج عليهـــــا حببـــــاً رصع اليـــاقـــوت بـــالـــدرّ المنظّم
مـــــرة يجلـــــو بها العيش وفي مثلهـــا قـد يحمـد الـــدهـــر المذمم
مـن رأى يـــا قـــوم منكـم قبلهـــا قبـل هـــــذا أن نـــــوراً يتجسّم
فهـي سرّ منعـت سرّ الضيـــــــا في ضمير الليـــل مـــن أن يتكتـــم
قـــدمت في عصرهـــا حتى لقـــد أوشكـت تخبرنـــا عمّا تقـــدم

وقال :

جـــلا في الكـأس جـــاليـــة الهمـــوم وقـــام يميس بـــالقـــدّ القـــويم
وقـــد فـــرش الـــربيع لنـــا بســـاطـــاً مـن الأزهـــار مختلف الـــرقـــوم
بحيـــــث الأفـــق مغبر الحواشي ووجـــــــه الأرض مخضر الأديـم
هنـــــالـك تطلـع الأقمار فيهـــا شمـــوس الـــراح في الليل البهيـم
كـأن حبـــابها نظمت نجـــومـــاً رجمت بها شيـــاطين الهمـــوم
وقـــد كـــانـت تـــدار عليّ راح تعيـــد الـــروح في الجســـد الـــرميم
أخـــذت بكـأسهـــا وطـــربـت فيهـــا فسلنـــي كيـــف شئـت عـــن النعيـم

بحيث الشمس طالعة مدامي ... وبدر التمّ يومئذٍ نديمي . . .

تلك أيام صفت للشاعر فنعم فيها بالحب والمدام، لكنه علم أنها لا تدوم وأن «الهوى أكبر داع للهوان» في «زمان من حقه أن يذمّا» فقال :

تركت الهوى بعد المشيب لأهله ... وراجعني حلم لسلمي يصارم
وما أنسَ لا أنسى زماناً قضيته ... وعود الصبا ريّان والعيش ناعم

وبث شكواه فقال :

شكوتك ما يلقى فؤادي من الأسى ... وما كل مَن أشكو إليه رحيم
فؤاد شجاه ما شجا كل وامق ... وما هو بعد الراحلين مقيم
أرى صبوة المشتاق دائمة الهوى ... فما بال صبر الصب ليس يدوم؟

ثم استكان وعلل النفس وقال :

هذي هي الدنيا كما تريانها ... حرم اللبيب وفاز فيها الأحمق
فصبرت فيها والخطوب متاحة ... لا ضاجر منها ولا أنا مشفق
حتى رأيت النائبات تقول لي : ... عجباً لصبرك كيف لا يتمزق!

أشرف الشاعر على السبعين من عمره، لكنه لم يترك قرض الشعر ولم يركن إلى العزلة والانزواء ولم يملّ الضرب في الأرض في سبيل بلغة العيش. ولعل آخر قصائده تهنئة السيد سلمان الكيلاني بنقابة الأشراف وورود الفرمان السلطاني بها إليه. وشدّ الرحال إلى البصرة فمرض فيها وأدرك حمامه في عشية عيد الأضحى سنة ١٢٩١هـ ـ الموافق ليوم الأحد ١٧ كانون الثاني ١٨٧٥م .

وقد طبع ديوانه بعد وفاته بعناية أحمد عزت العمري الفاروقي، ونشر عباس العزاوي مجموعة له في شعر عبد الغني جميل وما قاله الأخرس فيه وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٩ .

ولم يكد يمضي على وفاة شاعرنا الأخرس ثلث قرن ونحو ذلك حتى هبت على الشعر العربي نسمات جديدة ولاحت طلائع النهضة الأدبية الحديثة في وادي الرافدين، فكأنما بينه وبين الشعراء الذين تلوه دهر طويل .

إبراهيم الطباطبائي

الشاعر السيد إبراهيم بن حسين بن رضا بن السيد مهدي بحر العلوم الحسني الطباطبائي. اشتهر جدّه العلامة محمد المهدي بن مرتضى المعروف ببحر العلوم (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧)، كما كان أبوه حسين (١٨٠٦ ـ ١٨٨٩) من شعراء عصره. ولد في النجف سنة ١٨٣٢، ودرس على والده الشاعر الفقيه. ونظم الشعر فتفوّق فيه وكان أستاذ عبد المحسن الكاظمي الذي لازمه حين قصد الطباطبائي الكاظمية وأقام فيها سنتين (١٨٨٧ ـ ٨٩). وتتلمذ عليه شعراء آخرون منهم محمد السماوي.

وقد توفي بالنجف سنة ١٩٠١، وطبع ديوانه سنة ١٩١٤ مصدّراً بمقدمة للشيخ علي الشرقي. قال الدكتور محمد مهدي البصير: «امتاز بخلال حميدة وصفات طيبة أهمها... اعتزازه بالعروبة وسرعة خاطره... وقوة حافظته... وخفة طبعه التي خلقت منه صورة مصغّرة لعمر ابن أبي ربيعة من حيث حبه للجمال وافتتانه به وتحدثه عنه...».

تبرّم بحاجته ورقة حاله، وهو الأبيّ المترفع، فقال:

لقد قسم الله رزق الورى ... وقتّر بالرزق أقساميَهْ
فما زلت أشكره حامداً ... وأقتل بالصبر آماليه
وهل نافعي أنني شاعر ... تضرّ وتنفع أشعاريه؟
أديباً وتدركني حرفة الأديب، ... فتعساً لآدابيه!

وشعره قديم الطراز، حسن الديباجة، أكثره في الغزل والفخر والوصف والمدح والرثاء والحكم والمواعظ.

ومن رقيق نظمه قوله:

أخي، هل راجع ليل فينظمنا ... بشطّ دجلة نظم العقد إخوانا؟
بتنا على البدر حيث النجم يرمقنا ... بطرفه في ضمير الليل نُدْمانا
بمجلس مشرف الأطراف مرتفع ... عالٍ تطول به الجلّاس كيوانا
يا حيّ دجلة، والجرفان قد طفحا ... فيضاً يسيل على الرَّضراض عِقْيانا

نسرّح اللحظ في مجرى سبـــائكهـــا | فيصـــدر الطـــرف دون الـــورد حيرانـــا
لـــو كنـت تطلبنـــا ، والملتقـى كثب ، | لما طلبـت حيـــاةً دون لقيـــانـــا
مضت بتلك الليـالي الصـالحات لنـا | نـــوىً شطـون تمدّ البحـــر أشطـانـا
أحبـــابنـــا ، إن تهن فيكـم وسـائلنـــا ، | فحسبنـــا كـلّ شيء بعـــدكم هـــانـــا
هـــلاّ نكـــون كما كنــا وكـــان لنــا ، | فإنما العيـش مـــا كنّـــا ومـــا كـــانـــا

وقيل في ترجمة الطباطبائي أنه كان مكثراً مـن النظم ، ولكنه لم يتخذه يوماً حرفة ولا جعله لنفسه ساعة مهنة يكتسب بها نشباً أو يلتمس بها من العيش سبباً .

كـان سريع الخاطر، حـاضر البـديهة، متفتّح القـريحة ، أكّد علي الشرقي أنـه ربما ارتجل القصيدة التي تتـألف من مئة بيت في مجلس واحـد ، كما فعل بعده تلميـذه عبد المحسن الكاظمي . وقال محمد مهدي البصير أنه كـان قويّ الحفظ ، ، حديد الذاكرة ، أملى شعـره كلـه على ولـده السيد حسن وكـان راسخـاً في ذهنـه . وكـان إلى ذلك رقيق الطبع ، خفيف الروح ، تأسره الصباحة وتستهويه الملاحة .

من شعر إبراهيم الطباطبائي في جبل عامل :

أين السهـــول من جبـــال عـــامل | حكت منـــاط الشهب بـــالكـــواهل
أخـــاشبٍ رواسب شـــوامخٍ | بـــواذخ فـــوارع مـــواثـل
عـــاديـــة ، بـل قبل عـــاد رسخت | معـــاقـــلاً للفضل والفـــواضـل
يحجب قـــرن الشمس مشمخـــرّهـــا | حتى تـــرى الهجير كـــالأصـــائل
إذا النّسيـم استنّ في ربـــــوعهـــا | صحّ سقيـم الـــــروض في الخمائل

وقال يرثي الشاعر السيد حيدر الحلي :

لقـــــد غلـب الجرح أن يستطـبّ ، | فمـن أيـن أدمـل فيـك الجراحـــــا؟
أرح فلغيرك هـــــذا الـــــرواح | بـــرحت ولست أطيـق البراحـــا
أحيـــدر، زأراً بغيـل القـــريـض | عسى أن تغضّ الكـلاب النبـاحـا

وإذا ذكر الشـاعر إبراهيم الطبـاطبائي وآله فـلا بدّ من ذكـر مأساة غراميـة سجّلها التاريخ إلى جـانب قصص المجنون وليلى وروميـو وجولييت وغيرهم من المحبّين . روى هذه المأساة محمد مهدي البصير ورواها قبله وبعده كثير من الأدباء .

كان الفتـى الشاعر الـوسيم عبّـاس علي النجفي (١٨٢٦ ـ ١٨٦٠) تلميـذاً للسيد حسين الطباطبائي (والد إبراهيم) فأحبّ ابنته وقال فيها قصيدته الشهيرة :

عِـــدِيني وامطلي وعــــدي ، عِـــدِيني | وديـنـي بـــالصبـــابـــة فهي دينـي

ومُنّي قبل بينك بالأماني ... فإنّ منيّتي في أنْ تبيني

ومنها:

صِلي دَنِفاً بحبّك أوقفته ... نواكِ على شفا جرف المَنون

أما لنواكُمُ أمد فيقضى ... إذا لم تُقْضَ عندكُمُ ديوني؟

وكنت أظن أنّ لكم وفاءً، ... لقد خابت، لعمر أبي، ظنوني

هبوني أنّ لي ذنباً، وما لي ... سوى كلفي بكم ذنب، هبوني

ألست بكم أكابر كلّ هولٍ ... وأحمل في هواكم كلّ هُونِ؟

أصون هواكم، والدمع يهمي ... دماً، فيبوح بالسرّ المصون

يميناً لا سلوتُهُم يميناً ... وشلّت إن سلوتهُمُ يميني،

إذا ما الليل جنّ بكيتُ شجواً ... وطارحت الحمائم في الغصون

ولو أبقت لي الزفرات صوتاً ... لأسكتُّ السّواجع بالحنين...

وقيل إن الأستاذ ارتضى بعبّاس صهراً، لكن أبناءه الأربعة ـ ومنهم إبراهيم ـ أنفوا من هذه المصاهرة فأهانوا الشاعر العاشق وضربوه ضرباً مبرّحاً.

وتوفّي عباس شاباً في الرابعة والثلاثين من عمره.

شهاب الدين المليسي

الشاعر شهاب الدين العلوي المليسي المعروف بالسيد شهاب الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٨١٥. وسافر في شبابه إلى بغداد والبصرة، وقضى فيهما نحواً من أربعين سنة ثم عاد إلى مسقط رأسه.

نظم الشعر المهلهل في الأغراض القديمة كالمديح والرثاء وما ماثلهما. وقد ذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من «تاريخ الأدب العربي في العراق»، فقال: إن له قصائد كثيرة هي شعر مناسبات، منها في الأستاذين أحمد شاكر الألوسي ونعمان خير الدين الألوسي، وله أبيات في تقريظ جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق. وكانت بينه وبين ناصيف اليازجي مراسلات، وله قصائد في رثاء الشيخ أحمد نور الأنصاري قاضي البصرة والسيد سلمان النقيب وغيرهما. وقد مدح والي بغداد محمد نامق باشا الكبير.

وتوفي بالموصل سنة ١٩٠٧ (وقيل ١٩٠٤).

من شعره: قال يؤرخ تعيين عبد الباقي الألوسي قاضياً لكركوك (١٨٧٧):

هو عبد الباقي الذي ببقاه ... قد رمى بالفناء أهل النفاق

قد أتى مسعداً وجاء معيداً ... أملي للإثمار والإيراق

كلّ وقت إليه شوقي جديد ... والليالي قد أخلفت إطلاقي

علقت نفسه بكسب المعالي ... والمعالي من أنفس الأعلاق

وارث عن أبي الثناء أبيه ... في المباني روح المعاني الدقاق

قد تحلّت به الشريعة جيداً ... وتحلّى الأعناق بالأطواق

لقيت شهر زور للزور منه ... ماحياً ماحقاً شديد المحاق . . .

إلخ . . .

وقال السيد شهاب الدين من قصيدة له في تقريظ كتاب مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي :

حديقة أثمرت أوراقها حكماً ... لنا شماريخها امتدّت وقد يَنَعَتْ

فمن يشأ يتفكّهْ في مناقبها ... ومن يشأ يتفقّه بالّذي شَرَعَتْ

طالعْ تقابِلْكَ مرآة الزمان بها ... وانظر إلى صورة الدنيا وقد نصعت

كم أودعت نبذاً للسّمع قد عَذُبَتْ ... ورْداً ومن قلب ذاك الصدر قد نبعت

محاضرات بها الحضّار راغبة ... غابت عن الراغب المفضال وامتنعت

إلخ . . .

الشيخ حمّادي آل نوح

الشاعر محمد بن سلمان بن نوح الغريبي الكعبي المعروف باسم الشيخ حمّادي نوح ، ولد في الحلة في سنة ١٨٢٥ وتأدب فيها وقرض الشعر. كان وثيق الصلة بآل قزوين كبير العلاقة بالإمام السيد حسن الشيرازي الذي ترك النجف في نحو سنة ١٨٣٥ ليقيم في سامرّاء .

اشتهر بمدائحه وتهانئه ومراثيه ، فكان يقصد المحمّرة ليمدح شيوخها ويفوز بعطاياهم ، كما كان يمدح آل القزويني الذين يكرمونه ويصلونه وسواهم من رجال عصره .

لكنه عرف بنسكه وتقاه وشعره الصوفي الذي يسبّح الذات الإلهية ويمجّدها حتى دعاه الدكتور محمد مهدي البصير «خليفة ابن الفارض» . وقال إن الشيخ حمادي كان جليل القدر، رفيع المنزلة ، محترماً عند أدباء عصره ، ولم يكن يحفل بشعر أحد عدا السيد

حيدر الحلي . وكان متمكناً من اللغة ، سئل عن القـاموس فأشار إلى صدره وقال : هذا هو القاموس . وتوفي في الحلة في آذار ١٩٠٧ .

قـال البصير إن شعره يكثـر فيـه الغـريب ويغلب عليه الغمـوض . ومن شعـره في تقديس الله :

شمّـــر الــــوهم أن ينــال ثنـــاكــا	فخبــا دون شـــارقـــات عـــلاكــا
خـرق الغيب فـالتـوى الـوهم صـالٍ	قبس النـــور من سنـــاء بهاكـــا . . .
بـك ، يــــا حيرة البصـــائر، ضلّـت	فِكَـــــرٌ منك حـــاولت إدراكـــا
حـــاولت كنـــه ذي الجلال ، ولكـن	عبرت في دجى الضـــلال عـــداكــا

إلخ . . .

محمد سعيد الإسكافي

الشاعر محمـد سعيد الإسكافي النجفي المعروف بالإسكافي وهـو الشيخ محمد سعيد ابن محمود سعيد نـائب كليدار الروضة الحيدريـة ، ولد في النجف في ١٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ . ودرس العلوم الدينية والعربية ، وأخـذ الأدب عن خاله الشاعر الشهير عبّاس الملاّ علي المتوفى سنة ١٨٦٠ صاحب القصيدة المشهورة :

عـــديني وامطلي وعـــدي ، عـــديني	وديني بـــالصبـــابـــة فهي ديني

نشأ شاعراً فكـانت له مساجلات أدبية مع أدباء عصره ، ومـدح آل بحر العلوم وآل كاشف الغطاء وغيرهم كما مدح والي بغداد سرّي بـاشا (١٨٩٠ ـ ٩١) . وقد ترجم لهذا الشاعر ونشر نماذج من شعره محمد علي اليعقوبي وعلي الخاقاني وسلمان هادي الطعمة ، وذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق .

هاجـر إلى كربلاء في عقـد الثمانين من القرن التاسع عشر وأدركـه الحمام فيها في ١٤ آب ١٩٠١ .

نظم الشيخ محمد سعيد الشعر بالعربية والفارسية . ومن شعره في الغزل :

فـؤادي لـــوصل الغـــانيـــات مشـوق	فللشـــــوق عنـــدي زفـــرة وشهيق
بنفسي من البيـض الحســـان خـــريـــدة	فـــــؤادي بها دون الحســـان علـــوق
إلى مثلهـــا يـــرنـــو الحليم صبـــابـــة	إذا مـــا انثنت كـــالغصـن وهـــو رشيق

وقال :

تـــذكـرت عهـداً بـــالحمى راق لي دهـــراً	فهــاجت تبـاريح الغــرام لي الـذكـرى

وأومض من وادي الغضـا لمع بـارق — فأذكى لنيران الغضـا في الحشـا جمرا
فيـا حبـذا تلك المغـاني، وإن نأت، — ويـا مـا أحلى العيش فيهـا وإن مـرّا
فيـا طـالما بـالأنـس كـانت أواهـلاً — وإن هي أمست بعـد مـوحشـة قفـرا

الشيخ محمد حسن كبّة

التـاجر الـوجيه والشـاعـر الفقيه الشيخ محمـد حسن من آل كبّـة من بيوت بغـداد القديمة التي تنتسب إلى ربيعة، وهو بيت تجارة وأدب ورعاية للشعر والإحسان. ومحمد حسن ابن محمد صالح بن مصطفى بن درويش علي بن جعفر بن علي بن معروف، ولد في الكـاظميـة في حـزيـران ١٨٥٣، ونشأ في بغـداد نشـأة أبنـاء الأشراف. وعمل في التجارة، فلما بلغ التاسعـة والعشرين من عمره، انقطع إلى العلم والأدب. وتتلمذ على علماء النجف والكـاظمية، ثم رحل إلى سـامـراء سنة ١٨٨٩، ودرس على فقيـه عصره محمد حسن الشيرازي الحسني (المتوفّى سنة ١٨٩٤). ولازم بعد ذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، ونال الإجازة في علوم الدين. ووضع مصنفات كثيرة، طبع منها بعد وفاته: الأحكام الشرعية في المواريث الجعفرية (١٩٣١) إلخ.

وتوفي في سامراء في ٢١ حزيران ١٩١٨.

نظم محمد حسن كبّة الشعر، وكانت لـه مطارحات أدبية مع رجال عصره، ولا سيّما محمد سعيد الحبوبي، نشر معظمها في «العقد المفصّل» الذي ألفه السيد حيدر الحسيني الحلي المتوفى سنة ١٨٨٧ في مناقب آل كبّة وطبع ببغـداد سنة ١٩١٣ ـ ١٤. وقد وصفه الدكتور محمد مهدي البصير فقـال إنه كان كريم الطبع، سمح الكفّ، أريحي الروح، حاضر البـديهة، رقيق الخيال، مشبوب الحسّ، محبـاً للأدب وأهله حبـاً جمّاً. وقال إن شعره في جملته يجمع بين الرقة والمتانة ونقاء الديباجة والجزالة.

وهو والد الشيخ محمد مهدي كبّة رئيس حزب الاستقلال.

من شعره في الغزل:

نحن قـوم إذا نظـرنـا صبـونـا — وإذا مـا سـلا الـورى مـا سلـونـا
فتنتنـا بحسنهـا وجنـات — ككـؤوس الطّلى صفـاءً ولـونـا
وجفـون رشقننـا بنبـال — نحن منهـا، لـولا الهوى، مـا دنـونـا

وقال أيضاً:

عليك سـلام الله مـا ذرّ شـارق — ومـا أنّ مشتـاق ومـا حـنّ وامق
ومـا تيّمتني في هـواك صبـابـة — ومـا علقت بـالقلب منك عـلائق
ومـا سجعت في أثل سَلْع حمـامـة — كأني وإيـاهـا مشـوق وشـائق

وقال:

ضـــاع قلـب المولّـــه المفتـــون ... بـــربى الكـــرخ لا ربى جيرون
فـــانشـــداه بين الظعـــون فإني ... خلتـــه ســـار بين تلك الظعـــون
يـا غـزالاً تـاقت لـه النفس شـوقـاً ... لا لغيـــدٍ من الظبـــاء العِينِ
أنت ليـــلاي والـــرصـــافـة نجـدي ... وأنـــا في هـــواك كـــالمجنـــون

وقال أيضاً:

الصبر غـــار وأنجـــد الـــدمعُ ... من نـــاظـري فـاعشــوشب الـربع
والقلـب حيـث نـأى الخليـط نـأى ... رفقـــاً بـــه، فلـــه الهوى طبع
-تـّام تـرشـق بـاللحـاظ حَشـاً ... مـــا مسّهـــا لـــولا النّـــوى صـدع

وقال من قصيدة في رثاء والده:

أأُبَيَّ، كيـف تـــذوق عيني لحظـــة ... نـــومـــاً وكيف من المدامع تجمـــد
أم كيـف قلبي لا يـــذوب ومهجتي ... كمـــداً بنـــار الحزن لا تتـــوقّـــد
وظعنـت عـن غـضّ النسيـم إلى البلى، ... يـــا ليت لـــو أنّي مكـــانك أُلْحَدُ!
وتـــركـت مَن تحنـــو عليـــه رقّـــة ... أسفـــاً يحنّ إلى لقـــاك وينشـــد

ومن شعره الغزليّ:

كم ليلـــةٍ من ليـــالي الشـــوق مقمـــرة ... هبّت بها نسمات الشّـــوق والشغـف
سهـــرتها محصيـــاً منهـــا كـــواكبهـــا ... مـــراعيـاً بـدرهـا مـن شـدّة الـدنف
فمـــذ أبت مقلتي إلاّ انسكـــاب دمٍ ... وأشرفـت كبـــدي الحرّى على التلـف،
قـال النـديم: على مَ الـوجـد؟ قلت لـه: ... نعم، تـذكّـرت مَن قـد حلّ بـالنجف
فقطّعت قلبي الـــذكـــرى وبـــرّح بي ... شـــوق ملحّ وتـــوق أوهنـــا كتفي

محمد سعيد الحبّوبي

محمد سعيد الحبوبي من كبار شعراء العصر الأخير ولد في النجف في ١٩ نيسان ١٨٥٠ وتوفي بمدينة الناصرية وهو على رأس متطوعة العشائر لصدّ الزحف البريطاني في ١٥ حزيران ١٩١٥. وقد أوردت ترجمته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» المطبوع في بغداد سنة ١٩٧١.

طبع ديوانه الكامل بعناية وزارة الثقافة والإعلام في بغداد سنة ١٩٨٠ وتحقيق ابن أخيه عبد الغفار الحبوبي. وهو محمد سعيد بن محمود بن قاسم بن كاظم بن حسين بن

حمزة بن مصطفى الـذي ينتهي نسبـه إلى الحسن السبط بن الإمـام علي بن أبي طـالـب. ومصطفى أول مَن تلقب «حبّوبي». وأصل الأسرة من الحجاز نزح جدها حميضة بن أبي نمي الأول إلى العراق سنة ١٣١٨م، ثم استوطنت النجف منذ عهد بعيد.

كان محمود أبو الشاعر مزارعاً يمتلك أراضي بالقرب من الكوفة والمسيّب، ثم ذهب إلى حائل يمارس التجـارة مع بعض أقاربه. وقـد التحق محمد سعيد بأبيـه في حائل من أعمال نجد، وكـانت تـابعة لحكم أمـراء آل رشيد، وظل فيهـا ثلاث سنـوات وعاد إلى النجف سنة ١٨٦٧. وانصرف إلى الشعـر، حضر المجالس الأدبية فجال فيهـا وصال. وكان يزور بغداد فيتصل بصديقه محمد حسن كبّة ويحضر ندوات الأدب. ثم انقطع إلى الفقـه وعلوم الـدين، فدرس على علماء كثيرين منهم الشيـوخ محمد حسين الكـاظمي ومحمد الشربياني ورضا الهمداني ومـوسى شرارة ومهدي الحكيم ومحمد طه نجف. وقال جامع ديوانه عبد الغفار الحبوبي إنه زامل أيام الدراسة السيد جمال الدين الأفغاني الذي مكث في النجف أربع سنوات يدرس الفلسفة والتصوّف.

ثم ترك نظم الشعـر وانصرف عنه انصرافاً كلياً إثـر حادثة حدثت لـه مع الملاّ كاظم الخراساني (الآخوند). قال جعفر الخليلي إنه ناقش الملا في مسألة تتعلق بعلم الأصول، وألح في المناقشة حتى قال له الخراساني: إنك رجل شاعر، فما أنت والمسائل الأصولية؟ ومنذ ذلك اليوم قرّر الحبوبي تطليق الشعر لينصرف إلى الفقه.

وقد قال الدكتور إبراهيم علي أبـو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر» وهو يتحدّث عن مصطفى لطفي المنفلـوطي الذي درس في ا لأزهر ثم انقطع إلى الأدب، إن علماء الأزهر كـان فيهم مَن يعتقد أن الأديب لا يكون عالماً، وربما كـانوا يرمون الشيخ محمد عبده بذلك أيضاً لغلبة البيان على منطقه وجريان الأدب في دمه.

ولما دخلت تـركيـة الحرب واحتلّ الإنكليـز البصرة في تشرين الثـاني ١٩١٤، دعـا الحبوبي إلى الجهـاد في صفوف الترك. وخـرج من النجف يتبعـه المجاهدون فـذهب إلى سـاحـة الحرب في الشعيبـة. لكن القـائد سليمان عسكري بـك اندحـر أمـام القـوات البريطانية وانتحر، فقصد الحبوبي الناصرية واشتدّ عليه المرض فتوفي بها.

رثاه الشيخ جواد الشبيبي فقال:

فقيـــــد المسلمين غـــــداة أودى ... حسبـت الـــــدين بينهـم فقيــــــدا

وقال علي الشرقي:

حماة الحمى قـــد شيّعـــوك إلى الثغـــر ... فبـــالـــرغـم أن يستقبلـــوك إلى القبر
وشـــاؤوك لـــلأوطـــان ظهـــراً ممنعـــاً ... ومـــا شعـــروا إلاّ بقـاصمـــة الظهـــر

وممن رثـاه أيضـاً من الشعـراء جـواد البلاغـي وعبد الحسين الحويـزي ومحمـد رضـا الشبيبي ومحمد مهدي البصير.

شعر الحبوبي :

من رقيق شعره :

مـــــا لقلبي تهزّه الأشـــــواق؟ خبّرينـــــا : أهكـــذا العشّـــاق؟
كـلّ يـــوم لنـــا فـــؤاد مـــذاب ودمـــــوع على الطلـــول تُـــراق
عجبـاً كيـف تـدّعي الـورْق وجـدي ولـــدمعي بجيـــدهـــا أطـــواق؟
كم لنـــا بـــالحمى معـــاهـــد أنس والصّبـــا يـــانع الجنى رقـــراق . . .
فـــارحمي ، يـــا أُمَيْمُ ، لـــوعـــة صبّ شفّـــه الـــوجـــد بعـــدكم والفـــراق
كـــاد يقضي من الصبـــابـــة لـــولا أن تحامـــــاه في الـــوداع العنـــاق

وصف شاعرنا الخمرة وقال فيها القصائد والموشحات ولم يخرج في خمرياته عن معاني الأولين. فالخمرة لديـه بيضاء كالشمس أو حمراء كالياقوت ، شـذا أنفاسها يعطر الجوّ، عتقها القسّ في ديره سنين طوالاً فأدركت عهد الملوك الغابرين وشهدت دولهم دولة بعد دولـة . والخمرة تلطف الطبـاع وتبهج وتخدر الأحـاسيس ، وهي علاج للنفس الحزينـة وتردّ الروح إلى الجسـوم الراقدة في القبور. وقد قـال عبد الغفار الحبوبي أن عمّـه لم يعاقر الخمرة ولم تسلب لبّـه ، وقد وصفها عن مخيّلة خـلاقة وحسّ فني فجاءت كأنها منتـزعة من الواقع . وقد قال الحبوبي نفسه :

لا تخل ، ويـــكَ ، ومـــن يسمـــع يَخَلْ أنني بـــالـــراح مشغـــوف الفـــؤاد
أو بمهضـــوم الحشـــا ســـاهـي المقل أخجلت قـــامتـــه السّمـــر الصّعـــاد
أو بـــــربــــــات خـــــدور وكلـل يتفنَّـن بقـــــــرب وبعـــــــاد
إنّ لي مـن شرفي بُـــــــــرْداً ضفـى هـــــــو من دون الهوى مـــــــرتهني
غير أني رمـت نهج الظُّـــــــرَفـــــــا : عفـــــــــة النفـس وفسـق الألسن

والحقيقة أن الحبوبي قرأ شعر أبي نواس وصحبـه فتمثّله وقلد معانيه أحسن تقليد ولم يخرج في خمريـاته على جمالها الفني وتـركيبها المتين بـرأي جديـد أو فكرة طـريفة . وهـو يذهب أحياناً مذهب الصوفية وينهج سبيل ابن الفارض فيقول :

وقـــد شفّـت فما ظهـــرت لـــراءٍ فكـــان خفـــاؤهـــا فـــرط الظهـــور

ويقول :

وانْعَتَنْهـــــا ويكَ في ألقـــــابها فهـــي رَوْح وهـــي رُوح وهـــي راح

وذكر ناشر الديوان أن عمه قلما تطرق إلى الشعر الديني أو القومي ، فخلا شعره من المدائح النبوية والمراثي الحسينية خلافاً لرجال عصره ومصره .

جواد الشبيبي

شاعر يعدّ في الطبقة الأولى من شعراء المدرسة القديمة في العراق، وهو والد الشعراء محمد رضا ومحمد باقر ومحمد حسين ورئيس غرفة تجارة بغداد محمد جعفر الشبيبي.

وهو محمد جواد بن محمد بن شبيب بن راضي بن إبراهيم بن صقر، ولد في بغداد في ٧ كانون الثاني ١٨٦٥، وكان أبوه الشيخ محمد مقيماً بها فراراً من سطوة بعض شيوخ المنتفق. ولم تمض على ولادته أيام قليلة حتى توفي والده، فأخذته أمّه إلى أبيها الشيخ صادق أطيمش في الشطرة، ونشأ الطفل اليتيم في رعايته.

ولما شبّ عن الطوق قصد النجف سنة ١٨٨٠ فدرس على علمائها اللغة والأدب وعلوم الدين. وكان من أساتذته السيد عبد الكريم الأعرجي والشيخ أحمد المشهدي والسيد مهدي الحكيم ومحمد الطباطبائي، وتخرّج في الشعر على الشيخ محسن الخضري، والسيد محمد سعيد الحبّوبي.

وانصرف جواد الشبيبي إلى الشعر والأدب فبرز في النظم والترسّل. وكانت له مساجلات مع أبناء جيله كالسيد جعفر كمال الدين الحلي (١٨٦١ ــ ١٨٩٨) وعبد الحسين الجواهري وهادي كاشف الغطاء وعبد الكريم الجزائري. واستعان به المشير أحمد فيضي باشا وكيل والي بغداد (١٩٠٢ ـ ٠٤)، عند مروره بالنجف على رأس حملة عسكرية، في تحرير رسائل إلى شيوخ القبائل تحذيراً لهم من التمرّد والعصيان وترغيباً في الطاعة والإخلاد إلى السكينة.

وكان على وقاره حاضر البديهة، حلو الفكاهة، لطيف الدعابة. قال جعفر الخليلي: «وكان الشيخ جواد الشبيبي هو المجلّي في الغالب بشعره ونثره ونوادره وسرعة خاطره. وقد قيل أن نوادره الأدبية وتحفه الفنية من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة لو تصدّى أحد لجمعها». ثم قال: «. . . كان العلماء كثيراً ما يتخذون من قلمه ترجماناً للاعراب عن رغباتهم ومقترحاتهم، فيبعثون بها للباب العالي باسطنبول، أو يخاطبون بها الولاة ببغداد. وكثيراً ما يقصده أرباب الحاجة ممّن يريدون أن يسجلوا وصيّتهم بعد مماتهم، أو يريدون وقف أملاكهم أو تأسيس شركة لهم أو إجراء بيع أو شراء على الوجه الشرعيّ فيما بينهم، فيدبّج لهم بإنشائه وخطه وثيقة حسبها من القيمة الشرعية والعرفية أن يقال إنها من وضع الشيخ جواد الشبيبي. فقد عرف ببراعة إنشائه كما عرف بحسن خطه، ليس في النجف فحسب وإنما في جميع الأوساط الأدبية في العراق. وكثيراً ما كان ينظم الشعر الجيّد ويعطيه لمن ينتحله لنفسه لغرض من الأغراض».

وقد أقام جواد الشبيبي متنقلاً بين النجف وبغداد. وامتدّ به العمر، وسما أنجاله في عالم الشعر والأدب وتقلدوا المراكز الرفيعة في السياسة والتجارة والمال. وتوفي ببغداد في أوّل آذار ١٩٤٤.

مؤلفاته وشعره:

ترك تآليف خطية لم يهيّأ لها الطبع، منها ديوان شعره الذي جمعه محمود الحبّوبي، ومجموعة مراسلاته وقد سماها «الروض الممطور بالدرّ المنثور». وله كتاب في تراجم أدباء العصر، وآخر في حياة الشيخ خزعل آل الشيخ جابر أمير المحمّرة، ونبذة في الأصول إلخ.

وشعره رصين الديباجة، واضح الأسلوب يشتمل على المعاني القديمة والأغراض الاجتماعية والإخوانية والوطنية. فمن مدحه للسيد حسين القزويني:

أمنيع أركـــــان الفتــــــوّه ... وربيـــــــــع روّاد المروّه
وابن الـــزعــامــة والكــرامــة ... والإمــــامـــة والنبـــوّه
ومـن الإلـــــه بجــــــدّه ... وأبيـــــه في القـــــرآن نَــــوَّهْ
قـــــد، والنبـــيّ محمّـــــد، ... أصبحـت لـــلإســلام قـــدوه

ومن رثائه للسيد المومأ إليه أيضاً:

أصغت لـرعـدٍ أوقــر السّمع هــائلـه ... فقلت: نعيّ في السماء زلازلـــــه
سما صـــوتـــه حتى إذا استـــوعب السّما ... تحدّر في الأرض العـــريضـــة وابلـــه

ومن شعره يخاطب السيدة أم كلثوم:

قمـــريَّـــة الـــدّوح يـــا ذات الترانيم ... مع النســـور على ورد الـــردى حـــومي
سيري مع الجحفـل الجرار خـــافقـــة ... وســـابقي فـــوقـــه سرب القشـــاعيم
ونـــاوحي الأمـــة الثكلى فقـــد رزئت ... بـــلادهـــا بـــالمطـــاعين المطـــاعيم
مـــا في العـــراق اذا استقـــريتِ بقعتـــه، ... أذن تصيـــخ لأفكــــار الأنــــاغيم

وقال شاكياً متألماً لحال أبناء الشعب:

يـا مـاطل الـوعـد، مـا هٰـذي الأسـاطير؟ ... زادت على السّمع هـــاتيك المعـــاذيـــر
العـــدل منـك سمعنـــاه ولم نـــره ... والجور منـك أمـــام العين منظـــور
إن قلتَ: عصري عصر النـــور مفتخـــراً ... فظلمـــة الظلم مـــا في فجـــرهـــا نـــور
وهل يفيـــد جمال الـــوجـــه نـــاظـــره، ... والبرقع الـــدكن فيـــه الحسن مستـــور؟

حتى يقول:

يـا حـــارث الأرض والسّـاقي وبـــاذرهـــا، ... قتّر إذا نفـــع المحـــــــروم تقتير
إذا أتـــاك رجـــال الخرص فَـــالْقَهُمُ ... بطلعـــة بـــرقـت منهـــا الأســـاريـــر
إن بـــاغتـــوك بنـــار شبّهـــا غضب ... وسعّـــرتها من العسف الأعـــاصير،

فاحفظ بقايا حبوب منهُمُ سقطت، فللبقايا ببغدادٍ مناقير

طارت من الغرب، والأطماع أجنحة، والغاية الشرق، واللّفظ الدّنانير

وقال في نهضة العرب:

يا عربُ، أين جيادكم، وهي التي لم يثنها في الروع جذب عنان

الناشرات من السبيب مراوحاً يخفقن فوق مناكب الفرسان

سل عن جوانبها: إلى كم غرّبت ما بين ذي قار إلى حلوان؟

أما نثره فناصع الديباجة، واضح البيان، قديم الأسلوب، كثيراً ما يزينه بالسجع. وقد نقل له عبد المحسن شلاش نصّ رسالة حررها باسم المشير أحمد فيضي باشا، قال منها:

«ليعلم مَن وعت أذنه من قبائل جزيرة العرب وعموم أهل القرى والطّنب، أن مرهب الدول، خلف السلاطين الأول، ناشر العدل في الأرض، معدن البسط والقبض، صان الله تعالى ببركة وجوده بيضة الإسلام من الصدع، وجعلكم كسائر رعاياه ملقين له بالطاعة والسّمع. أمرنا بالصفح عن الماضي، وسرنا نحوكم لننشىء الإصلاح بينكم والتراضي، ونخمد نيران الفتن، وننهج بكم أوضح سنن، فوطأنا، ولله الحمد، أرضاً ما لسوى المسلمين بها وطأة قدم، ولا لغير الموحّدين يخفق في بقاعها علم. ورأينا أن نقرع أبواب مسامعكم بخطاب الإرشاد، ونجمع شملكم، أيها المسلمون، على الصفاء والاتحاد. ما جئناكم إلا لنختبر صفاتكم ونحقن دماءكم ونحكم بالقرآن الشريف والسنّة النبويّة ونؤلف بين قلوبكم، ومن العدل التأليف بين الرعيّة.

دعوا الشحناء والبغضاء واجتنبوا المغازي وسفك الدماء، فأنتم ملّة واحدة، والمسلمون أخوة سواء. وادخلوا حقيقة في مجاز الإيفاء لتغمركم الحاقة في الرّضى من بعد تلك الواقعة. ولا تصيروا أغماد سيوفكم هواديكم فتضعفون، وفوق الضعف تشمتون أعاديكم الكافرين...».

من شعر الشيخ جواد الشبيبي:

قال يتألم من داء الشيخوخة:

طبيبي، ما عرفت عياء دائي وأنت معالج الداء العياء

وبي ألم يؤرّقني، فتعى يميني فيه عن جذب الرداء

وحمّى خالطت عرقاً بجسمي فباتا مزمعين على اصطلائي

وكنت خلقت من ماء وطينٍ فها أنا صرت من نار وماء

مللت العائدين وقد أمالوا إليّ رقاب إخوان الصفاء

وقـــالـــوا: إنّ صحّتـــه تـــرقّت،
فقلتُ: أرى انحطـــاطي بـــارتقـــائي
وقـــالـــوا: قـــد شفيـت، فقلت: كفّــوا
فمـن عللي تعـــاليـل الشفـــــاء
أرى شبحــــــاً يسير أمـــــام عينـي
لغــــايتـــــه فـأحسبــــه ورائي
وآخـــــر عـن مظـــــالمه تنحّـى
وأكـــــره في مغـــادرة الشقـــاء...

وقال الشيخ جواد:

ألا قتل الإنسـان، مـاذا يـريـده
وقـــد جـــاز حـــدّ المسرفين، أمـــا يكفي؟
أبى أن يسـاوي نـوعـه في شـؤونـه،
فجــــــار على صنف ورقّ على صنف
وعـالج، لا عن حكمـة، ضعف نفسـه.
متى عـولج الضعـف المبرّح بـالضعف؟

وقال:

عمّ السـؤال، فـلات حينَ سـؤال
أو مـا كفتك قـرائن الأحـوال؟
انظـر بتـاريخ الـزمـان الحالي
نظـرات عينك في الـزمـان الخالي
تجدِ الظـروف هي الظـروف، وإنّما
تتفـاوت النظـرات بـالأجيـال
يتخـالف الإنسـان في أخـلاقـه
إمّـا اغتـدى متـوافق الأشكـال
والملح والعـذب الفـرات كـلاهما
مـاء ولا كـالبـارد السّلسـال
والـدّوح نبت والثمار منـاسب
والكـرم أكـرم من عـروق الضّـال
والأرض تلك الأرض مـا إن بـدّلت
بقـوارع الأرجـاف والـزّلـزال...
واحسرتـا خلت البـلاد، فهل بها
من شـاغـل هـذا الفـراغ الخالي؟
تـركـوه مغـزى يستهـان، وإنهم،
لـو يشعـرون، ربـائق الأنفـال
لا يفلتـون بـراءةً من شعبهـم،
والمري مـن دمـه دم القِيفَـال[1]
جهل النّصيح عليَّ أثقل مـوضعـاً
من غلظـة اللـوّام والعـذّال
رمق السّراب فجـرّدت أثـوابـه
عنـه ليسبح في عبـاب الآل
واستعمـر الجوّ البعيـد خيـالـه
فبنـى على الأوهـام والآمـال
حـرث الجبـال، وتلـك ضيعـة أشعب
يستصعـد التيّـار من أوشـال
عقـد المنى سرجـاً على متـوهّم
فجـرى ولكن في مجال خيـال
وكـأنّـه شحـذ الهلال مهنّـداً
أو جـاء معتقـلاً مـذنّب «هـالي»

ثم قال:

---

(١) القيفال عرق في الذراع يفصد.

قــالــوا: أتتك من المشيب غــلائل ... جــــدد تطـــرّز في نهى وجــــلال

فتَعَــرَّ عن بُــرْد الشبــاب، فإنــه ... صــدىء المفـاضــة، أقتم السّربــال

حتّى إذا مـــلأ القميـص معــاطفي، ... أبصرت منـــه طـــرائق الإذلال

فطفقت أهتـف، والمســامع لا تعي: ... مَـن لي بـــردّ بـــرودِيَ الأسمال؟

بـــرد الشبــاب، لأنـت نشـرتي التي ... فيهـــا فللت مضــارب الأهـــوال

لـــو في متـــون العيس همّي لانثنت ... ملســاً رمين الأرض بــالأثقــال

ولـــو أنها بــالطّـود عــاديَّ الـذرى ... لا نهار عـن دعص النّقــا المنهــال

وقال يتشوّق إلى أصحاب له في النجف:

أروح على جمر الغـــرام كما أغـــدو ... فـلا الـدمع يطفيه ولا يسكن الـوقـد

وحيّرني النّـائي، ومـوطنـه الحَشَـا، ... فــلا قـربــه قـرب ولا بعـده بعـد

أحبّـاي بـالـوادي المقـدّس، أخـذكم ... عليَّ طـــريـق الصبر ليس لـــه ردّ

تـــذكّـــركم قلبي فطـــار شراره ... كأنّ حصــاة القلـب يقــرعهــا زنــد

وطلّق عيني غمضهـــا، فهي بعـــدكم ... تعـــدّ الليـــالي والشهـــور وتعتـــدّ

تحبّب لي نجـــداً عـــروبــة أصلكم ... وأين مـن المغمـوس في دجلـةٍ نجــد؟

تنسّمتُ فيهــا نسمــة مـن ريــاضكم ... يعطّــرهــا شيـح الجزيـرة والـــرنــد

على ضــوء هــاتيك الثنــايــا زواهيــاً ... أطــالع صحفـاً من عنـاوينها المجـد

خطـــوط بأقــلام الـــرمـاح مشجّــراً ... بها النّسب الـــوضّــاح والحسب العـدّ

يلـــذّ بعيني السَّهـــد في ذكـــريـــاتهم ... كأنّ مـــذاق السَّهـــد في مقلتي شهــد

ومـن ظلمات اللّيـل بحــــــر يخيفني ... فـــــــلا الجزر ينجيني ولا يُعْبَر المدّ

أرى ســاحل الإصبــاح يَبْيَضُّ رملــه ... فيضربــه مـــوج الظـــلام ويســـودّ

بماذا أخـوض البحـر، والبحـر هــائج، ... ولا ســاعــد يقـوى عليـه ولا زنـد

أمـــانيّ نفسي أجهـــدتني تعلّـــلاً، ... وإنّ التمنّي جهـــد مَـن لا لـــه جهـــد

وقال أيضاً:

يســائلني عن مــوطن العـدل جــائر ... ويعلم أنّ العـــدل مـــوطنـــه اللّحـــد

على يــــده أدلاه بـــالحفـــرة التي ... تبلّج فيهـــا الحقّ وابتسم الـــرشـــد

ويسـألني عـن كنــــز درّي مخاتـل ... وفي يـــده ممـــا احتفظت بـــه عقـــد

لـــو انبسطت كفّي على قـــدر حقهـــا ... أقمت عليـــه الحدّ لـــو أمكـن الحدّ

وقال جواد الشبيبي من قصيدة له بعنوان «تَنهّدات»:

عبر الـــزمـــان استحلبت عبراتي ... وألانـت الأيـــام صـــدر قنـــاتي
أنّى أعـــان على الجهـــاد بــواحـــد ... وخطـــوبها يمـــلأن ستّ جهـــاتي
أنّـى التفتُّ رأيـت خطبـــاً هـــائلاً ... فكـأنما الأهـــوال في لفتـــاتي
وإذا أردت صراعهـــا في نهضـــة ... عـــاقتني الأيـــام عـن نهضـــاتي
نفسي لماء الـــرافـــدين يسيلهـــا ... نفس يصعّـــده جَـــوَى الـــزّفـــرات
يحيـــا بـــه خصمي فأشرق بـــالـــرّدى ... وأُذاد عنـــه وفيـــه مـــاء حيـــاتي
لا دجلتـي أمّ السّيـــول بـــدجلتـي ... كـــلاًّ ولا هـــذا الفـــرات فـــراتي

ثم يقول:

ليَ من جَنَـاي ـــ وما اقترفتُ جنايـة ـ ... أشـــواكـه والقطـف عنـد جنـــاتي
وا ضيعـــة الأكفـــاء بعـــد مناصب ... حفظت مقـــاعـــدهـــا لغير كفـــاة
ولـــوا الأمـــور، ولـو أطـــاعـوا رشـدهم ... لسعـــــــوا وراء الحقّ سعـي ولاة
من كـل كـــاسٍ يستجـــدّ لنفســـه ... حلـــلاً ولكن مـن جلـــود عـــراة
النّـــاهبي رمق الضعيـف وقـــوتـــه ... والقـــاتلي الأوقـــات بـــالشّهـــوات
قطعـــوا البـــلاد ومنهمُ أوصـــالها ... والقطـع يـــؤلم من أكـفّ جفـــاة
سكـروا بخمـر غـرورهم والعـامل (م) ... المجهـــود بين الموت والسّكـــرات
غـــزوا المصـــايـف والهوى يقتـــادهم ... لمســـارح الفتيـــان والفتيـــات
هم أغنمـــوا مغـــزوّهم وتـــراجعـــوا، ... أفهـــذه العُقبـى مـن الغـــزوات؟
مـــال تكفّلت الجبـــاة بعسفهـم ... إحضـــاره لخزائن اللّـــذّات
نهب من الحُجُـــرات صِيـحَ بـــه، وفي ... عـــزف القيـــان يُـــرَدُّ للحجـــرات
طـارت شعـــاعـاً فيـــه أيـدٍ لم تـزل ... مخضـوبـة بـالـراح في الحانـات . . .

عبد المحسن الكاظمي

الشاعر العربي الذي عرف بالارتجال وطول النفس وجزالة الألفاظ، ولد في بغداد يوم الأربعاء ٣ كانون الثاني ١٨٦٦، وهو عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن بن محمد بن صالح بن علي بن هـادي النخعي. وقـد درس في مسقط رأسـه ومـارس التجـارة والزراعة زمناً، ثم انصرف إلى مطالعة الكتب الأدبية وحفظ الشعر والنظم.

وقدم جمال الـدين الأفغاني منفياً من إيران سنـة ١٨٩١ فلازمه الكاظمي وأخـذ عنه

وتشرّب منه مبـادىء الإصلاح . ولما خرج الأفغـاني من بغداد أصبح الكـاظمي موضع ريبة وتعقيب ، فلاذ بالوكالة الإيرانية ثم غادر الزوراء خفية إلى البصرة ومنها إلى أبي شهر في الخليج العربي .

وقد عاد إلى بغداد بعد ذلك ، ثم رحل من العـراق سنة ١٨٩٧ فقصد إيران والهند ، وألقى عصـا الترحال في القـاهـرة (١٨٩٩) . ونال الحظـوة لـدى الشيخ محمد عبـده ، واتصل بالمحافل الأدبية والقومية فكان موضع التجلّة والاحترام .

وقيل إن محمود سـامي البارودي الـذي عرف الكاظمـي وقرّبه إليـه بعد عـودته من منفـاه في جزيـرة سيـلان ، قسّم شعـراء عصره إلى طبقات فـاستثنى الكـاظمي واكتفى بالقول إنه «أمّة في الشعر وحده» .

لكنـه ضـاق بمعيشتـه ولم يصب منهـا الكفـاف . وقـد قـال وليّ الـدين يكن في «تجاريبه» :

«علم من أعلام العـراق ، هو أبو القصائد المحبّرة والقوافي المحكمـة ، نزيل بمصر، مقيم في دار حـزنه يعـالج أيـامه ويعـاني شـدائدها . وليـس بمصر مَن يقول لـه : أين أصبحت ، أيّها الأديب العظيم؟» .

وتوفي في القاهرة في أول أيار ١٩٣٥ .

طبع الجزء الأول من ديوانه في دمشق (١٩٣٩) والثاني في القاهرة (١٩٤٨) . ونشرت له : معلّقات الكاظمي (١٩٢٤) عراقيّات الكاظمي (١٩٦٠) . وله كتب نثرية منها : البيان الصادق في كشف الحقائق ، تنبيه الغافلين .

شعره :

من شعـراء الطبقة الأولى ، في شعـره أنفاس البـداوة ومتانـة المدرسة القـديمة . أمـا مواضيعـه فأغلبها قومي وطني ، يـدعو فيها العرب إلى اليقظـة والنهوض وينعى عليهم الغفلة والجمود .

هامَ الكاظمي بالحرية فقال :

مهما تبـــاعـــد فهـــو منك قـــريب ... يـــوم لـــــه بين الضلـــوع دبيب
فإذا تبـــاعـــد فـــالحبيب مبغّض ... وإذا تقـــارب فـــالعـــدوّ حبيب
لا فـــرق بين المشرقين ســـوى الـــذي ... يصفـــو بـــه هـــذا وذاك يشـــوب
كـــالشمس مـــا بين الأنـــام مشـــاعـــة ... ولها شروق مـــــرة وغـــــروب

واستنهض همّة قومه فقال :

سيروا بنــــا عنقـــاً وشـــدّا | سيروا بنـــا ممسىً ومغـــدى
سيروا فـــــرادى او ثنـى | والجمع للغـــايـــات أجـــدى
لا يقعـــدنَّ بعـــزمنـــا | يـــوم يـــريـنـــا الهزل جـــدّا

حتى يقول نادباً حال وطنه :

بـــالله، يـــا وطني، أجب | مـــا بـــال قلبك ليس يهدا؟
كـلٌّ يبـلّ غليلـــه | ممـــا رجـــاه وأنت تصـــدا
يـــرضيك تصبح للخـــراب | وكنت للعمـــران مهـــدا؟
يـــا أيها الـــوطن الـــذي | نـــادى بنيـــه واستمـــدّا
وأسرّ نـــــاراً كلما | قيـل اخمدي تـــزداد وقـــدا
ورمـى بكلتـي مقلتيـــه | ولم يجد مـن ذاك بـــدّا
يـــدعـــو كهـــولهم كما | يـــدعـــوهـم شيبـــاً ومُـــرْدا
لـــك مـــن بنيـــك النّجـــب | كـل غضنفـــر وقّـى وفـــدّى
روّح فـــؤادك واسترح | فبنـــوك لا يـألـــون جهـــدا. . .

أحبّ الكاظمي البلاد العربية قاطبـة، وتوزّع قلبه بين موطنه العراق ومسكنه مصر. قال يحنّ إلى مسقط رأسه :

ألا خبر مـن ثنـــايـــا العـــراق | يطلـع أو زورة تطـــرق؟
هل الـــدار بعـــدي كعهـــدي بها | يبـــاكـــرهـــا العـــارض المغـدق
أم البين أسلمهـــا للبلى | وعـــاث بها الـــذئب والخرنق
رعـى الله أهـل الحفـــاظ الألى | كما لقـي القلـب فيهـم لَقُـــوا
أحبّـــاي، هـل كلـف شيّق | ينـــاشـــده الكلـف الشّيّق
وإن خفـق البـــدر نحـــو الحمـى | نـــزت كبـــدي نحـــوكم تخفق
على حـــرق أضلعي تلتـــوي | ومـن علـق أدمعـي تـــدفق

وقال يبارك مصر ويشكرها على رعايتها له :

تعـدّت صروف الـدهـر مصر وأهلهـا | ولا زال في أرجـــائهـــا البشر يسطع
نعـم، أهـل مصرٍ، أنتمُ خير أمـــة | ومـــا الخير إلاّ منكم يتفـــرّع
لقـد شـاع عنكـم كل فضل وســؤدد | وسـوف نـرى للفخـر مـا هـو أشيع

وتمنّى لو كان العالم بأسره عرباً :

ليت الأنـــام جميعهم عـــرب | شبّـوا وشـابـوا بعـدمـا اكتهلـوا
أوليـــت كـــل المالكين لهم | عـــرق بـــذاك الأصل يتّصـل!

وقال يحنّ إلى مسقط رأسه بغداد:

أبغــــداد، لا فــــاتتك مني تحيّـــة ... يفسّر منهـــا مـــا أراد المفسّر

حنينـــاً إلى تلك البقـــاع، إلى التي ... تطيب، إلى تلك التي هي أطهـــر

حنينـاً إلى الـزّوْرا، حنينـاً إلى الصّبـا، ... حنينـاً إلى العـود الـذي هـو أنضر

حنينـاً إلى تلك القـرى وإلى الـذي ... يعشّي بهاتيك القـرى ويبكّـر

حنينـــاً إلى أرض حييت بتربها، ... ويــا ليتني في ذلك الترب أُقْبَرُ

هنـاك شبـابي قـد تقضّى، وهـا هنـا ... مشيبي، وفي الحالين أشكـو وأشكـر

لقـد زعمـوا أني نسيت، وأنني ... غـدوت بهٰذي دون تلك أفكّـر

وكيف تـراني نـاسيـاً ذكـر مـوطنٍ ... لــه مـورد في كل سمع ومصـدر؟

منى النفس أن يلقى العـراق وعـزّه ... من الخير مـا يهوى ومـا يتخيّر

مات عبد المحسن الكاظمي في مصر، فرثاه معروف الرصافي قائلاً:

أيها النـادبـون، غيريَ غُـرُّوا: ... بـرح اليـوم للّبيب الخفـاءُ

يُكْـرَمُ الميِّت بـالثنـاء، وتحيـا ... عنـدكم في المَهَـانـة الأحيـاء

إن جفتنـا بـلادنـا فهي حِبٌّ، ... ومن الحِبِّ يستلـذّ الجفـاء

لم نَحُلْ عن عهودهـا مذ جفتنـا، ... بل لها الـودّ عنـدنـا والـوفـاء

إنّما هـذه المواطـن أمّ ... مُسْتَحَقٌّ لها علينـا الـولاء

وقال الزهاوي:

يـا بلبـل الشعـراء، مـالك صـامتـاً ... من بعـد تغـريـد بشعـرك مُشْجِنِ

قـد سرت قبلي للـرّدى متعجّـلاً ... ولعلّنـي بـك لاحـق ولعلّنـي

وقال إبراهيم عبد القادر المازني: «وجاء الكاظمي إلى مصر، وكان الأدب فيها قد أخذ يشيح بوجهه عن زيف المقلّدين والعابثين من المتأخرين، وينثني راجعاً إلى الشعر الجيّد والشعراء المخلصين، فنزل منزل الكرامة بين فحول ذلك العصر. وزيّنت له الإقامة ففعل، وعاش في مصر كريماً أبياً لا يمتهن نفسه ولا يهين شعره. ولم يعرف عنه قطّ أنه مدح أحداً مبتدئاً، وإنما كان يشكر المستحق على الصنيع الحسن. واشتهر بالقدرة على الارتجال مع المحافظة على طبقة شعره. والارتجال عسير، وقد تسعف القريحة بالبيت، ولكن الكاظمي كان يسحّ بالعشرات ولا يقصر عن المئات. ولا شك أن ضخامة محفوظه من اللغة والشعر، وطول اعتياده الإملاء حين ينظم، كانا ممّا أعاناه على الارتجال. ولكن كثرة المحفوظ وحدها لا تكفي وعادة الإملاء لا تغني، ولا بدّ من استعداد خاص حتى تسعف القريحة وتؤاتي السليقة . . .

«وقد تغيّرت الدنيا في الشرق بسرعة تغيّراً ترك الكاظمي غريباً فيها. فهو لا يحسن إلا أن يقول الشعر، ولا يستطيع مع هذا أن يتكسّب به، وقد فطره الله على العزوف الشديد والإباء المرّ. فلا قدرة له على التزلّف والمصانعة، ولا قبول منه لحسنة أو صدقة أو معونةفي صورة من الصور... وكان المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده يرعاه ويتفقده بانتظام، وظلّ مواظباً على ذلك كاتماً له حتى توفي... فلما مات الشيخ محمد عبده اضطربت حياة الكاظمي واصطلحت عليه الفاقة والعلة، ولكنه احتملهما وصبر على بلائهما صبر الحرّ الكريم. وبلغ من أمره في ذلك أن كثيرين من ثقاته كانوا يجهلون مكان بيته في العام الأخير من حياته، لفرط تكتمه حقيقة حاله وإخفائها حتى عن أقرب الناس إليه وأصدقهم وداً له».

هذا وقد قال الكاظمي معبّراً عن إبائه وتعفّفه:

لو على قدر همّتي واعتزامي ... صال نطقي بلغت كلّ مرامي
همّة ترهق النجوم وعزم ... ضارب في الجبال والآكام
وأراني أرى القلوب رواءً ... غير قلب ما بين جنبي ظام
وإبائي يرى من الضيم أن يحمل (م) ... في الدهر منّة للغمام...
ليس عيش الفتى زخاريف لبس ... وشراب مصفّق وطعام
إنما العيش أن تكون عظيماً ... عالي الذكر في الأمور العظام
ليت أمي، إذ بشّرت بغلام ... بعد لأي، لا بُشِّرَتْ بغلام
ولدتني مجسّماً من إباء ... وجلال ورفعة واحتشام
فترعرعت بين أكرم قوم ... شمخوا عزّة على الأقوام
ولأن أدبرت حظوظي أضحت ... حسناتي تعدّ من آثامي
أيّها المشفقون، إنّ فؤادي ... أقصدته بها تصيب المرامي
فاثأروني بمهجتي أو دعوني، ... أنا عرّضتُ مهجتي للسّقام

حتى يقول:

ألمي إن خلوت من آلامي ... وسقامي متى فقدت سقامي
ما شكت لي الضنى عظامي لكن ... قام يشكو لي الضنى من عظامي
فإذا كانت الحياة كهٰذي ... فعلى هذه الحياة سلامي

تحدث عبد المحسن الكاظمي عن نشأته الأدبية فقال: «أدخلت في أوائل صباي بمكتب فقيهة بالبلدة، ثم خرجت منه إلى معلم فارسي لأدرس اللغة الفارسية، لأن آبائي تجار، وللعراق صلة تجارية بإيران والأفغان والهند، والتخاطب التجاري باللغة

الفارسية في هذه البلاد كثير. فمكثت عنده ستة أشهر أمكنني بعدها أن أقرأ وأكتب . . . وذهبت إلى معلم عربي، ولكن ما لبثت أن خرجت من عنده. ثم أخذت أنظر في المخطوطات العربية والفارسية . . .

ولما بلغت الثانية عشرة من حياتي تطفّلت على موائد العلم بالكاظمية. وكان أخي محمد حسين مشتهراً بالأدب، فأخذت أطلع مثله على كتب الأدب، ولكن الأساتذة كانوا ينهونني عن ذلك بحجة أن هذه الكتب تشغل الطالب عن العلم وتؤخّره في تحصيله. فلم أستمع إليهم، ووجدت في نفسي شوقاً إلى الأدب والشعر، وصرت أكبّ على مطالعته في يومي الخميس والجمعة، وأكتب القصائد القديمة وأحفظها سراً حتى حفظت عشرة آلاف بيت. وحدث أن أخي وزميلاً له كانا يوماً يتطارحان الشعر وأيّهما غلب يكسب الرهان. وكان الاتفاق بين الفريقين على أن زملاء الرئيسين يتطارحون الشعر، فإذا عجز فريق منهم أنشد الرئيس بدله. ولما جاء الدور عليّ بدأت بهذا البيت:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَن به صمم

واسترسلت في المطارحة حتى عجز الزملاء والرئيسان. ومن ذاك الوقت كان المتطارحون يتنافسون عليّ، وكانت سنّي وقتئذٍ ستة عشر عاماً. وقد نظمت قصيدة غزلية يبلغ عدد أبياتها ٥٥ بيتاً لا أذكر منها الآن غير الشطر الأول، وهو:

أيها الرامي وما أجرى دما . . .

وبعدها نظمت عدة قصائد. ولكن أول قصيدة ظهرت لي كانت رثاء لأحد علماء العراق. وذلك أنه كان من العادة عندنا، إذا أريد رثاء أحد الموتى، وقف منشد خاص لتلاوة ما نظمه الشعراء من القصائد. وكلما أتى إلى قصيدة، قال له الحاضرون: لمن؟ فيقول: لفلان. فيردّون: أنعم وأكرم. أما إذا لم يرد الشاعر ذكر اسمه فإن المنشد يجيب الحاضرين عن سؤالهم بقوله: لبعض المحبّين.

«فلما أتى دور قصيدتي في ذلك اليوم الذي أريد رثاء العالم فيه، لم ينسبها المنشد إلي لأنّي صغير. وكان هناك في هذه الأثناء أديب كبير يدعى السيد إبراهيم الطباطبائي فنسب الحاضرون هذه القصيدة إليه. فحزنت وطربت في آن واحد. حزنت لأنّ قومي لا يفرّقون بين قائل وقائل، وطربت لاشتباه شعري بشعر أديب كبير. ولكن لم تمض مدّة حتى ظهر اسمي، وانقلبت الآية فصار الناس ينسبون إليّ كلّ ما يستحسنون . . .».

عبد المحسن الكاظمي:

ارتأى الدكتور إبراهيم السامرائي أن الشعراء الذين نشأوا في المواطن الشيعية كالنجف وكربلاء والكاظمية والحلة قد تأثروا بالشريف الرضيّ نقيب الطالبيين (٩٧٠ ـ

١٠١٥م) ودعبل الخزاعي (٧٦٥ ـ ٨٦٠م) والسيد الحميري (٧٢٣ ـ ٧٨٩م)، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء عبد المحسن الكاظمي وجواد الشبيبي وولداه محمد رضا ومحمد باقر وغيرهم. وقد رأى السامرائي تأثير قدماء شعراء الشيعة ظاهراً في الطريقة التقليدية والروح البدوية ومراثي آل البيت.

والحقيقة أن لشعر الشيعة طابعاً خاصاً يتمثل في المراثي عامة وخصائص الحزن والتفجّع. على أن شعراء العصر الحديث فتحت لهم آفاق جديدة وسّعت شمول معانيهم ومواضيعهم مع احتفاظهم بالأساليب التقليدية القديمة، فقلّ تأثير الشريف الرضيّ وأمثاله من القدماء في شعرهم.

***

عبد المحسن الكاظمي: ممّن أخذ عنهم في النظم في صباه أخوه الأكبر الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى في رشت من أعمال إيران سنة ١٩٣٦، والشيخ جابر الكاظمي المتوفى سنة ١٨٩٩، والسيد إبراهيم الطباطبائي الشاعر الشهير.

الكاظمي وثورة الحجاز سنة ١٩١٦:

نهض الشريف حسين وأعلن ثورته العربية الكبرى على الأتراك خلال الحرب العظمى، فاستبشر بها الوطنيون العرب، ومنهم عبد المحسن الكاظمي الذي حيّا الثورة وقادتها بقصائد عامرة ومدح الملك حسين وأنجاله ورجاله أمثال جعفر العسكري ومولود مخلص وفؤاد الخطيب. قال في الملك حسين:

هذا الحسين وذاك أوّل مَن دعا   والرأس أولى بالعلا أن ترأسا...
ذو عزمة جعل الإلٰه شباتها   نقماً تصبّ على الطغاة وأيؤسا

وقال أيضاً:

مليك، وهل للعرب مثل حسينها   مليك توالى مَنّه وأبٌ برّ؟
أمحيي رجاء العرب من بعد موته،   أسيفك أمضى أم عزيمتك البكر؟

وكان الكاظمي في شعره من دعاة الحركة الوطنية المصرية ومريدي زعيمها سعد زغلول، مدحه في حياته ورثاه عند وفاته.

ورحب الكاظمي بمبادىء الرئيس وودرو ولسن وعدّها وسيلة لتحرير الشعوب، فقال يخاطبه:

عمـــرت مجالسنـــا بـــذكـــرك وانحنى لـــرفيـع قـــدرك ســـائر المعمـــور
وأراك قـــــد حمّلت مـن أعبـــائهـــا مـــا فـــوق طـــاقـــة ألبهـــا وثبير
طهّـــرت وجــه الأرض من بغي الـــورى، ولـــربّ مـــاء كـــان غير طهـــور. . .

شعر عبد المحسن الكاظمي :

في شعر الكاظمي جزالة وفيه جرس موسيقيّ عذب كأنّـه صدى من ألحان الأجيال الغافية في الصحـراء. ولكنّك تفتقد في ذلك الشعر تلك الطراوة وذلك الـوهج اللذين تلمسهما في شعر المجدّدين من معاصريه كشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي. ولعلَّ الأمـر يرجع إلى تطـويله في قصـائده وتكراره للمعـاني واستعماله لحوشيّ الألفـاظ وضيق آفاقه وثقافته القديمة. فإذا حلّلنا قصيدته:

سيروا بنـــا عنقـــاً وشـــدّا سيروا بنـــا ممسى ومغـــدى

نجـد أنها في أبيـاتها الستة والتسعين لا تخرج عن حثّ الأمـة على التقـدم والسير إلى الأمام ومجانبة التخلّف وتحفيز الهمم والالتفاف حول الوطن.

تفتّحت شـاعرية الكـاظمي واكتملت في العراق في أواخـر القرن التـاسع عشر قبل رحيله إلى مصر ومعايشتـه للنهضة الأدبية التي حمل لواءهـا البارودي وإسماعيل صبري وخلفاؤهم من بعـدهم، فكان أقرب إلى شعراء عصر الانحطاط المتـأخّر كحيدر الحلّي وإبراهيم الطباطبـائي وجعفر الحلّي ومحمد سعيد الحبّوبي. وقد أفـاد من اتصاله بجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في التطلّع إلى آفاق فكـرية جديدة كالنزوع إلى الحرية والدعـوة إلى النهضة والعلم والعـدالة والاستقلال والـدفاع عن الإسـلام وذكر الشرق، وهو الاصطلاح الذي انتشر في مصر سابقاً لذكر العروبة وانتقل منها إلى العراق.

قال الكاظمي:

مهما تبـــاعـــد فهـــو منك قـــريب يـــوم لـــــه بين الضلـــوع دبيب
لا فـــرق بين المشرقين ســـوى الـــذي يصفـــو بـــه هـــذا وذاك يشـــوب
هيهـــات يصبيني ســـوى حـــرّيـــة يصبـــو الشبـــاب لـــذكـــرهـــا والشيب
حـــريـــة الأمصـــار أنت حبيبـــة في حبّهـــا يستعـــذب التعـــذيب
يـــا حبَّـــذا يـــوم الجمال وحبـــذا يـــوم الـــوصـــال وأجـــره المكســـوب
يـــوم يعـــود بـــه لنـــا استقـــلالنـــا ويـــردّ فيـــه حقّنـــا المغصـــوب
حتّـــام نحتمـل المذلّـــة طـــوّعـــاً ولنـــا بـــآفـــاق البـــلاد وثـــوب؟
لا فـــاتنـــا عـــزّ الحيـــاة ولا عـــدت شعبـــاً تُـــذِلُّ بها الحيـــاة شعـــوب

وقال:

سيروا إلى الـــــــــــوطـن الموقّـى ... بـــــالنقــــــائب والمفـــــدّى
يـــــا حبّـــــذا وطـن أعـــــاد ... الفضـل في الــــدنيــــا وأبـــــدى
يـــــا حبـــــذا وطـن يغنّـى ... بـــــاسمـــــه أبـــــداً ويُحْدَى
أوطـــــانـنـــــا أرواحنـــــا ... بـل إنها بـــــالـــــروح تفـــــدى
أبـــــداً نطـــــالب بـــــالحقـــوق ... حقـــــوقنـــــا أو نستردّا
أبـــــداً نجـــــاهـــــد دونها ... ونكـــــافح الخصـم الألـــــدّا

وقال:

سيروا نُشِـــــدْ لـــــديـــــارنـــــا ... عـــــدلاً يهدّ الظلـم هـــــدّا
مـــــا كـلّ مَن ســـــاس الأنـــــام ... قضـى فـــــريضتهـــــا وأدّى
شتّـــــان مـن ســـــاس الـــــورى ... عـــــدلاً ومن بهم استبـــــدّا...
يـــــا حبّـــــذا العَلَمُ الـــــذي ... إن تقصر الأعـــــلام مـــــدّا...

ومن قصائده الشهيرة «العينيّة» التي تبلغ أبياتها ١١٤ عدّاً. يستهلّها الشاعر بمعنى عزيـز على شعراء الجاهلية، وهـو إدارة الطرف في الأرض البلقع والبكـاء على الطلول، وذكر الأحبّة الذين مضوا، والشوق إلى أيام القصف والهناء، والأسى لساعة الوداع. ثم يذكر سفره بالباخرة تاركاً المطايا في بواديها واقتحامه جيوش الأمواج التي ترتفع إلى عنان السماء، حتى وصـوله إلى مصر، يجاذبـه الحنين إلى وطنه في بـلاد الـرافدين والاستبشـار ببلوغه وطنِ الحريـة والنهوض. لكنه يشكو مقامه في دار الغربـة وضياع مثله في خضمّ الحياة الـدفّاقة. ويمضي إلى الإشـادة بمصر وأهلها الذين يصفهم بأنهم خير أمـة يتفرّع منها الخير والفضل والسؤدد. ويدعوهم إلى شحـذ هممهم وشدّ عرى أوطانهم والدفاع عن عزّهـا ومنعتها. ويتلذّذ حينـاً بالفخر بنفسه، وهـو الأريحيّ السّميذع الذي يـزعزع فكره أبطال الوغى، ويقول:

وكيف أخـــاف الخطب يســـودّ ليلـــه ... وأسيـــاف عـــزمي في دجى الخطب لُمَّعُ
فكـم غمّـــة كشّفتهـــا وعظيمـــة ... تسنّمتهـــا، والليل أســـود أسفـع

وينتقل من ذلك إلى مهاجمة المنـدّدين بالإسـلام المتحاملين عليه من رجـال الغرب، وفي مقـدمتهم السياسي الأديب الفـرنسيّ جبرائيل هـانوتـو Gabriel Hanotaux الذي تعرّض للدين الإسلامي فردّ عليه محمد عبده وأفحمه.

والحقيقة أن الكاظمي في شعره جسر يصـل عصر الانحطاط بعصر النهضة الجديد ويضفي ثوباً من الديبـاجة القديمة على المعاني التي أخذ يردّدهـا شعراء الأمة المتفتحة على حياة العصر، المتحفّزة إلى الوثوب واليقظة من غفوة الأجيال.

أحمد الفخري

شاعر الموصل وقاضيها السيد أحمد الفخري، وهو ابن محمود بن محمّد أمين بن محمّد بن حامد بن فخر الدين بن يحيى، ينتهي نسبه إلى النقيب السيد فخر الدين الأعرجي الحسيني. ولد في الموصل سنة ١٨٥٨ وتعلّم في كتاتيبها وحفظ القرآن، ثم درس العلوم العربية والدينية على علماء عصره كالملاّ علي الحصيري وعبد الوهاب الجوادي والشيخ محمد النقشبندي. قال الشعر وهو يافع، ثم برع فيه وتفوّق. ووظّف في المحكمة الشرعية كاتباً وأصبح رئيساً لكتّابها ودرّس في المدارس الأهلية والرسمية. وعيّن على أثر احتلال الموصل قاضياً (أول أيار ١٩١٩) ونهض بمنصب القضاء حتى عيّن وزيراً للعدلية في وزارة جعفر العسكري (٢٢ ت٢ ١٩٢٣ ــ ٣ آب ١٩٢٤). وانتخب نائباً عن بلده في المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤) وأعيد بعد تخليه عن الوزارة قاضياً للموصل (٢ أيلول ١٩٢٤) حتى تأليف مجلس الأمة العراقي إذ اختير عضواً في مجلس الأعيان (تموز ١٩٢٥). وأدركته الوفاة في الموصل في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٦.

وقد عني بجمع شعره المتفرّق الأديب الفاضل السيد علي العلوي الذي استطاع أن يدوّن له نحواً من ١١٠ قصائد ومقطوعات في زهاء ٢٤٢٠ بيتاً. وصفه السيد العلويّ فقال: «كان وسيم الطلعة، معتدل القامة، عذب الصوت، كريم الخلق، أنيس المحضر، سريع الخاطر، حاضر البديهة، يرسل النكات من دون تكلف فيطرب لبراعتها الحضور، متواضعاً، محبّاً للغناء، مغرماً بالصوت الجميل».

كانت الموصل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في عزلة وانزواء، فلئن كانت جزءاً من العراق، لقد كانت أقرب إلى حلب منها إلى بغداد. وكانت الرحلة إلى بغداد بطريق القوافل أو طريق الأرماث النهرية طويلة شاقة، فكانت الحدباء أوثق صلة بحلب الشهباء تتصل بها بأسباب تجارية وأواصر فكرية وروحية. فلا بدع أن حرمت الموصل النهضة الأدبية والوطنية التي لاحت بوادرها في بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني.

إن بلدة أبي تمّام قد غطت في نوم عميق خلال عصرور الانحطاط، فلم ينشأ فيها سوى نظامين لهجوا بالمدائح والمراثي، حتى إذا ما بزغ فجر القرن التاسع عشر، ظهر شاعران لهما شأنهما في ذلك العهد، وهما عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس، لكن كليهما نزح إلى بغداد وتفتحت شاعريته فيها. وعرفت الموصل بعد ذلك شعراء مقلّدين كأحمد عزت الفاروقي (المتوفى سنة ١٨٩٢) والسيد شهاب الدين العلوي المليسي (المتوفى سنة ١٩٠٧) وداود الملاح (المتوفى سنة ١٩١١) والشيخ محمّد ضياء الدين الشعار (المتوفى سنة ١٩١٢) ونجيب جلميران (المتوفى سنة ١٩١٧).

في تلك البيئة المغلقة المنطوية على نفسها نشأ شاعرنا الفخري وقال الشعر، فنظم المدائح الإلهية والنبوية ونسج القصائد الصوفية والوجدانية وأجاد في الوصفيات والإخوانيات وجانب من المدائح والمراثي والموشحات والتخاميس. وقد أدرك القرن العشرين وأصبح وزيراً وعيناً في الحكومة الوطنية وعاصر الزهاوي والرصافي وسائر أساطين النهضة الأدبية الحديثة، لكنه كان أقرب بشعره إلى عصر الانحطاط السالف وأدنى نسباً إلى ابن الفارض وأقرانه من شعراء التصوّف والغزل الأقدمين، ذٰلكم أحمد الفخري الذي يقول:

هــذا الغـرام وتلك حـاجـر	والـدمع ليس عليه حـاجـر
وبـروقهم لاحـت فما	لسحـاب دمعك غير مـاطـر؟
أخـلا فـؤادك أم حـلا	لـك غيرهم أم أنـت صـابـر؟
أم مـاء عينـك جـفّ مـن	حـرّ الصبـابـة في الضمائر
أم رمـت كتمان الهوى	والحبّ ليس عليـه سـاتـر
وإلى مَ تكتـم لـوعـةً	شهـدت عليـك بها الظـواهـر
وعلى مَ لا تبـدي الجوى	أمـن الملامـة أنـت حـاذر؟
إن كـان حبّـك صـادقـاً	فـدع العـذول ولا تحاذر
اي والـذي أحيـا بـأسرار	الهوى منّـي السّرائر
أنـا عـاشـق أنـا مغـرم	أنـا ذو هـوى في القلب ثـائر
كيـف الحيـاة بـلا هـوى	إنّ الهوى أحـد العنـاصر
في الحبّ طـاب تهتّـكي	فهتكـت عـن سرّي الستـائر
لا أرعـوي، لا ألتـوي	لا أنثنـي بمـلام زاجـر
مـاذا يقـال سـوى الـذي	قـد قيل في مجنـون عـامـر؟

وليس من ريب أن الشعر الصوفي في العهود المحافظة المترمّتة تنفيس عن المشاعر الملتهبة، فإذا قرأت شعر الفخري الوجداني لم تدر أين ينتهي الحبّ الإلهي ليبدأ الإحساس العاطفي.

وشعر الفخري راتب النسق، مفرد النغم، قديم الوحي في معناه ومبناه، بيد أنه يفيض بالبوارق الوجدانية التي تهزّ النفس واللوامع الفكرية التي يرتاح لها الذهن. يختلط فيه الغزل المكرّر المبتذل بعاطفة حب صوفية تنبثق من صميم القلب، وتعبق موشحاته بأنفاس الأندلس الزكيّة.

يؤمن الفخري بالحبّ ولا يخشى فيه لوم اللائم ولا تقريح العذول، فاستمع إليه يقول:

إن كـان حبّـك صـادقـاً	فـدع العـذول ولا تحاذر

وهو يجاهد نفسه في الغرام فيوماً يذعن لها ويوماً يتغلب عليها:

لاح للنفس غيّهـــا مـن هـــداهـــا ونُهاهـــا عـن الهوى قـــد نهاهـــا
وصحت بعـــد سكـــرة الجهـل، لكن بعـــد فيهـــا بقيّـــة مـن صبـــاهـــا
هـي تـأبـى إلاّ الغـــــرام وأأبـى أن أرى الـــذلّ بـــاتبـــاع هـــواهـــا
فتراهـــا طـــوراً تميل عِنـــاني وتـــراني طـــوراً أطيل عَنَـــاهـــا

وقد نقل تفجّع الخنساء ونحيبها إلى لوعة العشق والهيام فقال:

ومـــا ذرَّ قـــرن الشمس إلاّ ذكـــرتها وأذكـــرهـــا في وقت كـلّ غـــروب
وأذكـــرهـــا مـــا بين ذاك وهـــذه وبـــالليـل أحـــلامي وعنـــد هبـــوبي
وقـــد شفّني شـــوقي وأبـــلاني الهوى وأعيـــا الـــذي بي طبّ كلّ طبيـب
وأعجب أني لا أمـــوت صبـــابـــةً ومـــا كمـــد في عـــاشق بعجيـب
وكـل محبّ قـــد ســـلا، غير أنني غـــريـب الهوى، يـا ويح كلّ قـــريب!
وكم لام فيهـــا مـنِ أخٍ ذي نصيحـــة فقلـت لـــه: اقصر، أنت غير مصيـب
أتأمـــر إنســـانـــاً بفـــرقـــة قلبـــه؟ أتصلـح أجســـام بغير قلـــوب؟

وعارض ابن زيدون في نونيّته فقال:

جـدّ الهوى ومضـى حكم القضـا فينـــا فهل لنـــا في الضَّنى آسٍ يـــواسينـــا؟
هيهـــات مـــا مـن دواء للغـــرام، فقـــد عـــالجت نفسي من داء الهوى حينـــا
وكيف ننسـى حبيبـاً روحنـــا امتـــزجت بحبّـــه وهـــواه كـــاد يضنينـــا؟
قـد لاح كـالبـدر، والأبصـار شـاخصـة إليـــه، فـــاحتلّ دون الحيّ نـــادينـــا...

والموصل التي لبثت تغطّ في نوم هادىء هنيء متمسّكـة بأهداب التقوى والورع، لم تزل على مرّ العصور تلتمس متعها البريئة ونزهاتها الجميلة في زيارة قبور الأولياء والخروج إلى ضواحي دجلة التـي يسبغ عليها الربيع أثواب الخضرة والبهـاء لعقد مجالس الطرب والحبور بين الماء والخضراء وتحت زرقة السماء. فهذا محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل الذي نبغ بعد شاعرنا الفخري يصف أنس الربيع فيقول:

لقـــد ألبست قـــدّ الـــربيع يـــد المزنِ مـــلابـس خضراً ذات لـــونٍ على لـــون
تفتحـت الأكمام عـن كـل زهـــــــرة وزهـــــرة قلبي في كمائم مـن حـــــزن
نسيت، ومـا أنسـى، بشـاطىء دجلـة لـــواعـج وجـد حـــرّكتهـا يـد اللّحن
نسيت، ومـا أنسـى، أحـاديث صبـوةٍ يـــــردّدهـــا سجع الحمائم في أذني

ولئن كـان العبيدي قـد تـذكـر حبّه في مجالس الـربيع البهيّـة فـاستسلم إلى الوجـد والأسى، إنّ الفخري قد ألقى بروحه في تيّار الفرح والجمال الشامل فقال:

ويـــــــوم تجلّى في الـــــربيـع نهاره بُعَيْـــدَ حَيـــاً أحيـــا الــربــوع انهماره
وقـــد كست الأزهـــار حلّـــة وشيهـــا أديم الحِمَـى فـــازدان منهـــا اخضراره
فنـزّهـت في وجـه البسيطـة نـــاظـري فـــراق لـــديـــه حسنــــه وازدهـــاره
وجلتُ بـأكنـــاف الحمى متنـــزّهـــاً وقـــد فـــاح نشراً شيحـــه وعـــراره

وملت أريح النفس في ظلّ ربـــوةٍ يحلّي لجينَ الــورد فيهـــا نضـــاره

وهل يتمّ السرور في مجالس الطرب بغير العود والمزهر؟ فلنصغ إلى شاعرنا يقول:

لـو تسمع العـود تـدري مـا الهوى وتـرى للــروح أسرار وَجـــدٍ أودعـت وتـــرا
أريشـــة بيـــد العـــوّاد تخفـق أم ذي مهجـة الصّبّ، ليت الصبّ قد شعـرا
وتلك أوتـــار عـود دُقَّ فـــاضطـربت أم ذي عـــروق شجيّ بـــالهوى استعـــرا
يجسّ جـسّ طبيب نبـض ذي مـــرضٍ عـــوداً يبثّ أنينـــاً يفلـق الحجـــرا

والمعنى في البيت الثاني (أريشة بيد العوّاد . . .) ينظر إلى قـول الشاعر الدكتور نقولا فيّاض:

ليس «البيـانـو» الـذي بـاتت تكهـربـه يـــداك أطـــوع مـن قلبي وأفكـــاري
لَمَسْتـــــه فتمشى السحــــر بي فكما تهتـــز أوتـــاره تهتـــزّ أوتـــاري
أصـــابـع العـــاج هٰـــذي تلعبين بها أم تلعبين بـأسماع وأبصـــــــــار؟

وقديماً قال ابن الرومي:

غلط النّــاس، لست تلعب بـالشّطـرنج لكــن بـأنفس اللّعبـــــــــاء
لك مكـــر يـــدبّ في القـــوم أخفى مـن دبيب الغـــذاء في الأعضـــاء

والفخري، بعـد ذلك، شاعر مـؤمن، سعيد بإيمانه، قـويّ النفس بالله، فلنستمع إليه يتضرّع إلى العزّة الإلهية ويقول:

أيـــا ربّ، مـــا لي غير لطفك خيمـــة تقيني ممّـــا أتّقيـــه من الـــدهـــر
أيــــا ربّ، ظلّلني بفضلـك واحْمِنـي بعـــزّك واشرح لي بنـور الهدى صـــدري
أيــــا ربّ، واضرب لي سرادق عــــزّة على عمـــد التـــوفيق في طنب النّصر
أيـــا ربّ، وامـــدد لي رواق عنـــايـــةٍ على خيمـة العليـاء في سـاحـة الفخـــر
أيـــا ربّ، واجعلني بفسطـــاط نعمـــةٍ أعيش بها في راحـــة ســائر العمـــر

ولقد رأينا شاعرنا مولعاً بالبديـع مغالياً في المحسّنات اللفظية، يطرّز شعره بالتشابيه والاستعارات الكثيرة. ففي هذه الضراعة إلى العزة الربانية جسّم الرحمة والعناية والتوفيق والنعمة بالخيمة التي تقي من الخوف وتؤمّن من الشر والعذاب، فذكر السرادق والعمد والطنب والرواق. ورأيناه في قصائد أخرى يقرن فعل النهي بالنُّهى والحجى فيقول:

ونُهـاهــا عـن الهـوى قـد نَهَاهــا

ويجمع فعل الرؤية بالوتر قائلاً:

لـو تسمع العـود تـدري مـا الهوى وتـرى للــروح أسرار وجـــد أودعـت وتـــرا

وأمثلة ذلك كثير في شعره.

ومن لطيف شعره في النزاع بين هوى النفس وحبّ الله قوله:

عجبت لها تجفـو، وتـدري بـوصلهـا ... حيـاتي وأني حيث تجفـو شهيـدهـا
فقـال النهى: لا تعجبـنّ فحب مـا ... سـوى الله نـار في حشـاك وقـودهـا
سأتـرك للمـولى سـواه، فـإن تكن ... حيـاتي على خَلْق فلست أريـدهـا

لكنه لا يلبث أن يستسلم إلى الهوى فيقول:

كلّ يـوم يمـوت بـالشـوق قلبي ... وبـذكـرى الحبيب يبعث حيًّـا
أيها النـاصـح الخليّ اتّبعنـي ... في الهوى أهْـدِكَ الصراط السّـويّـا
كيـف يصحـو ويقبل النّصح صبّ ... خـامـرتـه من الغـرام حُمَيَّـا؟

وامتزجت روحه بروح الحبيبة هياماً:

روحـان بعضهما ببعضٍ هـامتـا ... وجـداً، ولا إحسـاس لـلأشبـاح
روح إلى روح تـزفّ، وإنما ... ذاك الـزفـاف بعـالم الأرواح

ومن موشحاته الجميلة أنشودة الحبّ التي قال منها:

ذهبت في الكـون أنفـاس الصَّبـا ... بحـديث سلسـلته أدمعـي
سلسل الـدمع حـديث الشـوق عن
مقل أحـرمهـا البين الـوسن
عن فـؤاد يـوم جـرعـاء افتتن
بهوى من جـرّعـوه العطبـا ... بنـواهم جـرعـاً في جـرع
والصبـا أهـدى حيـاة الأنفس
إذ بعَـرْف من شـذاهم قـد كُسِي
ثـم عـادت نفسـه من نفس
بسمـوم وهي تحكي لهبـا ... عن سعير الشـوق بين الأضلع...

ونراه في هذا الموشح وهو الشاعر الوجداني يغرق في الصناعة ويلبس ثوب المحدّث الفقيه. ثم يعود إلى حديث الهوى والحنين فيقول:

لم أكن قبل غـرامـي أعلم
أن جـرح القلب لا يلتئـم
لائمـي، بـالله جـز حيّهُمُ
وتبصّر ثم عنّف من صبـا ... ليس من يبصر كـالمستمع
نظـرات أعقبتهـا حسرات
في فـؤادي كم لها من زفـرات
هـذه العين وتلك العبرات
فـاسألَنْهـا زنـد وجـدي هل خبـا ... مـذ صبـا قلبي لـوادي الأجـرع؟

أنـــــا والليـل، إذا الليـل سجـى،
في هـــواهـم بين خـــوفٍ ورجـــا
فـإذا مـــا رقـــد النـــاس دجـى
وقضى بـــالأمـن كـلٌّ مـأربـــا أتجافى عـن لـــذيـــذ المضجـع
لا تقـل: غـــاب ولا قـــربٌ ولا
كـلّ بـــدر بـــازغ إن أفـــلا
هل تـــرى أنّـــا قطعنـــا الأمـــلا؟
لا، وإنّ عـــزّ لقـــاهم مطلبـــا مـــا قلعنـــا منـــه سنّ الطمـع

إنّ أحمد الفخري قـد عاش في العصر الحديث، لكنه في شعـره وغزله وتصوفـه كان يمتّ بصلة النسب الـروحي إلى أصحاب الموشحات الأندلسيّـة وإلى ابن الفارض وابن النبيه من أبناء القرون الخالية.

علي البنّاء

الأُسْطَهْ علي البنّـاء الشاعـر الأمّي البغدادي تـرجم له علي عـلاء الديـن الألوسي في «الدر المنتثر» ونشر جانباً من شعره، قال:

«هـو أعجوبـة بغداد في هـذا العصر، فإنـه ينظم الشعر مـع كونـه أمياً لا يقـرأ ولا يكتب، ومشغول بصنعة البناء بعمله مكتسب».

ولد علي البنـاء سنة ١٨٤٩، وامتهن حرفـة البناء، ونظم الشعـر الفصيح. وكانت وفاته ببغداد في ٢٤ نيسان ١٩١٨.

وشعره تقليديّ جامد لا تتعدّى أغراضه المدح والرثاء وغيرهما. منه قوله:

أوجهك هـــذا أم سنـــا الشمـس لامع من الشرق بـادٍ أم هـو البـدر سـاطع؟
وذاك شــذاك النـــافع العطــر نــافح ببغـــداد أم نـــوع من الطيب ضـــايع
وهـــذي معــــاليك التـي وازر العلى عـــلاهـــا فأضحت وهـي شهب طـــوالع
يسرّ حـــديث المجـد يـــوم إيـــابـــه بمـــدحي لعليـــاهـم تسرّ المســـامع
لقـــد كـــان وجـــه العيش أســود كـالحاً ببعـــدك فهـــو اليـــوم أبيـض نـــاصع

وقال في قصيدة له يمدح الوالي ناظم باشا عند قدومه إلى بغداد:

إليـك من الأمّـيّ وافتك مـــدحـــة سرى ذكـرهـــا في نجـدهـــا والتهـــائم

وقد دعي أحياناً علي المعمار البغدادي.

ذكـر لنـا التاريـخ الأدبي عدداً من الشعـراء الأميين منهم طـرفـة بن العبـد وغيره في الجاهليـة. أما في العصر العبـاسي فكان أشهـرهم نصر بن أحمد المعـروف بالخبـز أرزّي

المتوفّى سنة ٩٣٩م. كان يخبز خبز الأرز في مربد البصرة وينشد أشعاره الغزلية والناس يزدحمون على دكانه يأكلون خبزه ويستمعون إلى شعره.

عبد القادر العبادي

الشاعر عبد القادر بن عبد الله البزّاز العبادي المعروف بـ «عبد القادر شنّون»، عرف بالهجاء المقذع وروح الفكاهة والمجون، قال إبراهيم الواعظ:

إن كنت تهجو بأبيات منمّقة فإنني سوف أهجو هجو شنّون

ولد في بغداد سنة ١٨٦٥، ودرس على نعمان خير الدين ومحمود شكري الألوسيّين. ومال إلى النظم والظرافة شاباً، فلازم الفكه البغدادي الشهير عبد الله الخياط المتوفّى سنة ١٨٨٩ وحضر معه مجالس الأشراف ودواوين رجال الفضل والأدب.

ورحل إلى مدن العراق كالحلة والبصرة وحواضر الخليج، وزار الكويت والبحرين والحجاز انتجاعاً للرزق، ومدح الشيوخ والسراة. وعيّن قاضياً للقطيف فأصبح، كما قال عبد الله الجبوري في كتابه «من شعرائنا المنسيّين» (١٩٦٦)، ممدوحاً بعد أن كان مادحاً. لكن القضاء في تلك البلدة النائية لم يستقم له إلا شهوراً، وعاد إلى بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨.

عمل في الصحافة فتولى تحرير القسم العربي من جريدة الإرشاد التي أصدرها حسين فريد في شباط ١٩٠٩. ثم مضى إلى البصرة وحرّر جريدة إظهار الحقّ (أول حزيران ١٩٠٩)، وكان صاحبها قاسم جلميران. وعيّن كاتباً في المحكمة الشرعية براتب حسن، فقال ـ على ما رواه عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق (١٩٦٢): «إن حظّي لا يحتمل مثل هذا الراتب، وهو مؤذن بقرب أجلي واستيفاء رزقي». وقد توفي بعد أشهر قليلة في البصرة في ٣ تشرين الثاني ١٩١٠ مصاباً بمرض الهيضة.

عاش عبد القادر شنّون بائساً عاثر الجدّ، ومات منسياً وتفرّق معظم شعره.

ولعلّه كان من حيث الفقر وسوء الحظّ والظرف والإقذاع في الهجاء أشبه بالشاعر المصري محمد إمام العبد (١٨٦١ ـ ١٩١١) صاحب حافظ إبراهيم، الذي قال:

أنا ليل، وكل حسناء شمس، فاقتراني بها من المستحيل!

شعره:

قال عبد القادر العبادي في جسر بغداد سنة ١٩٠٢:

هي الحضارة ما تعلو به الرتب وما سوى العدل في الدنيا لها سبب

وقد تخلّص إلى مدح السلطان عبد الحميد الثاني ووالي بغداد نامق باشا الصغير، ثم ذكر تشييده جسراً على دجلة:

كل البدائع جاءت في صناعته ... مستبدع الصنع، مأموناً به العطب
كأنه، ووضوح في طرائقه، ... مهنّد منتضى في متنه شطب
إن قال واصفه: فاق الحديد، فلا ... تعجب، فربّ حديدٍ فاقه الخشب

إلخ...

وقال في منارة سوق الغزل، وهي من بقايا جامع الخلفاء:

عُجْ بالرصافة وابكِ ربعها البالي ... وقف بجامعها إن كنت ذا بال
وانظر بعينيك في أطراف ساحته، ... هلّا تجد أثراً من شامخ عال
فذي منارته في الجوّ شامخة ... كم أخبرت عنه في حالٍ وفي قال
جميلة ما رأى الرائي كرفعتها ... قامت على ساق تبجيل وإجلال
غريبة الشكل لا زالت تخبّرنا ... تغيّر الدهر من حال إلى حال
قد عشعش الذلّ في أعلى دوائرها ... من بعد عزّتها في حال إقبال
تمنطقت باسم بانيها مفاخرة ... أمثالها في زخاريف وأشكال

لقد أحبّ الكتاب واتخذه صديقاً وسميراً فقال:

كتابي، لا أروم سوى كتابي، ... فكم خفّفت فيه هموم ما بي
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي ... مخائل حكمة في كلّ باب
إذا غمزت قناة الدهر قلبي ... أداوي في مباحثه مصابي
لئن أخطأت في فكري ببحثٍ ... ففيه قد هُدِيتُ إلى الصواب
وإن شاهدت من قومي جفاءً ... يسلّيني بأقوال عذاب

ولا ندري هل ملك كتاباً في حياته، وهو البائس الفقير، أم كان في المتربة كصاحبه جعفر الحلّي الذي قال:

ملكت فكرتي بِكار المعاني ... وإلى الآن ما ملكتُ كتابا!

وكان عبد القادر شنّون كثير التحسّر على آثار المجد العربي، يبكي على أطلالها ويسترجع ما مضى من صورها وأشكالها، فقال في المستنصرية:

يا دار، ما بال ربع العلم ينعاكِ ... فما دها في الورى أعلى مزاياك
يا دار علم عفت منها معالمها ... يد الخمول، فمن أفتى فأغواك؟
لهفي على ربعك المأنوس إذ خليت ... منه أفاضل حلّوا في ثناياك
لهفي على حلقات العلم ما صنعت ... أبحاث علمهم في ظلّ جدواك

وقال يندب أطلال سامراء:

هــذي مبــانيهـم، فأيـن البـــاني؟ فتكـت بها وبــه يــد الحدثــان
خلت الــديـــار فليس تلقى بينهـــا غير الــوحــوش ومجمع الغــربــان
غــدرت بها أيــدي الــزمـــان، كأنها لم تحوِ مـن حـــور ومـن ولـــدان

وأعلن الـدستور العثماني فـاستقبلـه شاعـرنـا، كما استقبلـه غيره من رجال الشعـر والأدب، بالبشر والأمل، وحيّا مطلع عصر الحرية فقال:

ألا إن عصراً جــاء بـــالحقّ مشرقـــاً هـــو العصر لا عصر من الظلم أغبر
رعى الله عصراً فيـــه للحـــرّ راحـــة يقـــول فـــلا يخشى الأنـــام ويظهـــر
يبيت قـــريـــر العين، غير مفكّـــر بما كـــان قبل اليـــوم فيـــه مفكّـــر

عبد المهدي الحافظ

عبد المهدي بن صالح بن حبيب الحافظ من أعيان كربلاء وتجارها وأدبائها، ينسب إلى أسرة خفاجية استوطنت المشهد الحسيني. وقد ولـد في كربلاء ودرس في معاهدها، وأخـذ العـروض عن الشـاعـر الشيخ كـاظم الهرّ، وتعلم اللغـات التركيـة والفـارسيـة والفرنسية.

انتخب رئيساً لبلدية كربلاء، ثم ناب عنها في مجلس النواب العثماني من كانون الأول ١٩٠٨ إلى كانون الثاني ١٩١٢. وتوفي بكربلاء في شباط ١٩١٦.

نقل عباس العزاوي في الجزء الثامن من كتابـه «تاريخ العراق بين احتلالين» إن عبد المهدي الحافظ كان ذكياً ذا سلطة وجرأة، تـزعم في أثناء الحرب العظمى حركة انتقاض على السلطـات التركيـة، فأهين الموظفـون وأخـرجـوا من الحاضرة ولم يعـادوا إليهـا إلا بمساعدة حكومة بغداد.

وترجم له سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعـراء من كربلاء»، فقال إنه شبّ شاعراً متوقد الـذهن، بليغ البيان، واسع الاطلاع، حفظ عيون الشعر العـربي، وكان خطيباً مفوّهاً. وكان ديوانه المطلّ على الـروضة الحسينية محط أنظار رجالات البلد وملتقى أهل الأدب...

امتاز شعره بالرقة والعاطفـة المرهفة. ونظم قصائدة في الغزل والتشبيب على الطريقة القديمة، منها قوله:

إلى الله أشكـــو مـــا أقـــاسي من الجوى غـــداة استقلّت بـــالحبيب ركـــائبـــه
وأقفـــر ربـع طـــالما كـــان حـــاليـــاً بـــه فخلـت أكنـافـــه ومـــلاعبـــه
فبتُّ أقـــاسي ليلـــة مكفهـــرّة وليس ســوى الشِّعْـرَى بها مَـنْ أخـاطبـه
أكفكف فيهـا الــدمع، والـدمع مــرسل كغيـث همى لما ارجحنّت كتـــائبـــه

وأنــدب عيشــاً حــرّمتــه يــد النّــوى | وعــاث بــه من جـائر الــدهــر لاعبــه
وأذكـــر داراً طـــالما بتّ آنســـاً | بها بأغـنّ مــاطـل الــوعـد كــاذبــه
غـريـــر إذا مــا قصّر الليـل وصلــه | أمــدّت ليـالينــا القصـار ذوائبـه . . .
فمن لي بـــربع غـــاب عنـــه ربيعــه | ومَن لي بقلـب ودّعتـــه حبـــائبـــه

حـدّثني أحمد حامـد الصرّاف أن الحاج عبد المهـدي توفّي كهـلاً وكان ينظم الشعـر الرائق باللغة الفارسية .

محمد رضا الأصفهاني

الشاعر الفقيـه محمد رضا الأصفهاني النجفي ، وهو ابن محمد حسين بن محمـد باقر بن محمّد تقي . عـرفت أسرته بالزعـامة الدينية في أصفهـان ، وأمهم بنت الشيخ جعفر كاشف الغطـاء . وجدّه الشيخ محمد تقي صـاحب كتاب هدايـة المسترشدين في شرح معالم الدين .

ولد محمـد رضا في النجف سنـة ١٨٧٠ ودرس في معاهـدها . وقـد نظم شعراً كثيراً وألّف كتباً منها : نقض فلسفة داروين (في جزءين)، الـردّ على البهائية ، وقاية الأذهان (في أصول الفقه) ، إلخ .

توفّي بمدينة أصفهـان سنة ١٩٤٣ . وكانت له في شبابه صحبة ومطـارحات شعرية مع السيد جعفر الحلّي المتوفى سنة ١٨٩٧ ، فكتب إليه الأصفهاني معاتباً ومداعباً :

حللـتُ حِمى الحلّيّ ألتمس القِـــرَى | فكـــان قـــراه الهجـــو والشتـم والسّبُّ
جـــزاء سنمار جـــزاني، ولم أكـن | لأصحـب إلاّ إذا خـــانني الصَّحْـبُ
ولم يـــرعَ لي حـقّ الإخـــاء وسبّنـي | ومـــا كـــان لي إلا محبّتـــه ذنب . . .
وكـــان لآمـــالي ربيعـــاً ومـــربعـــاً | إذا مـا الـورى قـد عمّهـا القحط والجدب
فقـل لأبي يحيـى ، وإن هـــو ملّنـي : | وإحســـانِكـم مـــا ملّكم منّـي القلب
(صـــدودكم وصـل وسخطكم رضـــا | وجـــوركم عـــدل وبغضكـم حبّ)

فأجابه الحلّي بقصيدة قال منها :

وحقّكُـم مـــا ازورّ لي عنكـم جنبُ | ولا حلـن أحـــوالي ولا انقلب القلـب
صبـوت إليكـم قبل أن أعــرف الصّبـا | ومـا كنـت لـولا طيب إحسانكـم أصبو
رأيتكـــم أحنـــى وأعطـــف مـــن أبي | عليّ وأوفى الصحب إن خـانني الصحب
فقلت لنفسي : هـــا هنـــا ويحكِ احبسي | فهـذا المكـان الـرحب والمنـزل الخصب

وقـال في الأصفهـاني بعض أدباء النجف : «وللشيـخ آغا رضـا . . . حظ وافـر من الأدب ، وباع طـويل في النظم والنثر، وشعر رائق جمع فيـه بين ظرافة الفرس وفصـاحة العرب» .

وقال الـدكتور علي الوردي في مقدمـة الجزء الثالث من كتابه «لمحـات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» إن مجلة المقتطف كـانت تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم الـدكتور شبلي شميل. وحين وصلت المجلـة إلى العراق، انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردّون عليها ويفنّدونها، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ آغا رضا الأصفهاني والشيخ جواد البلاغي، وألفوا في ذلـك كتباً ضخمة بأسلوبهم الجدلي. وقد أرسل أحدهم كتـابه في نقـد النظرية إلى شبلي شميل، ظنـاً منه أن هـذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتـاب وسيعلن تركه لها، لكن شبلي شميل أرسل إليه جواباً مقتضباً هذا هو: «عذرك جهلك، والسلام».

عبد الحسين الحويزي

الشاعر الشيـخ عبد الحسين بن عمران الحويـزي ولد في النجـف في حزيران ١٨٧٠ من أسرة هاجر جدّها الأعلى من الحويزة وأقامت في الغريّ منذ سنة ١٨٣١. درس على إبراهيم آل بحر العلوم الطباطبائي ومحمد حسين الكشوان وغيرهما من العلماء والأدباء.

وامتهن البزازة تجارة والـده، ثمّ بارت تجارته فمضى إلى كربـلاء في سنة ١٩١٧ وأقام فيها يعاني البؤس وشظف العيش ويتكسّب بشعره.

وتـوفي بكـربـلاء في آب ١٩٥٧. وقـد نشر جـزآن من ديـوان الحويـزي (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، كما نشرت له ملحمة باسم «فريدة البيان» (١٩٥٥) في مدح الرسول الأعظم وآل البيت.

وشعر الحويزي تقليدي قديم الطابع مـواضيعه المدح والرثاء والغزل والهجاء والفخر وما ماثلها من الأغـراض. وذكر سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعـراء من كربلاء» أنه عاصر الحبـوبي والزهاوي والرصـافي والهنداوي وغيرهم من مشاهير الشعراء وكـانت له معهم صولات وجولات في ميدان الأدب.

من شعره في ثورة العشرين:

أيطلق شعبنـــا للـــزحف ســـاقـــا ... وكم خطـب لـــه الحدثـــان ســـاقـــا
لقـــد عقـــد الضغـــائن فيـــه خصم ... بخـــدعتـــه ليحتـلّ العـــراقـــا
فـأورى فتنــــة عميـــــاء شبّـت ... ليصلي حـــزب جيرتـــه احتراقـــا

إلخ...

الملاّ عثمــان الموصــليّ

من أذكياء المكفـوفين وآيات الفطنـة وحسن التصرّف، الملا عثمان الموصلي المولويّ، كان حـافظاً مقـرئاً وموسيقياً شـاعراً يجيد اللعب بـالشّطرنج والعـزف على العود وآلات الطرب.

وهو عثمان بن عبـد الله السقّاء ابن فتحي بن عليـوي آل الطحّان. ورجّح الـدكتور عادل البكري، الذي ألّف كتاباً فيه سنة ١٩٦٦، أنه ابن عبد الله بن محمّد بن جرجيس من البوعلوان إحدى فرق الدليم.

ولد عثمان بالموصل سنة ١٨٥٤ لأسرة فقيرة، وفجع بوفـاة والده وعمره سبعة أعوام، وكـان قبل ذلك قد أصيب بـالجدري ففقـد بصره. وتعهده الـوجيه محمـود بن سليمان العمري بـالرعـاية، فهيّأ لـه حفظ القرآن وتعلّم مبـادىء اللغة. ومضى بعـد ذلك إلى بغداد سنة ١٨٨١ بصحبـة أحمد عزّت باشا ابن محمـود العمري ودرس على الشيخ داود النقشبنـدي وبهاء الحق. ودرس المقـام وأصـول الغنـاء على مغنّي الموصل، ثم اتصل بالمشهورين من رجال الفنّ في بغداد وأخذ عنهم.

ذهب إلى الحجّ، ثم عاد إلى الموصل سنة ١٨٨٦، وقصد استانبول (١٨٨٩)، وقفل راجعاً إلى بغداد. وشدّ الرحال مرة ثـانية إلى قاعدة السلطنة والخلافة، وعرج على مصر سنـة ١٨٩٥ فلبث فيهـا خمسة أعـوام طبع في أثنـائهـا كتبـه وأصـدر في القاهـرة مجلـة «المعارف» (١٨٩٧).

وفي سنة ١٩٠٠ مضى إلى استانبول، ثم قصـد الشام وبقي فيها من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩. وأدّى فريضة الحج ثانيـة، وعاد إلى دمشق، ثم زار بيروت واستانبول ودمشق وحلب، حتى عاد أخيراً إلى الموصل في حزيران ١٩١٣.

أخذ عنه فـريق من المغنّين والموسيقيين في مصر ودمشق، منهم الشيخ سيّد درويش ومحمـد كـامل الخلعي وعلي محمـود وأحمد أبـو خليل القبّـاني. وعلت لـه شهـرة في دار الخلافة في قراءة الموالد وإحياء حفلات الذكر ومجالس الصوفية.

قدم بغـداد في نيسان ١٩١٤ فعيّن شيخـاً للقرّاء بمـدرسة جـامع المراديّة. وعـرفت بغـداد فضلـه، فكـان محور حلقـاتها وواسطـة عقـد أنـديتهـا والمجلّي في محافل الأنس والطرب. ذكره إبـراهيم الواعظ في «الروض الأزهر» بمناسبة عقـد قرانه في تشرين الأول ١٩١٤، قال:

«ثم بعـد أيـام شرّف حضرة بلبل القسطنطينيّـة ومصر والشام والعـراق، الـذي ذاع صيته حتى عـلا الآفاق، الأكمل اللوذعـيّ والشاعر الألمعيّ المولـويّ الملاّ عثمان أفندي الموصليّ حفظـه الله إلى دارنا. وبعـد تلاوة عشر من الكـلام القـديم، قال مـؤرّخاً عـام

القران، وفي الأبيات:

زفـافك، فـرع المصطفـى وابن مصطفى، زفـاف على الـزُّهْـر السّواري بـه الفخـرُ
تـوخّيت شمس الفضل عن جعفـر الهدى غـدت لك شمسـاً حيثُ أنت لها البـدر
شقيقك إسماعيـل أبـدي لـه الهَنَـا وذلك بعـدي حيث لي عنـدكم ذكـر
بعـرسك هتّـان المنى قـال أرّخـوا: زفـافك، إبـراهيم، شـحّ بـه خير»

وقامت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ فكان للملاّ عثمان مواقف فيها محمودة شعراً وخطابة. وأدركته الوفاة ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣.

وقد أقيم لـه تمثال في مسقط رأسه الموصل سنة ١٩٧٠. رثـاه عند وفاته عبد الرحمٰن البنّاء بقصيدة مطلعها:

رحلت، والصـدر بـالإيمان مـلآن، في ذمّـة الله شيخ العلم عثمان

مؤلّفاته:

من مؤلفاته المطبوعة في استانبول والقاهرة: الأبكار الحسان في مدح سيّد الأكوان (١٨٩٥) تخميس لاميّة البوصيري (١٨٩٥) المراثي الموصليّة (١٨٩٧) مجموعة سعادة الدارين (١٨٩٨). ونشر أيضاً: الأجوبة العراقية لأبي الثناء الألوسيّ (١٨٩٠) الترياق الفاروقي (ديوان عبد الباقي العمري الفاروقي، ١٨٩٨)، إلخ.

قال عثمان الموصلي يمدح يوسف السويدي:

سلمنـا الخطـوب ونلنـا المرام ومقـدامنـا حـلّ دار السّـلام
تنـاديـه أربـابنـا مـرحبـاً وأهـلاً وسهـلاً بمُـرْوي الأوام
بـآبـائه ضـاء نـور الهدى وفيـه سنحظى بصفـو المقـام

وقال فيه أيضاً:

رسـالـة البرق قـد جـاءت مبشّرة أهـدت إلينـا سروراً آخـر الـزمن
أنجى الإلٰـه عـزيـز المصر وانكشفت عنـه الظنـون وخـابـت فـرقـة الضغن

ومن شعره الصوفيّ، قال:

بني المصطفـى، قلب المتيّم قـد أبـدى لكم فـرط وجـد لا لسلمى ولا سعـدى

وقال:

قلبي بحبّكـم، والله قـد جـذبـا، وظـلّ فيكم عـن الأغيـار محتجبـا

ذكره الدكتور مصطفى جواد في بحث له عن الغناء والمغنين في العراق فقال: «... وملا عثمان الموصلي الضرير كان من أعلام المغنين والموسيقارين، وله فيها تأليف، ويحسن قراءة المولد النبوي.

وكان من الخطباء المصاقيع في الحركة الوطنية بالعراق. أدركته، وكان يضع على رأسه القلنسوة المولوية البيضاء من اللّبد، توفي قبل عدة سنين».

وقال محمد هاشم الرجب استاذ المقام العراقي في معهد الفنون الجميلة ببغداد:

«الشيخ عثمان الموصلي. . . وهو إمام أهل الفن في هذا المضمار (أي مضمار المقام العراقي) يبتدع القطعة ببراعة في الاسلوب ودقة في الأداء. يجيد الغناء بأفانينه، يرتجل الشعر الرصين في المناسبات حسب البحور اللازمة لكل مقام، كما يحسن الضرب على العود والنفخ بالناي والعزف على القانون. وهو كفيف».

وقال جلال الحنفي: «كان كثير الاسفار في البلاد والتجوّل فيها. وكان صوته غليظاً أجشّ وفيه بحّة ــ وإلى الملا عثمان تنسب عشرات التنزيلات والاشغال المولوية المستعملة اليوم في الموالد النبوية».

وذكره أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» باسم الشيخ عثمان البصير، فقال انه كان يتولّى تدريس علم التجويد والقراءات في جامع الخفافين ببغداد. ثم قال: «وكان حسن الصوت والأداء يخلب الألباب ويسحر العقول بنغماته الشجيّة، فضلاً عن كونه كان عالماً فاضلاً وشاعراً. . . وله إلمام في الموسيقى، وكان يحسن قراءة المولد النبويّ».

حدثني محمود صبحي الدفتري عن ذكاء الملا عثمان الموصلي فقال انه كان يعرف الناس من صوتهم أو لمسة يدهم.

قال الدفتري: سافر أبي فؤاد إلى استانبول سنة ١٩٠٥، فكان يجتمع دائماً بصديقيه موسى كاظم الباجه جي ووفيق الربيعي، فيأخذون الملا عثمان إلى بعض الأندية أو المقاهي ويتمتعون بفكاهاته ولطائفه. وذهبوا مرة إلى المسجد الذي كان يعظ فيه ويقرأ الأذكار، فلما أطال وأسهب، نبّهوه إلى وجودهم، فقال منغماً في أثناء ترتيله:

يا فؤاد، يا موسى، يا وفيق، إنني أنتهي قريباً، فانتظروني. وحسب الأتراك الموجودون في المسجد أن ذلك من جملة التراتيل فكانوا يردّون على أقواله: آمين، آمين!

ولم يلتقِ محمود صبحي نفسه بملاّ عثمان إلا في سنة ١٩٢٠. كان يسير بصحبة أحد أصدقائه، فتقدم محمود صبحي وسلّم عليه وصافحه قائلاً إنني أتشرّف برؤيتك لأول مرة، ايها الملا المحترم، ولكنني سمعت عنك الشيء الكثير من والدي. وتمايل جسمه يميناً ويساراً على عادته حين يفكّر، ثم قال على البديهة:

أوراق إخلاصي، إذا ما كتبت،	تنشر في البلدان حسن الأسطر
كلّها محفوظة في مهجتي	ومهجتي عند فؤاد الدفتري

الشيخ محمد السماوي

من شعراء المدرسة القديمة في العراق وذوي البصر بالكتب والمخطوطات القاضي الفقيه، وهو ـ كما سمّى نفسه في تقريظ قديم لكتاب «الروض الأزهر» الذي ألفه مصطفى نور الدين الواعظ ونشره ولده ابراهيم الواعظ ـ محمد ابن الشيخ طاهر التركي الفضلي الشهير بالسماوتلي، ولد في بلدة السماوة على الفرات سنة ١٨٧٦ . ولما بلغ العاشرة من عمره أرسله والده إلى النجف فدرس في معاهدها، ثم قصد سامراء ولازم عالمها الامام حسن الشيرازي. وعاد إلى مسقط رأسه سنة ١٨٩٧، ولبث متنقلاً بين السماوة والنجف حتى سنة ١٩١٣ حين قصد بغداد إذ أصبح عضواً في مجلس الولاية.

احتلّ الانكليز العاصمة العراقية سنة ١٩١٧ فبارحها إلى النجف، وعين قاضياً شرعياً بها في ٢٤ آذار ١٩٢١ . ونقل قاضياً لكربلاء (حزيران ١٩٢٤) فبغداد (آب ١٩٢٥)، وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري (١٩٢٦). وأعيد قاضياً جعفرياً في بغداد (كانون الاول ١٩٣١) فالنجف (شباط ١٩٣٤)، حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٣٥ .

وقد قيل إنه فصل من الخدمة وفقاً لأحكام قانون ذيل قانون انضباط الموظفين بناءً على مسعى السيد محمد الصدر، فداعبه محمد علي اليعقوبي قائلاً، بحسب رواية جعفر الخليلي:

قل للسّماوي الذي	فلك (القضاء) به يدور
الناس تضربها (الذيول)	وأنت تضربك (الصدور).

وسكن السماويّ النجف بعد ذلك منصرفاً إلى عالم الكتب. وانتخب عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في ايار ١٩٤٩ . وأدركه الحمام في النجف في ١٦ تشرين الاول ١٩٥٠.

شعره ومؤلفاته:

نظم محمد السماوي الشعر، وهو في ميعة الصبا، فأكثر منه في الغزل والاخوانيات، ثم اقتصر في نظمه على مدح النبي وآله.

ومن مصنفاته: شجرة الرياض في مدح النبي الفيّاض (١٩١٢) ثمرة الشجرة في مدح العترة المطهّرة (١٩١٣) إبصار العين، في أنصار الحسين (١٩٢٣) ظرافة الأحلام (١٩٤١) تاريخ المعصومين، صدا الفؤاد (١٩٤١) عنوان الشرف في وشي النجف (١٩٤١) مجالي اللطف بأرض الطفّ (١٩٤١) وشائج السرّاء في شأن سامرّاء (١٩٤١) الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية (١٩٤١) موجز تواريخ أهل البيت (١٩٦١) الخ . . .

ومن مؤلفاته المخطوطة: الطليعة في شعراء الشيعة (ثلاثة مجلدات) قرط السّمع (أرجوزة في الربع المجيّب). ونشر كتاب المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة الخ... لابن الجوزي (١٩٣٠) ومقتل الحسين للموفّق الخوارزمي (في جزءين، ١٩٤٨).

نهج في شعره على الطريقة القديمة، فاستهلّ أماديحه متغزّلاً، كما قال في مدح الرسول الأعظم:

أخجلتَ جيد الريم بالالتفاتْ ... وفقت سلّ السيف بالانصلات

بسمت زهواً بشتيت اللّمى ... فأيّ شمل لم تدعه شتات؟

تقوّل الناس بتحقيقه ... والله قد أنبت ذاك النبات

ثغر إذا لُحْنَ ثناياه لي ... عجبتُ للؤلؤ وسط الفرات

جلا علينا فمه خمرة ... فهاك، يا ساقي كأسي، وهات

وقال في مدح علي السجّاد بن الحسين:

أبْدِ لي مِمَّ احورار المُقَلِ ... أهو من كحل بها أم كحلِ؟

بتُّ منها، وهي سكرى، ثملاً ... هل سمعتم ثملاً من ثمل؟

تلفت نفسي، أما يرأف بي ... ساحر الأجفان أو يعطف لي؟

وقال يتلهف على الشباب المدبر:

أبعد أن عرّى الصبا أفراسَهُ ... تطلب إيناس الهوى أو ناسَهُ؟

خفّض عليك فالمشيب قد أتى ... يضحك منك كاشراً أضراسه

لم تدع الخمسون منك جانباً ... إلاّ وهدّ مرها أساسه

سوّد لي غضّ الشباب كُتبَهُ ... وبيّض الشَّيبُ بها قرطاسه...

وقال متغزّلاً في مطلع قصيدة له مدح بها السيد مصطفى نور الدين الواعظ مفتي الحلة:

صليني، يا أميمُ، كما قطعتِ ... وعاصي العاذلين كما أطعتِ

فديتك قد شربت بماء وجهي ... رضاك فما رضيت وما قبلت

أتيتك أشتكي فصفحت عني ... كأنّك ما رأيت وما سمعت

تقولين: السلوّ به حقيق ... عفا الرحمن عنك، لقد ظلمت

سلوّي مثل وصلك مستحيل ... فإن أسلو، ولن أسلو، وصلت

أجدّك هل علمت طويل ليلي ... فإني قد سهرت وما سهرت...

وقال في النجف :

ألمَّ على ذكـــــــوات النجـف ... ولاحظ بطـــرفك تلك الطُّـــرَفْ
هـــواءً نقيـــاً تحفّ النفـــوس ... بطيب هـــدايــا لـــه أو تحف
وتـــربـــاً زكيـــاً يـــودّ الفـــؤاد ... يــــلاصقــــه من وراء الشغف
وعـــرفـــاً ذكيـــاً بغير الكبـــا ... إذا الأنـف نـــاشقـــه وائتنف . . .
وإخـــوان صـــدق رقيقي الطبـــاع ... تكـــاد طبـــاعهُـم تــــرتشف
كماة كــــرام يـــرون الشرف ... بفـــرط الشجـــاعـــة أو بـــالسّرف
يــــؤلّفهم جـــــامع من ولا ... عليّ إذا مـــا القبيـل اختلف
كـأن الجماهير حـــول الضريح ... حجيـج بمكـــة ذات الشرف
كـأنّ صفـــوفهم في الصـــلاة ... أكـــاليل درّ بتـــاج تُصَف
كـأن العلـــوم إذا دارســـوا ... بحـــار بأفكـــارهم تغترف
سل الصحن كم فيـــه من لائذ ... يقـــول عليّ لـــه : لا تخف
وكم فيـــه من مستقيل يقـــال ... لـــه قـــد عفـــا الله عمّا سلف
وكم فيـــه من ذاكـــر ربّـــه ... تقـــرّب بـــالمرتضى فـــازدلف

ونظم محمد السماوي أراجيز في تاريخ النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء ، قال في مطلعها :

أحمد من قـــــد أنشـأ السماءا ... والأرض وامتـــازهما إنشـــاءا
واختـصّ بعـض الخلـق دون بعـض ... بفضلـــه من السما والأرض . . .

قال جعفر الخليلي : «لم يعرف التاريخ عالماً في العصور المتأخرة أحاط بالكتب القديمة وتواريخها ومواضيعها وقيمة الكتب الأثرية ونفاستها كالشيخ محمد السماوي . . . فهو في عصورنا المتأخرة كمحمد بن اسحق (ابن النديم) صاحب الفهرست في عصره ، فقد كان السماوي مرجعاً فذاً في تثمين الكتب القديمة ومظانّ وجودها . . . وقد جاءته هذه الملكة من افناء عمره الطويل في جمع الكتب ، والمخطوطات بصورة خاصة ، وللكتاب في نفسه منزلة ما حاكاها شيء معزّة وحباً وتقديساً .

ولقد روى الراوون عنه ، على سبيل الفكاهة ، قوله : إنه عمل قاضياً اكثر من ثلاثين سنة (كذا) ، وكان يجنّب نفسه الاتصال بغير أصدقائه الخلّص المنتقين ، وكان يرفض قبول أية هدية من أي شخص . . . حذراً من أن تشوب حكمه شائبة من العواطف . لقد قال : «لقد حاول الكثير إغرائي بشتى الطرق فلم يفلحوا لأنهم لم يكتشفوا نقطة الضعف في نفسي ، ولو عرفوا قيمة الكتب عندي ومنزلتها في نفسي لأفسدوا لي برشوة الكتب كل أحكامي !»

وكانت له مكتبة نفيسة جمع فيها المطبوعات والمخطوطات النادرة، ولقد طالما نسخ الكتب بخطه وجلّدها بيده ليضمّها إلى خزانته. وقد بيعت بعد وفاته وتفرقت مجلّداتها.

وللشيخ محمد السماوي رسائل ذات الديباجة القديمة، منها ما كتبه في مقدمة رسالة إلى المفتي السيد مصطفى نور الدين الواعظ سنة ١٨٩٨ :

كفى حزناً أني أرى الورد حاضراً لديّ ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيّتي بكفّ أعزّ الناس كلّهم عندي

السلام الذي تهدّلت أغصانه النواضر، وتهلّلت غمائمه المواطر، وتنافحت نسائمه العواطر، فضاء برقه، وضاع عبقه، وارتاح ودقه. والتحية التي تحيي القريض، وتشفي المريض، وتبرد القلب الرميض، وتلبس ثوب المجد الطويل العريض، فهي أقرّ على العين من رؤية الروض الأريض. والثناء الذي عذب رقيق لفظه وملح حرّ معناه، وحلا بيته على كل سمع ولذّ مغناه، فهو أنظر من برد الشباب، وأنضر من مواصلة الأحباب، يهديها وينيرها ويسديها :

مغرم ما تنفّست نسمات الجوّ (م) إلا وهيّجت أنفاسه
وإذا ما الوميض لاح تلظّى وثنى طرفه وأطرق راسه

وهي طويلة نشر نصّها في كتاب الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر لناشره ابراهيم الواعظ. وختمت الرسالة بقصيدة طويلة في مدح المفتي، ومطلعها :

صليني، يا أميم، كما قطعتِ وعاصي العاذلين كما أطعتِ

حتى يقول :

همام قد تفرّع من همام بأصل طيّب في المجد بَحْتِ
لقد غرسته دوحة آل فهر بأطيب تربة وأعزّ نبت
أطاب الخلق منه حسن خلق وزان الصّمت منه حسن سَمْتِ
تجمّع في علاه كلّ وصف وحاز على علاه كلّ نعت

الخ....

رضا الهندي

الشاعر رضا الهندي ابن السيد محمد بن هاشم الموسوي، ولد في النجف سنة ١٨٧٣، ودرس على محمد كاظم الخراساني المعروف بـ«الأخوند». وقد تفقّه في علوم الدين وقرض الشعر فجوّده.

كتب عنه جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» فقال إنه بارع النكتة، لطيف المحضر، لم تنحصر صفاته بالأدب، بل كان فقيهاً غزير المادة، واسع الاطلاع، له في العلوم الدينية، ولا سيما الردود على الذين تناولوا الدين الاسلامي، جولات وصولات . . . وقال انه ولع بالبديع ولعاً كبيراً، ووضع «مقامات» هي شعر إذا شئتها شعراً ببحور مختلفة وقوافٍ متنوعة، وهي نثر إذا شئتها نثراً مسجّعاً أو مرسلاً. وله تواريخ شعرية غريبة في بابها، ومن قصائده التي اشتهرت «الكوثرية»، ومطلعها:

أمفلّج ثغرك أم جوهر ورحيق رضابك أم سكّر؟

قد قال لثغرك صانعه: «إنا أعطيناك الكوثر».

وروى جعفر الخليلي طرفاً من لطائف رضا الهندي، ومنها أنه حكّمه ذات يوم في قضية أدبية ـ وكان يحسب نفسه محقاً فيها ـ فحكم لخصمه. وغضب الخليلي لذلك الحكم، فقال له الهندي: «إذا كنت تريد العراك وكنت شجاعاً، فيجب أن تبحث عن «تركي» حادّ المزاج لا أن تقصد «هندياً» بارد الطبع مثلي».

توفي السيد رضا الهندي في حزيران ١٩٤٣ في الفيصلية.

طبعت قصيدته الكوثرية في مدح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، وطبع من مؤلفاته: بلغة الراحل، الميزان العادل بين الحق والباطل (١٩١٣).

عبد الحقّ الأعظمي

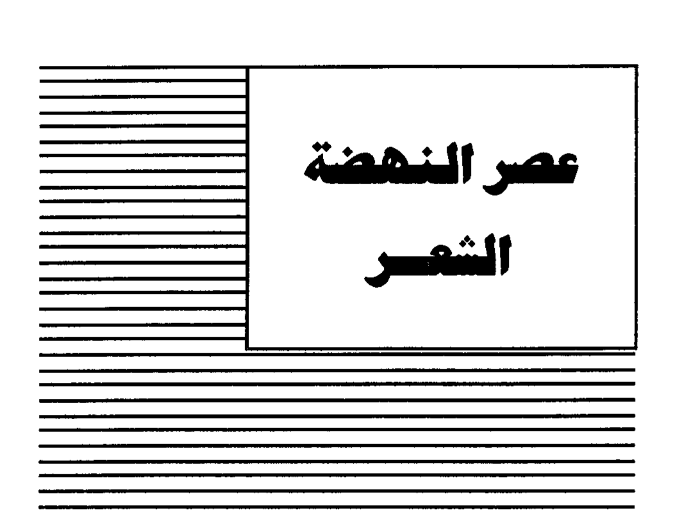
عبد الحقّ حقّي الأعظمي الشاعر الأديب ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٨٧٣ ودرس في معاهدها. ثم مضى إلى الهند، وهو شاب، فعهد اليه بالتدريس في كلية عليكره (وهي مدرسة أنشأها في تلك المدينة سنة ١٨٦٤ السر السيد أحمد خان ليجمع فيها التعليم الاسلامي القديم إلى العلوم العصرية، وقد رفعت الى مصاف الجامعات سنة ١٩٢٠).

عاد الأعظمي إلى بغداد بعد الحرب العظمى الاولى ونشر شعره في المجلات والجرائد. وألف: أعجب العجب من أحوال العرب (طبع بالقاهرة، ١٩٢٢).

أثنى عليه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، وقد عرفه حين زار الهند سنة ١٩١٣ وقال إن الأعظمي كان مدرس اللغة العربية في مدرسة العلوم الكلية.

سافر إلى مكّة فوافته منيّته بها سنة ١٩٢٤، كما يستفاد من رثاء له بتوقيع «زهير» نشر في جريدة الضاد البغدادية لصاحبها محمد صالح سليم السهروردي (في العدد الخامس المؤرخ ٢٥ آب ١٩٢٤)، ومطلعه:

بكى العـــراق بـــدمـع ســـال منسكبـــا		على الـــذي يتَّم الأقـــلام والأدبـــا . . .
تـــالله قـــد كـــان عبـــد الحقّ بـــدر هـــدى		يهدي الـــورى غير أنّ اليـــوم قـــد غـــربـــا
العلم مـــن بعـــده قـــــد بـــات منكسراً		والشعـــر من بعـــده قـــد صـــار منعطبـــا
والأعظميـــة في ثـــوب الحداد غـــدت		تقـــول : أين نـــزيـــل الهنـــد قـــد ذهبـــا؟
منّـــا عليـــك ســـلام كلما قـــرئت		قصـــائد لك كـــانت تسحـــر الأدبـــا


عصر النهضة
الشعر



جميل صدقي الزهاوي

شاعر النهضة الأدبية جميل صدقي بن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهاوي ولد ببغداد في ١٨ حزيران ١٨٦٣ وتوفي بها في ٢٣ شباط ١٩٣٦ . كان نائباً في مجلس النواب التركي وعضواً في مجلس الاعيان العراقي . وقد ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» ترجمة وافية . اهتم الزهاوي بتحرير المرأة واتخذ شعره أداة للدعوة إلى تثقيفها وانهاضها . وكانت شقيقته الآنسة أسماء الزهاوي من رائدات النهضة النسائية ، إذ أسست «جمعية النهضة النسائية» في بغداد سنة ١٩٢٤ وانتخبت رئيسة لها . وعهدت بنيابة الرئاسة إلى السيدة نعيمة قرينة نوري السعيد .

عيّن الزهاوي على أثر احتلال بغداد عضواً بمجلس المعارف في أول ايلول ١٩١٨ واستمّر فيه إلى ٣١ تموز ١٩٢١ . واختير في ١٩ شباط ١٩٢٠ مدرساً للّغة العربية بمدرسة الحقوق . وعيّن رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية في نظارة العدلية في أول آذار ١٩٢٠ حتى الغاء اللجنة في ٣٠ حزيران ١٩٢١ .

انتخب نائباً عن المنتفق في مجلس المبعوثان (١٩١٢) وناب عن بغداد في المجلس الذي تلاه . وقد عاد إلى بغداد قبيل نشوب حرب ١٩١٤ فبقي فيها ولم يعد إلى استانبول لحضور جلسات المجلس النيابي بخلاف زميله معروف الرصافي نائب المنتفق الذي لبث في العاصمة التركية إلى سنة ١٩١٩ .

وقد اشترك الزهاوي مراراً في مناقشات المجلس ، فاعترض على جباية الضرائب من دور الفقراء واعفاء قصور الأمراء ووصيفات آل عثمان . وانتصر لحرية الصحافة عند بحث قانون المطبوعات فقال : أثبت تاريخ الأمم أنه كلما اشتد تضييق الخناق على حملة الأقلام والأفكار كان الانفجار عظيماً . وطالب الحكومة بجعل الأحكام العرفية تابعة للتمييز . وطلب جعل اللغة العربية لغة رسمية للمحاكم في العراق تحقيقاً للعدالة ولغة التدريس في المدارس . ودعا إلى تأسيس كلية طبية في بغداد أسوة بدمشق . وناقش شؤون الزراعة ودعا إلى العناية بها .

وذكر سليمان فيضي في مذكراته «في غمرة النضال» أن بعض القادة البحريين أوقفوا أوقافاً تصرف غلتها للأئمة الذين يقرأون البخاري في السفن الحربية . قال الزهاوي عند المذاكرة في ميزانية القوة البحرية إن البواخر تسير بالبخار لا بالبخاري وطالب بإنفاق

تلك الغلة على نشر التعليم ليتقن الناس استعمال البخار.

وفي مناسبة اخرى قال الزهاوي إن الآية الكريمة **﴿إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** لا تعني بالصالحين العبّاد والنسّاك بل تعني الصالحين لإعمارها، وقوبلت كلماته بالضجيج والاستنكار والتكفير.

وكان في العهد الملكي عضواً بمجلس الأعيان (الشيوخ) (١٩٢٥ ـ ٢٩) فكانت الكلمات التي ألقاها ينصبّ معظمها على شؤون لغوية ولفظية.. ولما انتهت عضويته في المجلس، وقد سقط بالقرعة، ولم تجدّد قال يخاطب نفسه:

سقطت فلا تحزن على ما فقدته، فما أنت بين السّاقطين بأوّل
فكم من وزير كان قبلك قد هوى (كجلمود صخر حطّه السّيل من عَلِ).

الزهاوي المتشكك:

كان الزهاوي متشككاً فحيناً مؤمناً وحيناً جاحداً وتارة اخرى لا أدريّاً. وقد استهوته نظرية التطوّر (أو كما كانت تدعى آنئذٍ: نظرية النشوء والارتقاء)، فطالع آراء داروين وهكسلي وغيرهما كما ترجمها «المقتطف» وعبّر عنها الدكتور شبلي شميّل والدكتور يعقوب صروف وفرح أنطون وإسماعيل مظهر. ونظم هذه الآراء في قصائده رغبة منه في التجديد كما نظم سواها من الأفكار العلمية والأخلاقية.

ولم يفهم نظرية داروين على حقيقتها، فظنّ أن الإنسان حسب نظرية التطور متحدّر من القرد فقال:

رجعت إلى الماضي البعيد بفكرتي وقلت لقرد الغاب: يالك من قرد
تقلبت في الأصلاب دهراً وبعده نسلت ابنك الإنسان نادرة الوُلْدِ

وقال أيضاً يخاطب الإنسان:

هل أنت إلاّ واحد من القرود في النسب؟
ألم تكن وأنت في طور الجنين ذا ذنب
مشابهاً جنين حيوان لو اسطاع وثب؟

وعلماء التطور إنما قالوا ان جدّ الإنسان والقرد كان واحداً قبل مئات الملايين من السنين، ثم اختلف النسلان على مرّ الدهور فأنجبا الإنسان والقرد في خط متواز كلاًّ منهما بمعزل عن الآخر. وقد قلت في ذلك:

يا قرود الغاب، نقريك السلام،
جدّنا كان لكم نعم الرفيق
أخرج الصوت شبيهاً بالكلام،

تــــرك الأدغــال وارتــاد الطـــريق . . .
زرع القمــح وأنـــــواع النبـــــات ،
شيّـــد الــــدور وقـــد أحيى الفـــلاة ،
وتعـــــالى سيّـــــد الأرض المطــــاع .
ومضى يــــومــاً إلى الغـــاب البعيــد
فأتــى بـــالقـــــرد في طــوق الحديــــد
هـــزأةً يسلـــــو بـــــه هم الصراع . . .

آمن الزهاوي بالعقل واتخذه نبراس الـوجود وحاول أن يستغني به عن الإيمان . لكن العقل قاصر يعجز عن ادراك منشأ الكون وخـاتمته وتصوّر اللانهاية المكانيـة والزمانية . وحار العقل في تعليل انبثاق الحياة وتطورها ، فاكتفى الزهاوي بأن قال :

مـــا حيـــاة قـــديمهـــا غير بـــاد ... لــك الا تطـــــــــــوّر في الجماد

وقال :

رقيـت مـن الجماد فصرت حيـــــــاً ... تميّـــز بـــالــــدراســـة والــــذكـــاء

وبينا نراه يكبر سلطان العقل إذا به يقول :

للكـــــــون فيما بـــــــدا لي ... ظـــــواهـــــر وخفــــايـــــا
مـــــا قـــــام فينـــــا حكيم ... يحلّ بعـض القضـــــايـــــا . . .

وهو يمعن في الإنكـار في «نزغـاته» التي نشرهـا هلال ناجي في القـاهرة (الـزهاوي وديوانه المفقود ، ١٩٦٣) فيقول :

تــــــوقّفتُ لا أدري تجاه الحقـــــائق ... أأنّي خلقـت الله أم هـــــو خــــالقـي؟
لئن وثـق الجمهــــور بـــالله خــــالقـــاً ... فــــــــربَّ حكيـم بينهـم غير واثـق!

لكنهفي آخر الأمر يرتدّ نادماً ويستغفر قائلاً :

أنـــــا فيما أبـــديتـــــه من مقـــــال ... مخطـىء ليس لي أقـلّ استنــــــــاد
شهـــــد الله والملائكـــــةالأبــــــرار ... أنّي ركبـت غير السّــــــــــداد . . .

وكذلك كان الزهاوي مؤمناً جاحدا لا أدريًا ، حكيماً حائراً متردداً ، جمع العبقرية في نقائضه وتقلباته .

جميل صدقي الزهاوي

روايـة ليـلـى وسميـر:

(نظمها سنة ١٩٢٧ ونشرها في مجلة لغة العرب)

يفتتح المشهد الأول بزينب تغني اغنية النوم لابنتها ليلى حين كانت طفلة :

نعست بعـد الـرضـاع وللنعـاس دواعـي
تغفين فـوق ذراعـي والآن في المهـد نـامـي

وهي أغنية رقيقـة ساذجـة العواطف تمثل نفس الشـاعر الـوجداني المحب للطفـولة والبشرية .

ثم تكبر ليلى فيحبها الفتى سمير وتبادله الحب . ويلتقي الحبيبان على شاطىء دجلة في ليلة قمراء ويتحدثان في أمـر الزواج . لكن الشيخ عبد الله رجل الدين الكهل الذي طلق نساءه الثلاث واحدة بعد واحـدة يرسل الخطـابات إلى أم ليلى فتردهنّ . ويحرّض الشيخ الوالي على سمير متهماً إياه بـالطعن في الذات السلطانية ، فـلا يجد سمير مناصاً من الهجرة إلى خارج العـراق وتقديم الشكوى إلى السلطان فيأمر هـذا واليه بالكف عن تعقيب الفتى البغدادي .

يعود سمير إلى ليلاه ويستعـد لعقد قرانه . لكن الرجل المسمى رجب الـذي يتظاهر بصداقة سمير ويكشف أسراره للشيخ عبد الله يكتب نشرة مقلداً خط سمير وفيها حثّ على الثورة باسـم الحرية . ويتهم سمير بالجريمة ويقبض عليـه ، بينما تمرض زوجته بعد ولادة عسيرة وتقضي نحبها . ويختتم شاعـرنا روايته بقصائد حزينة أولاهـا لليلى في ساعة موتها ، والثانية لزينب على قبر ابنتها . ويطلق سراح سمير بعد اعلان الدستور واطلاق الحريات ، وقد مضى على نفيـه عامان ، فيعود ليرى طفلـه لأول مرة ويسمع خبر موت زوجته ، فيلقي على جدثها قصيدة شجية :

هـل مـا أراه قبر ليلـى مـاثـلاً يبـدو أمـامـي
كـذبـوا فإنـك في ظـلام القبر يـومـاً لم تنـامـي . . .
سيظـل طـرفي هـاميـاً يسقـي ثـراك على الـدوام
ويظـل قلبـي خـافقـاً ممـا يقـاسي وهـو دامـي

نوادر الزهاوي :

كان جميل صـدقي الزهـاوي في شبابه وكهـولته مرحـاً بعيداً عن التـزمت واصطناع الوقار .

قال ناجي شوكت في كتابه «سيرة وذكـريات ثمانين عاماً» : «كنت خلال هذه الفترة (سنة ١٩١٦) أتردد على دار العم مراد سليمان في أغلب الليالي . وكانت الدار المذكورة تضم من المداومين الدائمين السادة جميل صدقي الـزهاوي وأحمد القيماقجي (من ظرفاء بغداد المعـروفين) وعزّت الفـارسي وعبد الرزاق الشيخ قـاسم والدكتـور سامي سليمان . وكان الزهاوي يسمعنا من شعره كلّ طريف ولذيذ ، كما كان يسمعنا عن آرائه في الكون والعلم كلّ غريـب ، أما القيماقجي فكان يبتكـر لنا الحكـايات المضحكة التـي تدخل السرور على قلوبنا» .

ثم يذكر ناجي شوكت سهرات ليالي الجمعة في دار مراد سليمان الواقعة في الصليخ ،

وهي سهرات أنس وطرب. قال: «وكان الزهاوي ينقلب في مثل هذه الليالي التي تمتد حتى الصباح إلى شخصية أخرى لا تمت إلى العلم والشعر بصلة. وعند الفجر كنّا نشكّل دائرة (حلقة) حول الزهاوي رحمه الله ونردّد الأغنية المعروفة «يا مسعد الصبحية». .

ومن النوادر التي تروى عن الزهاوي أنه شوهد ذات ليلة في استانبول يسير في بعض الشوارع المشبوهة، وكان آنذاك يرتدي الجبّة والعمامة.

فرآه شرطّي من شرطة الآداب وقال له: أيها الخوجة (الملاّ)، ماذا أتى بك إلى هنا؟ وأصرَّ على أخذه إلى دار المشيخة الإسلامية. لكن شاعرنا تصنّع جهل اللغة التركية وأجاب بالفارسية أنه غريب وقد ضلّ طريقه. فأخذه الشرطي إلى دار السفارة الإيرانية وأخلى سبيله.

وكان الزهاوي يداوم الحضور في بغداد في مجلس محمد باشا الداغستاني. وكان لهذا القائد حديقة كبيرة ملاصقة لداره، وفيها أقفاص للأسود والحيوانات الضارية الأخرى. وكان من الذين يحضرون المجلس مدير الشرطة التركي، وهو رجل ضخم الجثة، شديد البأس، يبالغ في أحاديثه ويروي عن نفسه قصص بطولة عجيبة. وضاق الزهاوي ذرعاً بمفاخراته، فقال ذات يوم في المجلس الحافل: «هل تعلمون أن هرتز فلد العالم الألماني قد اكتشف في خرائب سامّراء آثاراً غريبة؟ وقد وجد في ضمنها صندوقاً أكل الدهر عليه وشرب ففضّه ووجد في داخله صندوقاً ثانياً وثالثاً ورابعاً. . . »

وظلّ الزهاوي يواصل وصف الصناديق المحفوظة أحدها في داخل الآخر، فقال له الحاضرون: «وماذا كان في داخل الصندوق الأخير؟» قال: «وجد العالم في الصندوق الأخير ورقة عليها كتابة، فأكبّ على حلّ طلاسمها، فإذا فيها: لعن الله الكاذبين!».

وغضب مدير الشرطة وتحدى الزهاوي أن ينزل معه إلى قفص الأسد فيصارعه. وقبل الزهاوي التحدّي، فقام مدير الشرطة ونزع معطفه وقميصه واستعد للدخول في قفص الضواري، لكن الزهاوي أسرع بترك المجلس والخروج هارباً. وقد ضاق الزهاوي ذرعاً بأحد الكذابين فقال فيه:

ومدّعٍ بحياة البحر معرفةً ... ما حازها أحد في الأعصر الأولِ

فقلتُ: صف لي كيف الحوت ممتحناً، ... فقال لي: الحوت ذو قرنين كالجمل

وكان أصدقاء الزهاوي كثيراً ما يقسون في مداعبته. فمن ذلك أنه كان يحضر مجلس مراد سليمان صباح الجمعة، فأعدّوا له مهزلة أحكموا نسج خيوطها للسخرية منه. كان في بغداد رجل مهرّج يقلّد أصوات النساء، فاستدعي وكلّف أن يرتدي الملابس النسائية ويضع على وجهه النقاب ويأتي إلى دار مراد بك صباح الجمعة ليطلب مواجهة الشاعر الفيلسوف.

وفي ذلك الصباح، والمجلس حافل بزوّاره من أعيان بغداد وأدبائها، والزهاوي

جالس يبهر الحاضرين بشعره ونوادره، إذا بامـرأة محجبة تدخل إلى باحة الدار وتصرخ بصوت نسائي رفيع: «اين جميل الـزهاوي؟ لقد وعد بزيـارتي مراراً وأخلف وعده. .» واستمّرت على الصراخ بكلام في هذا المعنى، والزهاوي يقول: «والله لا أعرفها، ولم أرها من قبل»، ويطلب من صاحب الدار أن يجدوا له مخبأ وأن يصرفوا تلك المرأة الرعناء.

وبعد ضحك طويل هدّأوا من روعه وجاؤوا بـالمرأة وأمروها برفع حجابها، فإذا هي رجل يسعى.

وكـان الزهـاوي يقـرأ شعـراً له في مجلس محمـود صبحي الـدفتري فـانتقده عـارف حكمت. فقال الزهاوي: إذا دخل عارف في الأدب فإننا نخرج عن الأدب!

ونظم الشـاعر قصيـدة وأبردهـا إلى مجلـة الهلال المصرية للنشر، ولم يكـد يرميهـا في صندوق البريـد حتى بدا لـه أن يغيّر كلمة فيها، فأسرع إلى الـدكتور فائق شـاكر مـدير البريد والبرق العـام وقال له: أرسلتُ قصيدة بـالبريد إلى مجلة الهلال في القاهـرة اليوم وأريد أن أصحّح بعض أبيـاتها، فأرجو أن تأمر باستخـراج الرسالة وإعـادتها إليّ. قال المدير العام: إن استخراج رسالتك، يـا استاذ، من بين آلاف الرسائل المبردة أمر عسير والأفضل أن تردفها برسالة ثانية تصحّح فيها ما تريد تصحيحه. قال الزهاوي: ولكنني لا أريد صاحب «الهلال» ومحرريها أن يعلموا أنني أصحح قصائدي بعد نظمها!.

واضطر الدكتور فائق شاكر أن يأمر موظفيه بفرز الرسائل المبردة إلى مصر واستخراج رسالة الزهاوي وإعادتها إليه.

وقـد حيّا الفنـانـات والفنـانين المصريين الذين قـدمـوا إلى العـراق، وعمره يقـارب السبعين، بقصائد عاطفية كفـاطمة رشدي ويوسف وهبي ومحمد عبـد الوهاب ونادرة وأم كلثوم وغيرهم.

وقال:

ليـس الحديـث عـن الهـوى ... مـن شـاعـر شيـخ جـريـرة

واعترض عليه بعض المتزمّتين فقال:

يـريـدون أن أحيـا بعيـداً عن الهوى ... فـلا تبتغي عيني الحسـان النواهـدا

يـريـدون أن لا أهبط الـروض منصتـاً ... لشـادٍ وأن لا أطـرّي الـزهـر حـامـدا

ومـا كنت في دنيـا إليّ حبيبـة، ... وإن كـدت استـوفي الثمانين، زاهـدا

أجل، كنت عينـاً في زمـاني ونـائبـاً ... ولكنني مـا كنت للـذوق فـاقـدا

الزهاوي في مهرجان الفردوسي:

أوفد الزهـاوي لتمثيل العراق في مهرجان الفـردوسي الذي أقيم في طهران في تشرين الأول ١٩٣٤، وكان معه «تلميذه» أحمد حامد الصرّاف.

ألقى الزهاوي قصيدة رائعة بالفارسية في المحفل الذي عقد برعاية رضا شاه بهلوي وحضور رجال الدولة والادب والمستشرقين. وكان قد أعدّ القصيدة في بغداد قبل سفره وقرأها على فهمي المدرّس فاستحسنها. ولما فرغ الزهاوي من القائها ضجّ المجلس بالتصفيق، وقام إليه الصدر الأعظم رئيس وزراء إيران فقبّل يده تقديراً لأدبه واعترافاً بفضله.

عاد الزهاوي إلى الفندق فاستدعى إليه الصّراف وقال له: يا ولدي أحمد، هل رأيت الصدر الأعظم وما فعله حينما فرغت من انشاد قصيدتي؟ قال: أجل، يا استاذ، رأيته يسحب يدك على ملأ من القوم ويقبّلها. قال الزهاوي: احفظ ذلك جيداً، يا ولدي، فأنت شاهدي الوحيد في بغداد!

حدثني أحمد حامد الصرّاف ان عبد الاحد حبّوش أصدر مجلة أدبية باسم «الزنبقة» سنة ١٩٢٢، فقال له: أرجو أن تعرفني بالزهاوي لكي أسأله نشر شعره في مجلتي.

قال الصراف: اخذت عدد المجلة فوجدته مصدراً بقصيدة لمعروف الرصافي، فقلت لصاحبي: هلّم نذهب إليه الآن. وذهبا إلى داره، فأعطى الصراف العدد إلى الخادم وقال له: إذا جلسنا بضع دقائق فجيء به وسلمه إلى الاستاذ.

وقدم الصراف صاحبه إلى الزهاوي وقال انه من الشباب الناهض المثقف، وقد أصدر مجلة أدبية راقية، وهو يرجوك أن تعطيه شيئاً من شعرك الجديد لنشره.

سرّ الزهاوي ورحّب بالأديب وقال له: اننا بحاجة إلى مثل هذه المجلات كي لا نكون عالة على المصريين واللبنانيين....

وفي تلك اللحظة دخل الخادم وقدم المجلة إلى الزهاوي، فقال الصّراف: هذا عدد المجلة واسمها «الزنبقة».

وأخذها الشاعر وفتح صفحتها الاولى فوجد قصيدة الرصافي تحتل منها محل الصدارة، فقذف بها في الهواء حيث دارت دورتين أو ثلاثاً ثم سقطت على الأرض. وقال: يا رجل، إذا كنت من أتباع الرصافي المعجبين به فلم تأتي إليّ وتريد نشر قصائدي؟ ألا تعلم أن في أوروبة لكل شاعر أتباعاً، فالذي يتأثر خطى فكتور هوغو لا يقصد لامارتين، وهكذا؟..

وخرج حبوش خجلاً يجرّ أذيال الخيبة.

وأقول: زرت جميل صدقي الزهاوي مرتين أو ثلاثاً قبيل وفاته في داره ببغداد في الشارع الذي سمّي بعد ذلك باسمه. وكان يشكو كثرة متاعبه الأدبية، ويقول ان نظم الشعر يؤرقه ويهّد من قواه. وقال مرة ان مجلة «الهلال» سألته عن رأيه في شؤون أدبية واجتماعية وماله علاقة بنهضة الشرق، وهو يعاني تعباً في الردّ وفي ارشاد الأدباء والمتأدبين الذين يتوافدون عليه للاستماع إلى آرائه. ومع ذلك فهو يشعر بواجب أدبي عليه في رعاية الجيل الطالع وتوجيهه بالرغم من شيخوخته وعجزه.

معروف الرصافي

شاعر العراق معروف بن عبد الغني بن محمود ينتمي إلى قبيلة الجبارة القاطنة في أنحاء كركوك. ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ وتوفي بها في ١٦ آذار ١٩٤٥. أقام الرصافي دولة للشعر في القرن العشرين وخلّد اسمه بين الشعراء الأفذاذ كالفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي، فسارت قصائده مسير الأمثال في الاقطار العربية وسحرت أجيالاً من شداة الادب. شبهه عبد القادر المغربي بالبحتري في مزية السهولة ونمنمة الديباجة، ولكن أين البحتري من معاني الرصافي والآفاق الرحيبة التي فتحتها النهضة الحديثة في ذهنه العبقري؟

وردت ترجمته الوافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث».

حينما ألفت الحكومة الوطنية في العراق لأول مرة منذ العهد العباسي السالف وأسند العرش إلى الملك فيصل الهاشمي، أراد العاهل القادم إلى وطنه الجديد إشراك اتباع المذهب الشيعي في الحكم شيئاً فشيئاً بعد أن كانوا بمعزل عنه في العهد التركي المتعصب لسنّيته. ولم يجد الملك ولا الانكليز رجالاً من الشيعة يليقون للمناصب الإدارية والوزارية أو يرضون بتبوّئها، فدعوا إلى الوزارة بعض رجال الدين والوجاهة الذين رفضوها في بداية الأمر ثم قبلوها. والتفتوا إلى الشعراء والادباء من الكهول والشباب، فهيّىء لمحمد حسن أبي المحاسن ومحمد رضا الشبيبي وأمثالهما أن يصبحوا من وزراء الدولة. أما الشعراء من أهل السنّة فلم يلوا من المناصب سوى التدريس وعضوية مجلس المعارف، واللجان العلمية، وكانوا بعد ذلك نواباً وأعياناً. وكان ذلك مدعاة لتذمر الزهاوي والرصافي وأمثالهما الذين نفسوا على زملائهم من الشيعة مناصبهم الوزارية.

شعر الرصافي أكثر من سواه باستهانة الملك والحكومة بأمره وعدم منحه ما يستحقه من التبجيل والإكرام. ومع أنه ظل يمدح ويرثي في كل مناسبة عرضت فإنه لم يترك التذمر والتمرد حين يجتمع بأصحابه وأخصائه. وقال سنة ١٩٢٢ يخاطب رجال الحكم:

يا مبعديَّ بظلم عن مناصبهم	وقاطعين إلى ما أبتغي طرقي
علمت كلّ خفيّ من ضمائركم	وماعلمت الذي ترضون من خُلقِ
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم	حتى يكون لديكم جائز السَّبق؟
إن كان عقل فإني عاقل فَطِن	أو كان حمق فإني أحمق الحُمقِ

وقال أيضاً متجنّياً ناقماً:

لنا ملك وليس له رعايا	وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح	ومملكة وليس لها نقود

أيكفينـــا مـن الـــدّولات إنّـــا تعلّق في الـــديـــار لنـــا البنـــود؟
وكم عنـــد الحكـــومـــة من رجـــال تـــراهـم ســـادة وهـم العبيـــد
كـــلاب لـــلأجـــانب هـم ولكن على أبنـــاء جلـــدتهم أســـود

وقال:

علـم ودستـــور ومجلس أمّـــة كـــلٌّ عـــن المعنـــى الصحيـــح محرّف
أسماء ليس لنـــا ســـوى ألفـــاظهـــا أمـــا معـــانيهـــا فليست تُعـــرفُ

وقال:

دار ذا الـــدهـــر مـــداره فـــرأى النـــاس ازوراره
كـم وزيـــر هـــو كـــالـــوِزْر على ظهـــر الـــوزارة!

وزار المس جرترود بلّ يعـرض اخلاصه ويطلب الإقالة والعـون، ثـم يقول في الوقت نفسه:

لقـــد جمع الـــدهـــر المكـــايـــد كلهـــا بقـــدر كبير صيغ مـن معـــدن الخُبْث
فصـــاغ طبـــاع الانكليـــز من الـــذي تقـــاطـــر في الانبيق كـالمطـــر الـدَّثِّ..

وحاول مغـادرة العراق. فردّه عبد المحسن السعـدون رئيس الوزراء الذي كـان يودّه ويرعاه. وقد شكا إليه حاله فقال:

أعبـــد المحسن السعـــدون، إنـي أراك منـــاط أسبـــاب الـــرجـــاء
لـــذلك قـــد أتيت إليك أشكـــو رثـــاثـــة بـــزّتي وبلى كســـائي
فقـــد رقّـت ثيـــابي اليـــوم حتّـى تكـــاد تـــذوب من مسّ الهواء

ومـا هذه النقمـة وذلك التمـرّد سوى مظهـر من مظاهـر العبقـرية التي تعتقـد أنها مستهان بأمـرها غير حائزة للتقـدير الذي تستحقـه. لكن الحكومة لم تغفل أمـره، فقد عيّنته مفتشـاً بوزارة المعارف واستـاذاً بدار المعلمين العاليـة، ثـم انتخبته نـائباً في مجلس النواب بالرغم من معـارضته وتركه بغداد إلى بلده الفلوجة ليقيم فيهـا في رعاية الوجهاء من آل عريم.

وكان راتبـه يكفي لسـدّ رمقه وهـو الفرد الذي لا عـائلة لـه ينفق عليهـا. ولم يعدم أصدقاء أوفياء ومحبين مقدّرين لشأنه يسعفونـه ويرعونه بلا منّ، ومنهم فخري الجميل وعبد اللطيف المنديل وخالد سليمان وحكمت سليمان ومظهر الشاوي.

ولما رأى نوري السعيد، الـذي طالما مدحه الـرصافي وهجاه، ان راتبه التقـاعدي لا يقوم بأوده خصّـص له جعلاً من المخصصـات السّرية يـذهب به إليـه صديقـه محمود السنوي في كل شهر. ومع ذلك هجاه فقال:

ان نـوري السعيـد قـد كـان قبـلاً آدميـاً فـرُدَّ بـالمسخ قـردا

ولم تقم حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية سنة ١٩٤١ حتى بادر إلى تأييدها والتنديد برجال الحكم السابقين.

لقـد كان الـرصافي كسـواه من الشعـراء متردداً بين السلب والإيجاب، يرضى حيناً ويغضب أحيانـاً لدواع نفسية وظروف طارئة، مفيـداً من الفرص العارضـة وناقماً عليها ضائقاً بها ذرعاً في آن واحد.

وقد قـال مصطفى علي مؤرخ الرصافي وراويـة شعره ان الرصافي يعـاف الذل ويأبى الاستعباد ويأنف من الدنيّة، ويكره الاستعمار ويجتويه فلا يرضاه لبلاده ولا لأمّته. وقد حاربه ما وسعه أن يحاربه ولم يهادنه حتى فارق دنياه. وقال مصطفى علي ان الرصافي في شعره الـذي ندّد فيـه بالـوضع السياسي في البلـد إنما كان لـرغبة منـه في مصارحـة أمته والامتناع عن غشّها فيقول خلافاً لما كان يـرى، فلم يكتم ما كان يشعر به بل كان يعلنه ويـذيعه لما طبع عليـه من الصـدق والاخلاص والشغف بـالحقيقـة. واستشهد بقـول الرصافي:

أمـا الحيـاة فشيء لا قـرار لـه يحيـا بي المرء مـوقـوتـاً إلى حين
سيّـان عنـدي أجـاء الموت مخترمـاً من قبل عشريـن أم من بعـد تسعين

ولقد حاول بعض الادبـاء والمتأدبين بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أن يقولـوا إن الرصافي كان مضطهداً في العهـد الملكي معوزاً لا يجد من التقدير والـرعاية ما قد كـان أهلاً له. والحقيقة أنـه بالرغم من تنديـده بالملك ووزرائه في عهد الانتداب لم يفصل من منـاصبه الرسمية ولم يحرم من النيابة. وقيل انه كان في خـلال الحرب العالمية الثانية يبيع السكاير لسدّ رمقه. وحقيقة الأمـر ان راتبه التقاعدي والمخصصات السّرية التي كـانت تقدم له والاعانات السخيّة التي تـرده من محبّيه والمعجبين به كانت تزيد عـن حاجة رجل فرد لم يعرف بالإفراط، لـولا أن خادمه عبد كان يستولي على مـاله ويسطو على المآكل النفيسة التي تهدى إليه، كما ذكر ذلك تفصيـلاً مؤرخه مصطفى علي. وقد حـذر الرصافي كثيراً من خيانة خادمه، فلم يهتمْ ولم يطرده.

أما قضية بيعـه للسكاير فالحقيقـة ان صديقة الشاعـر أنور شاؤل، وقد كـان محامياً لشركة طبّـارة وعبود صاحبـة معامل السكايـر، رأى أن يفيد الرصـافي بعد أن أصبحت السكاير تباع بأسعار باذخة في السوق السوداء، فحمل الشركة على تخصيص كمية منها له في كل شهـر. وكانت تباع هذه السكـاير مباشرة ويقدم فـرق أثمانها إلى الرصافي دون مشاركة أو جهد منه.

وضع الرصافي قصصاً شعـرية استوحى مواضيعها من البيئة العـراقية المحلية. ونرى في الوقت نفسه الشاعـر المصري الكبير اللبناني الأصل خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩)

ينظم قصصاً متعددة، غير أنه استمدّ مواضيعه من مصادر أجنبية وتاريخية كمقتل بزرجمهر ونيرون وشيخ أثينا وفتاة الجبل الاسود الخ.

محمد رضا الشبيبي

نابغة من نوابغ الشعراء المتأخرين وزعيم وطني معروف المنزلة، ولد محمد رضا الشبيبي في النجف في ٦ ايار ١٨٨٩ وتوفي في بغداد في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٥. تولى وزارة المعارف مراراً وكان رئيساً لمجلس الاعيان ورئيساً لمجلس النواب وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ومجمع اللغة العربية في القاهرة ورئيساً للمجمع العلمي العراقي. ومنحته جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ مرتبة الدكتوراه الفخرية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية. ترجمت له ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية».

قالت المس بيلّ في رسالة لها إلى أبيها تأريخها ٤ كانون الأول ١٩٢٠ أنها حظيت بزيارة ممتعة من الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي عرفته سنة ١٩١٨. وقد ذهب فجأة إلى الحجاز وسورية حيث كتب مقالات شديدة ضدّ بريطانية في الصحف المحلية منتقداً طريقة حكمها لهذه البلاد. ويظهر أنه أصيب بخيبة أمل من جراء استقرار السوريين في ظل الحكم الفرنسي، فأتى يعبر عن قناعته بأن ما يفعله الانكليز هنا هو الصحيح. وقالت إنه رجل معروف وله قلم ساحر، فإذا تعاون معنا مجازفاً بأن يدعوه المتطرفون انكليزياً فقد يكون ذا قيمة لا تقدر.

الشبيبي والمجالس الادبية
في صيدا والشام:

قضى محمد رضا الشبيبي في ربوع الشام شهوراً سنة ١٩٢٠ فاجتمع بأدبائها من الشباب الناهض الذي حلم بالوحدة العربية واستبشر بقيام الحكومة الفيصلية. وعقد المجالس الأدبية في صيدا مع سليمان الظاهر وأحمد عارف الزين وأحمد رضا وأديب الزين والدكتور شريف عسيران وغيرهم. وقال فيها قصيدته:

عروس من البلدان ليس لها مهر ... ومصر سبتني لا الصعيد ولا مصر

والتقى في دمشق بشفيق جبري وخير الدين الزركلي وسائر ادبائها فقال قصيدته:

ببغداد أشتاق الشآم، وها أنا ... إلى الكرخ من بغداد جمّ التشوق

فباراها شفيق جبري قائلاً:

أحنّ إلى بغداد من أرض جِلّقٍ ... وأسأل أهل الشام عن كلّ معرق

ونظم جبري قصيدته:

شط المزار فربع دجلة نازح ... دون العراق سباسب وأباطح

قال إنه القى هذه القصيدة في سهرة بدار الزركلي، فلما فرغ من إنشادها ظهرت الكآبة على وجه الشبيبي وقال: لولا أن قصيدتك أبكتنا لصفّقنا لكل بيت.

ثم قضى الفرنسيون على الحكومة العربية وأخرجوا فيصلاً، فذهبت الآمال وتبددت الاحلام. فقال الشبيبي قصيدته «دمشق وبغداد» ومطلعها:

مـــاذا بنـــا وبـــذي الـــديـــار يـــرادُ؟ فقـــدت دمشـــق وقبلهـــا بغـــدادُ

محمد رضا الشبيبي يعالج شؤون القطر:

قدم محمد رضا الشبيبي قبيل وفاته (في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٥) مذكرة إلى رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز أوضح فيها القضايا والمشاكل الخطيرة التي تواجهها البلاد. وأشار إلى الأحداث والكوارث التي حلت بها نتيجة تصارع الآراء وتضارب الاهواء وتشجيع التفرقة، وطالب بإجراء الانتخابات ليقول الشعب كلمته في الحكم. وقال ان الوحدة العربية هدف يتم باستفتاء الشعب عليه، وأشار إلى أخطار الطائفية المقنعة التي تفتّ بعضد الوحدةالوطنية. وقال ان الشعب العراقي انتقض أكثر من مرة على سياسة التفرقة النكراء وعمل منذ ثورته الاولى سنة ١٩٢٠ على اقامة حكم وطني ديمقراطي يسهم بإقامته وينعم في خيراته أبناء الشعب كافة لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب. وشجب بعد ذلك سياسة المحاباة التي كانت نتيجتها تبوّء المقربين لمناصب الدولة وهم محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والاخلاص.

وطالب الشبيبي في مذكرته بدرس القضية الكردية درساً دقيقاً لصيانة الوحدة الوطنية وحقن الدماء وإعادة السلام والطمأنينة إلى الربوع الشمالية لأن العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن يتقاسمون غرمه وغنمه. ودعا إلى تحرير النقابات من الضغط السياسي وتوكيد حقوق العمال. ثم التفت إلى الاشتراكية ونادى بلزوم مراعاة الواقع في شأنها، إذ أن تطبيقها بقرارات ١٤ تموز ١٩٦٤ قد أدى إلى تخبط الاوضاع المالية وارتباكها وزيادة البطالة وقلة الانتاج وتبذير أموال الدولة وتهريب رؤوس الأموال وعجز الميزانية. ودعا إلى الديمقراطية الاقتصادية قائلاً إنه «النظام الذي يلائم ظروفنا وحاجاتنا» وان الفروق الاقتصادية الواسعة خرق للعدالة الاجتماعية التي نؤمن بها.

وذكر انه يمكن العمل على تقليل تلك الفروق عن طريق توزيع الضرائب وزيادة مكاسب الطبقة العاملة ووضع خطة شاملة للتنمية وزيادة الدخل العام.

ثم تناول القطاع الزراعي الذي يمثل في نظره مصدراً أساسياً من مصادر الثروة العامة، فأشار إلى أخطاء قانون الإصلاح الزراعي ـ تلك الأخطاء التي أدت إلى تخلّف الزراعة، وطالب بإعادة النظر في أسس ذلك القانون وتطوير شؤون الزراعة وحماية الانتاج وتحديد واجبات الزراع وتعويض الفئات التي تم الاستيلاء على أراضيها. وطالب بعد ذلك بإصلاح نظام الضرائب، واستخلاص حقوق البلاد من شركات

النفط وإعادة النظر في تكوين الاتحاد الاشتراكي العربي الذي تنازعته الأهواء وأفضى إلى احتكار العمل السياسي وتطبيق مبدأ الحزب الواحد المعارض للديمقراطية.

ولا شك أنّ هذه المذكرة التي قدمها الشبيبي إلى السلطات المسؤولة قبل شهر واحد من وفاته كانت أروع خاتمة لحياته الأدبية والسياسية ووصيّته التاريخية لابناء البلاد في تلك المرحلة الدقيقة.

محمد رضا الشبيبي: شؤون واحاديث

تعرّفت إلى محمد رضا الشبيبي في سنة ١٩٣٩ وتوثّقت صلتي به بعد اختياري عضواً بنادي القلم سنة ١٩٤٢ وكان هو رئيسه. وزادت هذه الصلة إحكاماً بعد ذلك، فكنت في سنواته الأخيرة أكثر من زيارته في داره والمجمع العلمي، كما كان يمر بمكتبي مرة أو مرّتين في الاسبوع حتى توفاه الله.

وأذكر أنه كان يلقى عندي في بعض الأحيان علي الشرقي، وكانت بينهما جفوة، فبادره الشرقي بالسلام والكلام حتى استقام ما بينهما وعادت مودتهما القديمة شيئاً ما.

كان الشبيبي يحضر مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كل عام ويقضي في مصر شهراً أو بعض شهر، فإذا عاد حدثنا بطرائف مما شهده وسمعه. وقال لنا ان الدكتور طه حسين سأله ذات يوم: «لماذا كان العراقيون دائماً ثائرين لا يستقرون على حال ولا يرتضون حاكماً؟ فقد قرأت تاريخ العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الآن، وقلما وجدت حقبة خالية من الفتن والقلاقل». فأجابه الشبيبي: «أتسمح لي أن أسألك أنا أيضاً؟ لماذا كان المصريون دائماً خانعين خاضعين؟ لقد قرأت تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي وقبله أيضاً، فوجدت المصريين دائماً يسترضون حكامهم مهما جاروا وطغوا ويخفضون الهام لكلّ متحكم فيهم حتى لشجرة الدّر!».

قال الشبيبي: وقد اغتاظ طه حسين لجوابي، لكن الحاضرين قالوا له: لا يحق لك الغضب، يا دكتور، فجواب الشيخ من طبيعة السؤال.

وقد قيل قديماً: إن العقل لحق بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك. ولحق الشقاء بالبادية فلحقت به الصحة، ولحق الخصب بمصر فلحق به الذّل.

وكان أمين هويدي سفير مصر في بغداد والذي دعي «المندوب السامي المصري» وقد أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات ووزيراً لحربية جمال عبد الناصر كثيراً ما يزور الشبيبي ويسأله عن رأيه في الاتحاد مع مصر. فأجابه الشيخ بصراحة أن العراق لا يحب عبد الناصر وان الاتحاد أو الوحدة سابق للأوان. وقال له: بلّغ الرئيس عبد الناصر أن لا يغرّه كلام عبد السلام عارف (رئيس الجمهورية آنذاك)، فالعراقيون عازفون عن الوحدة بالرغم من حبّهم لمصر واعترافهم بمكانة الصدارة التي تتبوأها في مجتمع الدول العربية.

وقد اشتد الخلاف بين عبد السلام عارف والشيخ الشبيبي حتى أنه أصبح رئيساً اسمياً للمجمع العلمي العراقي لا يستطيع الحلّ ولا الربط، وقد تولى الامور فعلاً نائب رئيس المجمع بتشجيع من الحكومة، فكان الشبيبي يأتي إلى غرفته في المجمع ويخرج منها دون أن يباشر عملاً.

ودعيت مجامع اللغة العربية إلى عقد مؤتمرها السنوي العام في بغداد، فانتهز الشبيبي فرصة دعـوة وجهت له للسفر إلى عمان، فزايل بغداد إلى الأردن وعقـد المؤتمر في غيابه. وعاد من عمان بعد انتهاء المؤتمر، فلم يكد يصل إلى داره حتى قضى نحبه في نفس تلك الليلة.

***

أصدر الكاتب السوفيـاتي كوتلوف كتاباً عن «ثورة العشرين» نقلهـا إلى العربية عبد الواحـد كرم. وقد ذهب الكـاتب إلى أن الثورة العـراقية كانت ثـورة عمال وفلاحين على الاقطاع والـرأسمالية على الـرغم من قادتها من شيـوخ الدين والعشائر، ومنـح العوامل الاقتصاديـة والصراع الطبقي أهمية بالغـة في نشوب الثورة. وسجّل للشيخ محمـد رضا الشبيبي آراء تؤيد ما ذهب إليه. فسألنـا الشيخ عن تلك الآراء، فقال ما معناه: جاءني ذات يوم المؤلف بموعـد سابق ومعه مترجمان رجل وامرأة، إذ كـان لا يحسن سوى اللغة الـروسية. وقـد بحث معي عن ثورة العشرين وأسبـابها، وكان يتكلم بـالروسيـة فينقل المترجم كلامه إلى الانكليزية ثم تترجمه المترجمة إلى العـربية، فأردّ عليه وينقل كلامي إلى الإنكليزية فالروسية ليفهم صاحبنا مـآله. وكانت تلك طريقة متعبة فضلاً عن احتمال ضياع المعنى أو اختلافه خلال هذا النقل المزدوج.

وقد أرسل المؤلف نسخة كتـابه بالروسية إلى الشبيبي بعـد طبعه (وذلك قبل سنوات من ترجمته إلى العربية)، فاستعان بأحد الطلاب العراقيين لترجمة ما جاء فيه على لسانه. ولما اطلع على الآراء المنسوبة إليه استنكرها وتناولها بالنقد والتجريح.

وقد ناقش الـدكتور علي الوردي، في الجزء الخامس من كتابـه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديـث» (القسم الثاني)، آراء كوتلوف في ثورة العشريـن، فأبدى عدم مـوافقته على مـا ذهب إليه المؤلـف من نسبة الثـورة إلى جماهير الفلاحين والبـدو وعمال المدن. قال الوردي: «وأعترف أني، حين قرأت الكتاب، شعرت كأنه يتحدث عن ثورة غير الثـورة التي عـرفناهـا وأدركنـا رجـالها، وعن بلاد غير البـلاد التي نعيش فيهـا». وأضاف قـائلاً: «ويبدو أن كـوتلوف حـاول أن يصبّ ثورة العشرين في القـوالب التي يحملها في ذهنه بغضّ النظر عمّا جرى في الثورة من وقائع مشهودة».

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه هـاجم نوري السعيد، وهو رئيس الوزراء، في مجلس الاعيان وندّد بسيـاسته تنديداً شديداً، فـوقف نوري يردّ عليه بحدة وانفعـال، وقال ما معناه: ليس هذا كلام سياسي مسؤول بل هو خيالات شاعر وأوهام كاتب.

ولم يكن من ا لشبيبي إلا أن التفّ بعبـاءته وخرج غـاضباً من القـاعة. ولكن لم يحلّ المساء حتى فـوجيء بزيارة نوري السعيـد له في داره يطيب خاطره. وهكـذا كان رجال ذلك العهد يميزون بين المناقشات والمهاترات السياسية والعلاقات الشخصية. وقال له السعيد: سوف يأتي يوم تترحمون فيه على عهدنا.

***

كثيراً ما كنت أسمع محمد رضا الشبيبـي بعد ثورتي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ يشكو ويترحّم

على عهد الملك ونوري السعيد.

قلت له: كنت معارضاً مزمناً تسلق الحكومات المتعاقبة بألسنة حداد، فما عدا مما بدا؟ قال: أجل، كنت معارضاً أتسقط مخالفات الحكومة وانحرافها وأطلب الإصلاح، لكنني لم أطلب انهيار النظام وذهاب ريح السلطة واستبداد فئة قليلة جديدة لا خبرة لها ولا حسن نيّة بأمور البلاد. حين كنت أصارح المسؤولين وأتعقب أخطاءهم وسوء أعمالهم وآخذ عليهم التواء طرقهم كانوا يصغون إليّ ولو على مضض ويفعلون أحياناً أو لا يفعلون. أما هؤلاء الذين ينعتون أنفسهم بالثورية والتقدمية وسائر الصفات فلا يستمعون إلى أحد ولا يقبلون مصارحة، ويسرعون إلى اعتقال خصومهم والفتك بهم، وكمّ الألسنة والصحف وحرية القول... وبقي الشبيبي ساخطاً متألماً حتى أدركه الحمام.

وقد جاء إلى داره زبانية الأمن في عهد الرئيس عبد السلام عارف بعد منتصف الليل للقبض على ابنته المتهمة بالشيوعية. حاول الشبيبي اقناعهم بإرجاء الاعتقال إلى الصباح فلم يفلح. وأخيراً تمكن من الاتصال هاتفياً بعبد السلام فشكا له الأمر وترحّم على العهد الملكي البائد، فأمر الرئيس بصرف النظر عن اعتقال الفتاة.

انتخب الشبيبي عضواً بمجمع اللغة المصري في مقعد الأب أنستاس ماري الكرملي، ولما كان المألوف أن يتكلم العضو الجديد عن سلفه الذي حلّ محله، فقد طلب إليّ أن يطلع على قاموس الأب «المساعد» ليبحث فيه. وقد اتصلت بالآباء الكرمليين في الدير وهيأت للشبيبي أن يطلع على مسوّدات المعجم، فوضعت تحت تصرّفه ونظر فيه ونقل ما يروم نقله لخطابه في المجمع المصري.

***

على أثر قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ والقضاء على حكم عبد الكريم قاسم، قررت حكومة الرئيس عبد السلام محمد عارف مفاوضة الملا مصطفى البارزاني الذي قاد التمرد الكردي منذ سنة ١٩٦١. وارتأت إيفاد لجنة مفاوضة للتعرّف على مطالب الاكراد وأسندت رئاستها إلى محمد رضا الشبيبي، وكان من أعضائها فائق السامَّرائي.

ذهب الشبيبي إلى المناطق الكردية وفاوض البارزاني، واتفق معه على منح المنطقة الكردية «لا مركزية» إدارية، وعاد فبلّغ السلطات العراقية بنتيجة مساعيه.

قال الشبيبي: بعد أيّام سألني الرئيس عبد السلام عارف عن معنى «اللا مركزية»، فقلت له: انني رجل لغويّ و«اللامركزية» ليست محددّة لغةً بل يحددّها الاتفاق على نطاقها السياسي والإداري، وذلك شأنكم أنتم السياسيين.

***

جاء إلى بغداد سنة ١٩٤٧ رشاد بيبي مندوباً عن إذاعة الشرق الأوسط التي كانت تذيع من قبرص، فاتصل بالأدباء للحصول على أحاديث منهم.

وقابل محمد رضا الشبيبي الذي سأله : ما معنى لقبك «بيبي»؟
قال : انه الشبيبي بدون «ش» .

***

توفي صديق للشيخ محمد رضا الشبيبي فمضى لقراءة الفاتحة على روحه تتبعه حاشية كبيرة من أقربائه وأصحابه ، ولم يكن يعلم أن هذا الصديق الذي نعي إليه ولم يره منذ سنوات طويلة قد ترك داره في بعض شوارع بغداد القديمة وابتنى داراً انتقل إليها في أحد الأحياء الجديدة .

دخل الشيخ وجماعته إلى الزقاق الذي فيه دار الصديق الراحل القديمة فرأى رجالاً واقفين على الجانبين . ولم يكادوا يرون الشيخ حتى حفوا به واستقبلوه استقبالاً لائقاً وأدخلوه إلى الدار وأجلسوه وصحبه في صدر المجلس . ولكن . . كان المقرىء يقرأ السورة القرآنية الخاصة بزواج موسى القويّ الأمين ، وهي تقرأ عادةً في حفلات عقد القران . وقدمت للشيخ وصحبه الحلوى والعصير، والجمع في أنس وسرور. إذن لم يكن هناك مجلس تعزية ، بل كانت حفلة عرس .

وخرج الشيخ بعد أن هنّأ أسرتي العريس والعروس . وسأل بعد ذلك عن دار صاحبه المتوفى فأرشد إليها وقصدها ليقرأ الفاتحة على روحه .

***

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه سافر ذات مرة إلى الشام ونزل في فندق أميّة . وفد رجال السياسة والأدب للسلام عليه ، وجاءه معلّم خدم في المدارس العراقية يوم كان وزيراً للمعارف ، فدعاه إلى تناول الغداء في داره . واعتذر الشبيبي بكثرة مشاغله ، لكن المعلم لم يقبل له عذراً .

وجاء المعلم إلى الفندق في اليوم الثاني قبل الظهر واصطحب الشيخ في عربة اكتراها وقال للحوذيّ : مرّ في طريقك بسوق الحميدية . واستأذن ونزل إلى بعض الدكاكين واشترى خبزاً و «كباباً» وفاكهة وشيئاً من الحلوى وضعها في العربة وأمر الحوذي بالمضيّ إلى داره .

ولما بلغاها وضع المعلم الطعام الذي ابتاعه على المائدة ، واتى بقدح ماء ، وقال للشيخ : تفضل باسم الله ، واعذرني عن التقصير في شأنك فإنّ زوجتي لا تطبخ . وفرغا من تناول الطعام فأركب الشيخ عربة وأعاده إلى الفندق معزّزاً مكرّماً .

***

دعي الشيخ الشبيبي إلى زيارة مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة مع نخبة من أدباء العرب وأعضاء مجمع اللغة العربية المصري ، والمدينة قائمة في وادٍ ينزل إليه بطريق وعر متعرّج من الهضبة ، وهو طريق يصعب على السيارات السير فيه . وقد اضطرّ الشيخ ورفاقه إلى النزول على أقدامهم ولقوا في ذلك مشقّة عظيمة . وبعد زيارة معالم المدينة وقضاء بضعة أيام فيها وحان موعد العودة قال الشبيبي للدكتور عبد الهادي

التازي المرافق للوفد أنـه يصعب عليه وعلى رفيق لـه من شيوخ المصريين الصعـود من الوادي ورجـاه أن يجد لهما وسيلة للركـوب . وكلم التازي هاتفياً أحد المسؤولين بـاللغة الفـرنسية وقـال لـه : لديّ شيخـان ميتّان مـن التعب فجد لهما وسيلـة نقل . ولم يسمع المسـؤول العبـارة «من التعب» ، فظن ان الـرجلين قـد ماتـا فعـلاً فأسرع وارسل سيـارة اسعـاف تحمل تابـوتين . رأى التازي السيـارة القادمـة فبادر إلى إعـادتها قبل أن يراهـا الشيخان ، ثم نبّـه رفيقه أن الـرجلين حيّان وطلب ارسـال سيارة «جيب» لتقـوم بمهمة النقل .

دعي الشيخ محمد رضـا الشبيبي إلى زيارة الكويت ضيفاً على أميرهـا ، وقد استقبل فيها استقبالاً حسناً ووضعت تحت تصّرفه سيارة وسائقها . أخذه السائق لزيارة العمران الجديد والأسواق المليئة بالبضائع الشرقية والغربية وكل النعم التي نالها البلد الصغير من ثروته النفطيّة المفاجئة .

قال الشبيبي للسـائق ذات يوم : أريد أن أرى الكويـت القديمة . فأجابـه : أنا على استعداد لأخذك إليها ، لكن السيارة لا تدخل السوق العتيق . قال الشيخ : أنا أستطيع المشي على قدميّ .

وأخذه السائق إلى سوق الكويت القديم ، فشـاهد الدكاكين المتواضعة . ورأى امرأة جـالسة على الأرض تبيع بعـض الاعشاب الهزيلـة وتـرشُها بـالماء بين الحين والحين من سطل بين يديها . قال السائق : هذه الكويت القديمة . أما صناعة السفن الشراعية فقد انقرضت أو كادت .

* * *

أشاد عبـد الرزاق الشيخلي ، في رثاء له لمحمـد رضا الشبيبي ألقاه في حفلـة تأبينه ، بمزايـاه الكثيرة وأدبه الجمّ ، وذكـر مواهبـه وصبره وجلده في التصميم والعمـل ونضجه الفكـريّ المنبعث من إدراك عميق وتمييـز بين الحقـائق والأوهام والانطـلاق والجمـود ، ومجابهته لـدنيا الحقـائق مباشرة بـاحثاً عن الجوهر ، غير آبـه بالظـواهر المتغيّرة والمظـاهر الخارجية ، والتزامه جانب البساطة وهي عماد الحياة ومحورها .

وقال ان التحدّث عن الفقيـد الشبيبي ليس يسيراً ، إذ شمل جهاده كل الميادين من علمية وأدبيـة واجتماعية وسياسيـة ، بنظمه ونثره ، على مـدار الساعـة ولنصف قرن من الزمن . وقـال إن الحياة التي عـاشها والآفاق البعيـدة التي امتّد إليهـا بصره ونفذت إلى أعماق بصيرته تكـاد تكون وثيقـة تاريخيـة وسفراً ضخماً حـافلاً بمآثـره ومحامده لعهـدين متعاقبين : العهـد العثماني في إبّان احتضاره والعهـد العراقي الذي تـلاه . وقال إن سيرة الشيخ منبثقة من إيمانه العميق بكرامة الإنسان وحريته ومن مفهومه للسياسة بأنها ترمي إلى الإصلاح الجذري في الإنسان ذاته لتضمن له أخوّته مع الغير وأمنه وسعادته .

ورثى الشبيبي الشاعر المصري عزيز أباظة (باشا) بقصيدة طويلة قال في مطلعها :

قـم فأدِّ العـــزاء لــــلإســلام ... في زعيـم وشـــاعـــروإمـــام

الشبيبي ، أيـن ثـــاني الشبيبي ... إذاطمّـت الخطـــوب الـــدّوامي؟

علي الشرقيّ

عليّ بن الشيخ جعفر بن محمد حسن بن أحمد بن موسى بن راشد الشرقي أو الشروقي، وقد قال الدكتور محمد مهدي البصير في الشيخ جعفر (١٨٤٣ ـ ١٨٩٢) أنه كان من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر.

وقال: «وقد يسّر المترجم، وهو في قبره، أنّي أعـرّفه بابنه (أي الشيخ علي الشرقي)، ولكن ثقوا أنه كان أنبه شأناً وأعلى قدراً وأسير ذكراً من أن يعرّف». وتنتمي أسرة الشرقي إلى قبيلة بني خاقان العربية، المقيمة على ضفاف الغرّاف في قضاء الشطرة، وكان أول من استوطن النجف منها جدّها الشيخ موسى.

ولد علي الشرقي بالنجف سنة ١٨٩٠، وتوفي والده وهو طفل صغير، فنشأ في كنف خاله الشيخ عبد الحسين الجواهري. ودرس علوم العربية والدين على علماء الغريّ فبرّز فيها تبريزاً، وقال الشعر صغيراً وجوّده شاباً. وكان من الشباب الواعي المتطلّع إلى النهضة الأدبية والفكرية في أواخر العقد الاول من المائة العشرين.

وصف الشرقي طفولته أروع وصف في كتابه «الأحلام» فقال: «ويموت أبو الوليد، ويترعرع اليتيم يعوّضه حنان الأم عن حدب الأب.

وكانت لأمّه جارة من آل الفحّام، ذلك البيت الجليل المنجّم بالعلماء والأدباء، تولّت تعليم الوليد. وكان لتلك المعلمة الحبيبة أخوان هما السيد حسن والسيد محمود، وكان الكثير من ناشئة النجف يتأدبّون عليهما. وكان مجلسهما للتعليم في عمارة الميتم الذي أنشأه الدرويش إبراهيم خان في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسماً داخلياً وبذل عليه أموالاً طائلة، وموقعه في محلة العمارة تحت الطاق المعروف بطاق الدرويش. لقد أودعت المعلمة الوليد عند أخويها، ولما أتقن الكتابة تقدم للدراسة العلمية. وكان يلبس البزّة العربية الشائعة كوفية وعقالاً، ولكن احتراماً للعلم وضعوا على رأسه العمامة. وكان من عادته أن يلف العمامة للشيخ الجديد شيخ قديم محترم. وعندما كوّرت على رأس الشيخ الجديد، دفعها الشيخ القديم ورصّها كي لا تكون قلقة على هذا الرأس، ولكن بكلّ أسف بقيت قلقة حتى الآن».

ثم وصف «الجامعة النجفّية» التي نشأ في أحضانها ودرس في حلقاتها وتأدّب بآدابها وتخلّق بأخلاقها فقال:

«فاتيكان الشيعة وأزهر العراق قبل أن يوجد الأزهر. ولا تمتاز هذه الجامعة بأسلوب فكريّ خاصّ، إنما هو اسلوب الفكر القديم طبعته الكوفة بطابعها: طابعه الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وكانت على الأخص مدرسة علوية أسّسها منبر عليّ عليه السلام ومن تتلمذ عليه من أبنائه وأصحابه...»

ويقول بعد ذلك: «أما طريقة التدريس في النجف فقديمة تردّد بين الطريقتين

اليونانيّتين: طريقة التحليل وطريقة التفسير. . . ومراحل التدريس في النجف ثلاث: المرحلة الأولى في المقدّمات يدرس فيها النحو وعلم الصرف وعلم المنطق وعلم البيان والبديع. . . المرحلة الثانية: السطوح، وهي دراسة الفقة والأصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ. . . وفي هذه المرحلة يدرس الحساب والجدل والفلسفة النظرية. . . ويدرسون أشكال إقليدس للهندسة، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروز أبادي والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطريحي، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال أبي علي، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي».

ثم يتطرق إلى ذكر المرحلة الثالثة، وهي الدراسة الخارجية، أو كما يسمونها «الخارج» فيقول: «وهي محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب، بل هي أشبه بمذكرات على موضوع مركزّ وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث أن يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. . .».

***

لم يكد الشرقي يبلغ مبلغ الشباب حتى مضى إلى كرمنشاه لجباية حقوق للشيخ كاظم الخراساني، ثم عاد مسرعاً إلى النجف بعد تفشي وباء الهيضة في ربوع إيران.

وأكبّ الشرقي الشاب على المطالعة والمناقشة والمباحثة واستشفاف معالم النهضة الأدبية في مصر وسورية ولبنان. واتفق مع نفر من أقرانه على جمع الكتب والدواوين الشعرية وتبويبها وشرحها، فتولوا طبع ديوان إبراهيم الطباطبائي وغيره.

ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤، فلجأ إلى الشطرة، وكان ذلك مبدأ اتصاله بالغرّاف والمنتفق، مسقط رأس آبائه من قبل، وتعرّفه بزعمائها من آل السعدون وسواهم. ثم لحق بالمجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي في الناصرية، وكان له يد في محاربة الانكليز. ونشر الاحتلال البريطاني ظله على بغداد وجنوبيّ الفراتين، فجاء إلى النجف وقدم منها إلى بغداد، ثم عاد إلى المنتفق مساهماً في الحركة الثورية.

رحل إلى الحجار سنة ١٩٢١ عن طريق البصرة والبحر الأحمر وقابل الملك حسيناً في جدّة ومكة وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

أعلاك ربّي، ما أعزّ وأشرفا، علماً على الملك الأغرّ مرفرفا

وقفل عائداً بعد نحو من سبعة أشهر. وقد عين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد(٧ تموز ١٩٢٨) ونقل قاضياً في البصرة (آب ١٩٣٣) وأعيد عضواً بمجلس التمييز الشرعي بعد أمد وجيز (شباط ١٩٣٤)، ولم يلبث أن أصبح رئيساً له (٢٥ كانون الاول ١٩٣٤). وقضى في هذا المنصب نحواً من ١٣ عاماً، حتى عين عضواً بمجلس الأعيان في تموز ١٩٤٧. واختير نائباً أول لرئيس مجلس الاعيان (٥ آذار ١٩٤٩) وجدّد انتخابه في أول كانون الاول ١٩٤٩ حتى عين وزيراً بلا وزارة (١٠ كانون

الاول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠).

وأعيد تعيينه وزيراً بلا وزارة في ٧ أيار ١٩٥٣ إلى ١٧ أيلول ١٩٥٣، ثم في ٣ آب ١٩٥٤. واحتفظ بمنصبه في الوزارات المتعاقبة المؤلفة في ١٧ كانون الاول ١٩٥٥ و ٢٠ حزيران ١٩٥٧و١٥ كانون الاول ١٩٥٧ إلى ٣ آذار ١٩٥٨، ثم من ١٩ ايار ١٩٥٨ إلى ١٤ تموز ١٩٥٨. وقد استمّر عضواً بمجلس الأعيان إلى ٦ تموز ١٩٥٥، وجدّد تسميته عيناً في شهر تشرين الثاني من نفس السنة إلى ثورة تموز ١٩٥٨. واعتقل عند قيام الثورة، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة.

وضع مؤلفات منها: عواطف وعواصف (ويحوي جانباً من شعره، طبع ١٩٥٣)، ذكرى السعدون (١٩٢٩) الأحلام (١٩٦٣) العرب والعراق (١٩٦٣). وقد نشر مقالات متسلسلة في المجلات والجرائد، منها: الغراف والبطائح (في مجلة لغة العرب) والألواح التاريخية (في مجلة الاعتدال النجفية) والأحلام والأندية العراقية (في جريدة العراق) ونكت القلم الخ..

توفي ببغداد في ١١ آب ١٩٦٤ ووري التراب في مقبرة أسرته بالنجف.

علي الشرقي الشاعر:

كان علي الشرقي رجل قضاء ورجل سياسة، لكنه لم يكن طوال حياته الا شاعراً بالفطرة. تطبّع بالمظاهر الدينية والدنيوية، فتغلّب عليه الشعر في أحرج مواقفه وأشدها قسوة وغلظة وانقاد لزمام العاطفة في مقام الجدّ والصرامة.

ولقد نشر طائفة من شعره في ديوانه الموسوم بـ «عواطف وعواصف» فأهدى إلي نسخة وشّحها بالكلمة الآتية:

«إذا جاز أن تحمل الفاكهة إلى بستانها فإني أحمل اليكم هذا الأثر، مع إخلاص الشاعر».

وكتبت إليه برسالة جاء فيها:

«أما الشعر فسحر وعطر. وهو شعر نابض بالحياة، صادق اللهجة، واضح السّمات، ينطق بلسان البلد والجيل، ويحمل طابع العصر ورسالته. وقد مرّ زمان كان في مقاييسه أعذب الشعر أكذبه، أما اليوم فخير الشعر ما عبّر عن آلام الشعب وآماله ومشاعر الأمّة في طموحها وتحفزها.

وخير الشعر ما أفصح عن حبّ المغرم وبهجة الخليّ وحسرة الشجيّ وأمل الشباب وذكريات الشيخوخة وجميع ما يهز أوتار القلب البشري من نوازع ولواعج.

«ولقد وفّقتم لترديد نواح البلبل السجين وصداح البلبل الطليق، ولوعة الفلاح في كوخه، وترجمتم عن نزعات الشعب المتطلّع إلى الحياة والحرية، ودعوتم إلى الألفة والإخاء، وأشدتم بالنهضة والإصلاح، فجاء ديوانكم سجلاً حافلاً للحياة العراقية في النصف الأول من المائة العشرين...».

أجل، إن في شعر الشرقي كلّ ذلك وأكثر من كل ذلك. وشعر الشرقي قبل كل شيء شعر الشعب، فهو يفصح عن أماني الفقراء والكادحين ويعبّر عن مشاعرهم ونزعاتهم، وهو يأنس إلى الأرياف وفلاّحيها ويحنّ إلى مرابعها وأكواخها، ولا سيّما إلى نواحي الغرّاف التي قضى فيها شطراً من صدر شبابه، وقال في ذكرها:

زهو القصور ونزهة الأرياف ... غرف مطّلات على الغرّاف
تلقى الحضارة والبداوة عندها ... بإزاء فرع أو بجنب طراف
أنفت على الأحقاف، فهي مدلّة ... لكنها ببساطة الأحقاف
الفارهات بساطةً وجلالةً ... هذي القصور وغيرهنّ أثافي
نهضت على حمراء دجلة زانها ... صافي الأديم على الأديم الصافي
بمحلة الأغصان تحسب أنها ... من حسنها بمحلّة الأعطاف
ملء المجالس عفّة وطهارة ... ومحبّة وتكرّم وتصافي
معمورة الأطراف، كم من ليلة ... بجوارها معمورة الأطراف
النهر مضفور السّلاسل فلّه ... جري النسيم وكفّ منه الضّافي....
قمر السّما، لك فوق دجلة منظر ... متنّوع الأطياف والألطاف
وكأنّ دجلة شعلة وهّاجة ... سالت أشعّتها على الأجراف

ولا يأنف الشرقي أن يضمّن شعره كلمات أبناء الشعب وأمثالهم وحكاياتهم. ولعلّ هذا الشعر لا يتّسم بجزالة اللفظ ومتانة التركيب لكنه يفيض بالأصالة والإخلاص وصدق اللهجة وطيبة النفس وحبّ البشرية والناس، تقطر منه أنداء اللطف والعطف والحنان كالعبرات الباردة التي تسكبها المآقي الحزينة.

لقد تمنىّ لو تمطر السماء مروءة وحناناً، وروّعته دمعة المظلوم، فقال:

مدّ زعيم لطبيب يداً ... كانت على رغمي ملثومة
قال له: ليس بها من أذى ... فصاح: لا... كفيَّ محمومة
ومرّ من حولها شاعر ... رددّت الدنيا ترانيمه
فقال: ظنّي بمكان الأذى ... قد سقطت دمعة مظلومة!

وعلي الشرقي شاعر الأسى والألم: فقد أباه طفلاً، وذاق مرارة اليتم والحاجة حتى إذا ما ابتسم له بعد لأي الزمان ومنحه السعادة والأمن وأتاح له الحبّ والزواج، فاجأه بموت عروسه في ليلة الزّفاف. فإذا بالشموع التي أعدّت لموكب العرس قد أسرجت في موكب الموت. وإذا بالشاعر قد أخرسه هول المصاب حيناً ثم أنطقه شعراً مؤسياً حزيناً:

شمعــة العــرس، مــا أجــدتِ التأسّي أنــت مشبــوبــة ويُطفأ عـــرسي

أنت مثلي مشعـــولـــة القلـب، لكن من سنـــاك المشـــؤوم ظلمـــة نفسي

يـــا رعـى الله للـــزفـــاف شمـــوعـــاً يتهـــافتـن حـــول نعش ورمس

عـــاكست حظّهـــا الليـــالي فـــذابت خجـــلاً تـــرسل الـــدمـــوع بهمس

هكـــذا ذاب بـــاحتراقٍ فـــؤادي، هكـــذا ســورة الـــدمـــوع بـــرأسي

جلـــوة أم منـــاحـــة لنجـــوم يتنـــاثـــرن بين سعـــد ونحـس

كـان حـدسي تـذكـو الأمـاني شمـوعـاً واللّيــــالي خيبّن ظنّـي وحـــدسي

انّ العروس الشابّـة التي قضت نحبهاليلة الزفـاف لتذكرنا بقصيدة الشـاعـر الفرنسي أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤)، تلك القصيدة التي قـالها في رثاء «ميرتو» التّارنتيّة الفتاة الحسناء التي ركبت السفينة لتلحق بخطيبها حيث تنتظـرها السعادة والأغاني والزواج. وقفت وحيدة تحدّق في الأمواج المتلاطمـة، فهبّت رِيح هوجاء نفخت الشراع وأطاحت بالفتاة في حضن المياه المزبدة. لقد تلقّت الأعماق جسـدها الجميل، فخرجت إليها ربّة البحـر دامعـة العين من كهفهـا السحيق، وحفظـت جسمهـا من أنيـاب الـوحـوش الضـاريـة، وأمـرت قيان الماء فـأخذنها إلى السـاحل واستـدعين غيـد المروج والمنـابع والجبال، فأقمن لها منـاحة لم تشهد الأرض مثلهـا. وقلن لها نادبـات: «أسفاً عليك، أيتهـا العروس، لم تبلغي دار الحبيـب ولم ترتـدي ثيـاب العرس، وحلى الـذهب لم تحط بساعدك البضّ، ولم يزيّن إكليل الزفاف شعرك المنسدل على كتفيك».

ولا عجب أن يطغى الألم على نفس الشـــاعر الشرقـي فيخـاطب البلبل الأسير قائلاً:

أيّها البلبـــل المعلّـــق في السجّـــن ســـــلام، وهكـــــذا ليَ روح

إن تكن ذكـــريـــاتـك الـورد والأطيـــار تشـــدو فـــذكـــريـــاتي جـــروح

كـلّ يـــوم يلـــوح فجـــر لعينيك فهـــلاّ يـــومـــاً لعيني يلـــوح؟..

إنّ هذا البلبل السجين الذي خاطبه في رباعيّاته لم يكن سوى طيف الشاعر نفسه.

لقد كان هذا الشاعر أسير الحياة الاجتماعية يبغي الانعتاق والانطلاق، فهل بدع أن يلتقي وبلبله الحبيب في قفص السجن، كما يقول:

التقى الشـــاعـــران في قفـص السّجن فلـم يعبـــــــآ بحبس وضيــق

يـــرســـلان الألحان للمـــلأ الخابط تيهـــاً في عـــالم مصعـــوق

فكـــــــأنّ الأسير غير أسير وكـــأن الطليـــق غير طليـــق

لقد مزج الشرقي في رباعياته التصريح بالـرمز وقرن السياسة بالاجتماع والمادة بالمعنى فلا بـدّ للقارىء من إمعـان الفكر في خفـايا السطـور ليستشفّ معاني بعيـدة في أغوار الكلمات الظاهرة. وان شـاعرنا ليكثر مـن الصور والاستعارات والتشابيـه والكنايات، أليس هو القائل:

أنـــا أصـــدح بـــاللفـظ لمن في صـــــدره المعنـى

والقائل: ثـوب الصداقـة يبلى سريعاً، وبيت الحكم الـذي أسّسوه لـه ألف باب، واليـوم المضرّج بحـر هـائج والغـد المؤمّل في ســاحل الأمـان، والمرآة لا تفيـد في كفّ الأعمى، وماذا يلقط الطائر من دكّان الحدّاد؟، وأية خميرة ترجى من الفطير؟ . . .

وهو يقول:

هـــذي الصـــدور مـــواقـــد خمدت فبثّت بـــالـــدخـــان

ويقول:

إنّـــا، ولا غَـــزْل لنـــا، نحســن فتـل المغـــزل

ويقول:

مـن وراء المرآة صـــوت ينـــاغي ببّغـــاءً تـــوحي عن المـــرآة

ويقول:

جســـدي قـــارب وقلبي شراع وحيـــاتي حبـل وعقلي نـــوتي

ويقول:

بعـض القلـــوب طيـــور لم تستطـــع أن تطيرا

ويقول:

بلـــدي رؤوس كلّـــه: أرأيـت مـــزرعـــة البصـل؟

ويقول:

شمعتي بـــالـــرغم من مقـــراضهـــا، كـلّ آن ولها رأس جـــديـــد. . .
شمعـــة طـــاف بها الجمّ الغفير تتـــلالا بـــابتهـــاج وارتيـــاح
تتهـــادى مـن ضريـــر لضريـــر قضـوا العمـر عثـاراً ونطـاح. . .

***

أقـام الشرقي شطراً من حيـاته في الـريف ورأى نصب الفلاح وعنـاءه ورثى لبؤسـه وشقائه فقال:

أتـــراني بين القـــرى والضـــواحي طفت ظهـــراً وفي يـــدي مصبـــاحي
إن تفتّش عـن ارتيـــاح بـــلادٍ فتفقـــد شـــؤونها في الضـــواحي

مــــا لهذا الفـّــــلاح في الأرض روح، أهـــــو مـن معشر بــــــلا أرواح؟
هـــو في جنّـــة ينـــال عـــذابـــاً وهـــو تحت الأشجـــار أجـــرد ضـــاحِ
وقـــرى النمل، لهف نفسي، أثـــرى من قـــراه إلاّ مـن الأتـــــراح...
ربّ قصر من فــوق دجلـة كـالطّــا(م) ووس للـــزهـــو نـــاشر بجنـــاح
لـــو كشفنـــا أطبـــاقـــه عن أســـاس لـــوجـــدنـــاه منجل الفـــلاح!

ولقد ضاق الشاعر بأمر نفسه فقال:

لهْفي لخمسين مـن سنّي قـــد انـــدرست في الكُتْب بحثـــاً كـأني دودة الكتـب

وضاق ذرعاً بالعقل والفكر واليقين فقال:

ليتني كنـت في الـــريـــاض شقيقـــاً لـــــــوورود بـــــدون عقـل ولـبّ

وقال:

انني قـــد غـــدوت أنعم في الشـكّ لأنّي منغّــص بــــــــــــاليقين

وقال:

وبلــــــوى البشرِ المكّـــــــار أن يمعـــن في الفكـــــــــــــــر

وضاق ذرعاً بالتاريخ ورجاله فقال:

في رمـــال التـــاريخ آثـــار أقـــدام رفـــــاق تخطّـت التـــــاريخا
نفخـت في الجراب دهـــــــراً وولّـت فـــورثنـــا جـــرابها المنفـــوخـــا
وإذا بي مـــا بين أجـــربـــة تمشي على الأرض ســـادةً وشيـــوخـــا

ولقد حسد الطائر السّجين فقال:

ولا يضيرنـك أن غـــــــدوت أسيراً، كـم طليق يكـــابـــد التنكيــــدا
قفـص من جـــريـــدة النخـل خير من ريـــاض عن طيرهـــا لن تـــذودا

ونفس عليه أنغامه الفطرية فقال:

بلّـــدتنـــا صنـــاعــة اللحن في القـــول فغّـــرد لنـــا بلحن السّليقـــه

وقال أيضاً:

إن تكن قـــد سجنـت، يـــا طير، جسماً فأنـــا قـــد سجنـت روحـــاً وجسما

وقال:

إن يكـن قلبـك المولّـع بلـــــواك فـإنّي بلـــــــــــــواي قلـب وراس

وقال:

وهــــــــذا قلبـي المغلـق مـن يفتـح أبـــــــوابـــــــــه؟

وقال من فرط الوجد والألم:

عسى أن تـرقص الـدنيـا، ولـو رقصة مـذبـوح!

وأساء الظن في المجتمع فقال:

لست أخشى عليك من سـارق قـط ولكـن خـوفي مـن الحرّاس

والشرقي بعد ذلك عدو التعصّب والرياء، فهو يقول:

ذممـت التعصّـب مـن قبـل ذا وهـا أنـا في ذمّـه لا هـج
دعـونـا نـوسّع آفـاقنـا ليقبلنـا المزج والمازج
أقـول، وقـد سألتنـي الـرفـاق: أأنـت على وضعنـا خـارج؟
أبـى الثمـر الفجّ عـن جـذعـه فصـالاً وينفصـل النـاضـج

ويقول:

سبعـون معصيـة قـد أتيتهـا في الخفـاء
كـانـت أبـرّ وأزكـى مـن طـاعـة في ريـاء

ولقد هام علي الشرقي بوطنه وبلاده ورثى لحالها وطلب رقيّها ورفعتها ومجدها، وردّد في شعره ذكر أقطار العروبة من مصر والشام والحجاز ونجد إلى طر ابلس وفلسطين.

وأقضّ مضجعه خمول العراق، فقال:

نطقت بحـاجتهـا الشعـوب وأفصحت وأرى عـراقـي واجماً لا ينطـق
وكأنّ هـذا الشرق سفـر غـرائب شرحـوا عليـه الـدارجـون وعلّقـوا
ختمت صحـائفـه وجئنـا بعـدهـا حتـى كأنّـا فيـه فصل ملحـق

وفي موشّحـه «صفير العسس» عرض لأحداث الدهـر في بلاد الرافـدين من سقوط عبد الحميـد ودك عرشه وغليـان الثورة القـومية إلى تشتت الآراء وتخاذل الرجـال. ولقد طالما راودته الأحلام، فرأى الفراتين وقد ازدهرت على ضفافهما نينوى وبابل وأور، ومرت مواكب آل ساسان وأكاسرة المدائن، ورأى شبح الموبذان خاشعاً بين يدي سابور.

ثم ازدحمت الجموع في يـوم ذي قار والقـادسية، وارتفعت رايـات الرشيـد والمأمون، وهجمت المغول، وجاءت دولة آل عثمان، وإذا العين تحلم بـدولة عربية، وإذا العراق قد بنى بيتاً له ألف باب، واحتفل بدولة الألقاب، فنعم الغدوّ ونعم المآب.

تألم الشاعر لحال بلاده فقال:

لم يبـقَ وجـه بشـوش في الكـوخ أوفي الخصـاص

وقال:

في جـــانِبَيْ قطـــري زيت يفـــور فـأين أيـن الأمّـــة الشـــاعلـــة؟

وقال :

ليس تجديك سكتـــة الأفـــواه حين نمسي بثـــورة في الصـــدور

والشرقي شاعر يجيد الوصف ولا سيّما وصف الحالات النفسية والنوازع الخفية، فهو يقول :

شـــاعـــر خـــاشع يحسّ بما في النفس مـن وحشـــة وفـــرط التيـــاع

رجّـف الصـــوت بـــالحنين وأصغـى لـــرفيـف الأرواح في الأسماع

ذلك علي الشرقي الرجل والشاعر!

إيه، يا أبا إحسان، أيها الإنسان الفاضـل. إنّي لأذكر ساعات وأياماً وسنين مضيئة قضيتها متمتعـاً بأدبك الرفيع ولطفك الجّم ومـودتّك الجميلة المتواضعـة. لقد كنت في عهـدك الأخير تشعر بـدنّو الأجل، سـافـرت للاستشفـاء في لندن، ثم عـدت وكأنّك متجّرد عن الحيا ة الدنيا. فأسرعت بطبع كتابين لـك وهيّأت كتاباً ثالثاً لم يمهلك الزمن لنشره. وكنت تقول: ليـس لي شيء من المتاع، فداري وسيّـارتي وكلّ ما ملكت يميني إنما هي لإحسان وللعـائلة . . . ولا أنسى أنني زرتك قبل مرضك القـاتل الأخير، وكان لديك جمع من الـزوار، فلما استأذنت بالخروج ومضيت في توديعي متفضّـلاً إلى الباب، قلتُ: أريد أن أستشيرك في أمور، يا أبا احسان، فـاسمح لي أن أزورك في فرصة قريبة. وقلت لي: بل عـد الآن، وأنا كفيل بصرف الـزوّار، فنختلي ونتكلم. ولكنني قلت: لا داعي للعجلة، وانصرفت ولم أعلم أن القدر يقف بالمرصـاد، وأنّ زيارتي التالية ستكون للسؤال عن صحتّك وأنت راقـد في الفراش تعاني أوصاب الداء الفتّـاك. ثمّ دقّ جرس التلفون بعد أيام قليلة، وكان نعيك الذي صكّ السّمع وأضنى النفس وأدمع العين.

***

كـان الشيخ علي الشرقي متـواضعاً، أنيس المحضر، لا يـأنف، وقد أصبح شـاعـراً عربيـاً ووزيراً عـراقياً مـرموقاً، أن يتحـدث عّما لقيه في صبـاه وصدر شبابـه من ضيق وشظف عيش، حتى شقّ طريقه في الحياة وبلغ منزلته الرفيعة.

وقد حدثني يوماً أنه كان، وهو شابّ، يعاني عسراً شديداً حتى ضاقت به السبل ولم يعرف باباً للأمل. وفي تلك اللحظات العسيرة طرق بابه وجاء أحد أبناء شيوخ العشائر يسأل عن الشيخ علي الشرقي.

ولما عرّفـه بنفسه قال القـادم: ان الفرس عربيـة أصيلة ولكنها لا تسـاوي أكثر من ستين ليرة ذهبـاً، فإذا شئـت دفعت لك ثـلاثين ليرة عن نصـف ثمنهـا، أو رغبت في أخذها فادفع لنا ثلاثين ليرة وخذها، بارك الله لك فيها!

ولم يدر علي الشرقي قصة الفرس ولم يسأل عن أمرها، ولا ساوم في ثمنها، بل قال :

هات ثلاثين ليرة واحتفظ بالفرس.

وقبض المبلغ وحمد الله الذي فرّج كربته من حيث لا يعلم.

ومضى اسبوع أو اسبوعان، وجاء صديق علي الشرقي إلى النجف وقال له: هل قبضت نصف ثمن الفرس؟

قال: قبضت ثلاثين ليرة، وحقك محفوظ فيها. ولكن حدثني ما القصة، وما شأنك في الأمر؟

قال: انني نازل في مضارب الشيخ... رئيس عشيرة.. وقد أدركته الوفاة، فاستدعاني وقال لي: أعلم ان هذه الساعة آخر عهدي بالحياة، ولي فرس أصيلة أريد أن أصرف نصف ثمنها في وجوه البّر، فأي جهة من جهات الخير أجدر بها؟ فقلت: أوصِ بنصف ثمنها إلى مقام علي الشرقي (وهو مزار يقابل قرية علي الغربي على الجانب الآخر من نهر دجلة). وأوصى الشيخ، ثم قضى نحبه.

وأتم الصديق حديثه قائلاً: وجاءني أولاد الشيخ الراحل يسألون انفاذ وصيّة والدهم، فقالوا انهم قدّروا ثمن الفرس بستين ليرة ذهب، وسألوا عن مقام علي الشرقي، فقلت: اسألوا عنه في النجف الأشرف. وأرسلوا أحدهم إلى النجف، فكان ما رأيت وسمعت!

قال علي الشرقي: بل كان ذلك الفرج الذي أرسله الله.

ولقد تحدّث علي الشرقي في «الأحلام» عن فقر النجف المذقع وأحلامها العريضة، تلك البلدة التي كما قال:

فيها مفاتيح لأبواب	الرجا وبها مغالق
ولها مجاز ينتهي	بالسّالكين إلى حقائق
ملأى بكل طريفة	من كلّ معجزة وخارق

حار ورفاقه من الشباب في التماس الرزق، فألفوا «شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية. ثم ضربوا في القرى والدساكر ومنازل الريفيين والعشائر، وباتوا في الخيام والعراء وحجر الطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب أمطارها، وجابوا ساحات الحرب ودهاليزها الخلفية وميادين الثورة والجهاد... وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجوّلاته وتطلّعاته، صفحات تمتاز بنثرها القلق القافز المتعثّر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسّو في اعترافاته. وقد قال:

فصح الشعور به، ولم أكُ شاكياً	إلّا لكوني شاعراً وفصيحا
في النفس أشياء، فهل من موضع	حرّ الفضاء لأشتكي وأبوحا؟

امتحن علي الشرقي الحياة وعرك الدهر فخرج بحكمة عملية لخّصها بقوله :

«وانّي أكاد أن أكون مخضرماً : لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، ولكني التقيت مع هـذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الآخـر. لقد تتلمـذت على منبر ذاك وتـوسطت حلقـة هـذا ، وأغـرب مـا أدهشني وحـدة الجوهـر واختـلاف الأسلوب. الضجـة التي سمعها المعّـري في الـلاذقّية ، وان الاصـوات التي كانت مرتفعة في أروقـة البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرنـاطة واشبيلية ، وما كـان يتصاعـد من أبواق دراويش المتصـوّفة ومن قعقعـة السيوف الخشبيـة التي يتكيء عليها خطباء الجمعـة ، كلها تطلب البلسم للجرح وتريد العلاج لهذه الـدنيا المريضة ، ولكن كلّ ما جاءت به مسكّن لا العلاج الشافي. وكـذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الأكـوام من المؤلفـات والمحـاضرات والمجلات والجرائد ومكـاتب السيـاسيين ومنـابـر البرلمانات وصفـوف الجامعات وأنباء المراسلين ، وكلّ مـا سجّلته الأقلام ورتبتـه حروف المطـابع ، تلك الأقلام وتلك المطـابع التي تكتب وتطبع بحبر رماد الحقّ. فقـد قيل إنّ الباطل أحرق الحقّ ، وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا إلاّ رماد الحقّ ، وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون . والدنيـا في يومها وأمسها برغم الانقلاب الأول والثـاني أساليب تتبـدل وظواهـر تتطّور، ولكـن كلّ ما جـاءت به عـلاج مسكّن وليس بالشافي.

«إنك إذا تقصّيت وفحصت بعمق لم تجد في الرؤوس شيئاً. وهـذا الإنسان في قديمه وحديثه لم تنفعه تفّاحة آدم ولا صمّـونة مولوتوف(*) ، بل هذي وتلك طـردته من الجنّة وأبعدته عن النعيم . . . »

الشيخ علي الشرقي :

كان عاطفياً سريع الإنفعـال في حياته الشخصية والأدبية ، وقد أثـر فيه يتمه ونشأته الصعبة في البيئـة النجفية الجامدة تأثيراً عميقاً. ولـذلك نرى شعره يختلف اختلافـاً بيّناً عن شعر معاصريه بكثرة مجازاته وإيماءاته وصوره الغريبة وحدبه على الفقراء والفلاحين والكادحين.

لم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى ثـار على بيئته الجامدة ووجد نفسـه سجيناً يصبو إلى الحرية والانطـلاق ويرنو إلى آفـاق بعيدة خارج مجتمعـه. وهو يحمل على رجـال الدين المتـزمتين ويداعب الأفكـار الحرّة الجديـدة التي انبعثت من النهضـة الفكريـة في مصر ولبنان على قدر ما تسمح به ثقافته الدينية الأصيلـة وعدم معرفته باللغات الغربية. وقد جاء نثـره وشعره متماوجين بين القديم والحديـث لا يستقر لهما قرار شأن نفسيتـه القلقة المضطربة.

(*) صمونة مولوتوف (او قنينة مولوتوف ، على الأصحّ) اسم أطلق خلال الحرب العالمية الثانية على قنابل بدائية استعملها الروس في الدفاع عن بلادهم ، ومولوتوف وزير الخارجية السوفيتية عهدئذٍ.

ولعل هناك بوناً شاسعاً بين الشرقي الشاعر والشرقي القاضي الشرعي العالم الناجح والشرقي الوزير الذي مالأ الوضع الذي ينتقده وسايره لينعم بمنصبه. لكنه كان دائماً مخلصاً وفياً لأصحابه معتدل السيرة غير مندفع في خصومته ونقده. عرف في القضاء فقيهاً ملماً بالأحكام الشرعية متمسكاً بالتسامح والتزام مفاهيم العدالة في تطبيقاته وتخريجاته. أما في الوزارة فكان شفافاً كالماء الذي يتلوّن بلون الإناء، فلما جاءت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وقضت على العهد الملكي الذي زامله في حياته السياسية مضى في «أحلامه» يحمل على سياسة الامير عبد الاله ونوري السعيد. ومن الحق أن يقال إن شعره قبل الثورة كان زاخراً بالشكوى والتبّرم من الأوضاع السائدة، فكان ثمة ستار فاصل بين حياته العملية والفكرية لم يحاول رفعه. لم يكن الشيخ علي الشرقي من الرجال المكافحين في سبيل المبادىء والآراء، الراضين بالتضحية وتحمّل المشاقّ، بل كان بطبعه سهلاً ينقاد للواقع ويماشي ويجامل إلى أبعد الحدود.

وقد قال في احدى رباعياته:

يا رامي الشجر العالي بأكرته،	هلاّ تعلّمت أخلاقاً من الشّجر
ترميه بالحجر القاسي بلا خجل	وإنه دائماً يرميك بالثمر

لقد هادن المغالين المندفعين والمعتدلين المسايرين وقنع برفاهة العيش وهناءة الأسرة والقبيل واكتفى بالنقد البريء والقول الهادىء، فقال:

هذي الرؤوس ولكن كلها وجع،	وذي العيون ولكن كلها رمد
وكم صدور بهذا القطر فارغة	جوفاء ليس بها قلب ولا كبد
صدور أندية في جهلها انتفخت	حتى تشابه فيها الهرّ والأسد

وصحّ فيه قوله:

يا بلاداً تجهّمت بظلام	ألمصابيح فيك ملأى بزيت
إنني هامس بأذنيك قد كنت	ولكن لا أريد أرفع صوتي

وكان المسالم الذي قال:

ما لدار السلام أضحت برغمي	تشتهي أن تكون دار الخصام؟
تنطح الصخر في قرون الطين	وتغزو الأمجاد بالأقزام

* * *

اطلع احد شعراء النجف المتزمتين على منظومة إيليا أبي ماضي «لست أدري» فعارضها بمنظومة مثلها حسب أنها نقضت كل شكوك الشاعر المهجري وجعل عنوانها «أنا أدري». فانبرى له علي الشرقي بمعارضة جديدة مختصرة ختمها بقوله:

أنت مجنون ولكن لست تدري،	أنا أدري.

علي الشـــرقي :

حـدثني علي الشرقي أنـه جـاء من النجف إلى بغـداد بعـد أمـد قصير من احتـلال الانكليز لها سنـة ١٩١٧ ونزل في بعض خانات الكـاظمية . وتحلّق روّاد الخان عصراً في الساحة وأخـذوا يتحدّثون عن الأتراك ومـا جنوه على العراق فسلقوهم بـألسنة حداد ، وقال بعضهم إن الأتـراك كانوا كفّاراً والإسلام بـريء منهم . . . فاعترض علي الشرقي ، وكان جالساً معهم تمضيةً للوقـت ، وقال إن الأتراك مسلمون ولا ريب ، وليسوا كفّاراً ، والأولى انتقادهم بأنهم علّـة تأخر البلاد التي حكمـوها نحواً من أربعة قـرون في دياجير الجهل والفقر . . .

وفي صباح الغد مضى الشرقي إلى بغداد ودخل السوق وجلس في دكّان السيد محمد رحمة الله ، وكان جعفـر الشبيبي عـاملاً لديـه . وفيما هم يتحدثـون إذ جاء بعـض أفراد الشرطـة وتفحّص وجـه علي الشرقـي وقـال لـه : أنت علي الشرقي القــادم أمس من النجف؟

قال : نعم

فأشار إليـه الشرطي أن يرافقه إلى «خـان دلّة» وهو آنـذاك مقرّ الشرطة الانكليـزية . ومضى بصحبته فأدخل على قوميسير (مفوض شرطة) انكليزي يتكلم العربية بطلاقة ، وقال له : أنت علي الشرقي (ومضى يسرد حياته وأعماله) . ثم سأله : ماذا قلت أمس في خان الكاظمية وأنت جالس تتسامر مع الجماعة؟

فأخبره الشرقي بما دار الحديث حـولـه ومـا قالـه هـو نفسـه ، فقال المفـوض : هـذا صحيح ، وكلامك لا غضـاضة فيه . لكنّ العـوامّ لا تفهمه وتؤوّلـه شتى التأويلات في هذه الظروف التي تخيّم عليها سحابة الحرب ، فالأولى أن تحذر الكلام وتلوذ بالصمت .

وأذن لـه بالـذهاب بعـد هـذا التحذيـر ، فخرج وهـو يعجب لـدقّة الاستخبـارات البريطانية .

عبد الحسين الأزري

عبد الحسين الأزري من شعراء الطبقـة الثانية التي برزت بعـد رائدَيْ النهضة الأدبية الزهاوي والرصافي . لكنه بقي محافظاً إلى حدّ ما ولم يساير التجديد إلى آخر أشواطه شأن محمد رضا الشبيبي وأخيه محمد باقر وعلي الشرقي وأقرانهم .

نسبـه علي الشرقي إلى الأسرة الأزريّة المتفـرعة من محمـد بن مراد التميمي البغـدادي المتوفى سنة ١٧٤٩ ، وهو أول من لقّب بالأزري لتعـاطيه بيع الأُزر المنسوجة من القطن والصوف ، وقـد نبغ من هذه الأسرة الشـاعران محمـد كاظم (١٧٣٠ ــ ١٧٩٦) ومحمد رضا المتوفّى سنة ١٨٢٤ .

لكنّ جعفر الخليلي يذكر مستنداً إلى أصحّ المصادر أن الحاج عبد الحسين بن يوسف ابن محمد المعروف بالأزري ابن محمود بن ابراهيم الحضيري التميمي لا صلة له بآل الأزري المتقدم ذكرهم سوى أنّ أحد جدوده من الحضيريين تزوج بابنة الشيخ محمد رضا أخي الشاعر الشيخ كاظم فطغت شهرة الأزرية على هذا لبيت .

ولد عبد الحسين الأزري في بغداد في شهر شباط ١٨٨١ ، ودرس في مدارسها الإبتدائية . ثم تتلمذ على الشيخ شكر الله قاضي الجعفرية فأخذ عنه العلوم العربية والدينية . وأكبّ على مطالعة الشعر والأدب ، ونظم القريض وهو يافع . عمل في التجارة حيناً ، وهي مهنة أسرته ، وكان موظفاً في شركة ترام الكاظمية .

وافتتحت المدرسة الجعفرية في بغداد سنة ١٩٠٨ فألقى في حفل الافتتاح قصيدة قال فيها :

زيدي بنيك محاسناً وجمالا	ودعي الحوادث تقنع العذّالا
وامشي بهم مشي الهلال معانياً	حلك الدّجى حتى يتمّ كمالا

وأعلن الدستور العثماني في تلك السنة فكفل حرية الكلام والصحافة . وأصدر الأزري جريدة «الروضة» (٢٢ حزيران ١٩٠٩) ، لكنها أغلقت قبل مرور سنة على صدورها فشفعها بجريدة «مصباح الشرق» (أول آب ١٩١٠) . وصدرت هذه الصحيفة أشهراً ثم أصابتها يد التعطيل .

وأصدر بعد ذلك جريدته الثالثة «المصباح» (٧ آذار ١٩١١) فـ «المصباح الأغرّ» (١٤ تشرين الثاني ١٩١١) وظلّت تصدر ثلاث سنوات . وتولّى الأزري في الوقت نفسه ادارة مجلة «العلم» التي أصدرها هبة الدين الحسيني الشهرستاني .

ولما نشبت الحرب العظمى وخاضت الدولة التركية غمارها ، نفي إلى قيصرية الأناضول مع لفيف من أحرار العراق ورجال الفكر والإصلاح ، فمكث في منفاه نحواً من سنة وعشرة أشهر . وسمح له بالعودة إلى بغداد مع صحبه سنة ١٩١٦ . وقال يذكر وادي أرجيوس من قمم جبال طوروس القريبة من قيصري :

وادي أَرَجْيُوس ، حسبي ما أقاسيه ،	شيبّت رأسي كما شابت نواصيه
كفاك سجن غريب بين مجتمعٍ	يعدّه كأسير من أعاديه
ضيّعت ، ويلك ، شطراً من شبيبته	قد ظنّه برغيد العيش يقضيه
يشكو إلى الليل من صبح يعيد له (م)	البلوى وللصبح من ليل يداجيه

ويحنّ إلى بغداد فيقول :

إذا ذكرتك ، يا بغداد ، أرقّني	ذكرى حبيب بروحي كنت أفديه
تركته ساعة التوديع في وَلَهٍ	لم يدر كيف عن الأنظار يخفيه

وبين جنبيـــه نفس لا تطـــاوعـــه على النـــوى وفـــؤاد لا يـــواتيـــه . . .

وهي من رقيق الشعر تذكّرنا بهائية ابن زريق البغـدادي(لا تعذليه فإنّ العذل يولعه) ونونية محمود سامي البارودي :

محا البين مـــا أبقت عيـــون المهـــا منّي فشبت ولم أقـضِ اللبّـــانـــة مـن سنّي

أصدر الأزري بعـد الحرب مجلة «الإ صلاح» (٢ آب ١٩٢٤) فلم ينشر منهـا سوى عددين .

وانتخب نائباً عن الديوانية في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٤) فلم تدم نيابته الاّ أشهراً إذ حلّ المجلس في نيسان ١٩٣٥ . وقد قال في المجلس النيابي :

يـــــــا رواق المجلس الحافـل بـــالـــوفـــد الضيـــوف ،
يـــا جنـــاح المطعم الغـــاض بـــــرواد الـــــرغيـف ،
أيها الحافـظ لــــــلآثـــــار ربّـــات الـــرفـــوف . . .
حـــــــرت في الأمــــــر ، فهـل عنـــــدك مـن رأي حصيـف؟؟
كيـف مــــالـت كفّـــــة الميـــزان بـــالـــوزن الخفيـف؟

وعدّ المجلس صالة تمثيل هزلي تحرّكه الإشارات من وراء الستار ويعيش جوقه اللاهي على كدّ الألوف من المواطنين . وقـد قال الشاعر العراقي في القرن التـاسع عشر ـ ولعلّه عبد الباقي العمري ـ :

صـــور وأشبـــاح تـــروح وتغتـــدي خلف الستـــارة والمحـــرّك بـــاقي

وكـان لـلأزري بعض الإلمام بـاللغـات التركية والفـارسيـة والفـرنسيـة . ومن أولاده الوزيـران المهندس عبد الأمير والاقتصـادي عبد الكريم . أدركـه الحمام في بغداد في ١٧ كانون الاول ١٩٥٤ .

مـؤلفـاتـه :

له شعر نشر في معظم المجلات والصحف العربية ، ثم جمع في ديوان طبع في بيروت سنة ١٩٧٩ بمقدّمة للشيخ علي الشرقي . ووضع تاريخاً للعـراق قديماً وحديثاً وروايات متها : قصر التاج ، بـوران ، بطل الحلة ، وكلها لم تطبع ، ومجموعة مقـالات في السياسة والاجتماع والأخلاق .

شعره :

عبـد الحسين الأزري شـاعـر محافظ في معـانيـه ومبـانيـه ، جـزل الألفـاظ ، مشرق الديباجـة . ذكر علي الشرقي مزايا شعـره فقال : «هو إقليمي في فنّه ، انسـاني في نزعته ، قومي في أهدافـه . وبما أنه ترعرع في أحضـان الثورات والانتفاضات فقـد كان يكثر في شعره النقد الـلاذع وتصطبغ قصائده أحياناً باللون القـاتم . . . يحب من الشعر الخيال

الجميل ويبدع في الأسلوب القصصي».

وقال جعفر الخليلي إنّ الأزري، إلى جانب شاعريته الفياضة، محدّث بارع وظريف لبق. كان على جانب كبير من الوقوف على التاريخ العربي، وقلّما روى شيئاً دون أن يستشهد بأقوال شعراء الجاهلية والإسلام والوقائع التاريخية. وكان لغوياً واسع المعرفة، خفيف الروح، يعشق الجمال في كلّ شيء ولاسيما في المرأة. (اهـ)

امتاز شعر الأزري بالجزالة والرواء. وهو شاعر وجدانيّ قبل كلّ شيء. أليس هو القائل:

خطأً كان، فاذهبي بسلام ... واغفري ما اقترفتُ من آثامي
وتناسي بحرمة العهد ما كنت ... تقاسين في سبيل غرامي
من عتاب مرّ وآلام شكوى ... َفيها قد تصّرمت أيامي
غـرني طيفك الملمّ بجفني ... حينما كنتُ غارقاً في منامي
وتخيّلت أنني فزت بالقرب ... وأدركت منك بعض مرامي
لست أدري، وليتني كنت أدري، ... أنا في سورة من الأحلام...

والقائل:

صدق الهوى، ما كلّ ودّ صادق، ... فلكم تذرّع بالوداد مماذق
ومكابرٍ بالعشق لو كاشفته ... لعرفت منه سرّ ما هو عاشق...
أحمامة الوادي، سبقتك بالغِنَا، ... لولا فمي بالماء دونك شارق
ولربما سكت الحزين، وفي الحشا ... نفس معذّبة وقلب خافق

وقال يخاطب شجر البان:

هل مسّك الوجد مثلي، أيها البانُ ... فآذنت بذبولٍ منك أغصان؟

سأل الشاعر شجر البان: هل روت له الحمامة حديث الهوى مشوباً بالأشجان والأحزان، وهل اتخذت الظباء ملجأ في ظله الوارف الفينان، ثم أمست مغانيه قفرة موحشة كنفس الشاعر الولهان؟

وفي قصيدته «اليتيم» التي أنشدها سنة ١٩٢٥ في حفلة المعهد العلمي لرعاية الجمعية الخيرية للأيتام يقول:

هدأ الدجى لولا أنين عليل ... وممدّد بسقامه مشغول
ونشيج ولهى خشية من أنها ... تبقى وصِبْيَتُها بغير كفيل

طال السّقام على الشقّي المريض، وبجانبه صبية صغار وحليلة تتكّلف الصبر الجميل، ومن الصبر ما يثقل ويرهق إرهاقاً. وقفت عند سريره تكفكف دمعها وتنظر

إلى أولادها وقد باتوا على الطوى. حتى إذا ما قضى ربّ الأسرة بقيت المرأة المفجوعة تعاني البؤس، حتى سئمت الذلّ ووردت حياض الموت تاركة أيتامها ظعائن في قفر راحت مشتّتة بغير دليل.

وقصيدة الأزري مؤثرة حزينة تبتدىء وتنتهي بالفاجعة على عادة شعراء زمانه وفي مقدمتهم الرصافي ناظم «أمّ اليتيم» و «اليتيم في العيد».

وفي شعر شاعرنا، أنّات وحسرات، فهو نفسه قد ابتلي بالمصائب فقال:

عشتُ دهراً فلم أجد غير ما بتُّ (م) أقاسيه من نوائب دهري
غصص لو حسبتها لتلاشت دون إحصائها دقائق عمري

فلا عجب أن أصبح سيّء الظن بالدهر وبالناس.

ألم يقل:

أضحكتنا، وربّ ضحك بكاء، فترة من زماننا رعناء

وقال أيضاً:

نحن في كلّ غُدوة ورواح هدف الموت والقضاء المتاح

وقال:

لم يبق في الناس موثوق بعفّته إلاّ الذي عصمته رحمة الباري

وقال:

تمشي بنا القهقرى مَشْيَ الكسيح بها دنيا تقدم أذناباً على الراس

وقال:

قد ذهب الصدق وظلّ اسمه، يا ليته ولىّ مع الصّدق

وقال يرثي لحال الأديب:

جهلوه في قيد الحياة، وبعدها لمّا مضى أسفوا على فقدانه
فكأنّهم فيضان دجلة حينما يأتي إلى الوادي بغير أوانه

وقال يذكر صديقاً خانه:

ولي صاحب قد كنت أوثر حبّه فلما أساء انسل من قلبي الحبُّ
لقد خانني فيما عليه ائتمنته وربّ أذى مستقبح بعده العتب

وقال، ولعلها الغاية في الشكوى من العقوق والكنود:

حسبي عتاباً على من قد خلصتُ له وقد جفاني أنّي لا أعاتبه
ممّن تحذّر من صُلبي نفضت يدي، فكيف أرجو الوفا ممن أصاحبه؟

والأزري شاعر وطني تألّم لحال بلاده وسائر أقطار العرب والشرق وطلب لها الحرية

والعلم والنهوض. فها هو ذا يخاطب وطن الرشيد قائلاً:

وطني، لأجلك قد عدمت قراري ... وسئمت فيك حياة هذي الدار
أحيي الليالي والعيون هواجع ... وهواجسي في جنحها سمّاري

حتّى يقول:

ناديت أوطاني، وما أعني بها ... ناديت عير دوارس الآثار
الناثرات فضائلي ومفاخري ... والشاهدات بعزّتي ونجاري
والناظرات إليّ نظرة آمل ... إحياء مجد دارس وفخار
والباعثات بنفسي الشّمم الذي ... يأبى الحياة بذلّة وصَغَار...

ويقول في قصيدته «المجد مكتسب»:

دم ذاكراً فيك، يا شعبان، من وثبوا ... فسوف يحفل في تمجيدك العرب
واحفظ لهم عهد صدق عند نهضتهم ... بنوده الشرف الموروث والحسب
واسعد بقوم على ورد الرّدى عقدوا ... راياتهم أو ينالوا كلّ ما طلبوا...

ويقول في قصيدته «مظاهر ودّ كلّهن مصائد»:

ألا أيها الوادي الكئيب الذي له ... على بؤسه مجد طريف وتالد
لقد كنتُ أرجو أن تحلّ من الإبا ... محلاً به تلقى إليك المقالد
ظمئنا وللأغيار فيك موارد ... إذا علّ منهم صادر حلّ وارد

ويقول في قصيدة أخرى:

ليس يجدي من الضعيف الكلام، ... يسمع النّاس ما يقول الحسام
إنّما الحقّ سلوة العاجز الأعزل (م) ... فيها لو جارت الأحكام
يتسلّى به كما يتسلّى ... بحديث الصّبابة المستهام

ولا يفوته ـ على عادة شعراء عصره ـ أن يطلب العلم لأمته، فيقول:

نال فيك الغرب، يا علمُ، المراما ... فغدا لم يَرْعَ للشرق ذماما
أشرقت شمسك في الغرب ولم ... نرَ من آثارها إلاّ ظلاما...

حتى يقول:

يا بني الشرق، خذوا العلم ولا ... تجعلوا منه إلى الظلم دعاما
واتقوا عادية الدهر به، ... فهو العروة لا تخشى انفصاما

ثم يلتفت إلى وطنه فيخاطبه قائلاً:

أيّها القطـــر الـــذي في مجده — ضــارع النجم علــوّاً ومقـــامــا
كلما رمــتُ أنـــاجيـك بما — في فــؤادي قطع الــدمع الكـلامــا
لــك في عهــد حمورابي على — ســائر الأقطـار فضـل لا يُســامَى
وعلى آثــاره قــد شهـدوا — أنّك المبــدع في الأرض النّظــامــا
بــدأ العلم بمغنــاك فهـل — فيــه تحظى اليــوم بــدءاً وختــامــا؟

خلا شعر الأزري من المديح باستثناء الأماديح النبوية والمراثي الحسينية. لكنه رثى رجـال عصره، وفي طليعتهم الملـوك الهاشميون حسين وفيصـل وغازي، والسيـاسيـون محمد جعفر أبو التمّن ورستم حيدر وسعد زغلـول، والأدباء الزهاوي وشوقي والرافعي والمنفلـوطي، والزعماء الـروحيون محمـد تقي الشيرازي ومهدي الخالصي، الخ. ولعلّـه الشاعر العربي الوحيد الذي رثى شاعر الهند طاغور، وإن يكن الأدباء كتبوا عنه وترجموا له كثيراً ومنهم مصطفى صادق الرافعي. قال الأزري في طاغور:

أيّها الـراحـل الـذي كـان يشـدو — وهــو رهـن القيــود والأغــلال
مثلما تصــدح الطيــور صبــاحــاً — مـن وراء الأقفــاص والأقفــال

والحقيقة ان طـاغور لم يعـرف القيود والأقفاص، بل شـدا وترنّم حـراً طليقاً، فلقي التكريم في مـواطنه وفي بريطـانية والمحافل الدوليـة التي منحته جائزة نـوبل للآداب. واقتصر نضاله في سبيل الهنـد على اعادة الأوسمة التي منحته إياها الحكـومة الانكليزية بعد الحرب العظمى الاولى.

وقال الأزري:

لم تصــل للكمال نفــس، ولكــن — كــدت فيهــا تجتــاز بــاب الكمال
أدب لــذت من شجــونك فيــه — عــدت فيــه بمعجــزات الخيــال
خطــرات شفــافــة ككــؤوس — مـن رحيـق معتـق سلســـال
أو نسيـم بين الــريــاض بليـل — أو كماءٍ عــذب المذاق زُلال...

وهو يستطرد في رثاء الزهاوي إلى حكمة الحياة والموت، فيقول:

ضرب الغمـوض على الحياة حجـابـه، — فــارفـق بنفسـك، أيها المتعمـقُ
قصرت خطـاك عن الـوصـول ولم تـزل — تــدنــو فتبعــد أو تعــوم فتغــرق
مشت العصــور على غــرار واحــد: — نفس بها تحيــا وأخــرى تــزهـق
والأرض تثمــر والمنيــة تجتني، — والليـل يجمع والنهـار يفــرق
والــدهــر كـالبحـر الخضمّ يفيض في — رحم الــذين مضــوا ويجرف من بقُــوا
.... — .... الـخ

ويرثي ولداً احتسب به صبياً فيقول ملتاعاً:

بين نشر الـــدجى وطيّ النهـــار ... سبق الشمس للمغيب هـــزاري...

أيّها الحاملـــون للقبر دُرجـــاً ... من عطـــور أوبـــاقـــةٍ من بهار،

كفّنـــوه بـــالـــورد فهـــو أخـــوه، ... واجعلـــوا القبر سلّـــة من نضـــار

لا تهيلـــوا على الأقـــاحي تـــرابـــاً، ... فحـــرام تَعَفُّـــر الأزهـــار

ويرثي قريبة له عزيزة عليه فيقول:

كـأنـــك في قبريـــن: قبر بـــأضلعـــي ... يصـــونـك ممـــا بتّ تلقَيْن في اللحـــد

أجـــدد فيـك العهـــد كـلّ عشيـــة ... وإن فصمت أيدي المنون عُرَى العهد...

وقبرٍ بـــه وَسَّـــدْتُ خـــدك تُـــربـــه، ... وبـــالـــرغم مني بتِّ عـــافـــرة الخدّ

وقفت عليـــه خـــاشع القلب مطـــرقـــاً ... كأني تمثـــال من الحجـــر الصَّلْـــد

وهو يـرثي سعد زغلول فيطلقهـا صرخة وطنية مـدوية، ويرثي أحمد شـوقي فيمجّد الأدب ويكبر الشاعر والأديب، ويرثي يوسف رجيب فيأسى لهوان الأديب الحرّ ويحزن لبؤسه وشقائه.

والمواضيع الأخـــرى التي يطـرقهـــا الأزري يماثل معظمهـا تلك التي شغلـت بـال معاصريه من الشعراء.

فهو يرثي لحال وطنه ـ ذلك الوطن الذي قال فيه:

وطن يـــرانـــا الخير من غـــربـــائه ... وتعـــدّنـــا النّكبـــات مـن أبنـــائه

وتكـــاد تنكـــرنـــا الحيـــاة، كـأنّنـــا ... لسنـــا بهذا القطـــر مـن أحيـــائه

لقد عدم قراره لأجل هذا الوطن وسئم الحياة فيه، فأرقت لياليه. طلب لقومه العلم والنهضة والسّؤدد، وحيّى ذكـرى الثورة العربية وثـورة العشرين، وقال إن الحقّ لا ينال بغير النضال، واستنكر الشقاق وتفرق الكلمة، وقال:

تعهـــدوا، يـــا شبـــاب اليـــوم مـــوطنكم ... مـن أن تضيعـــه الأحـــزاب والشّيـعُ

كـــان الـــوفـــاق لكـم أيـــام نهضتكم ... ركنـــاً، ولكن أراه اليـــوم ينصـــدع.

والأزري بعـد ذلك رجل محافظ وقف من قضية تحريـر المرأة موقف الـوجل والحذر، وردّ على دعاة السفور قائلاً:

أمنـــازل الخَفِـــرات في الـــزوراء، ... لا زعـــزعتـك عـــواصـف الأهـــواء

قـال لبنات قـومـه إنّ الحجـاب لم يكن إساراً، وحـذرهنّ من أن يخدعهنّ الشعـراء بخيـالهم، ونـدّد بـالمسارح والملاهي قـارناً التهـذيب بالفضيلـة والحياء. وطلب تشييـد

المدارس للفتيات ورفع مستوى أخلاقهنّ ليكنّ نساءً فاضلات، صالحات لتربية الأجيال الطالعة.

ومن طريف شعره قصيدته «الغادة العذراء في أحلامها». وللشاعر الفرنسي ألفرد دي موسّيه مسرحية منظومة لطيفة عنوانها «فيم تحلم الفتيات» أو «أحلام الفتيات» يصوّر فيها أختين تتناجيان في الحبّ والزواج والتبرج والجمال. تحلم احداهما بالعريس الذي دعاه أبوها لزيارة الأسرة في الغداة وتسمع، وهي على فراشها سكرى بحسنها وصباها، صوت شابّ يغني لها خارج النافذة ويقول: أيتها الفتاة، ماذا تفعلين بحياتك؟ السّاعات تهرب، والورود تذبل، والشتاء يعقب الخريف. قلبك يخفق وعيناك تتوهّجان. أنت تذهبين إلى البحر بلا نجم هاد وإلى المعركة بلا نشيد. وما قيمة الحياة بلا حبّ؟ إنما الحياة رقاد والحبّ أحلامه.

وتقول الفتاة: إنني أشعر بهزار يترنّم في أعماق قلبي. ويأتي الحبيب ليختار احدى الفتاتين فيتردّد ويحار، ويقول: لا تسخروا منّي، أنا لا أعرف طرق الحبّ. انا لا أعرف سوى النظر وإنزال عبرة ساكنة وترديد آهة خجلة. النار تضطرم في صدري ولساني عاجز عن البوح بهيامي... وتنتهي الأحلام بالزواج السعيد.

إنّ أحلام فتيات الشاعر الفرنسي تضجّ بالبطولة والحبّ والمجازفة والغناء. أمّا غادة الشاعر العراقي فتريد سعادة هادئة لا تعصف بها الرياح. قال الشاعر:

عصفت بها ريح الهوى فتدلّهت،	من ذا يردّ الريح عن أدراجها؟
وتطلعت في الأفق من أستارها	كتطلّع الأقمار من أبراجها
عذراء فاتنة وكم من فتنة	كان الهوى سبباً إلى إرهاجها؟
قد جاوزت اعصارها وتهيّأت	للقطف كالثمرات في إنضاجها
وبدت ترائبها كماء بحيرة	وكأنّما النهدان من أمواجها
نظرت رشاقة قدّها فتنهدت	وكأنّما خشيت فوات زواجها
خلع الإهاب عليه أجمل حلّة	يسمو برقته على ديباجها
ويشفّ عن هيف القوام رداؤها	كالرّاح تظهر من وراء زجاجها
تختال ضامرة الحشا، لكنها	تتثاقل الخطوات من رجراجها
جاءت لتعرضه على مرآتها	من بعد ما عبث الهوى بمزاجها
وتلفّتت لترى انعكاس خيالها	في ميسها ودلالها وغُناجها
وتكفّ ما قد سال فوق جبينها	من شعرها لتزيد نور سراجها

وأيقنت الفتاة أنها تسنمت عرش الجمال، فتساءلت عن الذي سيكون حارس تاجها. غير أننا نرى الشاعر ينتقل إلى موضوع أحبّ إلى نفسه وأقرب إلى فكره، فيفصح عن خوفه من أن يعود عصر حوّاء فتتستّر الغيد بأوارق الشّجر.

وللأزري غزل لطيف، منه:

بــدا لي محيّـاهــا على حين غفلــة فخــرّ على أقــدامهـــا صَعِقــاً قلبي
فقــالت: أفق من سكـرة أنـا كأسهـا، وهــا أنني أستغفــــر الله من ذنبي
وهّمت بإســدال القنــاع تعطّفــاً على كبـــد شبـت بــه جــذوة الحب
فقلتُ: أصاب السّهم مـرماه فـارفقي، وهيهـات بـرء الجرح من نصلـه الـرّهب
رأيت الهوى استـــوفى بـأول نظـــرة نهايـة مـا استـوفـاه من عـاشق صب
قفـي أتـــزود من محيـــاك لحظـــة قفـي قبلما أقضي على حكمـــه نحبي

وقال:

بينـي وبينـك ألّـف القـــــدرُ فـــاللحن أنت وحبّك الـــوتــر

لقد أحسن الأزري رواية قصص الحبّ الخيالية في شعره العذب المنسجم، فقال:

زارني طيفـك فــــاستقبلتـــــه وأنـــــــا في مضجعــي لثماً وضما
مثلما عـــــــــوّدتني في يقظتــي أن تـــــــزوري دون أن أسبـق علما
فتنسّمتـك لطفــــاً كـــالصبـــا وتنشقتـك كــــالــــزهــــرة شما
وتحدثــت بصـــــــــوت مثلما كـــان عهــدي في اليقظـــة نغما
هـل تحّولت خيــــالاً في الكـــرى وتقمصـت مـن الأحـــــلام جسما؟
وعجيـب أنـت والطيـف معـــــاً كيـف لم تختلفـــا لـــونـــاً وطعما
خفـق القلـب لمرآك بــــــــه، ليت شعـري كيفـ عـدّوا الطيف وهما؟
لم لا؟ أحسـب حلمـي يقظــــــة عنــدمـــا ألقـــاك واليقظـــة حلما
حلّليــــــــــه كيفما شئـت فما زال رؤيـــاي لـك اللغـــز المعمى

انّ شاعرنـا قد طوّف في المدائن والمعاهد، وتجشّم المتاعب والمشـاقّ، عاشر الشيوخ في آلامهم والشباب في آمـالهم، وعلّل النفس وهدهـدها بـالأماني والأحـلام، فرجع إلى عزلته خائباً حائراً. والتجأ إلى «واحـة الإيمان» ينشد الراحة والسّكينة في ظلال الأدب، منشداً لنفسه:

حسبـي يـــــراعـي ســـاقيـــاً ومـــــــــــداد محبرتي شرابي
وأنـــــا الـــــذي لم يبـق لي الاّ منـــــادمــــة الكتـــاب

محمد حبيب العبيدي

مفتي الموصل وشاعرها ولد فيها سنة ١٨٧٩ وتوفي بها في ١٩ تشرين الاول ١٩٦٣ . وقد نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية» .

وأضيف هنا أنه كان مع الجيش التركي في ساحة فلسطين حين احتلها الانكليز سنة ١٩١٨ ، فقبضوا عليه واعتقلوه في معتقل الأسرى بالاسكندرية . وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب .

من شعره الوطني :

أضرموا النار، يا سراة العراق، واغسلوا العار بالدم المهراق
إنّ ضيماً حملتموه عظيم كاحتمال الأطواق في الأعناق
كلِّ آنٍ تُسقون كأس هوان فاقطعوا بالسيوف كفّ السّاقي
يا رجال العراق، لستم أسارى لتزينوا الأعناق بالأطواق . . .

قال فيه إبراهيم صالح شكر انه تعشق البطولة والعظمة من الصغر، فوضع العمامة على رأسه وتخيل نفسه نذير القضاء على جمود المسلمين وبشير الإصلاح المنشود في الشرق . فلما وصل سنّ الشباب رأى نفسه أهلاً لأن يقوم بالدعوة لإصلاح حال الشرق والمسلمين ، فأخذ يخطب ويكتب في هذا الباب . ورحل إلى سورية والاستانة مراراً، ثم قام برحلة يطوف فيها العالم الإسلامي داعياً إلى الإصلاح . ونشرت له جريدة الرأي العام البيروتية قصائد ومقالات طنّانة حماسية واجتماعية . ولما نشبت الحرب العظمى أصبح خطيباً للفيلق التركي الرابع بقيادة جمال باشا السفاح . وألف كتاباً عن «جناية الانكليز» وآخر بعنوان «حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام» .

وجاء إلى الموصل بعد الحرب فخلع عن نفسه ثوبه التركي الطوراني . وعاودته فكرة الزعامة ، كما قال إبراهيم صالح شكر، فجمع له زمرة من الشبيبة الموصلية وأخذ يدعو إلى العرب ونهضتهم ويتغنى بأمجاد قحطان وعدنان ويمتدح ملوك العرب ومجاهديهم . . .

الشيخ كاظم الدجيلي

سلام على شطّ الدّجيل، فحسبه عُلىً أنه مَغْنَى الدّجيلي كاظمِ
أديب سياسي أريب وشاعر وبالفضل معروف كثير المكارمِ
إذا قال شعراً ردّد الدّهر شدْوه وفي نثره سحر كسَجْع الحمائمِ

وصاغت أيـادي الشيب تـاجاً لـرأسـه	لجينـــاً، وقلـب الشيـخ غضّ البراعـم
يفيض بـأوصـاف الحســان قصيـده	ويـا قلّما قـد خـاض غَمْـر الملاحم!
شبيـه بأفـلاطـون في الطّهـر حبّـه	على أن شعـــر الحبْ جمْ المزاعـم
على أن شعــر الحبّ عـذب نشيـده	فـلا تستمع فيـه للـوم اللـوائم

قرأ علينا الاستاذ الشيخ كاظم الـدجيلي في السنوات الأخيرة طرفاً رائعاً من شعره غير المنشور أمتع أسماعنـا وسحر ألبـابنا، فكان أن خـاطبته بتلك الأبيات مـازجاً التقـدير والتعظيم الذي أكنّه للصديق الشاعر بالدعابة والملاطفة.

ولد كاظم الدجيلي في قرية دجيل المعروفة بسميكة شمالي بغداد في ١٠ آذار ١٨٨٤، وهـو ابن حسين بن عيدان بن درويش بن نهار الخزرجي. وجـاء بـه والـده إلى بغـداد وعمـره ستة أشهـر فاستـوطن جانب الكـرخ. ودرس في الكتاتيب فحفظ القـرآن وألمّ باللغـة العربية وطـرف من العلوم، ثم لازم فـريقاً من أفاضل العلماء والأدبـاء كشكري الألوسي والسيد حسن الصـدر والأب أنستاس ماري الكرملي وجميل صـدقي الزهاوي فأفاد منهم فوائد جليلة.

وقد حدثني أنه كان يغشى مجالس رجالات بغـداد كالسيد عبد الرحمن النقيب وعبد المجيد الشاوي وغيرهما، فكان النقيب يستقبله كلما وافى ديوانه مردّداً البيتين التاليين:

أســـال بـــالصّبح سيـل	أم زيـــــد في الليـل ليـل؟
يـــا إخـــوتي بـــدجيـل	وأيـــن منّـــي دجيـــل

والبيتان للشاعر عليّ بن الجهم قـالهما حينما مضى إلى الشام، فلما قرب حلب، خرج عليه اللصـوص وجرّحـوه وأخذوا مـا معه وتـركوه على الطـريق، فاستنجـد بإخـوته في دجيل، وأين منه دجيل؟ (وكان مقامه بمحلة دجيل في بغداد).

وأتيح لـه بعد ذلك أن انتمى إلى مـدرسـة الحقوق في بغـداد فنـال شهادتها في سنـة ١٩٢٣.

وقد عمـل مع أبيه في تجارة الحبوب ردحـاً من الزمـن في صدر شبابـه، ثم أقبل على المطالعة ونظم الشعر. وأعلن الدستـور في السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ فحيّاه بقصيدة ألقاها في الاحتفال الذي أقيم في السراي تخليداً لهذا اليوم، ومطلعها:

بشرى الأنـــام وبشرى أهـل بغـــداد	فـــالـــدهـــر وافى بـإقبـــال وإسعـــاد

وصدرت الصحف بعد أن كـانت الأفواه مكمومة في العهد الحميدي الـدابر، فحرّر الدجيلي في جريدة «بغداد» التي أصدرها مراد سليمان و«الإرشاد» لحسين فريد وجريدة «الحقيقـة» لصاحبهـا عبد المجيـد طلعت من رجال حـزب الاتحاد والترقي. وأصبح في سنـة ١٩١١ مديـراً لمجلة «لغـة العـرب» التي أصدرهـا الأب أنستاس الكـرملي حتى

أغلقت عند نشوب الحرب في أواخر سنة ١٩١٤ . وحكم عليه بالسجن في نفس هذه السنة لمقالة نشرها في مجلة «المستقبل» المصرية لصاحبها سلامه موسى، ولم يلبث أن أطلق سراحه، وقد نظم في السجن قصائد منها قصيدته «بوليس بغداد» التي يصف فيها مآسي السجن وأهواله ختمها بقوله:

ولا يحسبنّ المرء تلك خرافة فناظمها سمّاعها وخبيرها
ولم تك مأساة لعمري غريبة ففي جانبي بغداد جمّ نظيرها

وقام الدجيلي في السنوات السابقة للحرب العظمى برحلات إلى إيران وكردستان وأطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الأعراب ودرس أخلاقهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية وكتب عنهم ما لم يتهيأ لغيره من الرحالين والرواة.

وقد رحل إلى البصرة على اثر احتلال الإنكليز فوظف بدائرة الشرطة (٢٨ كانون الاول ١٩١٤). ثم رفع إلى وظيفة معاون مفتش شرطة (كانون الاول ١٩١٦) فمفتش شرطة (تموز ١٩١٧)، لكنه استقال في ايلول من تلك السنة، وقد عاد إلى الشرطة بصفة معاون مفتش في (كانون الثاني ١٩١٨) ولم يلبث أن استقال بعد شهرين. ثم اعتقل في النجف في كانون الاول من تلك السنة وسجن في بغداد نحواً من ٤٠ يوماً.

وانتمى إلى مدرسة الحقوق عند إعادة افتتاحها، وعيّن في الوقت نفسه سكرتيراً خاصاً لرئيس محكمة الاستئناف في بغداد ومحرراً لمجلة «العدلية» (حزيران ١٩٢١) فمحرراً للوقائع العراقية، وهي جريدة الحكومة الرسمية، عند صدورها في (كانون الاول ١٩٢٢).

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (١٩٢٣)

وعيّن في أواخر سنة ١٩٢٣ مدرساً للّغة العربية في معهد الدراسات الشرقية في لندن فبقي فيها إلى سنة ١٩٢٩ . وقام في الوقت نفسه بتدريس اللغة العربية للأمير غازي ولي عهد العراق في أثناء دراسته في العاصمة البريطانية (١٩٢٦ ــ ٢٨)، وقام أيضاً بوكالة سكرتيرية المثلية السياسية العراقية في لندن (٤ أيلول ١٩٢٧ ـ ١٢ آذار ١٩٢٨).

وعاد الدجيلي بعد ذلك إلى بغداد (ت١ ١٩٢٩)، فلم يلبث أن عين في السلك الخارجي وسمّي نائب قنصل في مصر (٥ كانون الاول ١٩٣٠). ونقل في السنة التالية مراقباً للبعثات العلمية في لندن (تشرين الاول ١٩٣١) فنائب قنصل في المحمّرة (أيار ١٩٣٤) فبيروت (١٩٣٥) فقنصلاً في حيفا (١٩٣٥) فالقدس (١٩٣٧) فبومبي (آب ١٩٣٨)، ونقل قنصلاً في كراجي (كانون الأول ١٩٣٩) فتبريز (حزيران ١٩٤٣). ولما أنشئت المفوضية العراقية في موسكو عيّن مشاوراً (١٨ تشرين الأول ١٩٤٥) وأصبح بعد ذلك قائماً بأعمالها حتى أحيل على التقاعد (آب ١٩٤٨).

وقضى الأعوام الأخيرة من حياته متنقلاً بين العراق وأوروبا، حتى أدركه الحمام في فيينا عاصمة النمسة في ٢٣ آذار ١٩٧٠، وجلب جثمانه إلى بغداد ودفن في النجف.

وقد وضع كاظم الدجيلي رسالة في «أحداث ثورة العشرين» حققها حكمت رحماني ونشرها سنة ١٩٧٣.

مؤلفاته:

لكاظم الدجيلي شعر كثير متفرّق في الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية. وقد وضع مؤلفات عديدة نشرت معظم بحوثها في مجلة «لغة العرب» والهلال والمقتطف وسواها من المجلات والجرائد، لكنها لم تطبع كتباً. منها: رحلة الفرات، تاريخ النجف، تاريخ الكوفة، تاريخ كربلاء، المشاهد المقدسة في العراق، سامراء قديماً وحديثاً، تاريخ الكاظمية، وتاريخ البصرة، الآثار العراقية، أشعار الأعراب، أعراب العراق، الأغاني العراقية، صابئة العراق، اليزيدّية، الأسر البغدادية، الفرق الثلاث (وهي الفرق الامامية الأصولية والأخبارية والشيخية أو الكشفية)، الأمثال العراقية، المصطلحات العراقية، السفن العراقية، الشعر القصصي الحماسي، الخ.

وكتب بالانكليزية بحثاً عن الشيعة نشر في كتاب «أديان الانبراطورية». وقال انه وضع روايتين باللغة الانكليزية أيضاً باسم «رواية عربية» و «باشا بغداد».

وللدجيلي بصر بالمخطوطات والآثار. ولم يمنعه عمله في السلك الخارجي وتنقله بين العواصم والبلدان المختلفة من الاهتمام بالأدب، فكثيراً ما كان يكتب إليّ وهو في الخارج رسائل تتناول تعليقات وشؤوناً أدبية.

شعره وأدبه:

كاظم الدجيلي أديب حرّ الفكر، صريح القول، واسع الأفق، زادته اقامته في الأقطار الاوروبية وغيرها واتصاله بأرباب الفكر العالميين ثقافة واطلاعاً. وقد أودع أشعاره ومقالاته آراء بعيدة الغور اقتبسها من تأملاته ومطالعاته الكثيرة. يدور شعره في الغالب على المواضيع الاجتماعية و الفكرية، وله غزل ووصف رائع. ولكم يثور على التقاليد البالية وينعى على المجتمع الرياء والتعصب والجهل. ورثاؤه قليل، منه مرثاته لأخيه المحامي جواد الدجيلي وهي تقطر لوعة وأسى. وقد أرسل من موسكو بمرثية لشيخه وصديقه أنستاس الكرملي، يقول في مطلعها:

ويح المنون! فما لها من رادع ... وقفت لكل الخلق بالمرصاد
ان الحياة على تعاظم شرها ... محبوبة حتى لدى الزهاد

الدجيلي والنقد الذاتي :

حـديثك عن غير القـويّ حـرام   وسعيك في نصر الضعيف أثـام
تحدث بمجـد الأقـويـاء فإنهم   قعـود بـأحكـام الـورى وقيـام
يـؤلّـه مـذ صـار ابن آدم قـوة   ومـا الكـون الاقـوة ونظـام . . .

لم ينظم هذه الأبيات بعض أعوان هتلر أو تلاميذ نيتشه ، بل قـالها شاعر عراقي وديع هو كـاظم الدجيلي الـذي روّعته أهـوال الحرب العظمى فحدثـه على الجهر بما لا يعتقده ويرتضيه . ولذا أقدم على نقد نفسـه في مقال طريف نشرته له صحيفة «الحقائق المصّـورة» البغدادية في عددهـا المؤرخ في ٢٢ شباط ١٩٢٥ . قـال الدجيلي : «في ليلـة مطيرة تراكمت فيهـا الأحزان على قلبي وحـاولت أن أسرّي الهم عني بالمطـالعة ، التفتّ نحو عالمي الصغير ـ أي مكتبتي ـ وأخـذت أضرب أخماساً لأسداس . فقلت : هل أقرأ «علم الحـب» لأوفيد وانـا سوداوي ، أم أقرأ «أصل الأنـواع» لداروين وأنـا أعتقد حتى الآن بأن الإنسـان وحش مفترس؟ هل أقرأ «الفـردوس المفقـود» وأنا في جهنم ، أم أقـرأ رواية «البؤساء» وعلاقتي معهم تقضي عليّ أن لا أنبش قبورهم؟

«هل أقرأ «بحيرة» لامارتين أم «جـان الصغير» لهوغو، وفي النفس صوت يمنعني عن المطالعة في هـذه الليلة إلا في لغتي العربية . وبينما كانت هـذه التأملات تجول في فكري المتضعضع الإحسـاس ، رأيت شبحاً ينظـرني بألف عين ، فقلت في نفسي : لا شك أن هذا شاعر حيرتي وتردّدي ، ولذا تراه يصـوّب نظره إليّ لأنشد أحلامه ولأرثي أمانيه . ثم اختفى بين صحـائف «الأدب العصريّ في العـراق العـربي» . أما أنـا فللحـال أخـذت الكتـاب وبدأت أقلب صفحـاته حتى عثـرت على الشيخ الذي اختفى عني ، فإذا بـه كاظم الدجيلي» .

ويمضي الشيخ كاظم في مقاله فيقول :

«دخلت أول مـدينة في عـالمه واسمهـا «الحياة الاجتماعيـة» وفي البيت الاول من أول شارع وجدت فيه :

حـديثك عن غير القـويّ حـرام   وسعيـك في نصر الضعيف أثـام

«أما تخاف الله أيها الشاعر؟ أتروم أن نتحدث دائماً عن الأقوياء ، ومن سعى في نصرة الضعيف والأخذ بيده يعدّ اقتراف ذنب يحاسبه الله عليه؟ »

ثم يـ ـضي الشاعـر في نقد أبيـات قصيدتـه حتى يقول : «رباه! أتـروم أن تنتقم مني لهبوطي العالم الذي لم أجد فيه سلوتي بل ترك لي حسرة وزفرة تتصاعد وتنخفض . . » اهـ

إن قصيـدة الدجيلي هـذه تزخـر بالأفكـار وتعبّر عن حيرة الشـاعر في رتـابة الحيـاة وتناقضها . فهو يقول :

إذا كنت بين العـــالمين أخـــا قـــويّ | رعتك عيـــون النـــاس حين تنـــام
حمى الغـــاب بأس الليث مـن كل طـــارق | ولم ينجُ من فتـك البـــــــزاة حمام
يقـــولـــون: إن الحق من فـــوق قـــوّة | ومـــا الحق الامــــدفع وحُســـام
ولـــو درســـوا علـم الطبيعـــة لانثنـــوا | وفيهم غـــرام بـــالقـــوى وهيـــام

ثم يلتفت إلى الخلق فيراه جائراً باسم عادل، ينوح على الميت ويأكل لحمه، ويهدي الصديق الزاد ممزوجاً بالسمّ الزعاف. وماذا يرى الشاعر في الناس؟ انهم أشياع مذاهب يزعم كل منهم صلاح مـذهبه وسداده، فهذا قد أفنى الحيـاة في العبادة، لكن معبوده الأوثان وهي رجام، يقـدم لها النذور ويروم الرزق والمغفرة والعافيـة. وذلك خرافي يروح ويغتدي وأفعـاله الشّر والمعـاصي، حتى إذا مـا قضى نحبه قـدّسه بعـد مماتـه الطغام وشـادوا عليـه قبّـة وجـاؤوه من شرق البـلاد وغربها يطـوفـون بقبره ويلتمسـون بـركتـه وشفاعته:

وقـــالـــوا، وهم يبكـــون شـــوقـــاً ورهبـــة | وصـــار لهم حـــول الضريح زحـــام:
بـك الله يحيينـــا غـــــداً ويميتنـــا | وأنـت شفـــاء للــــورى وسقـــام.

ويمضي الشاعر في جولته الاجتماعية، فيقف عند جحود ينكر الله جهرة وينعى على القـوم أساطيرهـم وخـرافاتهم، وعـالم يحار في سرّ الطبيعـة الغامض ويحاول حلّ ألغـاز الكون فيموت وفي نفسه حسرة منها وفي حشاه ضرام.

وما الأديان؟

حكـــايـــة أديـــان الأنـــام عجيبـــة | تجمّـع فيهـــا فـــرقـــة ووئام
تـــريـــد الهدى والخير للنـــاس كلهم | وكم ثـــار منهـــا فتنـــة وخصـــام
وغـــايتهـــا القصـــوى عبـــادة واحـــد | حقيقتـــه مـــا إن تـــرى وتـــرام
عظيم لـــديـــه يصغـــر الخلـق كلّـــه | وتستصغـــر الأجـــرام وهـي عظـــام
لـــه أثـــر في كل شيء وآيـــة | وبين قـــواه والـــوجـــود لـــزام
دعـــوه بـأسماء قـــد اختلفـــوا بها | وعـــدّوه نـــوراً لا يكـــاد يُشـــام
وقـالـــوا وهم في حـالـة اليأس والـرّجا: | متـى تتـــلاشى ظلمـــة وغمام؟
متى تجمـع الأديـــان في الأرض وحـــدة | لها سنّـــة مشروعـــة ونظـــام
ويسلـك كلّ العـــالمين سبيلهـــا | وغـــايتهم منهـــا هـــدى وســـلام...

وينفذ الشاعر في قصيدة أخرى إلى أعماق النفس البشرية فيخاطبها قائلاً:

يـــا لـك من آمـــرة نـــاهيـــة | أحكـــامهـــا نـــافـــذة مـــاضيـــة

لم يقـــو مخلـــوق على ردّهـــا ... لـــو كـــان ربّ السلطـــة القـــاضيـــة

جـــامعـــة الأضـــداد شيطـــانـــة ... إلاهـــة رشيـــدة غـــاويـــة

قـــاسيـــة رقيقـــة الحاشيـــة ... ســـافلـــة عـــاليـــة راقيـــة

خبيثـــة شريـــرة بـــاغيـــة ... طيبـــة طـــاهـــرة زاكيـــة

عـــاجـــزة قـــادرة إن ونـت ... أو عـــزمت، خـــالـــدة فـــانيـــه

تقلبت كـــالـــريح أوضـــاعهـــا ... هـــادئة عـــاصفـــة عـــاتيـــة

الحبّ والبغـض لها شيمـــة ... فـــدأبها غـــاضبـــة راضيـــة . . .

أعنـــي بها النفـــس التـــي حيّرت ... أفكـــار أربـــاب النهى الســـاميـــة

وهو يرى الشر أصيلاً في النفس فيقول :

تجنّب الشّر لا خـــوفـــاً ولا طمعـــا ... والشّر في النفس قبل الخير قـــد طُبعـــا

ويقول :

إلى النـاس نشكـو النـاس من سـوء فعلهم ... فقـــد كثـــرت آثـــامهـــا وشرورهـــا

أرى الشّر قـــد عم البريّـــة كلهـــا ، ... أكلّ الـورى ، يـا قـوم، مـات شعـورهـا؟

فـــلا الـــدين منّـــاع ولا العقل رادع ... ولا العلم جـــالٍ ظلمـــة أو منيرهـــا

أرى النـــاس في هيجـاء من أمـر عيشهم ... تنـــازع فيهـــا عبـــدهـــا وأميرهـــا

فكـــانـــوا ودنيـــاهم سبـــاعـــاً وجيفـة ... تعـــاوت عليهـــا أســـدهـــا ونمـــورهـــا

تقـدم في الـــدنيـــا فســـاد أخـــو الغنى ... وأُبْعِـــدَ كل البعـــد عنهـــا فقيرهـــا

إذا قـــال ربّ المال قـــولاً تطـــاولت ... إلى وعيـــه من كل قـــوم نحـــورهـــا

لـــه حـــرمـــة في النـــاس وهـــي عظيمـــة ... وقـــدر جليـل لم يحزه قـــديـــرهـــا

لـــه الـــرأي متبـــوع، لـــه الحكم نـــافـــذ ... لـــه شهـــرة كـــالشمس ســـار مسيرهـــا

وقد غشي التشاؤم بصر الشاعر فقال :

وســـائل يسأل عـن مبـــدئي ... فقلـت : إني رجـل أســـوئي

خبرت دنيـــاي وأبنـــاءهـــا ... مـــذ نشأتي خبرة مستقـــرىء

فلم أشـــاهـــد غيرمـــا حـــالـــة ... أرتنـي الســـوء بكـل امـــرء

وساء ظنه بالناس فقال :

الجميـــل يصنعـــــه ... مـن لـــــه بـــــه أرب

والالـــــه يعبـــــده ... مـن يخيفـــــه اللهـب!

وخاب فأله في بلده وصحابه فقال :

إني أرى العيش في أرض سـوى وطني | إذا رحلت اليهـا اليـوم أصفى لي
والعيش في بلـد قلّ الـرفـاق بـه | خير مـن العيـش بين الصحب والآل

وقال متألماً:

أنـا من عـاش في العـراق غـريبـاً | أنـا حـرّ مقيّـد بقيـود
أنـا مـن قـال في الحقيقـة قـولاً | فـانتحـاه مكـابـر بـالـردّود

لكنه يتألم لحال بلاده وحال الشرق المتأخر فيرجو لبلاده وللشرق الرقيّ والمعرفة والنهوض، فيقول:

يـا نـديمي، وأين منّي نـديمي، | غنّني واسقني ابنـة العنقـود
فلقـد هـاجني تهدّم مجد | كـان في الشرق ذا بنـاء مشيـد
هـدّ أركـانـه الـزمـان وأبقى | رسمـه نـدبـة بـوجـه الصعيـد.
أيها الشرق، هـل ليـومك عَـود؟ | أيها الشرق، مَنّنَـا بـالـوعـود
يـا مقـرّ الالٰـه، يـا معبـد الكـون، | عجيـب تـدهـور المعبـود!
نهض الغـرب للـرقي ففـاز | القـوم فيـه هنـاك بـالمقصـود
سبقـونـا إلى العـلاء بعلم | تخذوا منـه سلّماً للصعـود
ووقفنـا جهـلاً ونحن كسـالى | ننظـر القـوم من مكـان بعيـد
نتمنّى الـرقي حيث قعـدنـا | كيـف يـرقى إلى العلى ذو قعـود؟
وادّعينـا بـأننـا علماء | تلك دعـوى محتـاجـة للشهـود...

وينظر إلى حال وطنه المريض فيقول:

ولي وطـن يعـذّبـه أنـاس | بـدعـوى أن قصـدَهُمُ شفـاؤُه
ولـوتـركـوه يختـار المداوي | لأُصْلِحَ حـالـه ولـزال داؤه

ويفكر في حال وطنه الفقير فيقول:

يـا سـواد العـراق، بيّضك الجدب | فصرت البيـاض وسط السـواد
يـا سـواد العـراق، فيك كنـوز | يعلـم الله مـا لها من نفـاد
يـا سـواد العـراق، أمحلـك القـوم | وقـد كنت روضـة المرتـاد
يـا سـواد العـراق، شلّت يمين | ذات إثـم دلـت عليـك الأعـادي

ومن طريف شعره في المرأة:

يـا زوجـة المرء ويـا أمّـه | حـارت بك الأبصـار والبـاصرة
مـا أنت إلا امـرأة فـذّة | قـد نعتتهـا الأمم الحاضرة

إلاهـــة معبـــودة تـــارة وتـــارة شيطـــانـــة ســـاحـــره
تغضب في حـــال الـــرضـــا مثلما تـــرضى وفيهـــا غضب الـــواتـــرة
لا وصلهـــا دام ولا قطعهـــا كـــدولـــة عـــادلـــة جـــائره!

وقال في دلال الحبّ وذلّه:

أرأيت كيـف تمنّعُ المعشـــوق ودلال شـــائقـــة وذل مَشُـــوقِ؟
يـــا للـــرجـــال المُسْعَـــدين لعـــاشقٍ بسهـــام لحظي غـــادة مـــرشـــوق
من ذا يســـاعـــده على فتّـــانـــة أسرت نُهاه فعـــــاد غير طليـق؟
حـــوراء ألبسهـــا الجمال بهاءه والشمـس بهجتهـــا أوان شروق
صبّت بهيكلهـــا الطبيعـــة حسنهـــا فبـــدت مثـــال الحسن للمخلـــوق
وروت محاسنهـــا حـــديـث جمالها متسلســـلاً عن يـــوسف الصّـــديق

ولما يفـرغ من وصف المحبوبـة ومقلتهـا وقوامهـا وطيب رائحتهـا وثغرهـا وصدرهـا وبشرتها، يشيد بحلو حديثها ومنادمتها في الشراب، ثم يقول:

أصبـــو فيتركنـي الغـــرام مكـــاشفـــاً بكُمُ عـــدوّي إن فقـــدتُ صـــديقي
لله مـــا يلقى فـــؤادي من جـــوى وصبـــابـــة وتقـــرح وخفـــوق
يـــا سعـــد، كن لي في الصبـــابـــة مسعـــداً فهـــوى المحـــب أراه غير حقيـق
شأن الـــزمـــان وتلـك سيرة أهلـــه قـــال الصـــديـق فكـــان غير صـــدوق

الدجيلي والآنسة ميّ:

كانت الآنسـة ميّ زيادة الأديبة النـابغة قـد اتصلت بالأب انستاس مـاري الكرملي وراسلته في سنـة ١٩٢٠ وساجلته في شـؤون الأدب، فاهتم بحسبهـا ونسبها وكتب إلى زميل لـه من رهبان النـاصرة - حيث رأت أديبتنا نـور الشمس - يسـأله مراجعـة سجلّ الكنسية وتحقيق مـولدهـا وأسرتها. فأجابه الـراهب انها ولدت في النـاصرة وعمّدت في كنيستها في ١١ نيسان ١٨٨٦، وسمّيت «بربارة»، وأمّها من الناصرة، أما أبوها الياس زيـادة فمن قضاء كسروان في لبنـان، وكان عنـد ميلاد ابنتـه معلماً في مدرسـة «الأرض المقدسة» (تيراسنتا) الفرنسية في الناصرة.

وقد كتبت الآنسة مّي في مجلـة «المقتطف» سنة ١٩١٩ عن الشعر القصصي الحماسيّ وعدم معرفة العرب ايّاه، فردّ عليها كاظم الدجيلي، ثم ترضاها بقصيدة قال فيها:

قلبـي بكلّ هـــواي لاسمـك ذاكـــر هل أنـت شـــاعـــرة؟ فإنّي شـــاعـــر!
يـــرتـــاح للـــذكـــرى ويطـــرب كلّما وافـــاه طيـف من خيـــالـك زائر
يـــا من تحدّثـت الـــرجـــال بفضلهـــا وبها النســـاء النّـــابغـــات تفـــاخـــر

لك في سـويـداء الفـؤاد وفكـرتي | وبمقلتـي وفمـي محلّ عـامـر
إني امـرؤ بـالنّـابغـات متيّم | وإلى النـوابغ شـوقـه متكـاثـر
الحبّ أضنـاه وبـرّح قلبـه | وأمضُّ آلامـاً محبّ صـابـر
لم يبـق منـه الشـوق الا صـورة | يأسـى لها لما يـراهـا النـاظـر . . .
في كل قلـب ، يـا أميمـة ، نبعـة | للحـبّ زاهـرة وغصـن نـاضر
والحبّ منتجـع الحيـاة وكـلّ مـا | أحيـا النفـوس فـذاك حبّ طـاهـر
والحبّ سلطـان تملّـك أهلـه | خضعت سـلاطين لها وجبـابـر
والحبّ فلسفـة تعـذّر وصفهـا | وعـن الحقيقـة كـلّ فهم قـاصر
والحبّ معنـى الله أو هـو ذاتـه | طمحت إليـه خـواطـر ونـواظـر
إني لأحـوي في الفـؤاد محبّـة | لم تحوهـا للعـاشقين ضمائر
ليتيمـة الشرق المضيع حقّـه | دول لـه تقضي وفيـه تنـاظـر
في عـدلها جـور وإن حكمت لـه | ومن الغـريب يقـال : عـدل جـائر!

ولم يكن الدجيلي أوّل من تغـزّل بميّ غزلاً أدبيـاً بريئاً طـاهراً ، فقد تغـزل بها الادباء والشعـراء ، وهي الفتاة العبقـريـة الفريـدة ، غـزلاً كثيراً لا يخرج عن التجاوب الفكـري والتعاطف الـروحي والتعارف الأدبي الـذي جعل المرأة المثقفة الحساسـة حلماً في العيون ومغناطيساً جـذاباً للأفئدة والقلوب وخيالاً مـاثلاً ولكنه ، في الوقت عينه ، عـزيزاً بعيد المنال . وهل كان وليّ الدين يكن يقصدها حين قال :

تمسين نـاسيـة وأمسي ذاكـرا | عجبـاً ، أشـاعـرة تهاجـر شـاعـرا؟
فهل الملائك كـالحسـان هـواجـر | ان الملائك لا تكـون هـواجـرا
إن كنـت لا أسعـى لـدارك زائراً | فلكـم سعى فكـري لـدارك زائرا

ولنعد إلى شـاعرنـا الدجيلي فقـد شكته الآنسـة ميّ إلى الأب الكرملي ، فكتـب إليها رسالة مطوّلـة ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٢ ، فكان أن أرسلت إليه بأحـد كتبها وخاطبته في كلمة الاهداء : «إلى أعدل الظالمين من الشعراء» .

وعيّن الشيخ كاظم مدرسـاً للّغة العربية في جامعـة لندن فمرّ في طريقه بـالقاهرة في أوّل سنة ١٩٢٤ ومكث فيهـا أياماً التقى في أثنائهـا بالدكتور يعقـوب صروف صاحب المقتطف ، لكنه سافر إلى لندن دون أن يتاح لـه التعرّف بالآنسة . وعـاد إلى اثارة النقاش في موضوع الشعر القصصي الحماسي عند العرب فكتبت ميّ تقول :

«لقـد عـاد الشيخ كـاظم الـدجيلي في فبراير ١٩٢٤ إلى مـوضـوع الشعـر القصصي الحماسي . . . نـاقشني وصمت خمسـة أعـوام درس خلالها الحقـوق ونفحني بقصيـدة

نشرها في «الهلال» ودعاني فيها ببعض الأسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة العناد عند امرىء بوجه من الوجوه وعلى أن يسترضوه بالأوزان والاسجاع ليخاصموه بالنثر المرسل . . . » .

وختمت ردّها تقول : «قيل لي يا سيدي الاستاذ ، إنك رحلت إلى انجلترا لتدرّس اللغة العربية في جامعة لندن . وسواء كنت الآن في انجلترا أم في العراق فهات يدك أصافحها ! . . »

ومرّت الاعوام ، وحلّت سنة ١٩٣٠ ، فإذا بالدجيلي ينقل إلى القنصلية العراقية في القاهرة ، فيؤمّها ويغشى محافلها الأدبية والاجتماعية . وهيىء له لقاء ميّ لأول مرّة في بعض الحفلات ، وكان الذي قدمه إليها الدكتور أمين معلوف ، فقد أخذ بيده واتجه صوب سيدة مشرقة الطلعة من غير جمال أخاذ وقال : هل تعرفين هذا الرجل ؟

قالت : لم يسعفني الحظّ بلقائه من قبل . فضحك الدكتور معلوف وقال : كيف ذلك ؟ إنه صديقك وخصمك كاظم الدجيلي ! فصافحته ببشاشة وقالت : إذن أنت ذلك البغدادي الذي ناظرني وقارعني وترضاني منذ سنين ! . .

ولبث الدجيلي في القاهرة سنة واحدة كان يزور الآنسة في أثنائها مساء الخميس من كل أسبوع بحضور والدتها . وكان الكلام يدور حول الأدب والعلم والتاريخ والاجتماع . وفي سنة ١٩٣١ أعيد نقله إلى لندن مراقباً للبعثة العلمية في المفوّضية العراقية . ومضت سنتان أو ثلاث ، وفوجىء شاعرنا ذات يوم بزيارة ميّ على غير موعد ، وكانت قد جاءت إلى العاصمة البريطانية في رحلة قصيرة . وقد سرّ بلقائها أيّما سرور واحتفى بها في خلال الأيام القليلة التي أمضتها قبل عودتها إلى مصر ، واحتفل بها أيضاً عطا أمين القائم بأعمال المفوضية آنذاك وثابت عبد النّور . وقد وجدها الشيخ كاظم في اضطراب نفسي شديد : فقد توفّيت والدتها التي كانت تلازمها وتتعهدها برعايتها وبقيت وحيدة لا أخ لها ولا أخت ولا صديق يؤاسيها ويعطف عليها .

عادت ميّ إلى القاهرة فكتبت إلى الشيخ رسالة شكر ختمتها بقولها : «أسأل الله أن يوحي إلى شاعرنا ألف قصيدة وقصيدة ! » ولم يكن بوسع الدجيلي إلاّ أن يجيبها بقصيدة قال منها :

سلام على ميّ ، سلام على مصر ... سلام على صحبي بها أبد الدّهر

وإني ، وتهيامي بميّة ، عاجز ... عن النظم حتى في محاسنها الغرّ

تطالبني بالشعر ميّ وتبتغي ... لشاعرها وحياً من الله بالشعر

ولم تدرِ أني في حياة بعيدة ... عن الشعر إذ أنّي تقدّمت في عمري

ومارست أعمال السياسة سالكاً ... مسالكها القصوى إلى حيث لا أدري

وكان بعد ذلك من أمر ميّ ما كان ، فغلب عليها الداء وحجرت في المستشفى لتعود

بعدها فلا تلبث حتى تقضي نحبها. وكان ذلك اخر العهد بالمناظرات الأدبية بين الشاعر العراقي والأديبة المصرية التي شغلت المحافل والناس سنين طويلة.

محمود الملاح

في دار منعزلة بمحلة السعدون في بغداد يعيش شاعر منزو يعدّ من كبار شعراء المدرسة القديمة في العراق. ذلكم الشاعر «محمود الملاح» الذي يلازم داره وحيداً منذ عشرات السنين لا يكاد يبرحها ولا يزوره إلاّ نفر يسير من أقرانه وأصدقائه.

ولد محمود الملاح في الموصل سنة ١٨٩١، وهو محمود بن عبد الله بن يونس الملاّح، ونسبته إلى سوق الملاحين في مسقط رأسه، وهو سوق قديم يباع فيه الملح وسائر الحاجات. وقد نشأ في ربوع الموصل ودرس العلوم الدينية والأدبية على علمائها وفي مقدمتهم عبد الله النعمة وعثمان الديوه جي قاضي الموصل. ونال الاجازة العلمية في سنة ١٩١٢ فوظف مداوماً في قلم تحرير الولاية. ولم تلبث الحرب العظمى أن اضطرم أوارها فجنّد لكنه استمر على مزاولة وظيفته في الولاية إلى عقد الهدنة وانسحاب الاتراك وتسليم المدينة إلى القوات الانكليزية.

كانت الموصل في ذلك العهد بلدة منعزلة راكدة الثقافة لا تكاد تستشفّ بصيصاً من أنوار المدنية الحديثة. وكانت الثقافة التركية تعمّ المحافل الرسمية وتستهوي الطبقة الراقية، أما الثقافة العربية فكانت ضيقة الأفق محصورة في نطاق المحافل الدينية. وقد استطاع فتانا مع ذلك أن يحصل على طائفة من الكتب الصادرة في القطرين المصري والسوري وأن يتتبع سيرة دعاة الاصلاح أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا ويغذي روحه النهمة بآرائهم وتصانيفهم. وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية على أثر انقلاب سنة ١٩٠٨ وانتشرت المبادىء الاصلاحية واللامركزية في ربوع الشام وانتقلت منها إلى العراق. فكان أديبنا الشاب في طليعة الشباب الموصلي الناهض الذي آمن بهذه المبادىء وأشرب حبّ الثقافة العربية الجديدة على بعد الشقة وعسر الاتصال. وقد قام بتدريس التاريخ والجغرافية بصورة فخرية في مدرسة محمد رؤوف الغلامي، واشترك مع فريق من الشعراء منهم داود سليمان الملاح، وفاضل الصيدلي في نظم أناشيد عربية للأطفال تولّى الغلامي طبعها في كتيّب.

وفي سنة ١٩١٩ شدّ الرحال إلى سورية واستقرّ في حلب أمداً على عهد حكومتها العربية. ووظف في مجلس إدارة الولاية ومدير التحرير آنذاك ابراهيم هنانو الذي عرف بمواقفه الوطنية السامية، وقد رثاه الملاح عند وفاته في سنة ١٩٣٥ بقصيدة مطلعها:

جللوا الأرض بالسواد حدادا   إن فقد الزعيم هزّ البلادا

ولما شدد الفرنسيون سيطرتهم على البلاد السورية وقضوا على حكومتها العربية ضاق محمود الملاح ذرعاً بوظيفته فعاد إلى الموصل سنة ١٩٢٢ . ولم يلبث أن قدم بغداد سنة ١٩٢٤ وألقى بهاعصا الترحال. قام في أول الأمر بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية ثم عين رئيساً لكتاب مجلس النواب عند إنشائه في سنة ١٩٢٥ لكنه قضى في هذه الوظيفة أياماً معدودة. وعين بعد ذلك مدرساً في بعض المدارس الأهلية فمدرساً في المدرسة الثانوية الرسمية (١٩٢٥ ــ ٢٨). وعين بعد سنتين معلماً للّغة العربية في المدرسة العسكرية (١٩٣١ ـ ٣٣)، وأصدر جريدة أدبية باسم «التجدّد» (٢٤ تموز ١٩٣٠)، فلم يكتب لها التعمير طويلاً. وانتخب نائباً عن الموصل في كانون الأول ١٩٣٧ ، فلم يطل عهد نيابته سوى أمد قصير، إلى حلّ المجلس في شباط ١٩٣٩ . وقد توفي محمود الملاح في بغداد في ١٩ آذار ١٩٦٩ ، ودفن في الموصل.

عالج محمود الملاح قرض الشعر صبياً. وما إن وفد على بغداد حتى اتصل بمحافلها الأدبية والثقافية ونشر قصائده ومقالاته في مجلاتها وجرائدها . ومن بواكير شعره الذي نظمه في مدينة السلام قصيدته «تمثال مود». فقد شاهد تمثال القائد الانكليزي ولم يكن له سابق عهد بالتماثيل والأنصاب فخاطبه قائلاً:

أتروم في جوّ السماء مطارا ... أم أنت ملتمس لها أخبارا؟
لم نلق حياً طائراً بجواده ... لكنّ ميتاً فوق مهر طارا
فكأنما ضاقت به فسح الفلا ... فأراد في فسح الهواء مغارا

ويقول منها:

يا أيها الشعب الجهول تعلّمن ... من ميّت درس الحياة جهارا
طأطأت رأسك للحوافر بعدما ... طاولت فوق متونها الأقمارا
ما زلت عن وقع الخطا متغافلا ... وكفى بلوغك وقعها إنذارا
وأراك في ذيل الشقا متلفعاً ... فمتى أراك تسابق الأبرارا؟
فيم ادعاؤك للأصول، ولا أرى ... نفعاً بوصف الفاكه الأشجارا
يا خابراً من أمتي أعراقها ... أترى الدم الجاري بهنّ معارا؟

ومنها:

الغرب يبني في السماء منازلا ... والشرق يحفر في الثرى آبارا
والغرب في درج العلا متصاعد ... والشرق تحت طباقها يتوارى
جهلوا الطريق ولا دليل مبصر ... فهم ببيداء الحياة حيارى. . .

نشر هذه القصيدة في جريدة «العراق» بتوقيع مستعار فاستحسنها الشاعر محمد

الهاشمي ونقلها في مجلته «اليقين» وقدّم لها بتوطئة كلها مدح وإطراء. ولم تمضِ أيام حتى لقيه محمود الملاح وأخبره ان القصيدة له، فقال الهاشمي: «لقد أثنيت عليها لأنني ظننتها للسيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل».

لازم محمود الملاح في أثناء إقامته ببغداد أدباءها وفضلاءها وغشي مجالس الزهاوي والرصافي والكرملي وعبد العزيز الثعالبي وفهمي المدرس وطه الراوي وعبد اللطيف ثنيان وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعباس العزاوي وأضرابهم وشارك في المناسبات الوطنية والأدبية بشعره ونثره. وله مباحث في اللغة وقواعدها والتاريخ العربي والاسلامي. واجتمع له ديوان ضخم تفرقت قصائده في الصحف والمجلات. ونشر رسائل منها «الوحدة الاسلامية بين الأخذ والردّ (١٩٥١) عبد الباقي العمري (١٩٥٣)، تاريخنا القومي بين السلب والايجاب (١٩٥٦)، دقائق وحقائق في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٥) نظره ثانية في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٦) تحذير المسلمين من المتلاعبين بالدين، تعليقات وحواشي على كتاب ابن سينا (١٩٥٣) حقيقة إخوان الصفا (١٩٥٤) تشريح شرح نهج البلاغة (١٩٥٤) النحلة الاحمدية، البابية والبهائية (١٩٥٥)، المجيز على الوجيز (١٩٥٦)، الآراء الصريحة لبناء قومية صحيحة (١٩٥٦)، الزرية في القصيدة الأزرية (١٩٥٢) حجّة الخالصي (١٩٥٢).

وللملاح مطارحات شعرية ومداعبات إخوانية كثيرة مع أصدقائه وفي مقدمتهم عباس العزاوي ومحيي الدين أبو الخطاب المحامي، وقد سجل طرفاً منها المرحوم ابراهيم الواعظ في كتابه الجامع «الروض الأزهر».

***

تعرف محمود الملاح على أثر قدومه إلى بغداد بالأب أنستاس ماري الكرملي ونشر المقالات في مجلة «لغة العرب» ثم نشب خلاف بينهما في أثناء الاحتفال بيوبيل الكرملي فلم يلتقيا بعد ذلك.

ومن طريف ما يرويه الملاح أن الكرملي تحدث أمامه ذات يوم عن المآكل والمشارب الطيبة التي تقدم لرهبان الدير وخصّ بالذكر النبيذ المعتق الذي يقدم على مائدة الطعام، فتاقت نفس الشاعر إلى مشاهدة هذا النبيذ وسأل الأب أن يخصه بشيء منه. قال الأب «إن النبيذ ملك الدير ولا سبيل إلى إخراج شيء منه». وألح الاستاذ الملاح وألحّ في الطلب وقال: «إذا قدم لكم النبيذ على الخوان فصبّ قليلاً منه في قنينة وأحكم سدّها وضعها في جيب ثوبك الفضفاض». فلم يسع الراهب إلا أن يمتثل واحتفظ بالقنينة حتى إذا ما جاءه صديقه الشاعر بعد أيام قدمها إليه قائلاً: « هاك النبيذ المعتق الذي طلبته».

أخذ الملاح القنينة وأطال النظر إلى السائل الأحمر القاني الذي تحويه وقال: «إذن هذا

هو النبيذ الـذي يسيل له اللعاب ويطرى به الاهاب ويخضلّ الشبـاب» ومضى بالقنينة إلى داره ووضعها على الـرف في بعض الغرف وقـال: «لعلّي أتذوّق هذا الشراب يـوماً».
لكنه لم يفعل بل كان كلما دخل الغـرفة نظر إلى القنينة وكـرّر ذلك القول. وفي ذات يوم وجد القنينة قد سقطت على الأرض وكسرت وسال شرابها الثمين. لقد مرّ فأر على الرف فعثر بها، وكذلك كانت نهاية النبيذ المعتق الذي لم يذقه الشاعر.

إنّ الملاح على ألمعيتـه وحدّة ذكـائه كثيراً ما تجوز عليـه الهنات: فمن ذلك أنـه حين استحـدثت مسكـوكـة المائة فلس لأول مرة ظنهـا ريـالاً، فمضى إلى الحلاق وكـان من عادتـه أن ينفحه بمائتي فلـس، فلما فرغ من الحلاقـة سلمه القطعـة الجديدة ذات المائة فلس، فلم ينبس الرجل ببنت شفة بل شكره بانحناءة إلى الأرض وتبجيل لم يعهده من قبل.

وخطـر له بعـد ذلك أن يتحقق عن قيمـة هـذه القطعة النقـديـة فسأل صبياً عنهـا فأجابه: «إنها مائة فليس، ألا تقرأ الكتابة على وجهها؟» وعجب الملاح من نفسه كيف فاته مثل هذه البداهة.

وحدث مرة أخـرى أنه اكترى سيارة وأراد أن يدفع ١٥٠ فلسـاً إلى السائق. ولم يكن في جيبه إلا ورقة نقدية ذات ربع دينار وقطعة ذات مائة فلس، فدفع إلى السائق القطعة من فئة مائة فلس وسأله أن يستوفي أجرته ويعيد الباقي.

ومن النوادر التي اتفقت للاستاذ الملاح أنـه كان يسكن داراً تطلّ على حديقة الأمة. فلما قرر هـدم هذه الدور والحاق أرضها بـالحديقة، جاءه مأمور التبليغ وطـرق الباب. وكان الوقت عصراً والحر شديداً، فخرج إليه الشاعر في مباذله.

قال المأمور: «أين صاحب الدار؟»

ـ تفضل، أيها السيد، ما تريد؟

ـ لقـد تقرر هـدم البيوت المطلــة على الحديقة فـوراً، فيجب إخـلاء الـدار في أيـام معدودة.

وما أن بوغت الشاعر المنزوي بهذا الكلام حتى صقع وعظم عليه الأمر، فصاح:

«سبحان الله، كيف أفرغ داري خلال أيام وأين أذهب...»

لكن المأمور قال بغير اكتراث: لا بـدّ من ذلك، وأرجو أن تتبلغ بالأمـر. ولم يدع له مجالاً للتفكير أو الجواب بل سحب يـده وغمس إبهامه في الحبر وطبع بـه ورقة التبليغ، ثم أخذها وودع وخرج.

قال الشاعـر: «لم يسألني هل أحسن الكتابة، وكان من هول المفـاجأة وشدة وقعها عليّ أني لم يخطر ببالي أن أقول له أإني أعرف التوقيع باسمي».

وقـد ذكرتني هـذه الحادثة الطـريفة بنـادرة تنسب إلى اللغوي الاميركي نـوح ويبستر صاحب القـاموس الشهير الذي أفنى عمـره في وضعه . كان يعمل طوال النهـار مجهداً فكره وجسمه لإنجاز معجمه ، فلما أمسى المسـاء خرج للترويح عن نفسه وقصد بعض المطاعم لتنـاول العشاء . ولم تلبث الخادمـة أن جاءتـه بقائمـة الطعام ، فأخـذها ببطء وألقى عليها نظرة كليلة مـرهقة ثم أعادها إلى الفتاة وقال : «ألا تختـارين لي برأيك شيئاً نفيساً آكله؟» .

واختـارت لـه الخادمـة مـا شـاءت من الطعـام ، فلما فـرغ من تنـاولـه وأتت لترفع الصحون ، قالت : «هل أعجبك طعامنا؟» .

قال : «أجل ، أجل ، لقد أحسنت الاختيار فشكراً» .

فقـالت : «لا تنس أن تـرسل إلينا أصحـابك ممن لا يحسنـون القـراءة ، فأنا كفيلـة بخدمتهم و إرضائهم» . . .

يجمع محمود الملاح في شعره كل خصائص مـدرسة النهضة الشعرية الأولى التي حمل لواءها محمود سامي البارودي في مصر وترسّم خطـاه شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وأضرابهم . والسمات العـامة لهذه المدرسـة الاعجـاب بالـديباجـة العبـاسية والالتـزام بـالاساليب الفصحى والعمـود الشعـري الدقيق . ذلـك من حيث الاسلوب ، أمـا من حيث المعاني والاغـراض فالغـالـب على شعراء هـذه المدرسة النظم في المواضيع الـوطنية والاجتماعية والدعوة إلى النهضة والاصـلاح والتقدم والتضامن العربي والشرقي والحملة على الاستعمار والاستغـلال وتكريم مشـاهير الامـة ومصلحيهـا ورثائهم و إحيـاء أمجاد العرب والاسـلام ووصف الطبيعة والمخترعات الحديثـة ومباراة القصائد القديمـة وطرق المواضيع الاخـرى من حكم وقصص وأمثـال وغـزل ونسيب والاعـراب عن المشـاعـر والعـواطف ، كل ذلك مع الاهتمام بـوحدة القصيـدة والتـوسع في الأغراض والمطـالب وتحري المعاني المنفردة والحكم المأثورة واستلهام آداب الأمم الغربية والشرقية إن رأساً و إن عن طريق الترجمة والاقتباس .

وقد عني الملاح بتلك الأسـاليب والمواضيع . وتفتحت قريحته بعد قـدومه إلى بغداد واتصالـه بمحافلهـا الأدبية والـوطنية ، فنظم أكثـر ما نظم في الـوطنيات والسيـاسيات والاجتماعيات والمراثي وشـارك في الندوات والحفلات وأنشـد في الموالد النبويـة ومواسم المعهد العلمي . وكان صوته ينطلق في كل مناسبة سانحة ينعى على الأمة العربية تشتت كلمتها وتمزّق شملها .

لكـــن تفــرّقنـا أودى بعــزّتنــا ففــاتنــا في الأنــام العــزّ والخطــر

وهـو يدافع عن عـروبة فلسطين ويـرثي شهداء عـالية وينـافح عن سيادة العـراق وكـرامته واستقـلال البـلاد العربيـة في المشرق والمغرب ويـدعـو إلى النهضة والاصـلاح

والتمسك بلباب الدين ونبذ القشور والخرافات. وهو يتفجع للانسانية المعذبة المهانة في الحرب العالمية الثانية ويقارع الاستعمار والانتداب ويندّد بالادواء الاجتماعية ويهاجم النواب الذين يستهينون بحقوق الشعب وكرامة الأمة. وهو يرى أن كل ما يهزّ الشاعر يصلح أن يكون موضوعاً للشعر فيستهجن التقليد والمحاكاة والتصنّع ويحبذ إرسال الشعر على طبيعته. ونظراً إلى دراسته اللغويةوإدمانه مطالعة الشعر القديم وحفظه، نراه يهتمّ كل الاهتمام بصقل منظوماته وتجديدها ولا يتورّع عن استعمال الكلمات الفصيحة المهجورة. وهو ينقاد أحياناً لقوافيه، فإذا طاوعته القافية ـ وكثيراً ما تطاوعه ـ توسع في المعنى وكرّر القول حرصاً على استيفاء القوافي المؤاتية، ولذلك جاء معظم منظومه من القصائد المطولات يتبسط فيها تبسطاً ويشعب آفاق الكلام.

إن شعر محمود الملاح يصور عهداً تاريخياً حافلاً من عهود العراق والأمة العربية، وقد ظل يلقي هذا الشعر وينشره قرابة ثلث قرن. وحفلت به صفحات الجرائد والمجلات المعروفة كالعراق والاستقلال والبلاد والاخاء الوطني والزمان واليقين ولغة العرب والحاصد والهداية الاسلامية. واتخذ الرثاء ذريعة لاطراء الشيم واستنهاض الهمم، فممن رثاهم سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وشعلان ابو الجون وعمر المختار وابراهيم هنانو وجمال الدين الافغاني والمنفلوطي واحمد تيمور وحافظ ابراهيم واحمد شوقي واحمد زكي وعبد المحسن الكاظمي وعبد المسيح وزير وعبود الكرخي ومحمد أمين العمري ومولود مخلص وعبد الوهاب عزام وغيرهم من رجال الوطنية والسياسة والقلم. انتصر الملاح لفلسطين فقال (سنة ١٩٣٦):

فلسطين، بيّضت وجه العرب	وقمتِ بحقّ جهاد وجب
لقد هان عندكِ بذل النفوس	كما هان عندك بذل النّشب
غلاء النفوس بإرخاصها	وإحياؤها بارتياد العطب
صعيدك من عُصُر خاليات	يروّى بكلّ دم منكسب
ولا يرجع المجد مثل الدماء	إلى أمّة مجدها قد سلب...
فلسطين، رجّحت سلّ الحسام	على شغف بيان الخطب
ولا نفع في خطب صارخات	إذا لم تؤيد بحد القضب
ولَلْسيفُ أخطب من قائم	على منبر نادباً ينتحب...

وقد دافع عن جميل صدقي الزهاوي أول قدومه إلى بغداد وقبل أن يتعرف بشخصه فقال على لسانه:

سائلي عن أحبّتي وخليلي	صاح، هلاّ سألت عن مستحيل؟
كنت من غير مازن فاستبيحت	ابلي بعد شيبتي ونحولي...
إن سئمتم إقامتي سوف لا يسأم	ذكري مدى الزمان الطويل

فلما مات الزهاوي رثاه بقصيدة فريدة صوّر فيها الشاعر الذي غمط حقه في حياته

ينظر إلى موكب تشييعه الحافل فيعجب ويستغرب :

أطلّ الـــزهـــاويّ مـن نعشـــه فشـــاهـــد من حـــولـــه محشرا
رأى منظـــرا لم يكن في الحيـــاة يـــؤمل مـن جنســـه منظـــرا
كـأنّ المنـــاكب مـن تحتـــه غـــوارب بحـــر إذا زمجرا
وللقـــوم همس فهـــذا يقـــول لقـــد جلّ مـــا قطـــرنـــا أخسرا
وذاك يقـــول : « هـــوى كـــوكـب مـن الأفق مـن بعـــد لـن يظهـــرا
فيـــا أسفـــاً يـــذهب الفيلســـوف ويترك مـــربعنـــا مقفـــرا» . .
جـرت خلفـــه زاخـــرات الجمـــوع فـأنشأ يسـأل «مـــاذا جـــرى»؟
فقـــالـــوا: «حييت وقـــد كنت ميتـــاً فصرت لتقـــديسنـــا مظهـــرا
ورجلك عـــرجـــاء كـــانت فصـــارت بمـــوتك تعـــرج نحـــو الـــذّرى . .

وقال على لسان الشاعر الحكيم :

فماذا يـــريـــد الألى أنكـــروا عليّ سلـــوكي وقـــالـــوا: «افترى»
عجبت لمن جـــاء يبغي الصـــلاة عليّ وبـــالأمس لي كفّـــرا

ومن الذكريات التي يرويها الملاح أن الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي سعى مرة بالصلح بين الشاعرين المتنافسين الزهاوي والرصافي ودعاهما إلى داره لتناول الطعام، وكان الملاح حاضراً. ولما علم الضيوف أن الثعالبي قد طهى الطعام بنفسه وأحسن طهيه، قالوا له: «لو لم تكن لك إلا هذه الملكة لاستغنيت بها . . » .

إن شعر الرثاء قد كان في النصف الأول من القرن العشرين في مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر الاقطار العربية المنبر المدوّي لروح الوطنية والنهضة السياسية والاجتماعية واللسان المعبّر عن المطامح والأماني السامية. من منّا لم يقرأ آيات الوطنية والنهضة في مراثي اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم والزهاوي والرصافي وخليل مطران وعبد المحسن الكاظمي وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم وبشارة الخوري ومهدي الجواهري وعباس محمود العقاد وبدوي الجبل وغيرهم من شعراء العربية الملهمين؟ من منّا لم يهتزّ للمراثي التي قيلت في أعلام الوطنية والجهاد من مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد وشهداء العروبة في سورية ولبنان إلى سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وابراهيم هنانو ومحمود شكري الآلوسي ومحمد جعفر آل أبي التمن وغيرهم من الزعماء والافذاذ الخالدين؟ ولقد أدلى شاعرنا محمود الملاح بدلوه بين الدلاء فاتخذ الرثاء أداة للتعبير عن طموح الأمة ونهضة الشعب.

قال يرثي السعدون :

فوادح خطب سيلها متتابع ... وأحداث دهر كلهن فواجع . . .
سليل العلا هلاّ التمست ذريعة ... سوى الموت إذ سدّت عليك الذرائع
وأنّى لجفن منك غضّ على القذا ... غداة هوت فوق الرؤوس المقامع
وقال لشريان يجول به الإبا ... لي الذمّ إن وقّاك منّي مانع
أيجري دم الأمجاد فيك وأمتي ... لقد قصمت منها الظهور الفظائع
رأيت اعوجاجاً ظاهراً وتلوّناً ... فلا عضد لي يوم الكفاح يشايع
فقدت مطيعاً بينهم لنصائحي ... ولم يبق لي إلا المسدّس طائع
زرعت لآمال العراق نواتها ... إذا أحسنوا استغلال ما أنا زارع

وقال يرثي عمر المختار بطل برقة الشهيد :

أراها لا تقرّ على قرار ... زوابع ما فتئن على مثار
تنازلنا الحوادث في جيوش ... تسير على التتابع كالقطار . . .
رويد، رويد، دكتاتور روما ... فكم كرّ يؤول إلى فرار
وربّ هزيمة شنعاء تبدو ... لعين الغرّ في زي انتصار
دماء الأبرياء إذا تجارت ... بأسّ الملك آل إلى انهيار
حقرتم غاريبلدي إذ رميتم ... غريبلدي العروبة باحتقار
هما بطلان مختلفان أصلا ... ومتفقان في كرم النجار
وألقيتم على الأقوام درسا ... يعاف سماعه وحش الصحاري
فلا يفخر بقتل العزل باغ ... فما في قتل أعزل من فخار

وقال في جمال الدين الافغاني عند نقل رفاته عن طريق بغداد في سنة ١٩٤٤ :

جمال الدين كان فريد عصر ... به اعترف المصادق والمعادي
أتوا برفاته من ألف ميل ... تلقاه بلاد عن بلاد
وحاز الفخر موطننا بحفل ... أقيم لمصلح للشرق هادى . . .

وقد قدّر الملاح شعر عبود الكرخي وأثره في العوام فقال يرثيه :

من بعد عبود الكرخي لا تثقن ... بالشعر غلب ألباب الجماهير
بمنطق لو غدا حسّان يطلبه ... ما كان مطلوبه يوما بميسور
خير من اللغة الفصحى يشوّهها ... تخليط أجوف ذي جهل وتقصير . . .
سن الحطيئة للأخلاف سنّته ... لما رأى الفضل شيئاً غير مشكور
ليس العراق بريئاً من مهازل في ... شعر لأحمد في النوبي كافور

أمــا هجـاؤك عنـدي فهـو أصـدق من ... مـــدح تكلفتـــه لم يخل مـن زور
حبّ الصراحـــة في الآراء أنطقني ... وللصراحـــة ذنـب غير مغفــــور

إن ديوان محمـود الملاح الذي نـرجو أن يتـاح له النشر روضـة غناء فيهـا من الازهار والاثمار أفانين . فمن قصيدة له يخاطب طاغور:

طــاغـــور عـــدت إلى مـواطنك التي ... منهـا خـــرجت وكنت عنهـا غـــافــلا
أفأنـت لـــلاقـــرار جئت بحقهـــا ... حتى إذا أقـــررت عـــدت مـواصـــلا؟
عـــاودت أصلك والأصـول حقيقــة ... مــا زلـت مفتـــونـــاً بها متســـائلا

ومنها :

طــاغـــور، وهم النــاس غــال عقــولهم ... وهـــو المصيب من العقـــول مقــاتـــلا
لا يستطيعـــون الحيـــاة بـــدونـــه ... كـــالماء يجري الفلـك فيــه حـــافــلا
فلـــذاك كـان الـــوهم اكثـر نــاصرا ... ولـــذاك كـــان العقـل أكثـــر خـــاذلا

وله من «خواطر مرتجلة» :

إن الحيـــــــــــــاة اغتراب ... وفي المـــــــــــآت المــــــــــآب
فـإنما الـــــــــوطـن الأصلي ... الثـــــــــرى والتـــــــــراب
وقـــــــــد يسمـى حيـــــــــاة ... عـن التـــــــــراب الغيـــــــاب
كما يسمـــى وفـــــــــــــاة ... إلى التراب الإيـــــــــــــاب
إن الحيـــــــاة لعمــــــــري ... كما ينـــــــــار الثقـــــــــاب
نــــار بـأيـــدي الـــريـــاح ... الخمـــــــود والالتهـــــــاب. . .
كــــــأنما الأرض كـــــــأس ... ونحـن فيهــــــــا حبـــــــاب
وكـل مــــــا حـــــــوت الكـأس ... للهــــــــــــــــلاك شراب

وقال من «خواطر شتى» :

يـأتي على أجســـامنــــا أبـــــد ... مثـل الـــذي قـــد مـــرّ مـن أزل
سيّــــان ســـــابقنـــا ولاحقنــــا ... مـــــا ثمّ مـن أخـــــــر ولا أول
غـــــرقى ببحـــر لا قـــرار لـــه ... إلا الـــــــــذي يـأتي مــن الأجـل
ذرّاتنـــــا في الكـــــون ســـــابحـــة ... في وهـــــــدة طـــــــوراً وفي جبـل
بينــي وبين المشتري صلــــــــة ... مـــــــا ليس بين النفـس والأمـل

ومن طريف شعره قصيدة عنوانها «لو قدّر للسود أن يسودوا البيض...» يقول منها :

اقتلــــوا البيض ولا تبقـــوا رمـق ... إن لـــون البيـض من لــــون البهـق
اقتلـــوا النــــاصل منـــه صبغــــة ... فهــــو للشيطـــــان صنـــو إذ أبـق
صبغـــــــة الله، ولا أحســـن مـن ... صبغـــــة الله تعـــــالى مـن خلـق

أيها الســـود انبـــذوا البيض ولا تأكلـــوا معهم طعـــامـــاً في طبق
لم يكـــونـــوا من أبينـــا آدم إن مـــا قـــالـــوه شيء مختلق . . .
ليس في البيض عقـــول رجحت كـل مـــا في البيض طيش ونـــزق

ولقد نقل معروف الرصافي عن قصيدة تركية للشاعر توفيق فكرت فقال :

كلـــوا يـــا أيها الســـادة كما تنكـــره العـــادة
كلـــوا من مطبخ الـــدستـــور أكـل الســـاســـة القـــادة
كلـــوا بـــالسبعـــة الأمعـــاء حتـى تنقـــذوا زاده
كلـــوا لا تخشـــوا النـــاس فـإن النـــاس منقـــاده . . .

أما شاعرنا الملاح فقال في «مطبخ الوحدة» :

كلـــوا من مطبخ الـــوحـــده ففيـــه طـــابـت الثـــرده
كلـــوا من فـــاخـــر الألـــوان حتـى تطفـح المعـــده
كلـــوا مـــا فيـــه من حلـــوى كلـــوا مـــا فيـــه من زبـــده
كلـــوا المطعـــوم والمشروب والمشمـــوم كـــالـــورده
وإن العـــود محمـــود لمن يـــرغب في العـــوده
ضعـــوا في الفـم والجيـب وفي الصرّة والعقـــده
ولا تصغـــوا إلى عـــذل فـإن المأكـل العمـــده

ورأى الملاح طغيان الماء في بغداد فقال :

بغـــداد مشرفـــة على الغـــرق والقـــوم مختلفـــون في الطبـق
لا يخدعـــوك إذا هـم اختلفـــوا فـــالقـــوم كلهم على نسـق . . .
لهفـي على بلـــد ذووه شقـــوا فيـــه غـــداة بخـــاذليـــه شقي
لم يسـق مـن مـــاء الحيـــاة وان هـــو من دمـــاء الثـــائرين سقي
أمـــا القصـــور فليس ضـــائرهـــا تيـــار نهر مشرف العنـــق
سكنـت إلى الأيـــام واثقـــة بـــوعـــودهـن غـــداة قلن : ثقـي
بين الـــريـــاض تلـــوح زاهيـــة مثـل الكـــواكـب لحن في غسـق
قلبـي يـــرفّ إذ أشـــاهـــدهـــا مخضـــوبـــة الشرفـــات بـــالشفق

وأشفق من النفط فقال في «المارد الأسود» :

ضللت حتى صرت لا أهتدي | وطال تسهيدي عن السّهد
ولم يطل سهدي إلا على | قوم على ضيم به رقّد
فبدّدت أحلامي الغرّ في | شعب إلى أحلامه مخلد
واعترضتني في الورى جنّة | بعد النّهى من مارد أسود
فياله أسود أزرى بنا | وصيّر الأحرار كالأعبد
قد كان موطوءاً بأقدامنا | حتى اعتلى مرتبة السيّد
تالله ما كافور في مصره | حاز الذي للنفط من سؤدد
إن جار كافور فعذر له | غربته في الأصل والمحتد
وعبدنا جار على أهله | لما خلوا من ناصح مرشد. . .
لم تنكب الأوطان في مرفق | نكبتها في المرفق الأوحد

وقال في قسوة الناس وحقارتهم:

لعن الله قسوة الإنس، إنّ | الانس من جنّها أحقّ بلعنِ
مقتوا الشيطان الرجيم ولو قيس | بأعمالهم لباء بغبن
إن يكن خارجاً على الله إبليس | فهم خارجون، لكن بفنّ
حارب الله من وراء مجنّ | وهم حاربوه دون مِجَنّ
يفترون الهراء وجهاً لوجه | ويقولون حكمة غير ظنّ
كان صلباً في ظنّه حين ضحّى، | مثبتاً رأيه، بجنّة عَدْن
وهمُ إن رأوا يضحّون بالرأي | إذا أتحفوا بلعقة دهن

وقال مداعباً في كلب سيّدة:

يا كلب سيّدة، حسبتك سيّدا | لما قعدت من المليحة مقعدا
لو لم يكن إلاّ يد من غادة | تحنو عليك بلطفها لكفت يدا
نلت المنى من غير قصد للمنى | كم غافل في القصد نال المقصدا
السرّ كل السرّ في الذنب الذي | أيقنت تحريكاً له أنّى بدا
لا تكترث ما دمت تحمل سرّه | إن كنت أبيض منظراً أو أسودا
ذنب ثمين لست منه مبدّلاً | ذنباً لطاووس يضاهي عسجدا
هل أنت منه مبدّل، وهو الذي | جعل النعيم عليك وقفاً مرصدا؟
لو أنّ زنديقاً بعيشك راتع | ما كان خالقه الكريم ليجحدا

وقال في سنة ١٩٢٩ يدافع عن حقوق البلاد:

حتّــام تهضم للبــلاد حقــوق ... ويهينهــا مـن ولــدهنّ عقــوق
عجبــاً لشعب واجم لعــواصف ... والصخــر إن مــرّت بــه منطيق
الشعب مهضــوم الحقــوق وســاكن ... في الــرمس كـلّ في البــلاء شقيق
هــذا يضيق بــه الطــريق إذا مشى ... ذلاً وذاك بــه اللحــود تضيق

ومنها:

لــو أن طغيــانــا تحمّلــه الثرى ... صبرت على حكم الطغــاة «فــروق»
تــرف واسراف بمثلهما هــوت ... من قبل ذا الــرومــان والاغــريق
مــا جمّعــوه من دمــوع بــوائس ... في كل مــوبقــة لــه تفــريق
بين الجوانح شعلــة مشبــوبــة ... إنّي لأخشى أن يشبّ حــريق

وقد لازمت الملاح ثلاثين عاماً أو يزيد، ونعمت بصداقته ومودّته، وأفدت من أدبه وفضله. وكان لي معه مطارحات شعرية ومراسلات أدبية ومساجلات اخوانية كثيرة لا تزال ذكراها تثير القريحة وترهف الفكر وتنعش الروح.

كان للملاح هرّ يعنى به ويطعمه حتى هرب ذات يوم بلا وداع. وأعرب الشاعر عن أسفه لفراقه، فأرسلت إليه بالأبيات الآتية:

قـد كــان يـؤنسنــا هـرّ ونــؤنسـه ... في وحشــة الــدار بين الصبح والغَسَقِ
يأتي فنطعمـــه من زادنـــا، فنــرى ... فنّــاً عجيبــاً من الألعــاب والملَق
لكن مضى لم يـودّعنــا بــلا سبب ... مخلّفــاً حسرة بــانت على الحدق
لقــد محضنــاه ودّاً يــوم مقــدمــه، ... فيــا لــه آبقــاً مستهجَنَ الخُلُق
إنّ الطبيعــة نــادت فــاستجــاب لها، ... وراح يسرح حــراً في ذُرَى الطــرق

وتذاكرنا يوماً في الكتب القديمة وما ضاع منها فنسي الحاج خليفة كاتب جلبي وكتابه الفذّ «كشف الظنون»، فقلت له:

عجبــاً لمثلـك عــالماً ... جمّ المعــارف والفنــون
تنسى أريبــاً فــاضــلا ... وكتــابــه كشف الظنــون
للترك يُنْمَى أصلــه ... والعــرب فــازت بــالثمينِ
قــد شــاد صرحــاً ســامقــاً ... للعلم والأدب الــرصين
لــو أنّ «عبّــاســاً» درى ... لاستــاء من ظلم وهُــونِ
واحتجّ غضبــانــاً على ... إنكــار ذي الفضل المبين

والاشارة إلى صديقنا المؤرخ عباس العزاوي. وقد أجابني الملاح بأبيات يعرّض فيها بالعزاوي، منها:

أسبـــاب ذلـك أن عبّـــاســاً   غـــزانـــا بـــالمجـــون
فتشتَّـت أفكـــــارنـــــا   حتـى حكـت مسحــــوق طين...
لا تغترر بتظـــاهـــــر   إذ عنـــدنـــا كـلّ اليقين

حين حلّ محمود الملاح في بغداد أشير عليه بالانتماء إلى مدرسة الحقوق كما فعل الكثيرون من صحبه وأبناء بلده، فقال إنه لا يحمل الشهادة الثانوية الرسمية. لكن سمح له ولأمثاله من أصحاب الدراسة الخاصة أن ينتموا إلى الصف الأول على أن يؤدوا بعد ذلك امتحاناً في المواضيع العامة موازياً لامتحان الدراسة الاعدادية.

داوم الملاح في مدرسة الحقوق أشهراً، ثم عين موعد الامتحان العام، ووجهت إلى الطلاب الذين لا يحملون الشهادة الثانوية أسئلة في الرياضيات والطبيعيات واللغة ومواضيع أخرى، وكان منها أسئلة في العروض. وقد سرّ الشاعر الملاح بهذا السؤال بوجه خاص لبعد عهده بالمواضيع العلمية والحسابية، وهنّأ نفسه سلفاً مؤملاً أن يحمل إلى النجاح على موجة سعيدة من بحور الخليل. لكن كل الطلاب الذين شاركوه في الامتحان أو جلهم لم يجيبوا على أسئلة العروض، فتقرر آخر الأمر اهمالها وإسقاط درجاتها من متوسط النجاح العام. فخاب أمل شاعرنا، وكان ذلك آخر عهده بدراسة الحقوق.

نثر محمود الملاح:

كان الجمود فاشياً في عهد نشأة محمود الملاّح، وكان الكتّاب يلتزمون بالسجع غير مكترثين بأسلوب الترسّل الواضح المؤدّي للمعنى. ووجد الملاح نفسه صعوبة في التخلّص من ذلك الأسلوب العقيم، فقال في ذلك في كتابه «نظرة ثانية في مقدمة ابن خلدون»:

«ومن الغريب أن الأدباء درجوا على السجع حتى عصرنا الذي أدركناه ولم يحدّث أحد نفسه باطّراح هذه البدعة. ولعلّ لابن خلدون الفضل في اطّراح كتّاب العصر الحاضر لها.

وكنت أنا من أواخر من نهج نهجه بعد قراءتي وصيّته في المقدّمة وأنا في عهد التحصيل. وعانيت في الانتقال من طبيعة إلى طبيعة صعوبة حتى أنّي جشّمت نفسي حفظ النثر المرسل للتخلص من السجع! وأتذكر أني حفظت قسماً من كليلة ودمنة... وكنت أعكف على المقدّمة لذلك، وكانت الكتب البليغة النثر عسرة التحصيل.

«وطبيعـة السجع التي كانت فيَّ لم تأتني مـن قبل حفظ كلام مسجّع ، كـلا ، فإني لم أحفظ كـلامـاً مسجّعـاً قطّ . ولكني أسمع كـلاماً مسجّعـاً وأطـالع في كتب مسجعـة كمقامات الحريري ومقامات البديع ونهج البلاغة ، فينطبع في ذهني السجع ، ولا يزال فيّ أثر منه! »

وكان محمود الملاح معجباً بابن خلدون ، وقد قال :

«إنّ مقـدمة ابن خلـدون فتح في الفكـر الاسـلامي يشبه الفتـح الأمويّ في التـاريخ الاسلامي ، وكـلاهما آية من آيـات الاسلام» . وكان ابن خلـدون يلي الكتابـة والسفارة والأعمال لأمـراء المغـرب والأنـدلس في دويـلاتهم المتصـارعـة فيما بينهـا ، ثم اعتـزل أربعةأعوام في قلعة ابن سلامة متخلّياً عن الشواغل ألف في أثنائها مقدمته الشهيرة .

قـال الملاّح : «ولولا مطـاردة ابن خلدون لحرمنـا أثمن مـا أنتجه المخّ العـربي . فإذا ذكرت ضروب الاضطهاد ، فحيّهلا بالضرب الذي عاناه ابن خلدون! » .

ومن نثره الـرائق مقالته «القطوب بعـد الابتسام» التي نشرها في صحيفـة البلاد (١٤ كانون الثاني ١٩٣٠) ، قال فيها :

ما من ابتسامة إلاّ في عقبها قطوب .

كـذلك كـانت ابتسـامة المغيب ، إذ هي أشبـه بصحـوة المحتضر . هنـالك قطعت صلاتي بكل ما كان يطيف بي من شواغل «القهـوة» (المقهى) وضوضائها وتكلّفت شبه غفوة نفـرّغت فيهـا لمشاهـدة طيوف الماضي معروضـة على رقوق الخيـال ، وهي محفـوفة بالحلك شأن السّينما .

فثارت حينئذٍ ذكريات «العروبـة» ومجدها الرافل ببرده على ضفاف الرافدين ، حيث الراية السوداء سواد مقلة الأيام وسويداء فؤاد الدهر ، فعنّ لبالي بيت من قصيدة نظمتها في عهد التّرك ، ثم غالها غول التجسّس ، وهي :

مـــا زالت الأيـام تبـكي دولــة كـانـت سـواد عيـونها سـوّادهـا

أما أنه لو نطقت هذه الأمواج ، أو لو ترجمنا لغـة خريرها التي تشبه غمغمة السياسة أو لغة الدواوين ، لغمرتنـا بالقصص ولحدّثتنا بواقعة الجسر وواقعة القـادسية من أيامنا البيض وأخبار هولاكو وأحاديث تيمور من أيامنا السود .

نعم ، لو ألحفنا على هـذا الماء واستجوبناه استجواب متّهم لاعترف لنـا بالجرم الذي اقترفه أو كـان عوناً على اقترافه يـوم ألقيت في قعره كتب المستنصرية وأسفار النظـامية ، فانطوى عليها انطواء القمطر . ويوم تحرّى أخوال المأمون . . . أخاه ابن زبيدة بالحرّاقات التي أنفـذها طـاهر بن الحسين كما يتحرّى السمك هـؤلاء الذين أراهم الآن يمخـرون دجلة بزوارقهم . . .

ثم شخصت ببصري إلى الأفق الغربيّ لأعاتب الغرب على جفائه لأخيه الشرق جفاء المأمون للأمين، وإن كنت لا أملك من وسائل عتابه إلا أضعفها، وهي هذه القصبة التي هو منّ بها عليّ! لكن قطع على نظري الطريق منظر حدائق النخيل المسطورة على هامش الشاطىء الغربي، إذ كان لون لممها أشبه ببقايا الخضاب في لمم الكواعب. فهاج ذلك المنظر ذكرى الصقالبة يوم كانوا خولاً للعرب يتخلّلون بنواصيهم الشقراء حدائق الخلفاء.

ثم رجعت إلى نفسي وقلت: هل أذاقنا الموت الأحمر إلا الافتتان بذيّاك الشعر الأشقر الذي خلب الألباب فأضعف إرادتها؟ وهل ثلّ عروش الملوك إلاّ الاندفاع وراء الشهوات واتخاذ الأباعد ركائب لاقتناص شواردها حتى يصبحوا شبحاً في حلق أهل البلاد الذين بنيت العروش على سواعدهم؟ كذلك نفض العبّاسيون أيديهم من العرب، فنفضت العرب أيديها منهم، فكان نفضها نقضاً، وما بين النفض والنقض إلاّ نقطة!

ها هي ذي ملكة النهار تزفّ لترسب في قعر الظلمات كما كانت الفتاة المصرية تزفّ لترسب في قعر النيل. وصورة زفافها أن يحاك لها إكليل من الغمام مبرقش بالحمرة والصّفرة والزرقة، ثم يقام على جمّة تسرحها الرياح فلا تتركها ثابتة على قرار، كأنها تحاول أن تستوعب عامة «الموضات» وتجرّب جميع الأوضاع، فهي حائرة في الاعتماد على واحد منها. وللغواني أحلام وأماني لا يضبط منتشرها ولا يضطلع بتحديدها إلا بياض الكفن أو بياض الهرم.

وهناك ثارت رفاف من أطيار النهار متراجعة إلى أوكارها فأحدثت في الفضاء شبه الخيلان، وقامت على أثرها رفاف من أطيار الليل التي لا تطيق النظر إلى بهجة الكون إلاّ في بهمة الحندس. أطيار ليلها النهار ونهارها الليل، وشروقها الغروب وغروبها الشروق، وأصيلها الفجر وفجرها الأصيل، بحيث لو كانت بشراً لاحتاجت إلى الشمس التي تخيّلها المتنبّي في مدح «الأسود» ولما استغنت عن مصابيح من الظلمة. وغاصت الغزالة ولم يبق منها إلا غدائر طافية تلكأت عن الرسوب وارتكم الدم في وجنتها حين شدّ عليها الخناق، فانبسط جانب من لونه على حاشية الأفق. وعلى أثر خمود تلك الشعلة الكبرى من العالم الأكبر، خمدت شعلة الفكر من العالم الأصغر وعرا نشوتي فتور اضطرني إلى التقهقر بفلول آمالي . . .

محمود الملاح:

سألت محمود الملاح يوماً لمَ لا يجمع شعره ويسعى إلى طبعه؟

فقال: إنني بيّضت شعري منذ أعوام طويلة، لكنني أخاف معاودة النظر فيه. فكلما وقع بيدي شيء من شعري السالف صرت على غير إرادة مني أضيف إليه

وأصحّح فيه وأسقط منه حتى عييت وقررت أن أتركه وشأنه.

وجاءني بمجموعة شعره فنقلت منه ما شئت في جلسات متعدّدة.

استملاك دار الملاح:

لاستملاك دار الملاح قصة طريفة لا بأس من روايتها بعد أن استأثرت رحمة الله ببطليها. فقد قررت أمانة العاصمة منح الملاح بدل استملاك قدره ثلاثة آلاف دينار، فاستقلّه وجاء في المساء إلى المحامي عباس العزاوي في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه على شاطىء دجلة وشكا له قلّة التعويض.

قال العزاوي: الأمر هيّن، ويمكنك الاعتراض لدى المحكمة.

- ولكنني لا أعرف ما يجب أن أعمله.

- تعال غداً إلى دار المحاكم واعمل وكالة باسمي، وأنا أقوم بما يلزم.

- وكم تتقاضى أجرة أتعابك؟

- نحن أصدقاء العمر، ولن أتقاضى منك فلساً واحداً في سبيل رفع الغبن الذي وقع عليك.

- وماذا تفعل إذا وكلتك رسمياً؟

- هناك إجراءات معلومة: فإنني أعترض على البدل، فيعيّن الحاكم خبراء يمثلونك ويمثلون أمانة العاصمة ويقوم واياهم بالكشف على الدار، ثم يقرّر البدل المناسب.

وكذلك كان. وجاء الملاح بعد أيام يسأل العزاوي عن سير القضية فطمأنه وأعلمه أنها سائرة على وجهها الصحيح.

قال الملاح:

- إذا رفع البدل إلى خمسة آلاف دينار فإنني أعطيك أجراً كبيراً.

- قلت لك إنني أفعل ما أفعله لأجل صداقتنا ولا أرغب في تقاضي أيّ أجر.

وجاء الملاح في اليوم التالي وقال:

- إذا رفع البدل إلى ثمانية آلاف فإنني أمنحك الأجر الذي تطلبه.

- ولكنني قلت لك مراراً إنني لا أطمع في الأجر!

وظلّ الملاح يزيد كلّ يوم في بدل الاستملاك الذي يرجو الحكم له به ويعد صديقه العزاوي بأجر عظيم، حتى كانت عشيّة البتّ في القضية. فجاء إلى المقهى وقال:

- إذا رفعت المحكمة البدل إلى خمسة عشر ألف دينار فإنني آتي بالمبلغ جميعه إليك لتتقاضى منه ما تشاء!.

قال العزاوي: لا أدري ما ستقرّر المحكمة ولكنني أكرّر القول إنني لا أطمع في أجر ولا مثوبة.

وذهب الحاكم والخبراء في اليوم الثاني إلى الدار المستملكة وسأل الحاكم ممثل أمانة العاصمة عن البدل فقال: لقد تقرّر تعويض صاحب الدار بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، وهو بدل مناسب إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة البناء والموقع . . .

ثم سأل الحاكم ممثل محمود الملاح عن رأيه، وكان ذكيّاً، فقال:

أنا لا أعرف الأرقام المجملة ولكنني أدري أن المتر المربع الواحد في هذه المنطقة من بغداد لا يباع بأقلّ من مائة دينار بصرف النظر عن البناء.

فصاح ممثل أمانة العاصمة معترضاً: ماذا تقول؟ مائة دينار؟ إنك لا تجد مشترياً بثمانين ديناراً.

فقال ممثل الملاح: إنني أوافق على ثمانين ديناراً.

وتمت الموافقة على ذلك، ولما حسب التعويض على هذا الأساس بلغ البدل ثلاثة وعشرين ألف دينار قبضها الملاح صكاً على المصرف وهو لا يكاد يصدّق عينيه.

قبض الملاح المبلغ ومضى إلى داره وأرسل إلى العزاوي أبياتاً يقول فيها: لقد وكلتك محامياً عني فماذا فعلت؟ إن الفضل يعود إلى الخبير اللبق الذي عرف من أين تؤكل الكتف.

وغضب العزاوي غضباً شديداً وقال: إنني فعلت ما فعلت واخترت الخبير وسرت في الاجراءات القانونية بدافع الصداقة ولم أطمع في الأجر. ولكن صاحبنا يقبض أضعاف ما حلم به، ثم يبخل عليّ بالشكر، ويجازيني بشعر يبخس من حقي ويغضّ من شأني. والله لأعلّمنه درساً لن ينساه أبداً واتقاضاه أجراً مضاعفاً.

واشتدّت الجفوة بين الملاح والعزاوي الذي هدّد برفع الأمر إلى القضاء، فقلت له: لا تفعل، يا أبا فاضل، واترك الأمر لي.

قال: لا أرضى بأقلّ من ألف دينار.

ومضيت إلى الملاح وعاتبته وقلت له: لو كنت قد مدحت صديقنا بشعر أشدت فيه بذكره وأطريت فضله لما وقع ما وقع.

قال: لقد كانت دعابة ولم أقصد شيئاً، وهو لا يرضى بأي أجر.

قلت: أما الآن فهو يريد الأجر ولا يتنازل عنه.

وبعد مكالمة ومساومة فصلت مقدار الأجر بخمسمائة دينار قبضتها من الملاح ودفعتها إلى العزاوي، فعادت مياه الصداقة بينهما إلى مجراها.

حـدثني محمود الملاح قـال: كنت كـاتباً للنفـوس في ولايـة الموصل في أواخر عهـد الاستبداد الحميدي. وكان السلطان يحرص ألا يشاركه أحد في لقبه، فالويل لمن يجرأ أن يكتب اسمه (سلطان) ولو سمّاه به أبواه عند الولادة. وكان هؤلاء - وهم كثر في الموصل - يكتبون اسمهم (سلتان) بالتاء ويتجنّبون حرف الطاء.

قال الملاح: وكـان عملي أن أكتب الأسماء في سجل النفوس الأسـاسي، وهو سجل يحظر فيه الحك والشطـب. ولذلك كنت أملأ المعلومـات في حقوله بدقة شـديدة وخط واضح خـوفـاً من حصـول خطأ. فإذا حضر رجل اسمـه (سلطان) لتسجيل أحـوالـه المدنية، ترك مميـز الدائرة أعماله ووقف على رأسي يراقب الأمر بنفسه خـوف الزلل وسوء العاقبة، فيشير عليّ بأخـذ الأهبة والعناية، ويقول لي: احـذر الغلط، يا ولدي. اكتب (سلتان) بالتـاء لا بالطاء، أفهمت؟ ويكرّر ذلك مثنى أو ثـلاثاً، حتى إذا ما خططت اسم الرجل انحنى على السجل ورأى الرسم صحيحـاً فربت على كتفي وقال: آفرين، يا ولدي، أحسنت.

وكانت هذه الرواية تتكرر كلما جاءنا «سلطان» لتسجيل نفسه.

محمود الملاح في حلب:

حدثني محمود الملاح قـال: كنت كاتباً في مجلس إدارة ولاية حلـب بعد نهاية الحرب العظمى، وكان مدير التحرير ابراهيم هنانو، وكانت حلب تابعة للحكومة الفيصلية في الشام. ولم يمض أمد طويل حتى احتلّ الفرنسيون سـورية وأخرجوا الملك فيصلاً منها (١٩٢٠)، فظلّ مجلس الادارة يعمل تحت إمرة الحاكم الفرنسي.

وكان التنافس شديداً في المدينة بين المسلمين والأرمن. وجاءت في هذه الأثناء امرأة أرمنية بعريضة إلى مجلس الادارة تطلب اعتناق الدين الاسلامي، وقد فهمنا أنها أقدمت على هذه الخطـوة رغبة منها في التخلص من زوجهـا الذي كان يسيء معاملتهـا. وجاء زوجها الأرمنـي، وكان فظـاً غليظاً، فأخـذ يتوعد المجلـس واعضاءه ومـوظفيه ويهدّد باستنزال نقمة الفرنسيين عليهم إذا هم ساعدوا امـرأته على الدخول في الدين الاسلامي والتخلص من ربقة زوجها.

وكـان المجلس يميل إلى قبـول اسـلام المرأة، لكنـه كـان يحسب حسـابـاً للحكـام الفرنسيين ومـوقفهم المعروف من الأمر. وفي هذه الأثنـاء اتصل الرجل بشيخ مسلم من المعمّمين وطلب إليـه حلّ مشكلتـه ودفع له الأجـر بسخـاء. فقال المعمّـم: أتريـد أن تحتفظ بزوجتك؟

- نعم.

- إذن فـاطلب أنت أيضـاً اعتنـاق الـديـن الاسـلامي، وعنـد ذلك تبقى المرأة في عصمتك إذا قبل اسلامها.

ولم تجد المرأة المسكينة بداً من الاحتفاظ بدينها والعودة إلى منزل الزوجية .

الموصل في أواخر القرن التاسع عشر:

كانت الموصل في أواخر القرن التاسع عشر تشكو العزلة والخمول والانحطاط الاقتصادي، وتعاني فقراً مدقعاً يعزّ على الوصف. حدثني محمود الملاح أن الرجل كان يسير في السوق فيرى بصقة على الأرض، وانه ليحدّق فيها ملياً لعلها تكون متليكاً يهمّ بالتقاطه، والمتليك أدنى قطع النقد العثمانية.

وجاء أحد أمراء ايران لزيارة الموصل، فحار الوالي التركي كيف يستقبله بما يليق بمنزلة الدولة. وكان الجند يلبسون الملابس البلدية ذات الأشكال والألوان المتباينة، فقرّر الوالي بعد التفكير واعمال الرأي شراء قماش خشن من نسج الجبل وصبغه بالنيل، فعمل منه بزّات رسمية لعشرة أو بضعة عشر جندياً توحيداً لزيّهم، لتحيّة «الشاهزادة» عند قدومه. وظلّ هذا النفر من الجند بملابسه الخشنة المصبوغة مضرب المثل في الموصل عهداً غير قصير!

وكان الناس لا يعرفون الشاي شراباً. ومن ذكريات الملاح عن طفولته أن جدّه أصيب بالمرض، فجيء له بالشاي دواءً. وقال الجدّ: أعطوا شيئاً من الشاي إلى هذا الطفل ليذوقه، فلما أشربوه منه مجّ طعمه وأخذ بالبكاء.

محمود الملاح:

حدثني محمود الملاح أنهم كانوا ثلاثة يدرسون على الشيخ عبد الله النعمة، هو وضياء يونس وشيت خطاب، وقد اتصلت بينهم المودة فصاروا لا ينقطعون بعضهم عن بعض نهاراً ولا مساءً. ولم يتزوج الملاح، ولم ينجب ضياء يونس ولداً، أما شيت خطاب فتزوج وأنجب ولدين سمّى أولهما باسم محمود الملاح، وهو محمود شيت خطاب صاحب المؤلفات العسكرية واللواء في الجيش العراقي والوزير في العهد الجمهوري. وسمّى ثانيهما باسم ضياء يونس، فكان ضياء شيت خطاب الذي أصبح رئيساً لديوان التدوين القانوني ونائب رئيس محكمة التمييز ورئيسها بعد ذلك.

حدثني محمود الملاح أنه حين أنشئت الحياة النيابية في العراق سنة ١٩٢٥، عيّن صديقه ضياء يونس سكرتيراً لمجس الأعيان. وتوسط له لدى رئيس الوزراء ياسين الهاشمي فعيّن الملاح رئيساً لكتاب مجلس النواب براتب ٢٥٠ روبية شهرياً.

قال: داومت في الدار التي قرّر اتخاذها مقراً للمجلس النيابي قبل افتتاحه، وكان العمال والنجارون منهمكين في تنظيم قاعة الاجتماع ومقاعدها لاعدادها لحفلة الافتتاح. وكنت أنا وسائر الموظفين المعيّنين واقفين نشرف على العمل ونصدر التعليمات

بشأن إتمامه. فجاء رجل معمّم باللباس الأهلي ووقف يراقب عملنا، ثم صار ينتقد العمل ويصدر الايعازات والتوجيهات، فقلت له: يا أسطَى، ما شأنك في الأمر؟ ورجوته أن يخرج، فلم يفه ببنت شفة.

فقال لي أحد الفراشين: خفّف من غلوائك، إنك تكلم الحاج عبد المحسن شلاش وزير المالية السابق. فخجلت ومضيت بعيداً.

ثم افتتح المجلس وانتخب رشيد عالي الكيلاني رئيساً، فلم يقرّ التعيينات السابقة، بل أصدر أوامره بتعيين موظفين جدد. وتلقيت أمراً بتعييني كاتباً براتب ١٥٠ روبية، فغضبت وانقطعت عن الدوام. وقد نصحني أصدقائي بقبول هذه الوظيفة، فلم أفعل. ومرّ أسبوع أو أسبوعان فاعتبرت مستقيلاً وأنهيت خدمتي قبل بدئها.

محمّد حسن أبو المحاسن

الشاعر الوطني ووزير المعارف العراقية الشيخ محمد حسن بن الشيخ حمادي بن مهدي آل محسن الحائري، من قبيلة آل علي. تسكن أسرته في قرية جناجة بجوار الهندية في لواء الحلة وتنحدر من ابراهيم بن مالك الأشتر. وقد ولد في كربلاء سنة ١٨٧٦ وطلب العلم في مسقط رأسه ودرس علوم العربية والدين على يد محمد حسين الشهرستاني وكاظم الهرّ وغيرهما. وامتاز بشعره الجزل الرقيق، وآمن في شبابه بالمبادىء الاسلامية وناصر الخلافة العثمانية حامية الاسلام ونظم في ذلك القصائد الكثيرة. وكان له اطلاع على الشعر الفارسي. ولما اختلّ نظام الحكم التركي في الحلّة خلال الحرب العظمى، خرج من كربلاء بأسرته إلى قرية جناجة وأقام فيها ردحاً من الزمن.

ونشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وتولّى زمام الأمور في مدينة كربلاء الزعيم الشيخ محمد تقي الشيرازي، فعهد إلى مترجمنا برئاسة المجلس الملّي والحكومة الوقتية، حتى إذا ما خبا أوار الثورة سجن في الهندية، ثم أطلق سراحه في آخر أيار ١٩٢١.

وعيّن وزيراً للمعارف في وزارة جعفر العسكري (٣ كانون الأول ١٩٢٣)، وقد استقال في ٢٧ ايار ١٩٢٤. وانزوى في قريته جناجة حيث وافاه الأجل في ٢٤ حزيران ١٩٢٦. وطبع ديوان شعره سنة ١٩٦٤ بإشراف الشاعر الخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي.

شعره:

اشتهر أبو المحاسن بشعره الاسلامي والوطني، فقد سجّل أحداث التاريخ العثماني بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ منتصراً للدولة العليّة التي كانت تجمع شمل الاسلام وتدافع عن حماه. ومما قاله يخاطب الدين الاسلامي ويشيد ببيض أياديه:

لك الشرف الباقي، وإن رغم العدى	أبى الله إلا أن يدوم مخلّدا
تردّيت بالمجد الأثيل، وما لهم	إذا اجتذبوا ذاك الرداء سوى الرّدى
وما أنت إلا الشمس في الأرض ما لها	غنى عن سواها فهي تطلع سرمدا
وما لنظام الكون غيرك كافل	لك الله فاسلم كي نعيش ونسعدا
نشرت لواء العدل في كل بلدة	وساويت فيها بالمسود المسوّدا..

وقال في رثاء محمود شوكت باشا بطل الانقلاب العثماني:

بكى الشرق، يا خير الصدور الأعاظم	عليك بمنهلّ الدموع السّواجم
نعيت إليه فاستمالت ربوعه	مصاباً ومادت أرضه بالمآتم..

ومنها:

ألم يكشف الكرب الذي ضيّق الفضا	على أمة باتت بقبضة ظالم؟
فشيّد صرح العدل مذ هدّ سيفه	على «يلدز» الشمّاء صرح المظالم

ومن شعره الوطني:

يا أيها الوطن العزيز لك الهنا	قد نلت أشرف بغية ومراد
سيعيد تاريخ العلى لك نفسه	ويعود مجد رجالك الأمجاد
أبناء يعرب يطلبون تراثهم	إنّ البنين أحقّ بالأجداد
لا يقنعون من الفخار بتالد	ما لم يضيفوا طارفاً لتلاد

حتى يقول:

فمتى تؤلّف وحدة عربيّة	وطنيّة الاصدار والإيراد
ليس العراق بموطني هو وحده	فبلاد قومي كلّهن بلادي

وقال يفتخر بقومه:

بقومي أسمو راقياً شرف العلى	وأسطو بهم يوم الوغى وأصول
هم القوم أما عزّهم فمشيّد	تليد وأما مجدهم فأثيل
شمائل كالروض الأريض تضوّعت	بطيب شذاه شمأل وقبول

وقال في مدح النبيّ الأمين:

وأشرقت أنجم التوحيد محدقة	منه ببدر هدىً يجلو دجى الظلم
نبوّة حاولوا إخفاءها فبدت:	إن الشموس سناها غير منكتم
كأن شرعته ضوء النهار جلت	من الضلالة ليلاً حالك العتم
من صفو أخلاقه سلسال كوثره	جرى بصفو ومعين سائغ شبم

وقال في السجن :

أنــا والنجم كــلانــا ســاهــر ... غير أني مفــرد بــالشّجـن

لا أبــالي، والمعــالي غــايتي، ... وصل أشجــاني وهجــر الــوسن

في سبيـل المجــد منّــا أنفس ... رخصـت وهــي غــوالي الثمـن

ليـس غير الشعب واستقــلالــه ... لِيَ شغـل فهــو أضحى ديــدني

نحـن للعليــاء والعليــا لنــا ... لــو أقــالتنــا صروف الــزمن

عُــرِفَ المعــروف والعــدل بنـا ... ولنــا تــأسيس تلـك السُّنن

ولأبي المحاسن غـزل لطيف على الطريقة القـديمة، كقصيدته «شجـو الغرام» التي يقول فيها :

أجــدّك هل لي مـن هــواك مجير ... فـأيسر شجــوي لــوعــة وزفير

أســامــر في ليـل التمام نجــومــه ... وكـل شجـيّ للنجــوم سمير

وقـد منعـوا طيف الخيـال، فـلا الكرى ... يلـمّ ولا طيـف الحبيب يــزور. .

ولما وقفنــا للــوداع بــذي النّقى ... نعــرّض بــالشكــوى لهم ونشير

وفي القلب مـن بـرح الصّبـابــة لاعج ... لــه بين أثنــاء الضّلــوع سعير

وقــد أشرقت للنــاظـرين طـوالعــاً ... بــدور لها فــوق الحدوج سفــور

جــرت لمراعــاة النّظير مــدامعي ... نجـومــاً فـلاحت أنجم وبـدور. .

ومن رقيق شعره الوجداني :

لعلّ النّــوى تــدنــو فيجتمع الشّمل ... فـلا عيش إلا من وصــالك لي يحلــو

فـديً لك نفسي، كيفما شئـت فـاحتكم ... فمثلـك لا يُسْلَى ومثلِيَ لا يسلــو

ومـا أنــا إلاّ عــاشـق قـد تقـاسمت ... هــواه المعــالي الغــرّ والحدق النّجل

ومــا اختلفـت سبل الهوى غير أنني ... أواصل نهجــاً فيــه تـأتلف السُّبْلُ

معــاني جمالٍ غيرمــا افتتنــوا بــه ... فــلا حــور العينين منــه ولا الكحل

وقصيدته «الربيع النّاضر» من أمثلة الوصف البارع الجميل :

بــوركـت يــا زمن الــربيـع النّـاضر ... مــا أنت إلا بهجــة للنــاظــر

أقبلت يــا ملك البسيطــة رافــلاً ... بمطــارف الحسن السّنيّ البــاهــر

رجّعـت لــلأرض الموات حيــاتها ... وكســوتها بُــرد الشبــاب الــزّاهــر

فتضــوّعـت أزهــار كـلّ خميلــة ... تجزيـك بــالنّعماء حمد الشــاكــر

نطق الحمام عن الــريــاض بشكــرهــا ... فــاسمع ثنــاءك مـن غنــاء الطــائر

ضحكت ثغــور الأرض فهـي بــواسم ... مهما بكـت عين السحــاب الماطــر

خطـــر النّسيم الغـضّ يحمل نفحـــةً … مسكيّـــة فيهـــا ارتيـــاح الخاطـــر
والشمس صــاغت بـالشعــاع سبائكــاً … يجلـــو النّضـــار بها جميـل منـــاظـــر
وجـــــرى لجين الماء فيــــه فحلّيت … أشجـــاره بمعـــاضـــد وأســـاور

ومن شعره الغزليّ :

مـــــا تثنّى الغصن إلاّ وصفـــا … لـكِ قـــدّاً وقـــوامـــاً أهيفـــا
يطـــرب الغصن إذا شبّهتـــه … بـكِ حتى ينثني منعطفـــــا
وســـلاف الـــراح في نشـــوتها … تصف الثغـــر وتحلـــو مـــرشفـــا
أرضــاب الثغـــر أم مشمـــولـــة … قـــد جـــرت في لـؤلـــؤ قـــد رصفـــا
فيـــه للظـــامي شفـــاء من جـــوى … لـــو رأى الظـــامي سبيـــلاً للشِّفَـــا
ومهـــاة غـــادرت ألحاظهـــا … مهجـــة الصبّ المعنّى هـــدفـــا
إن مشت هـــزّت قنـــاة صعـــدة … أو رنت سلّـت حســامـــاً مـــرهفـــا
مـــا ثنـــاهـــا السّكـــر، لكنّ الصّبـــا … من نعيم قـــد سقـــاهـــا فـــرقفـــا
صفـــة الحسن بها قـــد أغـــريت … فـــزهت حسنـــاً وفـــاقت شرفـــا

كان لأبي المحاسن مطارحات شعرية مع رجال عصره كرضا الاصفهاني وعبد المهدي الحافظ وهـادي عبـاس آل كـاشف الغطاء وعبـد المطلب الحلي وجـواد الشبيبي وعبـد الحسين الحويـزي وغيرهم. ومن طـرائفه التي رواهـا محمـد علي اليعقـوبي أبيات قـالها يداعب الشيخ علي الأسدي الذي أناف على التسعين :

أمعمّـــراً عمـــر النســـور، إلى متى … تبقـى وأنـت الميـت في الأحيـــــاء؟
حـدّث، فـلا حـرج، حـديث جذيمـة … مـــا كـــان قصّتـــه مع الـــزّبـــاء؟
وعن البســـوس ومـــاضيـــات حـــروبها … حـــدّث فإنّـك حـــاضر الهيجـــاء

قال سلمان هـادي آل طعمة : وكـان الشاعـر صلب الرأي، سـامي الخلق، واسع الخيـال، مرهف الاحسـاس، . ويمتـاز شعـره بحرارة العـاطفـة وصدق التعبير ورقـة الشعور.

قال وهو سجين في الحلّة :

أنـاجـز جيش الخطب، والخطب فـادح، … يكـــافحني طـــوراً وطـــوراً أكـــافح
إذا كلّ عـــزم القـوم أو طـــاش حلمهم … فعـــزمي مسنـــون وحلمي راجـح
فيثبت قلبـي والقلـــوب مَـــرُوعـــة … ويشرق وجهي والـــوجـــوه كـــوالح
وقـــد نصحـوا لي بـــالخضـوع إلى العـدى … ومـــا كـلّ من يهدي لك النصح نـــاصح

فقلت: معاذ الله أن يستذلّني ... عدوّ، فغيري للدنيّة جانح
وأهون عندي أن أمدّ لهم يداً ... تصافحهم أن تختلبها الصفائح

من قصيدة له يطالب بالاستقلال في أثناء ثورة سنة ١٩٢٠:

وثق العراق بزاهر استقلاله ... والشعب متّفق على استقلاله
أضحى يؤمّل نيل أشرف غاية، ... يا ربّ، أوصله مدى آماله
فله إلى التحرير، وهو حبيبه، ... نظر المشُوق المستهام الواله
قد أطلق العاني وفكّ إساره ... فإلى مَ يبقى وهو في أغلاله؟
وردت شعوب الارض باستقلالها ... عذب الرجاء ورُوّيَتْ بزلاله
أفيحرم الشعب العراقيّ المنى، ... والشيء محمول على أمثاله؟
فازوا بنيل حقوقهم، وحقوقه ... بضمان أهليه وعزم رجاله
إن يُعْطَ واجب حقه فلحقّه ... أولا فمفزعة إلى أبطاله...

وقال من قصيدة يرثي الامام محمد تقي الشيرازي:

يا غلّة الأحشاء غاض المورد، ... يا أزمة الأيام غاب المنجد
لا نجدة للمستغيث ولا روى ... يشفي غليل حُشاشة تتوقّد
قلّ الغرار فلا فم لخطابة ... عند الخطوب ولا حسام ولا يد
بكر النعيّ وقال: قد أودى التقى ... ومضى إمام المسلمين الأوحد
ومنها: إن كان قد أودى التقيّ محمد ... فلقد أصيب به النبيّ محمّد
يا آية الله المقدّسة التي ... أمست إليه بها الملائك تصعد
غادرتنا والخطب داج ليله ... واليوم من صبغ الحوادث أسود
فمن المُدافع والاسنّة شرّعٌ ... والبيض تبرق والمدافع ترعد؟
الشرق، يا شمس الهداية مظلم، ... مذ غاب عنه ضياؤك المتوقد
لو لم تعاجلك المنيّة لانجلى ... عنه سحاب المغرب المتلبّد

أحمد الصافي النجفي

إن سيرة هذا الشاعر إنما هي شعره :

وهـو أحمد بن علي بن صافي من أسرة نجفيـة يتصل نسبهـا بالامـام موسى الكـاظم وكانت تعرف بآل السيـد عبد العزيز الذي نزل النجف ، وهـو الجدّ السادس للشاعر. أما جـده لأمه فهو الشيخ محمـد حسين الكاظمي من آل معتوق في صـور. ولد أحمد في النجف سنة ١٨٩٦ ، وتـوفي والده بوبـاء الهيضة وعمـر صبيّنا ١١ سنة ، فكفلـه أخوه الاكبر محمد رضا .

قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» إن هذا الشاعر رأى نور الشمس «يوم كان الحسن الخَلْقي والصحـة والنعمة تتنـزه كلها في الكـون الأعلى ، فما رمقته بنظـرة ساعـة الولادة ولا دنت بعد ذلك من ملعبه أو من رحله أو من كوخه . . انه لطير غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما . . . » وقد قال الصافي :

أســـير بجسم مشبـــه جسم ميّت   كأني إذا أمشي بـــه حـــامـل نعشي

ولما بلغ الخامسة من عمره أدخل الكتّاب ، فتعلّم القرآن والخطّ وشيئاً من الحساب .

وقد قال في ترجمة مخطوطة لنفسه كتبها سنة ١٩٣٦ :

«وما كـدت أتجاوز العقد الأول من عمـري حتى نكبت بفقد والـدي بمرض الـوباء الذي اجتـاح العراق يـومئذٍ وتـرك في كل دار مناحـة ، ولا سيما في بلدة النجـف . وقد كانت الصدمة شديدة على نفسي ، وما زلت حتـى اليوم أتمثل ذكراها الفظيعة وحوادثها المؤلمة ، ولا أنفكّ حتى اليوم أشعر بهولها .

فكفلني أخي الاكبر، وكان بالرغم من عطفه عليّ ، قاسياً في معاملتي ، ضاغطاً على حرّيتي ، مقيّداً لي تقييداً يكاد يكون استعباداً أو استعماراً! . . . »

وحين بلغ الثالثة عشرة أخذ يدرس قواعد اللغة والمنطق وعلم الكلام والمعاني والبيان والاصول وشيئـاً من الفقه على أساتـذة منهم الشيخ محمد حسن المظفـر والسيد حسين الحمّامي والسيد علي اليزدي، ثم حضر دروساً على السيد أبي الحسن الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي .

وكان منـذ الطفولة ضعيف البنيـة ، ميالاً إلى الكسل والتأمّل ، فلم يحتمل مـواصلة الدرس الذي زاد في مرضه العصبيّ . ثم توفيت والـدته سنة ١٩١٢ ، فاشتدّ عليه الداء ومنعه الأطباء من الانكباب على الدرس ، فانصرف إلى المطالعة ومراجعة الشعر والأدب وتصفح الكتب العصرية والمجلات كالمقتطف والهلال .

وكان أقرب كتاب إلى نفسه ـ كما يقول ـ لزوميّات المعرّي، ومن الذين أثروا في تفكيره في تلك الحقبة محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي.

وفي سنة ١٩١٦ ترك النجف مع رفيقه محمد علي كمال الدين قاصدين البصرة للعمل فيها، فاخترقا خطوط الحرب ووصلا إلى البصرة، لكن لم يجدا فيها شغلاً يمسك رمقهما.

وذهبا إلى المحمّرة (خرّمشهر) في ايران، فخلع الصافي البزّة الدينية وارتدى لباس العمّال وشرع يبحث عن عمل، وانتقل لتلك الغاية إلى عبّادان والكويت... وكتب عن هذا الدور من حياته فقال:

«ثم إني سافرت بعد ذاك إلى عبّادان لاشتغل عاملاً فيها فلم أوفّق. فتوجهت إلى الكويت في سفينة شراعية ورمت الاشتغال فيها بأحد المخازن، فلم يقبلوني مما اضطرّني أن أكون بنّاءً طيلة يوم كامل وقعت في انتهائه ميتاً من شدة التعب، فذهبت قبل أن أستلم الأجرة. ولما رأيت عدم استعدادي لهذه المهنة الشاقة، سافرت إلى بندر بوشهر المرفأ الفارسي، وكانت رحى الحرب إذ ذاك دائرة بين القبائل الفارسية والانكليزية بتحريض القائد الالماني «وسموس» الذي كان قبل الحرب قنصل الحكومة الالمانية في شيراز. فلم أتمكن من الوصول إلى قرب بوشهر إلا بمشقّة تعرّضت أثناءها إلى الغرق في الخليج الفارسي (العربي)، لولا صندوق شاي كان معنا في الزورق، فطفا على سطح الماء وتعلقت به فكان سبب إنقاذي.

«ومن هناك سافرت مشياً على الاقدام مع قافلة تجارية قاصداً شيراز، فوصلت بعد اثني عشر يوماً قطعناها في الجبال والطرق الوعرة إلى بلدة فيروز آباد موطن الفيروز آبادي المشهور صاحب المعجم العربي المعروف بالقاموس المحيط. وهناك أصبت بالتيفوئيد، فانفردت عن القافلة. وقد تعرّف إليّ المجتهد المرحوم الامام السيد عبد الحسين اللاري الذي كان تلميذاً لجدّي المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي، ولولا عنايته بي لقضى عليّ التيفوئيد. وبعد إبلالي من المرض سافرت إلى بندر عباس، ومنها قفلت راجعاً إلى النجف الأشرف بعد مفارقتها تسعة أشهر، كانت خلالها قد انقطعت أخباري عن أهلي. وقبل وصولي إلى النجف بشهرين كانت بغداد قد سقطت بيد الجيش الانكليزي...»

بدأ الصافي بنظم الشعر. وقد سمع بأنباء ثورة الحجاز التي رفع لواءها الشريف حسين، فكانت باكورة نظمه قصيدتين في مدح الشريف وتحية الأمة العربية الثائرة. ثم شارك في الثورة الوطنية التي شبّ أوارها سنة ١٩٢٠، فسجن اخوه الاكبر محمد رضا الصافي، وهيّىء لشاعرنا أن فرّ إلى طهران عن طريق الكوت وجبل حلوان.

عكف الصافي على دراسة اللغة الفارسية وعمل مدرساً للأدب العربي في المدارس الثانوية. وترك التدريس بعد سنتين، واشتغل بالترجمة والتحرير في امّهات صحف طهران كجريدة «شفق سرخ» وغيرها. وأكبّ على مطالعة الادب الفارسي، فقرأ المثنوي ديوان جلال الدين الرومي ورباعيّات الخيام ودواوين حافظ والمنوجهري وسعدي والشعر المعاصر. وتعرّف بشعراء ايران أمثال بهار ملك الشعراء وحيدر علي كمالي وجلال الممالك وعارف القزويني والشاعر عشقي الذي ذهب ضحية قصيدة حمل فيها على رضا شاه بهلوي. واختير بعد ذلك عضواً في النادي الأدبي، وقام بترجمة رباعيّات الخيام، ولم ينقطع في تلك الاثناء عن مطالعة الادب العربي قديمه وحديثه.

ثم انخرط في سلك موظفي الحكومة الايرانية مترجماً بوزارة المعارف، فنقل إلى الفارسية كتاب علم النفس لعلي الجارم ومصطفى أمين. وعاد إلى بغداد بعد ثمانية أعوام قضاها في ايران (١٩٢٨)، فاتّصل بمحافلها الأدبية وصادق الزهاوي وسواه من الشعراء. ورشحته الحكومة العراقية قاضياً شرعياً في الناصرية، لكن المرض عاوده بسبب المناخ واشتدّت عليه وطأته.

وأشار عليه الأطباء بالنزوح إلى سورية، فبارح العراق إلى دمشق سنة ١٩٣٠، ولم يستطع - كما قال - وبالرغم عن وصيّة الطبيب الابتعاد عن الاشغال الفكرية، فأخذت صحته بالتأخر وعانى جملة أمراض منها تضخم الكبد وضعف القلب ومرض الكلية والتهاب الحنجرة وضعف الأعصاب!

لقد هيىء للصافي أن يتغلّب على جميع تلك الأمراض، وقد أناف على السبعين. وعاش متنقلاً بين ربوع سورية ولبنان. ولما احتلّ الانكليز بيروت في خلال الحرب العالمية الثانية اعتقلوه وأودعوه السجن (١٩٤١)، فلبث في غيابته شهراً ونصف شهر، وخرج منه بديوان شعر أسماه «حصاد السجن».

وكانت حياته بعد ذلك تقتصر على كلمة واحدة، هي الشعر الذي واصل قرضه وأخرج دواوينه في تتابع وانسجام.

مؤلفاته:

دواوين شعره: الأمواج (١٩٣٢) أشعّة ملوّنة (١٩٣٨) الأغوار (١٩٤٤) التيّار (١٩٤٦) ألحان اللّهيب (١٩٤٨) هواجس (١٩٤٩) حصاد السجن (١٩٥١) شرر (١٩٥٢) اللفحات (١٩٥٨) الشلال (١٩٦٢) شباب السبعين (١٩٦٧) ثمالة الكأس (١٩٧١).

وله عدا ذلك: رباعيات الخيام (ترجمة شعرية (١٩٣١)، هزل وجدّ (نثر، ١٩٣٧).

شعره :

الصافي شاعر أصيل انصرف إلى الشعر وعاش له وعرف به ، حتى قال :

لي في الشعـــــر عـــــالم مستقلّ ... أنـــافيـــه فـــرد بـــدون خـــلاف
لم أشـــــــارك غيري لأنّي ربّ ... واحـــــد لا شريك لي في القـــوافي

وقال :

سمــوت بشعـري فـوق جيلي ، ولم يـزل ... يشـكّ بشعـــــري معشر البلهـــــاء
فإن لم أكـن في أمـــة الشعــر واحـداً ، ... أكـن أمّـــــة أعلى مـن الشعـــــراء!

وقد آثر الحرية والانطلاق من القيود فقال :

يـــروم زيـــارتي عشّـــاق شعـــري ... فـــــــلا يجدون لي في الأرض دارا
تـــراني كـــالنّسيـم أطـــوف حـــراً ... فلست ، ولا النّسيـم ، نـــرى قـــرارا
فـــــزوروني بـأنفــــاس الخزامى ... وزوروني بـــآهـــات العـــذارى
وقــــد آوي لقلب أخي غـــــرام ... وأصعـــد منـــه أنّـــات حيـــارى

وعاف المجاملة والتقاليد الاجتماعية :

أفـــرّ مـن النّـــوادي زاخـــرات ... بألـــوان المجـــاملـــة الـــوضيعـــة
وآوي للحقـــــــول طليـق نفس ... فلسـتُ مجامـــــلاً إلاّ الطبيعـــــة

أرهفت حسّه الأمراض التي ركبت بدنه وأضنت جسمه ، فقال :

لقــد عـدت أمـراضــاً أحـار بعـدّهــا ... ومن ذا يطيـق العـــدّ للـــرّمـل والنّمل؟
يقـــولـــون لي : مـــاذا بجسمك مـــؤلم؟ ... أقلـب ، أرأس؟ قلت : يـــــؤلمني كلّي

وداهمته الخُطوب وهدّته المصائب فأوحت إليه أرقّ الشعر وأروعه :

سأشكـــر للـــدهـــر الخؤون خطـــوبـــه ... وإن كـدت منهـــا أفقـد الـرشـد والصبرا
فإن خطـــوب الـــدهـــر أذكت بصيرتي ... وإن خطـوب الـدهـر أوحـت ليَ الشعـرا
وكم مـن مصـــاب حـلّ بي فحسبتـــه ... سيفقـــــدني روحي ويسكنني القبرا
فما زال يغلي فيّ حتـى تفجّـــــــرت ... ينـــابيع شعـــري منـــه وانـــدفقت نهرا
ولكنـــــه نهر من النّـــار ســـائل ... تثـــور بـــه أمـــواجـــه شعـــلاً حمرا . .

وهل عجب بعد ذلك أن يكون شاعراً إنسانيـاً يتفجّر قريضه رحمة وحناناً وأن يتّخذ مـواضيع شعره أبنـاء الشعب الكادّيـن الكادحين والفقـراء البائسين من بـائع الحصير والأعمى والمسلول والسّائل القروي إلى راعي الغنـم والبلهاء والشحّاذ . . . وإنه ليأسى لحال صبّاغ الأحذية ، والشـاعر وحذاؤه عـدوّان للصّبغ والاناقة ، فـلا يرده خـائباً مع ذلك :

جـــاء يـــومـــاً إليّ صبّـــاغ نَعلٍ وبنعلي صبـغ مـن الأيـــــــام
مـــرّ دهــر عليــه لم يَـــرَ صبغـــاً غير صبـغ الغبـــار والأقـــدام
وكستـــه أشعّـــة الشمس لـــونـــاً صـــار منـــه كقطعـــة مـن رغـــام
جاء نحــوي من بعـد مـا طاف يـومـاً دون ربـح غير العنـــا والسقـــام
جـــاء نحـــوي يـــروم صبغ حـــذائي وأنـــا للصبـــاغ أعـــدى الأنـــام
أنـــا خصم الألـــوان تخفي عيـــوبـــاً إنّ عنـــدي الألـــوان كـــالأوهـــام
رمـت رداً لـــــه فلم يـــرضَ قلبي ردّه خــــــــائب المنــى والمرام
قلـت: أحبــــــــوه درهماً، غير أني خفتُ من أن يُـــذلّـــه إكـــرامي
قلـت: فـــــاصبغ لي الحذاء بصبغٍ فيـــه أغـــدو مثـل الـــذّوات العظـــام
فغـــــدا يصبغ الحذاء بحـــــذقٍ مبـــديـــــاً فيـــــه كلّ فـنّ تمام
ثـم بـــــادرتـــــه بما ضمّ جيبي مـن نقـــودٍ أعـــددتها لطعـــامي
فمضـى هـــــانئـــــاً ورحت كـأني ثمـل بـــالسّخـــاء لا بـــالمدام

إن هذه المقطـوعة مثال الشعر الفطـريّ الأصيل الذي لا تكلف فيه ولا صنـاعة ولا إغراب، ينساب كالجدول الرائق: يصف حذاء الشاعر الذي كسته الأيام لون التراب، ثم يلتفت إلى الصبّاغ المسكين وقـد أخطأه التوفيق وفاتـه الرزق سحابة يـومه، فيهمّ أن يردّه فلا ترضى عاطفته الانسانية، ويهمّ أن يمنحـه صدقة فيخاف أن يهينه ويذلّه. فلا يكون منه إلا أن يدعوه إلى صبغ حذائه ويمنحه أجرة عمله النقود التي هيأها لطعامه.

وقد عظمت رحمة الشاعر وفاض حنانه حتى شملا الحيوان بعد الانسان، فقال:

لـــو يعلم الحيـــوان مـــا عنـــدي لـــه مـــــــن رحمة لأتـــــــى إليَّ مسلّما
ولأصبحت كـل الـــوحـــوش أليفـــة عنـــدي وخـــالتني أبـــاً أو أرحما

وقصيـدته «على طـريق بيروت» مأسـاة تهزّ النفس وتثير في أعماقهـا أسمى المشاعـر وأشدّهـا ألماً ووجداً. فلئن كان الشـاعر الفـرنسيّ ألفرد دي فنيي يصف لنا في قصيـدته «موت الـذئب» تسامي الـوحش وأداءه للواجب بصمـت وسكون وزهده بعـد ذلك في الحياة، إنّ شاعرنا الصافي ليصف لنا «موت الكلب» ويحيط فاجعته بإطار إنسانيّ حزين من الشعور الدافق والوفاء النبيل والـرحمة التي تنفذ إلى صميم القلب البشري. لقد كان الشاعر مسافراً في سيارة تقطع الفلاة مثل الفيل الذي تشع عيناه في دجى الليل:

فـــلاح على الطـــريق لنـــا مشـــاة يـــــؤلف بينهـم نسب وحبّ
أب شيــــخ وطفـــل دون سبـــعٍ وأمّ زان منهـــا الـــرأس شَيْـبُ
ورابعهـــم، كـــأهـــل الكهـــف، كلـب يلـــوح كأنـــه في الشكـل ذئب
يسير بجنبهـــم يحمـــي حماهُـــمْ وفي عينيـــــــه نيران تشـبّ

ويحدّق الكلب في السيارة فيهجم عليها ويوسعها نباحاً، وقد ظنها وحشاً غريباً يريد سوءاً بالقافلة التي يحرسها، فينتقم السائق القاسي منه بأن يسحقه ويقتله ظلماً وعدواناً.

ويمضي الشاعر في وصف المأساة فيقول:

فظلّ الكلب يرفس رفس موتٍ ... عظام حطّمت وانشقّ قلب
تفجّع أهله فبكوا عليه ... بدمع ملؤه ألم وكرب
وجاء الطفل يبغي ضمّ كلب ... له معه هَوىً ماضٍ ولعب
لقد نشآ معاً والكلب جرو ... وليس عليه سنّ الطفل يربو
يداعبه ويؤنسه بقفز ... وذاك الطفل فوق الأرض يحبو
رأى دمه فصبّ عليه دمعاً ... وصاح وصوته نَوْح ونَدْبُ
وظلّ يروم مسح الترب عنه ... وللدم منه فوق الأرض سكب
يحاول حمله حيناً فيعيا ... ويبغي أن يسير به فيكبو
ويلثمه لينعشه بلثمٍ ... كأنّ اللّثم للمجروح طِبّ

حتى يقول:

تركناهم، وفي قلبي شجون، ... ولم يأبه معي للأمر صحب
فثرت على الأنام لقتل كلبٍ ... وصرت كأنني للكلّ حرب
وقلت: بأيّ ذنب أوردوه ... رداه، وهل دفاع الكلب ذنب؟
بكيتُ وللسماء رفعت رأسي ... وقلت: أما لهذا الكلب ربُّ!

وفي قصيدته «ذكرى سمكة» يذكر جلوسه على ضفاف العاصي فيرى الأسماك تنأى وتدنو من الشاطىء وكأنها جائعات، ويلقي إليها بفتات الخبز طعاماً. وإذا بالصياد قد جاء يرمي شصّه، وقد كمن فيه الموت لهذه المخلوقات الضعيفة:

أنا أطعمتها لتحيا وقومي ... أطعموها لتجرع الموت مرّا
ثم لم يكفهم نفاق وغدر ... فرأوا رحمتي جنوناً مضرّا
إن يكُ الرّفق بالضعيف جنوناً ... فأنا أعظم المجانين طرّا

وبلغ من حنان الصافي ورأفته أن شمل النمل فرعى هذا المخلوق الصغير بعطفه وقال:

تضايق كأس الشاي عندي نملة ... لها ولع بالحلو يجذبها قسرا
وأخجل من طردي لها إذ أخالها ... تقول: أما أوحيتُ قبلُ لك الشعرا؟
تقبّلتها لي في الحياة شريكة، ... لها السكّر المحبوب أنثره نثرا
فتحمل منّي للثقوب ذخيرةً، ... وإن لم أكن في العيش متّخذاً ذخرا

وقديماً قيل عن الشاعر الفرنسيّ لافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) أنه أحبّ الحيوانات وعرضها في أمثاله وقصصه التي سحرت أجيالاً متعاقبة من الصغار والكبار. وقد شوهد مراراً مكبّاً يراقب النمل في عمله الدائب ونظامه العجيب حتى نسي نفسه ساعات طويلة وسها عن مواعيد الطعام.

إنّ الصافي النجفيّ شاعر روحيّ عرف الله بوجدانه وسما اليه بايمانه، قال:

راح يقوى على المَدَى إيماني ... فبربّي قد امتلا وجداني
قيل لي: هل عرفته بدليل ... أو بحسّ شهدته أو عيان؟
قلت: كلا، ايمان قلبي أقوى ... من دعاوى الحواسّ والبرهان
واضح لي وضوح روحي وعقلي ... ماثل في مداركي ككياني
هو رمز الوجود، سرّ التجلّي ... هو روح الأكوان معنى المعاني

وقد نظر إلى الوجود بعين البشر فاستهجن قبحه ودمامته، ورآه بعين الاله فأبصر بهاءه وسناه:

نظرت الوجود بعين البشر ... فلاح الوجود قبيح الصّور
ولما نظرت بعين الإله ... إليه بدا لي بوجهٍ أغر

ولا بدع بعد ذلك أن يصيح: اللّه أكبر!

أفكر بالسّفاسف في الحياة ... وأحسبها حقائق راهنات
فيقطع لي سلاسل ترّهاتي ... صياح مؤذن: الله أكبر
وأضرب سادراً بين الهموم ... وأسعى للوصول إلى النعيم
فيدعوني إلى النهج القويم ... هتاف مؤذّن: الله أكبر
وأفني في الرقاد ثمين عمري ... كأني ميّت في جوف قبر
فيوقظني لأحشر كلّ فجر ... صياح مؤذنٍ: الله أكبر
ونأخذ في أحاديث شتات ... ونبقى بين هاك وبين هاتِ
فأسمع صوت حيّ على الصلاة ... فأنهض صائحاً: الله أكبر

لقد عرف الصافي الغربة البدنية والروحية فجرع غصص الأولى وهفا إلى مغاني الثانية. نزح عن وطنه فقال:

حتّى مَ أقضي ثمين العمر مغترباً ... كأنني ليس لي مثل الورى وطنُ؟
فمن رآني أطوي الأرض منتقلاً ... يقول: ما ليَ لا أهل ولا سَكَنُ...
لم يرضَ بي وطني، لم يرض بي وطنٌ ... فهل تُرى يرتضيني القَبر والكفن؟

وحنّ إلى الوطن المجهول فهتف قائلاً:

أبغي أسـافـر، لا إلى جهـة ... كأنني عن وجـودي أبتغي السَّفـرا
فكم قصـدت جهـات مـا لها عـدد ... فما بلغـت بها قصـداً ولا وطـرا
فـلا الإقـامـة في الأوطـان تسعـدني ... ولا التغـرّب يجلـو عنّيَ الكـدرا
أنّـى جلسـتُ رأيـت النفـس في قلـق ... يثيرهـا فتعـاف الصّحب والسَّمـرا
وأيـن سرت رأيـت القلـب منقبضـاً ... والعين في كـل شيء تبغـض النّظـرا
كأنني بـاحث في الكـون عـن وطنٍ ... بـه شغفت ولم أعـرف لـه أثـرا
لم ألقَـهُ وأنـا حيّ وبي رمـق، ... فهـل سألقـاه لما أغتـدي خبرا؟

إنّ هذه الابيـات المفعمة بـالضياع والحيرة والحنين لتـذكّرنـا بقصيدة شـارل بودلير: الدعوة إلى السفر، ففي هذه القصيدة يتحـدث شاعر «أزهار الشرّ» عن عالم بعيد يتمنّى أن يعيش فيـه، عالم زاخـر بالحبّ والموت، عـالم يغشاه النظـام والجمال والترف والهدوء والهيام اللاّهب، عالم تظلله الشموس المبلّلة والسموات المضطربة، يسحر الشاعر بفتنة خفية كعيني حبيبته الخائنتين اللامعتين خلال الدموع.

بل تذكـرنا هذه الابيـات بقصيدة «السفـر»، وهي من قصائد بودلير ايضـاً، يتشوّق فيها إلى وطن مجهـول ويقول: إن المسافـرين الحقيقيين هم اولئك الذين يـذهبون لأجل الـذهاب فحسب، قلـوبهم خفيفة، يستجيبـون لنـداء القدر الـذي يدعـوهم دون أن يتساءلوا عن السبب ويصيحون:

هيّا ولنذهب! . . ويقـول الشاعر الفرنسي: إن العـالم لصغير وانه ليجري على وتيرة واحـدة ولا يعكس إلا صورتنـا كواحـة من الهول في صحـراء الملل والسّآمـة. ثم يختتم قصيدتـه داعياً الموت، ذلك الربّـان القديم، ليعد سفينتـه ويرفع قلوعـه، فلئن كانت السماء والبحر متشحين بـالسواد القاتم، إن قلوبنـا، نحن المسافرين، مغمـورة بأشعة النور البهية ترتقب المجهول لتجد فيه الجديد الذي تتطلّع اليه!

وللصـافي بعد ذلك ألـوان شتى من الشعـر، وطني واجتماعي ووصفي وغزليّ. ولـه شعر خفيـف يتّسم بالحلاوة والـدعابـة والسخريـة، كقصيدتـه «حسناء تسـوق سيارة حسناء»:

وغـانيـة فـاقت على جيلهـا ... وحـق قـرآني وانجيلهـا
سـاقـت (أو تمبيـلاً) رقيقـاً لها ... يجري رُخـاءً وفـق مـأمـولها
كـأنـه الطيـف إذا مـا سرى ... في سـاحـر المقلـة مكحـولها
ألطف مـا قـد صيغ من جيلـه ... فيـه التي ألطـف مـن جيلهـا
آخـر (مـوديـل) جمال كما ... (مـوديلـه) حلـو كمـوديلهـا
نشـوان من نفحـة أردانها ... يختـال إذ خصّ بتفضيلهـا

أضحى مليكـــــاً بين أتـــرابـــه ... متـــوّجـــاً منهـــا بإكليلهـــــا
أحيتـــه فهـي الـــروح حلّت بـــه ... بلمس كفيّهـــا ومنـــــديلهـــــا
مـــرّت كما مـــرّت بنـــا نعمـــة ... من عـــاطـــر الأزهـــار مطلـــولها
تعلّـق القلـب بها فـــــاغتـــــدى ... يحوم كـــــالطير لتقبيلهـــــــا
أهـــوى ركـــوبـــاً لِيَ في جنبهـــا ... أو لا فـــدهســـاً بـــاتـــومبيلهـــا

ومن ذلك بيتان قالهما في معرض دمشق الدولي :

ومليحـــــةٍ جـــاءت لمعـــرض جلَّقٍ ... تخفي منـــاظـــره بمنظـــرهـــا الـــوَضِي
هي مـــا أتت كيما تشـاهـد معـرضـاً: ... جـاءت لتعـرض حسنهـــا في المعـرض

قال من قصيدة حين خصصت له الحكومة العراقية راتباً تقاعدياً شهـرياً قدره مائة دينار:

ليس مـــالي فضـــة أو ذهبـــاً ، ... مـــاليَ الفكـــر الـــذي عـــزّ نظيرا
مـــاليَ الخير الـــذي أعملـــه ، ... مـــالي السعي الـــذي يـــرضي الضميرا
مـــاليَ النـــور الـــذي أرسلـــه ... يبـــدل الظلمـــة في الأفكـــار نـــورا
مـــاليَ الـــوحي الـــذي يلهمني ، ... مـــالي الشعـــر الـــذي يحيي الشعـــورا
لم يغير خلقــــــــــــــي أو سيرتي ... عـــارض المال وإن كـــان وفيرا
أعشق الـــزهـــد صريحاً فكـــرتي ، ... أعشق الكـــوخ ولا أهـــوى القصـــورا
أعشـق العيش بسيطـــاً هـــادئاً ، ... أشتهـي الارض مهـــاداً لا السّريـــرا
كـم هـــويت الصخـــر لي متكـأً ... وافترشت الصخـــر لا الفـــرش الـــوثيرا

سجنه الانكليـز عند دخـولهم إلى لبنان سنـة ١٩٤١ بعد دحـرهم سلطات فيشي ، فقال :

حبست وضـــاق الحبس بي حين زُجَّ بي ... إلى غـــرفـــة ظلماء محكمـــة السـدّ
فقلت : عـــلام الحبس؟ لا أنـا ســارق ... ولا آثـم عمـــــداً ولا دونها عمـــــد
ولما رأيت الـذنب خـدمـة مـوطني ... حـلا السجن حتى خلتـه جنّـة الخلـد

وقال في أحداث لبنان التي جرح فيها (١٩٧٥) :

بين الـرصـاص نفـذت ضمـن معـارك ، ... فبرغم أنـف الموت هـــا أنـــا ســالمُ
ولها ثقـــوب في جـــداري خمســـة ... وقـــد أخطأت جسمـي وهنّ عـــلائم

وصف أمين الريحاني الصافي في كتابه «قلب العراق» فقال إنه تنقل من كوخ إلى كوخ ومن بلد إلى بلد ، وكـان يدعى عجمياً في النجف وعربياً في بلاد العجم . ثم راح يقيم بين البدو فظنّـوه من الحضر، وجـاء سورية فظنـه أهلها من البـدو. ثم قـال : إنه لطير

عجيب غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما. وهو. . . وليد برج النحوس، فالدمامة أمه والسقم أبوه والبؤس أخوه. . . أما الروح منه فهي سليمة قوية، بل هي روح جبّارة في هيكل سقيم:

أسـير بجسم مشبـه جسم ميّت كـأني إذا أمشي بـه حـامل نعشي

من آخر ما نظمه احمد الصافي بيتان على لسان السياسي اللبناني صائب سلام على أثر بلوغه السبعين (١٩٧٥)، قال:

سنّي بـروحي لا بعـدّ سنين فـلأسخـرنّ غـداً من التسعين
عمـري من السبعين يـركض مسرعـاً والـروح ثـابتـة على العشريـن

أيام الصافي الأخيرة ووفاته:

أصيب الصافي في أحـداث لبنان برصـاصات فنقل إلى بغـداد في ١٩ شباط ١٩٧٦ حيث عـولج. وكتب إليّ جعفـر الخليلي يقول إنـه لم ينقطع عن زيـارة الشـاعر منـذ أن جيىء به إلى بغـداد ليقضي دور النقاهة بعد استخـراج الرصاصة من صـدره. ثم قال: والعجيب أنه شفي تماماً من هـذه الاصابة الخطرة ثم مات بمرض الشيخـوخة الذي لا علاج له.

وكانت وفاته في بغداد في ١٧ حزيران ١٩٧٧.

محمّد مهدي الجواهري

شاعر العراق والعرب محمد مهدي بن عبد الحسين بن عبد عليّ بن صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن المتـوفّى سنة ١٨٥٠. ولـد محمد مهدي في النجف يـوم الأربعاء ٢٦ تموز ١٨٩٩ ونشأ في كنف والده الـذي توفي سنة ١٩١٧. درس أمداً وجيـزاً في المدرسة العلويـة في مسقط رأسه، ثم أخذ علـوم اللغة والأدب عن محمد علي المظفر وعلي ثـامر وحسين الحمامي وغيرهـم من مشايخ الغريّ. ونبغ في الشعـر، قرضه قبل أن يبلغ الحلم وبـرّز فيه تبريـزاً، وبـدأ بنشر قصائده منـذ مطلع سنـة ١٩٢١ في جـريدة الاستقـلال والعراق وغيرهما من صحف بغـداد. وسافـر إلى ايران لأول مرة سنـة ١٩٢٤، فرأى من طبيعتها الخلابة ومشـاهدها الجذابة ما سـاعد على تفتّح مواهبه وصقل قـريحته وتوسيع آفاقه.

وجاء إلى بغـداد سنة ١٩٢٧ فعيّن معلماً في بعض مـدارس الكاظميـة، ولم يلبث أن نقل مـوظفاً بـدائرة التشريفـات في البلاط الملكـي. واستقال من الـوظيفـة بعد ثـلاث سنوات، فأصـدر جريدة «الفرات» (ايار ١٩٣٠). وأعيـد إلى سلك التعليم في اواخر

السنة التالية، ثم أصبح رئيساً لديوان التحرير في وزارة المعارف، فمدرساً في المدارس الثانوية بالبصرة والحلة والنجف ودار المعلمين الريفية، حتى اعتزل التدريس في تموز ١٩٣٦. وقد اتهم بنشر قصيدة سياسية في جريدة «الإصلاح» البغدادية، وأحيل على القضاء فبرّأت محكمة الجزاء ساحته.

وأصدر جريدة «الانقلاب» في بغداد في ١٥ تشرين الثاني (١٩٣٦) فجريدة الرأي العام (١٩٣٧) والمعرض (١٩٣٧). وأيّد حركة ايار ١٩٤١، فلما انتهت بالاخفاق مضى إلى ايران، ثم عاد في نفس تلك السنة واستأنف إصدار جريدته الرأي العام. وأصدر في آب ١٩٤٦ جريدة صدى الدستور. وانتخب نائباً عن كربلاء في المحل الشاغر بوفاة عبد الرزاق شمسة (تشرين الثاني ١٩٤٧)، لكن المجلس حلّ في شباط ١٩٤٨.

وسافر إلى فرنسة سنة ١٩٤٩ فنظم ملحمته الغزلية «أنيتا» التي قال في سبب نظمها: «كان حباً عارماً لا يريد، ولا يقدّر له لو أراد، أن يقف عند حدّ». وأقام في مصر سنة (١٩٥٠ ـ ٥٢)، ولما عاد إلى بغداد حرّر في صحف منها الأوقات البغدادية والجهاد والثبات والاستقلال. واعتقل في أبي غريب في تشرين الثاني ١٩٥٢. وأصدر جريدة «الجديد» في ايار ١٩٥٣. ثم غادر العراق إلى دمشق سنة ١٩٥٦، فاتخذها سكناً وعهد إليه بتحرير جريدة «الجندي» التي تصدرها رئاسة أركان الجيش السوري.

وعاد إلى بغداد في تموز ١٩٥٧، ولم تمض سنة واحدة حتى قامت ثورة تموز، فحيّاها بشعره وأعاد إصدار جريدته الرأي العام (تشرين الأول ١٩٥٨). وانتخب في السنة التالية رئيساً لاتحاد الأدباء ونقيباً للصحفيّين. وفي سنة ١٩٦١ سافر إلى تشيكوسلوفاكية وأقام في براغ سبعة أعوام، ولم يعد إلى الوطن إلا في تشرين الأول ١٩٦٨. وأعيد انتخابه رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين عند إعادة تأليفه في كانون الثاني ١٩٧١. ثم عاود الرحلة الى براغ ومكث فيها أمداً طويلاً. وانتقل منها إلى دمشق حيث يعيش الآن (١٩٩٤).

ديوان الجواهري ومؤلفاته:

أصدر الجواهري «حلبة الأدب» (١٩٢٣) وهي مجموعة أدبية، ثم طبع ديوانه سنة ١٩٢٧. وصدر الجزء الثاني من ديوان الجواهري في النجف (١٩٣٥). وطبع الديوان في ثلاثة أجزاء (١٩٤٩ ـ ٥٣)، ثم طبع للمرة الرابعة في الشام (١٩٥٦ ـ ٥٧) وللمرة الخامسة في بغداد (١٩٦١)، وثم في بيروت (١٩٦٨). وشرعت لجنة بوزارة الاعلام بطبع ديوانه الكامل، فصدر الجزء الاول منه سنة ١٩٧٣، وعقبته ستة أجزاء طبع آخرها سنة ١٩٨٠.

ولمحمد مهدي الجواهري عدا ذلك: شكوى إقبال وجوابها (١٩٣٦)، وهو ترجمة

شعرية لقصيدتين للشاعر محمد إقبال، بـريد الغربة (١٩٦٥) بـريد العودة (١٩٦٩) أيها الأرق (١٩٧١) خلجات (١٩٧٢).

وقد قرر المكتب الدائم لاتحاد الكتّاب الافريقيين والآسيويين في دورته الخامسة عشرة المعقـودة في موسكـو منح جـائزة لوتس الـدوليـة في الآداب لسنة ١٩٧٥ إلى الجواهـري بالاشتراك مع كاتبين آخرين باكستاني ونيجيري.

مـازال الجواهـري يعيش في دمشق. وقد حضر في ١١ آذار ١٩٩١ مـؤتمر الاحـزاب العـراقية المعـارضة لحكم صـدّام حسين في بيروت وألقى فيه كلمـة، ووضع مذكـرات بعنوان «ذكرياتي» صدر الجزء الاول في دمشق سنة ١٩٨٨، ثم صدر الجزء الثاني.

وقد رغب في المجيء الى لندن في آب ١٩٩١، لكنه مـرّ في طريقه ببراغ ومرض فبقي فيها للمعالجة. ثـم حضر إلى لندن في كانون الاول ١٩٩١ وتوفيـت زوجته بها في الشهر التالي، ونقل جثمانها إلى دمشق حيث دفن. وعاد الجواهري للاقامة في دمشق.

شعره:

الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث، عبّاسيّ الـديباجة، طويل النفس، يرصّ كلماته وأشطره رصاً فتجيىء قصائده كالصرح الممـرّد أو الطود الشامخ، ويكسو معانيه أثواباً مؤنقة من جزل الألفاظ. قرض الشعر يافعاً وجوّل في آفاقه وجلى في حلباته وتفنّن في أغراضه من غزل ووصف واجتماعيات وسياسيات ووطنيات، وله من القصائد آيات بيّنـات. ولئن كان في حيـاته الشخصيـة متقلّب الأهواء، كثير النّـزوات شأن العباقـرة النّابغين، لقد كان شعره دائماً إنسانيّ النزعـة، فوّار العاطفة، تقدّمي الأغراض. وكان الشاعر مؤمناً بجماهير الشعب، معبراً عن آمالها وآلامها.

يرثي محمد جعفر أبا التمّن فيستهلّ رثاءه أيّما استهلال:

طـالت، ولـو قصرت، يـد الأقـدار	لـرمت سـواك، عَظُمْتَ من مختـار
من صفـوة لـو قيل: أيّ فـذّهم؟	لم تعـدُ شخصك أعين النظّـار
لكـن أرادت أن تحوز لنفسهـا	عين القـلادة فـازدرت بنثـار
وأرى المنـايـا بـالـذي تختـاره	للمـوت عـاطلـة وذات سـوار
فطـوتك في درج الخلـود فعطّـرت	بك سـالف الأحقـاب والآثـار
واستنـزلتك لغـربـة، ولأنـت من	عليـاك في لجبٍ مـن الأنصـار
وتجاهلـت أن البـلاد بحـاجـة	لك حـاجـة الأعمى إلى الإبصـار

ثم يصف الراحل فيقول:

بكـر النعـيّ فما سمعت بمثلهـا	عبثـاً على الأسماع والأبصـار
وتـرنّح الأحـرار ينـذر بعضهم	بعضـاً بفقـدهُـمُ أبـا الأحـرار

لله درّك من نقيّ لم ينل ... أذياله وضر من الأوضار
في حيثُ تزدحم الشرور وترتمي ... شبهاتها حتّى على الأخيار
خاض السياسة وانجلى عن لجّها ... ألق الجبين، مكلّلاً بالغار
في حين رام سواه خوض عبابها ... فطغى عليه، فضاع في التيّار
وصليب عود حين بعض مرونة ... في ضعفها خطر من الأخطار
وطريّ نفس حين بعض صلابة ... في عمقها حجر من الأحجار
وخفيّ كيد حيث يسمو كائد، ... ومن المكائد جالب للعار
وصريح رأي لم يحد عن خطّة ... ليلوذ من تأويلها بجدار
حرب على مستعمر وربيبه ... ومسالم مستعمراً ومُجار

ويلتفت إلى حالة البلاد التي كان الفقيد يذود عنها ويريد حريتها ورفعتها فيقول :

ومفرّقين عناصراً ومذاهباً ... متكفّلين سياسة استعمار
نزلوا على حكم الغريب وعرّسوا ... في ظلّ مأثمة له وفجار
وتحلّبوا أوطارهم، فإذا بها ... وشل لما استحلى من الأوطار
واستفرش الشعب الثرى، ودروبهم ... مفروشة بنثارة الأزهار
ذعر الجنوب فقيل كيد خوارج ... وشكا الشمال فقيل صنع جوار
وتنابذ الوسط المدلّ فلم يدع ... بعض لبعض ظنّة لفخار
ودعا فريق أن تسود عدالة ... فرُمُوا بكل شنيعة وشنار
ومشى المغيث على الجياع بقوتهم ... وعلى العراة بجحفل جرّار
وتساءل المتعجّبون لحالةٍ ... نكراءَ: من هم أهل هٰذي الدار؟
هي للصحابة من بني الأنصار ... من كل بدريّ وكل حواري
للحاكمين بأمرهم عن غيرهم ... ولصفوة الأسباط والأصهار
من كلّ غازٍ شامخ في صدره ... زاهي الوسام، مدوّخ الأقطار
هي للّذين لو امتحنت بلاءهم ... لعجبت من سخرية الأقدار
هي للذي من كلّ ما يصم الفتى ... كاسٍ، ومن جهد يشرّف عار

ويحيّي الجواهري ثورة تموز بقصيدة عصماء يقول منها :

لم يبقَ شيء لم نقله تشكّياً ... فيما مضى بالمصرحات وبالكنى
كنّا نقول لهم: حذار من لظى ... إمّا اعتلت ومن اللهيب إذا دنا
ومن الصدور الحابسات زئيرها ... ومن النفوس الكاظمات تحيّنا

ومن السجـــون الـــداجيـــات، فإنها كـــانت ومـــا زالـت لبـــاغٍ مـــدفنـــا
ومن السيـــاط، فإنّ حــرّ نشيــدهـــا بنهـــايـــة الجلّاد كـــانـت ملحنـــا
ستحـــول سلسلـــة السجين وقيـــده من معـــدنٍ بخس لأثمـن معـــدنـــا
كنّـــا نحـــذّرهـم ونضرب راعيـــاً مثـــلاً لهم وقطيعـــه مثـــلاً لنـــا
مـــا أقبح الـــدنيـــا إذا ضلّ الصـــوى راعٍ بثلّتـــه ومـــا أدنى الـــدّنـى.

إنّ شعـر الجواهري الثـائر المتأجّج، المنافح عن الشعب المظلـوم، النّازل على ظهـر الحاكم الظالم كالسوط اللاهب، ليشبه شعر فكتـور هوغو في دفاعه عن الحرية وتنديده بالطغيـان والطّغاة. أجل، إنـه ليشبه فكتـور هوغـو خطيب الجماهير في ثورة ١٨٤٨، وصاحب «نابليون الصغير» و«العقوبات»، والمبعد إلى جزيرة بحر المانشِ «تلك الصخرة التي حطم عليها جناحـه». وسيبقى شعر الجواهري أبداً سجلاً حافـلاً للجهاد العربي وتحفّز الشعب وظمأه إلى الحرية والكرامة.

الرصافي والجواهري

تـلاقى الشاعـران الرصـافي والجواهـري على صعيد الفكـر فتناجيـا وبثّ كل منهما لاعجته وشكواه. قال الرصافي:

أقـول لـربّ الشعـــر مهـدي الجواهـر الى كم تنـــاغي بـالقـوافي الســواحـر
فترسلهـــا غـــرّا هـــواتـف بـــالعلى يـــزوّد منهـــا سمعـــه كـل شـــاعـــر
وتشـــدد بها، والقـــوم صم عن العلى فلـم تلقَ إلا غير واع وذاكـــــــــــر؟
أتـرجـو من الحسّـــاد عـونـاً ونـاصراً فتـــدعـــوَ منهم خـــاذلاً غير نـــاصر؟
كـأنك لم تبصر ســـــواد قلـــــوبهم فهل أنـت مغـــرور ببيض المَســـافـــرِ؟

ثم ناغاه الجواهـري فهزّ ـ كما قال ـ الأسـد الرابض الضائق ذرعاً بعـرينه، المنطوي على نفسه ألماً وغضباً وكبرياء، فزأر الأسد الرصافيّ وقال في معرض الجواب:

بِكَ الشعـــرُ لا بي أصبح اليـــوم زاهـــرا وقـــد كنتُ قبل اليـــوم مثلك شـــاعـــرا
فأنت الـــذي ألقت مقـــاليـــد أمـــرهـــا إليـــه القـــوافي شُرّداً ونـــوافـــرا
بلغـت مـن الإبـــــداع أرفـع ذورةٍ هـــوى النجم عنهـا صـــاغـراً متقـاصرا
إذا شيءَ ظلـم قمـت للظلم رادعـــــاً وإن سيءَ حقّ قمـت للحقّ نـــاصرا

تذكرنا هذه المطارحة الشعريـة بين معروف الرصافي والجواهري المراسلة الشعرية التي جرت في اواخر القرن الماضي بين الشاعر المنفي الشيـخ محمود سامي البارودي والشاعر اللبناني الشاب شكيب ارسلان، وقد نشرتها مجلة الزهور المصرية في مختاراتها.

وللجواهري صرخات ثورية مدوّية، أليس هو القائل :

يتبجّحون بأن موجاً طاغياً   سدّوا عليه منافذاً ومساربا
كذبوا، فملء فم الزمان قصائدي   أبداً تجوب مشارقاً ومغاربا
تستلّ من أظفارهم، وتحطّ من   أقدارهم، وتثل مجداً كاذبا
أنا حتفهم، ألج البيوت عليهُمُ   أغري الوليد بشتمهم والحاجبا

ومن موشحات الجواهري التي نظمها في عهد شبابه «وشاح من ورد» قال فيها :

روح الصبا تسري   بالبعث والنشر   على البطاح
ويانع الزهر   يلتفّ بالنهر   مثل الوشاح

الروض مزدان
تكسوه ألوان   من الربيع

* * *

والنبت فينان
روح وريحان   صنع البديع
والرند والبان
صادٍ وريّان   زاهي الفروع

والشمس في سكر   من رشفة الخمر   من الإقاح
تسري ولا تدري   بالنهي والأمر   بلا جماح

وسيمة الفجر
يفترّ عن دَرّ   من السقيط

* * *

وكائر النّسر
يلوذ بالوكر   خوف السقوط
والبدر في الأسر
يغزل للفجر   بيض الخيوط

والصبح إذ يسري   بطالع البشر   على النواحي
وريّق القَطر   يحوك للزهر   ثوب ارتياح

والكأس ملآن

والشهب نُدمان بعض لبعض

والكل فرسان

والروض ميدان للقطف والعضّ

والصّدغ بستان

والحظّ وسنان كالنّرجس الغضّ

والشعر كالشَّعر في اللفّ والنشر فيه افتضاحي

والخدّ كالبدر كالشمس في الظهر في الأفق ضاحي

ناجي القشطيني

تنتسب الأسرة الى قشطين من أعمال حلب، وهي أسرة طائية امتهن أفرادها التجارة ونزحت الى بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع. وقد عرف منها محمود القشطيني رئيس بلدية الكرخ المتوفّى في ١٩ كانون الثاني ١٩١٥، وهو عمّ الشاعر المربي محمد ناجي القشطيني.

ولد محمد ناجي بن عبد الوهاب بن عبد الحميد بن أحمد في كربلاء سنة ١٨٩٦، وكان أبوه زراعاً قبل الوظيفة على مضض لخسائر حاقت به، فعمل في كربلاء أربع سنوات، ثم عاد الى الزراعة وتوفي سنة ١٩١٣. وجيىء بناجي طفلاً الى بغداد، فلما كبر أخذ يدرس على خاله عباس حلمي القصاب وغيره من العلماء. وعيّن القصاب مدرساً للمدرسة الدينية في سامراء، فلحق به الفتى ناجي وقضى في تلك المدينة سبعة أعوام يتلقّى العلم في مدرستها.

قرض ناجي القشطيني الشعر في صباه، وكان من أوائل نظمه رثاؤه لوالده الذي أدمت وفاته قلبه الغضّ فقال:

لم أدرِ مصرع والدي أم مصرعي هو لا يعي، وأنا كذلك لا أعي

وصحوت أسأل من رأيت، فلم أجد أحداً يجيب سوى غزير الأدمع

ثم رثى عمّه الذي تعهده برعايته وحنانه فقال:

موت عمي أمات منّي اللّسانا فاعذروني إذا فقدت البيانا

كان لي حجّة وكان إماماً أتلقى منه الهدى والأمانا

كان لي جُنَّة وكان حساماً أتحدّى به العدى والزّمانا

وكان شبابه عهد جدّ ودرس وصرامة، فلا عجب أن ذكره قائلاً:

شيئـــــان مـــــرّا بي كلمح البصر عهـــــد شبــــابي وجمال الصُّـــــوَرِ
أمـــا شبـــابي فهـــو مـــا يـــؤسفني مضى ومـــــــــا خلّـف غير العبر

واحتّل الإنكليز بغداد ففتحوا في حزيران ١٩١٧ دورة لتدريب المعلمين انضمّ إليها الشاعر فيمن انضمّ من الشباب الناهض. ولما تخرج فيها عيّن معلماً فمديـراً للمدرسة البارودية (أول نيسان ١٩١٨). وقد حيّا عهد العلم والعرفان فقال:

إن المعـــارف قـــد لاحـت بشـــائرهـــا متى بنهضـــــة أوطـــــاني تبشّرني؟
هي التي ضـــاءت الـدنيـا بطلعتهـا: لـــولا المعـــارف هـــذا النّـور لم يكنِ

ثم عيّن بعد ذلك مديـراً لمدرسة الكرخ فالكاظمية (أيلـول ١٩٢٣) ثم عيّن مدرساً للعربية في المدرسة الثانويـة المركزية (١٩٢٤)، وانتمى في السنة نفسها الى دار المعلمين العالية التي افتتحت آنـذاك وكانت الدراسة فيها مسائيـة استمرت سنتين. وعيّن مديراً لجريدة الوقائع العراقية الرسمية (آب ١٩٢٦) ثم عمل مدرساً أعواماً طويلة حتى عيّن مـديراً للمـدرسـة الشرقية المتوسطـة (آب ١٩٣٦). ونقل في آذار ١٩٣٨ الى مـديريـة الدعايـة العامة مميزاً للمطبوعـات الداخلية ثم أعيد مـديراً للمدرسة المتوسطـة المسائية (آذار ١٩٣٩) فمميّزاً للمطبوعات العربية (آب ١٩٤١). وأعيد إلى سلك التدريس في تشرين الأول ١٩٤٦، ثم عيّن مفتشـاً إختصاصيـاً بوزارة المعـارف (آذار ١٩٥٣) حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٥٩. وتوفّي ببغداد في ١٥ كانون الأول ١٩٧٢.

شعره:

نشر ناجي القشطيني «اللهفـات» ديوان شعر ونثر (١٩٦٨)، «ومن عيـون الشعر» (١٩٦٨)، وهي مختاراته لشعراء العربية، ونفثات الأخرس (١٩٦٩).

وشعره وطنّي النزعة، إسلاميّ الطابع، يكاد يقتصر على المواضيع القومية والدينية، وليس له شعـر وجدانيّ يذكـر. ولئن كان القشطيني المربّي قد أنشأ أجيـالاً من الشباب المثقف الواعي، لقد شـارك القشطيني الشاعر في المناسبات الوطنيـة والاجتماعية خلال نصف قـرن، فأنشد قصـائده في ميلاد الرسـول الأعظم، وارتفع صـوته في عيـد الثورة العربيـة وتكريم جميل صدقي الزهـاوي والثعالبي التونسي وطلعت حرب ورثـاء محمود شكري الألوسي والمنفلوطي وشوقي والزهـاوي وفهمي المدرس ويوسف السويدي وعبد المحسن السعدون وغيرهم من رجال الأدب والزعامة والسياسة.

إن القشطيني غيور على دينه وأمته، فلنستمع اليه يقول:

ربّ، هـب لي مـن فنـــــون الأدب حكمـــــة الشعـــــر وسحـــــر الخطب
ربّ، هيّـىء لي رشـــــاداً وحجـىً ربّ، أيـــــدني بـــــآيــــــات النّبـي
لأنـــــــــــاجي أمّتـي فيماأرى وأريها مــــــــــــا وراء الحجـب

أو يقول :

الحقّ أبلـج وضّـــــاح الى الأبـــــــد ... كـــــالصبح يسطـع لا يخفى على أحـــــد
فقل عـن الحق مـــا تهوى، فـأنفسنـــا ... تلتــذّ في ذكـره المعسـول كـالشَّهَـد
وإن تـــــرد مثـــلاً أعلى لتضربــــه ... للحـقّ غير أبي الــــزهـــــراء لم تجد
طـــه، ومن مثل طـــه في خـــلائقـــه، ... أثنى عليهـا كتـاب الـواحـد الصّمـد
سرّ مـن الله لم تعـــــرف حقيقتـــــه ... ولم يَـــدُرْ كُنْـــهُ معنـــاه على خَلَـــد
قـــد جـــاءنـــا بنظــام كلـــه حكم ... وأنعـم نفّست عـن كل مضطهـــــــد
كـانـوا يطـوفـون بـالأصنـام جـامـدةً ... ويسجـــــدون لها في زيّ معتقِـــــدِ
يـــدعـــون لله أبنـــاءً تشـــاركـــه، ... والله حـــاشـــاه لم يـــولـــد ولم يلـــد

وهو وطني صلب، ثابت المبدأ، يقول :

لا السجـن يُبكينـــا ولا التبعيـــد ... كـــلاّ، ولا الإرهـــاب والتهـــديـــد
سنظـلّ نهزأ بـــالخطـــوب تجلّـــداً ... مهما استمـــرّ الضغـط والتشـــديـــد
وإذا تنـــاوشـت الحراب صـــدورنـــا ... هتفت إليهـــا في الصـــدور كبـــود
إنّـــــا تحالفنـــــا على نيـل المنى ... وتسجّلـت منّـــا بـــذاك عهـــود
الصبر شيمتنــــا وليـس يهمّنـــــا ... إن قـــال فينــا مــا يشــاء حســود
والقيـــــد مهما أحكمت حلقـــاتـــه ... كسرتـــــه منّـــــا أذرع وزنـــــود

ويكبر عزم الشباب وقوة الشعب فيقول :

هــو الشعب كـــالبركـــان يقــذف نـاره ... وهل تمنـع البركـــان يـــومـــاً مـــوانع؟
لقــد كـــان مخدوعـاً فثـاب لـــرشـده ... وفحّـص فيما يـــدّعيـــه المخـــادع
فلـم يـــرَ إلاّ زمـــرة أشعبيّـــة ... تنـــاضل عـن غـــايـــاتها وتـــدافع
قـــد اجتمعت لمّا صفـــا الجوّ ضحـــوةً ... كما اجتمعت حـــول النقـــود الأصـــابع
تحاول ستر الحقّ في بـــــرقـع الهوى ... وهـل سترت شمس النهـــــار البراقـع؟
وتـــزعم أن الشعب طـــوع بنـــانها، ... لقـد كـذبت فالشعـب ما فيـه طـائع . . .
ألا قل لمن يبغي الخيـــانـــة بعـدمـــا ... رآهـــا وفي أنيـــابها السّمّ نـــاقـع
تكتّم وحـــاذر مـــا استطعت، فـإنـــه ... لسرّ على رغـم التكتّـم شـــــائع
لقـــد أنهكـت ظهـــر العـــراق ضرائب ... يقـــدّمهـا مـن جلـــده وهـــو جـــائع
أنـــاخ عليــــه الأجنبيّ بجيشــــه ... وبثّ بــــه مـــا حـــرّمتـــه الشرائع
فهـــانت كـرامـــات وضـاعت فضـــائل، ... وبـــارت تجارات ومـــاتت مـــزارع . . .

وقد هـزّته نكبـة حزيـران سنة ١٩٦٧ فأطلقهـا لهفة أخيرة من نفـس ذاهلة كسيرة،

وقال :

أتبكي أم تعـــدّد أم تنـــوح، فهل يطغى اللّظى دمك النّضـــوح؟
ولـــو أنشـــدت قـــومك ألف بيتٍ وبيتـــاً هل ستنـــدمل الجروح؟
لماذا تستغيـــث ولا مغيـــث، أتسمعك الـــروابي والسّفـــوح؟...
وليس لنـــا إذا رمنـــا حيـــاة يحيّيهـــا التأمّل والطمـــوح
ســـوى صبر يـــؤزّره جهـــاد ويغسل عـــاره دمنـــا السَّفُـــوح
وكم سُفِكَتْ لأمّتنـــا دمـــاء وكم هـــدمت لموطنهـــا صروح

من شعر ناجي القشطيني :

أمن مصـــائب عصر النـــور، يـــا قلم، أراك تـــرعش أم أودى بك الهرم
وهل هيـــامك فـــوق الطـــرس من ألم أم عـــادة لك هـــذا الحال لا ألم؟
صـــدى أنينك أشجـــاني وأرّقني وراعني إذ جـــرى من مقلتيك دم
إني عهـــدتك لا تخشى الخطـــوب ولم تسأم، فمن أين هـــذا الخوف والسّأم؟

وقال أيضاً :

خطـــر النّسيم الغضّ يحمل نفحـــة مسكيـــة فيهـــا ارتيـــاح الخاطـــر
والشمس صـــاغت بالشعـــاع سبائكـــاً يجلـــو النّضـــار بها جميل منـــاظـــر
وجـــرى لجين الماء فيـــه فحلّيت أشجـــاره بمعـــاضـــد وأســـاور

عبد العزيز الجواهري

شاعر عراقي عاش في إيران، لكنّ روحه بقيت متّصلة بوطنه العراق ومسقط رأسه النجف، وهو الأخ الأكبر لمحمد مهدي الجواهري : عبد العزيز بن عبد الحسين بن عبد عليّ المولود بالنجف في ٣٠ أيلول سنة ١٨٩٠ .

وقد أرّخ مولده الشاعر جعفر الحلي فقال :

بشراكمُ هـــذا غـــلام لكم مثل الـــذي بشّر فيـــه العـــزيـــز
سمعـــاً، أبـــاه، إنّ تـــاريخه أعقبت، يـــا بشراك، عبـــد العـــزيـــز

درس عبد العزيز الجواهري في معاهد بلدته وحصّل العلوم العربية والدينية على عادة أهل زمانه، حتى إذا ما بلغ مبلغ الشباب اتصل بالحركة الفكرية الجديدة التي هبّت أنسامها على البلد المنعزل وراء الصحراء. لقد أعلن الدستور في إيران وعقبه

إعلان الدستور في السلطنة العثمانية، وصدرت الصحف في بغداد بعد أن أطلقت حرية النشر والتعبير، ووردت الجرائد والمجلات من مصر وسورية ولبنان تحمل الأفكار الجديدة والشعر المحفّز للهمم، المفصح عن يقظة دينية ووطنية بعد سبات القرون الطويل.

وسار فتانا في ركاب النهضة الى جانب محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وأضرابهما، وأخذ ينظم في المطالب العصرّية ويخلع عنه رداء الجمود والانغلاق الذهني. وقد نشر قصائده في المجلات العربية الكبرى كالعرفان والمقتطف، وتولّى طبع ديوان محمد سعيد الحبوبي في بيروت سنة ١٩١٣.

ثم غادر العراق بعد الحرب العظمى الأولى واتخذ مقامه في طهران. وقد ترجم مقدّمة ابن خلدون الى اللغة الفارسية، ووضع دائرة معارف إسلامية في عشرة مجلدات، وصنّف تآليف أخرى منها: النهاية في الشرح والتحرير للكفاية (في ثلاثة أجزاء) آثار الشيعة الإمامية (في عشرين مجلداً طبع منه الثالث بالفارسية والرابع بالعربية) المكتبات الإيرانية (بالفارسية ١٩٣٣)، جواهر الآثار في ترجمة مثنوي جلال الدين الرومي شعراً (١٩٥٨) الخ.

تفّتح ذهن عبد العزيز الجواهري الشاب للحياة العالمة العاملة فخاطب الشباب قائلاً:

تطلّب في شبابك للصِّعاب ... فما عمر الفتى غير الشباب
وسلَّ حسام عزمك للمعالي ... فإن السيف يصدأ بالقراب
ودع طلب الهوان لمبتغيه ... فإن المجد أجدر بالطّلاب
وكرّر لو خطأت الجدّ يوماً ... فكم خطأ يؤول الى الصواب

وآمن بالشعر الحيّ الذي لا يموت فقال:

خليليّ، ما معنى الشعور؟ فإنني ... أرى كلّ شيء شاعراً مترنّما
أرى الكون في لوح الوجود قصيدة ... تخطّ عليها الخلق شعراً منظّما
هو الشعر باقٍ ليس تفنى حياته ... نقيم احتفالاً أو نشيد مأتما
تصوّره روح الخيال، فلو بدا ... إذن لرآه الطرف شخصاً مجسّما
وتنشر أسفار الطبيعة شعرها ... رموزاً فيمليها الهزار مترجما
هل النجم إلاّ روضة نرجسيّة ... أرى البدر فيها شاعراً متبسّما
فدىً لدموع العاشقين فإنها ... قصيدة شعر بينها الحبّ نُظِّما

عـرائس حبّ إن تجلّت بـدورها ... لـدى الصبّ ليـلاً زفّها الـوجـدأنجما
تقبّل خـدّ الجلّنـارة وجنـةً ... وتلثم ثغـر الأقحـوانـة مَبْسَما

ويمضي الشاعـر في اقتفاء خطى الشعر، فيسمعه في الروض الـذي تداعبه أضواء البدر ونسيج الليل فوقه وشياً منمنماً، حتى يقول:

تقـرّيت أسفـار الخلائق في الثـرى ... وفتّشت أسرار العـوالم في السّمَا
فلم أرَ إلا روضـةً أو خـريـدة ... ولم ألـفِ إلا شـاعـراً أو متيّماً
ألا كل صـوت طـارق صوت شـاعـر ... وسيّـان فينـا من بكـى أوترنّما

وليس من ريب أن هذا الصوت يعيد الى أذهاننا صوت معروف الرصافي الذي قال:

قـرأت، ومـا غير الطبيعـة مـن سفـر، ... صحـائف تحـوي كلّ فـنّ من الشّعـر

وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٩٠٩، فكان لخلعه صدى كبير دوّى في جوانب الدولة العثمانية المترامية الأطراف من مصر الى العراق. قال شوقي:

سـل يَلْـدِزاً ذات القصـور ... هل جـاءهـا نبأ البـدور؟

وردّ عليه وليّ الدين يكن قائلاً:

هـاجتك خـاليـة القصـور ... وشجتك آفلـة البـدور
وذكـرت سكّـان الحمى ... ونسيت سكّـان القبـور

أما صاحبنا عبد العزيز الجواهـري فبدّل الوزن واحتفظ بالرويّ، وخاطب السلطان السّجين قائلاً:

بعيشـك كـم تحنّ الى السّريـر ... وكم تـرنـو بطـرفك للقصـور
هـلاليـاً أراك نحلـت جسماً ... أمـا تشفيـك آفلـة البـدور؟
طـواك الـرعـب قبل الموت مَيْتـاً ... وأحيتك المنى قبـل النشـور
أهـانتـك القصـور وكنـت ملكـاً ... تهيّـب منـه سكـان القبـور
قـريت الـوحـش من جثث البرايـا ... ورويـت الـرّبى بـدم النحـور
بكت منـك الثغـور دمـاً مـراقـاً ... وتضحك عنـد بـاسمـة الثغـور
فأقسـم أن عـود الـدّست لـو لم ... يكـن مـن حـرّ بـأسك في سعير
لأثمـر في رؤوس الجنـد روضـاً ... وأزهـر من دمـاهـا في غـديـر

لقـد سقط السلطـان المخيف وتألب عليـه الشعـراء والأدبـاء يشيّعـونـه بسخطهم ولعناتهم.

وأين صاحبنـا الجواهري الذي ودّع عبد الحميـد بتلك القصيدة، أين منه هـو نفسه قبل أعوام قليلة حين مدح خليفة الإسلام قائلاً:

عُليّ بطـــــريف مجدك والتّليـــــد وليس وراء مجدك من مـــــزيــــد
وفخـــــراً في عـــــلاك فقـــد تحلّى بفيض نـــداك عـــاطل كلّ جيــــد

ومن شعر عبد العزيز الجواهري في رثاء الشيخ محمد كاظم الخراساني :

بكـــاك الحيـــا دمعـــاً كما بكـت الـــورى فهل كنت فـوق النجم أم كنت في الثّـرى؟
تحيّر عقلي كيـف أرثيـك واصفـــــــاً، تعـــالى الـــذي صفّـــاك للنّـــاس جـوهـــرا
لئن كنت نـــوراً في حشـــا الكـون مظهـــراً فقـد عـدت سراً في حشـــا الغيب مضمـــرا

وهذه المرثية قديمة الطراز فيها المعاني المتصيّـدة والمبالغة المتعمّدة. لكنّ شاعرنا حين يفقـد أخاه يثيره الـوجـد ويرهفـه الحزن والأسى، فيبثّ صبـابتـه تهزّ النفوس وتكـوي الضلوع :

بـــزغ الهلال، فـأين عهـــد وفـــائه أن لا يخون بــــودّه وإخــــائه؟
أيـــرى أخــاه مغيّبـــاً تحت الثـــرى قمـــــراً ويشرق زاهـــــراً بسمائه؟
إني خضبت أنـــاملي بمـــــدامعي وطلبـت طـــوق الحزن في ورقــــائه
وعكفـت حـــول أزاهـــر من قبره نبتـت تسبّـح في ضريـح ثــــــوائه
نـــذر عليّ لئـن زهـــا ريحانـــه لأروّيـنّ الـــــورد في أنــــدائه
يـــا لهف أيـــار تفـــرّط ورده بيـــد المنـــون وجفّ قبـل نمائه. . .
أهـــلال عيـــدي، أيـن غيّبك الثـــرى فحـــــرمتني مـن بِشْرِهِ وهنــــائه
أغنتـــه عن جـــدد الحلى أكفـــانـــه وكفـــاه صبـغ الـــدمع عـن حنّــائه
وتـــركت قلبـي حـــول قبرك حـــائماً شبـــه الفـــراش يحوم حـــول ضيـــائه
إن شـعّ لي قبس الحيـــــاة فإنّـــــه لهب السّراج يلـــــوح في أطفـــــائه
أأخيّ، يـــا قـــوسي ونبل كنـــانتي ومـــديـــر جيشي بـل أمير لـــوائه
أبقيـت قلبي للـــزمـــان دريئـــة ونصبتني غـــرضـــاً الى أبنـــائه. . .

وفي هذه القصيدة الحزينة صور متعاقبة رسمت هول الفاجعة في ذهن الشاعر الذي سلبه الموت شقيقه الحبيب : فلقـد بزغ هلال العيد، فالقمـر يتألق في العلاء لكنّ أخاه مغيّب في أطباق الثـرى. ثم هذه الخميلة الزاهيـة في فصل الربيع، تفتّح زهرهـا وجرى ماؤها وصدح عنـدليبها، لكن زهرة الشاعر قد صوّحتهـا يد الردى قبل الأوان، وبلبله رقد في قفـص التراب. ولقد حامـت نفس الشاعـر حول القبر كـالفراشة التـي يجتذبها النور، وهيهات، وهيهات، فقد خبا ذلك النور ولم يكد يشرق.

وكان الشـاعر يأمل في أخيـه نصراً ومعونة، فإذا هـو قد بات طـريدة الـزمان ونهب المصائب واللـواعج، كالفارس الذي أضـاع قوسه وكنـانته وكالجيش الذي فقـد قائده

وأميره. ويختتم الشاعر المفجوع مرثيته راجياً أن يحظى بلقاء أخيه في المنام وسائلاً رضوان أن يحفظه في فردوسه الخالد.

إن الشاعر قد فكّر في الحياة فلم ير سوى نار تضطرم ثم تخمد، فقال:

أرى عمـــر الحيـــاة شـــواظ نـــار   مـن الأجســـام تكمـن في زنـــاد
ومـــا ليل الشبـــاب ســـوى دخـــان   ومـــا صبح المشيب ســـوى رمـــاد

ذكر عبـد العزيز الجواهري، فيمن ذكـره، الشيخ علي الشرقي فقال إن عبد العـزيز الأرغن الذي يجسّ بتوقيعه العـواطف ولا يغنّي في الغالب إلا على رحيق الوطنيات... وقد توفي عبد العزيز الجواهري في طهران سنة ١٩٧٦.

محمّد الهاشمي

الشاعـر الأديب القاضي محمد الهاشمي، ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٨ وأبوه يحيى بن عبـد القادر ينتهي نسبـه الى الشيخ عـلاء الدين الحمـوي الفقيـه الشافعي المتصـوّف، صاحب المزار في حماه، المتوفى سنة ٩٣٦ هـ = ١٥٣٠ م. وقد انتقلت الأسرة الى هيت ثم استوطنت جـانب الكرخ من بغداد، وعـرفت بآل مطر. وللمترجم ثـلاثة أشقاء عـرفوا بالأدب، أكبرهم عبد المجيـد عمل في القضاء والتدريس وتوفي سنـة ١٩٤٦، وثانيهم عبد الـرزاق (١٨٨٣ ـ ١٩٦٤) وكان شاعـراً وقاضياً وعضـواً بمجلس التمييز الشرعي (١٩٤١ ـ ٤٦). وثـالثهم الشاعر محمد رشيـد (١٨٩٦ ـ ١٩٤٣)، وقد كانت حيـاته مأساة من المآسي.

توفي والده وشـاعرنا محمد الهاشمي لا يـزال في السابعة من عمره فتعهـده أخوه عبد المجيد بـرعايتـه وأشرف على تدريسه. ثم دخـل المدرسة الرشـدية (١٩٠٨) فـالمدرسة السلطـانية (١٩١٢) ولازم محمـود شكـري الألوسي فأفـاد منـه. ونظم الشعر صبيًّـاً، فاستدعته السلطات التركية وحاكمته عن قصيدة نشرها في جريدة «الرياض» لصاحبها سليمان الدخيل، ومطلعها:

يـا قيصر الـروس، شلّ الله عـرشك هل   علمت منقــلب الظلّام إذ ظلمـوا؟

وقصيدة أخرى ينتصر فيها للّغة العربية قال فيها:

تـركـوك، يـا لغـة النبي، وآثـروا   في المسلمـين سيـاسـة التـتّريك

وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر. واستطاع أن يسافر الى القاهرة قبل تنفيذ الحكم، وكان ذلك في أواخر ١٩١٣.

وانتمى الى الجامع الأزهر فنـال شهادته الأهلية (١٩١٧). وعـاد الى مصر بعد زيارة للحجاز فـالتحق بالجامعـة المصرية، وقضى فيهـا سنتين. ثم مضى إلى دمشق ومكث فيها الى سنة ١٩٢٠ حين عاد الى مسقط رأسه بغداد.

وقد أحبّ مصر التي أقام فيها عهداً من شبابه كما أحب وطنه العراق فقال مودّعاً:

آن يــــوم من الــــرحيل قـــريب	فيــه يــدمى قلب وتبكي عيـــون
مــا بقـــاء الغــريب في البلـــد	النـــازح إلا صبـــابـــة وحنين
كيف بـــالنيل إن ذهبت الى دجلـــة؟	إنّي بـــــالــــــوادبين ضنين
قـــد تحيّرت بين هـــــذا وهـــــذا	وانتحتني قبل الـــرحيل شجـــون
فتمتـع قبـل الفـــــراق ففـي مصر	زمـــــــان غـضّ وعيـش ثمين

وظف في وزارة الدفـاع كاتباً ثم نقـل الى الديوان الملكي ودرّس بعـد ذلك في المدرسة الثانوية. ودخـل مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٥. وأصـدر في الوقت نفسه مجلّة اليقين (نيسان ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥)، وكانت من المجلات الأدبية الراقية في عهدها.

وعيّن حاكماً في المحاكـم العراقية (٢٦ أيار ١٩٢٧) فخدم في القضـاء أكثر من ثلث قرن وتنقل بحكم منصبه في معظم أنحاء العراق. وكان أول تعيينه حاكماً للصلح في أبي الخصيب (أيـار ١٩٢٧) فحاكم بـداءة البصرة (حزيـران ١٩٢٨) فحاكم صلح قلعـة صالح (ت٢، ١٩٢٨) فالفلوجة (أيلول ١٩٣١) فدلتاوة (أيار ١٩٣٣) فالشطرة (آب ١٩٣٥). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بغـداد (ك٢ ١٩٣٦) فكركـوك (آذار ١٩٣٧) فحاكم كربلاء المنفرد (١٩٣٧) فحاكـم جزاء النقليات ( ) فحاكـم جزاء بغداد (آذار ١٩٣٩). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بعقوبـا (نيسان ١٩٤٠) فحـاكـم جزاء بغـداد (١٩٤٢) فحـاكـم صلـح تكـريت ( ) فحـاكـماً منفـرداً للكـوت (تموز ١٩٤٣) فحـاكم بداءة النـاصرية ( ) فبغـداد (تموز ١٩٤٦) فحـاكـم محكمة استئنـاف تسـويـة حقـوق الأراضي في بغداد (آذار ١٩٤٧) فعضـو المحكمـة الكبرى فيهـا (آذار ١٩٤٨). ونقل مفتشـاً عدليـاً (ك١، ١٩٤٨) فنـائب رئيس محكمة استئنـاف البصرة (ك٢، ١٩٤٩) فـرئيس المنطقـة العدليـة في بعقـوبـا (نيسان ١٩٤٩) فحـاكـم بـداءة الـرمـادي (أيلـول ١٩٥٠) فـالعمارة (آب ١٩٥٢). وأصبح عضـواً في مجلس التمييـز الشرعي السنّي (أيلول ١٩٥٣) فرئيساً لـه (٣ كانون الثاني ١٩٥٦)، وانتدب للعمل في محكمة التمييز العراقية (أيلول ١٩٦٠). وقـد أحيل على التقاعد فاعتزل الخدمة في أول تموز ١٩٦١.

وقد أصيب محمد الهاشمي بداء عضال ألـزمه داره بضع سنوات، حتى وافاه الأجل في بغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٣.

مؤلفاته

له: عبرات الغريب وقد تضمن شعـره إلى سنة ١٩١٨ وطبع في الشام (١٩٢٠) أبو العـلاء المعرّي (١٩٤٤) الأبطـال الثلاثـة (١٩٣٣)، النعت (١٩٤٧) سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (١٩٥٩) ديوان المثـاني (١٩٦٢) القضاء بين يديك (١٩٥٧). وقد نظم رباعيات الخيام شعراً ونشر ديوان عبد الله بن الدمينة مشروحاً مع السيد محي الدين

رضا في أثناء إقامته في مصر (١٩١٨) وجمع «أراجيز العرب» وهي تضم مئات الأراجيز التي عثر عليها في مصر وسورية والعراق. وله عدا ذلك ديوان شعر كبير معدّ للطبع ومقالات نشرت في مجلة المقتطف واليقين وسواهما من المجلات والصحف العربية. وقد نظم ملاحم وقصصاً شعرية منها: سميراميس الآنف ذكرها، بلقيس، إعترافات مقامر، الفتاة المخدوعة، في الوفاء وفي الغدر، قصة الإمام عليّ الخ.

شعره:

ذاق محمد الهاشمي مرارة اليتم طفلاً وخبر آلام البؤس والفاقة والغربة شاباً، فلا عجب أن جاء شعره حزيناً ناطقاً بالشجو والألم.

فهذه قصيدته «اليتيم الباكي» تعرب عن حاله وتفصح عن ذات نفسه لا زيف فيها ولا إغراب:

إلى كم أنت تكتب بالدموع ... روايات عن الخطب الفجيع؟
على قلبي دموعك نازلات ... ألم تره يدقّ من الدموع
كأن وقوعها حجرات نار ... أحرّ من الصهير على الضلوع
دموع قد أفاضتها عيون ... بها لليتم آثار الخشوع
إذا أجهشتُ أجهش لي فؤاد ... يطاوعني على الألم الوجيع
أرقّ من النسيم هوى وعطفاً ... أبيّ الطبع للزمن الفظيع
يؤاسي كلّ ذي حزن بحزن ... ويقتسم الشجون على الجميع
ولو حمّلته قسطاً ثقيلاً ... من الآلام آذن بالخضوع
ولو تشفي الدموع غليل قلب ... إذن لشفيتُ بالدمع الهموع...
سألقي نظرة ملئت حناناً ... على البؤساء من طرف خشوع
يعيش الأغنياء على رخاء ... ونحن نعيش في بؤس وجوع
تنام عيونهم بالليل، لكن ... عيون البائسين بلا هجوع
نسوا البؤساء في الدنيا جياعاً ... وخلّوهم الى الزمن المنوع
لكل من بنيهم ألف ثوب ... عليه علامة الصنع البديع
أناموهم على بيض الحشايا ... وفي غرف من القصر الرفيع
وأطفالٍ على الأوساخ ناموا ... كأفراخ الحمام على الجذوع
وليس لهم سوى الدقعاء فرش ... ولا التحفوا سوى الثوب اللذوع
يقضّون النهار طوى وجوعاً ... ويطوون الليالي بالدموع
أحاديث الشقاء لهم عزاء ... تعلّل نفس ذي البؤس الجزوع
ويضرب منهمُ ذو السقم عيّاً ... بليلته هزيعاً في هزيع
رأيت اليتم ذنباً لليتامى ... يراه الأغنياء بلا شفيع

وقال منها:

مضى أهلي وعـــرّضني زمـــاني ... لفتك من مصـــائبـــه ذريع
يتيم ليس يعـــرفني قـــريب ... ولست على الشقـــاء بمستطيع
أبي، أمي! عـــلامَ تـــركتماني ... ضعيف مطـــامع وقصير بُـــوعِ
أجيبـــا دعـــوتي، أنـــا مستغيث ... وليس ســـواكما لي من سميع
لقـــد همّا بيـــوم نـــوى قـــذوف ... ولكن لم يهّما بـــالـــرجـــوع
تـــذكـــر أمـــه وأبـــاه يـــومـــاً ... فأسبل ديمـــة أخـــذت بـــروعي
لـــه قلب وليس لـــه لســـان ... يطـــاوعـــه على الـــدمع المطيع
مضى أبـــواه قـــد تـــركـــاه طفـــلاً ... تـــرعـــرع قبل أيـــام الـــربيع

وقصيدته «الفتاة المخدوعة» صرخة مدوّية من صرخات الألم والفجيعة تروي قصة فتاة أوقعتها أمها بين براثن وحش مفترس وعدها بالزواج لكنه نصب لها فخاً وألقى بها في مهاوي الرذيلة، فابتليت بالسل وقضت نحبها شهيدة الفضيلة والعفاف.

وهو يردّد أنغام الحزن والأسى حتى في الحبّ، فيقول في موشّحه «آلام الحياة»:

ثمَّ في الصحـــراء، في القفـــر الجديب ... فـــوق غصن شـــائك غيـــر رطيب
أخـــذت مـــنه شمـــال وجنـــوب ... يتبـــاكى بلبـــل الـــوادي الغـــريب
كـــان من قبـــل محـــباً مغـــرماً ... علمـــته الحبّ أمـــلاك السّـــما
فـــلـــماذا لا يـــرى مبـــتســـماً ... بعـــد إلا بسمات بقطـــوب؟
أي قـــلب للمحـــبّ المبتـــلى ... ضـــيّع المـــاضي والمســـتقبـــلا
ذاهـــل عن كـــل شيء مـــا خـــلا ... نـــزعـــة من ذلك الحبّ الكئيب
يـــا غريـــباً ضـــاع في أوطـــانه ... يمـــلأ الصحـــراء من ألحانـــه
نغـــماً يكشـــف عـــن أحـــزانه ... كلّنـــا مثلك مهجـــور قـــريب

إســـأل الأسحـــار عـن أحـــلامنـــا واســـــأل الظلــــماء عـن آلامـــــنا

قـــد نفثــــــنا السّمّ مـن أقـــلامــــنا هـــو سمّ لا يـــــداويــــه طبيب . . .

آهٍ على هـذه الدنيـا المليئة بـالأحزان والكـروب! إن المرء ليصرخ وليبكي ويستغيث، ولكن الصراخ والدموع كلها عقيمة فلا سامع ولا مجيب:

هي دنيـا كـل مـا فيـها شجـــــون فـــاغـضِ عن كل مسـاويها الجفـــون

إنما سخطــك فيــــها كــالجنـــــون والتغــــابي سلـــوة الصّبّ الأرِيـب

نــادِ أفـــلاك السمـــوات العلـــى وانـــدب الفجـــر إذا الفجـــر انجلى

وامــــلأ السهــــل بكــاً والجبـــلا نــــادِ! هل من ســامع أو مـن مجيب؟

آهٍ مـــن صمـت على الأرض عميـــق خـرس الكــــــون فهـــلاّ تستفيق

هــــذه الآلام تذكـــو كــالحـريق في فــــؤاد دَنِـفٍ كـــاد يــــذوب

والهاشمي يقرن الحبّ دائماً بالشجو والألم، فهو يقول في قصيدته «ليلة عاشق»:

أيّها السّـــاهــر، مـــا هـــذا الأرق لـــــذكــــرٍ أم بعــــاد أم قلـق؟

غـــــرق النــــوّام في ليلهـمُ وتــــولاّني هـمّ قـــد طـــرق

ظلمـــة تـأتي وأخــرى بعـــدهـــا تشبـــه البحـــر إذا البحـــر انــدفق

أنـــــا في الليل غـــــريـق، وأرى مـــوجــه يسبقنـي قبل الغـــرق. . .

فيك، يــــا ليل، مـــواعيـــد الهوى يتقـــــاضـــاهـــا الأسى ممّـن عشق

إن فلسفـة محمد الهاشمي في شعـره فلسفة اليأس والشكـوى: فـالإنسانيـة معذبـة والحياة شقيّـة بائسة، والحنـان قد مـات في النفوس، والعدالـة لا مكان لها في الأرض، والدماء تسيل مسيل الأنهر، والنـار والأعاصير تفتك بالأرواح. وهذه قصيـدته «صوت من الإنسانية» صورة مؤسية للبشرية في عصر الحضارة والعرفان، فلنصغِ إليه يقول:

أفي الأرض تبقـى أم الى النجم تـــــرفـع نفـــــوس لها في الأرض مبكـىً ومجزع؟

لعلّ لها بعـــد المنيّـــة رقـــدة تخفّف عنهـــا بعض مـــا تتـــوجّع
وتنسى بها بـــؤس الحيـــاة وشرّهـــا فـإنّ حيـــاة البـــائسين تفجّـع
لقـد ساءهـا مـا في الحيـاة وسرّهـا لها في الثـرى بين المقـابـر مضجع

ويقول :

تمتعت مـن نجم الثـريّـا بنظـرة لك الله، مـا هــذا الـذي أتمتّع!
أحـــاول أن أرقى إليهـــا بجثتي ومـــا لي إليهـــا سلّم فيـــه أطلـع
أهيـم إذا لاحـت بها وبحسنهـــا ويخفـق قلبـي كلما هـي تلمـع
فيـــا أيّها النجم المطلّ على الـــورى، لمثلي أن يثـــوي بمثلـك مطمع
فيـــا ليت أني قبل مـوتي صـاعـد إليـك وأني في بـــلادك أرتـع
وكنـت إذا مـــا جنّ ليـل وأشرقت كـــواكـب في داجٍ مـن الليـل شرّع
نظـرت الثـريّـا ثـم أغضيت نـاظـري وقلـت : ألا ليـت المنيّـــة تسرع
لأنجـــو من أرض بها الفضل ضـائع وفي أهلهـا بـالشرّ والسـوء مقنع
فقـــد سئمت نفسي الثـواء بمجمع تـــزيّـن فيـــه المنكـرات وتصنـع
يـــذلّ بـــه المستضعفـــون ويعتلي بـــه الظـالم المستكبر المترفّـع . . .

ومحمد الهاشمي شاعـر وطني يجري في عروقه حبّ العراق والأقطار العـربية جمعاء، فمن قصائده الوطنيـة «تحية الشهداء» نظمها في القاهرة وقـد شهد بعينيه مصرع شهداء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ورأى القتلى تتخبّط بدمائها عل قارعة الطريق، فقال :

لا تـدفنـوا الـدم بـالتراب فـإنّـه يجري لنصر الحقّ فهـــو مطهّـــر
بل فـــاكتبـوا منـــه على أعـــلامكم كَلِماً كنيران الغضـــا تتسعّـــر
هـــذا دم الشهـــداء يهدر فيكـمُ لا تتركـــوه على البسيطـــة يهدر. . .

وقال يذكر المجد العربي الضائع :

نقضـت لـك الأيـــام عهـــدا إذ كنـت للعـــافين سعـــدا
إذ كنـت تبغـي مـن بغـــاك مـن النـــدى صـــدراً ووردا
فـأطـــاعـك العصران والملـــوان معبـــوداً وعبـــدا
وإذا أبيـت أبـى الـــزمـــان وإن دنـــوت دنـــا وجـــدا
تمـــضي الحـــوادث كيفمـــا مـــارستهـــا حـــلاً وعقـــدا
وتـــدور بين العـــزّ والإقبـــال إبـــرامـــاً وردّا
ولقـــد حميـت الملـك حتّـى صـــار لـــلآمـــال مهـــدا
ولقـــد عمـــرت الأرض بعـــد خـــرابها عهـــداً فعهـــدا

وإليك أخلــــدت الأنــــام وأعـــــرضت عمّـن تعـــــدّى
وعــــــدلت فيها كنت تحكـم بينهـم فـأصبت رشـــــــدا
ومضيت بـــالحكم الـــرشيــد مـــدىً فما جــاوزت قصــدا. . .
ولقـــد بنيت مفـــاخـــراً شـمّ الـــــذرى وبنيـت مجدا
وعنـت لـك الأقـــــدار إذ ملكـت يــــداك لها مـــردّا
غـــالبت دهـــراً عــاتيــاً حتـى تجبّر واستبّـــــــدا
فـأضـــاع دهـــرك غــادراً بك نـــاكثـــاً لك منــه عهــدا

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى النهوض وزرع بذور العزّ لحصد جناه.

ويحبّ الهاشمي الأمثال الشعرية حبّه للقصص المنظومة. فمن أشعاره «الـوردة والفراشة» و «القبر والزهرة»، وكلاهما مقتبس عن فكتور هوغو، و «الذئب والحمل» أو القوة والضعف، و «النحلة والجلّنارة». وقصيدة هوغو «الـوردة والفراشة» ترجمها شاعر لبنان الدكتور نقولا فيّاض (١٨٧٤ ـ ١٩٥٨) بعنوان (الزهرة والفراشة)، قال:

زهـــرة في الحقـل يـــومـــاً سألـت من فَـــراش الحقل معشـــوقـــاً صغيرا
مـــا الــــذي يلهيك عني جـــاعـــلاً لك كـــالنجم اختفـــاءً وظهـــورا؟
غـــائبـــاً حينـــاً وحينـــاً حـــاضراً مـــالئـــاً نفسي غيـــابـــاً وحضـــورا
أفما أنـــــت رفيقـــــي في الهوى أبـــداً أرشفـك الثغـــر الطهـــورا
عـــائشـــاً في عـــزلــــة الحبّ معي لا تـــــرى إنســـاً ولا تخشى شرورا
قـــــد تماثلنـــــا جمالاً وسنىً وتفـــاهمنـــا حفيفـــاً وشعـــورا
ولبسنـــا ثـــوب نـــور واحـــد فكـــلانـــا زهـــرة تسطع نـــورا
لا أرى مـــا بيننـــا فـــرقـــاً، بلى ســـوء حظي جعـل الفـــرق كبيرا
أنـت في الجوّ طليـق وأنـــــا بـــالثـــرى رابطـــة جسمي الأسيرا
كـم سرت نحـــوك أنفـــاسي فلم تتـــزوّد عطـــرهـــا إلاّ يسيرا
هـــائماً بين أزاهير الــــرّبى تـــائهـــاً في الجوّ زهـــواً وسرورا
وأنـــا أنظـــر ظلّي دائراً حـــول جسم عـــاجـــز عن أن يـــدورا
وأبيتُ الليـل أشكـــــو وحشتي بفـــؤاد لم يكن عنك صَبـــورا
ولـــذا تلقى بجفني أدمعـــاً كلما عُـــدْتَ مع الفجـــر منيرا
هـــاجـــري، إن صح عهـــد بيننـــا فـــدع الهجـــر طـــويـــلاً وقصيرا
واتخذ مثلي أصـــلاً في الثـــرى أو أعِـــرْ جسمي جنـــاحـــاً فأطيرا

وقد أضاف نقولا فيّاض تكملة لقصيدة هوغو فأجاب عن لسان الفراشة يخاطب الزهرة قائلاً إنها مفتونة بهواها، متيّمة بحسنها، وبعادها عنها إنما هو سرّ من أسرار الطبيعة، فهي كالريح رسول الهوى تحمل ذرات الغبار الى الأزهار القاصية.

أما شاعرنا الهاشمي فيقول في ترجمته:

فراشة وقعت يوماً على شجر	تفتحت فيه أزهار وأكمام
قالت لها زهرة صفراء ناضرة	وقلبها فيه أحزان وآلام:
لا تهربي وأجيبيني بمسألة	عن حظّنا، وحظوظ الخلق أقسام
شأني وشأنك في أمريهما اختلفا	لغيرنا فيهما نقض وإبرام
تمضين أنت الى العلياء طائرة	ولا أطير ولا لي ثَمَّ إعزام
لقد ضجرت ولكني على ضجري	أحبّ نفسي وما في حبّها ذام
أعيش والناس عني مبعدون وكم	في قربهم علل شتّى وأسقام
أَشْبَهْتني فلنكن زهراً نطير معاً	لنا بها فوق هذا الروض إلمام
لكن أرى الأرض، والهفاه، تمسكني	والريح تعليك: هذا الحظّ ظلاّم
إني سأعطيك من عرفي الجميل لكي	يعطّر الجوّ نشر منه نمّام
لا، لست أعطيك، إن الزهر يصحبني	وأنت يقصيك إنجاد وإتهام
رضيت عيشي وحدي في الرياض أرى	ظلّي وينعشني ضوء وإظلام
وتهربين فتأتين الضياء إذا	رأيت ناراً لها لمع وإضرام
في كل صبح بكائي دائم وعلى	خدّيّ من عبرات الفجر تسجام
آهِ لحبّكم الماضي الذي ذهبت	به ليالٍ سعيدات وأيام
خذي، كما لِيَ، جذراً أو هبي ورقي	جنحاً، كما لكِ، والآمال أوهام!

إنّ الهاشمي قد نظم رباعيات الخيام باللغة العربية جعلها خماسيّات واستند في نقلها الى ترجمة أحمد حامد الصرّاف النثرية، لكن ترجمته لا تتّسم بالدقة والسلاسة التي امتازت بها ترجمات عربية أخرى كترجمة الصافي النجفي وأحمد رامي. فمن أمثلة خياميّات الهاشمي:

يا الهي، إذا جنيت فإثمي
يا الهي، على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جرمي

أنا جانٍ رجوت عفواً وصفحاً   منك قد غرّه رضاك فجارا

جيئتي في الدّنيا أذىً واضطراب

وبقـــــــائي تحيّر وارتيـــــــاب

وبقسرٍ يكـــــــون منّي ذهـــــاب

أيّ قصـــد مـــن جيئـــة وبقــاء وذهـــاب؟ قـــد ضلّت الألبـــاب

من حضيض الثـرى الى حيثُ يبـدو

زحـل كلّ مشكـل فيـــــه عقــــد

لاح منــــــه في حيلتي لي رشـــــد

كـــلّ ســـرّ حلـــلت ثمّــة إلاّ أجل مـــا كشفتـــه عـــن خفـــاء

لم يـــر الخلــد واحـــد والسّعيرا

مـن أتـى مـن وراء مــــــوت صغيرا

أفــزع الموت والــرجـــاء صـــدورا

نـــازعـت مـــا يغيب عنهـــا ويخفـى غير ذكـــر الأســــماء والأوتــــار

سميراميس

نظم شـاعرنـا الهاشمي ملحمـة شعـرية عن سميراميـس بين الحقيقة والأسطـورة. وسميراميس ملكـة بـابل القديمـة حبيبـة الى الشعـراء، أثيرة لدى رجـال الفنّ، طـرق موضوعها غير واحد منهم. فهذا فولتير ينسج من حياتها رواية مسرحية مأساوية، وبول فاليري يصوغ منهـا مسرحية جديدة، وروسّيني يخرج عنها أوبرا موسيقيـة. وهذا بلند الحيدري صـاحب «خفقة الطين» يقول فيها قصيـدة تعجّ باللذة المحـرّمة والحبّ الآثم واللّظى المخمور والقشعريرة الداجية والضحكة المحمومة المغرية المغرّرة.

ويهيم بالملكـة الأسطوريـة عمر أبـو ريشة شاعـر سوريـة فيستوحي منهـا مسرحية شعرية هي قصة الحب والجمال والطيوف والأحلام، تقول سميراميس في مطلعها:

عبيرك يـــــا ليل وهـج الحيـــــاة فـــــــلا تتنفـس على مضجعي

بعثـت بـــــآخــــر مــــا تمتمت شفـــــاه الـــربيع على مسمعي

أحـسّ بـــــه رعشــــــة في دمي وحلماً جــــريحاً على مـــــدمعي

ألا أيـن بــــــدعــــــة حلمي إذا تـــرنّحـتُ بـــالقـــــدح المترع

وأيـن الصــــــدى لنـــــداء الحنين إذا عـــــربـــــد القلب في أضلعي

أريـــد . . . ودوني انهيـــار الفتـــون على كـــلّ ذي هيــــف ممتــــع

أما سميراميس الهاشمي فصحراء ممتدّة الأطراف تكتنفها الواحات والرياض.

ينظر الشاعر الى الوجود قبل الخليقة بمنظـار الأساطير البابلية، فإذا هو فراغ عظيم لا نور فيه ولا ظلام:

قبل خلق السماء والأرض كـــان الأب ‏ «أبســـو» هـــو الإلـــه العظيما
و «تيـامـات» الأم كـانت فكـان اثنـان ‏ لا مـن ثـــلاثـــة أقنـــومـــا
حين لا ليل في المكـــان ولا يـــوم ‏ ولا مجهـــولاً ولا معلـــومـــا
قيـل: لا شيء، قيـل: سرّ بعيـــــد ‏ مـن عماء أن لا نــــراه ســـديما
عـــدم مـن وجـــوده وهـــو صفـــر ‏ في فـــــــراغ لا يقبـل التقسيما
أهـــو نفـي، وكيف يـــدرك نفـي؟ ‏ أم ثبـــــوت، فما وعَـمَّ وفيـمَ؟

ثم كـانت الخليقـة وكـانت الآلهة وكـان الصراع والحرب. وكـانت بعـد ذلك بـابل وحمورابي ونينوس، وهذه سميراميس ترقى العرش فتخاطب شبح بعلها قائلة:

هَـــوِّنْ، وحسبك مني أنني امـــرأة ‏ لا يثقـل التـــاج أحـــلامي ويلهيني
نـم مطمئنــــاً فـإنّ الملك يشغلنـي ‏ عـن احتفــــال بتحسين وتــــزيين
يكفي النســـاء عبير يـــدّهـنّ بــه، ‏ وليـس إلاّ عبير المجـــــــد يكفينـي
إن الكيـــاســـة في الأنثى مظـــاهـرة ‏ جمالها تقلب الـــدنيـــا مع الـــدين
حـــوريـــة أنـــا لا غـــول نـــزلت بهم ‏ من عرش مردخ[1] ذي الخمسين أو «سين»[2]
ويشهــــدان بـأني غير قـــانعـــةٍ ‏ حتـــى أرى مصر في ملكـــي الى الصين
فأمـــلأ الأرض مـن حـــرب ومن ظفـــر ‏ ومـن ســـــــلام ومـن فتـح إلى حين

لكن الدسائس والمؤامرات لا تلبث أن تسري في أروقـة القصر الملكي فيقول الكاهن الأشوري:

إذا سكتـــــــــوا فعـــن داء دفينٍ ‏ وإن نطقـــوا عـــلانيـــةً فهلـكُ
يـــداهن بعضنـــا بعضـــاً ويحيـى ‏ حيـــاة الموت، إنّ الموت تَـــرْكُ
عـــزيـــز النفس ذلّ، وكـل حـــرّ ‏ لـــه عيش وراء العـــزّ ضنـك
وقيــــد الليث إن يصبرْ عليـــه ‏ يحصّ اللبـــــــدتين ولا يفـكّ
ومـــــا شـمّ الأذى أنـف حَمِيّ ‏ ولـــــو أن الأذى ورد ومسـك
ومـن حلم اللبيب مغـــامـــرات ‏ تـــدكّ بها الجبـــال ولا تـــدكّ
أرى بشريـــة تـــدمـى وهـــدر ‏ دم حـــرّ على يـــدهـــا وسفـك
وقل: كيـف الإقـــامـــة في بـــلاد ‏ مشقّـــة عيشهـــا معك ودعـك
وليـس الملك مـن تـــاج وعـــرش ‏ وحـــاشيـــة بل الأخـــلاق ملـك
صـــلاتـك للحســـام العضب ديـن ‏ وصـــومك عن مـــذاق الـــذلّ نسك

---

(١) مردخ إلـه بابلي.
(٢) «سين» القمر وهو «ود» عند العرب.

ويحلّ رأس السنة فيهرع أهل بابل للاحتفال بالمهرجان و إقامة طقوس العيد :

صبـــاح غـد عيــد وجــاءت وفــوده ... ليحتفلـــوا والـــوافــدون جموع

سما بهم شــــوق الى أمّ بـــابـل ... وغصّـت ديــــار منهـم وربــوع

وصفت جنـــود واستعـــدّت تحيّـــة ... فمنهـم سجـــود دونها وركــــوع

وآلهة في فلكهــــا ووفــــودهــــا ... أتـــوهــــا وكلٌّ ســـامـع ومطيع . . .

هنــا معـرض الـدنيا فما شئت فـاقتبس ... بـــروعـــاً، وآيـــات النبـــوغ بـــروع

فهـــذا يـــريك العلم كيف فنـــونـــه ... وهـــذا يـــريك السّحـــر كيف يـــروع

وهم زُمَـــرٌ والنـــاس فـــوضى بأنهم ... لكلٍ الى مـــا يشتهيـــه نـــزوع

وهـــزل وجـــدّ بـــالسيـوف وبـــالقنـــا ... ووثب وقفـــز تـــارةً ووقـــوع . . .

تشهد سميراميس مشاهد المهرجان فلا تني تقول :

ســـلام وحـبّ أيها البلـــد الخَصْبُ ... بحبّك فلتصبـــو القلـوب التي تصبـــو

على خير أرض فـــوقهـــا خير أمـــة ... إذا ذكـــرت بـــالمجـد قيـل لها : حَسْبُ

وجنّـــة عـــدن رافـــداهـــا وأرضهـــا ... بها النخل والكـــرم المعـــرّش والعشب

جـــــرى كل إقليـم اليهــــا بمائه ... لها الشرق مـن أنهارهـــا ولها الغـــرب

مفجّــــــرة الماءين في كـلّ بقعـــــة ... فتروى ويـــروي مـا بها مـاؤهـا العـذب

خصـــوبـــة صقع من زكـــاة تـــرابــه ... فـــلا القحط معهـود عليهـا ولا الجدب

وكـــالتّبر لـــون الماء جـــارٍ سبيكـــه ... وكنـــز عليهـــا الطين والـــرّمل والتّرب

وغـــاب نخيـل ســـابغ الظـل والجنى ... وفـــاكهـــة مـــا تشتهـي العين والقلب

ومـــا الشهـــد إلاّ تمرهـــا لـــو تـــذوقـــه ... لقلت : أشهـــد في الكـــوارة أم قسب . .

لكن الحياة لا تلبث أن تجور على الملكة فتبدّد أحلامها وتخيّب آمالها ، فتقول :

هــــذه حيرة الحيـــاة انتظـــــار ... يُـــذْكـــر المرءَ مـــا يكـــون وَيُنْسي

والأمـــــاني شعـــاعــــه في سراب ... مـن ضيـــــاء على ظهـــــور وطمس

لا تقل في الغنـــاء نغمـــة سعـــد ... إن تقـل في البكـــــاء أنّـــــه نحس

هـــذه الشمس كلهـم عبـدوهـــا ... وإذا مـــا انفـــردت أعبـــد نفسي

مَنْ دليلي على ابتكـــار؟ فقـد طـــال ... وقـــــوفي على قــــــرائح دُرْس

خـــذ إليك الكأس التي لـك واشرب ... فلغيري لا ينبغـي أخـــــــذ كـأسي

قتـل الأذكيـــاء مـــا وجـــدوه ... مـن فســـاد على النفـــوس ورجـس

حيّرتها دلائل الحرص حتّـــــــــــى ... عقـــدت حظهـــا بختم وكـــرسي

وكانت الخاتمة، فإذا نينياء الشاب يرقى عرش أمّه وإذا سميراميس الملكة المخلوعة تنسخ حمامة فتنوح قائلة:

صورٌ: برج له سبعته ... صور فيها رعايا وملوك
صور: يوم وأمس وغد ... وخيال وظنون وشكوك

وتقول القهرمانة ناناث:

آخر العهد كان في باب إيلا ... مسحت وجنتيك أنمل بيلا
خلعت ثوبها إليك وطارت ... بعد أن مسّها التراب قليلا
وأثارت في الأرض حرباً وسلماً ... وأطالت إقامة ورحيلا
الوداع، الوداع، أيّتها الأرض ... احتملنا عليك حملاً ثقيلا
إفتحوا لي باب السماء فبئست ... حفرة الأرض من سماءٍ بديلا

رشيد الهاشمي

محمّد رشيد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي، ولد في بغداد من أسرة فقه وأدب في سنة ١٨٩٦، ودرس اللغة العربية وآدابها على يد أخيه عبد المجيد، ولازم بعد ذلك محمود شكري الألوسي فأفاد من دروسه. ونظم الشعر، ومال الى الأدب، وآمن بالمبادىء القومية والوطنية، فقصد الحجاز سنة ١٩١٦ والتحق بالثورة. ثم شخص الى القاهرة في بداية سنة ١٩١٨. ومضى الى الشام عند تأسيس حكومتها العربية فعيّن كاتباً في المجمع العلمي العربي عند تأليفه سنة ١٩١٩.

عاد الى بغداد سنة ١٩٢٠، فعمل في ميدان الصحافة. وكان محرراً لجريدة «دجلة» التي أصدرها داود السعدي (٢٥ حزيران ١٩٢١) وجريدة «الرافدين» لصاحبها سامي خوندة، وقد صدرت في ١٦ أيلول ١٩٢١ ودامت الى ٢٤ آب ١٩٢٢. ونشر شعره وبحوثاً أدبية واجتماعية في مجلة اليقين التي أصدرها شقيقه محمد الهاشمي (١٩٢٢ ـ ٢٥). ونشرت مقالاته وقصائده في الجرائد العراقية كالعراق والاستقلال والفلاح والصحف الحجازية والسورية والمصرية كالقبلة والعقاب والمقطم والنور ولسان العرب والمفيد والنهضة الخ.

وغالى في تطرّفه فهجا الملك فيصل الأول وحكومته، وكان قبل ذلك قد مدحه حين إعتلائه العرش سنة ١٩٢١، فقال:

رقاك، يا عرش، من ترجو وتنتظر ... وزانك العلم لا الياقوت والدرر
يهنيك فيصلُ الجليل ومن ... في راحتي جدّه قد سبّح الحجر
يا ابن النبّي، وأحلى الشعر أصدقه، ... سيل المفاخر من واديك ينحدر
.... الخ.

إنتمى الى مدرسة الحقوق في أواخر سنة ١٩٢٢ ومكث فيها أربع سنوات، حتى إذا ما آن أوان التخرّج، أصيب برجّة عصبيّة فأودع مستشفى الأمراض العقلية حيث قضى نحواً من سبع عشرة سنة. وتوفي ببغداد في أوائل سنة ١٩٤٣. وقد رثاه أخوه محمد الهاشمي فقال:

قل لهم: ما وفاء حق الأديب؟	شغلوا عنك بالزمان العصيب
ليس داء الأعصاب فيك عياء	بل دليل القضاء عجز الطبيب
كلهم يسألون عنك وعنّي	فيقولون للدموع: أجيبي
ما افترقنا، وليس كالموت بُعْدٌ	فيه عهد القرب غير قريب
ونحيبي حزن عليك وشعر	وغناء الحزين صوت نحيب

وقد طبع ديوان رشيد الهاشمي سنة ١٩٦٤ بعناية عبد الله الجبوري ـ وصدّر بمقدمة لمحمد بهجت الأثري.

وقيل إن رشيد الهاشمي توفي في ١٥ تموز ١٩٤٦ في دار الشفاء ببغداد حيث قضى الـ ١٩ سنة الأخيرة من حياته لمسّ أصابه في عقله.

مأساة النبوغ:

إن النبوغ إذا اقترن بإرهاف الحسّ ورقة الشعور، وامتحن بالحرمان والفشل والجحود، وصهر في بودقة ألم النفس وعذاب الجسم، كثيراً ما يدفع بصاحبه الى الإرهاق العصبّي والجنون أو الموت. وقد سجل التاريخ الأدبيّ فواجع رهيبة في إطار من البؤس والهوان والرثاثة والدم: فهذا الفيلسوف المتصوّف أبو حيّان التوحيدي الذي اتّهم بالزندقة ولقي من العنف والاضطهاد ما حمله على إحراق مؤلفاته واستتاره عن الوزير المهلبي الذي ألحّ في طلبه، حتى مات في نحو سنة ١٠١٠م.

وهذا الشاعر الإنكليزي توماس شاترتون (١٧٥٢ ــ ١٧٧٠)، رأى نور الحياة يتيم الأب، وتمرّغ في أوحال الفاقة والجوع والحرمان، حتى إذا ما غلب عليه القنوط، مزّق آثاره المخطوطة وتناول السمّ في ربيعه الثامن عشر. كان شعره يفيض باللوعة والمرارة، دعا القارىء الى البكاء معه، فقد مات حبّه تحت شجرة الصفصاف. كان حبّه فاحم الشعر كليل الشتاء، أبيض البشرة كثلج الصيف، أحمر الخدّ كضوء الصباح، وهو يرقد الآن بارد الجسم في حفرة القبر.

وتصّور الحرية ترتدي معطفاً ملوّثاً بالدماء، وقد كلّل رأسها بالأعشاب البرّية.

وذلك الشاعر الفرنسي هيجيسيب مورو (١٨١٠ ــ ١٨٣٨) قضى الحياة هائماً شريداً، وعمل ممرّضاً في أثناء تفشّي وافدة الهيضة في باريس سنة ١٨٣٢ سداً لرمقه. باع شعره لبعض الناشرين بدريهمات معدودة، وانتهى به المطاف الى ملجأ حيث وجد

الراحة أخيراً في الموت. قال في بعض قصائده: «لقد كنت تلميذاً فقيراً حالماً غريب الأطوار، ولكم نثرت فتات الخبز لطير الشاطىء فقال لي الماء: تمسّك بأهداب الأمل، فإنّ الله سوف يعيد لك خبزك! لكنّ الله لا يزال مديناً لي به».

وماذا عن جيرار دي نرفال الأديب الشاعر (١٨٠٨ ـ ١٨٥٥) الذي هام بفاوست، رواية غوتي، ونقلها الى اللغة الفرنسية بما يكتنفها من سحر وإغراء وظلمات جهنميّة؟ لقد ألم بشيء من العربية والفارسية، وانصرف الى قراءة كتب التصوّف وما وراء الطبيعة، وهام على وجهه في القسطنطينية وربوع سوريّة وجبل الدروز. وزادت هواجسه يوماً بعد يوم، واستغرق في لجج مظلمة بعيدة الغور من الرؤى والآمال، حتى انتهى به المطاف الى مصحّ للأمراض العقلية. وفي مساء يوم قارس البرد، وجد مشنوقاً في شبّاك بعض الدور المنزوية بأحد الأزقة الباريسية. لقد انتحر ذلك الشاعر الذي يقول: «إنني فتى الظلام الثاكل الذي لا يعرف السلّوان، أنا الأمير الذي هدمت قلعته. أفل نجمي الوحيد، وصدح قيثاري بأنغام الشمس السوداء والملنخولياء...».

ومأساة الشاعر الأديب المرهف الحسّ محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) ابن العلامة أحمد تيمور باشا أشهر من أن تعرّف: فقد ضاق ذرعاً ببيئته الأرستقراطية وعزف عن دراسة الطب، ثم احترف التمثيل وخالط المحافل الأدبية والفنية. ألحّ عليه المرض فقال:

هيّئوا لي في باطن الأرض قبرا	ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي	ومن النور شقوتي وعذابي...

وقضى في ميعة الشباب.

وذلك الشاعر المصريّ أحمد العاصي (١٩٠٣ ـ ١٩٣٠) الذي قال فيه شوقي:

هذا شباب الشعر يلمح ماؤه	من جدول العاصي ومن ديوانه

مرض بداء الصدر وعاش متبرماً بالحياة، غلبته هواجسه فأغلق نوافذ حجرته في مسكنه بالقاهرة وصبّ على نفسه مادة كاوية أودت بحياته.

والأديب الغريب إسماعيل أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) الذي اختلف الناس في سيرته ودراسته، نبغ في الرياضيات وألف في التاريخ الإسلامي والزهاوي الشاعر والإلحاد ونظرية النسبية وعلم الأنساب. أضناه داء السلّ، فلم يجد خيراً من الانتحار غرقاً في ساحل الإسكندرية اللازورديّ.

والشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي (١٩٠٢ ــ ١٩٦٢) رأيناه بيننا غريب الأطوار، عجيب الأخبار، يجمع العنف الى الطيبة وسلامة الطويّة، ويمزج الورع الشديد بالتصوّف والتحلّل، يحبّ الناس حباً أفلاطونياً خالصاً ويحتقرهم ويسيء الظنّ بهم في آن واحد. ولقد طالما شهدناه يجلس في المقهى أو يسير في الشارع متثاقل الخطوات وقد أطلق لحيته وتهدّل شعره على كتفيه ورثّت ملابسه، وهو يحدّق في الفضاء ويرسل الى اللانهاية نظرات شاردة جوفاء.

أما شاعرنا رشيد الهاشمي فقد توفي والده وهو يدلف الى التاسعة، فتركه لرعاية أخويه الكبيرين، ونشأ مرهف الحسّ ثائراً تتوقد بين أضالعه النار وتنطلق في ذهنه العواصف. إنتمى الى الجمعيات السرية الوطنية، وهجا الأتراك مرّ الهجاء. ورغب في التطوّع للقتال في صفوف جيش الثورة الحجازية، ونطق بالشعر الحماسيّ الذي يلهب النفوس ويثير الهمم والعزائم.

رافقته المصائب والأحزان منذ طفولته فخاطبها قائلاً:

نوب الليالي، خفّفي، أو ما سمعت تأفّفي؟
رافقتني طفلاً، وذا زمن الصّبا، فتخلّفي...

ثم تمرّد وقال:

زيدي عداءك، إنّ نور قريحتي لا يختفي
لا تحسبي أني أذلّ ونار عزمي تنطفي

وعاش رهين أسرين فقال:

بين أسرين عشت عيش اضطرار خاضعاً للأجسام والأقدار
تلك للروح قد قضت بالأسار والأخيرات حيّرت أفكاري:
ما نجاتي، وأين أين قراري؟

ظلمات الضلوع تزعج قلبي هي كالليل لا يضيء بشهب
غير أني لما شعرت بحبّ قلت: رفقاً بقلب عبدك، ربّ،
كلّ حبّ مخفّف أكداري

آمن الشاعر بالحبّ شعاعاً لمعنى الجمال والخلود، لكن الشكوك ساورته: ما مغزى الحياة، وما الفكر، وما أسرار الوجود؟

يا نياماً تحت التراب، إلا ما لا تحيرون عن سؤالي كلاما؟
أضياءاً رأيتم أم ظلاماً أم رأيتم في نومكم أحلاماً؟
لا تناموا، قد لاح ضوء النّهار.

وقد راعه حال أمته وما بلغته من جهل واستكانة فقال:

يا نائمين على جور الهوان، كفى ذلّ يغادر صدر الحرّ موقودا
هبّوا وذبّوا عن استقلالكم بظبىً تخلّف الدهر مضنى القلب معمودا
لا بدّ للعرب أن تحيا بوحدتها وأن ترى تاجها للكف موسودا

وهاج بلابله الليل البهيم فحدّثه قائلاً:

أيها الليل، يا أبا الأسحار، أين زهر النجوم والأقمار؟

كـــان للبـــدر في ســـوادك ضـــوء — مـــلأ الخافقين بـــالأنـــوار

كنت، يـــا ليل، عبــده، ولقــد كــان — مليكـــاً لـــه النجـــوم جـــواري

كـــان يـــوليك رحمة وحنـــانـــاً — كـــان يكســـوك حلّـــة الأحـــرار

ويشعر، وهو الشـاعر الشابّ الذي لا حـول له ولا طول، كأنـه مسؤول عمّا آل إليه أمر أمته وبلاده، فيقول:

دافعـت عن حق قـــومي حيث أنهمُ — قـــد قلّـــدوني هـــاتيك المقـــاليـــدا

بمنطـق تـــــرك الأسماع واعيـــــة — والـــروح تطلب منيّ فيـــه تـــرديـــدا

إنّـــا لقـــوم ورثنـــا الفضـل من قـــدم — والحلـم والعلم والإخـــــلاص والجودا

جَـدّي الـــذي قهـر التيجـان قـاطبـةً — وشـــاد للعـــرب ملكـــاً ليس محدودا

إنّـــا هجمنـــا على كسرى ودولتـــه — وبـــدّدت خيلنـــا الأروام تبـــديـــدا

ويعيد النظر في حال بلاده فيصيح:

يـــا للـــرجـــال ويـــا للصيـــد من مُضَرٍ — ضـــاع العـــزيـــزان: ديـن الله والحسبُ

أين الحميّـــة، بل أين الشهـــامـــة، بل — أين الشجـــاعـــة والهنـــديـــة القضب؟

أين الأُلَى تـــزأر الـــدنيـــا إذا زأروا — ويغضب الله والأمـــلاك إن غضبـــوا؟ . .

بغـــداد بـــاكيـــة، والشـــام شـــاكيـــة، — والقـــدس مـــرتهب للشرّ مـــرتقب

لا تبخلنّ بـــروحٍ أنت حـــاملهـــا — فـــالموت، يـــا شهم، في نيل العُلَى ضَرَبُ

ويغضب أخيراً ويثـور فيخاطب ملك العـراق خطابـاً شديـداً ويعاتبـه عتابـاً مراً، فيقول:

يـــا لابس التـــاج في بغـــداد هُنِّتَـــا — بـــه، إذا كنـت لاستقـــلالـــه جيتـــا

لا يكمل التـــاج إلاّ أن يكـــون لـــه — جيش يشتّـت شمل الـــذلّ تشتيتـــا

فـــزنـــه بـــالحقّ والعـــدل الأعمّ، ولا — تـــرصع لـــزينتـــه دراً ويـــاقـــوتـــا

واستعمل الحزم وانقـــذ أمـــة نصبت — من بعـــد نهضتهـــا لـــذلّ طـــاغـــوتـــا

نحن الـــذيـن بنينـــا في جماجمنـــا — عـــرش المليـك وثبتنـــاه تثبيتـــا

شيخ الـــوزارة ميـت لا حـــراك بـــه — إن جئت مجلســـه تلقـــاه تـــابـــوتـــا

طغت الهواجس على نفس الشـاعر وجثمت على صـدره كـالليل الرهيب، فنـاء بها جسمه الواهن ولم تحتملهـا أعصابه المرهقة. وكذلك ذُهِبَ بلبّه وطُـوِّح بعقله، وعاش بقيّة عمره في فراغ ذهني، حتى انتقل من ضباب الخبل الى ظلمة الموت.

* * *

في تقرير سرّي للآنسة جرتـرود بل كتبته إثر زيارتها لسورية في تشرين الأول ١٩١٩، حين كـان الأمير فيصل يرأس الحكـم في دمشق، قالت إنها استـدعت رشيـد الهاشمي

الذي كانت تعرفه في بغداد، ثم مضى فجأة الى الشام. قال لها إنه فرَّ من العراق بعد اتهام أخ له بالاتصال بالأتراك.

قالت المس بل إن رشيد وأخاه محمد الهاشمي مناوئان بشدة للأوروبيين، ورشيد يعمل سكرتيراً لياسين الهاشمي. وقد خطب قبل أسابيع فقال إن دجلة ستجري دماً، ولم يصرّح أهو دم عربي أو بريطاني. وعلى أثر ذلك أمر علي رضا باشا الركابي حاكم دمشق بالقبض عليه وسجنه أمداً قصيراً. وقد بدأت علاقة رشيد بالبريطانيين سنة ١٩١٦ في البصرة جاءها هارباً من الترك، فمنحه الإنكليز مخصصات الى ما بعد سقوط بغداد. . .

ولم يحصل بعد ذلك على وظيفة لأن عقله ـ كما قالت المس بل ـ لم يكن ثابتاً وظهر لها كأنه «ضئيل المسؤولية».

إبراهيم منيب الباجه جي

الشاعر إبراهيم منيب الباجه جي ينتمي الى الأسرة الباجه جية المعروفة، وهو ابن أحمد بن محمد سليم بن عبد الرحمن. ولد في بغداد في سنة ١٨٧٦، وأحسن والده تربيته وتعليمه. ثم أدخل إحدى المدارس الابتدائية عهداً قصيراً، ووضع بعد ذلك في دائرة تحرير ولاية بغداد للتمرّن على الأعمال الكتابية (١٨٨٩). وتقدم في سلك الخدمة، ومهر في النظم والنثر باللغتين العربية والتركية. واستقال من الوظيفة سنة ١٨٩٦، وسافر الى استانبول، ثم عاد منها واستأنف العمل في دائرة الولاية (١٩٠٠)، وعيّن أخيراً معاون رئيس التحرير في إدارة الأملاك السّنية.

كان ابراهيم منيب من فتيان زمانه المولعين بالخيل واللهو والغناء. وقد أطلق الرصاص على بعض شباب الملاهي سنة ١٩٠٧، فحكم عليه بالسجن. وسجّل معروف الرصافي تلك الحادثة ـ التي قامت لها بغداد وقعدت ـ شعراً في قصيدة رثى بها القتيل وبرّر فعل القاتل، وقال:

قضى، والليل معتكر بهيم، ولا أهل لديه ولا حميمُ

وأصدر بعد ذلك جريدة أدبية باسم «الرياحين» في ٢٨ آذار ١٩١٣.

واحتلّ الإنكليز بغداد فعيّن إبراهيم منيب مفتشاً في دائرة الشرطة (١٩١٧) أمداً وجيزاً، ثم عيّن كاتباً في وزارة الدفاع (١٩٢١). وأحيل على التقاعد في آخر آذار ١٩٣٧، ثم أعيد استخدامه في تموز من نفس العام لعهد غير طويل.

وتوفي في بغداد في ١١ حزيران ١٩٤٨.

مؤلفاته وشعره :

وضع رسالتين في «التبصرة لمولعي الخمرة» و «نزهة الأحداق في مباحث السباق»، ورسالة ثالثة باللغة التركية عن رحلته الى الإستانة .

وطبع ديوانه الأول سنة ١٩١٣ ، ثم طبع مجموعة ثانية من شعره باسم «زنابق الحقل» (١٩٣٨) .

ويتسّم شعره بالرقّة والسّهولة ، ويزخر بالمعاني التقليدية والأفكار السائدة في عصره، فقلّما تجد فيه ابتكاراً أو التماعة ذهنية .

نظر شاعرنا الى طاق كسرى فقال :

بنــــاء شــــاده ملك كبير	دعــائمــه العـــدالـــة لا الصخـــور
تســامى مشمخــراً بــارتفــاع	لـــديـــه كلّ ذي طـــولٍ قصير
كـأني بــالسماء عليـــه شيـــدت	كطـــاقٍ حـــولـــه الآفـــاق سُـــورُ
تفـــرّد في الفــــلاة ولا أنيس	ولا خـلّ لـــــديـــــه ولا سمير
تعــالجه الـــزعـــازع وهـــو رآسٍ	كطـــود لا يـــزول ولا يمـــور
فكـم عصر تقضّـى بعـــــد عصر	ومـــا أبلت معـــالمه العصـــور
ومـــا قـد كـان شيّــد فـوق عـدلٍ	فـــلا تبلي معـــاليـــه الـــدهـــور

ونزعت به نفسه الى المعالي فقال :

طلبت العلى، لا بــالحســام المهنّــد	ولكن بـــرأي كـــالسّهـــام مســـدّد
فـأدركتـــــه حتى ملكـت قيـــــاده	وأصبح عنــدي وهــو واحــد أعبـدي
لقـــد رام إذلالي العـــداة بكيـــدهم	وهيهـــــات من إذلال أروعَ أصيـــد
فإني، وإن أمسيت في السجـن غـاربـاً،	سأشرق بعــد اليـوم كـالشمس في غـدِ
ولا بأس أن أصبحت كــالسيف مغمـداً	فكل حســام إن مضى الحرب يغمـــد
ومـــا ضرّني سجني وتقييــــد أرجلي	فعضب لســـاني مطلق دون حُسَّــــدي

حدت به تجاربه في الحياة على العزلة والانفراد فقال :

تجرّد مـــا استطعـت وعـش وحيـــدا	إذا مـــا رمـت أن تحيـــا سعيـــدا
أرى الإنســــان في دنيـــاه يشقـى	إذا هـــو لم يعش فيهـــا فـــريـــدا

وقال على لسان طاق كسرى :

يـــد الأيـــام لم تعبث بمثلي	وإن أضحـت دوائرهـــا تـــدور
ولكـن قــد رأيـت العـــدل ولى	وحــلّ محلّـــــــه الظلـم الكبير
فملت الى التـــزهّـــد بـانفـــرادي ،	ومثلي يفعـل الــــــرجـل البصير

وشعره طافح بالمعاني الإنسانية، فهو يحبّ أمه ويقول:

ولــدت خليــاً لست أدري بما عنــدي ولم أدر مــا همّي ولم أدرِ مــا قصــدي
فـأوّل شيء حــلّ قلبي محبّـــــة لأمي التي لم تنأى عنّي مــــا يجدي
يـــلاطفني منهـــا حنـــان ولم يكن يقــابلــه مني ســوى الضحك في المهــد
وذاك لـــديها نعمـــة عـــزّ مثلهـــا تـــراقبهـــا منّي ببـــاصرة الحمـــد.

وهو في قصيدته «في سبيل البؤساء» يأسى للبشرية المتألّمة ويقول:

وافى بـــــدمع ذارف هتّــــانِ يشكـــو الـــزمـــان وقســـوة الخلاّن
شيخ مـــلامح وجهـــه دلّـت على مـــاضي وجـــاهتـــه بكـلّ معـــاني
وعليـــه أطمار تـــراهـــا رقّعت من فقـــره بغـــرائب الألـــوان
يمشي فتـــوقفـــه طـــوارىء ضعفـــه متعكّـــزاً عـــوداً من العيـــدان
والـــوجـــه منـــه قـــد علتـــه صفـــرة تحكي هنـــالـك صفـــرة اليرقـــان

وقف الشيخ يسأل ذليلاً وهو يتضوّر جوعاً، فأخذه الشاعـر الى داره وأتاه بأطايب المأكل والمشرب. ثم استعلم عن حـاله فقال إنـه عاش ستين عامـاً هانئـاً سعيداً، ثم تـوالت عليـه المصائب، فبـارت تجارتـه وبقي بـلا مال ولا ولـد ولا سكن، ونأى عنـه الصحّاب حتى لقد تمنّى الموت فلم يسعفه الموت:

مـــا لي أرى الإنســـان يقســو قلبـــه تلقـــاء رقّـــة دمعـــة الإنســـان؟
مـــا لي أرى الإنســـان لم يعطف على حـــال الفقير البـــائس الحيران
أُفٍ لقلـب لم يـــــرقّ لبــــائس لهواً مـن الــدنيـــا بعيشٍ فــــان

وهو مولع بـالقصص الشعري، ففي قصيدته «إقبال وادبار» يـروي قصة فتاة هيفاء جميلة من الأعراب، نشأت في عز وحشمة بين أبيهـا وأمّها. ثم قضى الأب وقد فتك به خنجـر ظالم شرّيـر أراد خطف فتاتـه. ولم يمض وقت طويل حتى قضت الفتـاة حزنـاً وأسى، فشيّعهـا الشاعـر الى القبر أسيفـاً. وشاء أن يكمـل خطوط المأسـاة فجعل الأم تلقي بنفسها في بئر قريبة من تربة ابنتها، فدفنوا الثلاثة جنباً الى جنب.

إن شعر إبـراهيم منيب يطفح بالألم، لكنـه يذكر أحيـاناً لهو شبابـه وأنسه فيحن الى أيامه السّالفات ويقول:

رعى الله ســاعـات تقضّت من العمـر بـدجلـة، والأرجـاء تـزهـر بـالبـدر
وزورقنـــــا إذ ذاك طيراً تخالـــه يمـدّ جنـاحيـه مـن الشـوق كـالنّسر
ودجلـــة تجري في مــذاب مفضّض يمازجـــه ضـــوء المقـــاصير بـــالتّبر
يـــلاعبـــه نفح النسيم فتنجلي مـــويجاتـــه عـن نسج درع من الـــدرّ
ويطـــرب سمعي من بعيـــد خـريـــره إذا انحـطّ من عـــالٍ الى أسفلٍ يجري

وتغرق الباخرة «تيتانيك» سنة ١٩١٢، فيتبارى شعراء العراق في رثائها. ويدلي شاعرنا دلوه في الدلاء فيقول:

سرت والبـــدر في أفق السّماء — يســاريها بأجنحـة الضيــاء
سبوح تزدري بالبــدر زهــواً — منــوّرة بنــور الكهــربــاء...
ولما أن نــأت عــن كــل أرض — ولم تــرَ غير آفــاق السّماء
أتــاهــا تحت طيّ الماء طــود — يطــوف من الجليــد على عماء
فشتّت شملهــا الموصــول قسراً — الى مــا غير وصلٍ والتقــاء
وأغــرقهــا بمن فيهــا ســوى مَنْ — تــوصّل بالسّــلامــة للنّجــاء
وأمســت وهــي راسيــة بقعــر — مـن الظلماء من بعــد الــزّهــاء
على حين الكــواكــب زاهــرات — ووجــه البحــر يشرق بــالضيــاء

وكذلك الحياة الى فناء، والكواكب زاهية والطبيعة ضاحكة:

فــلا عيــش يــدوم ولا صفــاء، — وهــل بعــد الحيــاة ســوى الفنــاء؟

حدثني أحمد حامد الصّراف قال: كان إبراهيم منيب الباجه جي مولعاً بالسباق لا يفوته يوم من أيامه. وكان حلاّقه يشاركه نفس الهواية، فلقيه يوماً في الحلبة وسأله عن الحصان الفائز ليراهن عليه، ودلّه إبراهيم منيب على حصان أو حصانين فلم تصدق فراسته.

وفي صباح اليوم الثاني مضى الشاعر كعادته الى دكان الحلاق وجلس على الكرسي ليحلق ذقنه. وسلّم عليه صاحبه هاشاً باشاً. وشدّ الفوطة على صدره، ووضع على وجهه الصابون ثم قال:

يا أستاذ، لم تصدقني البارحة في ساحة السباق. لقد دللتني على الخيل الخاسرة وراهنت على الفرس «الصقلاوية» التي فازت فربحت مبلغاً جسيماً.

واعتذر الباجه جي بأنه إنّما دلّه على الخيل المعروفة، أما «الصقلاوية» التي راهن عليها ففازت مصادفة، وهو ما يعرف في اصطلاح أهل السباق بـ «فلوك» أي حظّ.

ولم يقنع الحلاق بهذا الجواب، بل ظلّ يجمجم ويدمدم، وصاح: يا غلام، هات الموسى «الصقلاوية» لنحلق وجه الأستاذ. قال ذلك وهو يفرك وجهه بالصابون بحركة عصبية.

وبادر الباجه جي فنزع الفوطة وقام من الكرسي وجرى قائلاً: عفواً، لقد نسيت أمراً مهماً ويجب أن أعود الى الدار. وخرج الى الشارع راكضاً لا يبالي بالصابون الذي يلطخ وجهه.

قال الصراف: رأيته مضطرباً فهدأت من روعه وقلت له: ماذا دهاك، ولم هذا الخوف؟

فأجاب: رأيت الشرّ في عيني الحلاق وحركاته فنجوت بنفسي. ولو ذبحني بالموسى لرقدت تحت التراب مضرّجاً بدمي، مستعجلاً قدري، مبتدراً منيّتي. وهل كان يعزيني أو يخفّف عني أن يقبض على الحلاق ويحاكم ويلقى به في غيابه السجن؟

من شعر إبراهيم منيب الباجه جي

حماسة لا سياسة:

طلبت العلى، لا بالحسام المهنّد ... ولكن برأي كالسهام مسدّد
فأدركته حتى ملكت قياده ... وأصبح عندي وهو واحد أعبدي
لقد رام إذلالي اللئام عداوةً ... وهيهات من إذلال أروعَ أصيد
فإني، وإن أمسيت في السجن غارباً، ... سأشرق بعد اليوم كالشمس في غد
ولا بأس أن أصبحت كالسيف مغمداً ... فكل حسام إن مضى الحرب يغمدِ
وما ضرّني سجني وتقييد أرجلي ... فعضب لساني مطلق دون حُسدّي
فإنّ يراعي مفلق وفعاله ... لدى الحرب أمضى من فعال المهنّد
وإني بآرائي على الرغم منهُمُ ... بنيت مقاماً فوق نسر وفرقد
فإن يقدروا فليهدموا ما بنيته ... وأنّى لهم لمس الكواكب باليد
سيعرفني قومي إذا سلّ صارمي ... وراح جوادي سابقاً كلّ أجود
فإنّي مقدام وفارس نجدة ... إذا الحرب شبّت كنت أوّل منجد
وإني كطود في الثبات لدى الوغى ... وإن ماد سطح الأرض لم أتميّد
وإني ذو سلم لكل مسالم ... وحرب لأعدائي ولست بمعتدي
وإني أراعي للصديق ذمامه ... كراعي السُّهَى وجداً بجفن مسهّد
وإني على عهد الصديق محافظ ... وإن خان يوماً لم يخنه تودّدي
وإني مقيل للكريم عثاره ... إذا جاء في ذنب بغير تعمّد
وإني حليم دون ذي الجهل عالماً ... بأنّي إن أغفر له الذنب أُحْمَدِ
وهذا يراعي ناطق عن حقيقتي ... ومالي سواه من فخار وسؤدد

قضى الباجه جي في السجن أعواماً حتى أطلق سراحه بعفو سلطاني سنة ١٩١٣. ومما قاله في الحبس عند نشوب حرب طرابلس:

وذي عزمات أوقفته الموانع ... فظلّ يدكّ الأرض وهو يمانع
يروم حراباً بين مشتبك القنا ... لنصر ربوع زعزعتها الزعازع
فيمنعه سدّ فيفزع صارخاً ... وتنهلّ مثل السّحب منه المدامع
يروم السُّرى نصراً إليها بنفسه ... ولكنّها سدّت عليه الشوارع
لقد سدّها كفّ من الدهر ظالم ... فأقعده عمّا نوى وهو جازع

وقال في السجن أيضاً :

أمـا والـذي في صنعه حيّر الفكـرا	لفي السجن ما ينسي القيامة والحشرا
تـرى النـاس فيـه في ازدحـام وضجّـة	فمـن مـرتـجٍ يسراً ومن مشتكٍ عسرا
يقـاسـون أنـواع الهوان بمـوقف	تحكّم فيـه العبـد واستعبـد الحرّا
ولا تحسبنّ القبر أقـوى مـرارةً	من السجـن، لا لا والـذي فلق البحـرا

فاضل الصيدلي

الشاعر فاضل حامد المعروف بالصيدلي، ولد في الموصل سنة ۱۸۸۲ ، وتعلّم الصيدلة في استانبول دار الخلافة. ودرس اللغات العربية والتركية والفارسية والكردية وشدا شيئاً من الفرنسية.

وقد عيّن صيدلياً في نجد، ثم عاد الى العراق، فأسندت إليه وظيفة كتابية في بغداد، واختير من بعد مديراً لبعض نواحي قضاء سنجار. وعيّن في المعهد الوطني مفتشاً صحياً في الموصل، وعمل صيدلياً في الجيش في الموصل وبغداد وكركوك والسليمانية، حتى استقال في سنة ١٩٢٧ . وعيّن كاتباً للضبط في مجلس الأعيان (١٩٢٨)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٣٣ . وعاد الى الموصل ملازماً للعزلة، منصرفاً الى الشعر والأدب حتى توفي فيها في ۲۰ تشرين الثاني ١٩٤٩ .

مال فاضل الصيدلي الى الشعر يافعاً. وأصدر في سنة ۱۹۱۱ كرّاساً باسم «بدائع الأفكار» باللغتين العربية والتركية. ونشر ديوان شعره في دمشق بعنوان «هدية الأحرار» (١٩٢٧)، ونظم بعد ذلك شعراً كثيراً لم ينتظم في مجموعة. وكان له شعر غزليّ كثير أحرقه حين اعتنق مذهب التصوّف.

قال فيه إبراهيم الواعظ: «تعرّفت به فعرفت فيه الروح الأبيّ والوطني المجاهد والأديب الكامل والشاعر الذي أخلص لأمته ووطنه إخلاصاً منقطع النظير».

وقال عنه ذو النون أيّوب: «. . . مؤمن متديّن الى حدّ التعصّب، متزمّت متمسّك بالقوالب الأخلاقية تمسّكاً لا يقبل تأويلاً ولا تعليلاً، كاره للتجديد الذي يجد فيه كل الجراثيم التي سبّبت انهيار هذا المجتمع وتفسّخه السياسي والاجتماعي والأخلاقي، وذلك طبيعي جداً عند من حبس نفسه في داره بعد أن يئس من إمكان تبديل الفاسد وتقويم ما اعوجّ من أمر هذا البلد».

وقال محمد توفيق حسين أستاذ التاريخ العربي في جامعة بيروت الأميركية: «ولم يسعد في حياته العائلية فحوّل حياة العائلة كلها شقاءً. ولم يسعد في حياته العاملة فانسحب من معترك الحياة مخفقاً بائساً. ولم يسعد في آماله الأدبية. . . ورأى آماله في

الحياة وآراءه الدينية والوطنية تتهاوى مندحرة، فحزن وابتأس وعاش شقياً».

وقال مجيد شوقي البكري في تقديم ديوانه «هدية الأحرار»: «فهو لم يكتب إلا ما شعر ولم يعرب إلا عن هاجس، وما انقاد في كل ما كتب، (اللهم غير الغزل والنسيب اللذين هما مسرح الخيال وفاكهة الشعراء) إلا لإحساسه وقلبه السليم. وليس له رائد إلا الإخلاص، ولا قصد إلا وجه الله وخدمة الوطن والدين فالأخلاق فالانسانية».

شعره

كان فاضل الصيدلي من أوائل شعراء الموصل الذين تأثروا بالنهضة الأدبية الحديثة، فترك الأساليب القديمة وسار على نهج الزهاوي والرصافي وحافظ وشوقي وأندادهم. وقد نظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية، واستنهض الهمم المتقاعسة، ووصف الأدوية والقطار والسيّارة والسينما وكرة القدم. ووضع الأشعار الروائية على لسان المعتصم وموسى بن نصير والمقوقس صاحب مصر والأرمانوسة وعمرو بن العاص وغيرهم من الشخوص التمثيلية.

وقد عدّ الصيدلي رسالة الشعر رسالة خلق وهداية فقال:

ألا إن شعراً ليس يدعو الى هدى ... فذلك شعر لا يقام له وَزْنُ

لكن بيانه كثيراً ما يقصر عن شأو شعراء النهضة الحديثة البارزين.

رأى أهوال الحرب العظمى التي فتكت بالبشرية سنة ١٩١٤ فقال:

لقد فاجأتنا بالمصائب والردى ... ليالٍ تردّت بالمكايد والغدر
فليت الذي قد حلّ فينا من العنا ... بأعدائنا، بل بالليالي وبالدهر
فيا ليت شعري، ما يكون مصيرنا ... وماذا لنا قد أضمر الدهر من نُكُرِ؟
فإن كان خيراً فالمراد، ولم أخل، ... وإن كان شراً فالزمان أبو الشرّ
وإنّا لفي يوم تشيب لهوله ... نواصي الرزايا السّود لو أنّها تدري
وإنّا بهذا اليوم في وسط لجّة ... فإمّا الى قعر وإمّا الى قفر
وإمّا حياة بعد موت مريئة ... وإلاّ فمن قبل الممات الى القبر

وأنكر على الإنسان عدوانه على أخيه الإنسان وخوضه غمار الحرب الطاحنة فقال:

ألا هل ترى الإنسان قد فقد اللُّبّا ... إذ اختار غير الخير واستهل الصّعبا
طغى فبغى واستبدل الغيّ بالهدى ... فجرّ على أبنائه الويل والكربا
لماذا، لماذا ذي الرجال تطاحنت، ... وما ذنب هاتيك النساء التي تُسْبَى؟
لِمَ البغي والعدوان في غير طائلٍ؟ ... ألا شاه وجه الحرص كم أمّة أصبى...

ونعى على المجتمع ضعة الأخلاق ورواج النفاق فقال:

شكـــوت لصـــاحب إدبـــار حظّي — لــدى أهل الـــزمـــان، وكـــان حـــاذق

وقلت لـــه: اهـــدني، جـــوزيت خيراً، — الى نهج السلـــوك، فقـــال: نـــافق!

فجئت الســـوق، ســـوق العصر، أبغي — نفـــاقـــاً أشتريـــه ولـــو بـــدانق

رأيت النـــاس قـــد حـــامـــوا عليـــه — جميعـــاً بين مسبـــوق وســـابـق

فلـم أظفـــر بشيء منـــه، لكن — تيقّنت النفـــاق اليـــومَ نـــافـق

وقد آمن بالعزة، والإباء والكرامة، فلنستمع إليه يقول:

إنما العيش عـــزة وإبـــاءُ — وعلى العيش دون ذَيْـن العفـــاء

والـــذي يبتغي الحيـــاة صفـــاءً — ليس تطفي أوامـــه الاقـــذاءُ...

فحيـــاة الانســـان علم وعـــز — وحيـــاة الانعـــام تبن ومـــاءُ

ومـــا لـــذّة الحيـــاة في مـــذهبـــه؟

لـــذة العيـــش صحـــة وشبـــاب — واقتنـــاع مـع التقى وكتـــاب

وكفـــاف وكـــفء زوج لهـــا مـــن — نعمـــة العلـــم والخـــلاق نصـــاب

وقد هوى الشعر فقال:

إني ليطـــربني السماع فـأسكـــر — ويـــروقني نظـــر الجمال فـأشعـــر

ويميـل قلبي للغـــرام مـع الصبـــا — فـأروح نشـــوانـــاً بـــه أتبختر

فـــالشعـــر لهوي والمحـــاسن لـــذتي — والصـــوت كأسي لست عنـــه أصبر

فـأظل أشـــدو كـــالهزار مغـــرداً — بـــرقيق وصـف كـــالمدامـــة يقطـــر

ودعا الى العلم والنهوض فقال:

طـــلول العلـم والعـــصر الخـــوالي — ويـــا عهـد المفـــاخـــر والمعـــالي

ألا يـــومـــاً لنـــا بـــين الليـــالي — رجـــاء في تـــلاقٍ كـــالمحـــال

فيرجع فيـــك جـــيد العيـــش حـــالي؟

وصـــالاً منك، يـــا علم، جـــديـــدا — وعـــد عَـــوْداً ولا تَعـــدِ الـــوعـــودا

بحقـــك لا تضـع فيـــك النشيـــدا — وبـــدّل نحس طـــالعنـــا سعـــودا

فنـــدرك صبحنـــا قبل الـــزوال...

بهجرك شرقنا أمسى ظلاما وأضحى الغرب فيك لنا إماما

مشينا القهقرى ومشى أماما ويا ليت اقتدينا حين قاما

لسعي فيه قد بلغ المعالي . . .

متى هذا العراق يقرّ عينا ونجلو عن نُهانا فيك رَيْنا

فبادر قبل أن يُقضى علينا جعلتُ بذمّتي إن عدتَ دينا

بأن أقضي بخدمتك الليالي

هام الصيدلي بحبّ وطنه وقومه فندب تأخرهم وطلب لهم اليقظة والمجد والحرية والعلى، ونظم في ذلك قصائد كثيرة. قال:

أيشرب الغير برداً من مواردنا ونحن نشربها حَراً وغِسْلِينا؟

أعيذ قومي، وقومي من عرفتهُمُ، من أن يساموا على الإذلال توطينا

يا آل يعرب، نَهْضاً للرجوع الى عهود مجد لنا أضحت تنادينا

لقد كفانا رقاد ملء أعيننا فإنّ هذا التواني كاد يُرْدينا

واهاً لأيامنا الغرّ التي سلفت متى تقرّ بلقياها مآقينا؟

وقال:

وطني، كيف، والحبيب حبيب، لك أسلو أو عن هواك أتوب؟

كيف أنسى منك الأيادي وفضلاً له منّي بكل عِرْقٍ دبيب؟

كيف أجفوك، والجفاء عقوق، وأنا في حمى ثراك ربيب؟

وطني، أنت ملجأي وملاذي وشفائي في علّتي والطبيب

عقدت بينك الولاء وبيني فطرة حرّة ودين صليب

وقال نادباً:

تولّت عن حِمانا المكرُماتُ فلا صدق هناك ولا ثبات

وساد على النفوس هوى الأعادي لحبّ الذات، فلتهنا العداة!

تعالى الله، يا قومي، لماذا وحتّى مَ التهاون والسّبات؟

هدمتم مجد آباءٍ مَشيداً فمن يبني وقد عدم البناة؟

بنوكِ، بنوك، يا أوطان، خانوا فمن يحمي إذا سرق الحماة؟

لقد عاد العراق غريب قوم فلا أهل تقيه ولا رعاة

وأضحى العرب عُرْضة كل رام وأمسى العرب ليس بهم رماة

وصار الشرق مطمح كلّ عين ولا عين تردّ ولا رُقَاةُ

بمن تثق المواطن بعد هذا — وقد خانت بذمّتها الثقات؟
فلا تذكر أباة الضيم يوماً — لدى ضيم فقد رضي الأُباة

وقد بكى شاعرنا الحق الهضيم فقال:

قضى الحقّ إلا ما به يُتمطّق — وأخلق ثوب العدل أو كاد يخلق
فلا العهد مسؤول ولا الشرط أملك — ولا الوعد مفعول ولا القول موثق
يقولون: نبغي الحقّ، والفعل عكسه، — فقلت: كذبتم، ها هو الفعل أصدق
يقولون: نقضي العدل، والنقض ظاهر، — ولو سكت الأشهاد فالحال ينطق
وما رزىء الأقوام تالله رُزْءَهُمْ — بموت حقوق دونها النفس تزهق

***

الشقاء والصيدلي:

وسم الشقاء شاعرنا الصيدلي بميسمه، فرافقه رفقة العمر وناء بأثقاله وأوصابه. ولقد وصف الشاعر الفرنسي ألفرد دي فنيي (١٧٩٧ ـ ١٨٦٣) Alfred de Vigny الشقاءفي قصيدة له فقال:

«يجوس الشقاء خلال المدائن الباهتة، وقد لاذ بأذياله شبح الانتحار العاقّ، يرقبنا على عتباتنا الوجلة طالباً فريسته.

فيسمع الشباب المنغمس في ملذّاته ويتأوّه ويذبل ريعانه، ويهبط الشيخ الى قبره كما تسقط أوراق الشجر، وقد حرم الجذوة التي تنعشه وتغذّيه.

«أين المفرّ؟ لقد جلس الشقاء ذات يوم على عتبة داري، وأنا أحمله منذ ذلك الحين في غضون أيامي المكفهّرة.

«تلك أجنحته المفجعة تطبق عليّ كالرداء القاتم، في وهج الشمس وغيابة الدياجي وفي كلّ صقع ومكان. تلفّني ذراعاه الجشعتان بآلامها، وتشهر يداه الدّكناوان المدية على فؤادي . . .»

ونظم الشاعر الإنكليزي توماس غراي (١٧١٦ ـ ١٧٧١) Thomas Gray نشيداً الى الشقاء، فخاطبه قائلاً:

«أيها الشقاء، ذو الحول والطول، مروّض القلوب البشرية، يا من يخيف الأشرار بسوطه الحديدي وساعته الرهيبة ويبتلي الأخيار الطيّبين . . .».

ووصفه بأنه يربط بسلاسله المتجبّرين فيذيقهم طعم الألم ويترك الطغاة لابسي الأرجوان بئنّون، وقد عصرت الغصص أرواحهم عصراً، لا يرحمهم أحد في وحدتهم القاسية.

ثم يبتهل الشاعر الى ربّة الشقاء ويسألها أن تسبغ على قلبه الرّقة لا الجروح والكلوم، وأن تـوقـد شرارة النّبل المنطفئـة في أعماق ذاته، وأن تلقّنـه المحبّـة والصفح والغفـران، وتستلّ شوائبه ومعائبه ليعرف نفسه رجلاً.

أمّا شاعرنا الموصلي فتغنّى بالبؤس والشقاء في أكثر من قصيدة. قال:

خلقـت، ويـــــا ليـت لم أخلـق، لكـل شقـــــاء، ومـن للشقـي؟
تطـــاردني عـــاديـــات الخطـــوب ولـــو أنني لـــذت بـــالأبلَقِ
سئمـت الحيـــاة وعـبء الحيـــاة وصرت مـــن الموت لا أتّقـــي
حيـــاة مضت كلّهـــا مُـــرّةً وهيهـــات تحلـــو بها قـــد بقي
فحظي استعـــار ســـواد الشبـــاب ولـــون ضميري دهـى مفـــرقـي
شبـــاب تـــولّى بـــلا طـــائل وغصـن تـــدلّى ولم يـــورق
ولكنّما أثقلتـــــه الهمـــــوم فـأوهـت قـــــواه فلـم يبسـق..
ولي طـــــالـع أيـن وجّهتـــــه أبـى أن يعـــــود ولم يُخْفِـقِ
وأحـــلام ســـؤل تعلّقتهـــا ولكـــن بها الكـــفّ لم تعلـــق
وليـــس طِماحـــي لمال ولا منـــالٍ لـــه لست بـــالشَّيِّق
ولكـن لما لم يَحُمْ حـــولـــه ســـواي وفي العصر لم يَنْفُـق
ونُصرة حـقّ وقـــوم وديـن وخُلْـق أراه على مَـــزْلَـق

وقال:

سئمت حيـــاتي بعـــد فقـد شبـابها ولـــو تشترى بـــالموت كنت أبيعهـــا
حيـاة الفتى عـام بـه الصيف والشّتـا حـــروراً وبـــرداً والشبـــاب ربيعهـــا
إذا مـا انقضى عهـد الشبـاب تقلّصت ظـــلال حيـاة ثـم أقـــوت ربـوعهـــا
على أنني مـــا فـــزت في لـــذّة الصبـــا ومـــرّت حيـــاتي بـــالهمـــوم جميعهـــا

وقال:

يـــا عيش، إنـك نُكْـــرُ فهـل لـــذنبك عُـــذْرُ؟
إن لم تـكُ الموت حقـــاً فـأنـت منـــه أَمَـــرُّ
إن كـــان بعضـك خيراً فـــإنّ جلّـــك شرّ

وقد رأى النحس حتى في طلعة القمر، فقال:

أطلّ علينـا البـدر جـذلانَ ضـاحكـاً يبشرّنـا بـالنحس والـويل والشَّقَـا
فـلا كنت، يـا شهـر الفجـائع، طـالعـاً ففيك قضـت آمـــالنـا ولـك البقـا

ساء ظنّه في الناس والإنسانية فقال:

بلوت النّاس حتى ساء ظنّي ... بكل الناس حتى فيَّ نفسي
وعاشرت الأنام فشبت غماً ... لما قد مرّ من عجب برأسي
وكدت أموت من أسف وحزن ... وما أغنى التصبّر والتأسّي
وصرت أودّ لو آنست جنّاً ... وأنفر وحشة من كل إنْسِي
وأخجل مطرقاً لّما أراني ... بأن القوم من أبناء جنسي

لقد ساء ظنه حتى في نفسه، وقال نظير ذلك محمد رضا الشبيبي:

كلّنا يطلب ما ليس له ... كلّنا يطلب ذا حتّى أنا

وضجّ الصيدلي بالشكوى من سقوط الأخلاق وموت الفضيلة وانتشار الرذيلة فقال:

هوت رفعة الأخلاق للهوّة السّفلى ... فيا ويح قومي للرزيّة، واويلا
أضلّوا طريق الحق والرشد حينما ... أحبّوا على باقي الثنا عرضاً يبلى؟
أضاعوا نُهاهم مذ شروا بالهدى الهوى ... وبالجهل باع العلم أكثرهم جهلا
وعن كرم الأخلاق زاغوا، فما ترى ... لها أثراً في العصر فعلاً ولا قولا

حتى يقول:

وإني لأزري بالحضارة عندما ... أراها أذاعت بيننا الغشّ والغلاّ

وقال في قصيدة أخرى:

مات الوفاء وخانت الإخوان ... وتلوّنت في طورها الأزمان
وتقلّبت ظهراً لبطن مثله ... أهل الزمان فإنّهم أقران
لهفي على خالي العصور وأهلها ... ما كان أعلى شأنه الإنسان!

وقد بلغ من ريبته وسوء ظنّه أنه حذّر القمر قبل أن يغزو الإنسان القمر، فقال:

إن رمت تسلم فاغرب، أيّها القمر، ... فقد نوى لك شراً، ويحك، البشر
جاسوا خلال نواحي الأرض قاطبةً ... فدمّروها وظنوا أنهم عمروا
واليوم مدّوا شباكاً للسماء لكي ... يرموك في شرك الأنكاد، فالحذر

وقال:

ليلي وليلك، يا بدر الدجى، سهر ... هل أنت مثلي معنّى، أيها القمر؟
هل غازلتك لحاظ الغيد من بُعُدٍ ... فراح يعبث فيك الكحل والحَوَر؟
أم قد دهاك هوى الغزلان أم سلبت ... قرارك الوجنات البيض والطّرر؟
أم هاج وجدك ألحان البلابل في ... رياضها أم شجاك العود والوتر؟

أم أنت تعشق من ذي الشهب جارية … وحال بينكما التغريب والسفر
أم أنت مثلي من الأيام في نكد … فصرت تطلع حيناً ثم تستتر

وكذلك نرى شاعرنا قد افتقد البهجة والهناء ولم يجد صديقاً يبثّه ألمه وشجاه، فخاطب القمر وباح له بأسراره:

هيهات، يا بدر، ما ليلي كليلك في … صفو، ولكنّ ليلي كلّه كدر
أبيت منفرد الهجران محتجباً، … وأنت حولك تزهو الأنجم الزُّهُرُ
وأنت تمرح في علياءَ واسعة … وإنني رهن ضيق فيه أنحدر
وإن هوى لك نجم بتَّ مكتئباً، … فما أقول وفي قومي هوى القَدر؟

أحبّ الصيدلي التمثيل المسرحي فقال:

إنّ للماضين روحاً تنجلي … ما لها غيب وإن هم غُيّبوا
إن للغيب لمرآةً بها … يُجتلى منه الحجى والأدب
وهي التمثيل والفنّ الذي … ليس عنه غائب يحتجب
فهي من جدّ علوم وحجى … ما بها هزل يُرى أو لعب
وهي النزهة للنفس، بها … يُجتنى أنس ويحلو طرب

ووصف كرة القدم قائلاً:

كمروق السّهام بعد السّهام … وانقضاض الرجوم من أجرام
ترتقي للفضاء شوطاً وتهوي … مثل صقر يخرّ فوق حَمَام
كرة حوّم الرماة عليها … ترتميها الشبّان بالأقدام
بين خطف وبين جذب ودفع … واقتحام وحملة وازدحام
بين كرّ وبين فرّ وزحف … واستباق وخلفة والتحام
حيّرتها الأضداد أين تولّي … وجهها من تقاذف واصطدام
ذا ليُمْنَى وذا ليُسرى وهذا … للوراء يرمي بها وأَمام
لا تكاد الأنظار تثبت فيها … لمرور بسرعة الأوهام
أو خيال الأديب عند ارتجال … أو كطيف الحبيب في الإلمام
أو كقلبي من الوجيب وجيفاً … واضطراباً لكربة أو سقام

ووصف فوّارة ماء فقال:

وفوّارة ترمي بقضبان فضّة … من الماء يعلو للفضا ويرفرف
ويخرج كالسّلك النضيد مُسَلْسَلاً … ويلوي كمنثور اللآلي ويعطف

إذا صعّدت فهي السّهام صواعداً ... وإن هبطت فهي الشواقب تقذف
فما هو إلاّ اللؤلؤ الرّطب ساقط ... على الأرض نثراً حين يهدي فيرجف

وهذا الوصف قد جاء على طريقة ابن المعتزّ العباسي الذي قال في الهلال:

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وقد سئل ابن الرومي لِمَ لم يبلغ في تشبيهاته مبلغ ابن المعتز، فأجاب: واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أيّ شيء أصف؟ . . .

ونظم فاضل الصيدلي في الغزل والنسيب، لكنه طوى هذا الباب من شعره في عهد كهولته وعفا عنه، وكان تشبيبه مصنوعاً لا عاطفة فيها ولا حياة، فممّا قاله:

واعدتنا بوصلها الحسناء ... ثم لم يعقب الوعود وفاء
تصل الليل بالنهار وعوداً ... فصباح يمضي ويأتي مساء
ولنا الوعد والوفا لسوانا ... قسمة ما قضى بها الإفتاء
نحن همنا بحسنها فحرمنا ... ثم فازت بوصلها الرقباء
وأتت من تشاء قرباً ولقيا ... وكذا تمنع اللّقا من تشاء
أنفتنا وآلفت بهواها ... لأناس ما هم لها أكفاء
قاضي الحبّ، هل يجوز لديكم ... مثل هذا؟ إذن فبئس القضاء
أنا أهوى والوصل يجنيه غيري ... فعلى العشق، إن يكن ذا، عفاء

وقال:

يا حمى ليلى، ويا أهل الحمى، ... كيف ليلى، هل تراعي خلّتي؟ . . .
قاتل الله وشاة بيننا ... فلكم قد سلبوا من نعمةِ
ليت ربي في الهوى أوقعهم ... ليروا كم للهوى من غصّة
لوعة الوجد وتبريح الهوى ... ولظى العزل وحرّ الغيرة
وتصاريف زمانٍ لم يزل ... كلّ يوم بارزاً في محنة

وقال:

أمن الحور أم ظباء الفلاة ... أم سراج يضيء في الظلمات؟
غلط القائلون عنها فتاة، ... أيّ شيء يعنون؟ أيّ فتاة؟ . . .
هي شمس، وفي الملاحة بدر، ... وهي الريم، وَيْكَ، في اللّفتات
ودعا حسنها الأنام ينادي: ... أيّها الناس، فانظروا معجزاتي

الموصل والربيع :

وصف شعراء العرب فصل الربيع في مختلف عصورهم وأجاد الأندلسيّون في ذلك أيّما إجادة لجمال رياضهم وسناء طبيعتهم وشغفهم بالماء والخضراء. ولم يقصّر المشارقة في ذلك، فقال صفّي الدين الحلّي :

ورد الربيع فمرحباً بوروده	وبنور بهجته ونَوْر وروده

وقال أيضاً :

خلع الربيع على غصون البان	حللاً فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدَّوْح حتى صافحت	كَفَل الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوّجت هام الغصون وضرّجت	خدّ الرياض شقائق النُّعمان
وتنوّعت بُسُط الرياض، فزهرها	متباين الأشكال والألوان
والظلّ يسرع في الخمائل خطوه	والغصن يخطر خِطْرة النشوان . . .

وقد كان لشعراء الموصل القدح المعلّى في وصف الربيع والتمتّع بحسنه ومباهجه، ولعلّ مردّ ذلك لبرد صقعهم، فيقبع أهل الموصل في دورهم طوال الشتاء، حتى إذا ما حلّ فصل الربيع، اكتست البرّية المحيطة بالمدينة والمطلة على دجلة بالورود والأعشاب وخرج إليها أبناء البلد زرافات ووحداناً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، للنزهة والاستجمام واجتلاء محاسن الطبيعة، يعقدون مجالس الأنس واللهو البريء على بُسُط الحشائش السندسية ويتلذّذون بالغناء والموسيقى تحت قبّة السماء الزرقاء بين خرير الماء وحفيف الشجر. وصف شعراؤهم مجالس الربيع ومآدبه وتغنّوا بالطبيعة التي نضت عنها سربال الغيث والصقيع والضباب، كما قال الشاعر الفرنسيّ القديم شارل دورليان Charles D'Orléans (١٣٩١ ـ ١٤٦٥م) في مقطوعته الربيعية اللطيفة :

«إنّ الزمان قد خلع رداءه، رداء الريح والبرد والمطر

وائتزر بوشاح مطرّز من السماء الساطعة الصافية الجميلة .

ولم يبق من حيوان ولا طير إلاّ تغنّى بلغته وصاح . . .

وقد لبس النهر والغدير والجدول حلّة أنيقة موشّاة باللّجين والنّضار، وجدّد كلّ شيء لباسه . . .»

ومن شعراء الموصل المحدثين الذين وصفوا الربيع أحمد الفخري ومحمد حبيب العبيدي. ومنهم شاعرنا فاضل الصيدلي الذي قال في تحيّة فصل الزهور:

بسم الربيع بزهره ووروده	فأقرّ عين الكون عند شهوده
وشبيبة الأيام عادت غضّة	فرحاً بإدبار الشتا وجموده

فـالـروض يـزهـو في بـديـع حليّـه والنبت يمـرح في بهاء بـروده
والطير بالألحان غنّى مطـربـاً والـورد حـرّك عُـودَه لنشيـده
والغصن والأوراق هـذي صفّقت واهتـزّ ذا طـربـاً بكـلّ وجـوده
والشمس فـوق الـورد ألقت نفسهـا شغفـاً لترشـف من رحيق خـدوده
والنـرجس الـزاهـي تطلّع شـاخصـاً من كُمّـه بعيـونـه وبجيـده
كبّرت إذ شـاهـدتـه متخـاشعـاً متـواجـداً بـركـوعـه وسجـوده

وقال من قصيدة أخرى:

مـا لهذا النسيم هـبّ عليـلاً وأتـى وانيـاً يجرّ الـذيـولا؟
ليـت شعـري أزهـوةً واختيـالاً أم سقـامـاً بـه دعـاه كليـلا. . .
إنّ فصل الـربيع ـ طـال بقـاه ـ لَهُوَ العيش لـو يعيش طـويـلا
فيـه تحيى الأرض الموات فتُـزهَى فهـو ينفي العنـا ويفني المحـولا
هـو سرّ الأزمـان والـدهـر، لكن غير خـافٍ معنى بليغـاً جليـلا
هـو بيـت القصيـد في العمـر، فـاصدع ثـم رتّل آيـاتـه تـرتيـلا
غـرّة الـدهـر، شـامـة الحَوْل، فيـه عـاد طـرف الـزمـان أحـوى كحيـلا
مـا أحيلى الـربيع في العيش، لـو دام، وإن كـان دومـه مستحيـلا

ثم يقول:

يـا زمـان الـربيع، أنت شبـابي وشبـاب الأيـام جيـلاً فجيـلا
أنت أوفى مـن الشبـاب ذمـامـاً كـلّ عـام تـردّداً ومثـولا
أنـت تأتي فتـوسـع الأرض خصبـاً ورواءً وبهجـة وبقـولا

ولئن كان ربيع الموصل فصل السرور والزهـور، إنّ خريفها حزين يحمل النفس على الأسى والانقباض. وقد قال الصيدلي في ذلك:

تسـاقطـت الأوراق وانتشـر العقـد فـلا شـاعـر يهفـو ولا طـائر يشـدو
إذا القيظ ولّى والـربيع تقـوّضت خيـام لـه فـالعيش وجهـه مُسْـوَدُّ
ويبـدو محيـاً للطبيعـة كـالح عبـوس كئيب قـاحـل سبطـه جعـد
ويكشف عن سـاقٍ بـه الـروح حـاسراً هـزيـلاً نحيفـاً أو هـو العظم والجِلْـدُ
ويغبّر وجـه الجدّ كـالأرض كـاسفـاً فتبكي السّما وجـداً، ومـا إنْ بها وجـد
فـلا الأفـق بسّـام ولا الشمس تـزدهي ولا نـورهـا فـوق البسيطـة ممتـدّ
تـولّى شبـاب للطبيعـة زاهـر يليـه مـن الثلج المشيب لَـدُنْ يبـدو

إنّ حياة الشاعر الصيدلي كانت كهذا الخريف الموصلي الذي أجاد وصفه، تناثرت أوراقه وتصوّحت أزهاره وصمتت عنادله بعد التغريد والغناء، فلا عجب أن ودّع الأرض غير مشفق ولا آسف، يرجو في الموت أملاً لم تجد به الأيام.

عرف من أبناء الشاعر فاضل الصيدلي عبد الحق وأكرم.

عبد الحق فاضل

الأديب القاصّ اللغوي الدبلوماسي عبد الحق ابن فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١١. تخرّج في كلية حقوق بغداد، ووظف أمداً في وزارة المالية (١٩٣١) ومديرية الأوقاف العامة. ثم عاد الى الموصل ومارس المحاماة، وكان رئيس تحرير مجلة «المجلة» التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٨.

إلتحق بالسلك الخارجي فعيّن ملحقاً في المفوضية العراقية في طهران (١٩٤٥) فملحقاً أول في مفوضية أنقرة (١٩٤٦) فمفوضية كابل (١٩٤٨). ونقل سكرتيراً ثالثاً في طهران أيضاً (١٩٤٩) فسكرتيراً ثانياً في مفوضية روما (١٩٥٤). وأعيد الى ديوان وزارة الخارجية سنة ١٩٥٧ مديراً عاماً للشعبة الشرقية. عين بعد ثورة ١٤ تموز وكيلاً لوزارة الخارجية فسفيراً في بكين (١٩٦٠)، ولما سقط حكم عبد الكريم قاسم فصل من منصبه في نيسان ١٩٦٣.

مضى الى المغرب وانصرف الى الدراسات اللغوية. وعاد الى بغداد بعد نحو ٢٠ سنة، وتوفي بها في كانون الثاني ١٩٩٣.

أصدر مجموعات قصصية: مجنونان (١٩٣٩) فرح وما أشبه (١٩٤٠) حائرون (١٩٥٨) طواغيت (١٩٥٨). وله أيضاً: ثورة الخيام (١٩٥٢) ٤ نساء و٣ ضفادع (مسرحية، ١٩٦٨) مغامرات لغوية (١٩٦٨) الخ.

الدكتور أكرم فاضل

أكرم فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١٨ ودرس في مدرسة الصناعة، وعين معلم مدرسة ابتدائية في بعض القرى. ثم مضى الى بغداد ودرس في كلية الحقوق. وقد أولع منذ حداثته بالأدب الفرنسي المترجم واللغة الفرنسية فدرسها على نفسه. وأوفد في بعثة دراسية الى باريس فدرس الحقوق في جامعتها وحصل على درجة الدكتوراه.

كان حيناً ما كاتباً في محاكم الموصل. وعيّن أخيراً مديراً للفنون والثقافة الشعبية في وزارة الإعلام في العهد الجمهوري فقضى في منصبه أعواماً طويلة، وأشرف على إصدار مجلة «بغداد» بالفرنسية.

أدركته الوفاة ببغداد سنة ١٩٨٧ .

أصدر مجموعة شعر بعنوان «الكوميديا البشرية» (١٩٤٨) . وله كتب منها : مأساة الشعب الجزائري (١٩٦٠) . وقد اشترك في ترجمة رواية «الآباء والبنون» لإيفان تورغنيف (١٩٥٠)، كما ترجم الى العربية : يا لحياة المنفى من مهنة شاقة للشاعر التركي اليساري ناظم حكمت (١٩٥٩)، اللقيطة للسيدة لوسيت توفيق (١٩٦١) الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ ـ ١٩١٤ للسفير الفرنسي بيير دي فوصيل (١٩٦٨) أسطورة الشعب المختار (١٩٦٩)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٩٧١) . وله أيضاً : تعليقات على لهجة بغداد العربية للويس ماسّنيّون (١٩٦٢) .

أكرم فاضل شاعر خفيف الروح إنسانيّ النزعة يرى العالم كله مهزلة ، فجعل عنوان مجموعته «الكوميديا البشرية» . لكن هذه «الكوميديا» في الحقيقة تخفي في طياتها «دراما» بل مأساة . وأبطال شعره البخيل والغانية والضحية والراقصة والحلاق والفلاح والحمّال والشحاذ والفنانة البائسة ، فضلاً عن دون جوان الجاري وراء الحبّ ومحاكمة الهررة والحظوظ بين المعدمين والمتخمين ومهزلة الغرام ودموع البائسين .

خاطب القارىء في مقدمة شعره :

أيها القارىء، هذا ديدني	فارضَ أو لا ترضَ، فالأمر سواء
وإذا ما هجت أحسنت الى	شاعر يهوى هياج السخفاء
وإذا لم تستسغ لفظي ولم	تتقبّل فكرتي دون عناء
فاطرح «الديوان» واعلم، يا أخي،	أنني لا أستضيف الثقلاء . . .

كان شاعرنا رقيق القلب يحنو على البائسين ويتألم للمتألمين أشخاصاً وأمماً . وبلغ به الحال أنه كاتب مجلة فرنسية تختصّ بالغجر البوهيميين . وقد نظمتُ قصيدة في الغجر فطلب منّي ترجمتها الى الفرنسية وأرسل بها الى تلك المجلة لنشرها .

قال ذنّون أيوب في مقدمة «الكوميديا البشرية» مقدماً صديقه الناظم إنه «شاب صغير السنّ، رقيق المزاج ، تضيق نفسه ويضيق عقله وحسّه بكل ما في الوجود من قيود ، فينطلق على سجيّته بعض الأحيان ثائراً متجاهلاً كل عرف وتقليد ، ثم ينتبه فجأة كما ينتبه المرء من حلم فيدرك أنه قد اشتطّ في سلوكه ، فينكص على عقبيه خائفاً خائباً تعباً . . . » ثم قال : «إني أعتقد أن أكرم من أولئك الذين لا يتقصدون أن يكونوا شعراء ، ولكنهم يجدون أنفسهم شعراء ، فيندفعون مع الشعر محاولين أن يثبّتوا لهم قدماً فيه ويقطعوا شوطاً في مضماره» .

وقال إن شعره ليس من النوع الذي يرتفع الى السماء السابعة ليشرف على العالم من عليائه ويعطي نتائج قطعية جازمة في الأخلاق والسلوك ومصير البشرية وعلل العالم ،

بل يزحف على الأرض محتكاً بالمخلوقات الزاحفة مثله من حيوان وانسان، فيتبادل معها العواطف والإحساس بل والآراء أيضاً! فما أكثر ما نراه في شعره «مشاهداً» في محكمة عقدت لعقاب القطط أو محامياً عن شحاذ أو متآخياً مع كلب. . . وهو بذلك صوفيّ بطبعه، لكن شطحاته مع المخلوق لا مع الخالق.

محمّد علي اليعقوبي

الشيخ محمد علي بن الشيخ يعقوب الحاج جعفر النجفي، الشاعر الخطيب، ولد في النجف في ٢٩ شباط ١٨٩٦، وكان والده الشيخ يعقوب شاعراً (١٨٥٤ ـ ١٩١١)، ولد في النجف وتوفي في الحلة. وقد حقق ابنه ديوانه ونشره سنة ١٩٦٢.

وانتقل والده الى الحلة سنة ١٨٨٣ إثر نزاع وقع بينه وبين إخوته على وقف لهم في النجف، وكان لهذا الاغتراب أثر عميق في نفس الشاعر الشيخ فقال:

تغرّبت عن أرض الغريّ، فلم تكن ... تقرّ عيوني أو تطيب حياتي
حبست ركابي عندها اليوم بعدما ... أذبت عليها النفس بالزفرات
مواطن آبائي بها وأحبّتي، ... وفيها مغاني أسرتي وسراتي
فمن تربها أصلي ومبدأ نشأتي، ... وأرجو بها مثواي بعد وفاتي

ونشأ الفتى محمد علي في الفيحاء وأخذ عن والده مبادىء علوم العربية والدين، حتى إذا ما أدركته الوفاة سنة ١٩١١، انقطع فتانا الى السيد محمد القزويني الذي أحسن تربيته وتهذيبه. ثم خرج الى قرية جناجة على ضفة الهندية اليسرى واتصل بمحمّد حسن أبي المحاسن وأفاد منه فوائد جزيلة في الشعر والأدب. ولمانشبت الحرب العامة التحق بالمجاهدين في الشعيبة تحت لواء السيد محمد سعيد الحبوبي (١٩١٥). وعاد اليعقوبي الى النجف سنة ١٩١٧ بعدتنكيل الأتراك بقيادة عاكف بك الأرناؤوطي بأهل الحلة، واشتهر خطيباً من خطباء المنبر الحسيني وداعية من دعاة الإصلاح الديني. وظلّ يتنقل بين الحيرة والكوفة حتى استقرّ في النجف، وتولى رئاسة جمعية الرابطة الأدبية فيها في كانون الأول ١٩٣٦. وتوفي بالنجف في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٥.

كان الشيخ محمد علي اليعقوبي شاعراً مجيداً عرف بقصائده الوطنية التي أشادت

بذكر العرب من الريف والجزائر الى العراق وفلسطين، وله ديوان خاص بمأساة فلسطين. وكان الى ذلك عالماً بتاريخ الأدب، اشتهرت خزانته بما ضمته من كنوز أدبية مجهولة تصدّى لنشر بعضها في أعوامه الأخيرة.

شعره وأدبه:

نشر ديوان الشيخ محمد علي اليعقوبي سنة ١٩٥٧، ومن آثاره الأخرى «البابليات»، وهي مجموعة أدبية تاريخية في ثلاثة أجزاء (١٩٥١ ـ ١٩٥٥). وله «المقصورة العليّة» (في سيرة الإمام علي ١٩٢٦) «وعنوان المصائب» (في مقتل الإمام علي ١٩٢٩) والذخائر (في مدح آل البيت ١٩٥٠) وجهاد المغرب العربي» (شعر، ١٩٦٠).

وقد حقق ونشر دواوين كثيرة، منها: الجعفريات (شعر جعفر القزويني، ١٩٥٠)، ديوان الشيخ عبد الحسين شكر (١٩٥٥)، ديوان الشيخ عبّاس الملا علي (١٩٥٥)، ديوان أبيه الشيخ يعقوب (١٩٦٢)، ديوان الشيخ محمد حسن أبي المحاسن (١٩٦٤)، ديوان الشيخ صالح الكواز (١٩٦٥)، ديوان الحاج حسن القيّم (١٩٦٥) الخ. وترك في خزانته دواوين شعرية أخرى لم يهيّأ له طبعها، منها: ديوان الشيخ مير رشيد الهندي، وديوان سبط ابن التعاويذي، وديوان صادق الفحام، وديوان الشيخ علي الناصر.

وعرف اليعقوبي بارتجال الشعر وسرعة البديهة وحدة الذاكرة والظرف والفكاهة المشوبين بالحشمة والوقار.

ويتّسم شعر اليعقوبي بنزعة إنسانية، فقد نشأ بين الشعب وعاش في أنديتهم وشارك في سرّائهم وضرّائهم، فلا عجب أن رثى لحال فقيرهم ومريضهم وجاهلهم. وممّا قاله في ألم الفقر ووطأة المرض:

يا شعب، ما أكثر هذا العنا	من هاهنا طوراً ومن هاهنا
قد علقت فيك، ولا منقذ،	مخالب الفقر وناب الضّنا
خطب عظيم الوقع، لكنه	يراه من لم يعنه هيّنا
ألمّ كالضيف ثقيلاً، أما	آن لهذا الضيف أن يظعنا؟
في مدن الشعب وأريافه	ما شطّ منها نائياً أو دنا
ما أكثر الشاكين، لو أنهم	تمكنوا أن يطلقوا الألسنا
من يَرَ أهليك وما نابهم	لم يَرَ إلا منظراً محزنا

وكم لــــذي الفقــــر بجنح الــــدجى
من لــــوعــــة مـــا ذاقهـــا ذو الغنى

مستعـــــذبـــاً من دون آلامـــه
ورد المنـــايـــا، وهـي أقصى المُنَى

يكتم مـــا فيــه لفــرط الإبــا،
والبــؤس يبــدي سرّه معلنـــا...

يــا مــوطنــاً كنّا سعــدنــا بــه
دهــراً فـأضحى للشقـا مــوطنـا،

حملت أعبـــاء الخطــوب التي
تكـــاد منهـــا الهضب أن تــوهنـــا

تئـنّ من سقـم ومـن فـــاقـــةٍ،
هـل غـــايـــة الحالين إلا الفنـــا؟

ومن شعره في رثاء يوسف رجيب:

مـا مــرّ ذكــر أولي المكــارم والــوفـا
ألاّ وكنت لــــذكــرهم عنــوانـــا

أولست في الأحــــداث أربـط منهُـمُ
جأشـــاً وأثبت في الخطـوب جَنَـانـا؟

لـك نفس حــرّ للعلى وثـــابـــة
تستصغـــر الأهــوال والحدثـــانـــا

كم مـــوطـن قــد كنت أشجـع واقف
فيــه وكـــان ســواك عنــه جبــانـا

لا قستُ فيـك معـــاشراً لم يعــرفــوا
للفضل مقيـــاســـاً ولا ميـــزانـــا

العـــابـــدين هيــاكـلاً منصــوبــة
كـــالجاهليـــة تعبــد الأوثـــانـــا

جهلــوا مبـــادئك التي مـــا شـــابها
دنس، فكنـت أجلّ منهـم شـــانـــا

كم محنــــة في الشعـب غضّــوا دونها
طـرفــاً وكنت السّـاهــر اليقظـــانـا

فمضـــوا وسلطتهم مضـت في إثـــرهم
وبقيـت أنفـــذ منهمُ سلطـــانـــا

وتــركت دنيـا لم تــدع من وفــرهـا
إلاّ الثنـــا والمجــد والإحســـانـــا

وقال في رثاء سعد زغلول:

يـا مصر، مـا لصبــاح شعبك حــائل؟
غـــربت ذُكَـــاك وبـــدر سعـــدك آفل

يـــا مصر، مـــا نـــزلت حِماك كهـــذه
طخيـــاء جـــاء بها القضـــاء النـــازل

عصفـت على مصر فمالـت دهشـــة
هضب الشـــآم لها ومــــاجت بـــابل

مـا خـصّ هــذا الــرزء شعبـك وحــده
لكنــه لشعــوب يعــرب شـــامل...

فجعـت بنــــوك بمنقــــذٍ ومحرر
وأب يكـــافـح دونها وينـــاضـل

ذهـب المؤمّـل والـــــزعيـم المرتجى
فـــاستيأس الـــراجي وخـــاب الآمل

حتى يقول:

يـــا قطـب دائرة السيـــاســـة كلما
طـــاش الحليم بها وحـــار العـــاقل

مـــا قمت عـن مصر تجادل وحـــدهـــا
بـل عـن جميـع الشرق قمـت تجادل...

إن تمضِ فـالشرف الـذي خلّدتـه ... بـاقٍ وذكـرك في حيـاتك كـافل
أو يخلُ منك بمصر أكـرم منـزل ... فلك الخواطـر والقلـوب منـازل
ولأن طُـويتَ فقـد نشرت صحـائفـاً ... عنـوانهن منـاقب وفضـائل
خلّفت بعـدك أمـة أيقظتهـا ... للعـزّ، ليس بها نـؤوم كـاسل
نهضت بأعبـاء نهضت بها ومـا ... وهنت لها عـن حملهـنّ كـواهل
مـا مـات من بقيت بأنـديـة العلى ... تثني عليـه أواخـر وأوائل

***

ومن لطيف شعر اليعقوبي:

من عـادة النّاس لـلأصنـام تعبـدهـا، ... من حطّـة النـفس لا مـن رفعـة الصّنم

ولا أنسى سفـرة لطيفـة الى النجف وربوع الفـرات قمنـا بها في شتـاء ١٩٥٠ برفقـة الصديقين أحمد حامد الصّراف ومصطفى جواد، ثم صحبنا الشيخ محمد علي اليعقوبي الى كـربلاء. كـان الطريق وعـراً غير معبّـد، كثير الغبار تثيره عجـلات السيّارة فيمـلأ الخياشيم ويعلق بالـوجوه والثياب، لكننا قضيناه نستمع الى لطائف اليعقـوبي وبدائعه الشعرية والنثرية، حتى بلغنا مدينـة الحسين ولم نكد نصدّق أننا قطعنا تلك المرحلة ولم نشعر بمزعجـاتها. ولعلّها كانت المرة الوحيـدة التي رضي فيها الصّراف أن يفسح لغيره مجال الكلام فلا يحتكره ويستأثر به على جاري عادته.

إشتهر محمد علي اليعقوبي خطيباً من خطباء المجالس الحسينية، وكان يقيم في بداءة أمره في بلـدة الحيرة المعروفـة باسم «الجعـارة». ثم علت شهرته وانتقـل الى النجف سنة ١٩٢٩ أو بعيـدها وصـار ينافس أبـرز خطبـاء ذلك العهد وهـو السيد صـالح الحلّي. وتطرق جعفـر الخليلي في الجزء الثاني مـن كتابه «هكـذا عرفتهـم» الى ذكر المنـافسة بين الخطيب المخضرم والخطيب الناشىء، فقـال إن نجم السيد صالح بدأ بـالأفول، وبدأ نجم اليعقوبي بالصعود، على الـرغم مما كان يوجهه الحلي اليه من نقـد وتنديد وصراحةً وكنايـة. فقد كان السيـد صالح ـ كما قـال الخليلي ـ سليط اللسـان جريئاً يخشـاه أجرأ العلماء. وكان اليعقوبي مسالماً عفّ اللسان بعيداً عـن اللمز والغمز، ولذلك لم تبد منه ولا كلمة شائنة في حق السيد صالح وإنما كان يظهر عليـه باطلاعه الواسع ووقوفه التام على التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب: فقد كان اليعقـوبي موهوباً، وكانت له ملكات طبيعية ممتـازة نماها وصقلها أبـوه الشيخ يعقوب الـذي كان هو الآخـر من خطباء المنبر الحسيني البارعين.

وقال الخليلي إن اليعقوبي عرف بسعة الاطـلاع والعلم والظرف والأدب وصوغ النكتة وسرعة الخاطر، كما عرف بارتجال الشعر وصناعة التاريخ المنظوم. ويزخر شعره بالبديع من الجناس والتورية والأمثال والتضمين يرسله عفو الخاطر بلا تكلف ولا تعقيد. ومن

طرائفه أنه هجا شاعراً تنقَّص المتنبي فقال :

يـا هـاجيـاً ربّ القـوافي «أحمـداً» بلـواذع مـن قولـه وقـوارص
حسبـي وحسبـك في جوابـك قولـه : «وإذا أتتك مـذمّتـي من نـاقـص»!

ابراهيم أدهم الزهاوي

الشاعر إبراهيم أدهم بن الحاج صالح بن المفتي محمد فيضي الزهاوي، ولد في بغداد في ٣٠ كانون الأول ١٩٠٣، ودرس في مدارسها الابتدائية ثم حضر دروس عبد المحسن آل بكتاش وقاسم القيسي وأمجد الزهاوي. وانتمى الى جامعة آل البيت وتخرّج فيها سنة ١٩٣٠. وقرض الشعر صبياً، فبرّز فيه تبريزاً حتى لقد أمل عمه جميل صدقي الزهاوي أن يكون خليفته.

كان عنيفاً في وطنيته وتديّنه، غريباً في أطواره، متقلّب النوازع والأهواء، فحفلت حياته بالمآسي والمناقضات والآلام. وقد اشترك مع عبد الستار القراغولي في طبع ديوان صديقهما نعمان ثابت عبد اللطيف باسم «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابه «الجندية في الدولة العباسية» (١٩٣٩). ووظف كاتباً في وزارة الشؤون الاجتماعية (كانون الثاني ١٩٤٠) فلم يطق قيد الوظيفة طويلاً وتوفي ببغداد في ١٥ آب ١٩٦٢.

ألّف كتاب «إبطال اللانهاية في الفلسفة» (١٩٤٧). وجمع شعره عبد الله الجبوري وطبعه في القاهرة بعنوان «اللهفات» (١٩٦٩).

شعره :

له شعر وطني واجتماعي متين، شديد اللهجة.

فمن شعره الوطني :

لنـا مثلها للغـاصبين سـواعـد فما بـالنـا عـن مجدنـا لا نجـالـد؟
وأيّ حيـاة هـذه فنلـذّهـا لأيسر منهـا يشتهي الموت خـالـد
وإنّـا لفي عصر تيقّـظ أهلـه فـأدرك معنـى العيـش حتـى الخرائد
فـلا تطمعنّ الغـرب فينـا فنـونـه فما هـي إلا رغبـة وعـوائد
لنـا أصلهـا النـامي، وهل من عجيبـة إذا انتقلت منـه إلينـا الـزوائد؟
فنحن الألى لـولا نتـاج عقـولنـا لما كـانت الـدنيـا على مـا نشـاهـد
لئن قـابلـونـا بـالإسـاءة والأذى فما عـرفـت غير العضـاض الأسـاود

جـــزى الله عنّـــا الحادثـــات فإنها | تقـــارب مـــا بين الـــورى وتبـــاعـــد
فيثبـت ودّ بين شعبين خـــــالـص | ويمحـق ودّ بين شعبين فـــاســـد
فـــلا يــرتجوا مـن بعـــد هـــذا ودادنـــا | لقـــد خـــابـت الآمـــال والترك شـــاهـد
خـــرجنـــا عليهـــا وهـي منّـــا قـــريبـة | إن اختلف الأصـــلان فـــالـــدين واحـــد
فهل وضعت أغـــلالها عـن رقـــابنـــا | لتخلفهـــا أغـــلالهم والمقـــاود؟
فأين ادّعـــاءات لهم يـــدّعـــونها : | أتلك ثعـــابين وهـــذي قـــلائد؟

ومنه :

يـــا بني العـــرب، والحروب سجـــال، | والليـــالي بمن تحطّ تقـــوم
وحـــدوا وحـــدوا الصفـــوف ولا تستـــ | ـــصعبوا السهل فهـــو خلـق ذميم
لا تميّـــزكم الـــديـــار ولكـن | لغـــة الضـــاد والنّجـــار الكـــريم
فهـي لـــولا تخاذل الســـائسيهـــا | لم يفـــرّق مـــا بينهـــا التقسيم

وقال :

أنـــا الـــداعي الى أمجاد قـــومي | أذكـــرهـم عهـــود الأوّلينـــا
وأدفـع عنهـم طعـن الأعـــادي | فأتـــرك شلـــو طـــاعنهم طعينـــا
أعـــدّد منهمُ بيض الأيـــادي | على أهـل البسيطـــة أجمعينـــا
فكـل يـــد لهم جحـــدت سنـــان | تـــراه بقلـب جـــاحـــدهـــا مكينـــا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر:

هـي الأعمار أثـــواب تعـــار | وأوقـــات تـــزور ولا تـــزار
وأيـــام تـــديم النحس حتى | تســـاوى الليـل فيهـــا والنهـــار
تغير خطـــوبها في النـــاس تترى | ومـــا غير النفـــوس لها مغـــار

حتى يقول :

كـذا الـدنيـا شـؤون الـدهـر فيهـا | شـــؤون في مجاريها بحـــارُ
لحاهـــا الله لم تترك عليهـــا | مكـــانـــاً يجتبى فيـــه الجوار
فملـك العجـم مغبّر النـــواحي | وملـك العـــرب أنـــذره البـــوار
فـــلا أمـــر الجزيـــرة مستقـــرّ | ولا قطـــر العـــراق لـــه خيـــار
ولا حكـم الجزيـــرة في بنيهـــا | ولا في الشـــام لـــلأحـــرار دار
فقـــد أمســـوا حيـــارى في ديـــار | شعـــار القـــاطنين بها الصَّغـــار

تنيلهم — إذا طلبوا — العوالي — وتخبرهم — إذا سألوا — الشّفار
وتلك دماؤهم نادت نزاراً — فما لبّت لها الدعوى نزار
ووادي النيل لم يفتأ مضيماً — يهدّده إذا وثب الدمار
وفارقه الزعيم فزاد كرباً — على كرب وتمّ له الخسار
سرت بنعيّه الأنباء حتى — أذاعتها المفاوز والبحار
فضّج لها بقاع الشرق حتى — خشينا أن تشبّ بهنّ نار
وقيل: دم الحقوق، حقوق مصر، — أُميرَ وسعدها ذاك المهار
ولو غير الزمان رماه نالت — مناها من حشاشته الشفار
ولكن دهره أخنى عليه — فلم يؤخذ لها فيهنّ ثار. . .

وكان سيء الظن بالناس، يراهم يميلون الى الشرّ، يحفلون بالغنيّ ويظلمون الفقير والضعيف، لا يخضعون إلا للقوة القاهرة ولا يتمسّكون إلا بأهداب الغيّ، ويسعون الى المنافع ويغترّون بالمطامع. فإذا جادوا بالمال أو طلبوا العلم قصدوا التباهي والتعالي والتفاخر. وهم يثيرون الحرب تارة باسم الدين وطوراً بحجة نشر العلوم والفنون وإحياء المكرمات وجمع الشتات:

محال، وإن خيل في الممكنات، — ركون الأنام الى الصالحات
خلا نفراً شذّ في طبعه — فكاد يعدّ من المعجزات
وقد يخرج الحيّ من ميّت — وقد يخرج الميت من ذي الحياة
فرفقاً بنفسك أن تستغرّ — بماء يساق لأرض موات
فما الناس مزرعة للصلاح — ولا معدن الفضل والطيّبات

***

كتب إبراهيم أدهم الزهاوي في سنة ١٩٣٦ كلمة خطية موجزة يترجم فيها لنفسه بضمير الغائب، قال منها:

«إبتدأ ينظم الشعر وعمره ١٧ أو ١٨ سنة، ولو قرأ العربية قبل ذلك لنظم الشعر قبل هذه السنّ. وهو شديد النقد لشعره، لا يثبت منه إلا ما جزل لفظه وحسن معناه. وينظم في كل زمان ومكان، وأكثر ما ينظم في المقاهي، ولا يبالي بما يكون حوله من الضجيج، لأنه لا يحسّ به أثناء النظم لاستغراقه فيه. وهو لا يكتب شيئاً مما ينظم حتى تتمّ القصيدة، فيكتبها حينئذٍ بنفسه أو يمليها على أحد معارفه. وأحب الشعراء إليه من المتقدمين أبو الطيب المتنبيّ، ومن المتأخرين أحمد شوقي، ولا يقدم على المتنبيّ شاعراً، ويحفظ كثيراً من شعره، ويعتبره أستاذه. وفي ذاك يقول من قصيدة طويلة

ترجم فيها المتنبيّ :

أنت علّمتني نظـــام القـــوافي — أنت أعليت في البـــلاغـــة كعبي

لم يحل بيننـــا التراب، وأنّـى — للثـــرى أن يغيب بـــالمتنبيّ

وهو شديد الولع بمطالعة الكتب القديمة والحديثة، ولا تكاد تراه إلا ومعه كتاب يطالعه، ويرى في ذلك سعادته. وهو لا يحب الظهور ولا يسعى له، لأن حب الظهور عنده رياء، والرياء من أقبح خلائق الإنسان وآلامها، لأنه غشّ، ومن غشّنا فليس منّا. وقد حرق شعره مرة وصمّم على ترك نظم الشعر، فلم يلبث طويلاً حتى عاد إليه، لأن الشاعر غير مختار في نظم الشعر، ولو ظنّ أنه مختار بحسب الظاهر، بل ليس في الكون كله حركة اختيارية إذا أمعنت النظر ولم تنخدع بالظواهر. والنثر عنده أفضل من الشعر، لأنه الأساس الذي قام عليه رقيّ البشر، والله لم يخلق الإنسان إلا للرقيّ، وليس في استطاعة الشعر أن يقوم مقامه، بل متى تورّط في ذلك خرج عن أن يكون شعراً. ويرى أن النثر العربي قد بلغ في هذا العصر شأواً بعيداً من الجودة لم يبلغه الشعر، إلا فيما خلّده شوقي من الآيات البيّنات. ولا يرى في ذلك عيباً على اللغة ولا قصوراً منها، لأن الشاعر من مواهب الطبيعة تهبه متى تشاء، وقد تشحّ الطبيعة بالشاعر النابغ وتتمادى في شحّها أجيالاً كثيرة وعصوراً متطاولة».

قال حسين الظريفي :

«. . . . والمرحوم إبراهيم أدهم الزهاوي كان معجباً، بل كلفاً، بشعر المتنبّي، فتراه متأبّطاً ديوانه في كل آنائه، وإني لأعجب كيف لم يحفظه مع طول قراءته له، كما كنت قد حفظته في صيف العام قبل الماضي وكما حفظه أخوه عبد الرزّاق الزهاوي.

«إن بين المتنبّي والزهاوي أكثر من شبه واحد، وقد انعكست هذه المشابه في شعر الرجلين. وهي مشابه موروثة لا يد فيها لأيّ منهما. وإن وقائع الحياة التي يمرّ بها الإنسان تتولّى ما انتقل إليه إرثاً من الآباء والأجداد بالصقل آناً وبالطمس آناً آخر، بحسب ما تكون عليه تلك الوقائع من تفاعل مع المواريث تفاعلاً موجباً أو غير موجب.

«وأول هذه المشابه تلك الشخصية القوية التي يتأثر بها القارىء تأثراً يصل به الى عمق الانفعال، فتراه مأخوذاً ببريق ما يقرأه وكأنه يركض به في فهم المعنى الطافي على وجه ألفاظه فهماً مبهراً، ومن ثمّ يكون مؤثراً، حتى إذا تكرّرت النظرة ظهر له في ما يمكن أن يحمل عليه من مأخذ . . .».

وأضاف حسين الظريفي أن المتنبّي سلك في شعره كله طريق الغوص على المعاني أولاً، ثم إيجاد القوالب الشكلية لها بعد ذلك، مستجيباً فيما قدم وأخّر الى نداء الطبع فيه. وكذلك فعل إبراهيم أدهم الزهاوي، فإنّ المعنى الطافي على وجه شعره يكاد

يخطف البصر. ولكن متى انتهت الهزّة الأولى وأعاد القارىء أو السامع مع النظر في البيت إعادة الناقد الهادىء، تبيّن له أن وراء ما عليه من طلاء ظاهر باهر شيئاً يستوقف النظر. . . (جريدة التآخي، في ٩/ ٣/ ١٩٧١).

وكتب عبد القادر البراك عن إبراهيم أدهم الزهاوي فقال: «إن الزهاوي الصغير كان من الكتاب المقتدرين وقد تجلّت قدرته الكتابية وأحاطته بالعديد من العلوم العقلية والنقلية في الفصول التي ردّ بها على آراء عمه الشاعر المتفلسف المرحوم جميل صدقي الزهاوي في الفلسفة والفلك والكون وغير ذلك مما تضمّنه كتابه «المجمل ممّا أرى». . . كما سبق له أن نشر مقالات في الدفاع عن الشعر العمودي يوم انطلقت الدعوات الى الشعر المرسل والشعر المطلق والشعر الحر في مطلع القرن الحالي، فكان بحق أول المدافعين عن عروض الخليل والذابّين عن اتهامه بعدم وفائه بالتعبير عمّا استجدّ من أغراض الشعر الحديث. هذا إضافة الى المقالات العديدة التي ناقش بها فيلسوف الفريكة أمين الريحاني حول ما تضمنّه كتابه «قلب العراق»، والمقالات الأخرى في الملل والنحل والمعتقدات والتي يعتبر كتابه «إبطال اللانهاية» المطبوع في القاهرة في أواخر الأربعينات من أهم نماذجها».

هذا وقد جمع عبد الله الجبوري ديوان شعر إبراهيم أدهم الزهاوي وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٩ مع دراسته بقلم الدكتور شوقي ضيف.

عبّاس الخليلي

الشاعر الأديب العراقي المغترب في إيران عباس بن أسد بن المولى علي بن الخليل الطبيب الطهراني الأصل، المتوفى سنة ١٨٦٤ في النجف.

قدم الخليل الذي تنتسب إليه الأسرة الى العراق في نحو سنة ١٨٠٠ ومارس الطب وعمّر زهاء مائة سنة. واشتهر ابنه المولى علي (١٨١١ ــ ١٨٨٠) عالماً زاهداً بلغ رتبة عالية في الاجتهاد وألف خزائن الأحكام وسبيل الهداية وغيرهما من كتب الفقه والأصول. واشتهر أيضاً الشيخ حسين الخليلي الذي انتهت إليه الزعامة الدينية بعد وفاة السيد حسن الشيرازي، وتوفي سنة ١٩٠٨ عن نحو تسعين عاماً.

ولد عباس الخليلي في النجف سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها، وقرض الشعر وهو شاب يافع. وقد اشترك في ثورة النجف الأولى على الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ ـ وهي الثورة التي قام بها الحاج نجم البقال ــ فحكم عليه بالاعدام، ولكنه استطاع الهروب والاختفاء في الآبار حتى بلغ إيران آمناً. وأقام عباس الخليلي في طهران، وأصدر فيها جريدة «إقدام» الفارسية اليومية، فظهرت أكثر من عشرين عاماً حتى سنة ١٩٤٨. وأبعد عن البلاد الإيرانية سنة ١٩٣١، فجاء الى بغداد وأقام فيها بضعة

أشهر، ثم سمح له بالعودة الى طهران.

وقد وظف في دائرة بلدية طهران، ثم كان وكيلاً لدائرة القوانين في وزارة العدلية فرئيساً لها. وعمل في وزارتي الداخلية والخارجية، ثم عيّن في سنة ١٩٤٨ سفيراً لإيران في الحبشة واليمن، وكان بعد ذلك عضواً في لجنة مصايد أسماك بحر قزوين.

قال حين فرّ من العراق:

رويداً، رجال الإنكليز ورأفةً ... إن اليوم أسرفتم فإنّ لنا غدا...

ثم التفت الى أبناء وطنه يحييهم قائلاً:

يحيّيكم، أهل العراق، على النّوى ... فتى في سبيل المجد أمسى مشرّدا

تحية عانٍ كلما هبّت الصَّبا ... ينوح كما ناح الحمام مغرّدا

إنِ اليوم أطلقت اللسان بحبكم ... فبالأمس عنكم قد سللت المهنّدا

وهو كاتب باللغتين العربية والفارسية وشاعر عربي نشرت قصائده مجلة المقتطف والهلال والعرفان الخ.

ومن شعره بعنوان «الرائد»:

أبثّك ما بي من جوى يقلق الصمّا ... يجيش إذا ما رائد الأمل احتمّا

وأخشى على نفس بجنبك حرّة ... إذا بحثت أن لا تحمل البثّ والهمّا

جوى كلما أخفيته عنك يلتوي ... على القلب صلّاً أرقماً ينفث السمّا

رعى الله قلباً قلّبته يد الهوى ... على الجمر إن سار الظلام رعى النجما

تحيّر بين الحبّ والمجد تائهاً ... فمن جانب عفواً ومن جانب رغما

وقال حين عاد الى العراق سنة ١٩٣١:

قبّلت منك بعينيّ الأرض لا بفمي ... وجفّ دمعي فروّاك الحشا بدمي

عفّرت بالترب وجهي إذ سجدت ضحى ... فناب للسعي رأسي فيك عن قدمي

وكاد ينطق طرفي بالسّلام على ... أرض العراق فهذي أدمعي كَلِمي

ما الدمع واللفظ إلا لؤلؤ رطب ... خلطت منتثراً منه بمنتظم

رضعت فيك لبان المجد من صغر ... فلست حتى الردى عنه بمنفطم...

توفي في طهران في ١٠ شباط ١٩٧٢.

وضع مؤلفات عديدة ونقل الى اللغة الفارسية تاريخ ابن الأثير وكتاب «ضحى الإسلام» لأحمد أمين الخ. وترجم الى العربية ١٧ ألف بيت من شاهنامة الفردوسي. ومن مصنفاته: إيران بعد الإسلام، إيران والإسلام، الخ.

وكانت آخر قصائده «اللوح» نظمها قبيل وفاته، قال في مطلعها :

مــــا على الصبح لـــــو أزال الإزارا فمحـــــا الليـل ثم خـطّ النهـــــارا
بمــــــداد من عسجـــــد ويــــــراع من شعــــاع الشمس استمـــدّ النّضـــارا
وبسفـــــــر زمـــــــرّدي وكـفّ مــن لجين تنمّـق الأسفـــــــــــارا
هـي كفّ الفجـــــرالتـي لاح فيهـــــا رمـــز خطّ تمحـــو بـــه الأسحـــارا . . .

قال من قصيدة نظمها بعد فراره الى إيران سنة ١٩١٨ :

أمـــــا وغمام يشبـــــه الظلم أســـودا ورعــد حكى قصف المدافع بـالصّـدى
وبــرق يــرينـا ومضــه الحقّ خــافقـاً، فسرعــان مــا يخفى عن الطــرف إن بــدا
وغيث همى هطـــلاً يــذكّــرني الــوغى يمثّل رشــــاشــــاتها تمطـــر الــردى
وأفق على فقـــد السيــاســة صـــدقهـا جـــداداً بمســــودّ من الفشـل ارتـــدى
وعــاصف ريـح مـرّ كـالموعـد الـذي لنــا ضرب «السكـون» نــاهيك مـوعـدا
وليل هـــو الحكـم الحديـديّ حـــالك قضـى لي قهـــــراً أن أبيت مسهّـــــدا
يمينـــاً، ولم يقسم فتـى قبل بـــالـــذي وصفـت ولكنّـي حلفـتُ تعمّـــــــدا
لقــد صبغـت منّــا الـدّمـا كـلّ بقعـة زهت فبـــدت غنّـــاء في أعين العِـــدَى

عبد الكريم العلاّف

الشــاعـر الأديب، نــاظم الأغــاني الشعبيــة، عبـد الكـريم بن مصطفى بن سلمان العلاف العزّاوي، كان أبوه مصطفى العلاّف ينظم الشعر وله تواريخ منظومة بحساب الجُمَّل. ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٤ ودرس على الشيخ عبد الـوهاب النـائب. ومال الى الأدب ونظم الشعـر منذ فجـر شبابـه، فقـال أولى قصائده في مـدح أستاذه النـائب، ومطلعها :

رعـــى الله صبـاً عنـــّفــته عــواذلــه وشطّت بـــه نحــو البعـــاد منــازلـــه

وكـان من شعـراء الثـورة العـراقيـة سنـة ١٩٢٠، ألقى قصائد حماسيـة في جـامع الحيدرخـانة والاجتماعات الـوطنية. ثم فـرّ الى مضارب عشيرته العـزّة وسجن في دلتاوة (الخالص).

وعيّن سنة ١٩٢٦ كاتباً في دائرة المال بقضاء الكاظمية، ثم عمل أعمالاً مختلفة وتولى تحرير مجلة الفنون الأسبوعية (شباط ١٩٣٤).

وقد نظم أشعاراً رائقة لحّنت وغنّيت. من تآليفه: بغداد القديمة (١٩٦٠) الطرب عند العرب (١٩٤٥) الموال البغدادي (١٩٦٣)، نيل المرام في قاموس الأنغام، الأغاني والمغنيات (١٩٣٣) أيام بغداد (١٩٦٩) قيان بغداد (١٩٦٩) مجموعة الأغاني والمغنيات (٢٤ حلقة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٦) موجز الأغاني العراقية (١٩٣٠)، قطف الأثمار في الأشعار والأخبار.

من شعره في رثاء شيخه النائب:

تـــرحل صــــاحـب الفضل العميـم	وخلّـف في القلـــــوب لظى الجحيم
مضى عنّـــا وكـــان العيش غضـــاً	بجـــانـب ذلك الفـــذّ الـــرحيـم
ومـــادت راسيــــات الأرض حـــزنـــاً	عليـــه وقـــد هـــوت زهـــر النجـــوم
وقـــد فـــاضت عليـــه كـلّ عين	ولم تنـجُ القلـــــوب مـن الكلـــــوم

حتى يقول:

لقـــد عفـت الحيـــاة، ونحـن فيهـــا	نكـــابـــد لـــوعـــة العيش الـــذميم
وحقّك مـــا الحيـــاة حيـــاة عـــزّ	تطيـب لكـــل شيطـــــــــان رجيم
خيـــار القـــوم تلقـــاهـم نيـامـــاً	على مضـض كأصحـــــاب الـــرقيـم
فكيـف يطيـب عيـش في بـــــــلاد	يـــدلّ بها الكـــريـم على اللئيم؟...

وقد اشتدّت به الفاقة في أيامـه الأخيرة وهدّ جسمه المرض، فاضطرّ أن يمتهن كتابة العرائض في دائرة طابو بغداد سداً لرمقه. ثم عيّن مشرفاً أدبياً لفحص الأغاني بمصلحة المسرح والسينما.

وتوفي العلاف في بغداد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٩.

كان العلاف شاعراً عاطفيـاً، سئل عن رأيه في الشعر الحرّ فقال: «ليس هناك شعر حرّ، فالشعـر يلتزم بالقافية والـوزن. وهو كما هو معروف ينمّ عن العاطفـة والوجدان. وإذا تحرّر الشعر من القافيـة والوزن فقد أهم ميزاته ولا تكفي العاطفـة وحدها لتسميته بالشعر. فنحن نقول أحياناً كلاماً عاطفياً جميلاً بكلمات منمّقة رشيقة، لكنها بعيدة من أن توصف بالشعر».

نظم العلاف مئـات الأغاني الشعبية التي انطلقـت من حناجر مغنيـات فترة ما بين الحربين فهـزت النفوس وتـرددت على الألسنة، وأشهـرهـا: يا نبعـة الريحان، خـدّري الشاي خدّري، قلبك صخـر جلمود الخ. ويصحّ مقايسة العـلاف بأحمد رامي شاعر الشباب المصري لولا الفارق الفنّي الجسيم بين مصر والعراق في تلك الآونة.

وقد أعجب العلاف بالملا عثمان الموصلي فسار على نهجه في أغانيه الشعبية.

قال عبد الكريم العلاف من قصيدة له «هيا الى الحرب» في ثورة ١٩٢٠ :

أيـن أهل الحفـــاظ، أهـل الحميّـــة أين أحفـــاد قـــادة القـــادسيّـــة
أيـن أبنـــاء يعـــرب ونـــزار أين تلـك الشهـــامـــة العـــربيّـــة
يـــا أســـود العـــراق، أنتم حماه من قـــديم الـــزمـــان بين البريّـــة
لكم في الـــوغى مـــواقـف حـــرب هي كـــالشمـس في النهـــار جليّـــة
وثبـــات في الحادثـــات وعـــزم ونفـــــوس عن الهوان أبيّـــــة
كلما الحرب جـــاش فيهـــا عبـــاب خضتـم كلّكـم عبـــاب المنيّـــة
كيف تغضـــون عن إغـــاثـــة شعب مستجيراً يأبـى قبـــول «الـــوصيّـــة»
كيف تـــرضـــون، يـــا أبـــاة، وفيكم رامـت الحكـم دولـــة أجنبيّـــة
حكمت في البـــلاد ظلماً وقـــالـت : إن هـــذي حكـــومـــة وطنيّـــة
آل قـــومي، هيّـــا الى الحرب هيّـــا، إنّ فيهـــا حيـــاتنـــا الأبـــديّـــة
وامـــلأوا مسمـع العـــداة دويّـــاً كـــدويّ الـــرعـــود وقت العشيّـــة
إنّ عين الإلـــــه تـــرعـى حماكم وتنير المسعـى بكـل قضيّـــــة

القصص الشعري :

نظم عبد الكريم العلاّف قصصاً شعرياً على منوال معروف الرصافي في «أمّ اليتيم» و «المطلّقة» و «اليتيم في العيـد»، وخيري الهنداوي في قصيدتـه «زينب وخالـد» أو «فتاة بغداد وفتاها»، وكاظم الدجيلي في «بوليس بغداد». رسم العلاف في قصيدته «الوحش الكاسر» صورة من صور بغداد في عهـد الاحتلال البريطاني، ولم ينس في مطلع قصيدته أن يصف حالته النفسية فيقول :

أرقتُ، وضـــوء البـــدر في الليـل يسطع ونجم الـــدجى سهـــران والنـــاس هُجَّعُ
تحيـط بي الأرزاء مـن كـل جـــانـب وقلبي على مـــا حلّ فيـــه مـــوجّع
كـأنّي في دنيـــا الهمـــوم أراكـــة يميـل بها عـــــاتي النسيـم فتركـع
وصرت أنـاجـي الفكـر في حـــال أمتّي وأحسـب أشتـــاق الأمـــور وأجمع
وطـــرفي على أطـــلال بغـــداد مـــرسل سحـــائب دمع مـن جفـــوني تنبع

على مـوطن قـد كـان بـالأمس آهـلاً وأصبح هـذا اليـوم والـدار بلقع
سمعت بـه صـوتـاً على البعـد راعني وأيّ فـؤاد بـالأسى لا يـروّع؟
نشيج لـه في ظلمـة الليـل رنّـة كـأنّ بـه سيفـاً لقلبي يقطع

قام من فراشه وسار يتحرّى مصدر البكاء، فجاء الى دار خيّم عليها الحزن والكآبة. ووجد فيها امرأة حسناء تبكي بحرقة، وقد أحاط بها فتيات أربع، وفي حضنها طفل ألمّ به الطوى... تقرّب منها يستطلع حالها:

تقـرّبت منهـا، وهي تخشى تقـرّبي، أودّ على أحـوالها أتطلّـع
وقلـت لها: من أنـتِ؟ بـالله خبّري، لقـد سـاءني منـك النشيج المرجّع
فقـالت: أنـا سعـدى فقـدت سعـادتي ويـا ليت لي تلك السعـادة تـرجع
بكيت على حظـي، على مـا أصـابني، على بـدر عـزّ غـاب هيهـات يطلع

بكت سعدى على قرينها الذي كان ملازماً عسكرياً، دعاه داعي الحرب فودّع زوجه وأطفاله، ومضى يؤدي واجبه في ساحة الوغى، ومات شهيداً يناضل عن قومه ووطنه، مخلفاً أسرته بين فكّي الحزن والمذلّة والفاقة.

وقـد دخـل الأعـداء بغـداد عنـوة وصـار لهم فيهـا نفـوذ ومطمع
وجـاروا علينـا واستبـدّوا بحكمهم وخـانـوا عهـود الإتفـاق وضيّعـوا
وبـالأمس منهم واحـد حلّ دارنـا يهيم كـوحش بـالفـريسـة يطمع
و مـال على إحـدى البنـات بقسـوة فجـاذبها بـالـرغم والبنت تـدفع
ولما رأيت الغـدر يبـدو بـوجهـه وقـد أوشك الملعـون للبنت يصرع
صرخت بصـوت من فـؤاد مـروّع: الينـا، الينـا أيها النـاس أسرعـوا
أنـادي فـلا ألقى مجيبـاً سـوى الصـدى ولا واحـد وافى الى الخطـب يـدفـع
وقـاومـت ذاك العلج في عـزم حـرّة فبـاء بخسران الى حيث يهرع

وأسفت المرأة على ضياع النخوة وصبر القوم على الأذى وانغماسهم في الملاهي والملاذّ وتقويضهم صروح العلم لينشئوا المسارح والمراقص. ولا يبخل الشاعر عليها بالتسلية والعزاء، آملاً أن تكون الحال التي ذكرتها سحابة صيف عن قريب تقشّع، فيرتفع في البلاد علم العرب الميامين، وتزدهر الأوطان وتخضرّ المزارع والمرابع، ليعيش الناس في عزّ ونعمة.

من شعره في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

شعب العراق :

لـك الخير، لا راعت حِماك الأجـانـب	ولا بلغـت للخصـم فيـك مـآرب
أبى الله إلاّ أن تعيش مـؤيّـداً	بـرغم العـدى، والله لا شك غـالب

وقال :

نهضتم، بني قـومي، الى عـزّكم نَهْضَـا	وقـوّضتمُ صرح التخـالف والبغضـا
نهضتم إلى استقـلال شعبكـم الـذي	يكـاد عليـه من يـد الجور أن يُقْضَى
طلبتم حقـوق الشعـب، والشعب قـائم	على قـدم يبغي التقـدّم لا الفـوضى

عبد الحسين الحلّي

الشاعر العـالم الأديب الشيخ عبد الحسين بن القاسم بن صـالح الحلّي ولد في الحلة سنة ١٨٨٣ ودرس في معاهـد النجف وتصدّى للتدريس بها واشترك في الحركـة الوطنية في النجف سنة ١٩١٨ ـ ٢٠، ثم عيّن قاضياً للبحرين، قال في ذلك جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» :

«لا أدري كيف رضيت (النجف) لنفسها أن تراه يغـادرها الى البحرين بصفة رئيس للتمييز الشرعي دون أن تحرّك النجف ساكناً؟ وهي تعلـم ـ أي النجف ـ أن الشيخ عبد الحسين قد أفنى زهرة عمره في سبيل عزتها العلمية وشهرتها الأدبية . . . وإني لأذهب الى أن موقف أهل بغداد مع عبـد الوهاب المالكي في القرن الـرابع، الذي حمله ضيق ذات اليـد على السفـر الى مصر والذي اجتمع حـولـه العلماء والفضـلاء ليحولـوا بينـه وبين الهجرة، فقـال أنه لو وجـد من يدفع لـه كيلاً من الباقـلاء في اليوم لعـدل عن الهجرة، فبكى الجميع ولكن لم يظهـر أحد استعداده لسـدّ هذه الخلّـة، أقول: إنني لأذهب الى القول بأن مـوقف بغداد في القـرن الرابع (الهجري) مع عبـد الوهـاب ـ على نبوّه ـ كان ألطف بكثير من موقف النجف مع الشيخ عبد الحسين في القرن العشرين.

وقد أمضـى في قضاء البحريـن نحواً من عشرين سنـة وتوفي بها سنـة ١٩٥٥ . وقد قال :

تطلعـت مـن المربـأ	الى العـود الى المبـدأ
وسرّحـت بـه طـرفـاً	حـديـد الطـرف لا يخسأ
وفكـراً لم يـزل يخطـو	ولكـن قلّما يخطـأ . . .

نظم شعراً كثيراً نشر بعضه في مجلة الهاتف النجفيّة وسجل نماذج منه علي الخاقاني في

الجزء الخامس من «شعراء الغريّ». وألّف الحلي كتباً منها: نصرة المظلوم، النقد النزيه لرسالة التنزيه (١٩٢٩) مسائل فقهية (١٩٦٤) حياة الشريف الرضيّ (١٩٦٨) الخ.

***

روى جعفر الخليلي أن عبد الحسين الحلّي رشّح قاضياً شرعياً، لكن زعم أنه أخفق في الامتحان وعيّن بدلاً منه الشيخ مهدي سميسم. وزار هذا الأخير الشيخ جواد الشبيبي في أثناء ذلك، فقال الشبيبي وهو لا يدري أن سميسم قد حلّ محلّ الحلي: حسناً فعلت الحكومة، فإني لا أجد برهاناً أكبر على غباوتها وتحيّزها من رفض تعيين رجل فاضل كالشيخ عبد الحسين وترشيح حمار لا يدري أي طرفيه أطول ليحلّ محلّه...

فامتقع وجه مهدي سميسم وظهر عليه الاضطراب والخجل وقال: أؤكد لكم أنني رفضت قبول القضاء لولا إلحاح وزارة العدلية وإصرارها.

قال عبد الحسين الحلي يحيّي النجف:

حيّ أوطاني اذا سعدت	بالتحايا الغرّ أوطان
وأصيحاباً عهدتهمُ	وهم في الله إخوان
لهم في كل مكرمة	أثر بالفضل ملآن
كيف يخفى فضلهم، وله	بينهم من لطفه شان؟

جعفر نقدي

الشيخ جعفر محمّد تقي نقدي القاضي الشاعر الأديب، وهو جعفر بن محمّد بن عبد الله النقدي من أسرة تنتمي الى ربيعة، ولد في العمارة سنة ١٨٨٥، ودرس الفقه والعلوم العربية والدينية. وقد عيّن قاضياً للعمارة في حزيران ١٩١٩، وكان عضواً في مجلس التمييز الشرعي الجعفري، ثم تولّى القضاء الشرعي في كربلاء (كانون الأول ١٩٣١)، وعيّن بعد ذلك قاضياً في البصرة (حزيران ١٩٤٥)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٤٧.

توفي سنة ١٩٥١.

نشر علي الخاقاني جانباً من شعره في الجزء الثاني من «شعراء الغريّ». ووضع جعفر نقدي مؤلفات كثيرة، أهمها: الإسلام والمرأة (١٩٣٠) الحجاب والسفور (١٩٣٠) أباة الضيم في الإسلام، تنزيه الإسلام (١٩٤١) الدروس الأخلاقية (١٩٣٨)، ذخائر العقبى، زهرة الأدباء (١٩٣٨)، زينب الكبرى (١٩٤٧) ضبط التاريخ بالأحرف (١٩٤٧) نزهة المحّبين في فضائل أمير المؤمنين (١٩٥٠) وسيلة النجاة في شرح الباقيات

الصالحات لعبد الباقي العمري، الأنوار العلوية (١٩٥٨) تاريخ الإمامين الكاظمين (١٩٥٠) غزوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (١٩٦١) فاطمة بنت الحسين (١٩٦٤)... وحقق ونشر كتاب تدابير المنازل أو السياسات الأهلية للرئيس ابن سينا (١٩٢٩).

قال جعفر الخليلي: والشيخ جعفر نقدي عالم فقيه كان لفتاواه في أحكام القضاء حين كان يشغل القضاء الشرعي أثر كبير في التيسير. وكان من كبار العلماء في تاريخ الأدب العربي، وهو بعد ذلك من الشعراء المعروفين في عصره.

كان لجعفر نقدي مطارحات شعرية مع محمد مهدي الجواهري الذي خاطبه بقصيدة مطلعها:

مرّ النسيم بريّاكم فأحيانا ... فهل كذكراكمُ في القلب ذكرانا؟

فأجابه جعفر نقدي:

لو كان يألف قلب الصبّ سلوانا ... ما بات يصلى بأيدي الشوق نيرانا

أو لم يكن ذاب وجداً في محبّتكم ... لما تعذّب بالأشجان ألوانا

حمّلتموه هموماً لو تجشّمها ... ثهلان دكت على الغبراء ثهلانا

مقدّمات على دعواه أنتجها ... قياسها مدمع الأجفان برهانا

إنسان عيني جرى دمعاً فأغرقني ... وربّما أغرق الإنسان إنسانا...

وقال الجواهري:

أنا مذ همت فيكم كان دأبي ... إنّ ما تشتهوه يحمله قلبي

فأجاب نقدي:

يا أخلّاي في الحمى، أي وربّي ... أنتمُ في الحياة منية قلبي

بهواكم أنست لا بسواكم ... ولكم في الوداد أخلصت حبّي...

وقال الجواهري:

الله يصحب بالسلام مودّعي ... عجلاً وإن أخنى عليّ بعاده

فأجاب نقدي:

أحبابنا، بعض العتاب لواجد ... شوقاً للقياكم يحنّ فؤاده

مهما تشبّب في الغريّ فأنتمُ، ... يا ساكني أرض الغريّ، مراده

قاسم الشعّار

القاضي الفقيه الشاعر الشيخ قاسم الشعّار، ولد في الموصل سنة ١٨٨٧ . وكان أبوه الشيخ محمّد ضياء الدين الشعار القادري الحاتمي عالماً شاعراً ناثراً، ألف كتاب «السعادة» المطبوع في استانبول سنة ١٨٩١ ، وتوفي في تموز ١٩١٢ .

درس قاسم الشعار على أبيه وغيره من علماء الموصل وتصدّى للتدريس سنة ١٩١٠ . وعيّن قاضياً في المحاكم الشرعية في شباط ١٩١٩ ، وأصبح قاضياً في يعقوبا (أيلول ١٩٢٥) والموصل في كانون الثاني ١٩٣١ ، فكركوك فالموصل ثانية (آب ١٩٣٧) فالبصرة (أيار ١٩٤٢) فكركوك (شباط ١٩٤٦)، فالموصل أيضاً حتى اعتزل الخدمة في كانون الأول ١٩٤٩ .

توفيّ في ٨ شباط ١٩٥٥ . وكان شاعراً عالماً، وضع تصانيف في الأصول والفرائض والفقه والتصوّف .

محمّد رضا الخطيب

الشاعر محمد رضا الخطيب الذي اشتهر بقصيدته في هجاء الطبيب، ولد في بلدة طويريج المعروفة بالهندية على الفرات سنة ١٨٩٣ ، وهو محمد رضا بن هاشم الموسوي، واتصل بآل القزويني فتأدّب عليهم، ونظم الشعر فأجاد فيه وأحسن .

كتب عنه عبد القادر البرّاك الذي عرفه حقّ المعرفة فقال : « . . . فرأيت أن أردّ بهذه الكلمة المحضة الى الأذهان صورة ذلك الشيخ الذي كان يضطرب في الحياة، فلا يشعر بوجوده أحد لإيثاره الدعة ولطول الكبت الذي أقعد هممه عن كل طائلة يكسب من ورائها الراحة والاطمئنان . . . » .

وكان الخطيب برماً بمحيطه الضيّق، فكان يزور بغداد بين الحين والحين فيلتقي بأدبائها ويحضر ندواتها . وقد حظي بتقدير الزهاوي الذي قال فيه الخطيب :

تنتاب نفسي النائبات فتلتوي ... لكن بقربك تستعيد جمالها

وخاطب محمد رضا الخطيب معروفاً الرصافي بقصيدة قال منها :

لك في القريض مواقف مشهودة ... في الشرق هزّ الغرب صوت دويّها
وسياسة كفكفت من غلوائها ... وجعلت علياها على سفليّها
وكأنني بك قد رفضت بأن ترى ... متربعاً يوماً على كرسيّها
ولو أنها قد أنصفتك لأصبحت ... ولك التصدّر في رفيع نديّها

فأجابه الرصافي قائلاً :

إني لأشكـــر من محمــــد الــرّضــا شعــراً ذكــرت بـه زمــانــاً قــد مضى

شعــراً غـدوت على جــريــر فــاخــراً فيــه، ورحـت عن الفــرزدق معــرضــا

قـــد دبجّتـــه يـــراعـــة لمحمــــدٍ أخــذت تقيم مـن القــريض مُقَــوَّضَــا

هــي في التفنّــن ريشــــة لمصـــوّر ولـــدى القـــراع هـي الحســام المُنْتَضَى

لـــو كـــان في كفّ الـــرضيّ نظيرهـــا حســد الــرضيَّ بها أخــوه المرتضى . . .

وقد توفي محمد رضا الخطيب في مسقط رأسه في ٩ شباط ١٩٤٦ . ونشرت نماذج من شعره في «بـابليات» محمـد علي اليعقوبي (١٩٥٥). وألف: «الخبر والعيان في أحوال الأفاضل والأعيان» (في مجلدين).

هجاء الطبيب

فكّـــر لنفسك، أيها الـــدكتـــور، إن كـــان ينفع قـــاسيـــاً تفكير

أصبحت تحكم بـــالنفـــوس فمـــوتها وحيـــاتها أبـــداً عليك يـــدور

يمسي الفقير يئـنّ مـن آلامــــــــه ليـــــلاً وليلـك ضـــاحـك مسرور

لا أنـت تـــرحمه وليس يجيبــــــه مـــال ســـوى كفّ إليـك تشير

متـــوسّـداً حسـك القتــاد ومـالــه منــه فــراشـك سنـدس وحــريــر

بـــدمـــائه أبـــواب قصرك صبّغت وعلى الجماجـــم أُسِّسَـــتْ لـــك دور

كـم بـــائس هـــدمت بظلـم داره كيما تشيّـــــد للطبيب قصـــور

بـك يستجير ولا يجار فعنــــــد مـن يشكـــــو إذا كــــان المجير يجور

أمقطّـــراً مـــاء الشراب وكـــان من عبرات ذاك البــــائس التقطير. . .

تــالله إن شهـــادة طبيـــة صـــدرت بحقك كلهــا تــزويــر. . .

قلـب الغنـيّ تعيره سماعـــــــــة وتصـمّ أذنـك إن أتـــــاك فقير

وإذا دعـــاك أخـــو الثـــراء لـــداره تسعـى كأنـك خـــادم مأجـــور

وإذا جفــــــا أكـل الشعير حماره وعــــــراه مـن أكـل الشعير شخير

أصبحت بيطـــاراً لـــه ومضمّـــداً وحـــداك نحـــو عـــلاجـه التـدبير

والبـــائســـون إذا أتـــوك فحظّهم مـــن لطفـــك الإزراء والتحقير. . .

وأخـــوك عـــزرائيل أنـت وكيلـــه فينـــا وصهـــرك منكـــر ونكير. . .

أمقصّر العمـــر الطـــويل، وسعيـــه عنــد الحكــومــة صـالح مشكــور

بـــاعُ المحـــاكم للبريء ينـــالـــه عسفـــاً وأمـــا عنك فهـــو قصير

وسلمت من وخز الضمير لأنه — من أين للرجل الخؤون ضمير؟

وهي طويلة اكتفينا منها بالأبيات المتقدمة. ومن الطريف أن الشاعر جعفر الحلّي ابتلي بطبيب نجفي اسمه صادق فقال يهجوه:

في كلّ شيء صادق — إلاّ إذا جاء اليه العليل
يقول: هذا داؤه قاتل — ويوجب الإفطار لا عن دليل
ليس له في الطب شيء سوى — نسبته للشيخ مرزا خليل

والمرزا خليل طبيب نجفي شهير طهرانيّ الأصل.

عبد الوهاب الصافي

الشاعر القاضي عبد الوهاب الصافي ابن عم الشاعر أحمد الصافي النجفي، ينتمي الى الأسرة النجفية المعروفة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٩٩ ودرس في معاهدها. وكلّف في أثناء ثورة العشرين بالإشراف على الأسرى الإنكليز والهنود في الجعارة والنجف تحت إمرة عبد المحسن شلاش (آب ١٩٢٠).

كان أحد مؤسسي جمعية الرابطة سنة ١٩٣٢ وتولّى رئاستها. ثم انتمى الى سلك القضاء (٢٨ كانون الأول ١٩٣٦)، فعيّن قاضياً شرعياً للبصرة (أيار ١٩٣٨) فالناصرية (١٩٤١) فالنجف (آذار ١٩٤٢) فالبصرة ثانية (كانون الثاني ١٩٤٣) فبغداد (آب ١٩٤٤) فالعمارة (أيار ١٩٤٥) فالنجف (حزيران ١٩٤٧).

واعتزل القضاء سنة ١٩٥٠، وخوّل ممارسة المحاماة. ثم وظّف في مديرية ميناء البصرة حيث قضى عدة سنين.

وهو شاعر أديب، يحسن اللغة الفارسية وقد ترجم عنها روائع من شعر شعرائها نظماً.

أخبرني عبد الوهاب الصافي أنه اعتزل القضاء قبل أن يكمل المدة التي تؤهله لاستحقاق راتب التقاعد، فتشبّث للعودة الى الخدمة الحكومية، وعيّن موظفاً في إدارة ميناء البصرة على عهد وزير المواصلات والأشغال عبد الوهاب مرجان. ولم يعهد إليه بعمل ما، بل أعطي كرسياً ومكتباً في غرفة واحدة مع موظف مرهق بالأعمال يشتغل ليلاً ونهاراً لإنجاز مهامّه. فقال الصافي له: لا يصحّ أن نجلس في غرفة واحدة، أنت تعمل كثيراً وأنا عاطل لا أدري كيف أقضي ساعات الدوام. فأعطني جزءاً من عملك لأساعدك على قدر إمكاني. فأجابه: وهل تعرف اللغة الإنكليزية أو تعلم أوليّات شؤون الملاحة الفنية؟ إذا كنت تعرف شيئاً من ذلك فهلّم ساعدني.

ومضى الصافي إلى رئيس الدائرة وقال له: أعطني عملاً أستطيع القيام به، فلا يصحّ أن أقبض راتباً ولا أنجز عملاً. وبعد لأي عهد إلى الشاعر الصافي بمديرية زراعة الميناء، وكلّف بالإشراف على تنظيم الحدائق والبساتين، فصار يعمل ليل نهار ولا ينجز مهام وظيفته. فقال: ألا يوجد شيء وسط؟ فإما أن تبقى عاطلاً وإما أن تشتغل آناء الليل وأطراف النهار؟

وعيّن اللواء مزهر الشاوي الجندي الشاعر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مديراً عاماً للميناء، فأصبح عبد الوهاب الصافي، على ما حدّثني به، سكرتيراً شعرياً له ينظر في منظوماته.

توفي عبد الوهاب الصافي في بغداد شيخاً هرماً سنة ١٩٨٩.

الشيخ محمد حسن حيدر

محمد حسن حيدر ابن الشيخ باقر بن علي بن محمد علي حيدر من أسرة معروفة في سوق الشيوخ بالمنتفق ومن رؤساء قبائل الأجود. ولد في سوق الشيوخ سنة ١٨٨٨، وكان أبوه من رجال الدين جاهد في الشعيبة في بداية الحرب العظمى، ثم مرض ونقل الى بلده حيث توفي سنة ١٩١٥.

درس محمد حسن العلوم العربية والدينية وحاز على مكانة روحية وأدبية، ونظم شعراً نشر أغلبه في مجلة العرفان وجريدة دجلة والهاتف والغريّ ومجلة الاعتدال. واشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩٢٠. فلما استولت العشائر على بلدة سوق الشيوخ في إبّان الثورة (آب ١٩٢٠) عهد إليه بإدارتها.

إنتخب نائباً عن المنتفق في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) لكنه استقال. وانتخب بعد ذلك نائباً عن المنتفق في مجلس النواب سنة ١٩٢٨ ـ ٣٠و١٩٣٣ ـ ٣٤و١٩٣٤ ـ ٣٥، فنائباً عن العمارة ١٩٣٥ ـ ٣٦، فنائباً عن المنتفق أيضاً في شباط ١٩٣٧و١٩٣٧ ـ ٣٩و١٩٣٩ ـ ٤٣ و١٩٤٣ ـ ٤٤. وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس النواب في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٠.

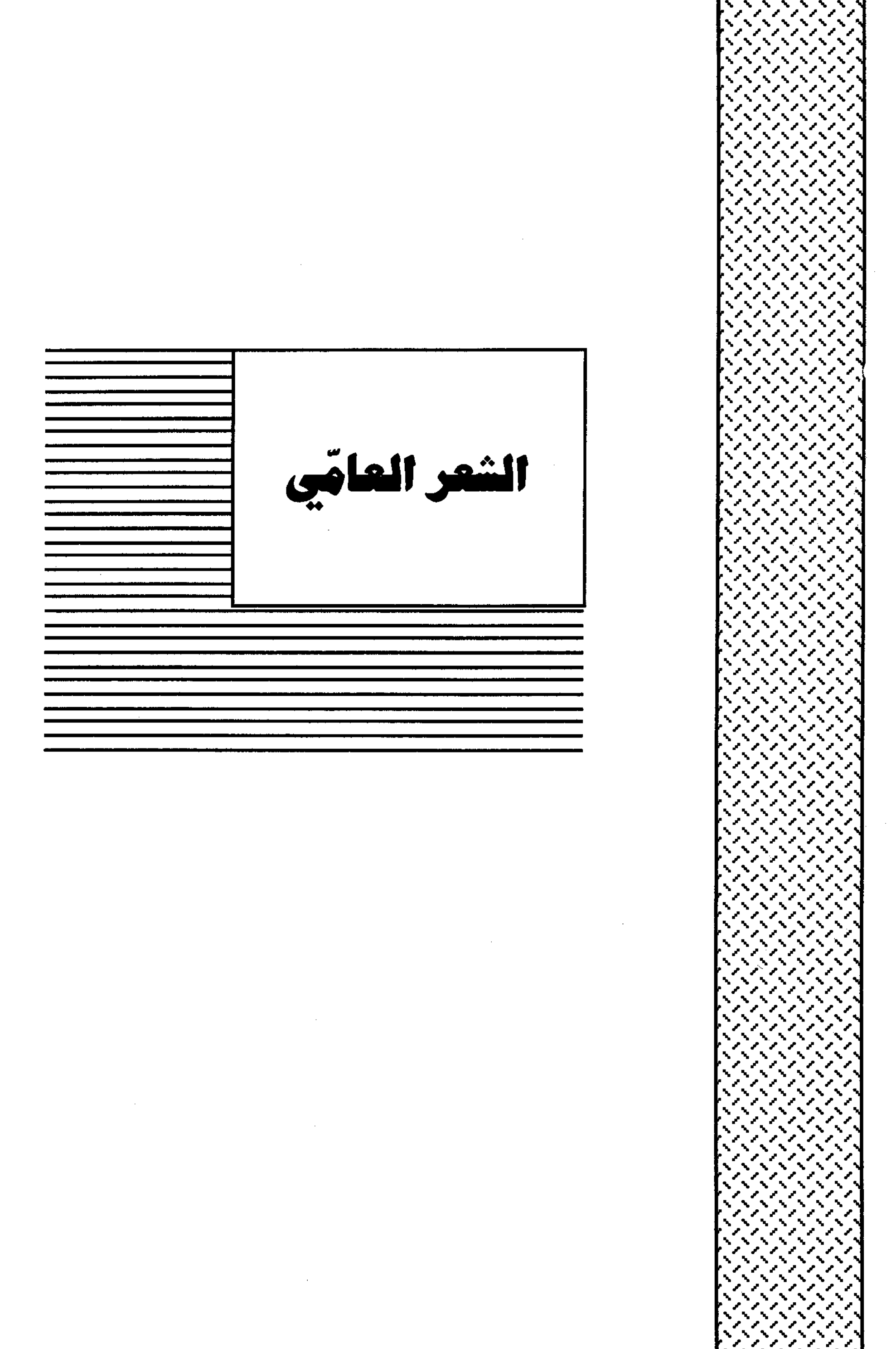
عارض المعاهدة العراقية البريطانية في المجلس التأسيسي عند المذاكرة فيها (١٩٢٤). وقال: إن إعطاء زمام البلاد للأجنبي خيانة، والخيانة خسران الدين والشرف والعيش الحرّ. واضطر بصفته نائب رئيس مجلس النواب في عهد حركة رشيد عالي الكيلاني (نيسان ١٩٤١) الى دعوة المجلس للانعقاد واختيار الشريف شرف وصياً على العرش في محلّ الأمير عبد الإله. فلما قضي على الحركة وعاد الأمير الى بغداد لوحق الشيخ محمد حسن وأهين، فاعتذر بأنه كان مرغماً في فعلته غير مخيّر. وبقي منكسر النفس مكسوف الخاطر حتى أدركه الموت في بغداد في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٤.

له مراسلات شعرية إخوانية مع إبراهيم الواعظ والملاعبود الكرخي والشيخ عبد الغني الخضري وغيرهم. ونشر شعراً كثيراً في جريدة دجلة الصادرة في بغداد سنة ١٩٢١ ـ ٢٢، منه:

هي أمّة العرب التي نهضت، وقد ... رفعت بنهضتها منار جلالها
نهضت بعبء المكرمات فأحرزت ... علياءها بجلادها وجدالها
حتى أشادت وحدة عربية ... في أسد غابتها وفي أشبالها
نهضت فنالت دولة عربية ... قومية قد شيّدت برجالها
نهجت بمنهاج الفخار فخلّدت ... عزاً لها يبقى الى أجيالها
ما كان لولا الإتفاق تنال ما ... رامت بمبدأ أمرها ومآلها
ما كان لولا الإتحاد بسعيها ... تحظى بسؤددها وباستقلالها
سل أمّة الفرس الأُلى والروم في ... ذي قار ما فعلته في أقيالها
سل عن معاليها المواضي والقنا ... والخيل يوم الحرب عند نزالها
بخصالها يزهو الزمان سناً غداً ... يزهو الزمان سناً غداً بخصالها
بنوالها عمّت بني الدّنيا ندى، ... عمّت بني الدنيا ندىً بنوالها
يا شرق، تِهْ فخراً فأنت مؤيّد ... ومعزّز لا زلت في أبطالها...

وله أيضاً:

أقرارٌ ولا أرى لي قراراً ... بمحيط فيه الخمول استدارا...
كم أنادي ولا حياة لمن قد ... غار في منهج الخمول وسارا
فإلى مَ الخمول باق، وهذي ... أهل بغداد قد تسامت فخارا؟
نهجت منهج الكمال الى أن ... تخذت أنجم السّماء سمارا...



الشعر العامّي



الملاّ عبّود الكرخي

الشاعر الشعبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في فترة ما بين الحربين، عبود بن الحاج حسين السهيل الكرخي، ينتسب الى فرقة البوطيف من عشيرة البوسلطان الزبيدية، ولد في بغداد في ٢٢ حزيران ١٨٦٩، ودرس في الكتاتيب وحلقات الدرس في مساجد بغداد والكاظمية. ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره انضمّ الى والده الذي كان يتاجر بالإبل والجلود ورافقه في سفراته بطريق القوافل الى إيران والشام والحجاز ومصر والأقطار التركية[١].

واستقرّ في بغداد بعد وفاة والده سنة ١٨٩٦، وتعاطى أعمالاً مختلفة من متاجرة ونقل وأنشأ سنة ١٩٠٨ شركة مع آل عارف آغا لنقل المسافرين بين أمهات المدن العراقية. ثم أصبح متعهداً للبعثة الألمانية التي قامت بمدّ خط السكة الحديد الى سامّراء سنة ١٩١١ وألمّ بشيء من اللغة الألمانية، علاوة على ما كان يعرفه من التركية والفارسية والكردية.

ولما أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤، رافق الحملة التركية الى إيران ترجماناً ومجهزاً للمواد الغذائية والمواشي والخيول. وأسره الروس في بعض المعارك، لكنه استطاع الفرار والعودة الى صفوف الجيش التركي. وسمع بأخبار الثورة التي أعلنها الشريف حسين في مكة سنة ١٩١٦، فترك القوات العثمانية ولجأ الى بعض القرى والأرياف حتى آذنت الحرب بالانتهاء.

عمل بعد ذلك في الزراعة فلم يؤاته النجاح، وعاد الى بغداد. واندلعت نار الثورة سنة ١٩٢٠، فأخذ ينشد قصائده الوطنية في جامع الحيدرخانة. وطبقت شهرته الآفاق، وتسابقت الجرائد الى نشر شعره العامي الذي لقي من الجمهور إقبالاً. ثم أنشأ

(١) ذكر عبود الكرخي في ترجمة له كتبها سنة ١٩٣٥ انه ولد في ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ويوافق ذلك الثلاثاء ٢٢ حزيران ١٨٦٩. أما في ديوانه فذكر تاريخ ميلاده سنة ١٨٦١. وذكر فائق بطي تاريخ ميلاد الكرخي في كتابه «أعلام في صحافة العراق» ١٩ حزيران ١٨٦١.

جريدة «الكـرخ» في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٧ ، فكانت من الصحف الشعبيّـة الرائجة . وعطلتهـا الحكومـة فاعتـاض عنها بجـريدة «صـدى الكرخ» (١٧ نيسـان ١٩٢٨) و «صدى التعاون» (٢ نيسان ١٩٣١) و «الكرخي» (٢ تموز ١٩٣٢) و «الملاّ» (٣٠ أيلول ١٩٣٣) و «المزمار» (٤ حـزيران ١٩٣٤) . وعادت الكرخ الى الظهـور خلال تلك المدة وبعدها ، فقضى في الصحافة نحواً من خمسة عشر عاماً (الى سنة ١٩٤٢) .

وأسس مطبعة سنة ١٩٣٣ ، ونشر في تلك السنة الجزء الأول من ديوانه . ثم نشر بعد وفـاتـه جـزآن من شعـره (١٩٥٥ ــ ٥٦) ونشر الجزء الثـالـث سنـة ١٩٦٧ ، والأدب المكشوف (١٩٦٧) أيضـاً . وساءت صحتـه في سنواته الأخيرة ، فلـزم داره حتى قضى نحبه ببغداد في ٩ تشرين الثاني ١٩٤٦ .

شعره :

يمثل شعر عبود الكرخي نهجاً خاصاً في الأدب الشعبي العراقي ، وقد اتّسم بسّمات المرحلة الانتقـالية التي مـرّ بها العراق خـلال السنين التي عقبت الحرب العظمي الأولى (١٩٢٠ ـ ٤٠) . قرض الكرخي الشعر العامي منـذ فجر شبابه ، وبرّز فيه تبريزاً ، وذاع بعد ذلك على ألسنة الناس وتناقلته الصحف والإذاعة والمجالس الخاصة . وهو يبدع في النقد والهجاء ، ولـه في سائر الأغراض كالسيـاسيات والوطنيات والاجتماعيـات والغزل والنسيب صـولات وجولات . وهـو يحسن إستخدام اللغـة العاميـة العراقيـة بمختلف لهجـاتها والقـديم والحديث من عبـاراتها ، ويطعّم شعـره بـالقصص والحكم والأمثـال الشعبية ، ويرصّعه بالكلمات الفصيحة والكردية والفارسية والتركية والهندية والانكليزية والعبريّة وغيرها ممّا هو مألوف لدى أبناء الشعب .

وكانت للكـرخي مساجلات ومطـارحات شعـرية مع شعراء العـامية في عصره وفي مقدمتهم حسين قسّام .

حظي شعر الكرخي بتقدير شعراء الفصحى وأدبائها ، فقال الرصافي :

لله درّك ، يـــا عبّـــود ، من رجـل	يـــا رافعـاً في القــوافي رايــة الــزجل
جــريت جــري قــديــر في مــزالقــه ،	لم تخش مـن زلـق فيــــــه ولا زلـل

وقال الزهاوي :

الشعــر مــا قــالــه الكــرخيّ عبّـود	ففيـــه لــــلأدب الشعبيّ تجديــــد
شعـــــر يفيض من القلب المشعّ لــــه	على اللســـان ، فما إن فيــه تعقيــد . . .
عبـــود إن عـــدت الأفـــذاذ في بلـــد	فـأنت في أول الأفــــذاذ معـــدود
فتحت للشعــر أبـــوابــاً ، ولا عجب	ففـي يمينك للنظـم المقــــاليـــد
إذا هجـــوت فنيران مـــؤججّـــة ،	وإن شـــدوت فـأغـــرود وأغـــرود

وقال عبد الرحمن البناء :

إن رمت للجمهـــور مـن شــاعـــر فشـــاعـــر الجمهـــور عبّـــود

وقال محمود الملاح :

من بعـــد عبّـــودٍ الكـــرخيّ لا تثقـن بـــالشعـــر يخلب ألبـــاب الجماهير

وشبّهه بالحطيئة الذي سنّ سنّة الهجاء لما رأى الفضل في الناس منكوراً غير مشكور.

وقال فهمي المدرّس : «جمع أسلوبه بين لغة العوام وما يقارب اللغة الفصحى تدريباً للعوام على الفصيح من القول، وهو أسلوب حديث في الأدب العامي، والأدب العامي في بلاد تتغلب عليها الأميّة لا يقلّ شأناً عن أدب الخواصّ. . . » .

وقال محمد بهجت الأثري : «والشاعر قدير بلا شك، وهو رافع لواء الشعر العامي في العراق. . . وشعره صورة للمجتمع، فإنّ فيه كثيراً من الحقائق الاجتماعية والسياسية وفّق في تصويرها الى مدىً كبير. . »

وقـال رفائيل بطي : « . . . وهـو يكنز في أشعـاره ثروة طـائلة من إحسـاس العامـة وصـور أفكارهـا ونظـراتها الى الحياة، وهـو يمثل عيشـة طبقات الشعب ذات الصبغـة المحلية البحتة. . . »

وقال انستـاس الكرملي يخاطب الكـرخي : «وامتاز شعـرك أيضاً بحفظ لغـة العراق الخاصّة به، بآدابه وأخلاقه وآرائه. . . » .

وقال علي الشرقي : «تفضل عليّ الشاعر الـزجلي الاجتماعي الملا عبود بتقديم نسخة من ديوانه العام. ولما تصفحته وجدتني قد تصفحت العراق كله. نعم، فإنّ بين دفتي ذلك الديـوان عراق الثلث الأول من القرن العشرين، فهـا أنا أتجوّل في شوارعه ونـواديه ومراسحه ومقاهيه، في ريفه وحواضره، أسمع الحوار السياسي والاجتماعي والنقد الأدبي واللـوعة الاقتصـاديـة، والصبر إبتسامـة الأمل، وأسمع أنّـة الألم بلغـة عراقيـة وتمثيل صحيح يقوم به شاعر الجمهور. . . » .

وقـال القـاضي جعفر نقـدي : «إن شعـر الكـرخي يشتمل على أبّهة امـرىء القيس وطرب الأعشى ورغبة زهير واعتذارات النابغة وغضبـة جرير وفخر الفرزدق ومدائح أبي تمّام ومحاسن البحتري ونفسيـة المتنبّي ولطائف كشـاجم وظـرائف ابن الحّجاج وبـدائع بديع الزمان، كلّ ذلك بلغتنا العراقية العاميةالتي يألفها عشاق الأغاني الشعبية. . . » .

وقال عباس العزاوي : «وفي ديوان المترجم ما يعيّن سعة اللغة العامية. . وقد اتفقت كلمة أدبائنا على أن شعره من أفضل الشعر في الأدب العامي، ولم يبخسه أحد حقّه» .

والكرخي بعد ذلك ظريف له دعابة حسنة وفكاهة مستملحة. وينقل عنه أنه قال : لم يغلبني أحـد سـوى أعرابيّ لقيتـه في زورق في شط العـرب، وكـان هذا الـزورق يسير

بمحاذاة الشاطىء ويقوم مقام الباص، يأخذ الركاب وينزلهم بين القرى المنبثة على ضفاف النهر. وقد ركبته ذات يوم قاصداً بعض الأنحاء لجمع بدلات اشتراك جريدة الكرخ، فإذا بأعرابي يجلس الى جانبي ويحدثني بأحاديث لقطع الطريق. وسألني الأعرابي: ما اسمك، يا ملاّ؟

ـ ملا عبود.

ـ نعم، ماذا كنّا نقول، يا ملا أحمد؟

ـ إسمي الملا عبود... عبود..

ـ عفواً، عفواً، يا ملا...

وناداه الأعرابي في خلال حديثه بكل الأسماء، فتارة ملا حمد وطوراً ملا علي أو جواد، والكرخي يقاطعه قائلاً: إسمي الملا عبود، فيعتذر صاحبنا ويعود الى تسميته باسم آخر في سياق الكلام. وضاق الكرخي ذرعاً بالأعرابي المتغابي، فقبض على ساعده وهزه هزاً عنيفاً وقال: اسمي جرو... جرو... ألا تعرف ما الجرو؟

وهنا بلغ الأعرابي المكان الذي يقصده وأشار الى صاحب الزورق بالوقوف، فلما خرج الى الشاطىء صاح بملء فيه: «في أمان الله، يا ملاّ جرو!» قال الكرخي: «قاتلك الله، لقد نسيت الملا عبود عشرات المرات، ولم تنس الجرو مرة واحدة!».

حدثني مصطفى علي أن محمد مهدي الجواهري أصدر جريدته «الفرات» سنة ١٩٣٠ وسرعان ما دخل في مهاترات صحفية مع عبود الكرخي صاحب جريدة «الكرخ» ونوري ثابت (جزبوز) الذي كان آنئذٍ موظفاً بوزارة المعارف ويكتب في الوقت نفسه حقلاً هزلياً في جريدة رفائيل بطي «البلاد». وقد هجا الكرخي محمد مهدي الجواهري هجاءً مقذعاً بقصيدة عامية ختمها بأبيات يقرنه فيها بملهى الجواهري (وهو من ملاهي محلة الميدان المعروفة في ذلك العهد)، فلم يكن من الجواهري إلاّ أن أقام عليه الدعوى بتهمة القذف والتشهير.

وكان حاكم جزاء بغداد آنذاك عبد العزيز الخياط، فمثل الكرخي أمامه وقال: إن هذه القصيدة قديمة نظمتها في العهد التركي ولا علاقة لها بالجواهري.

قال الحاكم: وهل كان ملهى الجواهري قائماً في العهد التركي؟

فالتفت الكرخي الى نوري ثابت الواقف وراءه وقال: كيف فاتنا هذا الأمر، يا نوري؟

وقد حكم على الملا عبود بغرامة قدرها ٣٠٠ روبية دفعها عنه ـ على ما قيل ـ عبد الكاظم الشمخاني.

أصبح شعر الملا عبود الكرخي مصدراً من مصادر الفولكلور العراقي واللغة العامية

وصورة المجتمع في النصف الأول من القرن العشرين، وكان في الغالب مجتمعاً راكداً محافظاً على حالته قبل تطوره بدخول الإنكليز وتأليف الحكومة الوطنية. أما العامية فقد تطورت بعد ذلك كثيراً بتأثير الصحافة والإذاعة وانتشار المدارس. وقد استمد الكرخي ثقافته من التراث الشعبي، في حين أن شعراء الفصحى استوحوا أدبهم من التراث العربي الخالد والانفتاح الحديث على الآداب العالمية.

أشيع نبأ وفاة الملا عبود الكرخي في البصرة كذباً فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أعبـود إنـك ذو فطنـة تعيش بها عيش حـرّ سعيـد

قـريحة شعـرك فيـاضـة لها في الأنـاشيـد مـرمى بعيـد

أتيت مـن الشعـر بـالمضحكـات وبـالمبكيـات التـي لا تبيـد

حتى يقول:

يبـاهي بك الكـرخ أبنـاءه ويثني عليك بها لا مـزيـد

ولكـن حسّـادك الخاسريـن يبيتـون منك بغيظ شـديـد

أشـاعـوا نعيّك من غيظهم يـريـدون للشعـر مـا لا يـريـد

ولما تبيّن بهتـانهم لـدى النـاس عـادوا بغيظ جـديـد...

شعر عبّود الكرخي

صوّر الكرخي في شعره حياة الفلاحين والنساء القرويات والمشاكل الاجتماعية، وذكر الأمثال والخرافات العامية. ودعا الى العلم والاستقلال الوطني، حارب السفور مع الحجابيين سنة ١٩٢٤ ــ ٢٥، ورحب بالتجنيد الإجباري، وبكى على نكبة دمشق وفلسطين. نوّه بمتاعب الزراعة وبؤس الفلاح وآلام الصحافة، وانتقد العادات الشعبية المستهجنة ومهازل الانتخابات النيابية وجهل بعض النواب. ونظم شعراً غزلياً على الطريقة القديمة. وله أشعار بذيئة منع نشرها في العراق فطبعت بعد وفاته في بيروت.

المحالات:

قصيدة طويلة نظم فيها الأمور المستحيلة في رأيه. فقال: هل يتزوج وهو الشيخ الفاني بفتاة أم تكون له حورية في الجنّة؟ هل يصعد الى السماء بسلّم وهل يطلب الفرج من المصلوب؟ هل تباع الخيل في سوق الهرج، وهل يحيى الأموات في المقابر؟ هل يجمد النهر في الصيف أم يعود الشيخ الى الشباب؟ هل يأتلف القطّ والفأر أو يتساوى الفحم والماس؟ هل يغلب الحمار الحصان في السباق؟ هل تنشأ السفن من الورق وهل يأكل الأسد التبن والحشيش؟ هل يكون الهندي خطيباً في البدو؟ هل يفترس الحمل الذئب،

وهل يؤكل لحم الكلاب؟ هل يدرس العالم على الأغبياء وهل ينسج البدو القزّ والحرير؟ هل تـربط البقّـة بـالحبل، وهل يسحـب النمل السفينـة؟ هل يـؤسس معمل ورق في الهندية؟هل يكـون الصُّلَيبي أعلم من أديسن وهل يكون ماركوني غبيـاً؟ هل يظهر نبيّ من زرباطية وهل يكون طلاب اكسفورد وحـوشاً؟ هل يطيل فورد ذقنه؟ هل يزرع التبغ في الشاميـة، وهل ينبت جناح للجامـوس فيطير؟ هل يصدر الغبار من أمـواج البحر، وهل يدخل الفيل في شقّ الإبرة؟ الخ.

حسين قسّام

الشاعر الشعبي الذي نافس عبّود الكرخي فلم ينل شهرته وذيوع صيته، وهوحسين بن عبّـــود قسّــام الخفـــاجي، ولــد في النجـف سنــة ١٨٩٧، ونشأ في محافلهـــا ومجالسها، وتفتّحت قريحتـه بوحي المنابر الحسينية. وأولع بـالأدب العامي، وهو غضّ العود، ومال الى النظم والظرف والمفاكهة. قست عليه الحياة ومنحته البؤس والحرمان، فلاذ بالسخرية والهزء. نمت في نفسه نزعـة الى الدعابة والهزل، فظهر أثر ذلك في شعره كما ظهر في مساخره وحكـاياته. وقد زار بغداد مراراً وطـوّف في أنحاء الفرات الأوسط، وعرف شعره وانتشر في المحافل الشعبية ومجامع العوامّ، وكـانت له مع أقرانه من شعراء اللغـة العاميـة صـولات ومسـاجلات ومفـاخـرات. وقد تـوفيّ سنـة ١٩٥٨. طبعت مجموعـات من شعـره، منها: الأفكـار المطلسمة (١٩٥٧) سنجـاف الكلام (١٩٦٣) قيطان الكلام (١٩٦٣) محراث الكلام (١٩٦٤).

ولعلّ شاعرنا قد أشبه في هزله والقياس مع الفارق الزمني ـ محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي المتوفّى بالقاهرة سنة ١٣١٠م، ذلك الشاعر الذي نعت بالأديب الحكيم الخليع وألف «طيف الخيال» وكان صاحب نكت ونوادر ومجون، وقد قال:

قـــد عقلنـــــا والعقـل أيّ وثـــاق	وصبرنـــــــا والصبر مــــــرّ المذاق
كلّ مـن كـــان فـــاضــــلاً كـــان مثلي	فـــاضـــــلاً عنـــد قسمــــة الأرزاق

وقـال سعيد الـديـوه جي أن ابن دانيال تفـوّق في فنّ «خيـال الظلّ» وكان يضع لـه القصة وينظم الأصوات ويلحنها ويعيّن الأزيـاء لها... أما حسين قسام فكان يسخر من السـذّج الغـربـاء ولا سيّما الزوّار الهنـود والفـرس، ويمثّل في جموعهم مسرحيـات يخرجهـا على قارعـة الطـريق، ويضفي عليها لبـوس الجدّ والصرامـة، ويكون في أكثـر الأحيان مبدعها ومؤلفها وممثلها الوحيد.

كنّا ذات يـوم نزور صـديقاً لنـا من أصحاب دور السينما، فجـاء حسين قسام، ولم نكن نعرفه، فتقمّص دور صاحب دار سينما في بعض الألوية وأخذ يساوم صاحبنا على

شراء أفلام. وظلّ يتكلم في الموضوع كلاماً طويلاً ويجادل ويناقش ويوافق ويعارض، وصديقنا يلاطفه ويداريه ولا يشكّ في حقيقة أمره. ولما كشف أمره أخيراً أحد الحاضرين العارفين له، استذكرنا كلامه فوجدناه سفسطة خالية من المعنى!

ومثّل في يوم آخر دور قرويّ ساذج، فجاء الى دار السينما واشترى بطاقة الدخول، ثم دافع الناس وحاول أن يدخل من شبّاك بيع التذاكر، والناس تضجّ بالضحك ولا تشك أنه جاهل يسير على سجيّته.

ترجمه محمّد هادي الأميني في مجلة التراث الشعبي البغدادية (أيلول ١٩٦٣)، فقال إنه طرق جميع أبواب الشعر الشعبي ونظم فيها، فأبدع في تصوير مشاهد الحياة وآلامها وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها، وأطلق صرخات الأنفس الحرّة التي يعذّبها الظلم ويكويها الألم فلا تخور ولا تستكين. ونظم القصص والحكايات والنوادر والأمثال، ونقد عيوب المجتمع، وبرع في فنون الشعر كالموال والميمر والعتاب والأبوذيّة والحزّورات والهوسات... وأدخل في نظمه من المصطلحات الشعبية ما هو متداول في أنحاء العراق وسائر الأقطار العربية كلبنان ومصر والمغرب. ومن أمثلة شعره السّاخر وصيّة ريفي معدم لا يملك شروى نقير، فهو يوصي أهله بترك البكاء والتفّجع ويعدّد الأشياء التي خلّفها فإذا هي لا تخرج عن حيوانات هزيلة وخنجر بلا قراب وأثاث محطم ولوازم بيتية عتيقة، ويشدّد على أهله بالعناية بكل تلك الأشياء والمحافظة عليها...

ومن شعره الساخر قصائد يحسبها السامع هراء لما حوت من مبالغات وغرائب تفوق حدّ المعقول، ولكنها تظهر لدى التأمّل عميقة المغزى، بعيدة الغور في الهزل القائم على فكرة التناقض والتعجيز والتلميح. فمن ذلك قصيدته التي قالها يواسي صديقاً له سرق اللصوص متاعه القليل، فهو يعده بنصره ومساعدته، ويقول له: إنني لمرسلٌ لك جنوداً من الهنود تكرّ على خيولها في منتصف الليل وعند الظهر، بنادقها من الخشب ورصاصها نارنج، ترجّ البلد رجاً، وقد ساندها جموع العرب والكرد والبربر، رجالهم تمشي على أطراف النخيل وفرسانهم تجول فوق السطوح...

***

ذكر جعفر الخليلي حسين قسّام في الجزء الثالث من كتاب «هكذا عرفتهم» عند كلامه على الظرفاء الذين عرفهم، فقال إنه تجاوز الخامسة والستين من عمره فافتقد تلك المقدرة التي كانت تعينه على تمثيل أدوار المساخر المضحكة وضاقت به الدنيا، وأعسر فلم يكن له مورد سوى راتب ضئيل يتقاضاه من دائرة الأوقاف لقاء سدانته لمقام هود وصالح بمقبرة وادي السلام في النجف.

ثم قال إن حسين قسّام نسيج وحده في تمثيل الأدوار الفكاهية والظرف ونسج الأهابيل والنكات ونظم الشعر الهزلي. وهو يجيد تقليد أغلب اللغات ويجيد حكاية اللهجة في أية لغة ولكن بدون معنى. وكثيراً ما يراه الرائي وهو يكلم أحد الهنود أو الترك

أو الإيرانيين أو الإنكليز بلغة لا ينقصها شيء غير المعنى ، فيهّزون رؤوسهم أمامه ويضربون عنه صفحاً. وهو يتكلم العربية بهذه الطريقة فلا يدعك تفهم منه شيئاً. وقد يقصد بعض الحكام شاكياً، فينصت له الحاكم ويسعى ليفهم شيئاً من كلامه ، فلا يفهم إلا النهاية التي يتركها واضحة ليقضي على الشك الذي يبعثه سرعة كلامه وعدم اتزانه . وهو فوق ذلك يحسن تكييف نفسه وقلب سحنته كما يشاء دون أن تبدر منه بادرة تفسر عمله أو تشكك فيه . وقد سيق في أثناء الاحتلال الإنكليزي ليعمل في السخرة ويحمل أكياس الرمل لتقوية سداد النهر. فحمل حسين قسّام أول كيس مكرهاً، فحين عاد مع العائدين، انطوى على نفسه في غفلة من الحرّاس وعوّج إحدى رجليه وصعّد حاجبه الى لأعلى وجعل أعضاءه تهتزّ كمن به رجفة ، ومرّ على هذا الوجه بين المراقبين وهم لا يشكّون أنه بعض العاجزين المشلولين المشوّهين. ولم يزل هذا شأنه حتى تجاوز حدود المراقبة فأطلق عند ذلك ساقيه للريح . . .

يذكرنا حسين قسّام المعوز الدائم الذي قلما يجد ما يقيت به أسرته بأبطال المقامات كأبي الفتح الاسكندراني صاحب بديع الزمان الهمذاني وأبي زيد السَّروجي صاحب الحريري وميمون بن خزام صاحب الشيخ ناصيف اليازجي ، وغيرهم من الذين يحتالون لنيل رزقهم بشتى الحيل الأدبية واللغوية والتمثيلية . وكان حسين قسّام ينتظر قدوم الزوار الهنود والأفغانيين والأعجام الى النجف ، فيقيم لهم المآتم الحسينية والعلوية ويستدرّ بكاءهم بخطبه الرنانة الفارغة وتعازيه السفسطائية ، وهم لا يفهمون كلامه بل يتأثرون بكلماته وحركاته ، ولا يبخلون عليه في آخر الأمر بالنقود، ثم يمضون راضين حاسبين أنهم قضوا واجباتهم الدينية .

أدب اللامعقول

LITERATURE OF THE ABSURD, OR IRRATIONAL LITERATURE

ظهر في أوربة في منتصف القرن العشرين مسرح اللامعقول ، وهو تطوّر حديث للرمزية والوجودية والسريالية وما يكتنفها من غموض وإبهام ، يرمي الى تجسيم سخافة الحياة وتهافتها واستحالتها . وممن برّز فيه أوجين يونسكو EUGENE IONESCO والأديب الفرنسي الإرلندي الأصل صموئيل بيكيت SAMUEL BECKETT. وحذا توفيق الحكيم حذوهم فوضع مسرحيته «يا طالع الشجرة» .

وإذا دققنا شعر عبود الكرخي وحسين قسّام وغيرهما من شعراء العامية نجد أنهم سبقوا أولئك الأدباء الغربيين في أدب اللامعقول . ومن أمثلة ذلك قصيدة المستحيلات المنشورة في ديوان الكرخي والكثير من قصائد حسين قسّام كتلك التي نظمها يواسي صديقاً له سرق متاعه القليل ووصية الريفي المعدم عن توزيع تركته الهزيلة الخ .


عصر النهضة
النثر



محمود شكري الألوسي

العالم البحّاثة الذي أحيا سنّة جدّه شهاب الدين محمود الألوسي وضرب مثالاً سامياً في الزهد والقنـاعة والتجرّد للعلم. ولد في بغداد في ١٢ أيـار ١٨٥٧ وتوفي بها في ٦ أيار ١٩٢٤. وقد ترجمت له ترجمة وافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

قال الدكتور علي المحافظة الأردني في كتابه «الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضـة ١٧٩٨ ـ ١٩١٤» (بيروت ١٩٧٥): «كـان محمود شكـري الألوسي مصلحـاً دينياً سلفياً جمع بين مبادىء الدعوة الوهابية في الاعتماد على القرآن والسنّة ومحاربة البدع الـدينية والطـرق الصـوفية وبين مبـادىء النهضة العلميـة العـربية الحديثـة في الاهتمام بالعلوم غير الدينية مثل التاريخ والفلك».

علي علاء الدين الألوسي

قـاضي بغـداد علي عــلاء الـدين بن نعمان خير الـدين بن محمــود شهـاب الـدين الألوسي، ولـد في بغداد في ١٧ شباط ١٨٦١. أخـذ العلوم العقلية والنقليـة عن والده وعن الشيخ عبد الوهاب النائب وإسماعيل الموصلي وابن عمّه محمود شكري الألوسي. وقد أرسله والـده سنة ١٨٨٢ الى الهند، فاجتمع بالسيـد صدّيق حسن خان (١٨٣٢ ـ ١٨٨٩) ملك بهوبال وفـاتحه في طبع مؤلفات أبيـه وجدّه، وأخذ عنـه الحديث فأجازه إجازة عامة. ثم قصد الأستانة مع والده سنة ١٨٨٣، فانتمى الى مدرسة القضاة وتخرّج فيها.

وولي القضاء في عدة مدن في فلسطين وبعلبك والعمارة والديوانية. وعهد إليه، على أثر وفاة أبيه سنة ١٨٩٩، بالتدريس في مدرسة مرجان وجامع الشيخ صندل ببغداد.

وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النـواب العثماني بعد إعلان الدستور (١٩٠٨) الى حلّه في ١٨ كـانون الثاني (١٩١٢). ولما نشبت الحرب العـامة أوفد مع محمـود شكري الألوسي بمهمّة الى أمير نجد عبد العزيـز آل سعود (تشرين الثاني ١٩١٤). وعاد الوفد

في نيسان ١٩١٥ ولم يفلح في مسعاه لحمل الأمير على مناصرة الدولة العثمانية. واختير بعد ذلك عضواً بمجلس الولاية العام.

احتّل الإنكليز بغداد، فعيّن علي علاء الدين قاضياً لها سنة ١٩١٧. ثم أصيب بالفالج وتوفيّ ببغداد في ٧ كانون الثاني ١٩٢٢.

ذكره إبراهيم الواعظ فوصفه بالرزانة والخلق المتين، وأشار الى معارضته لسياسة الاتحاديين الأتراك. وقال: «ثم عرفته قاضياً بعد الاحتلال البريطاني، وكان صلباً في رأيه، متمسّكاً بدينه. وقد كلفه ناظر العدلية بونهام كارتر البريطاني بالموافقة على استبدال أموال الأوقاف، فلم يوافق وبقي مصراً على رأيه الى أن توفاه الله».

مؤلّفاته وشعره

ترك علي علاء الدين الألوسي مؤلفات، منها كتاب الدرّ المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (طبع ١٩٦٧)، ومجاميع ضمّنها نوادر وأخباراً وطرائف من شعره. ونظم الأجرومية وكتب تعاليق وحواشي على كتب كثيرة. وقد آلت معظم تصانيفه المخطوطة الى عبّاس العزاوي تلميذه وكاتب المحكمة الشرعية في عهده.

ونشر كتباً منها: نقد مقامات الحريري لابن الخشّاب (١٩١٠) والحباء في الإيصاء لنعمان الألوسي (١٩١٠) وسيرة الرسول لعبد الباسط زين الدين الملَطي القاهري الحنفي المتوفّى سنة ١٥١٤م (١٩١٠) وكتاب التوحيد للإمام جعفر الصادق (١٩١٢).

ونقل عن الفارسية رسالة للطوسيّ في معرفة التقويم.

كان ينظم الشعر مقلاً. وقد نظم ارجوزة في سور القرآن وقصائد في مدح جمال الدين شيخ الإسلام سمّاها «روضة الإفهام».

ومن شعره رثاؤه لصديقه مصطفى نور الدين الواعظ، قال:

أسفاً لقد حلّ الحِمام بفاضِل ... من فقده الزَّوْرَا بأمر باهظِ
قد كان في علم الشريعة حافظاً ... ولسنة المختار جدّ محافظ
وله اليراع العضب يرعف ثغره ... للدين خير مؤازر وملاحظ
فقضى حقوق العلم غير مقصّر ... بكتابة وخطابة ومواعظ

وقال في السمر والبيض:

قالوا: جعلناك فما بيننا حكماً ... في السُّمْر والبيض، قلتُ: أصغُوا لتعريضي
كلا الفريقين عندي حبّهم حسن ... لكنّ في السّمر معنى ليس في البيض!

وذكر إبراهيم الواعظ أنّ محمد رشيد رضا صاحب المنار زار بغداد سنة ١٩١٣ فحلّ

ضيفاً على بعض وجهائها . ولم يتمكن علي علاء الدين الألوسي من زيارته لبرود كان بينه وبين الوجيه صاحب الدار، فأرسل إليه بالأبيات التالية معتذراً :

أهلاً ببدر دنا، والدار نائية، والقلب من أهلها ـ حاشاكَ ـ نفّار
إنّي أحيّيك من بعد على ثقة بالودّ منك ودون القرب أعذار
قد يترك الماءَ محتاج اليه وقد تُعاف للهون أوطان وأوطار
لو كانت النار ما عاقتني ثانيةً عن الزيارة، إلاّ أنّه العار

***

ولي علي علاء الدين القضاء أعواماً طويلة في العهد العثماني وعهد الاحتلال، وكان يرى فيه رسالة سامية لإعزاز الحقّ ونصرة الضعيف. قال في ذلك :

إنّ القضاء هو البلاء، فلا تكن متعرّضاً فتصابَ من سوء القَضَا
وإذا ابْتُليتَ به على كُرْه فخذ نهج العدالة إنّها سبب الرّضا

وقال متشوّقاً الى بيروت :

لإخوان الصفاء محضت ودّي فأغنوني بهم عمّن عداهم
ترى عيني جميع الناس فيهم وإنّي لست في المعنى سواهم

وقال يحنّ الى العراق :

أومض البرق من ثنايا العراق فاستفاضت له شؤون المآقي
وبدا لامعاً فأجّج ناراً تتلظّى بين الحَشَا والتّراقي
ليت شعري، وللزمان شؤون، هل يضمّ الأحبابَ شملُ التّلاقي؟
وديـاري كما أحبّ ديـاري ورفـاقي كما أحبّ رفاقي؟

وقال :

روحي وجسمي لمّا بنتُمُ افترقا فالروح في بلد والجسم في بلد
بالله جودوا بطيف من زيارتكم كي تجمعوا لي بين الروح والجسد

عبد المجيد الشاوي

الأديب البغدادي الظريف صاحب الكلمات اللاذعة والاشارات البارعة . ولد في بغداد سنة ١٨٦٢ وتوفي في بيروت في ١٦ أيلول ١٩٢٧ . وكان في العهد العثماني نائباً في مجلس المبعوثان . وأصبح في العهد الوطني وزيراً بلا وزارة ورئيس بلدية بغداد ومتصرف لواء الدليم ونائباً . وعين عضواً بمجلس الأعيان وقد اشتدّ عليه المرض، فقال

لما بلّغ بالإرادة الملكية :

أتت وحياض المـوت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية»، ورويت طرفاً من أدبه ونوادره. وقد ذكره أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» فقال إنه حضر مأدبة في البلاط الملكي بثوب افرنجي عادي ولم يرتدِ اللباس الرسمي. وصفه بأنه ذلك العربي الحرّ الجريء الجامع بين محاسن البدو والحضر، ذلك الفيلسوف الذي نثر الحكم وما كتبها. وقال: كان له رأس كرأس سقراط شكلاً ومعنى ولسان كلسان صموئيل جونسن سقراط الإنكليز بفصاحته ولواذعه.

سمع الريحاني عبد المجيد الشاوي يقول في تلك الليلة: «وهذا الاستبداد الحديث العهد، استبداد «الموضة» جاءنا كذلك من الغرب. أما نحن العرب فلا نضيع وقتنا ومالنا وتعقّلنا في سبيل «الموضة»، فقد كان، ولا يزال، خلاصنا في بسيط عاداتنا وسذاجة طباعنا. أنتم تبدأون حيث يمكنكم أن تنتهوا. أقول: يمكنكم ولا أقول: يجب أو يجوز أن تنتهوا بهذه الرسميات، بهذه الترّهات».

فقال رستم حيدر: ولكنك أنت أيضاً خاضع لسلطة الموضة في ثوبك الإفرنجي هذا، قابل باستبدادها. فأجاب الشاوي على الفور: وأنا أيضاً حمار!.

رويت عدداً من النوادر المحفوظة عن الشاوي في كتابي المذكور. وأروي هنا بعض الطرائف الأخرى :

وقف وزير المالية ذات يوم في مجلس النواب وقال في معرض كلامه: أبشركم بزيادة الضرائب في الميزانية المقبلة. فقال النائب ثابت عبد النور: يا لها من بشرى سعيدة يبشرنا بها معالي الوزير! ولم يكن من عبد المجيد الشاوي إلا أن قال: النائب معذور، فإنه لم يقرأ قوله تعالى: وبشرّ الذين كفروا بعذاب أليم (سورة التوبة).

وكان الشاوي النائب إذا خرج من الجلسة مرّ بكتّاب الضبط وقال لهم ما معناه: «هنيئاً لكم، يا أولادي، تخرجون كلاماً منمقاً من الأحاديث السخيفة التي تسمعونها في المجلس». وقيل إن بعض النواب كانوا يمرون بكتاب الضبط فيلاطفونهم ويرجونهم أن يصلحوا من الخطب والكلمات المرتجلة التي كانوا يلقونها في قاعة المجلس قبل إثباتها في المحاضر.

وكان الشاوي في مجلسه عصراً يحفّ به رجالات بغداد ولفيف من أبناء الأسرة الشاويّة، فإذا به يسمع منادياً في الطريق ينادي على حمار ضائع ويعد بالحلوان لمن يدلّ عليه. فأمر بإدخال الرجل وقال له: هل حمارك حساوي أم شاوي، يا ولدي؟ فقال: إنه شاوي، يا سيدي.

وأشار عبد المجيد بك الى أفراد أسرته وقال له: دونك هؤلاء الشاوية، فاختر واحداً

منهم بدل حمارك، والعوض على الله.

قام الملك فيصل الأول ذات مرة بزيارة للألوية مصطحباً بعض وزرائه وخواصّه ومنهم عبد المجيد الشاوي. ولما وصل الموكب الملكي الى العمارة، وكان متصرف اللواء عبد الله الدليمي، نزلوا في دار المتصرف الذي وقف وموظفيه في خدمة الملك. وكان الشاوي يكره الدليمي ويعلم أن هذا الضابط العسكري السابق والإداريّ اللاحق قد تزوّج من مطلقة الأمير زيد، فأسرّ الأمر في نفسه.

وفي الصباح بينما كان الملك وحاشيته يتناولون طعام الفطور والمتصرف واقف في خدمتهم، قال الشاوي: أليس من المناسب، يا سيدي صاحب الجلالة، أن نقرأ شيئاً من القرآن الكريم؟ وعجب الملك، وهو يعرف مخاطبه لا يعبأ كثيراً بأمور الدين، فقال له: تفضل اقرأ. وقرأ عبد المجيد الشاوي في سورة الأحزاب ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها..**﴾، فخجل المتصرف وانصرف.

والأسرة الشاوية التي ينتمي إليها عبد المجيد من أسر العراق القديمة تنتسب الى شاوي الشاهري الحِمْيَري رئيس قبيلة العُبَيْد من عشائر زُبَيْد، ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧٠٧ حين ذهب مع والي بغداد حسن باشا لتأديب قبائل زبيد والدليم. وكان ابنه عبد الله بك الشاوي «باب العرب» أي مدير شؤون العشائر في مقرّ الولاية، قتله الوالي عمر باشا سنة ١٧٦٩. وعلى أثر ذلك نهض ولداه سليمان بك وسلطان بك فحشدا عشيرتهما في ناحية الدجيل وأحدثا اضطراباً.

وكان سليمان بك بن عبد الله بك أديباً شاعراً تولّى منصب «باب العرب» أيضاً، وقد قتله الوالي سليمان باشا سنة ١٧٩٤. وانتدب محمد بك بن عبد الله الشاوي في حملة أرسلها الوالي سليمان باشا الى الأحساء لمحاربة الأمير سعود بن عبد العزيز. واتهم إثر عودته بالميل الى المذهب الوهابي فقتل سنة ١٨٠٢.

وعرف من متأخري أبناء الأسرة الشاعران أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ــ ١٨٩٩) وولده عبد الحميد بك المتوفى في البصرة سنة ١٨٩٨، وأحمد توفيق بك بن سالم بك (١٨٤٤ ـ ١٨٩٥) وكان موظفاً إدارياً تولى قائمقامية أقضية الشامية والسماوة والديوانية وخانقين.

***

رثاه إبراهيم صالح شكر عند وفاته فقال: «شعلة ذكاء متقدة عصف المنون بها فانطفأت وتركت في جوانب النفوس كآبة مظلمة ولوعة مدلهمّة».

وصف نفسه المراحة التي لم يلاطفها غير الأدب الغضّ وروحه اللطيفة الجذابة التي ملؤها الظرف والكياسة. وذكر دعابته الحلوة اللذيذة والبداهة الحافلة والحديث الطلي

الشهي المملوء عظة وعبرة والروعة اللامعة المبتسمة. ونعته بشيخ الشباب النابه وفتى الشيوخ الأفاضل.

إغناطيوس أفرام الرحماني

إغناطيوس مار أفرام الثاني الرحماني بطريرك أنطاكية على السريان الكاثوليك ومن علماء التاريخ واللغات الشرقية، ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٤٨، وكان اسمه لويس بن إبراهيم رحماني. درس اللاهوت في روما ورسم كاهناً (١٨٦٣) ثم عاد الى مسقط رأسه واختير نائب أبرشية الموصل سنة ١٨٨٠. ثم كان أسقفاً للرها (١٨٨٧) وبغداد (١٨٩٠) وحلب (١٨٩٤) واختير بطريركاً لطائفته في ماردين (ت١ ١٨٩٨).

وقد نقل مركز البطريركية الى بيروت سنة ١٩٠٢ وأصدر مجلة الآثار الشرقية سنة ١٩٢٦. واختاره البابا بنديكتوس الخامس عشر مستشاراً للمجمع الشرقي في روما.

كان يحسن لغات متعددة قديمة وحديثة منها العربية والفرنسية والإيطالية والسريانية واليونانية واللاتينية والعبرية، وله معرفة بالخطوط المسمارية والكوفية. وقد توفي في القاهرة في ٧ أيار ١٩٢٩ ودفن في لبنان.

من مؤلفاته: مقالة في سوريا (١٩٢٦) مقالة في مملكة أشور (١٩٢٦) المباحث الجليّة في الليتورجيات (الطقسيات) الشرقية والغربية (١٩٢٤) مختصر التاريخ القديم (١٨٧٧) مختصر تاريخ الأجيال الوسطى (١٨٧٧) مختصر التاريخ المقدس (١٨٨١) الخ. ووضع عدا ذلك قاموس اللغة السريانية ومصنفات باللاتينيّة والفرنسية والسريانية.

قال يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» إن البطريرك رحماني «استخدم معارفه الواسعة في علوم الدين والدنيا في حرث البحث العلمي الدقيق وأمدّ الثقافة والتاريخ المدني والكنسي بهذه الدراسات المخدومة التي نشرها بمختلف اللغات وبتلك المقالات المستفيضة البحث التي دبّجها في شتّى العلوم والموضوعات التاريخية واللغوية والكتابية...».

أدِّي شير

المطران أدّي شير إبراهينا ولد في شقلاوة في شماليّ العراق في آذار ١٨٦٧، ودرس بمدرسة الآباء الدومنيكيّن في الموصل، وتعلّم اللغات العربية والكلدانية والتركية والعبرية والفارسية والكردية واللاتينية والفرنسية. ورسم مطراناً على سعرد سنة ١٩٠٢،

وقتل في بعض قراها في أوائل الحرب العامة في آب ١٩١٥ خلال المذابح التي تعرض لها أبناء أبرشيته .

وضع مؤلفات كثيرة منها : الألفاظ الفارسية المعرّبة (١٩٠٨) التاريخ السعردي (لمؤلف نسطوري مجهول، حققه وترجمه الى الفرنسية في جزءين ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) تاريخ كلدو وآثور (في جزءين ١٩١٢ ــ ١٩١٣) . مدرسة نصيبين الشهيرة (١٩٠٥) . ومن مؤلفاته الفرنسية المطبوعة في باريس : حوادث من تاريخ كردستان (١٩١٠) تاريخ محمد باشا المعروف بمير كور (١٩١٠) دراسة إضافية عن الكتاب السريان الشرقيين (١٩١٠) الخ . وعرّب كتاب «شهداء الشرق» في مجلدين (١٩٠٠) .

كان المطران أدّي شير في مقدمة العلماء الباحثين الذين تحرّوا أصول الكلمات واجتهدوا في إرجاعها الى مصادرها . وقد قال اللغوي الدكتور إبراهيم السّامرائي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة بغداد :

«أظنّ أن تجربة أدي شير صاحب «الألفاظ الفارسيّة المعّربة» وتجارب الآخرين . . . غير موفّقة ، لأنهم جاروا على العربية . فقد زعم غير واحد من هؤلاء الآباء الموقرين أن «كتب» و «قرأ» من المواد السريانية وهي دخيلة في العربية . ولا أدري كيف فاتهم أن هذه المواد العربية هي ساميّة الأصول ، فوجودها في العربية والسريانية والعبرانية والأكدية والأشورية وغير هذه من وجود اللغة الساميّة الأم .

على أني لا أنكر أن يكون في العربية دخيل معرّب اقتبسته العربية في عصور مختلفة من لغات عدّة لسبب من الأسباب ، وقد أشار الى ذلك القدماء والمحدثون» .

انستاس ماري الكرملي

البحاثة اللغوي والمؤرخ المحقق الأب انستاس ماري الكرملي ، واسمه قبل أن يترهب بطرس ميخائيل ماريني ، ولد في بغداد في ٥ آب ١٨٦٦ وتوفي بها في ٧ كانون الثاني ١٩٤٧ . أصدر مجلة لغة العرب الشهيرة وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام عند تأسيسه سنة ١٩٢٠ وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة .

وضع قاموساً ضخماً بعنوان «المساعد» ، طبع منه جزآن سنة ١٩٧٢ و١٩٧٦ بعناية وزارة الإعلام العراقية وتحقيق كوركيس عوّاد وعبد الحميد العلوجي ، وهما يتناولان حرف الهمزة وقسماً من حرف الباء فقط . والمساعد إنما هو قاموس القاموسيين ، فليس هو بالمعجم الاعتيادي الذي يفيد منه القارىء والمتعلم والأديب ، بل هو ثبت للكلمات الغريبة والأصول اللغوية وقياس اللغات واللهجات مع جولات في الجغرافية والتاريخ وأساطير الأمم وتتبّعات في الكتب القديمة والحديثة ومناقشات للآراء والأسماء والأقوال والأفعال واستطرادات أدبية وعلمية وفكرية وشعبية عامية . . .

وعني الأب انستاس بتحرّي تطور معاني الكلمات ودلالاتها وإن كان يشدد على المعنى الأصلي ويعدّ المعنى الجديد في كثير من الأحيان غير فصيح. وقد ناقشته مراراً في هذا الموضوع وقلت إن اللغة كائن حيّ يتطور بتطور الزمن وظهور حاجات التعبير عن معاني العصر. فلا بدّ إذن من الاعتراف بأن الكلمات في جميع اللغات تتحوّر وجوه استعمالها: مثال ذلك أن (القهوة) في العربية كانت تطلق على اللبن المحض والخمرة ثم اتخذها المولّدون علماً للبنّ. و (القرن) يعني حقبة من الزمن ثم اختص بمائة سنة فقيل: القرن التاسع عشر والعشرون... و (الوجدان) مصدر للوجود ثم أطلق خصيصاً على الضمير والنفس. و (المقارنة) في الأصل المصاحبة والاقتران والجمع ثم أخرجت الى معنى المقايسة والمفاضلة. و (الثقافة) أتت بمعنى التقويم والحذق فصرف الى معناها الحاضر وهو الحضارة الفكرية وتهذيب العقول والأخلاق، لتنظر الى معنى كلمة (كولتور) الألمانية والفرنسية و (كلشر) الإنكليزية. وهذه الكلمة الغربية نفسها (كولتور) كانت تعني في بادىء الأمر الزراعة والعبادة والتحسين ولم تطلق على مفهوم الثقافة الحاضر إلا في أوائل القرن التاسع عشر.

ولا يزال الكتاب والمتكلمون يخرجون للكلمة معنى جديداً على صواب أو على خطأ فيشيع ويعمّ استعماله ويعسر على الفصحاء استئصاله. وليس ذلك بدعاً في العربية: فقد نبّه الدكتور مصطفى جواد على كلمة (الصمود) وقال إن العرب لم تعرف الصمود مصدراً وإنما المصدر (الصَّمْد) كالقصد وزناً ومعنى. فإذا كان العرب قد استعملوا الصمد في حروبهم للقصد والسير الى العدوّ، فكيف يستعمل للثبات والقرار وهو عكس معناه؟

ونبّه الدكتور جواد أيضاً، وهو تلميذ الكرملي، على كلمة (الاستهتار) فقال إن معناها الغرام والولوع بالشيء وأخطأ المحدثون في استعمالها بمعنى التهاون بالشيء والاستهانة به، كأن يقال: فلان مستهتر بالقانون. وقالوا (الهاوي) وجمعها (الهواة) بمعنى المحبّ وغير المحترف كالموسيقيّ الهاوي والمصارع الهاوي وهواة الطوابع وفصيحها (الهوي) بلا ألف، إذ معنى الهاوي لغةً: الساقط والجراد الخ. وكرّر مصطفى جواد تنبيهه وبحّ صوته في «قل ولا تقل»، لكن جمهور الكتاب والقراء لم يبالوا بذلك التنبيه واستمروا على أخطائهم لا يرضون عنها بديلاً.

وقد ترجمت للكرملي ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية» فليرجع اليها.

الأب أوغسطين مرمرجي

من علماء اللغة العربية الراهب الدومنيكي أوغسطين مرمرجي، وهو أوغسطين سِبَسْتيان ابن يوسف المعروف بالمرمرجي ابن جرجَس بن شمعون الحائك الموصلي الأصل. ولد ببغداد في ٣١ تموز ١٨٨١ من أبوين موصليين ودرس في مدرسة الإتفاق

الكـاثوليكي . ثم أرسل الى الموصل وانتمـى الى المدرسة الأكليركيّـة الدومنيكيّـة ، ورسم قسّيساً سنة ١٩٠١ .

عاد الى بغداد سنة ١٩٠٦ وعيّن معلّماً للعـربية في مدرسة الطائفة السريـانية . وأخذ يكـــاتب المجـــلات الشهيرة كـــالمشرق والبشير البيروتيّتين والمقتطـف والهلال المصريّتين . وبعد ستة عشر عاماً مضى الى فرنسة واعتزل في بعض أديرتها سنتين . واختير سنة ١٩٢٥ مـدّرساً في المعهد الكتـابيّ والآثاريّ الفرنسي بـالقدس الشريف . وانتخب عضـواً بالمجمـع العلمي العربي في دمشق وعضـواً مـراسـلاً في مجمع اللغـة العربيـة في القاهرة .

إختصّ الأب مرمـرجي بدراسة العربيـة ومقايستها بسائر اللغات السـاميّة ، ووضع مؤلفات في هذا الموضـوع ، منها : المعجمية العربية على ضوء الثنائيـة والألسنيّة الساميّة (١٩٣٧) هل العربية منطقيّة؟ (١٩٤٧) معجميّات عربيّة ساميّة (١٩٥٠) .

وألّف أيضـاً : بلدانيّـة فلسطين العربيـة (١٩٤٨) ، [وقد تـرجمه الى الفرنسيـة أيضاً وطبعـه في باريس] ، العـلاقات بين الأسرة والألفـة الاجتماعيّة ، محاضرات مختـارات في الدين والفلسفة والاجتماع (١٩٤٧) ، الخ .

وكانت له مناقشـات لغوية مع الأب أنستاس ماري الكرملي والبطـريرك إغناطيوس أفرام برصوم .

أدركته الوفاة في القدس في ٢٩ نيسان ١٩٦٣ .

يعقوب سركيس

أمضي فتبقى صـــورتي ، فتعجبـــوا : تمضي الحقـــائق والــرســوم تـــدوم

أهـداني يعقـوب سركيس صـورتـه قبل سنـوات فكتب عليهـا هـذا البيت من نظم نـاصيـف اليـازجي . ولم تمض على ذلك أشهـــر قليلـة حتى أعيـاه الصمـم وأوصـاب الشيخوخـة فاعتكف في داره منقطعـاً عن أصدقائه مخلـداً الى وحشته وانفـراده . ووافته منيته ببغـداد في مساء الأربعـاء ٢٣ كانون الأول ١٩٥٩ قبيل منتصـف الليل . وكذلك انطوت صفحة ناصعة من صفحات الحيـاة الإنسانية ، صفحة حياة شيخ وقور انصرف الى البحث والتحقيق ودقق صحائف مجهولة من تاريخ وادي الرافدين وجمع خزانة كتب فريدة حافلة بنفائس المخطوطات والمطبوعات .

ولد يعقوب نعوم سركيس في بغداد في ٢١ آب ١٨٧٦ من أسرة حلبية الأصل ودرس في مدرســة اللاتين فتعلم العـربية والفـرنسية والتركية . ولما تخرج في مـدرسته عهـد إليه بالتدريس فيها أمداً وجيزاً في محل أحـد المعلمين الغائبين . ثم ألحقه أبوه بعمل كتابي في

بعض البيوتات التجارية ليتعلم المراسلة والمعـاملات. ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى توفي أبـوه نعوم سركيس، وكان ملتزمـاً لمقاطعات في أنحاء المنتفك ومـلاكاً فيها، فتعهده عمه بولس وأخذه معه الى الشطرة للإشراف على مزارع الأسرة. ومنذ ذلك الحين أمضى أربعين سنـة أو نحوهـا يخرج في كل سنـة الى أنحاء الشطـرة والحي وقلعة سكـر والناصرية ليعيـش أشهراً في الخيام أو الدور القـروية متعهداً أملاكـه وزراعته. ولم يشذ عن تلك القـاعـدة إلا في سني الحرب العـالميـة الأولى وبعض السنـوات الأخـرى، ثم انصرف عنهـا بعد أن اجتـاز سن الكهولـة. وكثيراً ما كـان يتبهج بأنه نصف بـدوي أو فلاح لقضائه معظم أيام حياته في القرى والأرياف واعتياده معيشة الخيام وركوب الخيل ومجالسته للزراع ورجال العشائر ومعرفته بعاداتهم وآدابهم وأهازيجهم. وكان محافظاً يلزم نفسه بالتقاليـد القديمة ويقول في كل مناسبة تعـرض: «قطع الخشوم ولا قطع الرسوم» يريد بـذلك وجوب التقيد بالأصـول والرسوم ولو أدى الأمر الى جـذع الأنوف والإرهاق والأذى. وكـذلك أصبح يعقوب سركيس قطعـة من تـربة الـوطن وجزءاً لا يتجـزأ من تاريخه قبل أن يتصدى لتدوين صحائف من أحداثـه وشؤون رجاله وبقاعه. وقد ورث عن آله ميلاً الى جمع الوثائق والرسائل والمخطوطات، فانصرف الى هذه الهواية منذ نعومة أظفاره. ثم استبدت به هذه الهوايـة فجمع خزانة كتب ضخمة ضمت نفائس لم يتيسر اقتناؤها إلا ببـذل المال الوفير و إنفاق سنين تربو على الخمسين. وقـد حدثني مراراً عن المتـاعب التي لقيها في شراء الكتب، لا سيما في صـدر شبـابه في أثنـاء عهد الاستبـداد الحميدي. فلقـد كان بيع عـدد كبير من الكتب ودوائر المعـارف محظوراً لاحتـوائها على مباحث في الحرية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية. واضطر الشاب يعقوب سركيس أن يكلف صـديقـاً لـه زار أوربة في مطلـع القرن الحاضر ــ وكـانت تلك الـرحلـة من الأحداث النـادرة آنذاك ـ كلفـه بتهريب نسخـة من دائرة المعارف الفرنسيـة ليضمها الى مكتبته، وبقي بحاثتنا يحتفظ بهذه النسخة ويحرص عليها الى آخر حياته.

وقد أشرف بحـاثتنا على الأربعين من عمـره دون أن تخطر الكتابـة ببالـه. ثم أصدر الأب انستاس مـاري الكرملي مجلتـه «لغة العـرب» فشجعه على تـدوين معلومـاته عن المنتفك، فكتب نبذة عنوانها «خواطر في المنتفق وديارهم» بتوقيع مستعار. لكن يد الأب تناولت هذه النبذة بالتنقيح والتصحيح حتى «شوهتها» فطواها يعقوب سركيس وأغفل نشرها في مجموعته.

بيد أن تلك النبـذة كانت فاتحة عهـد جديـد في حياة الأستاذ يعقـوب، فقد واصل الكتـابة منـذ سنـة ١٩١٣ ونشر مقالاتـه وبحوثـه الممتعـة في مجلات وصحف عديـدة كمجلة لغة العرب وغرفة تجارة بغداد والنجم الموصلية والاعتدال النجفية والأدب والفن اللندنية ومعـالم الغد والبيان والجزيرة وسـومر والنور والمجمع العلمي العراقـي وجريدة البلاد والـزمان والعراق والأخبار والشعب والطـريق والأوقات العراقية الخ. وقـام بعد

إلحاح شديد من أصدقائه بجمع مقالاته في كتاب «مباحث عراقية» في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ , فأصدر القسم الأول سنة ١٩٤٨ بتقديم محمد رضا الشبيبي ، وأردفه بالقسم الثاني سنة ١٩٥٥ وقد قدمه رفائيل بطي ومير بصري . تضمن هذان الجزآن أغلب كتاباته التي تستوعب مجلدين آخرين .

واختاره المجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٤٩ عضواً فخرياً فكتب مقالات نفيسة في مجلة المجمع أهمها بحثه في النقود العراقية الذي جاء بشكل تعليق على كتاب الأب انستاس الكرملي في النقود العربية وعلم النميات ، وهو بحث مسهب يشكل كتاباً متوسطاً قائماً بذاته . وترجم يعقوب سركيس في أخريات أيامه الفصول المتعلقة ببغداد من رحلة أوليا جلبي ، نقلها عن اللغة التركية وشرع بكتابة الحواشي والتعليقات مما قدر له أن يتجاوز المتن ، لكن الزمن لم يسعفه لإنجازها .

وطريقته في الكتابة والبحث أن يراعي الدقة ويتحرى التفصيل ، لكن قلمه لم يكن يطاوعه ـ على ما كان يقول ـ فكان يصرف في كتابة البحث أو المقالة أياماً وأسابيع يراجع المصادر وينقل النصوص ويزن كل كلمة وعبارة خشية مجانبة الحق أو إساءة التعبير. وكان قلما يعنى بطلاوة الأسلوب وجمال الصياغة ، فلم يكن يعتبر نفسه أديباً وإنما كان يرمي الى الإفادة دون أن يهمه الإمتاع . وكنت أعرض عليه أحياناً شيئاً من شعري أو كتاباتي الأدبية فكان يقرأها بإمعان ثم يقول متواضعاً في صراحته المعهودة : «لعل هذا جيد ، ولكنني لا أستطيع الحكم» . أو ما كان في هذا المعنى . ومن أمثلة دقته أنه كتب ذات يوم يرد على أحد الأدباء في موضوع تاريخي فأشار الى إسم الكاتب «فلان الملقب نفسه بالفلاني» . فلما سألته لماذا لم يكتب «فلاناً الفلاني» كما هو المألوف قال «إن هذا الرجل يدعي الانتساب الى قوم مضوا ، فإذا ذكرت اسمه على علاته حسب مني ذلك إقراراً بنسبه» .

ولقد تحدثت قبل سنوات طويلة عن يعقوب سركيس البحاثة المؤرخ فقلت : حظي يعقوب سركيس بالصفات المطلوبة في المؤرخ المحقق ، فأولع منذ حداثته بتتبع الأخبار واستقصاء الأنباء ، وأوتي جلداً على التمحيص والتنقيب ، ومعرفة بلغات تعين على الإستطلاع والاستقراء ، وبصيرة نقادة تحاكم الوقائع وتميز بين المعقول والمختلق ، وغيرة على الحقيقة لا ترضى عن الصدق بديلاً ، وروحاً علمياً ينزع الى التدقيق والتحقيق يذلل الصعاب ويهزأ بالنصب والعناء . ورزق الى جانب ذلك قلما إن يكون رزين العبارة غير مشرق الديباجة ، فإنه واضح الأسلوب قريب المتناول بعيد عن التعسف والتكلف لائق بالبحث العلمي التاريخي . . إختص سركيس بعهود مجهولة من تاريخ هذه البلاد وأتيح له أن يجمع وثائق ومخطوطات نادرة ثمينة ذات صلة بهذه الحقبة من الزمن وأن يرث من أسرته أوراقاً يرجع أقدمها الى نيف ومائة سنة ، ويحوي بعضها معلومات ذات شأن لم ترد في مرجع معروف ويفسر وجودها هذا الميل المتأصل في نفسه الى التحقيق والتدوين .

ومن أثمن ما ضمته خزانة كتبه مجموعة كبيرة منقطعة النظير من الرحلات الى العراق لمختلف الرحالين الذين أتوا هذه البلاد منذ أقدم العصور حتى عهدنا الحاضر. وهذه المجموعة التي بذل صاحبها في سبيل الحصول عليها جهداً ومالاً وفيرين، كتبت بلغات مختلفة وفيها المطبوع والمخطوط، ومعظمها نادر عسير التطلاب. وإذا كان بحاثتنا قد جد في طلب هذه المصادر القليلة الشهيرة وأنعم النظر في ثناياها، فلا بدع أن جاءت أبحاثه غزيرة المادة طريفة الموضوع كاشفة لمناح مجهولة من تاريخ هذه البلاد في الأزمنة الأخيرة. ولا شك أن هذه الأبحاث سوف تبقى أسانيد تاريخية جليلة القدر كبيرة القيمة.

لقد عرفت الراحل الفاضل عشرين سنة ونعمت بصحبته وتمتعت بأحاديثه وأخذت من علمه وفضله وطالعت من مكنونات خزانته ما شئت ورغبت، فوجدته، على ما بيننا من فارق السن، نعم الصديق الوفي الكريم والرجل المهذب الوقور والعالم المتخلق بأفضل الأخلاق والمتبع لسنن العدالة والحق والمتسم بالرصانة والصراحة والصدق. لقد كان عصامياً بالرغم من ثروته وجاهه، وكان معتدلاً في كل أموره مبتعداً عن التفريط والإفراط، وكان حليماً واسع الصدر متواضعاً للصغير والكبير، فيا لأسفي على فقده ويا للوعتي وأساي على وفاته. إن الجيل الذي أنجبه قد مضى وانطوى في ذمة التاريخ، وقد بقي فقيدنا الى آخر أيامه مثالاً حياً لآبائنا الجادين الأخيار البسطاء وأنموذجاً طيباً لأحسن صفاتهم وشمائلهم. فيا أيها الشيخ النبيل والراحل الفاضل الجليل، لقد آلمني المصاب وأخرسني الحزن والشجن، فماذا أقول في تأبينك وكيف أثني عليك وأعدد ما شهدت من مزاياك وسجاياك؟ إنك حي في نفوس عارفيك، مأثور الفضل منشور الذكر، وقديماً قال المتنبي:

كفل الثناء له برد حياته ... لما انطوى فكأنه منشور

آثاره ومصادره:

إن أبحاث يعقوب سركيس ودراساته سوف تبقى مصدراً من مصادر تاريخ العراق في العهد العثماني الأخير يرجع اليها مؤرخ المستقبل في تحقيق موضوعه وتدوينه. وقد كان فقيدنا مولعاً بمباحثه يحبها حباً جماً ويتلذذ بكتابتها وتدقيقها وإعادة النظر فيها. وكان يقول: «أظن كتاباتي جيدة، ولكنني كالأب يحب أولاده في جمالهم ودمامتهم». وكان يتبجح - وهو الرجل المتواضع الذي يؤثر العزلة ويتحاشى الظهور - فيقول: «إن المصادر التي هيئت لي قلما هيئت لغيري...».

إن دراستنا لسيرة البحاثة الراحل لا تكون كاملة إذا لم نردفها بنظرة عامة في آثاره ومراجعه. إن كتابات يعقوب سركيس التي دونها ونشرها خلال حقبة تنيف على

الأربعين سنة تتناول مواضيع شتى وتستند جميعها الى مراجع مخطوطة أو نادرة. ومن أهم هذه المواضيع:

١ ـ تاريخ المنتفق وآل السعدون، وقد كتب في هذا الموضوع صفحات كثيرة اعتمد في أغلبها على وثائق ذات شأن وصلت إليه من أبيه الذي كان وثيق الصلة بآل سعدون.

٢ ـ خطط بغداد وآثارها كمنارة سوق الغزل وجامع الخلفاء والمدرسة المستنصرية وجامع قمرية والمدرسة العمرية ودار المسناة والقصر العباسي وخان جغالة زادة المعروف بخان جغان الخ.

٣ ـ بحوث أثرية كموقع خرائب تلو (تل هوارة) وواسط وطاق كسرى.

٤ ـ بحوث في طائفة من مدن العراق كالبصرة والنجف والعمارة والكوت والبغيلة وآلتون كوبري.

٥ ـ بحوث في الملل والنحل كاليزيدية وعقائدهم.

٦ ـ تراجم أشخاص كنظمي وآله وإبراهيم يحيى العاملي وحكيم زاده البغدادي.

٧ ـ شؤون العشائر كآل قشعم وقبيلة العزة.

٨ ـ طرائف تاريخية كرحلة أول عراقي الى العالم الجديد وظهور حوت في دجلة والأسود في العراق واشتداد الحر وسقوط الثلج ومقاييس الماء وظهور أول سيارة وأول طيارة في بغداد وهلم جرا.

٩ ـ مباحث في تاريخ العراق الاقتصادي. وضع يعقوب سركيس دراسات ذات قيمة في هذا الموضوع. وقد سألته ذات مرة أن يجمع هذه الشذرات والمقالات بين دفتي كتاب يطلق عليه اسماً ذا دلالة على الموضوع، فقال إنه يؤثر إدراجها في محلها من مجموعة مقالاته بحسب تسلسل تاريخ كتابتها. وقام فعلاً بذلك فنشرها في القسم الثاني من مجموعته «مباحث عراقية» فاستوعبت زهاء ١٦٠ صفحة من القطع الكبير. ويصح أن يضاف إليها بحوث أخرى منها «بعثة جسني رائد الفرات» بصدد الملاحة في هذا النهر (مجلة دار المعلمين العالية ـ ١٩٤٨) ورسالة مطولة في «النقود والنميات» (مجلة المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٥٠) الخ.

وأستطيع أن أقول إن إقدام يعقوب سركيس على تدوين مباحث في التاريخ الاقتصادي قد كان بطلب وإلحاح مني. فقد تعرفت عليه في مجلس أنستاس الكرملي في سنة ١٩٤٠ فلم ألبث أن دعوته الى الكتابة في مجلة غرفة تجارة بغداد التي كنت أشرف على تحريرها، كما دعوت فريقاً من أفاضل الكتاب والعلماء أمثال انستاس الكرملي وعباس العزاوي ويوسف غنيمة ومصطفى جواد وداود الجلبي وهاشم جواد وعبد القادر رشيد وشيت نعمان وغيرهم.

وقد واصل يعقوب الكتابة في هذه المجلة من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٤٤ ، فتناول في مواضيعه مبدأ زراعة بعض الثمار والخضر في وادي الرافدين ، وتاريخ التبغ والقهوة والنقود العثمانية وآخر العهد بضربها في بغداد ، وواردات العراق بين عهدين ، ورسم الاستهلاك في القرن التاسع عشر ، وكمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع ، وتعرفة الاحتساب ، وواردات المنتفق ، وتجارة البصرة في صدر المائة الماضية وهلم جرا . وفي وسعي أن أقول إن كل كلمة خطها وكل رقم ذكره يستند الى مصدر من كتاب قديم أو رحلة نادرة أو وثائق وأوراق خطية عثر عليها في الزوايا والخبايا . ومن المعلومات التي حققها أن زراعة الطماطة والفاصولية والبطاطة حديثة عهد في هذا القطر ، وإن التتن قد عرف في العراق منذ مطلع القرن السابع عشر وعرفت القهوة قبل ذلك ، وقد بني أول مقهى في بغداد سنة ١٥٩٠ م . وكانت واردات ولايات العراق الثلاث في أواخر العهد العثماني قبل الحرب العظمى الأولى ـ على ما خمنه ـ لا تزيد على ٩٠٠ ألف ليرة . وكان والي بغداد مفوضاً بسك النقود في دار الضرب (السكة خانة) ثم انقطع الضرب في سنة ١٨٣٥ على عهد الوالي على رضا باشا اللاز .

أما مصادر يعقوب سركيس التي كان يرجع إليها في تدوين مباحثه فأهمها ، بلا ريب ، رحلات الرحالين الذين أموا العراق في القرون الماضية . وقد جمع في مكتبته من هذه الرحلات الشيء الكثير ولا سيما كتب الرحالين الإفرنج الذين جاؤوا الى بلاد الرافدين منذ سنة ١٥٦٥ الى أوائل القرن العشرين . وهذه الكتب بلغات مختلفة كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والتركية ، ومعظمها مطبوع قبل مئات السنين ، وهي تجلو صفحة خفية من تاريخ هذا القطر وأحواله المعاشية والاقتصادية والسياسية .

ومن المصادر النادرة التي هيئت لبحاثتنا وثائق آل سعدون التي سبق الإشارة إليها وأوراق ورسائل لآل عبود أسرة والدته ـ وترجع هذه الأوراق الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ وقد استخرج منها فوائد كثيرة تتعلق بأخبار العراق وتجارته في ذلك العهد . وقد رأيت لديه سجلات يومية مخطوطة لعدد من الأشخاص باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية ، منها ما يعود الى أوائل القرن الماضي وكان يرجع إليها بين الحين والحين لاستخراج معلومات طريفة وأخبار فريدة . ولا ريب أن أهم تلك السجلات يوميات يوسف زفوبودا البغدادي المتوفى سنة ١٩٠٨ . كان هذا الرجل كاتباً في باخرة شركة لينج التي كانت تمخر عباب دجلة بين البصرة وبغداد ، وقد حرص على تدوين مذكراته يوماً فيوماً باللغة الانكليزية خلال ٤٦ سنة فجاءت في ٦١ دفتراً وقع أغلبها في يدي يعقوب سركيس . كان زفوبودا يدون يومياً ما يسمعه من الأخبار والوقائع وما يحدث له من الأمور غثّها وسمينها ، وقد كتب آخر كلماته قبل يومين اثنين فقط من وفاته .

إنني لأذكر هذه الدفاتر جيداً فهي على وفرة عددها بحجم واحد تفتح طولاً ومجلدة بجلد أحمر وقد كتبت بخط دقيق ظهر عليه الضعف واضحاً في الدفتر الأخير. ولغة الكاتب الانكليزية تتسم بالركة والخطأ، وأكثر مدوناته لا تعدو أخباراً شخصية أو عائلية تافهة، حتى ليحتاج قارئها الى حظ وافر من الصبر والجلد. ومع ذلك عكف يعقوب سركيس على مطالعتها سنين طويلة ووضع لها فهارس وجداول واستخرج من آلاف سطورها طائفة من الأخبار والوقائع والطرائف. وحري بالذكر أن معظم هذه الدفاتر آلت الى بحاثتنا قبل أعوام طويلة، ثم وجد في السنوات الأخيرة عدداً من الدفاتر الناقصة فكان فرحه بها عظيماً أشدّ من فرح الطفل بدمية جديدة يعثر عليها. وكانت معرفة سركيس باللغة الانكليزية ضئيلة فكان يستعين بي وبغيري من الأصدقاء لترجمة ما يريد من أخبارها.

يعقوب سركيس ومخطوطاته

خلف لنا أناتول فرانس، أديب فرنسة الفذّ، في بعض رواياته شخصية حيّة عجيبة هي شخصية «سلفستر بونار» عضو المجمع العلمي الذي يمثل البحاثة المدقق المنصرف الى التنقيب والتحقيق، المعتكف بين كتبه وأوراقه، الناظر بروحه وفكره الى زمان سالف. أولع الأستاذ بونار في صدر شبابه بالتحقيق التاريخي حتى انشغل به عن الزواج. واختص بتاريخ القرون الوسطى التي حجبتها سدل من الظلام كثيفة، فأكبَّ على دراسة مظانّها وتحرّي أخبارها وكشف مجاهلها.

وقف صاحبنا اتفاقاً، في بعض المراجع القديمة، على ذكر مخطوطة فريدة في بابها تضمنّت طرفاً نادرة من أنباء الحقبة التي أنفق عمره في تحقيق تاريخها، فهام بها وهو لا يدري أباقية هي في إحدى الزوايا أم قد ذهبت بها يد الحدثان. أصبحت هذه المخطوطة العدمليّة منية فؤاد أستاذنا، يحلم بها في يقظته ومنامه ويتغزل بها ويشتاق إليها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً. ومرت السنون وهو على عهدها مقيم، حتى أتيح له ذات يوم أن وجد اسمها في فهرس لأحد الكتبيّين الإيطاليين. فطار لبه فرحاً بها، وشدّ الرحال الى صقلية في سبيل شرائها، وهو الشيخ الذي مضت عليه ثلاثون سنة في دار واحدة لا يكاد يبرحها. لكنه تجشّم مشاقّ السفر الى ذلك البلد البعيد ليجد مخطوطته الحبيبة قد انتقلت الى نفس باريس التي خرج منها، فعاد اليها على عجل، والمخطوطة تمعن في الفرار منه، وهو يجدّ في أثرها، حتى حظي بوصلها، ولأياً ما فعل، إذ أهدتها إليه، بعد أن يئس من اقتنائها، جنّية من بنات الإنس راعية للجميل.

لم يدر في خلدي أن آنس ذات يوم بلقاء «سلفستر بونار» بشراً سوياً حتى هيء لي التعرف بيعقوب سركيس المؤرخ المحقق والتنعم بصحبته الكريمة وصداقته النبيلة. أنفق سركيس سنين طويلة في جمع خزانة كتبه التي تضمّنت كل ما استطاع حيازته من مصادر تاريخ العراق، وفي مقدمتها رحلات الرحالين الشرقيين والغربيين الذين زاروا

بلاد الـرافدين خـلال الأعوام الألف الأخيرة، من ابـن جبير وابن بطوطـة وسيدي علي وأوليـا جلبي ودرّي أفنـدي ومصطفى الصدّيقـي وأبي طالب مـرزا، الى بـالبي وتكسيرا وديلا فالي وتيفنو وتافرنية ونيبوهـر وروسو وشيزني وجونس ولوفتس وسون وجرترود بل. لكن هذه المجموعة الفريدة في بابها قد أعوزتها مخطوطة لا تقوّم بثمن: فقد علم الأستاذ سركيس في أثناء مراجعاته، بوجود رحلة مخطوطـة لرحالة برتغالي قديم مجهول الاسم زار العراق في نحو سنة ١٥٥٤، وكانت هذه المخطوطـة النادرة في حوزة الميجر مارتن هيوم الانكليـزي في مطلع المائة العشرين. أشار الى هـذه الـرحلة البرتغـالية المستشرق غـاي لسترانج في هامـش كتابه «أراضي الخلافـة الشرقية» مستنـداً في ذكرهـا الى ما كتبـه عنها مـالك نسختهـا الفريـدة نفسـه في صحيفـة «الأثينيوم» في عـددهـا المؤرخ في ٢٣ آذار ١٩٠١. ولم يقرأ بحاثتنـا العراقي خبر هذه الرحلة في هـامش لسترانج حتى ملكت لبّه وشغلت بـاله، فشرع يبحث عن عـدد الصحيفة الانكليزيـة التي وصفتها. لكـن هذا العدد نفذت نسخه، وقد مرّت على صدوره عشرات الأعوام، فلم ينل ذلك من عزيمة البحاثـة المحقق، بل استمر على طلبه حتى وفّق للحصـول على نسخة منه ـ بعد بضع عشرة سنة! وقد سرّه أن يجد على صفحات هذا العدد رسالة من الميجر هيوم يصف فيها مخطوطته المجهولـة المؤلف ويسأل القراء أن يرشدوه الى صاحبها الـذي خرج من لشبونة في منتصف القـرن السـادس عشر، وجـاب أوربـة غـربيّهـا وشرقيهـا، ثم عـرج على الأناضـول وسوريـة وفلسطين ومصر ووصل أخيراً الى وادي الرافـدين والخليج العربي. وقد كتب البرتغـالي الذي غمـر اسمه وشخصـه حجاب النسيان يصـف البلدان التي زارها والمغامـرات التي خاضها في رحلته الطويلة الشـاقة، فكانت مدوّناتـه بعد مئات السنين سجلاً رائعاً لعهود بعيدة وأقطار مغمورة.

يـا لسرور الأستـاذ بـالعثور على وصـف مخطوطتـه الحبيبـة بقلم من حـاز نسختهـا الوحيدة! لكن هذا الوصف لم يكن ليبلّ الغلّة، بل إنه لم يكن إلا ليزيد الظمأ الى الرحلة الموصوفة كما يشتدّ جوع الجائع عند ذكـر الطعام السائغ المريء. فكيف الحصول عليها وأين الوصول إليها؟ لقد امتلكها ضابط انكليزي في مطلع القرن، فماذا فعل الدهر بهذا الضابـط وماذا حلّ بمخطـوطته الثمينة؟ أهـي لا تزال في قيـد الوجود خبيئـة في بعض الزوايا، أم قد ذهبت بها يد العبث والإهمال فزال أثـرها وزال بزوالها آخر سجلّ لمغامرات عجيبة شـائقة؟ أم لعلها قد وقعت في قبضـة هاوي كتب متبلّد الـذهن، فعضّ عليها بالنواجذ وضمّها في خزانة مغلقة ينفس عليها نور الشمس وأعين الناس... لقد نقب بحـاثتنـا وأمعن في التحقيق والتـدقيـق، وراجع فهـارس دور الكتب وقـوائم الكتبيّين والهواة، وكتب الى «لوزاك» وأمثال «لوزاك» من قنـاصة الآثار الشرقية النادرة... ولكن هيهات أن يجد الى ضالتّه المنشودة سبيلاً...

وقد أهـديت كتب يعقـوب سركيس ومخطوطـاته بعـد وفاتـه الى جامعـة الحكمة في

بغداد، فعهد الى كوركيس عوّاد بوضع فهرست للمخطوطات صدر سنة ١٩٦٦. ثم نقلت الى مكتبة المتحف العراقي في تموز ١٩٧١.

كان ليعقوب سركيس دائرة معارف بريطانية تتألف من عشرات الأجزاء مطبوعة قبل سنة ١٩٠٠، وكان يعتز بها كل الاعتزاز. وقد اشترى طبعة جديدة بعد ذلك، لكنه بعد أن أهدى الطبعة القديمة عاد فاسترجعها وضمّها الى مكتبته. وقد سألته عن السبب فقال: إن طبع الكتب والجرائد واستيرادها كان ممنوعا في عهد الاستبداد الحميدي يعاقب عليه بأشدّ العقوبات، لا سيّما تلك التي تذكر الحرية والحقوق المدنية والثورة والتاريخ الحديث. وقد سافر صديق له الى أوروبة سنة ١٩٠٠ فكلفه بجلب دائرة المعارف له، فتحمل مشقة كبيرة في إدخالها الى ميناء البصرة وحملها الى بغداد خوفاً من الكمارك والرقباء. ووضعها يعقوب سركيس في مكان خفيّ من داره حذراً من العيون يطالعها سراً، حتى إذا ما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وتم تحرير المطبوعات، أخرجها الى النور بلا وجل.

كان يعقوب سركيس يمتلك مخطوطاً في تاريخ آل سعود والوهابيين كتبه أحد كتابهم في نحو سنة ١٨٧٥. وقد ترك المؤلف خدمتهم والتحق بخدمة آل سعدون في المنتفق، فأجرى في مخطوطته بعض التصليحات.

وكان يعقوب سركيس يحرص على هذه المخطوطة ويعدّها فريدة في موضوعها، وقال لي إنه يرضى ببيعها الى الحكومة السعودية إذا دفعت فيها ثمناً كبيراً، لا سيّما أنها تقبض إيراداً جسيماً من مواردها النفطية.

ودعونا الشيخ عبد الله الخيّال سفير المملكة العربية السعودية في بغداد ورفائيل بطّي لفحص المخطوطة، فأبدى السفير اهتمامه بها ووعد أن يكتب الى حكومته حاثاً إياها على شرائها. ولكن لم يحصل أي نتيجة.

ولما توفي يعقوب وقام أخوه يوسف بإهداء مكتبته الى جامعة الحكمة، أخبرته بقيمة المخطوطة، فآثر الإحتفاظ بها ولم يهدها مع الكتب والمخطوطات الأخرى التي آلت بعد ذلك الى الحكومة العراقية عند تأميم الجامعة.

هذا وقد جمعت مقالات سركيس في كتابه «مباحث عراقية: في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ. (الجزء الأول ١٩٤٨، الثاني ١٩٥٥). وله أيضاً: تلّو أي تل هوارة (١٩٣١) شهداء حلب (١٩٣٤) التتن والقهوة في العراق (١٩٤١) كمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع وخلفه السلطان إبراهيم (١٩٤٢) واردات العراق بين عهدين (١٩٤١). وعني بنشر الجزء الثالث من «مباحث عراقية» معن حمدان علي سنة ١٩٨١.

أصيب يعقوب سركيس في السنتين الأخيرتين من حياته بمرض الشيخوخة فصار

ينسى الحوادث القريبة. سألته يوماً عن الجزء الثالث من مباحثه العراقية الذي جمع مقالاته وهيأها للنشر فقال لي لا أذكر ذلك. ثم سألته عن مجيء سليمان البستاني مترجم الإلياذة الى العراق قبل سبعين سنة، فانبرى يذكر التفاصيل بدقة وقال إن البستاني جاء الى بغداد والبصرة وأقام فيهما ثماني سنين ومارس التعليم والتجارة واقترن بفتاة عراقية. . . ولم ينس بحاثتنا الشيخ الأحداث التي مرت قبل عشرات السنين.

رشيد السعدي

محمّد رشيد بن داود السعدي، كان أبوه الشيخ داود من علماء بغداد وعيّن مدرساً ومفتياً للمنتفق سنة ١٨٥٥. ثم تولّى إفتاء الجيش في الاحساء وألف رسالة في «طريق الحج من الاحساء الى الرياض فالحجاز» طبعت سنة ١٨٧٢. وتوفي ببغداد سنة ١٨٧٦.

درس محمد رشيد على علماء عصره وأنشأ مطبعة في بغداد سنة ١٩٠٣. وألف كتباً منها: غاية المراد في الخيل والجياد (١٨٩٦) قرّة العين في تاريخ الجزيرة والعراق وبين النهرين (١٩٠٧)، ونشر من الكتب: سبائك العسجد لعثمان ابن سند (١٨٩٧!) وديوان الشيخ كاظم الأزري (١٩٠٢)وقد طبعت تلك الكتب جميعها في بومبي بالهند.

قال إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون»: «كان هذا الرجل أعجوبة في قوة الحجة وبعد النظر والاطلاع الواسع على قياسات أغلاط أهل المنطق، يناظر ويبحث في علوم الملل والأديان فلا يجعل للخصم حجة ولا يبقي له كلاماً. كان آية في عرض الكلام في معارض بلاغية متنوّعة. . ».

كان له شعر، وتوفي ببغداد سنة ١٩٢١.

الدكتور سليمان غزالة

الطبيب الشاعر الأديب الدكتور سليمان غزالة، وهو عبد الأحد سليمان بن جرجس بن يوسف غزالة، ولد ببغداد في ٢١ أيلول ١٨٥٣ ودرس فيها. ثم قصد الموصل لمواصلة الدراسة، وعاد الى مسقط رأسه سنة ١٨٧٠، وعيّن معلماً في مدرسة الأليانس الأهلية (١٨٧٣)، وشدّ الرحال بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٧٩ فكان معلماً بمدرسة اليسوعيين، لكنه أكبّ على الدرس في الوقت نفسه.

وسافر الى باريس في السنة التالية فانتمى الى كلية الطبّ (١٨٨١) وتخرّج طبيباً سنة ١٨٨٦. واختصّ بالقبالة وطبّ العيون والبكتريولوجية ثم عاد الى الاستانة سنة ١٨٨٧ وحصل على وظيفة طبيب صحة العراق.

وقد وصل الى البصرة في حزيران ١٨٨٨ ، وجعل مقرّه في الحلة ، وعهد إليه بمكافحة وباء الهيضة والطاعون في الألوية الجنوبية . وفي سنة ١٨٩٣ أوفد بمهمة صحية الى طور سيناء ، ورحل منها الى الاستانة وسيواس ونواحي الأناضول وحلب في سبيل أداء أعماله الطبية .

عيّن طبيباً في طرابلس الغرب في كانون الأول ١٨٩٥ ، ثم نقل الى دمشق سنة ١٨٩٧ . وتوفيت زوجته الأولى صوفي كرومي ، فسافر الى باريس مجازاً . وتعرّف بالأديبة الفرنسية جان التي اشتهرت باسمها المستعار غي دافلين GUY D'AVELINE واقترن بها في العاصمة الفرنسية في ١٢ آب ١٨٩٧ ، وعمرها آنذاك نحو ٣٠ سنة .

وعاد الدكتور غزالة بزوجته الى الأستانة فأعيد تعيينه الى طرابلس الغرب (شباط ١٨٩٨) . وظلّ فيها الى الاحتلال الإيطالي ، فغادرها الى مالطة (تشرين الأول ١٩١١) ، ومن ثمّ قصد الأستانة فعيّن طبيباً للسفارة التركية في طهران . وقد وصل إلى إيران في آذار ١٩١٢ ، واختير رئيساً لمجلس الصحة الدولي في العاصمة الفارسية في تشرين الأول ١٩١٤ الى كانون الثاني ١٩١٦ .

وقد رجع الى بغداد بعد غياب طويل في كانون الثاني ١٩٢٠ . واتخذ مقامه في البصرة وانتخب نائباً عنها في المجلس التأسيسي (أيار ١٩٢٤) ، وبعد ذلك في مجلس النواب (١٩٢٥ ـ ٢٨) . وأدركته الوفاة في بغداد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٩ .

مؤلفاته

وضع سليمان غزالة مؤلفات كثيرة بالعربية منظومة ومنثورة ، منها : رواية لهجة الأبطال (١٩١١) سوانح الفِكَر (١٩١٥) سوانح الكَلِم (١٩١٥) السّبيل الأقصد (١٩١٧) سبب الموت الطبيعي (بالعربية والفرنسية) ، القصيدة الفيصلية (١٩٢٤) الحرية فلسفياً (١٩٢٤) الاعتماد على النفس (١٩٢٧) المعضلة الأدبية (١٩٢٧) حياتي الشخصية والوظائفية (١٩٢٩) الخ .

وصنّف «الوضيعة في الحكمة الخلقية في ١١ كتاباً (١٩٢٤ ــ ٢٧) ، وهي تتناول : الحياة الاجتماعية (١٩٢٤) منهاج العائلة (في جزءين ١٩٢٤ ــ ٢٦) خلاصة أركان الاقتصاد السياسي (١٩٢٦) العشق الطاهر (١٩٢٥) القصيدة الفردوسية (١٩٢٤) تاريخ الحرية البشرية (١٩٢٦) الهوى (١٩٢٦) الحبّ البشري (١٩٢٦) خلاصة الأدب الرياضي العملي (١٩٢٧) الاقتصاد السياسي (١٩٢٧) الأدب النظري العمومي (١٩٢٧) .

أما زوجته الثانية الفرنسية فكانت روائية معروفة ولها مشاركة في الفنّ كالرسم بالزيت على قماش الكتان . ولدت سنة ١٨٦٧ ، وعاشت مع قرينها في طرابلس الغرب وطهران والبصرة وبغداد وتوفيّت بعده . ونشرت باسمها المستعار «غي دافلين» روايات لطيفة باللغة الفرنسية أشهرها «أتيلا» ملك الهون الذي دمّر الحضارة الأوروبية في القرن

الخامس الميلادي، وكان يقال إنّ العشب لا ينبت حيث وقعت سنابك خيله. وقد قال الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في هذا الفاتح الطاغية:

إنّ آتيلا، وما كان سوى ... نقمة الله وسيف الغضب
ملأ الأيام هولاً ودماً ... فحَشاها خافق من رهب
وهو المأثور عنه قوله ... في سبيل الفخر فاسمع واعجب:
«لم يغادر بي جوادي تربة ... وعليها أثر للعشب!»

ومن رواياتها الأخرى: رسّام السيّدة، سكن بيننا، كنز علي خوجه، نجم بزغ، وردة الشواطىء، مريم المجدليّة (١٩٢٧) الياقوت القتّال (١٩٢٧)، الخ.

وكان للدكتور غزالة وقرينته، بعد إقامتهما في بغداد سنة ١٩٢٤، مجلس يؤمّه رجال البلد وتبحث فيه موضوعات العلم والأدب والفن والاجتماع.

آغا بزرك الطهراني

الشيخ محمّد محسن بن علي الرازي المؤرخ البحاثة المعروف باسم «آغا بُزُرْك الطهراني»، ولد بطهران في ٧ نيسان ١٨٧٦ ودرس على علمائها.

قدم النجف سنة ١٨٩٥، فتتلمذ على يد الشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمّد طه نجف وغيرهم. ثم قصد سامرّاء ولازم محمد تقي الشيرازي أعواماً. وعاد الى النجف سنة ١٩٥٥ فانصرف الى التأليف والتصنيف. وجمع خزانة كتب حفلت بنفائس المطبوع والمخطوط، وقفها على طلبة العلم سنة ١٩٥٥. ورحل الى إيران والهند وسائر الأقطار الإسلامية والعربية بحثاً عن المصادر للموسوعة التي عكف على وضعها في تصانيف الشيعة.

توفي بالنجف في ٢٠ شباط ١٩٧٠.

قال فيه سلمان هادي الطعمة: «إنّ هذا المفكر الذي عرفته عالماً بارعاً وأديباً فذاً ورجل بيان أمضى حياته بالتتبّع والدراسات العميقة، أوتي مكانة فريدة في الثقافة الجامعة وأحاط بأسرار اللغتين العربية والفارسية...».

وضع مصنفات كثيرة أهمها: الذريعة الى تصانيف الشيعة (صدر منه ١٨ جزءاً في ٢١ مجلداً، ١٩٣٧ ـ ٦٧)، الكرام البررة (في جزءين ١٩٥٤ ـ ٥٨)، نقباء البشر في القرن الرابع عشر (٤ أجزاء ١٩٥٤ ـ ٦٨). وله أيضاً: حياة الشيخ الطوسي (١٩٥٧) ذيل كشف الظنون (١٩٦٧) المشيخة (١٩٣٧) مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال (١٩٥٩) الخ.

اسماعيل باشا البابان

من فضلاء الأسرة البـابانية اسماعيل بـاشا المعـروف بالبغدادي أو النـوري ابن محمد أمين باشـا بن سليم بـاشا، ولد ببغـداد ودرس في استانبـول. وكان من رجـال الجيش التركي في عهد السلطـان عبد الحميـد الثاني، نـال رتبة أمير لواء. وكـان آخر منـاصبه مديـرية الشعبـة الثانيـة لدائرة الضبطيـة (الشرطة) في استـانبول قبل أن يعتـزل الخدمة وينصرف الى التأليف.

إشتهر بكتابـه «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنـون» (طبع في مجلدين سنة ١٩٤٥ ـ ٤٧)، وقـد أنفق في تأليف هذا الذيل نحـواً من ثلاثين سنة وفـرغ من تصنيفه سنة ١٩١٢. وألف أيضاً «هدية العارفين» في أسماء المؤلفين وأثار المصنّفين (في مجلدين ١٩٥١ ـ ٥٥).

توفيّ إسماعيل باشا في استانبول سنة ١٩٢٠.

قال عباس العزاوي إنه كان دؤوباً على العمل، عارفاً بالكتب والمخطوطات، وكان الى ذلك خطاطاً ماهراً يشار اليه بالبنان.

يوسف رزق الله غنيمة

الوزير البحاثة الأديب يوسف رزق الله غنيمة ولد في بغداد في ٩ آب ١٨٨٥ وتوفي في لندن التي قصـدها مستشفياً في ١٠ آب ١٩٥٠. كـان وزيراً للمالية والتمـوين وعضواً بمجلس الأعيان ومديرا عاماً للآثار الخ.

من مـؤلفاتـه: تجارة العراق قـديماً وحديثاً، نـزهة المشتـاق في تاريـخ يهود العراق، محاضرات في مدن العراق، الحيرة: المدينة والمملكة العربية الخ.

أسهبت في ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

***

نشر المحامي حارث ابن يوسف غنيمة كتاباً في سيرة والده: يوسف غنيمة من أركان النهضـة العلمية في العـراق الحديث (طبع ببغـداد، ١٩٩٠) وكـان قد نشر أيضـاً قبل ذلك «يوميات يوسف غنيمة: رحلة الى أوروبا ١٩٢٩» (بغداد، ١٩٨٦).

ذكر حارث ان الجدّ الأعلى للأسرة القسّ يشوع بـن الشماس غنيمة كان من النساطرة متزوجـاً حسب عادة الكهنة الشرقيين، وكان يقيم في بغـداد في النصف الأول من القرن السابـع عشر. وانتمى حفيده عيسى بن الشماس غنيمـة الى الكنيسة الكـاثوليكيـة سنة ١٧٤٣. أما والد يـوسف، وهو رزق الله غنيمة، فكان رئيس كتـاب المكوس في بغداد

وتوفي في الثـامنة والثلاثين من عمـره. ولما ولد يوسف سمي يـوسف نعمة الله قريـاقوز لكنه عرف بـاسمه الأول. وتوفي والده وهـو في الخامسة من عمره فكفتله والـدته ورعاه عمّاه شكر الله ونصر الله.

درس في المدرسـة الكلدانيـة الابتـدائيـة ثم انتقل في أوائل سنـة ١٨٩٨ الى مدرسـة الأليانس وتخرج فيها سنة ١٩٠٢، وقد تعلم فيها اللغات العربية والفرنسية والانكليزية وشيئاً من التركية والعبرية إضافة الى العلوم والـرياضيات والجغرافية والتاريخ. وألم بعد ذلك باللغة السريـانية، ودرس العربية على الأب انستاس مـاري الكرملي. وافتتح سنة ١٩٠٦ محلاً تجارياً وحصل على وكالات لاستيراد المضخّـات والمحرّكات الخ.، وأسس فندقـاً عصرياً بعـد الاحتلال البريطـاني. وأنشأ سنة ١٩٠٩ بـالاشتراك مع المعلم داود صليوا جريدة «صدى بابل».

انتخب عضـواً في مجلس إدارة لواء بغـداد (شباط ١٩٢٢)، وتـولى تدريس تـاريخ المدن العراقية في مدرسة المعلمين العالية المؤسسة في كانون الأول ١٩٢٣. وانتخب نائباً في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) وكـان مقرراً للجنـة تدقيق لائحـة القانـون الأساسي. وأصدر جريدة «السياسة» اليومية في ٣ آذار ١٩٢٥، الى ٣ تموز ١٩٢٥، وانتخب نائباً عن لواء بغداد (حزيران ١٩٢٥) ثم أوقف صدور جريدته.

أصبح وزيـراً للمالية (١٩٢٨ ــ ٢٩) و ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ــ ٣٥ و١٩٣٥، ووزيـر التموين (١٩٤٤ ـ ٤٦) ووزير المالية (١٩٤٦) مع وكـالة وزارة التموين، ووزير المالية (١٩٤٧ـ ٤٨).

غادر العـراق بإجازة مـرضية في تموز ١٩٢٩ قـاصداً الاستشفاء فـزار سوريـة ولبنان وفلسطين ومصر وإيطـالية وفـرنسة وانكلترة وعـاد عن طريـق فرنسـة وايطاليـة وتركيـة وسورية ولبنان في تشرين الأول ١٩٢٩.

أعاد إصـدار جريدة السيـاسة بعد تعطيل جريـدة نداء الشعب لتكون لسـان حال حزب الآخاء الوطني (٣٠ كانون ثاني ١٩٣١) ثم عطلتها الحكومة في ٢٤ آذار ١٩٣١. ثم عين مديراً عاماً للواردات (٢٤ كانـون أول ١٩٣٢) فمديراً عاماً للمالية (١٦ حزيران ١٩٣٤) فوزيـر المالية (٢٧ آب ١٩٣٤) نـائب بغداد (كـانون أول ١٩٣٤) الى نيسـان ١٩٣٥. وزير المالية (٤ آذار ١٩٣٥) الى ١٦ منه. عين مديراً عـاماً للمالية للمرة الثانية (٢٧ حزيران ١٩٣٥)٠تولى مديرية الأملاك والأراضي الأميرية العامة أيضاً بالوكالة (تموز ١٩٣٥) ثم عين مديـراً عاماً للمصرف الزراعي الصنـاعي بالوكـالة (آذار ١٩٣٦). ثم نقل من مدير المالية العـامة مديراً عاماً للمصرف أصـالة (١٢ كانون أول ١٩٣٦). الى ١٩ تشرين ثـاني ١٩٤١ حين نقل مديـراً عامـاً للآثـار مع بقائه مـديراً عـاماً للمصرف بالوكالة الى ١٧ آذار ١٩٤٢. ثم تولى مديرية المصرف بالوكالة أيضاً من ٢٧ تشرين أول ١٩٤٣ الى ١٨ تشرين ثـاني ١٩٤٤ بالإضـافة الى مـديريـة الآثـار وبعد ذلك مـديريـة

التموين العامة. وقد قام المصرف بإمداد الزراع بالسلف والتدخل في الأسواق لرفع أسعار المحاصيل كالقطن وبذر الكتان والمساهمة في المشاريع الصناعية كشركة السمنت العراقية وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة تجارة وطحن الحبوب ومشاريع أخرى تتعلق بنسج القطن وأهراء الحبوب ودباغة الجلود وصيد الأسماك.

عين مديراً عاماً للآثار القديمة (٢٠ تشرين ثاني ١٩٤١) وكان نائب رئيس لجنة التموين الاستشارية أيضاً (نيسان ١٩٤٢). ونقل مديراً عاماً للتموين (٢٥ حزيران ١٩٤٤) وأصبح وزير التموين (١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ الى ٢٣ شباط ١٩٤٦. وعين عضواً بمجلس الأعيان خلفاً للبطريرك يوسف عمانوئيل الثاني المستقيل (١٤ أيار ١٩٤٥). ودخل في وزارة أرشد العمري وزيراً للمالية ووزير التموين بالوكالة (١ حزيران ١٩٤٦). وقد استقال من وكالة التموين في ٣١ تموز ١٩٤٦. واستمر في المالية الى استقالة الوزارة في ٢٠ تشرين ثاني ١٩٤٦. وتقلد وزارة المالية أيضاً في وزارة صالح جبر (٢٩ آذار ١٩٤٧)، وتم في عهده تأسيس البنك المركزي الذي عرف باسم المصرف الوطني العراقي (تشرين الثاني ١٩٤٧). واستقال من الوزارة بعد أحداث الوثبة المعارضة لمعاهدة بورتسموث في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨.

تكلمت عن أدبه ومؤلفاته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية». وقد ذكرت مقالاته التي نشرها سنة ١٩٢٩/ ٣٠ عن «حقوق الفلاح والعامل في العراق». وقد قال هاشم جواد عنه إنه سبق الصحفيين والتقدميين في ميدان المطالبة بحقوق الفلاح والعامل وأشار بكل قوة وحماس الى ضرورة العناية بالطبقة العاملة في المعامل والمزارع. وذكر ما كتبه يوسف غنيمة سنة ١٩٢٩ إن من واجب العدل ومقتضيات النظام الاجتماعي الراقي أن تضمن راحة كل أفراد الأمة وتكفل طمأنينتهم مدى الحياة، فضلاً عن وجوب الاهتمام بإعالة ذويهم بعد موتهم، وذلك بتحديد ساعات العمل وتوفير شروط الصحة في محلات سكناهم وأعمالهم وأمان ومستقبل كل فلاح وعامل وغيرهما ويفكر في وسائل معيشتهم عند العجز والهرم وحلول العاهات، ويقام بإعالة أيتامهم وأراملهم بعد موتهم.

وتساءل هاشم جواد هل قال لورد بيفيريج أكثر مما قاله هذا الرجل العراقي قبله بستة عشر عاماً؟

وقال يوسف غنيمة إن مطالب الفلاح يجب أن تشمل بقاء الحكومة مالكة لرقبة الأرض، وتفويض الأراضي للفلاح والعامل بيده وترجيحه على من سواه، وتشجيع الملكية الصغيرة والحدّ من مساحة الأراضي التي يملكها الشخص الواحد، وتأليف مصرف زراعي ونقابات زراعية، وحماية الإنتاج الزراعي وإيجاد الأسواق له، الخ.

أما مطالب العمال فلخصها في تحديد سنّ العمل وساعات العمل والأجرة الصغرى، وضمان العمال في حالة المرض وعند وقوع الحوادث المهنية وعند الشيخوخة

والعجز، ومعاونة العمال في أيام العطل، ومكافحة البطالة، والمساعدة في إيجاد مساكن صحية ورخيصة، ورفع مستوى التهذيب، الخ.

طه الراوي

الكاتب المحقق اللغوي «معلم الجيل» طه الراوي ولد في بلدة عانة المقابلة لراوة على الفرات (كما أعلمني بذلك ولده حارث) سنة ١٨٩٠ وتوفي في بغداد في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦. كان أستاذاً في جامعة آل البيت ودار المعلمين العالية ومديراً عاماً للمعارف وعضو المجمع العلمي العربي في الشام ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. نشرت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

كتب الشاعر المصري علي الجارم إلى طه الراوي يقول:

«هذه والله، يا طه، صلة الروح التي لا تنفصم وإن بعد المكان وتعاقبت الأزمان. ماذا أكبر فيك؟ والله لا أدري. أهو علمك؟ أهو أدبك؟ أهو كريم خلقك، أم هؤلاء جميعاً؟ أم هناك أخوة بعيدة المدى منذ خلقت الأرواح لا أعرفها. رأيت كثيراً من العلماء وعاشرت عديداً من الأدباء وخالطت جمهرة من ذوي الخلق الكريم. فما كانوا لك نداً ولا لشخصك العظيم في نفسي ظلاً...»

وقال توفيق السويدي:

«وقد أحببت صديقي الفقيد لميزة زادته في نظري إعجاباً، وهو أن تفكيره كان بعيداً عن تفكير بعض المعمّمين. وأريد بهذا أن الراوي لم يكن يتسّم بالجمود بل كان يريد أن يساير الزمن ويواكب تطوراته، ولكن تقدّميته هذه كانت تقف عند حدود معيّنة بحكم النشأة والتربية التي نشأ وتربّى عليها.

«وفي رأينا أن المرحوم الراوي كان يعتقد برسالة روحية سامية دأب على التغنّي بها منذ حداثته الى اليوم الذي ودّع فيه الحياة، رحمه الله».

وقال عباس العزاوي:

«... ولا أخالني مبالغاً إذا قلت أن الفقيد استكمل أدب النفس، وهو أصل التهذيب الحقّ وأداة العلم الوافر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل خدم بما عنده مدارك الأمة في تعليمها وتلقينها، ولا زال على ذلك الى أن لفظ نفسه الأخير. فهو أستاذ معروف، وفاق أكثر في توجيه اللغة العربية، وكان وافر الاطلاع فيها، عارفاً بحقائقها، مشبعاً في حبها...».

وقال الدكتور مصطفى جواد في رثائه:

أرى الموت لم يترك لـــذي اللّبّ مفـزعــاً … غـــداة رمى طــه فأصمى وروّعــا . . .
فقـــدنـــا عميـــد الألمعيّين ذا النّهى … وذا الــرأي، محمــود المفــارس مــونعــا
هـــوى كهـــويّ العبقـــرّيين لم يكن … لقلبهــم صبر على حمل مـــــا وعـى
قضى عمـــره في نصرة العلم ســـالكـــاً … سبيل خـــلال الخير مـا حـــاد إصبعـا
أبـا هـاشم، أضحى مصـابك شـامـلاً، … فكيف التـأسي والأسى قــد تــوزعــا؟
لقـــد كنت لـــلآداب والعلم مـــوئلاً … فــلا غـــرو أن أضحى ممـــاتك مفــزعــا
وقـــد كنت قـــوّالاً بحقّ وآمــــراً … بعـــرف ومـــدعـــاة الى الخير مقنعـــا
تســاميت عن جهل التعصّب مبغضـــاً … لأربـــابـــه، عن خبثهـم مترفّعـــا
طـــوتك يــد الأقـــدار سفـراً مكـرّمـاً … ستقـــرأه الأجيـــال أجلى وأنصعـــا

وقال الدكتور زكي مبارك:

فجعـت بـألطـف العلماء روحـــــــاً … وأفصحهـم إذا اشتجـــــــر الجدال
أديـب لا يســـــاميـــــه أديـب … لـــه في كل معضلـــة مقـــال. . .

***

كتب أحمد حسن الزيات الى طه الراوي سنة ١٩٣٨ رسالة جاء فيها:

«لا أحب أن أتحدث في هـذه الرسـالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثـر، وأكنّ لك في نفسي من عظيم التجلّة، فإنّ معرض ذلك في خطاب يشبـه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي. فلأترك ذلك إذن الآن. . . ».

قال طه الراوي:

أميـل مع الحقيقـــة حيث مـــالـت … وأجعـل ظـلّ رايتهـــا شعـــاري
وأدمغ بـــالـــدليل هـــراء خصمي … فـإن مــــارى فـإني لا أمـــاري

وكتب معروف الرصافي الى طه الراوي يقول:

أبلغ أبـــا هـــاشم عنّي مغلغلـــةً … يعجّ فيهـا القـريـض الغضّ شكـرانـا
إنّي عهـــدتك حـــرّ النفس متخّـــذاً … لك العــلا مـأربـاً والصـدق ديـدانـا
نماك جـــدّ كـــريـم للعلى، فلـــذا … زكـــوتَ نفسـاً كما قـــد فقت تبيــانـــا
ظننتني قــد هجـرتُ الشعـر مُـذ زمنٍ، … وهل أطيـق لحبّ النفس هجـــرانـــا؟

***

طه الـراوي كاتب مشرق البيان، جميل الأسلوب. وقـد كتب في المواضيع الاجتماعية

فدعا الأغنياء الى التنبّه لموجة السخط من الطبقة الكادحة الفقيرة وترك البذخ وإنفاق جزء من ثرواتهم في التخفيف مما يعانيه إخوانهم في البشرية وبناء المشاريع المفيدة كالمستشفيات والمدارس والملاجىء. وقال:

«تنبّه البشر اليوم الى ما لم يكن يحلم به البشر القديم. وتكتسح العالم اليوم موجة سخط من هذا التفاوت الهائل بين الإنسان والإنسان: فألوف من الناس لا يصلون الى قوتهم اليومي وإلى ما يستر أبدانهم من الكساء والى ما يأوون إليه من المسكن إلا بعد الكدح المضني والكدّ المجهد..

وقد قام أولئك الألوف يطالبون بالمساواة الاجتماعية ويقولون لأصحاب التكاثر: نحن وأنتم في البشرية شرع، ولولا جهودنا لما أصبتم هذه الكنوز. فنحن نريد المساواة، نريد العدل الاجتماعي...».

وارتأى لذلك وجوب النزول على حكم الواقع ورفع مستوى العيش بين الفئات الكادحة وتخفيف الضنك عن تلك الطبقات البئيسة لتهدئة سورة الغضب التي كادت توقد حرباً شعواء بين الفقراء والأغنياء. فإذا أراد الأغنياء أن يخففوا من حدة هذا الغضب الذي أخذ يتطاير شرره حولهم فما عليهم إلا أن يعالجوا ذلك بالأفعال لا بالأقوال.

هذا ولقد قلت في ترجمة الراوي أن تلامذته خير آثاره. وقد سئل المؤرخ المصري الأستاذ محمد شفيق غربال عن أهم مؤلفاته فأشار الى تلامذته المتحلّقين حوله في مجال الجواب على ذلك السؤال.

طه الراوي

عتب طه الراوي على معروف الرصافي في كانون الثاني ١٩٤٢ هجره للشعر بقصيدة أرسلها الى راويته مصطفى علي مطلعها:

أمصطفى بن عليّ، يا أخا ثقتي، إنّي عهدتك للإخوان معوانا
أبلغ مليك القوافي كلّ خالصة من التحايا تمجّ العطر ألوانا
ما باله، حرس الرّحمن مهجته، قد أوسع الشعر إعراضاً وهجراناً؟

فأجابه الرصافي بقصيدة منها:

أبلغ أبا هاشم عني مُغَلْغَلَةً يعجّ فيها القريض الغضّ شكرانا:
أحسنت ظنّك بي إذ جئت تمدحني بما به زدت حسن الظنّ إحسانا
ظننتني قد هجرت الشعر مذ زمن وهل أطيق لحبّ النفس هجرانا؟
ذاك الحبيب الذي أوسعته مِقَةً منّي، وصيّرته للمجد عنوانا...

ومضى الرصافي يقول أن حبّ الشعر قد شفّه حتى هجر له طيب المنام، يصحو بصحوته وينتشي بنشوته، يسلّيه إذا اعتلجت همومه، ويشدو به في المحافل مفتخراً. وختم قصيدته في لهجة حزينة مشفقاً أن يبوح بشعره في معشر الطغاة الذين لا يقيمون وزناً لحرية الفكر.

منير القاضي

العالم الفقيه الحقوقي منير القاضي ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٦٩. كان رئيس المجمع العلمي العراقي وعضو مجمع دمشق وعميد كلية الحقوق ورئيس ديوان مجلس الوزراء ووزير المعارف. ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

كان منير القاضي لطيفاً حسن الدعابة على وقاره. ذكر جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» أنه جرى في الندوة الأدبية لصبيحة الشيخ داود بحث الطلاق وهل يجوز للمرأة أن تمنح حق الطلاق. وكانت المناقشة عنيفة، وارتأت صاحبة الندوة وجوب تعديل قانون الأحوال الشخصية لمنح المرأة هذا الحق. وكان منير القاضي يخالف هذا الرأي ويرى فيه خروجاً على الشريعة الإسلامية.

وقال الخليلي إن المذهب الجعفري يجيز منح المرأة حق تطليق زوجها إذا نص عقد الزواج على هذا الحق. وأراد منير القاضي أن يمزح فقال: لو أردنا أن نجعل الطلاق بيد المرأة لما غبن أحد غيري في عالم الرجال، لأنني سأكون أول من تطلقه زوجه لإنعدام المزايا التي تتطلبها الزوجة في زوجها في شخصي.

وضجّ المجلس بالضحك.

عباس العزاوي

مؤرخ العراق عباس العزاوي ولد في أنحاء ديالى سنة ١٨٩١ وتوفي في بغداد في ١٧ تموز ١٩٧١. كان محامياً معروفاً وعضواً في المجمع العلمي العراقي ومجمع دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع القاهرة وعضواً في جمعية الدراسات التاريخية المصرية ومجمع اللغة التركية في أنقرة. إشتهر بمؤلفاته عن تاريخ العراق وفي مقدمتها «تاريخ العراق بين احتلالين في ثمانية أجزاء». نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية».

عين العزاوي معلماً في بعض المدارس الابتدائية في بغداد سنة ١٩٠٨، لكنه واظب على الدراسة. ونقل بعد ذلك معلماً أول في كربلاء، وكان جندياً كاتباً خلال الحرب العامة. وعيّن سنة ١٩١٧ كاتباً في المحكمة الشرعية، لكنه استقال من الوظيفة حين تخرجه في مدرسة الحقوق (١٩٢١) وانصرف الى المحاماة. وتولى التدريس أمداً غير

طويـل في المـدارس الأهليـة .

جمع عباس العزاوي مكتبة ضخمـة تعدّ عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات . وقد رأيتـه يومـاً يستعير كتاباً من مكتبـة المتحف العراقي لمراجعتـه . فقلت : أليس هذا الكتاب في خزانتـك؟ قال : بلى ، لديّ عدة نسخ منـه مخطوطة ومطبوعـة ، لكنها كلها ليست في متناول اليد ، وأيسر عليّ أن أراجع الكتاب في مكتبة المتحف ! .

حين ابتنى عبـاس العـزاوي داره الجديـدة على شـاطىء نهر دجلـة خصّص الـدور الأسفل جميعه لمكتبته العظيمة . لكن الكتـب بقيت تتوارد وتتراكم وتملأ الغرف الأخرى حتى وصلت الى غرفة النوم . فقالت له زوجته : «آن لك أن تختار بيني وبين كتبك ! » .

وقد روي عن الشاعر الانكليزي جون درايدين (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) John Dryden أنه كان مكباً على كتبه حتى ضاقت زوجته بالأمر ذرعاً وقالت له : «ليتني كنت كتاباً فأجد في رفقتك وقتاً أكثر» . فقال لها الشاعر الشيخ : «يا عزيزتي ، إذا أصبحت كتاباً فلتكوني تقويماً لأستطيع استبداله كلّ عام» .

حاولت جـامعة بغـداد شراء مكتبة عبـاس العزاوي وفـاوضته على السعـر ، وكانت مستعـدّة لدفع مـائة ألف دينار أو دون ذلـك لجميع المطبوعـات والمخطوطـات . لكن العزاوي رفض العرض وقال : لا أقبل بيعها بأقلّ من ٢٥٠ ألف دينار .

وزاره ذات يـوم وفـد أدبي مصري بصحبتـه سفير مصر وبعض الأدبـاء العـراقيين . وتناول الكلام بيع مكتبته الى الجامعة أو الحكومة فقال إنه ليس على استعداد لبيعها مهما دفع لـه من ثمن . وقال السفير المصري : ألا تخشى أن تـؤممها الـدولة وتأخـذها قسراً؟ فقال العزاوي مشيراً الى نهر دجلـة الذي يطلّ عليه من شرفة داره : إننـي أرميها كلها في النهر قبل أن يستولي عليها أحد!

وتوفي مؤرخ العراق . وكنت سائراً ذات يوم على شاطىء دجلة فرأيت موظفي مكتبة المتحف ينقلـون الكتب والمخطوطـات الثمنية من دار العـزاوي ويضعونها في سيـارات الحمل بلا عناية ولا اهتمام . أما الثمن الـذي قدّر لها فلم يتجاوز ، على ما أذكر ، ١٧ أو ١٨ ألف دينار .

طريقة العزاوي في تدوين التاريخ :

طريقة عباس العزاوي في تدوين التاريخ هي كتابة تسلسل الوقائع حسب السنين ، بعد الـرجوع الى المصادر المتيسرة . وكانت أكثـر مصادره للحقبة التي بدأت بـالاحتلال المغولي مخطوطـة ومكتوبة بالتركية القـديمة أو الفارسية . وكثيراً ما شكـا من قلة المصادر لفترات معيّنـة . لكنــه استعمل مصـادره الى أبعـد مـا استطـاع ، وسرد الحوادث التي سجّلتها دون تمحيـص في معظم الأوقات ، نـاقلاً أخبـاراً متضادّة أو متنـافرة حينـاً بعد حين .

ومما يروى أن أحمد حامد الصرّاف قال عنـد صدور بعض أجزاء «تاريخ العراق بين

احتلالين» وفيها نقل عن كتاب «كُلْشَنَ خلفا» : «وهل يعرف العزاوي اللغة التركية القديمة العويصة لنعتمد على ترجمته لما جاء في «كلشن خلفا؟» .

فقال العزاوي حين نقل إليه ذلك الكلام : «وهل رأى الصرّاف مخطوطة «كلشن خلفا» ليستطيع الحكم على ما جاء فيها ونقل عنها؟» .

ثم لما بلغ العزاوي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتيسّرت له مصادر كثيرة عربية وتركية ، مخطوطة ومطبوعة ، وصحف منشورة تذكر الأخبار والأحداث على علاّتها . فقال :

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراش ما يصيد!

وخراش كلب صيد كان لا يجد ما يصيده ، ثم تكاثرت عليه الظباء فحار أيّها يصيد .

قال العزاوي في مقدمة الجزء الثامن من «تاريخ العراق» بين احتلالين : «تزايدت المراجع وتكاثرت بسبب تكاثر المطبوعات . وتأسست خزائن الكتب فوصلت الى درجة الإشباع . وصرتُ في حالة تردّد أو حيرة في الاختيار . . .»

ثم يقول : «وعهدنا هذا أدركنا الكثير من أيامه وذقنا حلوه ومرّه . شاهدنا أيام الاستبداد وزمن الدستور وأوقات الحرب بما فيها من غوائل وآلام ومحن وما فيها من أفراح وأتراح . وصفحات هذه الحقبة تدعو الى تنقّل الكاتب تنقلاً غير مطّرد ، بل تضطره الى تحوّل مضطرب . يرى المرء نفسه في حاجة ماسّة الى تدوين صفحات قد يكون شاهد عيانها أو من المطلعين على كثير من أوضاعها . ولكن المرء تعوزه المعرفة التاريخية المتقنة الصحيحة أو الى ما يذكّر بالحالة المشهودة والتبصّر بما لم يكن من شهوده . . .» .

لقد اكتفى العزاوي بتدوين الوقائع خطِيرها وتافهها ، صارفاً النظر عن المحاكمة والغربلة والتحليل ، تاركاً مهمة المؤرخ لمن يأتي بعده فيستعمل المادة التي جمعها له بجهد كبير وعناية فائقة خلال عمر كامل .

قال الشاعر كمال عثمان :

رأيت الرجال بآثارهم وتاريخ «عبّاس» آثاره . . .
فمن كأبي فاضل في الرجال وأصل التواريخ أسفاره

نشر عباس العزاوي سنة ١٩٥٣ «سمط الحقائق في عقائد الاسماعيلية» ، وهو منظومة لداعي الدعاة علي بن حنظلة أصدرها له المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق . وعلى أثر ذلك تلقى كتاباً من أحد المستشرقين المقيمين في حيدر آباد بالهند ـ وأظنه فريتز (سالم) كرينكو ـ يدعوه الى الانتماء الى الجمعية الاسماعيلية ، وهي جمعية علمية تضم المؤرخين والعلماء المهتمين بتاريخ الاسماعيلية وعقائدهم ، ولا ينتمي هؤلاء

بطبيعة الحال الى فرقة الغلاة .

قرأت الكتاب للعزاوي ـ وكان باللغة الإنكليزية ـ فقال العزاوي : يريدني أن أصبح إسماعيلياً؟

قلت : إنها جمعية علمية لا شأن لها بالعقيدة . ولما نشرت سمط الحقائق أصبحت أهلاً للانخراط في سلك أعضائها .

فهزّ رأسه وقال : كلا . من ذا يصدّق أن العزاوي قد أصبح من أعضاء الجمعية الاسماعيلية ، وهو لا يؤمن بالفكرة؟

وزار المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسّينيون بغداد في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وأتى يوم الجمعة الى دير الأب أنستاس الكرملي ، وكان هناك فريق كبير من رجال العلم والأدب والفضل . ولم يكد يستقر به المقام حتى أخذ كعادته يتكلم عن الحلاج ويشرح مأساته ويسأل هل عثر على آثار أو مخطوطات جديدة له؟ فقال عباس العزاوي : «ما قيمة الحلاج وأية مأساة حلت به؟ لقد كان كافراً زنديقاً فكفّره علماء المسلمين واستحلّوا دمه . وأنا ، كفقيه إسلامي معاصر، لو جيء به اليّ الآن بعد ألف عام، لأفتيت بتكفيره وقتله عوداً على بدء!» .

وكان هذا الكلام مثار دهشة الحاضرين وإشفاق ماسّينيون .

نوادر العزاوي :

كان عباس العزاوي يطبع الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الأدب العربي في العراق» . وكان على عادته يجلس في غرفة المحامين أو المقهى أو إحدى المكتبات ويسأل أوّل قادم أن يساعده في تصحيح مسوّدات الطبع .

وجلس ذلك اليوم في المكتبة العصرية ، فجاءه ولده فاضل بآخر مسودات الكتاب ، وقد تناولت مبحث الشعر في العهد العثماني الأخير. وألقى بعض الجالسين نظرة عليها فقال للعزاوي : إنك لم تفِ الحبوبي حقه ولم تذكر شعراء لهم مكانتهم كحيدر الحلي وجعفر الحلي . . .

فغضب العزاوي وصاح بابنه فاضل : إحذف هذا الفصل برمته ، أخرج هؤلاء الشعراء من الكتاب، أخرجهم! .

فضحكت وقلت : يا أبا فاضل ، هل أنت رضوان خازن الجنان وهل كتابك فردوس الأدب لتدخل من تشاء وتخرج من تشاء؟

وضحك المؤرخ واحتفظ بذلك الفصل من كتابه وأشار في آخره الى الشعراء الذين أغفل ذكرهم من أصحاب الدواوين .

كنت ذات يوم في زيارة لمنير القاضي رئيس ديوان مجلس الوزراء في دائرته ، فجاء

عباس العزاوي، وقد طبع كتاباً جديداً له، فأهدى نسخة منه الى السيد منير. ثم دفع اليه نسخة ثانية ورجاه تقديمها هدية الى رئيس الوزراء، فاستدعى رئيس الديوان أحد موظفيه وقال: هذا كتاب الأستاذ العزاوي يهديه الى رئيس الوزراء فقدّمه الى فخامته.

وخرج عباس العزاوي، فلم تمض هنيهة حتى عاد الموظف يحمل الكتاب وسأل رئيسه: كم أعطي للعزاوي، ديناراً أو دينارين؟ فقال منير القاضي: إنك على ما يظهر لا تعرف أقدار الناس، وعباس العزاوي محام ومؤرخ جليل، وهو يهدي كتابه تفضلاً منه لا طلباً لمبلغ زهيد أو كبير. . .

وخرج الموظف الجاهل وهو يجرّ أذيال الخيبة.

***

كثرت المداعبات مع عباس العزاوي في المقهى الذي اتخذه منتدى له أعواماً طويلة على شاطىء دجلة وفي نادي القلم وغرفة المحامين.

وقد قال له بعض الأدباء: إنّك لا تحسن الأدب ولا تعرف كتابة التاريخ، ولكن لديك مصادر من المخطوطات والمطبوعات النادرة، مناجم زاخرة بالمعلومات الثمينة والعوائد والفوائد، فأعرنا طائفة من هذه المراجع لنفيد منها وندوّن جوانب من تاريخ العراق وأدبه في عصور الانحطاط.

فغضب العزاوي وقال: إنني حصلت على هذه المخطوطات والمطبوعات بالجهد الجهيد، وبذلت في سبيلها النفس والنفيس، وسعيت أجمعها آناء الليل وأطراف النهار، ولم تأتني عفواً ولا هيّأتها لي الدولة أو أية مؤسسة عامة. فلماذا أنتم قاعدون متقاعسون، تعضون على الفلس والدّانق بالنواجذ وتريدون الشيء بلا بذل ولا جهد؟ والله لأحفظنّ هذه النوادر في الخزائن المغلقة وأنفس عليها النور والهواء، لأرجع إليها في مباحثي دونكم وأجيئكم كلّ يوم بالأخبار الغريبة والآثار التي يجهلها عالمكم وجاهلكم.

وقد مضى العزاوي الى الرفيق الأعلى وآلت مكتبته الى خزانة دار الآثار، فأين الذين حلموا بتقليب صفحاتها والنهل من ينابيعها الصافية؟ لقد مات أكثرهم ولاذت بقيّتهم بالعزلة والخمول.

وأخبرني عباس العزاوي أنّ في الاجتماع الذي عقده نادي القلم لتأبين جميل صدقي الزهاوي عند وفاته، قال محمد رضا الشبيبي: رحم الله الزهاوي، هل كان شاعراً، أو أنه لم يكن شاعراً؟ ولعلّ الشبيبي قصد الإشارة بذلك إلى ما قاله النقّاد الأقدمون من أنّ أبا تمّام والمتنبّي حكيمان والشاعر البحتري.

وكان عباس العزاوي وأخوه علي غالب كثيراً ما يمرّون بدارنا عند عودتهما من المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه مساء، فأقول لهما: تفضّلا واشربا القهوة، فيعتذران بتأخر

الوقت. وأجيبهما مداعباً ببيت الشاعر القديم:

تمرّون الديار ولا تعوجوا، كلامكمُ عليَّ إذن حرامُ!

والبيت من شواهد النحو على حذف الخافض لاقتضاء الضرورة، فقال الشاعر «تمرون الديار» بدلاً من «تمرّون بالديار».

وكان العزاوي يقسو أحياناً في مداعبته لأصدقائه وزملائه فيردّون عليه بالمثل. وقد سألوه بعد يوم تسجيل النفوس: كم سجّلت عمرك؟ فقال: دون التسعين! وقالوا له: إنك قد شخْت وهرمت وبلغت من العمر عتيّاً، فأجاب متمثلاً بقول الشاعر البدوي:

شايب وعايب والهوى ما نسيناه!

وذلك أن فتيات الحيّ رأين شاعر القبيلة الشيخ وهنّ يجلبن الماء، فقلن له: قد كبرت! فقال: أجل، قد شخت ونحلت، لكنني لم أنسَ الحب.

وقد قال جميل صدقي الزهاوي:

ليس الحديث عن الهوى من شاعر شيخٍ جريرة

وروى عبّود الشالجي في كتابه «الكنايات العاميّة البغدادية» أن المحامين في غرفتهم كانوا يقسون في مداعبة عباس العزاوي ويعيرونه بأنفه وقسمات وجهه. وفي ذات يوم دخل الشالجي فوجد المحامي محمد جواد الخطيب جالساً بين عباس العزاوي وعباس عبد اللطيف البلداوي فدسّ في يده رقعة كتب فيها:

إنّي رأيتك جالساً في مجلس حلو ظريف

ما بين عباس اللطيف وبين عباس «الكسيف»

يريد بالكسيف الكثيف أو الثقيل أو الغليظ المعاشرة.

انتخب عباس العزاوي عضواً بالمجمع العلمي العربي، فقال صديقنا إبراهيم الواعظ: إذا لم يكرّمه الأدباء فنكرمه نحن المحامين. وسعى لدى نجيب الراوي نقيب المحامين فأقام للعزاوي حفلة تكريم شائقة.

تأخر افتتاح الحفل حتى جاء فاضل العزاوي بمعروف الرصافي وأجلسه في الصفّ الأمامي، وكان يلبس الكوفية والعقال والعباءة وتبدو عليه آثار الشيخوخة.

وتكلم الواعظ فداعب المحتفى به دعابة ثقيلة لم يكن مناسباً، ويا للأسف، ورودها في خطاب تكريم.

ثم تكلمت ووفيّت مؤرخ العراق حقّه على ما أعتقد. وأشرفت، وأنا أستهلّ كلامي، على الحفل فوجدت النادي يغصّ بالرجال وليس بينهم سوى سيّدة واحدة، فقلت: سيّدتي وسادتي، وكان ذلك مثار بهجة الحاضرين وضحكهم.

كان عباس العـزاوي يكثر من التنادر بأخبار عشيرتـه، فيقول إن العزاوي يخرج على فرسه ويدور بين مضارب العشائر وقرى الريف سنة واحدة، ويقضي في كل مكان مدة الضيافة المألوفة، وهي ثلاثة أيام. فإذا ما عاد الى ديار قبيلته واستشرف خيامهم، قال: واأسفاه، عدنا الى مهجّمات أهلنا!.

وكان عباس العزاوي يتوكل في الدعاوى في كربلاء والنجف وكركوك وبعقوبا وسائر أنحاء العراق ويذهـب للمرافعة أمام محاكمها. فيقول لـه موكّله: ماذا تحب أن نحضر لك في الغداء؟ فيعدّد العزاوي أصنافاً مختلفة مـن الطعام، ثم يقول: هذه بالإضافة الى ما تعدّونه عادة للضيف!.

وقال إن عزاويـاً تطوّع في الجيش التركي وخدم فيه عدة سنين. وعاد إلى أهلـه فقالوا له: هل تعلّمت التركيـة؟ قال: نعم، لقـد أتقنتها. فقالـوا: إذن، يا مسيعد، تفيـدنا حين يأتي موظفوا الكودة (ضريبة الأغنام) فتتفاهم معهم وتخفّف عنّا عبء الضريبة.

وفي ذات ليلـة جاءت الخيل تحمل مـوظفي الكودة، فصـاح رجال القـرية: اليـوم يومـك، يا مسيعد، فتعـال وكلّم الجماعة. لكن مسيعـد هرب واختبأ في بعـض الخيام قائلاً: إنني أحسن التركية في النهار، فكيف تريدونني أن أعرفها في الليل؟

قرر مجلس أمانة العاصمة تسمية شوارع بغداد، فاختار لها أسماءً بعضها لأشخاص مغمورين ذكرتهم الكتب الصفر القديمة وعثر عليها عبد اللطيف ثنيّان.

قال عباس العزاوي: أقترح أن تسموا شارعاً باسم هولاكو، فإنه على طغيانه، أشهر في الأقل من النكرات التي أطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع.

عاد عباس العزاوي من فينّا سنة ١٩٦٢ وقد أجرى جراحة لعينيه فقال:

وجـدت في مستشفى العيـون بعـاصمـــة النمسـا رجلين عـراقيين أعميين من أهل الكاظمية، وقد جاءا المعالجة بصرهما. وقاما بناءً على إشارة الطبيب بابتياع قرنيتين لترقيع باصرتيهما من عجوزين فقيرين مشرفين على الموت.

وكان الـرجلان يقيمان في المستشفى وينتظران مـوت صاحبيهما لكي يتمكن الطبيب من قلع قرنية المتوفى فوراً وتركيبهـا خلال ساعات معدودة على شبكة عين الأعمى فيتاح له أن يبصر النور.

لم يكن للـرجلين من حـديث سـوى التمنّي على الله أن يعجّل بقبض روح الشيخين اللذين اضطرتهما الفاقة على بيع عينيهما بيعاً آجلاً. وبعد أيام توفي أحد البائعين، فهرع صاحبه إلى غرفة الجراحة وغـرزت قرنية عين الميّت في عينه، فلم تمض أسابيع حتى تمّت المعجزة.

أما الثاني فانتظر طويلاً، ولم يمت صاحبه، بل انتعش وعادت قواه وحسنت حاله. وكان يقول كل يوم: ربّاه! أليس لهذا الليل من آخر؟ كم أنتظر وقد عددت لهذا الرجل قيمة عينيه نقداً، وهو يرفض أن يموت! ربّاه، أنقذني من هذه الحال التي لا تطاق وعجّل بخلاصي! . . .

وعاد العزاوي إلى بغداد، والأعمى لا يزال يبتهل إلى الله أن يميت صاحب عينه ليستردّ البصر.

ذكّرتني هذه القصة بما كتبه الأديب الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) عن طبيب كان بحاجة إلى جثّة لتشريحها. فسأل الممرّض الذي قال: لقد جئت في الوقت المناسب حقاً، فلدينا رجل محتضر لن يعيش ساعتين.

قال الطبيب: ساعتين؟ لا، إنّ هذا لا يفيدني، فأنا ذاهب هذا المساء في رحلة قصيرة لن أعود منها قبل مساء الغد.

ـ لا بأس امض لطيّتك. وسنحاول إطالة عمر المريض قليلاً في انتظار أوبتك.

وذهب الطبيب، أما الممرّض فمرّ بالصيدلية وجلب دواءً منعشاً ناوله إلى مريضه فنام نوماً هنيئاً طوال الليل. وجاء الممرض صباحاً فوجد صاحبه جالساً يسعل ويبصق، وقد خفّت وطأة الحمّى وسكن الألم. وشكره المريض قائلاً: لا أدري أي دواء أعطيتني، ولكن يحقّ لك أن تفخر بأنك أعدتني إلى الحياة.

قال الممرض: حسناً، حسناً، ولكن ماذا سيقول الطبيب؟

ـ ماذا سيقول الطبيب؟

ـ لا شيء، لا شيء.

واستمرّت حال المريض على التحسّن. وعاد الطبيب في المساء فبادر الممرّض قائلاً: أين الجثّة؟

ـ ليس هناك جثة.

ـ كيف، ألم يمت المريض؟

قال الممرض: إنها غلطتك، فقد كان مشرفاً على الهلاك، غير أنك ذهبت وتركته يبدّل رأيه ويتمسّك بأهداب الحياة.

فقال الطبيب: لا بأس، اترك الأمر إلى فرصة ثانية.

ومن قبيل ذلك ما حدّثني به أحد الاصدقاء قال: كان في الكوت حفّار قبور شيخ فقير مختلّ الشعور يعيش من تكفين الأموات ودفنهم ولا يكاد يصيب كفافاً من القوت. وكان، إذا شحّ الرزق، يجيء إلى مقهى التجار فيرفع يديه ضارعاً إلى الله تعالى وصائحاً

بأعلى صوته : يا ربّ ، ألا يموت أحد من الناس؟ هل أموت جوعاً لأن عبادك في خير وعافية؟ اللهم ، افتح علينا ووسع لنا . . .

فما يكاد يمضي في استغاثته وشكواه حتى يبادر التجار إلى نفحه بالدراهم واسكاته وصرفه .

العزاوي في أيامه الأخيرة :

لقي عباس العزاوي في أعوامه الأخيرة معارضة واضطهاداً . لقد أصبح النشر والطبع يكاد يكون محصوراً في أيدي وزارة الاعلام ، فقدم كتاباً له عنوانه «برج الأولياء» إلى الوزارة لنشره ، فقيل له إنه يجب أن يعرض على لجنة للنظر فيه وإقراره . فغضب وسحب مخطوطته وقال : وأية لجنة تنظر في مصنّف لرجل وضع ونشر عشرات الكتب؟

وقد سلق موظفي وزارة الاعلام بألسنة حداد ، فامتنعوا عن نشر مقالاته في مجلات الوزارة وحالوا دون إعادة انتخابه عضواً بالمجمع العلمي العراقي . واضطرّ على نشر بحوثه في المجلات السعودية ومجلة المجمع العلمي الكردي في بغداد . وظل متألماً إلى أن أدركه الحمام ، لكن ولده فاضل واصل شنّ الحرب الكلامية على المؤسسات الثقافية الرسمية وشهد الاستيلاء على مكتبة أبيه الفريدة ونقلها إلى المتحف العراقي . ورفض تسلّم حصته من المبلغ الضئيل الذي قدّر ثمناً للمكتبة التي أنفق والده سنين طويلة من حياته وأموالاً وفيرة حصّلها بعرق جبينه لانشائها وتوسيعها .

وكان عباس العزاوي يضيق ذرعاً بالنقد الذي يوجّه إليه ، فيقول : الانتقاد سهل والتأليف شاقّ عسير . ثم يقول : لا بأس ، من ألّف فقد استهدف .

الدكتور مصطفى جواد

العلامة اللغوي المحقق المؤرخ مصطفى جواد ولد في بغداد سنة ١٩٠٤ وأدركته الوفاة فيها في ١٧ كانون الاول ١٩٦٩ . كان استاذاً في دار المعلمين العالية وكلية التربية وعميداً لمعهد الدراسات الاسلامية العليا وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ونائب رئيس المجمع العراقي وعضواً مراسلاً لمجمع القاهرة . ترجمت له في «أعلام اليقظة الفكرية» .

ألف الدكتور مصطفى رسالة في «جاوان القبيلة الكردية المنسية» نشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي ، ثم نشرها المجمع العلمي الكردي سنة ١٩٧٣ . وترجمت إلى اللغة الكردية .

أخبرني مصطفى علي أنّ مصطفى جواد كان في أثناء دراسته في دار المعلمين الابتدائية ينشر نظماً ونثراً في مجلة «التلميذ العراقي» التي أصدرها سعيد فهيم في تشرين

الاول ١٩٢٢ ، وكان توقيعه «مصطفى جواد الدلتاوي» .

وقال مصطفى علي ايضاً : كنت كاتباً عدلاً في بغداد سنة ١٩٣٤ ، فجاءني مصطفى جواد لتصديق كفالته حينما أوفدته وزارة المعارف للدراسة في باريس . ومن غريب الاتفاق أن المكفول كان مصطفى (جواد) والكفيل السيد مصطفى (من أهل الكاظمية) والكاتب العدل مصطفى (علي)، وكذلك كان اسم الكاتب في دائرة الكاتب العدل الذي أنجز المعاملة مصطفى ايضاً! .

كان مصطفى جواد، وهو طالب في باريس، يقضي معظم أوقات فراغه في المكتبة الوطنية . وقد نقل بخطه اللطيف عشرات الدفاتر من المخطوطات القديمة النادرة والمجهولة وأطلق عليها عنوان «أصول التاريخ والأدب» . وصار بعد ذلك يرجع إليها في كتاباته ويشير إليها في الهامش، فيذكر «الأصول» ج (كذا) ص (كذا) دون أن يصرّح بالمصدر الأصلي . وقد سألته يوماً لماذا لا يذكر المرجع المخطوط عنه مع الإشارة إلى رقمه في المكتبة الوطنية، فقال : لقد أجهدت نفسي وأفنيت أيام شبابي في البحث عن مصادر لم يلتفت إليها أحد، ونقلتها بخطّ يدي حرفاً حرفاً، ومحّصت معروفها من مجهولها وصحيحها من مغلوطها، ثم أصرّح بعنوانها ورقم تسلسلها ومحلّ وجودها، ليطلبها كل طالب ويفحصها كل راغب؟ ذلك ما يأباه العقل وينكره الفضل ولا ترضى به المروءة! وليذهب من شاء وليبحث ويحقّق ويدقّق، وليهنأ بما يعثر عليه بكدّه وتعبه، ولا يكون كلاًّ على السابقين ولا عائلاً على العاملين .

قال ذلك مصطفى جواد، لكنه لم يكن بخيلاً على السائلين والطلاب، بل كان يدلّهم راضياً مسروراً على المراجع التي يرجعون إليها والمصادر التي تيسّر لهم مواد بحوثهم وكتاباتهم . وكان عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني الكاتب قد صنّف «الألفاظ الكتابية»، فقال الصاحب ابن عباد : «لو أدركته لأمرت بقطع يده! فقد جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدّبين تعب الدرس والحفظ الكثير» .

عرفت مصطفى جواد في باريس سنة ١٩٣٧ مع حقي الشبلي ونفر من الطلاب العراقيين الذين كانوا يدرسون فيها . لكن صلتي به لم تتوثق الا بعد عودته إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ ، وكان صلة التعارف بيننا أحمد حامد الصراف .

وقرّر سنة ١٩٣٨ إنهاء بعثة مصطفى جواد، فجاء إلى بغداد وراجع وزير المعارف الشيخ محمد رضا الشبيبي وكلّمه في استئناف دراسته . ونصحه الشيخ بمراجعة رئيس الوزراء جميل المدفعي ، فنظم مصطفى قصيدة في مدح المدفعي نشرها في جريدة الزمان، يتوسّل فيها بالحصول على عطفه . وأثمر مسعاه ، فأوعز الرئيس إلى وزارة المعارف بإعادة ايفاده للحصول على شهادة الدكتوراه .

وكان مصطفى جواد قد تزوج في بغداد قبل ايفاده إلى القاهرة وباريس ، لكنه ترك

قرينته وأولاده في بلد الرشيد. وتعرّف في باريس بفتاة فرنسية ساعدته في كتابة أطروحته عن الناصر لدين الله العباسي باللغة الفرنسية ـ على ما رواه لي ـ فصاحبها طوال إقامته في ربوع السّين وأنجبت له ولداً. ولما عاد إلى بغداد ترك لديها كتبه، وكثيراً ما كان يشكو لنا في أثناء الحرب أنها باعت كتبه وتصرّفت في الاشياء التي أودعها لديها. فقال له الصرّاف: وهل أرسلت لها ولابنها بشيء من المال تستعين به على العيش؟ فصمت ولم يجب.

وعلمنا منه بعد ذلك أنها توفيت هي وولدها بداء السلّ خلال سني الحرب العجاف.

وحريّ بالذكر أنّ مصطفى جواد أنهى دراسته الجامعية ووضع أطروحته وقدّمها إلى «السوربون». ونشبت الحرب العالمية قبل أن يهيّأ له مناقشتها وقبولها وتسلّم شهادة الدكتوراه، فترك فرنسة عجلاً خوف انقطاع الطرق مع طلاب آخرين كانوا يدرسون في باريس.

ولمّا جاء إلى بغداد، لم تعترف وزارة المعارف بشهادته. وظلّ يراجع أشهراً محتجاً بالظروف الاستثنائية التي حالت دون مناقشة أطروحته وحرمته إعلان حصوله على الدكتوراه رسمياً، فقبل الوزير صالح جبر عذره أخيراً وأوعز بتعيينه للتدريس في دار المعلمين العالية في الدرجة التي تؤهله لها الشهادة.

ودعي مصطفى جواد على أثر عودته من باريس إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط (١٩٣٩) مع احمد حامد الصراف وغيره من خريجي الكليات والمدارس العالية. وقد داوم أياماً، وكان ينتقد العريف الموكل بالتدريب على الأخطاء اللغوية في ايعازاته العسكرية. وظهر بعد ذلك في الفحص الطبيّ أن قدمه رحّاء (أي منبسطة لا أخمص لها) فأعفي من الخدمة.

مصطفى جواد وشكيب أرسلان

حدثني الدكتور مصطفى جواد أنه، حينما كان يدرس في باريس، نشر نقداً لمقال كتبه الامير شكيب أرسلان الذي كان يقيم آنذاك في جنيف من أعمال سويسرة. وردّ الامير على منتقده ساخراً من الطالب العراقي المغمور الذي يتطاول على أمير البيان ويتصدى لدحض آرائه.

ولم يكن من مصطفى جواد الاّ أن كتب رسالة شخصية إلى شكيب أرسلان، يؤيد انتقاداته ويسندها إلى مصادر لا يرقى اليها الشك. ثم قال ما معناه: انكم، أيها الأمير المجاهد الجليل، ترفعون نسبكم إلى التنوخيين ملوك الحيرة وإلى النعمان بن المنذر اللخمي ابن ماء السماء، وليس لديكم سند تاريخي يؤيد هذا النسب. ثم ذكر له

المراجع الكثيرة التي تفسد هذا الادعاء وتخرجه عن إطاره التاريخي الصحيح وتجعله بعيد الاحتمال غير معزّز بالأسانيد المعتبرة .

وقرأ الارسلاني رسالة مصطفى جواد، فكتب إليه معتذراً، مقراً بفضل الطالب العراقي، معترفاً بعلمه وطول باعه. ثم سأله أن لا ينشر رأيه في نسب آل أرسلان ولا يطعن فيه، وقال: لقد اضطربت حين قراءة رسالتكم اضطراباً شديداً، وكنت مزمعاً السفر فأسقط في يدي وفاتني موعد القطار! . . .

كان مصطفى جواد آية من سعة المعرفة وقوة الحافظة وشمول الاطلاع. وقد أفاد من دراسته في باريس وألمّ بأساليب البحث المنهجية الحديثة وطرق التأليف والتصنيف. لكنه، وقد كتب مئات بل آلافاً، من المقالات والمباحث في التاريخ واللغة والأدب والخطط والتراجم، وأضاع أوقاتاً ثمينة في الردّ على المؤلفين والكتّاب وتغليطهم وتعرية جهل جاهليهم وخبط عالميهم، لم يتفرّغ لتأليف كتاب مستقلّ جامع في بعض تلك المواضيع يدلّ على نبوغه وتتبعه ويبقى أثراً للأجيال الآتية وشاهداً على فضله ومبرراً للشهرة التي حازها في حياته .

لقد وضع عباس العزاوي تاريخه وعشائره وسائر مصنفاته التي أصبحت مراجع في بابها بالرغم من ضعف أسلوبها وجمعها للغثّ والسمين. وهيّأ عبد الرزاق الحسني مصادر ووثائق لا تقدّر بثمن للباحثين في تاريخ العراق الحديث. ووضع انستاس ماري الكرملي معجمه «المساعد» فكان خلاصة وافية لجهود حياة كاملة . . .

أما مصطفى جواد وأكثر الباحثين والمؤرخين المعاصرين له فبعثروا جهودهم وشتتوا أبحاثهم، وقلما نسّقوا ثمار علمهم في مؤلف جامع في موضوعه تحتفظ به الاجيال الآتية وترجع اليه. ومع ذلك يجد الكتاب والباحثون في كتابات مصطفى جواد وبحوثه المبعثرة في الكتب والمجلات والصحف وفي الأصول والمراجع التي نقل عنها ونوّه بها موادّ دسمة تغذّي المواضيع التي وقف عليها حياته .

أوفد مصطفى جواد إلى انكلترة في حاشية الملك فيصل الثاني حين أرسل للدراسة سنة ١٩٤٧، وكان معه ايضاً الأميرة عبديّة بنت الملك علي واللواء عبد المطلب الامين الهاشمي مدرّس التاريخ والجغرافية وبعض رجال الحاشية .

حدّثني مصطفى جواد أنّ المدرسة كانت بجوار بلدة سالسبوري، فاشترت العائلة المالكة داراً نزل فيها الملك، أمّا مصطفى فاستؤجرت له غرفةً في بعض الفنادق. وكان يذهب مرتين في الاسبوع إلى دار الملك لتدريسه اللغة العربية. كان أول الأمر يذهب بسيارة أجرة، ثم طلب منه أن يتعلم السياقة فتمرن عليها في دروس قليلة وأعطي سيارة يتنقل بها ويسوقها بنفسه .

وذهب الملك وحاشيته في السنة التالية الى سويسرة للتزلّج في جبالها، فحاول مصطفى ممارسة تلك الرياضة وسقط وأصيب برضوض وكسور بسيطة .

بين مصطفى جواد
ومحمد رضا الشبيبي

أولع مصطفى جواد منذ عهد شبابه بالمؤرخ البغدادي كمال الدين عبد الرزاق ابن الفُوَطي المتوفى سنة ١٣٢٣م. وقد حقق كتاباً في التاريخ ناقص الأول مغفل العنوان ظنه - كما ظنه غيره - كتاب «الحوادث الجامعة» لابن الفوطي وأصدره سنة ١٩٣٢. واهتم الشيخ محمد رضا الشبيبي ايضاً بالمؤرخ نفسه ووضع مقدمة للكتاب المنسوب اليه.

ولابن الفوطي كتاب آخر اسمه «تلخيص مجمع الألقاب» وجدت نسخة مخطوطة من المجلد الرابع منه في الخزانة الظاهرية بدمشق، لكنها نسخة مشوّهة. فصفحاتها على شكل جداول ذكر اسم الشخص في الصفحة اليمنى وجاءت ترجمة موجزة له في اليسرى، لكن الصفحات تفرقت وتداخلت، ثم أعيد جمعها وتصحيفها بغير ترتيب لعدم ترقيمها، فظهرت التراجم على وجه مضحك. فربّ شاعر نشرت أمام اسمه ترجمة قائد أو فقيه، وربّ رجل عاش في المائة الثالثة نقل إلى المائة الخامسة أو السادسة، وهلم جراً.

عاني مصطفى جواد جهداً كبيراً في إعادة ترتيب التراجم وإلحاق كل ترجمة بصاحبها مستدلاً بمعلوماته الواسعة في التاريخ ومستعيناً بكتب التراجم والرجال لحلّ الألغاز والمعميّات في هذه المخطوطة الغريبة. ولما فرغ من عمله وأيقن أنه صحّح النسخة وأعطى كلّ ذي حق حقه، تقدم إلى المجمع العلمي العراقي ملتمساً نشر كتابه المحقق. لكنه فوجىء بأن الشيخ الشبيبي يقوم بنفس العمل ويرغب أن لا يسبقه أحد في نشر الكتاب. وكظم مصطفى جواد غيظه، لكنه كان يقول لأخصّائه أنه لا يحق للاستاذ الشبيبي أن يحول دون نشر كتابه وأنه يعتقد أن الشبيبي على سعة علمه وفضله لا يستطيع أن يعيد المخطوطة المشوّهة إلى أصلها الصحيح.

وأخيراً نشر الشبيبي الجزء الأول من كتابه «مؤرخ العراق ابن الفوطي» سنة ١٩٥٤، وقد باشر طبعه قبل أربع سنوات وتلكأ في إكماله وإصداره خوفاً من مصطفى جواد. ثم أصدر الجزء الثاني بعد خمس سنوات. فجرّد مصطفى قلمه وكتب في نقد الشبيبي مئات الصفحات نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي خطّأه تخطئة فاضحة وأحصى عليه أغلاطه التاريخية وجهّله تجهيلاً ولكن بأسلوب أدبي جميل واحترام غير قليل.

وقد سكت الشبيبي على مضض ولم يردّ على النقد بكلمة، - عالماً أنه، ولا ريب، شاعر كبير وأديب قدير، لكنه لا يداني مصطفى جواد في التاريخ ولا يلحق به.

رثاء سعد زغلول :

رثى سعد زغلول عند وفاته سنة ١٩٢٧ بقصيدة مطلعها :

ناشدتك الله قُلْ ما حلّ في مصرا ... من المصائب إذ لم استطع صبرا

قال منها :

أمات سعد حبيب الشعب عن عُمرٍ ... منزّه عاش فيه مخلصاً حرا؟

أمات سعد رئيس الوفد؟ واحَرَبي ... على الذي كان في مصرٍ لها ذخرا . . .

عليك ، يا سعدُ ، أبناء العراق غَدَوا ... حمّال حزن يزيل الصبر والفكرا

أودعت حبّك في كل القلوب ، وما ... أبقيت قلباً يكمن الحقد والنكرا

إن العراق ليبكي آسفاً كَدِراً ... حزناً عليك ، وقد ساءت به البشرى

كان مصطفى جواد يقيم في محلة شعبية ، وقد وضع على باب داره لوحاً كتب عليه «الدكتور مصطفى جواد» . وفي ذات ليلة طرق الباب عليه طرقاً عنيفاً في منتصف الليل ، فقام إلى الباب وفتحه ، فإذا بامرأة عجوز تقول له : إن ابنتي مريضة وفي حالة شديدة من الألم . ونحن جيرانك ، يا دكتور، فتعال افحصها لعل الله يمنّ عليها بالشفاء على يدك المباركة .

فقال مصطفى : لست طبيباً ، يا خالة ، وإنما أنا استاذ ودكتور في التاريخ .

وعبثاً حاول اقناع المرأة انه ليس طبيباً . وأخيراً قالت له بغيظ : إذا لم تكن طبيباً ، فلماذا تغرّ الناس وتضع على دارك لافتة باسم دكتور؟

وفي الصباح بدّل مصطفى جواد اللافتة ورفع عنها كلمة الدكتور.

ومما يروى من قبيل ذلك أن ممثلي الدول العربية في الجامعة بالقاهرة كانوا في حين من الأحيان الدكتور فاضل الجمالي (العراق) وفارس الخوري (سورية) والدكتور فوزي الملقي (الاردن) . وكانوا يحترمون الخوري لكبر سنّه ويدعونه بـ «العمّ» . وكان الدكتور الملقي بيطاراً ، لكن الجمالي كان يظنه طبيباً .

وفي ذات يوم شعر فارس الخوري بوعكة ألزمته الفراش ، فعاده الجمالي وقال له : لماذا لا نستدعي الدكتور فوزي الملقي لفحصك؟ فردّ عليه الخوري من فوره : وهل عمّك حمار؟

كنت سائراً مع الدكتور مصطفى جواد في شارع الرشيد فقرأنا على باب أحد الدكاكين عبارة مكتوبة بخطّ قبيح غير متناسق : «هنا تنباع البوال» ، فلم يكن من الدكتور إلا أن دخل وخاطب صاحب الدكان العامي قائلاً :

ـ هل تبيع الطوابع ؟

ـ أجل، ولديّ منها أنواع نادرة شرقية وغربية . . . ماذا ترغب أن أريك؟ هل تريد «البوم»؟ . . .

ـ لا ، يا عزيزي، لا أريد شيئاً منها، ولكن . . .

ـ ولكن لدينا كل ما تريد . . . إصدارات خاصة لا يوجد مثلها . . .

ـ يا سيدي، أنا لا أريد الشراء، ولكن يحسن بك أن تكتب على باب الدكان قطعة بعربية صحيحة: «هنا تباع الطوابع».

واغتاظ البائع وقال:

ـ إذا كنت لا تريد الشراء فلماذا تدخل وتعترض على الناس؟ وماذا يهمّك أن نكتب بعربية صحيحة أو غير صحيحة . . .

وأسرعنا بالخروج إلى الشارع. وقد ذكرتني هذه الحادثة بقصة الشاعر الفرنسي Malherbe ماليرب (المتوفى سنة ١٦٢٨). كان محتضراً يعالج سكرات الموت، والراهب إلى جنب سريره يلقّنه التعاليم الأخيرة. وفتح عينيه بعد غفوة قصيرة، فسمع ربّة الدار تكلمه بكلمات لم تكن آية في الفصاحة، فقال: «يجدر بك، يا سيدتي، أن تراعي قواعد اللغة . . .».

فقال الراهب: «الأولى أن تهتم بآخرتك». وأجابه الشاعر على الفور: «انني لا أستطيع، ولو في مقام الموت، أن أغضّ النظر عن فصاحة اللغة الفرنسية!».

وروي عن اللغوي الفرنسي دومنيك بوهور (١٦٢٨ ـ ١٧٠٢) Dominique Bouhours إنه قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «إنني مشرف على الموت، أو أنا أموت، يصحّ استعمال كلا العبارتين»:

وقال نحويّ عربيّ قديم: أموت وفي نفسي شيء من «حتّى».

كان لنا صديق أديب لا يحسن النظم ولا يكاد يفرق بين الشعر والنثر. وأعلن الملحق الصحفي للسفارة البريطانية في بغداد خلال الحرب العالمية الثانية، وأمّته تخوض غمار حرب ضارية يتوقف عليه بقاؤها، عن مسابقة شعرية تتعلق بمواضيع لها صلة بانتصار الحلفاء وعدالة قضيتهم، وخصّص لها الجوائز، واختار لجنة التحكيم من شعراء وأدباء معروفين في طليعتهم الدكتور مصطفى جواد.

وجاء صديقنا الأديب إلى مصطفى جواد وقال: رغبت في الاشتراك في هذه المسابقة، وقد نظمت قصيدة أرجو أن تنظر فيها قبل الارسال بها. فتناول الدكتور القصيدة ونظر فيها فقال: اسمح لي أن أصارحك، يا عزيزي. فهذه ليست شعراً ولا يستقيم لها وزن ولا قافية ولا معنى. قال صاحبنا: فهل تصلحها؟.

قال: لا سبيل إلى إصلاحها، ولكنني أنظم لك قصيدة تقدمها إن شئت إلى لجنة التحكيم.

ووافق الصديق شاكراً، فنظم الدكتور مصطفى قصيدة على لسانه في الموضوع المقرّر وقدمها الأديب المتشاعر إلى لجنة المباراة باسمه، فنال بها الجائزة الثانية أو الثالثة!.

حين توفي الشيخ محمد رضا الشبيبي عضو مجمع اللغة العربية بمصر رشح مصطفى جواد وعبد الرزاق محيي الدين لملء الكرسيّ الشاغر في المجمع. وقد اختار الأعضاء مصطفى جواد، لكن عبد الرزاق محيي الدين، وهو آنذاك وزير الوحدة، أسرع إلى مقابلة جمال عبد الناصر ورجاه أن يؤيد ترشيحه، ففرضه الرئيس المصري على المجمع وصدر الأمر باعتماده.

وقد بلغ ذلك مصطفى جواد وهو في بغداد فآلمه الخبر ألماً شديداً.

كان مصطفى جواد يدّعي معرفة علم الفراسة، فإذا نظر إلى رجل في الطريق يقول: هذا فارسيّ وهذا كردي وهلم جراً. فإذا سألناه: كيف علمت؟ يقول: سيماؤهم في وجوههم... وقال إنه كان، وهو طالب في باريس، يدخل إلى بعض المخازن لشراء حاجة له، فينظر إلى وجه البائع فيعرف انه يهودي أو أرمني، فيحدثه بحديث قريب من نفسه يحصل منه على سماح أو مهاودة في الأسعار.

وذهب مصطفى جواد إلى طهران مع جعفر الخليلي بدعوة من الحكومة الايرانية ونزلا في بعض الفنادق الراقية. وكانت موظفة الاستقبال في الفندق لطيفة لم تنِ جهداً في خدمة الأديبين ورعايتهما، فانتحى مصطفى جواد ناحية بصاحبه وقال له: أترى هذه الفتاة الجميلة، إنها يهودية.

قال الخليلي: كيف عرفت؟

- إن ذلك ظاهر في سيمائها!

ومضى الخليلي إلى مدير الفندق وكلمه بالفارسية قائلاً: إن موظفة الاستقبال بذلت جهدها في خدمتنا، فهل لك أن تدعوها لنشكرها؟ فصاح المدير: علوية فاطمة، تعالي إلى هنا فالسيد يريد أن يشكرك.

وضحك الخليلي وقال لمصطفى جواد: أين فراستك؟ إنها علويّة وفاطمة!

ظل مصطفى جواد يتحدث أعواماً طويلة في الاذاعة والتلفزيون. وكانت برامجه الاسبوعية في التلفزيون تجتذب الناس عامّتهم وخاصتهم، إذ كان له أسلوب محبّب يبسّط به أحداث التاريخ وقصص الخلفاء والوزراء والشعراء ومواقع الآثار والبلدان. وإذا كان لي أن أشبّهه بأحد في هذا المجال فأنا أشبهه بأديب مصر الكبير الشيخ عبد

العزيز البشري (١٨٨٦ ــ ١٩٤٣)، فقد كان له مريدوه الكثيرون في ندواته الاذاعية.
قال الدكتور ابراهيم علي أبو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر»:

«وأنا أذكر أن أول عهد الناس بالاذاعة، هنا بمصر، اختار القائمون على الاذاعة رجلين اثنين توسموا فيهما أن يربطا الاذهان والقلوب بها. وكان الرجلان هما الصحفي الظريف فكري أباظة والأديب الكبير البشري. وكان ترقب الناس لكل واحد منهما يفوق الحدّ ويتجاوز المعقول، إلا أن جمهور البشري كان أضعافاً مضاعفة...»
ويضيف قائلاً إنك لا تسأل أحداً إلاّ أخبرك أن الشيخ البشري إنسان جذاب إلى أبعد الحدود، وقد أكبرته في عيون الناس خفة الروح والألمعية والذوق وحضور البديهة...
ولعلّ كل تلك الصفات تنطبق على مصطفى جواد في ندواته التلفزيونية، يضاف إليها، شخصه الماثل على الشاشة الصغيرة ببساطته وهدوئه ومسبحته التي لا تفارق أصابعه، وعينيه اللتين كثيراً ما يغمضهما للتركيز على حديثه المتسلسل الذي يلقيه في أناة وصوت لطيف راتب، مما يضفي على المواضيع الأدبية والتاريخية الجامدة لذة وحلاوة ويقربها إلى أفهام عامّة الناس.

وقد سألته مرة لماذا يغمض عينيه في أكثر الأحيان وهو يتكلم في التلفزيون؟ قال: لو رأيت الاضوية وآلات التصوير الموجهة إليك وأنت تتكلم لشرد ذهنك واختلّ رأيك وعيّ لسانك!.

المطران سليمان الصائغ

ولد سليمان بن داود الصائغ في الموصل في ١٨ أيلول ١٨٨٦، وانتمى الى مدرسة مار بطرس البطريركية في مسقط رأسه سنة ١٩٠١، فأتم دروسه الاعدادية والفلسفية فيها في تموز ١٩٠٨ ورسم كاهناً.

وعمل في سلك التعليم وإدارة المدارس الابتدائية، وعيّن سنة ١٩١٤ مديراً للمدرسة الاعدادية الكلدانية، وكان عضوا في لجنة المدارس الابتدائية في الموصل على العهد العثماني.

عهد إليه على أثر احتلال الموصل تحرير جريدة «الموصل» التي أصدرتها الحكومة في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٨، فتولى العمل بها أكثر من سنة. ولمّا نظر في قضية الموصل وألفت لجنة الدفاع الوطني لضمّها الى العراق، كلف بكتابة القسم التاريخي من تقرير اللجنة في سنة ١٩٢٥.

وأصدر في ٢٥ كانون الأول ١٩٢٨ في الموصل مجلة «النجم»، وهي مجلة علمية أدبية بقيت تظهر الى سنة ١٩٤٠. واختير سليمان الصائغ عضواً مراسلاً بالمجمع

العلمي العراقي في أيار ١٩٤٩ . وقد رسم مطراناً في حزيران ١٩٥٤ وعيّن نائباً بطريركياً للكلدان في الموصل .

وتوفي في تلك المدينة في ١٨ أيلول ١٩٦١ ، وهو يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين .

وللمطران صائغ مؤلفات تاريخية ، منها : تاريخ الموصل (الجزء الأول ١٩٢٣ ، الثاني ١٩٢٨ . الثالث ١٩٥٦)، كتاب يزدان دوخت (صفحة من تاريخ العراق في العهد الساساني، ١٩٣٤)، تاريخ الكنيسة الكلدانية (١٩٣٩) . وقد سعى لتنشيط التمثيل في المدارس وألف مسرحيات، منها : الزبّاء (١٩٣٣) مشاهد الفضيلة (١٩٣١) الأمير الحمداني (١٩٢٨)، وترجم مسرحية هوراس لبيير كورناي (١٩٥٢) .

شكري الفضلي

شكري بن محمود بن أحمد آغا ؛ من رؤساء عشيرة الكروية ، ولد في بغداد سنة ١٨٨٢ ، وقضى في السليمانية أربع عشرة سنة برفقة خاله صالح أفندي إسماعيل الذي كان رئيس كتاب الحامية العسكرية ، ودرس فيها دروسه الإبتدائية . وعاد الى بغداد سنة ١٩٠١ ، فانتمى الى المدرسة الرشدية العسكرية ودرس اللغات العربية والكردية والفارسية . وعيّن بعد ذلك معلماً في مدرسته الرشدية ومدرسة القديس يوسف .

شدّ الرحال الى الأستانة سنة ١٩٠٨ فأمضى فيها عامين ، ثم عاد الى بغداد ، وحضر دروس الشيخ عبد الوهاب النائب ، وألمّ بشيء من الانكليزية والفرنسية . واطلع على الثقافة التركية الحديثة ، ومن طريقها على الأدب العصري الغربيّ ، فتأثر بمبادىء الحرية والتقدم الاجتماعي ، ولقي في سبيل ذلك عنتاً وإرهاقاً . فقد سجنه الفريق رفيق باشا في كركوك ، ثم ألقي القبض عليه مع فريق من رجال العراق المناوئين لحزب الاتحاد والترقي ، وطلب إرساله الى الأستانة لمحاكمته أمام ديوان الحرب العرفي بأمر من طلعت باشا وزير الداخلية التركية ، لكن أطلق سراحه مع رفاقه بشفاعة الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني .

ولما احتلّ الإنكليز بغداد وجلا عنها الأتراك ، عيّن سنة ١٩١٧ رئيساً لكتاب محكمة الصلح ، ثم اختير عضواً بلجنة ترجمة القوانين العثمانية على عهد ناظر العدلية بونهام كارتر. وحرّر في الوقت نفسه في صحيفة «العرب» وبعض الصحف الفارسية والكردية التي أصدرتها سلطات الاحتلال . وكتب في الجرائد الصادرة في بغداد كجريدة الشرق والعراق والاستقلال . ونقل في سنة ١٩٢١ رئيساً لكتاب ديوان مجلس الوزراء . وأصيب بالسلّ ، فتوفيّ ببغداد في أول حزيران ١٩٢٦ . ورثاه جميل صدقي الزهاوي قائلاً :

حـــال بيني وبين شكــــري التراب إذ قضى نحبـــه، فجـلّ المصـــاب...
قـــد بكتـــه الأقـــلام منكسرات وبكتــــــه الأخـــــلاق والآداب

وكان شكري الفضلي نفسه قد حيّا الزهاوي بقصيدة قال فيها:

لقــد قلـت شعــراً، بل نظمـت شعــوراً نــذيــــراً لقـــوم تـــارة وبشيرا
يغيّر منهـــاج الحيـــاة بسرعـــة ويحدث من بعـــد الأمـــور أمـــورا
يكلم جهــراً في الجبـــان شجــاعــة ويجعـــــل همس الخائفين زئيرا
يـــريك شحيح القـــوم يبسط كفّـــه ويشرك في مـــــال الغنـــيّ فقيرا
يثقف أحـــلام الـــرجـــال ليتّقـــوا بها الـــدهـــر خطبـــاً منكـــراً ونكيرا
يـــوحّــد غـــايـــات الهداة ليـدركـــوا نعيماً وملكـــــاً لا يـــــزال كبيرا
فـدونـك شعــراً للـزهــاويّ خـــالــداً تـــريك قـــوافيـــه الشعـــور بحـــورا

مؤلفاته وشعره:

نشر شكـري الفضلي بحوثـاً في مجلة «لغـة العـرب» وغيرها من المجـلات والجرائد. ووضع كتباً في تـاريخ العراق قديماً وحديثـاً، وذيل جغرافية العراق التـاريخية، وفلسفة الخيام، ونظـرات سياسية واجتماعيـة. وله ديوان شعـر ومؤلف بـاسم «مكتبة الفضلي» يبحث في العلـوم المختلفـة كـالحكمـة الطبيعيـة والكيميـاء والفلك وطبقـات الأرض الخ. وقد بقيت آثاره متفرقة في الصحف والمجـلات وأوراقه المخطوطة لم يقدر لها الجمع والطبع.

وأدب شكري الفضلي كثقـافته مـزيج من القديم والحديث، وقـد أطل على الآداب العصريـة من نـافذة الأدب التركي الجديـد. وأفقـه واسع شأن الأدبـاء المخضرمين من أقرانه، فهو ينظم وينثر ويبحث في التاريخ والجغرافية والاجتماع وهلم جراً.

ومن شعره في «المستنصرية»:

نهضنـا، وكـــان الـدهـر تترى كتـائبـه، يحاربنـــا طـــوراً وطـــوراً نحـــاربـــه
فكم قـــد قتلنـــا الـــدهــر خُبْراً فـــزادنـــا ببلـــواه علماً حينما نـــاح نـــادبـــه
وكم قـــد حلبنـا أشطـــر الـــدهـــر دربـــة وفـــزنـــا بَـــدرّ الحقّ، لله حـــالبـــه!
وكم قـــد علـــونـــا هـــام أســـود يـــومـــه بأبيض عـــزم فـــاستنـــارت غيـاهبـــه..
فهـــــذي هـــي المستنصريـــــة تشتكـــي بـــلاهـــا وبـــالصمت البليغ تخاطبـــه
ألا دولـــة المستنصر اليـــوم قـــد علت بـــدولتكم واعتـــزّ بـــالعلم طـــالبـــه
إذا مـــا أتخذت العلم للشعـب ســـاعـــداً ضربت بسيـف لم تخنك مضـــاربـــه..
الى العلم، يـــا أهل العـــراق، فـإنـــه لموردُ عـــذبٍ لم تعكّـــر مشـــاربـــه

صدّيق الدملوجي

البحّاثة الإداري صدّيق بن سعيد الدملوجي ولد بالموصل سنة ١٨٧٧ ، وكان موظفاً إدارياً في العهد التركي . وعلى أثر تأليف الحكومة العراقية ، عيّن في أيلول ١٩٢٣ قائمقاماً للشطرة فالقرنة (تموز ١٩٢٥) ، وكان أيضاً قائمقاماً للأقضية الشمالية العمادية والشيخان وسنجار وتلعّفر .

إنصرف الى البحث والتأليف بعد اعتزالة الخدمة الرسمية . وأدركته الوفاة في مسقط رأسه الموصل في ١٥ نيسان ١٩٥٨ . من مؤلّفاته التاريخية : الأنقاض ، الموصل (١٩٤٩) اليزيدية (١٩٤٩) إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية (١٩٥٢) مدحت باشا (١٩٥٣) .

وهو أخو الدكتور عبد الله الدملوجي وفاروق الدملوجي .

رزّوق عيسى

ولد رزوق بن عيسى بن زكرّيا الموصلي ، في بغداد في ٦ حزيران ١٨٨٥ ، ودرس في المدرسة الانكليزية الثانوية ونال شهادتها سنة ١٩٠٠ . وعمل موظفاً في بعض الشركات التجارية في البصرة ، لكنه لم يلبث أن عاد الى بغداد وقام بالتدريس في المدرسة الانكليزية (١٩٠١ ـ ١٤) .

وأصدر مجلة العلوم في أول تشرين الثاني ١٩١٠ فلم يظهر منها سوى عددين . وأعلن النفير العام في أواخر سنة ١٩١٤ فجنّد ، ثم اعتقل في آذار ١٩١٥ بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن ستة أشهر . وعيّن على أثر الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٧ مترجماً ومعاوناً للحاكم السياسي في العزيزية والنعمانية . لكنه استقال من منصبه بعد أمد وعاد الى التعليم في المدارس الأهلية عدة أعوام . وأصدر مجلة المؤرخ في كانون الثاني ١٩٣٢ ، فاستمرت سنة واحدة .

وقد وضع مؤلفات متعددة منها المطبوع والمخطوط ، منها : بغية الأنام في لغة دار السلام ، تاريخ العراق قديماً وحديثاً ، تاريخ التمدّن العراقي ، حضارة بابل وأشور ، تاريخ مدن العراق القديمة والحديثة ، حضارة العرب في الجاهلية والإسلام ، تاريخ الصحافة في العراق ، جغرافية العراق الخ . وألف روايات وكتباً مدرسية ، ونشر مقالات وبحوثاً كثيرة في الصحف والمجلات .

ومن رأيه أنه لا يصلح العالم إلا المذهب الإشتراكي المعتدل الذي بشّر به الأنبياء ، وقال به الفلاسفة ، وأقرّه الساسة والمشترعون في كل العصور . ومن رأيه أيضاً أن الدكتاتورية لا يطول عهدها لأنها عدوّة حرية جماهير الناس . وقد قال : «أليس من

الظلم أن تكون حياة الأمة تتوقف على كلمـة ينطق بها فرد من أفرادها؟ أليس من الظلم أن يكون الضعيف سنداناً لمطرقة القويّ؟».

وقد توفي في ٢٣ أيلول ١٩٤٠ في بغداد.

محمّد جواد البلاغي

من رجال العلم والتأليف الشيخ محمـد جواد بن حسن بن طـالب البلاغي، ينتمي الى أسرة معـروفة تنسب الى قبيلـة ربيعة، وقـد ولـد بالنجف سنـة ١٨٦٤، ودرس على محمد طـٰه نجف ورضا الهمـذاني وغيرهما. ثم انتقل الى سامـرّاء ولبث فيها عشر سنين درس فيها علي محمد تقي الحائري الشيرازي الذي اشتهر في إبان الثورة العراقية. وغادر سامـراء حين احتلتها الجيوش البريطانيـة سنة ١٩١٧، فأقام في الكـاظمية سنتين، ثم عاد الى النجف.

أكبّ على التأليف والتـدريس واشترك في الثورة العراقيـة سنة ١٩٢٠. وكـان يعرف الفـارسية وشيئـاً من اللغة الانكليـزية. قـال جعفر محبـوبة في كتـابه «مـاضي النجف وحاضرها» (الجزء الثـاني) إنه كان لجواد البلاغـي اليد الطولى في الدعـوة الى إنقاذ الدار التي اتخذها البهائيون محفلاً لهم في جانب الكـرخ من بغداد، وقد اشتدّ النزاع على هذه الدار ورفعت الشكاوى بشأنها الى عصبة الأمم سنة ١٩٣١.

توفيّ بمسقط رأسه النجف في ١١ كانون الأول ١٩٣٣.

كان عالماً شـاعراً أديباً وضع مـؤلفات عديدة، أهمّهـا: آلاء الرحمـٰن في تفسير القرآن (طبع منه ٣ أجـزاء ١٩٣٣ ـ ٣٤) أنـوار الهدى، أعاجيب الأكـاذيب (١٩٢٧) البلاغ المبين (في الإلهيات)، التوحيد والتثليث، الرحلة المدرسية (١٩٢٤) العقود المفصّلة (في الفقه) نسمات الهدى، مسألة في البداء (١٩٥٥) الهدى الى دين المصطفى (في جزءين، ١٩٦٥) الخ.

ردّ على الماديين والطبيعيّين والدهريّين ورمى بسهامـه أرباب الالحاد ودافع عن أركان الدين. ونظم الشعر، فمن نظمه رثاء محمد سعيد الحبّوبي، ومطلع قصيدته:

شـــاقك الـــبرق فأســـرعت سِبـــاقـــا وتـــركت الصبّ يلتـــاع اشتيـــاقـــا

ومعارضة قصيدة ابن سينا الشهيرة في النفس، قال:

نعمت بـأن جـــاءت بخلـــق المبـــدع ثمّ السعـــادة أن يقـــول لها: ارجعي

محمد صادق الأعرجي

الصحفي الكاتب المدرس محمد صادق الأعرجي، ولد سنة ١٨٨٣ ودرس علوم العربية والدين في المعاهد القديمة. ومال الى الكتابة في شبابه، فأصدر في بغداد جريدة الرصافة (١٧ حزيران ١٩١٠). وعطلتها الحكومة بعد سنة واحدة، فاعتاض عنها بجريدة الصاعقة التي أنشأها عبد الكريم الشيخلي في ٨ حزيران ١٩١١. وأدّت به جرأته في الكتابة الى السجن، ولم يفرج عنه إلا بأمر من استانبول بعد مراجعة برقية من بعض الوجهاء. وأصدر في نيسان ١٩١٣ مجلة الرصافة، لكن لم يبرز منها سوى عدد واحد. واختير الأعرجي بعد ذلك عضواً في مجلس ولاية بغداد (١٩١٤) على عهد الوالي جاويد بك.

وامتهن التعليم على أثر الاحتلال الانكليزي فعيّن مدرساً (أول تشرين الأول ١٩١٧)، وزاول هذه المهنة في المدارس الثانوية الرسمية للبنين والبنات أكثر من ثلاثين سنة.

وتوفي ببغداد في أوائل شهر آب ١٩٦٠.

كان الأعرجي شاعراً، قال من قصيدة له في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

أسد العراق، بلغتم شأو عزكمُ	ونلتم بعلاكم أرفع الرتب
في باب روض علاكم آية كتبت:	حمالة المجد لا حمّالة الحطب
هذا العراق حماكم، وهو خير حمى،	فعالجوه لكي يشفى من الوصب
عار عليكم، بنيه، أن تمدّ يد	إليه مالم تعالجها يد العطب
إن لم تذّبوا حفاظاً عن حريمكمُ	فمن يذبّ وينجيه من الرهب؟

***

أرض العراق بأهليها محصّنة	محمّية بهمُ من سالف الحقب
كم قام فيها مليك جيشه لجب	وحلّها خير جيش باسم خير نبي
شبانها لحماها خير مدّخر	أنتم فجدّوا فليس الوقت للّعب
ألقوا على الشعب ضوءاً من بسالتكم	كي ينجلي عنه ليل الشكّ والريب...

حتى يقول:

لا تخضعوا لعداكم في مساومة	عار على الرأس أن ينقاد للذنب
صبّوا عليهم جحيماً من مدافعكم	وأحرقوهم بنيران من الغضب
روّوا صعيد حماكم من دمائكُمُ	كيما يجيد ثمار العزّ والنشب
واسقوه ماءً نميراً من مكارمكم	كيما يجيد ثمار العلم والأدب

علي ظريف الأعظمي

الصحفيّ المؤرخ علي ظريف الأعظمي ولد بضاحية الأعظمية من بغداد سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥٨ . عمل في التدريس . وأصدر مجلة الأقلام (شباط ١٩٢٨)، فاحتجبت قبل أن تكمل عامها الأول . وقد عين رئيساً لبلديةالأعظمية سنة ١٩٢١ .

وضع كتباً منها : دروس التجويد (١٩١٣) الدرّ والياقوت في محاسن السكوت (١٩١٣) دروس الصحّة ، تاريخ ملوك الحيرة (١٩٢٠) تاريخ الدولة اليونانية في العراق (١٩٢٣) مختصر تاريخ بغداد (١٩٢٦) مختصر تاريخ البصرة (١٩٢٧) تاريخ الدولة الفارسية في العراق (١٩٢٧).

ولده : الشاعر حسين الظريفي ، ولد بالأعظمية سنة ١٩٠٩ . وعيّن مدرساً في البصرة (١٩٢٨)، لكنه انتمى في السنة التالية الى كلية الحقوق في بغداد وتخرّج فيها سنة ١٩٣٣ . وعيّن حاكماً في المحاكم المدنية (١٩٣٥)، ثم انصرف الى مزاولة المحاماة .

من مؤلفاته : حاكم التحقيق (١٩٣٦) البيّنات العامة (١٩٤٥) في سبيل الوطن (مسرحية شعرية ، ١٩٤٨) جميل صدقي الزهاوي في بعض مجالسه (شعر روائي) . وله أيضاً : أناشيد (١٩٢٢)، ظرائف الأعظمي (١٩٢٥) .

قال الظريفي من قصيدة له بعنوان «من وحي الفنّ» .

للنفس في فنّ الغناء إذا وعت ... ما تشتهي من طاعم أو كاس
وإذا أمضّ الحزن في قلب امرىء ... واساه من حسن الغناء مواسي
ولطالما أحيا به ميت الهوى ... من كان قد واراه بالأرماس
وبه لدى الجُلّى يذبّ عن الحمى ... كالماء من حجر تفجّر قاس . . .
قلم الأديب كنغمة الشادي به ... ينجاب ما يضنيه من إيلاس
ويبثّ من مرّ الهوى حرّ الجوى ... وصنوف ما قاسى به ويقاسي
ولقد يبيت به الفتى وكأنه ... يحيا على عرس من الأعراس
كم لذة لي في الحياة غنمتها ... ويراعتي بيدي على قرطاسي
أملي عليها من بنات خواطري ... ما هنّ كالريحان أو كالآس
إنّي لأغفل عن حياتي ساعة ... فيها أعبّر عن مدى إحساسي
لي من بياني صورة ليست على ... شيء من الإغماض والإلباس

عبد الحميد عبادة

من الكتاب الباحثين، ولد في خانقين سنة ١٨٩١، واستقرّ في بغداد حيث توفي سنة ١٩٣٠. مال الى البحوث التاريخية والتحقيقات العمرانية شاباً وكتب مقالات في مجلة لغة العرب وغيرها من المجلات والصحف.

وألف كتاب مندايي أو الصابئة الأقدمين (١٩٢٧)، وترك مصنفات مخطوطة منها «العقد اللامع في ذكر الآثار والمساجد والجوامع»، و «شجرة الزيتون في نسبة آل السعدون».

قال عبد القادر البّراك: «من يستعرض أمّهات المجلات العلمية والأدبية والتاريخية التي صدرت في العراق وبعض الأقطار العربية في أوائل القرن العشرين، يجدها حافلة بالعديد من المقالات والبحوث التاريخية القيّمة التي تحدّد مواقع بعض معالم الحضارة وتعرّف بالعديد من الملل والنحل والمعتقدات والآراء، للمؤرخ البغدادي المرحوم عبد الحميد عبادة، صاحب أهم مصدر عن تاريخ «الصابئة» ومعتقداتهم، لكونه قد كتبه بعد أن سكن في قراهم وعايش أقطابهم. . .» وقال البرّاك أن الدكتور مصطفى جواد كان يعتمد على آرائه فيما كان يكتبه عن خطط بغداد القديمة وغير ذلك من المواضيع.

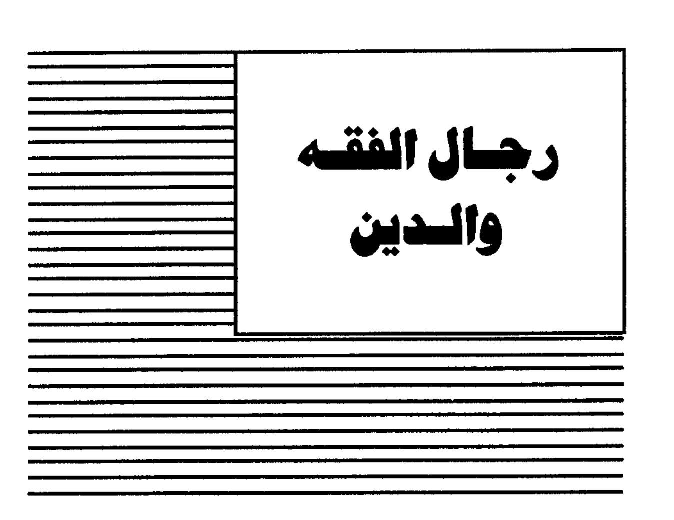
مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجزء الثاني

تقديم
د. جليل العطيّة

دار الحكمة


رجال الفقه
والدين

حسين الخليلي

من كبار مجتهدي الشيعة الإمامية ، كان أبوه خليل بن علي بن إبراهيم بن محمد علي الطهراني يمارس الطب القديم ، هاجر الى النجف في نحو سنة ١٨٠٠ وأسّس أسرة اشتهر أكثر أبنائها بالتطبيب ، كما نبغ منها علماء دين منهم المولى علي بن خليل المومأ اليه (١٨١١ ـ ١٨٨٠) وأخوه المترجم .

ولد المرزا حسين الخليلي في النجف في نحو سنة ١٨٢١ ، ودرس على الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر والشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٨٦٤ وغيرهما . وبرّز في الفقه ، وتصدّى للتدريس فاشتغل فيه عهداً طويلاً ، وكان من تلامذته السيد حسن الصدر ومحمد تقي الحائري الشيرازي وأحمد ومحمد حسين آل كاشف الغطاء الخ . ووضع كتباً في الغصب والإجارة وبعض الشروح والتقريرات .

انتهت إليه زعامةالإمامية بعد وفاة المرزا محمد حسن الشيرازي سنة ١٨٩٥ . وقد سعى في تشييد قناة تجلب الماء الى النجف ظلت تسقي البلد حتى طمست بعد عدة سنين . ومن آثاره أيضاً مدرستان دينيّتان في النجف وخان للمسافرين في الهندية . وقد توفي في الكوفة في ٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ .

كان حسين الخليلي من أركان النهضة الإيرانية مع المرزا الشيرازي وغيره من العلماء . وكان ، كما وصفه بعض عارفيه ، حلو الشمائل ، عذب الكلام ، أريحيّ الطبع ، شديد الورع ، معظماً للعلماء وأهل الدين . رثاه الشعراء فقال محمد حسن سميسم :

حديث الدهر أصدقه الفناء   وأكذب ما ينمّقه البقاء

وقال عبد الحسين الحويزي :

عليك بناء الدين مارت جوانبه   وبحر الندى والعلم غارت غواربه

وقال رضا الهندي :

حاولت نظم الرثا فاستعصت الكلمُ ،   وهل لأهل النّهى بعد الحسين فم؟

محمّد حسن المامقاني

الفقيه الإمامي محمد حسن بن عبد الله المامَقَاني، ولد في مامقان المجاورة لمدينة تبريز الإيرانية سنة ١٨٢٢. وشدّ الرحال الى كربلاء والنجف فدرس فيهما. وتنقل في أقطار كثيرة، ثم قضى نحبه في النجف في آذار ١٩٠٥. وقد ألف كتباً، منها: ذرائع الأحلام في شرح شرائع الإسلام (في مجلدين)، غاية الآمال (في الفقه)، بشرى الوصول الى أسرار علم الأصول (في ثمانية أجزاء)، الخ.

عرف أيضاً باسم المغمغاني وكان معاصراً وصديقاً للشيخ محمد الشربياني، وكانت تصلهما الأموال الضخمة من أنحاء إيران والقفقاس فيوزعانها على طلبة العلم وذوي الحاجة ولا يستأثران بشيء منها سوى النزر اليسير.

محمّد طٰه نجف

الفقيه الإمامي محمّد طٰه بن مهدي بن محمد رضا التبريزي المعروف بمحمد طٰه نجف، من شيوخ المدرّسين، ولد ببلدة النجف سنة ١٨٢٥، ودرس على أئمة رجال عصره كعلي الخليلي ومحسن خنفر وغيرهما. كان طويل الباع في الفقه والأصول والحديث، تتلمذ عليه وأفاد منه الكثيرون.

وقد ألف كتباً في الفقه والتراجم، منها: حاشية على المعالم، الدعائم في الأصول، غناء المحصّلين، إحياء الموات في أحوال الرواة، الفوائد السنيّة والدرر النجفية (١٨٩٦) الإنصاف في مسائل الخلاف (١٨٩٧) نعم الزاد (١٨٩٧) كشف الحجاب (١٩٠٢) كشف الأستار (١٩٠٦) إتقان المقال في أحوال الرجال (١٩٢٢)، الخ.

كفّ بصره في أواخر عمره، وأدركه الحمام في ١٠ كانون الأول ١٩٠٥.

توثّقت صلته بأدباء زمانه، فعزّاه الشاعر جعفر الحلّي بولد له احتسب به، وقال:

أرائد قومه اغتنم الرجوعا، ... فريح الموت صوّحت الرّبيعا؟

وهي قصيدة طويلة تعدّ ٦٨ بيتاً يقول منها:

أبا المهديّ، كيف أقول صبراً ... ولست أراك من قَدَرٍ جزوعا؟

لسان هُداك قد عزّاك عنّا ... وكفّ تقاك كفكفت الدموعا

أصول الدَّوْح حالاها سواء ... وإن جذّ الردى منها الفروعا

وليس يضير نور الشمس نجم ... هوى من برج مطلعه وقوعا...

وتوفّي الشيخ محمد طه نجف فرثاه عبد المطّلب الحلّي ومحمد حسن أبو المحاسن

ومحمد رضا الشبيبي وسائر الشعراء. وقال الشيخ جواد الشبيبي:

محجّة الملّة البَيْضَا مطالعها   لفقد شارعها سُدَّت شوارعها
هدّت مصانعها من بعد رافعها   بهمّة تملأ الدّنيا صنائعها
وحوزة الدين لم تمنع جوانبها   وقد أبيح لخطب الدهر مانعها

وقال الشيخ إبراهيم بن مهدي آل أطيمش (١٨٧٣ ـ ١٩٤١):

فهو الذي كانت مواهب فضله   للناس كالأطواق في الأجياد
لمعت بأفق الفضل غرّ صفاته   شهباً له الجَوْزَا من الحسّاد
فيه تزيّنت المنابر واغتدت   من قبله مخضرّة الأعواد
وتدفقا، من علمه ونواله،   بحران للطلّاب والوفّاد...

رضا الهمذاني

من فقهاء الإمامية الشيخ رضا بن محمد هادي الهمذاني، ولد في همذان سنة ١٨٢٥. وهاجر الى النجف فدرس على مشايخها كمرتضى الأنصاري ومحمد حسن الشيرازي.

أدركته الوفاة في سامّراء سنة ١٩٠٤.

وقد وضع مؤلفات، منها: مصباح الفقيه، حاشية على رسائل أستاذه الأنصاري (١٩٠٠)، كتاب الصلاة (١٩٢٩) العوائد الرضوية، الخ.

محمّد الشربياني

الشيخ محمد بن فضل بن عبد الرحمٰن الشربياني الفقيه الإمامي ولد سنة ١٨٣٢، وأقام في تبريز ثم انتقل الى النجف (١٨٥٧)، واتخذها له سكناً.

درس على السيد حسين الترك وأصبح من أئمّة المدّرسين والمجتهدين. وقد ألف كتاباً في «أصول الفقه» وكتاب «المتاجر» في الفقه أيضاً الخ. وتوفي سنة ١٩٠٤.

وكان الشربياني الذي ينتسب الى قرية من نواحي تبريز يعرف بالفاضل. جرت له مطارحات أدبية مع الشاعر جعفر الحلّي الذي مدحه قائلاً:

محمّد الفاضل الميمون طالعه   قد خصّص الله فيه العلم والعملا
الله قيّضه للناس يرشدهم   حاشا الإله بأن يبقى الورى هملا

وداعبه بقوله:

للشربيـــاني أصحـــاب وتلمـــذة تجمّعـوا فـرقـاً مـن هـاهنـا وهنـا
مـا فيهمُ من لـه بـالعلم معـرفـة يكفيـك أفضل كـلّ الحاضريـن أنـا!

وقد شـاد الشربياني مـدرسة في النجف عـرفت بـاسمه. وكان مـن أشهر تـلاميذه الشاعر جعفر الحلي الحسيني من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧).

حرم الشيخ محمد الشربياني على الحجاج سلوك الطريق البري النجف ـ حائل لتكرر اعتـداء البدو على الحجيج، فـانقطع سلوك الطـريق ثـلاث سنوات، حتى تعهـد ابن الرشيد أمير حـائل بالمحافظة على أرواح الحجاج وأموالهم، فأفتى الشربيـاني باستئناف سلوك الطريق البري.

حسين النوري

الفقيه الإمامي الجعفري حسين بن محمّد تقي النوري ولد في قرية «يالو» من قرى نور في طبرستان سنـة ١٨٣٨. وقدم النجف فتصـدّى فيها للتأليف والتـدريس، وتوفيّ بها سنة ١٩٠٢.

من مصنفـاتـه: دار السلام فيما يتعلق بـالـرؤيـا والمنام (في جـزءين ١٨٨٨)، جنـة المأوى، كشف الأستـار، فصل الخطـاب في تحريف كتـاب ربّ الأربـاب (١٨٨١)، اللؤلؤ والمرجان في نقـد قراءة التعازي، مستدرك الوسائل في الفقـه (في ٣ أجزاء)، معالم العِبَر، النجم الثاقب، المولودية (شعر فارسي) الخ.

كان النوري مشغـوفاً بجمع الكتب واستنساخها، ذكـر علي الشرقي أنه أعياه طلب بعض الكتب، فعثر عليه اتفـاقاً في السوق وقد عرضته امـرأة للبيع. ولم يكن لديه المال لدفع الثمن، فخلع عبـاءته وسلّمها للمنـادي لبيعها في المزاد حتى تمكن من أداء ثمن الكتاب. وعاد به مسروراً الى داره وهو بدون عباءة!

وقـد روي عن جيمس لاكنجتن James Lackington (١٧٤٦ ـــ ١٨١٥) الكتبي الانكليزي أنه ذهب الى السوق عشيّة عيد الميلاد، وفي جيبه بضعة دراهم، لشراء طعام العيد. لكنه وجـد كتاباً كان يريـد الحصول عليه معروضـاً للبيع، فنسي الطعام والعيد واشترى الكتاب بالمبلغ الزهيد الذي في يده وعاد به الى منزله فرحاً. وسألته زوجته: أين الطعام؟ فقـال: إن الطعام نأكله الليلة فيـذهب. وأنا اشتريت كتاباً نتمتع بلـذّته على مدى السنين.

وقال الامبراطور الروماني الفيلسوف مرقس اوريليوس (١٢١ ـ ١٨٠م) في خواطره: إنّ الرجل قـد لا يملك عباءة، والآخر قـد لا يملك كتابـاً في العالم، ولا يمنع ذلك أن يكون كلاهما فيلسوفاً.

وقد قال الشاعـر جابر الكاظمي، وهو الشيخ جابـر بن عبد الحسين من ربيعة نزار

(١٨٠٧ ـ ١٨٩٥) في الشيخ النوري :

ندب لديه الفضل ألقى رحله	وعنه طول الدهر لم يرتحلِ
آراؤه في العلم أنجم بها	للعلم يجلي كل ليل أليل

غلام رسول

العالم الشهير غلام رسول المولوي الهندي الأنصاري نزح الى بغداد وتولّى التدريس في جوامعها فطار صيته وتقاطر عليه طلاب العلم. تخرّج عليه عدد عديد من العلماء ورجال الدين، وفي مقدمتهم عبد الوهاب النائب وعباس حلمي القصاب ومحمد سعيد النقشبندي ويوسف العطاء وعبد الملك الشواف ونجم الدين الواعظ وقاسم القيسي.

ولمّا اختارت الحكومة العثمانية مدّرسين للألوية والأقضية سنة ١٨٩٢ لنشر لواءالدين وتثقيف الأهلين، اختير الشيخ غلام رسول مدرساً لقضاء مندلي لكنه استقال بعد أشهر قليلة، قائلاً: القرى تضيع العلم.

وعاد الى بغداد يواصل رسالته العلمية حتى قضى نحبه فيها في أول تموز ١٩١٢. وقد درّس ردحاً من الزمن في مسجد نعمان الباجه جي بجانب الرصافة.

ذكره ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» فأثنى عليه وقال إنه كان بارعاً في العلوم العقليّة على وجه التخصيص. وكانت حلقات دروسه في جانبي الرصافة والكرخ عامرة تقصدها نخبة ممتازة من طلبة العلم ولا سيّما مجلسه في جامع حبيب العجمي. وكان تلاميذه يتناوبون في خدمته لأنه كان غريباً لا أهل له.

وروى الدروبي أن الشيخ غلام رسول كان شديداً في محاربة البدع والخرافات: فقد علم أن بعض تلامذته يكتب الأدعية والرقى ويتعاطى الرمل والجفر وتفسير الرؤى والأحلام والكشف عن الغيب، فلم يكن منه إلاّ أن ثارت ثائرته فعنّف التلميذ المشعوذ وزجره وطرده من درسه.

وقد اشتهر الشيخ غلام رسول بتدريس الفلسفة الإسلامية. ذكر عبد الله عبد السلام، عضو محكمة التمييز العراقية الذي تتلمذ عليه في شبابه، أن شهرته قد طارت حتى بلغت مسامع الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية، فكلفه عن طريق أحد المصريين الذي اجتمع به في الاستانة، أن يشخص الى مصر لتدريس الفلسفة. لكن غلام رسول رفض الطلب لأسباب عائلية.

***

بهاء الحق

ومن علماء الهند الذين هاجروا الى بغداد وكان لهم شأن فيها الشيخ بهاء الحقّ ابن

الشيخ قادر بخش بن غلام محمد الأسدي نسباً. ولد سنة ١٨٤٠، و كان والده وجدّه من علماء الدين في الهند وسالكي الطريقة النقشبندية. وقد اتخذ بهاء الحق مقامه في بغداد وتولّى التدريس في المدرسة القادرية والمدرسة الأعظمية. وكان أستاذاً في علم الأصول والحديث والتفسير والكلام، على ما ذكره محمود شكري الألوسي في «المسك الأذفر».

وقد تخرّج عليه علماء كثيرون، وتوفي ببغداد في نحو سنة ١٨٨٣.

قال عبد الرحمن البناء يرثي الشيخ غلام رسول الهندي:

علم الكلام تنحى بعد مولاه ... وظل يلطم بالأيدي محياه
وهيئة الدين أضحت وهي باكية ... لما غدت لغة القرآن تنعاه
وأصبحت أربع التدريس مقفرة ... لما تلامذة الهندي قد تاهوا
العالم العامل الحبر التقي ومن ... بزهده شهد الاملاك والله

ورثاه إبراهيم منيب الباجه جي فقال:

أيها الموت، قد فجعت البرايا ... بهمام علومه لا تجارى
أيها الموت، قد فجعت البرايا ... بالتقيّ البرّ العفيف ازارا
كان بحراً من العلوم خضمّاً ... لا يرى العائمون فيه قرارا
يا غلام الرسول، ما أنت ميت، ... ليس ميتاً من خلّد الآثارا

أسعد الدوري

من علماء بغداد المشهورين في عصرهم أسعد الدوري، وهو السيد محمد أسعد بن جواد بن عبد الرحمن. أصل أسرته من الحجاز، وكانت تعرف بآل البعّاج، انتقلت إلى دير الزور، ثم نزح جدّه إلى بلدة الدور القريبة من سامراء.

ولد في الدور سنة ١٨٢٦ وتلقى فيها مبادىء دروسه. ثم جاء إلى بغداد ولازم الشيخ داود النقشبندي والمفتي محمد فيضي الزهاوي فأخذ عنهما.

وقد عيّن أميناً للفتوى وخطيباً في الحضرة الكيلانية سنة ١٨٧٠، وكان بعد ذلك مدرساً لمدينة تكريت. ونقل مدرساً لمدرسة نائلة خاتون في بغداد سنة ١٨٧٤.

وحج سنة ١٨٩٣ واجتمع بعلماء الحجاز، ومرّ بالشام، ثم قصد الحج مرة ثانية بعد سنتين. وواظب على التدريس، فتخرّج عليه كثير من أرباب العلم. وعمّر طويلاً حتى أدركه الحمام ببغداد في ٨ شباط ١٩٢٣.

ذكره محمد صالح السهروردي في «لبّ الألباب» فنعته بالورع والزهد، وقال إنه كان متضلّعاً من الفقه والأصول والحديث حتى لقّب بفقيه العراق، وله شعر رائق ومؤلفاته ذهبت بذهابه.

قاسم البياتي

الشيخ قاسم خير الدين ابن الشيخ محمد الحنفي البغدادي البياتي، من علماء بغداد ومتصوّفتها. درس على الشيخ عبد المحسن السهروردي الذي أجازه إجازة عامة في نحو سنة ١٨٦٤، وعلى الشيخ عيسى البندنيجي الذي أجازه سنة ١٨٥٩. ومن أساتذته الآخرين السيد شهاب الدين محمود الألوسي (أجازه بقراءة دلائل الخيرات سنة ١٨٤٨).

تولّى التدريس في جامع النعمانية وإقامة حلقات الذكر الصوفية في داره. ووضع مؤلفات في التصوف والوعظ وعلم الكلام. وأدركته الوفاة في بغداد سنة ١٩٠٧، فرثاه معروف الرصافي بقصيدة مطلعها:

على قاسمٍ شيخ الطريقة قد بكت ... جواهر فضل ما لها الدَّهْرَ قاسمُ
بكاه التقى والعلم والحلم والنّهى ... وحسن السجايا والعلى والمكارم. . .

وقال جميل صدقي الزهاوي:

كبير موت كبّار الأعاظِمْ ... فإنّ بهم عماد الدين قائم
قضى، والهفتا، من كان يحيا ... لتزكية النفوس من المآثم. . .

درس عليه الكثيرون منهم عبد الوهاب النائب ومحمد سعيد النقشبندي ويحيى الوتري وعلي الخوجة الخ.

محمد آل بحر العلوم الطباطبائي

الفقيه الإمامي محمّد بن محمد تقي بن رضا آل بحر العلوم الطباطبائي ينتهي نسبه الى جدّ الأسرة الحسنية العلوية السيد محمد مهدي (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧) الشهير ببحر العلوم صاحب «المصابيح».

ولد محمد الطباطبائي سنة ١٨٤٥ بالنجف، وتتلمذ على علمائها وبلغ منزلة رفيعة في الزعامة الدينية. وقد ألف «الوجيزة» (١٩٠٦) و «بلغة الفقيه» (طبع سنة ١٩٦٨). وتوفي في النجف في١٥ حزيران ١٩١٣.

كانت له مطارحات أدبية مع رجال عصره. وقد داعبه وصاحبه محمد بن مهدي

القزويني (المتوفّى سنة ١٩١٦)، داعبهما الشاعر جعفر الحلّي قائلاً:

شتّـــان بين محمّـــد ومحمّـــد: ذا طبطبـــائيّ وذا قـــزويني
أنـــا أعـــرف الـــرجل المهـــذّب منهما بـــالله لا تسـأل عـــن التعيين

وكان للسيد محمد بحر العلوم خزانة كتب عامرة بالمطبوعات ونادر المخطوطات.

وقال جعفر الحلي أيضاً يهنىء محمد الطباطبائي حين قدومه من الحجّ:

حيّيت، يـــا ابـن العمّ، مـن قـــادم عَـــوْدك عيـــد لبني هـــاشم
أضحـى بك العـــالم ذا بهجـــة، يـــا حجّـــة الله على العـــالم
قمـت بأعبـــاء العلى نـــاهضـــاً ونبـت في الأمـــر عـن القـــائم..

وقال فيه أيضاً:

عـــاد الى قبيلـــه محمّـــد بل عـــادت الـــروح الى الأشبـــاح
حيّيت، يـــا من كفّـــه عـن الحَيَـــا نـــائبـــة في الأعصر الشِّحـــاح
بـــاهـى بك العـــراق إذ وطـأتـــه حيث أبـــوك سيّـــد البطـــاح...

ومدحه الشاعر أحمد بن راضي القزويني (١٨٤٤ ـ ١٨٩٧) فقال:

محمّـــد مـن ينمى لـــه كـلّ سـؤدد إذا مـــا احتبى في مجلس النهي والأمـــر
قـــرنت العلى بـــالعلم والحلم والنـــدى وشتّـتّ شمل المال والنعم الـــوفـــر
وبـدّهت مـا أضحى مـن الـرمس عـافيـاً وقـــرّبت مـــا أمسى بعيـــداً عن الفكـــر
أرى آل بحـــر العلم فـــاقـــوا الـــورى كما تفـــوق الليـــالي كلهـا ليلـــةُ القـــدر...

وقال فيه أيضاً:

يـــا ربيـب العلى وربّ الأيـــادي وعميـــد الـــورى على الإطـــلاق
كـم بأفـق العلى فضـــائل ســـارت لـك مسرى النجـــوم في الآفـــاق
علـم مفـــرد بجمـع علـــوم قصرت عنـــه ألسـن الحذّاق
رافل في غـــلائل الحسب الـــوضّـــاح (م) أو في مكـــارم الأخـــلاق

حسّون البُراقي

وهو حسين بن أحمد بن الحسين الحسني المعروف بحسّون البراقي نسبة الى محلّة البُرَاق في النجف، ولد بها سنة ١٨٤٥. كان قويّ الحافظة، كثير التتبّع، خلّف كتباً تاريخية في لغة عامية، منها: تاريخ الكـوفة (١٩٣٨) بهجة المؤمنين في أحوال الأولين والآخرين (تـاريخ عـام في أربعـة مجلـدات ضخمـة)، تـاريخ الحيرة، تـاريخ النجف، فضل

كربلاء، مشاهير الرجال، الخ.
وقد توفي في بعض قرى الحيرة سنة ١٩١٤.

مصطفى نور الدين الواعظ

مصطفى نور الدين بن محمد أمين الشهير بالواعظ ابن محمد بن جعفر الأدهمي، ولد لأسرة دينية معروفة ببغداد في ٢٦ شباط ١٨٤٧، فأرخ ولادته الشاعر عبد الباقي العمري قائلاً:

وشرّف الزورا فقلت: أرّخوا شرف أحياء العراق المصطفى

توفي والده وهو في العاشرة من عمره، فكفله عمّه محمد سعيد. ودرس علوم العربية والدين على علماء عصره كالشيخ عبد السلام مدرس الحضرة القادرية والشيخ بهاء الحق الهندي والشيخ داود النقشبندي، فنصب مدرساً في المدرسة الخاتونية (١٨٦٨). ثم عيّن مدرساً وواعظاً بالبصرة سنة ١٨٧٢ وعضواً بمحكمة التمييز فيها (١٨٧٤)، وكان بعد ذلك رئيساً لمحكمة جزاء البصرة (١٨٨٠ ــ ٨٢). وعيّن مفتياً للحلة في أيلول ١٨٨٣، فقضى في هذا المنصب ربع قرن وكان في أوقات مختلفة خلال تلك المدة أيضاً مديراً للأوقاف ومديراً للمعارف ووكيل القاضي ووكيل قائمقام السماوة ووكيل متصرف لواء الديوانية (١٩٠٣) الخ.

ولما أعلن الدستور العثماني انتخب نائباً عن الديوانية في مجلس المبعوثين (تشرين الثاني ١٩٠٨) حتى حلّ الدورة النيابية في أوائل سنة ١٩١٢.

وضع مصطفى الواعظ مصنفات دينية منها: عنوان الهداية في ردع أرباب الغواية، البرهان الجليّ في الفرق ين الرسول والنبيّ والوليّ، الدرّ النضيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، كشف الدستور عن مطالع البدور الخ. وله أيضاً: الروض الأزهر (وقد أكمله ونشره ولده إبراهيم الواعظ سنة ١٩٤٨).

وتوفي في بغداد في ٣ حزيران ١٩١٣.

وقد كتب ولده إسماعيل الواعظ في كتاب (الروض الأزهر) يقول إنّ السيد مصطفى الواعظ كان متمسّكاً بالشريعة الغراء ذاباً عنها محامياً لها. وقد وقف من جميل صدقي الزهاوي حين نشر مقالته عن المرأة في جريدة المؤيد القاهرية سنة ١٩١٠ موقفاً شديداً، فذهب الى الوالي ناظم باشا وطلب عزله من وظيفته.

رثاه الشعراء، منهم رشيد الهاشمي الذي قال:

كل امرىء بأماني الدهر مشغول لا بدّ، لا بدّ أن يغتاله غول...
يا راحلاً طالما أبكى العباد دماً بكتك والله آيات وتنزيل
بكاك، يا مصطفى، الدين الحنيف كما بكاك علمك معقول ومنقول

ولده: إسماعيل حقي بن مصطفى الواعظ (١٨٧٩ ـ ١٩٤٤) كان مفتياً للديوانية (١٩٠٩ ـ ١٧) ومدير أيتام بغداد (١٩٢٢).

علي كاشف الغطاء

الشيخ علي بن محمّد رضا بن موسى بن جعفر كاشف الغطاء (المتوفّى سنة ١٨١٣) من رجال الدين والفضل، ولد بالنجف سنة ١٨٥٠. وقد رحل الى إيران فأقام سبع سنين متنقلاً بين أصفهان وشيراز وخراسان وطهران. وعاد الى العراق واتّصل بالوالي سرّي باشا (١٨٩٠) فقدّر فضله وعرف منزلته. وسافر الشيخ علي بعد ذلك الى استانبول ولبث فيها زهاء أربعة أعوام، وزار الحجاز وسورية والهند.

ألّف كتباً منها «الحصون المنيعة في طبقات الشيعة» في عشرة أجزاء و «سمير الحاضر» في خمسة أجزاء. وصنّف مجموعة بعنوان «النوافح العنبريّة» قرّظها الشاعر جعفر الحلّي قائلاً:

هـٰذي النوافح فانشق طيبها العَطِرا ... واستَجْلِها سترى ألفاظها زُهُرا
من كلّ نظم يُرَى كالعقد منتظماً ... فيها ونثر يرى كالدرّ منتثرا...

وكتب إليه جعفر الحلّي أيضاً الى استانبول:

سلام حبته الطيب منك الشمائلُ ... ومدح عليه من علاك دلائل
أسائل عنك البرق إن لاح ومضه ... فتسبقه منّي الدموع الهوامل
وأنتشق الأرواح مهما تنسّمت ... فتذهب في روحي الصَّبَا والأصائل
عليك سلام الله ما هبّت الصَّبَا ... وما سجعت فوق الغصون العنادل...

وجمع خزانة تضمّ كتباً ومخطوطات نادرة. أدركه الحمام في النجف في ١٩ أيار ١٩٣١. وعرف من أبنائه أحمد ومحمد حسين آل كاشف الغطاء.

أما ابنه الشيخ أحمد بن علي فولد بالنجف سنة ١٨٧٦ ودرس في سامرّاء وفي مسقط رأسه، وأخذ الفقه عن الشيخ الشيرازي ورضا الهمداني ومحمد كاظم الطباطبائي وغيرهم. وعرف عالماً فقيهاً تقدّم في مراحل الزعامة الدينية ومراتب الاجتهاد، لولا أن المنيّة اختارته سنة ١٩٢٦، وهو في بغداد. ألف: «سفينة النجاة» في الفقه و «قلائد الدّرر» و «أحسن الحديث في الوصايا والمواريث».

وعرف من آل كاشف الغطاء أيضاً الشيخ هادي بن عبّاس بن علي (١٨٧٢ ـ ١٩٤٢)، وكان فاضلاً شاعراً. ولد بالنجف وألف: «أوجز الأنباء في مقتل سيّد الشهداء»، مستدرك نهج البلاغة (١٩٣٦) المقبولة الحسينيّة (١٩٢٤)، مناسك الحج (١٩٢٤) الخ.

وكان للشيخ هادي مطارحات شعرية مع أدباء عصره كالسيد جعفر الحلي ورضا الأصفهاني وجواد الشبيبي .

وقد كان لآل كاشف الغطاء مكانة مرموقة مند عهد الشيخ جعفر، وتوسّط ولده الشيخ موسى في الصلح بين الوالي داود باشا والشاهزادة محمّد علي ميرزا القاجاري وليّ العهد الإيراني سنة ١٨٢١ ، فأثمر مسعاه ثمراً طيباً، ولقّب بمصلح الدولتين.

محمد سعيد الزهاوي

ابن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهاوي. وقد ولد أبوه محمد فيضي في بلدة زهاو سنة ١٧٩٧ . وجاء الى بغداد فعيّن مفتياً سنة ١٨٥٤ ، وقال في ذلك عبد الباقي العمري :

قد قيل لي، إذ رحت أنشد عندما   شاهدت دين محمّد يتجدّد،

في مذهب النعمان في الزوراء قد   أفتى الإمام الشافعيّ محمّد

وتوفي في ١٥ كانون الأول ١٨٩٠ . وقد اشتهر الكثير من أبنائه، منهم الشاعر جميل صدقي.

ولد محمد سعيد الزهاوي في بغداد سنة ١٨٥٢ ودرس على أبيه. ثم عيّن عضواً بمحكمة الاستئناف سنة ١٨٧٦ ، وأصبح نائباً لرئيسها (١٨٨٣). ولما توفي والده اختير مفتياً لبغداد في محله (شباط ١٨٩١) فشغل هذا المنصب الى أيار ١٩١٦ . وتولّى خلال تلك المدة، علاوة على منصبه، وكالة القاضي ومديرية الأوقاف ومديرية المعارف، وقام بالتدريس في مدرسة السليمانية.

وعيّن بعد الاحتلال الانكليزي رئيساً لمجلس التمييز الشرعي (١٩١٨). وتوفي ببغداد في ١٣ أيار ١٩٢١ .

وضع مؤلفات في علم الكلام. قال محمد صالح السهروردي إنه كان عالماً فاضلاً ديّناً تقياً صالحاً محبوباً لدى الأمة، كثير الصلاة وقراءة القرآن.

محمد سعيد النقشبندي

الشيخ محمد سعيد بن عبد القادر بن عبد الغني العبيدي، ولد في بغداد في ٢٩ كانون الثاني ١٨٦١ ودرس على علمائها كالمفتي محمد فيضي الزهاوي والشيخ عبد الوهاب النائب أخيه الكبير وعثمان الرضواني والشيخ داود النقشبندي ومحمد الهندي المولوي. ومال الى التصوف فاعتنق الطريقة النقشبندية وعرف بها.

سافر الى الحجاز حاجاً سنة ١٨٩٠، ثم قصد الاستانة سنة ١٨٩٤ فاجتمع بالسلطان عبد الحميد الثاني وحصل منه على أمر ببناء مدرسة دينية في سامراء. وقد قام بتعمير تلك المدرسة ودرّس فيها، ثم نقل مدرساً وواعظاً بجامع الإمام الأعظم (١٨٩٨). وعيّن شيخاً للإرشاد في التكية الخالدية سنة ١٩١٨. وكانت له مساع وطنية حميدة في عهد الترك أدّت الى توقيفه سنة ١٩١٣، وبعد ذلك في زمن الاحتلال البَريطاني ولا سيّما في ثورة ١٩٢٠.

وتوفي ببغداد في ١٧ أيلول ١٩٢٠، فرثاه الشعراء جميل صدقي الزهاوي ونعمان الأعظمي وعبد الرحمن البناء وغيرهم.

قال الزهاوي:

أصبح الشيخ سعيد ... راحلاً ليس يعود

سار ينأى عن ذويه ... رجل الفضل الوحيد

فبكاه العلم والإرشاد ... والرأي السديد...

وقال البناء:

لمّا توفي في العراق سعيد ... كادت له أرض العراق تميد

وجرت دموع المسلمين لفقده ... من حيث بات العلم وهو فقيد

وله تصانيف عديدة منها: النفحات القدسية في تبرئة الصوفية، والعارف في أسرار اللطائف، ونخبة الفكر فيما جرى في السفر، وغيرها من الكتب الدينية والصوفية والشروح والردود.

ومن شعره الصوفي:

أرى حبكم ديني وقوتي وقوّتي ... فإن تهجروني فالصدود هو الوصل

فهجركُمُ والوصل عندي واحد ... علمت يقيناً أن حكمكمُ الفصل

وإني وحق الحب فيكم معذب ... وتعذيبكم عذب إذا كان لي نهل

إذا ظهرت شمس الوجود بأفقنا ... تفانت لها الأضواء وانمحق الكلّ

ولده: الشيخ الأنيق بهاء الدين سعيد النقشبندي، ولد في بغداد سنة ١٨٩٦ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٤٩. كان عالماً فاضلاً، تولّى نيابة رئاسة جمعية الهداية الإسلامية ووضع بحوثاً ومقالات دينية واجتماعية.

درس على والده وعمّه عبد الوهاب النائب وعيّن مدرساً لجامع الفضل سنة ١٩١٩، . وكان له نشاط في الحركة الوطنية. ثم خلف أباه في التدريس بجامع الإمام الأعظم. وعيّن وكيلاً لعميد دار العلوم في الأعظمية (حزيران ١٩٤٠). وانتخب نائباً عن لواء ديالى (١٩٣٠) فنائباً عن الديوانية (كانون الثاني ١٩٣٤). وأعيد انتخابه نائباً

عن ديالى (كانـون الأول ١٩٣٤) وآب ١٩٣٥ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣ .
وانتخب نائباً عن بغداد في آذار ١٩٤٧ الى شباط ١٩٤٨ .

وصفه خالد الدرّة في مجلة «الوادي» فقال : «عطور فوّاحة تنبعث من جبّته المكوّاة لا يستغني عنها المجلس ، وابتسامات عذاب يوزعها على بعض النواب . . . ونبرات حلوة يطلقهـا لا كخطيب كما يأمل الناس ذلك منـه ، بل إشـاعات يـروّجها بين النـواب في داخل المجلس وفي خـارجه . . . إنـه لا يفـرّق بين أن يكون في صـالون الجمعـة في دار الدفتري أو في ندوة مجلس النواب . وهو ظريف على كل حال . . . » .

وكان بهاء الدين في الثلاثينات ركناً من الثـلاثيّ المؤيّد لنوري السعيد مع الدكتورين فائق شاكر وسامي شوكت .

الشيخ محمد سعيد النقشبندي

ألف بعد أشهـر من قيام الدستـور التركي سنة ١٩٠٨ حزب المشور لإعـادة أحكام الشريعة الإسـلامية ومناهضة الاتحاديين . وقـد تولى رئاسته ، وكان من أعضـائه الفريق كاظم باشا ومحمـد فاضل باشا الداغستاني والسيد عبـد الرحمن النقيب والسيد عبد الله والسيـد محمـود من آل النقيب ، ومن آل الجميل عيسى وفخـري وعبد الـرحمن ، وعبـد الرحمن باشا الحيدري وجميل الخطيب أمين الإدارة وعطاء الخطيب وغيرهم .

لكن الحزب انحلّ في السنة التالية بعد فشل الثورة الرجعية .

وشكل النقشبندي سنة ١٩١٤ حـزباً سرياً لبثّ الفكرة العربيـة ، وكان هذا الحزب وليد فكرة نوري السعيد حينما فرّ من استانبول .

حسـن الصـدر

السيد حسن الصدر من أئمّة رجال الـدين في عصره ، وهو ابن هادي بن محمد علي بن صالح بن محمـد الحسيني النسب العامليّ الأصل . ولـد في الكاظمية في ٣ حـزيران ١٨٥٦ ، ودرس على أبيه وشيـوخ بلده . ثم شـدّ الرحال الى سـامراء وتتلمـذ على الامام محمد حسن الشيرازي (١٨١٥ ـ ١٨٩٤) .

وعاد الى الكـاظمية منصرفاً الى التأليف والتـدريس . وكان لـه مقام رفيع ، زاره أمين الريحاني في شيخوختـه فوصفه في كتابـه «ملوك العرب» ، قال : «قـد زرت السيد حسن صـدر الدين في بيتـه بـالكـاظمية ، فألفيتـه رجـلاً عظيم الخَلْق والخُلُق ، ذا جبين رفيع وضّاح ، ولحية كثّة بيضاء ، وكلمة نبويـة . له عينان هما جمرتان فوق خدين هما وردتان . عريض الكتف ، طويل القـامة ، مفتول الساعد . وهـو يعتم بعمّة سوداء كبيرة ويلبس

قميصاً مكشوف الصدر رحب الأردان، فيظهر ساعده عند الإشارة في الحديث. ما رأيت في رحلتي العربية كلها من أعاد إليّ ذكر الأنبياء كما يصورهم التاريخ ويمثلهم الشعراء والفنانون مثل هذا الرجل الشيعي العامليّ الكبير، وما أجمل ما يعيش فيه من البساطة والتقشّف. . . وعندما رأيته جالساً على حصير في غرفة ليس فيها غير الحصير وبضعة مساند، وقد كنت علمت أن لفتواه أكثر من مليوني سميع مطيع، وإن ملايين من الروبيّات تجيئه من المؤمنين في الهند وإيران ليصرفها في سبيل البرّ والإحسان، وأنه مع ذلك يعيش زاهداً متقشّفاً أكبرت الرجل أيّما إكبار. . . ».

وقد وضع السيد حسن الصدر مؤلفات عديدة بقي معظمها مخطوطاً، منها: تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام (طبع ١٩٥١) الشيعة وفنون الإسلام (١٩١٣) تكملة أمل الآمل في علماء جبل عامل (٣ أجزاء)، نزهة أهل الحرمين (١٩٣٥) مجالس المؤمنين، تعريف الجنان في حقوق الإخوان، البراهين الجليّة في تصديق علماء الأشعرية، الدرر الموسوية، وفيات الأعلام من الشيعة الكرام، سبيل الصالحين، رسالة في الردّ على الوهابية، عيون الرجال، نهاية الدراية (١٩٠٥) الخ.

وقد توفي بالكاظمية في ١٢ حزيران ١٩٣٥.

الشيخ إبراهيم الراوي

العالم الزاهد الشيخ إبراهيم بن محمّد بن عبد الله بن أحمد بن رجب الرفاعي الراوي ولد في بلدة راوة سنة ١٨٦٠، وكان أبوه الشيخ محمّد مفتياً في عنة. ودرس علوم العربية والدين، ثم شدّ الرحال الى بغداد سنة ١٨٧٥، ولازم شيوخ العلم فيها كالشيخ داود النقشبندي وعلي الخوجة.

وقصد الموصل فأخذ عن عبد الله الفيضي ويحيى خضر وغيرهما وعاد الى بغداد. ومضى سنة ١٨٨١ الى الشام وقرأ الحديث على الشيخ بدر الدين الحسني (١٨٥١ ـ ١٩٣٥)، ثم عاد الى بغداد وأتم دراسته على الشيخ عبد الوهاب النائب.

وسافر الى الاستانة لأول مرة في أيلول ١٨٨٧ فلقي الترحيب والاكرام من الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي (١٨٥٠ ـ ١٩٠٩).

عيّن مدرساً في جامع السيد سلطان علي ببغداد، ونال أوسمة ورتباً من الحكومة العثمانية. ووضع مؤلفات، منها: الطريقة الرفاعية، الأجوبة العقليّة (١٩٢٨) بلوغ الأرب في ترجمة الشيخ رجب الراوي الرفاعي (١٩١٢) النفحة المسكيّة، سور الشريعة، الأوراق البغدادية في الحوادث النجدية (١٩٢٧)، اللمعات الفريدة في المسائل المفيدة، داعي الرشاد الى سبيل الاتحاد (١٩٣١) الفلسفة الاسلامية في إثبات الحقانية (١٩٣٢) الخ.

توفي الشيخ إبراهيم الراوي ببغداد في ٢ كانون الأول ١٩٤٥ . وقد كان صاحب السّجادة الرفاعية، عالماً متصوّفاً جليل القدر متسامحاً واسع الأفق. وصفه محمد صالح السهروردي فقال إنه كان متخلّقاً بأخلاق السّلف الصالح، كثير العبادة والصيام، حليماً واسع الصدر، مجبولاً على الكرم، يجلس مع الناس كأحدهم، يدعو الناس الى الصلاح والمحبة والولاء. . . كان أحمر الوجه أبيضه، أشهل العينين، خفيف الشفتين، لا هو بالقصير ولا الطويل، وليس بملتحم بل وسطاً في ذلك، ذا بشاشة وطلاقة وجه، ليّن العريكة، سالم السرّ والسريرة.

وله شعر، منه قوله في الشعر والشعراء:

مقال صحيح: إنّ في الشعر حكمة، ... وما كل شعر في الحقيقة محكم

وإن قيل في التنزيل قد جاء ذمّه، ... فقد جاء فيه مدحه فتوسّموا. . .

وقال فيه معروف الرصافي:

للسيد الراويّ إبراهيما ... فضل أظلّ الخافقين عميما

ومناقب لهج الرواة بذكرها ... وبها استحقّ من الورى تكريما

شيخ إذا جالسته في مجلس ... جالست منه مرشداً وحكيما

وإذا نظرت لشخصه متأمّلاً ... أحسست فيك لشخصه تعظيما

داوى قلوب ملازميه بهديه ... فأصحّ منها ما رآه سقيما. . .

وقال رفائيل بطّي:

عاش الشيخ الجليل لنشر دين الله وخدمة الشعب وإعلاء منار الحق والدعوة الى الصراط المستقيم وإرشاد الأمة في ما يقوّي إيمانها وينفعها في دنياها ويزيد في المجتمع الألفة والاخاء والتضامن. . .

من شعر الشيخ ابراهيم الراوي

قال في مدح سلاطين آل عثمان:

ملوك بني عثمان ألوية الحمد ... لهم فوق هامات العلى طالع السّعد

لقد عظموا في صولة الحقّ واعتلوا ... منار فخار دونه رتب المجد

وقاموا بأعباء الخلافة مثلما ... أقاموا شراع الدين بالحزم والجدّ

وقال:

ربِّ، إني قد امتلأتُ كروبا ... لذنوب ملأت منها جيوبا

قيّدتني حبائل الوهم حتّى ... تركتني عن النّهى محجوبا

حسنـــــــاتي أخــــــالها سيّئـــــــات لقصـــوري وحسـن حــالي عيـــوبــــا
فـإلى الله أشتكـي ســـوء حـــــالي والى بــــابــــــه أتيتُ منيبــــــا
وعلى فضلـــــه عقـــــدت رجــــائي والتجــــائي، حــاشــا لــــه أن أخيبــا

وقال:

خلِّ المطيّ يشـــوقهـــا صـــوت الحِدا ويســوقهـا ويقــودهـــا رجع الصـدى
ودعِ الجيــــاد تقـــدّ أفــــلاذ الحصى وتمدّ للجـــوزا، إذا تعــــدو، يــــدا
وإذا بـــــدت أعــــلام أمّ عبيـــــدة فــــارفق بها فلقـــد بلغت المقصـــدا
وانـزل، هــديت، وقل لها: هــذا الـذي أضحـى بأم عبيـــدة متــــوسّــــدا
هـــذا مقـــام الغــوث أحمد قـــد بـــدا ومنــاره العــالي الــذي قــد شيّـــدا
وقبــــابـــــه الشمّ التي قــــد أشرقت يحكي الـــلآلىء حسنهــا والعَسْجَــدا

وقال:

حبّـــــي لشيخـــــي حبّـــــي لم يحوه غير قلبــــــــــــــــي
وإنــي عبـــــــــــد رقٍّ لـــــلأمـــــر منـــــه ألبّي
لا أستفيـق غـــــرامــــاً في حبّـــــه طــــــول دأبي
ومــــا سرى منـــــــه سرّ إلاّ أهيـم بجـــــــــذب...

الشيخ محسن الراوي

ذكر السر جـون غلوب، المعروف باسم غلـوب باشا، في كتـابه «مغامرات عـربية» الشيخ محسن الراوي أخا الشيخ إبراهيم.

كان غلوب ضابطاً سياسياً في لواء الدليم سنة ١٩٢٣، فزار عنة وراوة. قال إن راوة تقع على شـاطىء الفرات الشرقي مقـابل عنة، وهي معـزولة عن العالم وعـن التجارة، وأهلها يعيشون من المتاجرة مع شمّر وقبائل الجزيرة الجفاة. وقال انه زار كبير علماء راوة الشيخ محسن في دار ضيافتـه القائمة في درب ضيق والمفتوحة أبـوابها ليل نهار لكل غاد ورائح. وقد فرش صحن الـدار بالسجّاد الخشن وغلت أباريق القهـوة على النار. زهد الشيخ في الدنيا، فهو لا يملك شيئاً من متاعهـا، لكن الورعين من أتباعه يأتون بهدايا الدقيق والقهوة...

وجاء الشيخ فجلس أمداً قصيراً، لكنه لم يكـد يتكلم. ويدلّ مظهره على شيخوخة متقدمة ضعيف البنية، أبيض الإهاب كالرق الجاف. وهو يسبح في ماء الفرات في فجر كل يوم حتى في أيـام الشتاء القارسـة. وقال: لعلّ هـذا القدّيس المسلم يشبه الـرهبان

المسيحيين القدماء الذين كانوا يعتزلون العالم ليعيشوا في الصحراء، منصرفين إلى الله تعالى.

وقال غلوب إنه علم ان فرقة من رعاة الغنم الرحالين قد نزلت في الصحراء على مسافة أميال غربيّ عنة، فركب مع تابعه علي اليونس لزيارتها وقضاء الليل في مضاربها. ووجد جماعة من الدراويش أيضاً حلّوا ضيوفاً على الفرقة، وهم سوريون من الخابور يعرفون باسم «أولاد الشيخ عيسى».

ولما فرغ الجمع من تناول العشاء، أحيى الدراويش حفلة ذكر، وأخذوا يرتلون الأذكار ويضربون على الطبول. بدأوا بهدوء، ثم اشتدت الحماسة وارتفعت الأصوات. وقام أحد الدراويش حاملاً بيده سفّوداً من الحديد المصقول، فتح قميصه وتحسّس المكان الملائم في صدره وأدخل فيه رأس السفّود بدقة حتى خرج من ظهره. وفي خلال ذلك حمي وطيس الضرب والترتيل واستولى على الجمع هيجان شديد، وجاء بعد ذلك درويش آخر فسحب السفّود بلطف قليلاً قليلاً حتى أخرجه من صدر الرجل الذي جلس يستعيد أنفاسه ويحتسي القهوة.

الشيخ شكر أحمد

الشيخ شكر الله الشيخ أحمد قاضي بغداد الجعفري ولد في بغداد سنة ١٨٦٨.

وقصد النجف فدرس الفقه والعلوم العربية على الشيخ محمد طه نجف ومحمد حسين الكاظمي وغيرهما. ثم عاد إلى مسقط رأسه وانقطع إلى الإرشاد والتعليم بجانب الكرخ. وذاع صيته وكثر طلابه، فانتقل إلى جامع المصلوب في جانب الرصافة يواصل رسالته الثقافية. وكان أحد الساعين لتأسيس المدرسة الجعفرية الأهلية سنة ١٩٠٨، فاختير مديراً لها.

وعيّن قاضياً جعفرياً لبغداد في شباط ١٩١٨، ثم نقل عضواً بمجلس التمييز الشرعي في آب ١٩٢٣. وتوفي في ١٥ نيسان ١٩٣٨.

قال خيري العمري: «وقد احتّل الشيخ شكر بمتانة خلقه وهدوء طبعه منزلة في قلوب الناس، وظفر بتجّرده ووقاره باحترامهم، فكان يتميّز بوجه صبوح أقرب إلى الحمرة وقامة معتدلة في الطول ولحية خفيفة شقراء وصوت هادىء النبرات تتخلّله خنّة واضحة».

الشيخ عبد الكريم الجزائري

المجتهد العالم الأديب الشيخ عبد الكريم الجزائري من زعماء الدين في النجف الأشرف حيث ولد سنة ١٨٧٢. وهو ابن الشيخ علي المتوفى سنة ١٨٨٥ ابن كاظم بن

جعفر بن حسين بن محمد بن الشيخ أحمد الأسدي (المتوفى سنة ١٧٣٨) صاحب كتاب آيات الأحكام ورأس الأسرة.

درس عبدالكريم الجزائري على فضلاء عصره كالشيخ حسن الجواهري والشيخ محمد طه نجف وشيخ الشريعة الاصفهاني والسيد محمد كاظم صاحب العروة الوثقى. ثم تصدّى للتدريس ونال مكانة سامية في العلم والاجتهاد. وقد ساهم في الجهاد خلال الحرب العظمى الاولى وحارب مع الجيش التركي في الحدود الإيرانية وجبهة الحويزة، ثم اشترك في الثورة العراقية وكان له فيها شأن مرموق.

دعي إلى تقلّد وزارة المعارف في الوزارة النقيبية الثانية (١٠ ايلول ١٩٢١)، لكنه اعتذر عن قبولها فأسندت مهامّها إلى محمد علي هبة الدين الشهرستاني.

وله مصنفات منها: تعليق على مكاسب الأنصاري، وتعليق على كتاب الرياض للسيد المجاهد، وشرح على مباحث الظنّ والقطع من رسائل الشيخ الأنصاري، وشرح على العروة الوثقى، الخ.

قرض الشعر في شبابه، فقال يرثي الميرزا حسن الشيرازي المتوفى سنة ١٨٩٤:

مصابك طبقّ الدنيا مصابا ورزؤك هوّن النُّوب الصعابا

ونظم في أغراض اخرى كالمدح والغزل والتهنئة.

وقال جعفر الخليلي ان الشيخ عبد الكريم الجزائري كان في شبابه من اعضاء حلقة أدبية ضمّت جواد الشبيبي وجعفر الحلي وباقر الهندي وغيرهم، فكانوا يقرضون الشعر ويتطارحون النكت والفكاهات.

وتوفي في النجف في ٨ تموز ١٩٦٢.

قال محمد رضا الشبيبي إن الشيخ عبد الكريم الجزائري كان من الأقطاب الذين دارت عليهم رحى الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، وكان عضداً اعتضد به الثوار، وعوناً لكبار العلماء الذين صدرت عنهم الأحكام المعروفة في وجوب الدفاع عن حوزة البلاد وكرامتها وتحقيق حريتها وسيادتها.

محمد جواد الجزائري

العالم النجفي محمد جواد بن الشيخ علي الجزائري، وهو أخو الشيخ عبد الكريم، ولد بالنجف في ١٦ شباط ١٨٨١ وتخرج على علمائها. وكان من زعماء ثورة النجف سنة ١٩١٨، قبض عليه عند خمود الثورة في نيسان ١٩١٨ وحكم عليه بالإعدام. لكن سمح له ولزميله محمد علي بحر العلوم بالشخوص إلى المحمّرة بوساطة الشيخ خزعل خان أمير عربستان.

وأذن له بالعودة بعد سنة وعشرة أشهر (آذار ١٩٢٠).

كان شاعراً، قال من قصيدة له وهو معتقل في سجن بغداد:

مددنا بصائرنا لا العيونا ... وفزنا غداة عشقنا المنونا

عشقنا المنون وهمنا بها ... وعفنا أباطحنا والحجونا

ونظم «حلّ الطلاسم» (١٩٤٦) معارضاً طلاسم إيليا أبي ماضي.

أدركته الوفاة في النجف في ٢٣ نيسان ١٩٥٩.

عارض محمد جواد الجزائري «طلاسم» ايليا أبي ماضي الشهيرة التي يشكّك فيها بالوجود ويقول:

كيف جئتُ، كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري

فردّ عليه الجزائري بقصيدته «حلّ الطلاسم» مجيباً على «لا أدرية» أبي ماضي بـ «أنا أدري، أنا أدري».

ولم يكن من علي الشرقي الاّ أن نظم أبياتاً يسخر فيها من الجزائري ختمها بقوله:

أنت مجنون ولكن لست تدري،

أنا أدري!

وله أيضاً من المؤلفات: الآراء والحكم، وفلسفة الإمام الصادق (١٩٥٢).

قال جعفر باقر آل محبوبة إن الشيخ محمد جواد الجزائري ضليع بالعلوم العربية والفلسفة الإسلامية، وقد كان رجلاً صريحاً في القول والعمل، ذا شمم عربي وروح إسلامي، ساءه أن يرى وطنه يئّن تحت وطأة الأجنبي فعمد إلى تأليف جمعية سرية (١٩١٨) لإنهاض الأمة وتحرير البلاد. فكانت الحرب النجفية التي لم يكتب لها النجاح، واعتقل محمد جواد وقضى في السجن سنة وعشرة أشهر.

عبد الحسين شرف الدين

عبد الحسين بن يوسف بن جواد شرف الدين الموسوي ينتمي إلى أسرة علوية معروفة بالزعامة العلمية، ولد في الكاظمية سنة ١٨٧٣ ودرس علوم اللغة والفقه في سامراء والنجف وأخذ عن محمد كاظم اليزدي ومحمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الاصفهاني ومحمد طه نجف وغيرهم.

ثم مضى إلى جبل عامل موطن أسرته سنة ١٩٠٤ وصارت له منزلة دينية سامية. وشدّ الرحال إلى مصر (١٩١١) واجتمع بعلمائها وألف كتابه «المراجعات» الذي طبع في صيدا بعد أعوام طويلة (١٩٣٦) وأعيد طبعه في بيروت والنجف وترجم إلى بعض اللغات الأجنبية.

وناضل ضدّ الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان فاضطّر على التخفي حيناً والتنقل في البلدان العربية مشرداً وقد أحرقت داره في صور وذهبت كتبه وطائفة من مؤلفاته المخطوطة طعمة النار. ولم يعد إلى وطنه الا بعد صدور العفو عن المجاهدين.

وكان من دعاة الإصلاح، أقدم على تأسيس مدارس للأولاد والبنات وشيد الكلية الجعفرية في بلدة صور، وتوفي ببيروت في ٣٠ كانون الاول ١٩٥٧.

من مؤلفاته: الفصول المهمة في تأليف الأمة (١٩١٢) أجوبة مسائل موسى جار الله (١٩٣٦) ثبت الإثبات في سلسلة الرواة، الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء (١٩٢٩) مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام، مسائل خلافية (١٩٥١) مسائل فقهية (١٩٦٤) النصّ والاجتهاد (١٩٥٦) أبو هريرة (١٩٤٧) فلسفة الميثاق والولاية (١٩٤١) زكاة الأخلاق، الخ.

وقد عرف ولده صدر الدين شرف الدين صحفياً وكاتباً أنيق العبارة. ولد صدر الدين في النجف سنة ١٩١٢ وأصدر جريدة «الساعة» في بغداد آب (١٩٤٤) ثم أقام في لبنان وأصدر مجلة «الألواح» فمجلة «النهج» في صور وتوفي في كانون الثاني ١٩٧٠.

من مؤلفاته: محنة العراق (١٩٤١) في قطار الزمان (١٩٤٩) سحابة بورتسموث (١٩٤٨) حليف مخزوم، هاشم وأمية في الجاهلية الخ.

جواد الجواهري

الشيخ جواد بن علي بن محمد ابن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر كان من رجال النجف الذين يشار اليهم بالبنان، قال فيه جعفر آل محبوبة صاحب «ماضي النجف وحاضرها» إنه «زعيم الأسرة في عصره وعمادها، بل موئل النجف وسنادها كانت تلجأ إليه في الملمّات وتستظل بظلّه عند المهمات...»

اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فلما استسلمت النجف في تشرين الاول من تلك السنة، قبضت عليه السلطات البريطانية واعتقلته ثم أفرج عنه.

وقد توفي في النجف في ١٦ ايار ١٩٣٦. وممّن رثاه محمد مهدي الجواهري بقصيدة مطلعها:

هتفوا فأسندت اليدان ضلوعي ... وشرقت بالحسرات قبل دموعي

وعرف من آل الجواهري أيضاً والد الشاعر محمد مهدي، وهو الشيخ عبد الحسين ابن عبد علي بن محمد حسن صاحب الجواهر. وقد كان عبد الحسين الجواهري (١٨٦٦ - ١٩١٧) شاعراً ناثراً فقيهاً، له قصائد في رثاء الإمام الحسين وغيرها في الرثاء والمدح والتهنئة والاخوانيات.

عبد الملك الشواف

من علماء بغداد المرموقين، الشيخ عبد الملك ابن الشيخ طه ابن الشيخ عبد الرزاق البغدادي المعروف بالشوّاف. كان الشيخ عبد الرزاق عالماً معروفاً توفي سنة ١٨٥٢، أما ابنه الشيخ طه فكان عالماً شاعراً ولد سنة ١٨٣٦، وعيّن مفتياً لسامراء. ثم وجّه إليه افتاء البصرة سنة ١٨٩٩ وتوفي بها في شباط ١٩١٠.

ولد عبد الملك الشواف في بغداد سنة ١٨٧٣، ودرس على علماء عصره كعمّه الشيخ أحمد الشواف وعباس حلمي القصاب وغلام رسول المولوي الهندي وعبد الرحمن القره داغي ويوسف العطاء. وعيّن مدرساً للمدرسة القادرية، فكثر طلابه ولا سيّما في علوم العربيةمن بلاغة وبيان.

ولما توفي والده خلفه في افتاء البصرة سنة ١٩١٠، وقام بالتدريس في المدرسة الرحمانية. وسجن بعد الاحتلال الانكليزي أمداً وجيزاً لدواعٍ سياسية.

وعاد إلى بغداد فعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي (آب ١٩١٨) فقاضياً لبغداد (١٩٢٢) فرئيساً لمجلس التمييز الشرعي السنّي (تشرين الاول ١٩٢٢) واعتزل منصبه في ايلول ١٩٣٣. وتوفي ببغداد في ٣ شباط ١٩٥٣.

وقد كان أخوه علي الشوّاف من رجال القضاء الموصوفين بالعلم والنزاهة، ولد سنة ١٨٨٤ وعيّن قاضياً لبلدة الحيّ سنة ١٩٢٢. وتولّى القضاء الشرعي بعد ذلك في البصرة والموصل، وتوفي في المدينة الأخيرة في تشرين الاول ١٩٣٠.

وممّا رواه ابراهيم الواعظ عن الشيخ طه الشوّاف أنه ذهب وهو طالب علم إلى دائرة الأوقاف لحاجة له فلم يؤبه به. وحاول أن يصرف ليرة عثمانية وكانت سوقها كاسدة، فهاله بخس قيمتها وقال:

قل لأمير المؤمنين الذي ... قد عمّنا بالجود واللطف

درهمه أضحى وديناره ... في سوق بغداد لدى الصّرْفِ

أذلَّ من طالب علم أتى ... لحاجة دائرة الوقف

السيد أبو الحسن الموسوي الاصفهاني

من كبار مجتهدي الشيعة الإمامية والمرجع الديني الكبير في عصره، ولد سنة ١٨٦٧ في اصفهان، وتتلمذ على الشيخ محمد كاظم الخراساني في النجف ونشأ محباً للتقدم والإصلاح، فشدّ أزر استاذه في الدعوة إلى الحرية والدستور. عرف بعد ذلك مناوئاً للبدع السقيمة والعادات المضّرة. شنّ على دعاة التزمت والتعصب حرباً لا هوادة فيها ولا لين.

ولما نشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ كان من رجالها المرموقين بعد الإمامين محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني. وكان من الداعين إلى عقد مؤتمر كربلاء في نيسان ١٩٢٢ لمناقشة هجوم الاخوان النجديين على القبائل العراقية. ثم عارض انتخاب المجلس التأسيسي وأفتى بمقاطعته مع زملائه العلماء حسين النابيني ومهدي الخالصي وغيرهما، فخرج من العراق في حزيران ١٩٢٣ ومضى إلى قم في إيران، ولم يعد الا في نيسان ١٩٢٤ بعد أن تعهّد للحكومة العراقية بمجانبة العمل السياسي.

وتألق نجمه بعد ذلك فلم يلبث أن انفرد بالزعامة الروحية للشيعة الإمامية في العراق وإيران وسائر الأقطار، وظلّ المرجع الاكبر نحواً من عشرين سنة لا يكاد ينافسه في منزلته منافس حتى أدركته الوفاة.

كان زاهداً متقشّفاً جمّ التواضع، موصوفاً بالتسامح وسعة الفكر، إلى جانب حزمه واعتداده بنفسه وإيلائه مركز الزعامة حقّه وسخائه في توزيع الاموال الجسيمة التي كانت تصله على المعوزين وطلبة العلم.

وتوفي في الكاظمية في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٦. وله مؤلفات أشهرها: أنيس المقلّدين (١٩٢٦) حاشية العروة الوثقى (١٩٢٨) مناسك الحجّ (١٩٢٩) ذخيرة العباد (بالفارسية ١٩٢٣) صراط النجاة (بالتركية ١٩٥٦) وسيلة النجاة (١٩٥٦).

قال جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» (الجزء الاول) يصف تقدم السيد أبي الحسن إلى الزعامة بعد وفاة شيخ الشريعة الاصبهاني: «.. وحين عاد العلماء من ايران وعاد هو إلى العراق، كان هو السابق إلى المرجعية الكبرى والزعامة الشيعية، خصوصاً وأن شيخ الشريعة كان قد توفي قبل ذلك، وقد فرغ الميدان الا من بعض أقران السيد أبي الحسن، وإذا بالطلاب الذين يحوطون منبره يغصّ بهم مجلس الدرس أو «البحث» كما يسمّى، حتى لم يبق متّسع لأحد، وإذا بهذه الجهة الخاصة من الصحن الشريف تضيق بالمصلّين خلفه، ثم تحفّ به جماهير الطلاب والمراجعين في أثناء الخروج من بيته وعند العودة، قبل الصلوة وبعدها، فتحدث ضجّة كبيرة، وكثيراً ما تقدمتها موجات من التكبير والتهليل. ومع ذلك كله فقد كان السيد أبو الحسن لا يملك داراً ولا يحمل أمامه فنر وسراج إن مشى ليلاً، وليس لديه من المستخدمين الخاصين أحد بالرغم من تلك الأبهّة والعظمة التي تحيط به عند خروجه من البيت للصلاة والدرس وعودته إليه...»

وقال الخليلي بعد ذلك: «وفي السنوات العشر الأخيرة ثقل كاهله بالعمل أكثر واكثر وصار عليه أن يقابل عدداً كبيراً من الزائرين من ارباب الحاجات ويقرأ كثيراً من الكتب والاستفتاءات التي كانت ترد من مختلف الأقطار وبمختلف اللغات ويجيب عليها بخطه، ولا يسمح لأحد أن ينوب عنه في استعمال خاتمه كائناً من كان. ولقد كان ختمه معه إلى آخر ساعة من حياته. وكان طبيعياً أن يكلّ وطبيعياً أن يمرض ولو كانت

أعصابه من حديد. ولقد كان بميسوره أن يرتاح لو كان يريد الراحة، . ولكنه أخذ على نفسه أن يضرب الرقم القياسي للعمل، فعمل الكثير مما لا طاقة لغيره أن يعمله وهو في مقتبل العمر، فكيف وهو في آخر مراحل الحياة. . »

ورثاه الشعراء فقال عبّاس الملاّ علي:

عيـــد تحوّل مـأتماً ومصـــابـــا	أرأيت شهـــداً قـــد تحول صــابــا؟ . .
يــا راحـلاً مــلأ الـزمــان مـآثــراً	أعيى تـــواتــر وصفهـا الكتــابــا
أدّيت للعليـــاء واجب حقهـــا	ومضيت يحزن فقـــدك المحـــرابـــا
بكت المحـــابــر والمنـــابــر، وانثنى	ينعى اليراع مليكـــه الـــوهّــابـــا

وقال محمد علي اليعقوبي:

هـــدّ سمك الهدى وطـــاح عماده	واستحـــالــت مـــآتماً أعيـــاده
أيّ خطب قـــد حلّ في الشرق، لكـن	جلّـل المغـــرب القصّي حـــداده
أيّ ظلّ للـــدين قلّصـــه الـدّهـــر (م)	وقـــد طـــاول السّحـــاب امتـــداده
كهـف أمن يـأوي المخـــوف إليـــه	وعليـــه بعـــد الإلــه اعتماده
آيـــة الله بـل وحجّتـــه الكبرى (م)	التـي تلتجي اليهـــا عبـــاده
سـنّ للمصلحين نهجـــاً قـــويـاً	سنّـــه قبـلُ للـــورى أجـــداده

وقال عبد الرسول الجشّي:

العيـــد وافى، قم فصلّ العيـــدا	وأعـد لنـا عهـد الـرسـول جـديـدا
هـذي الصفـوف وقـد تحشّـد جمعهـا	فـــانظـــر اليهـــا ركّعـــاً وسجـــودا
يـــا قـــائد الإسـلام، رافع بنـــده،	كيف انثنيـت عن الصفـــوف بعيـــدا؟

حدثني ثقـة من رجال النيابـة وهو جواد جعفـر، قال: طلب السفير الأميركي ذات يوم زيارة النجف، وكنت بـرفقته. واتصلت بكبار رجال الـدين وأخبرتهم برغبة السفير في زيارتهم، فاستقبلوه في دورهم في الحال. ورآهم على هيئتهم الطبيعية في صحن الدار المفروش بالبسط العـادية، وكانوا مثال الـزهد والتقشف، جالسين على أفرشـة قديمة، ولا يقوم بخـدمتهم سوى واحـد أو اثنين من تلاميـذهم، كلّ ذلك على جلالـة شأنهم وعظيم منزلتهم.

ولما اتصلت بـالسيـد أبي الحسن، اعتـذر وأجّل استقبـال السفير إلى صبـاح اليـوم الثـاني. وحضرنا إلى دار المجتهـد في الموعد المضروب، فـإذا الشارع المؤدّي إليهـا يزخـر بالمشايخ والمريدين، استقبلوا السفير وحيّوه وأدخلوه على السيد. وكانت الدار مفروشة بالسجّاد الثمين وقـد صفّت فيها الأرائك بترتيب جميل وازدحم الناس وقـوفاً في أروقتها

برسم الخدمة. ورأى السفير عجباً في مجلس حجّة الإسلام، وشاهد الفرق واضحاً بينه وبين سائر مجالس العلماء التي حضرها في اليوم السّالف. ولم تكن تلك عادة السيد أبي الحسن الزاهد، لكنه أجّل الاستقبال إلى الغداة ليطلع الممثل الاميركي على مكانته وهيبته ومنزلته في العالم الإسلامي.

روى جعفر الخليلي إنّ الشاعر محمد علي اليعقوبي كان يسير مع السيد أبي الحسن وهو يتعثر، فسأله العالم الكبير: أين عصاك؟ فقال اليعقوبي: لقد كسرت أمس. وناوله السيد عصاه الثمينة، فتقبّلها الشاعر شاكراً وارتجل قائلاً:

أبا حسنٍ، لا غرو أن ألقت العصا ... يدٌ منك أبصرنا مواهبها فيضا
كأنّك موسى، والعصا عندك العصا، ... وأن اليد البيضاء منك اليد البيضا

السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

قتل السيد حسن نجل أبي الحسن سنة ١٩٣٠ وهو يصلي في الصحن بالنجف إذ هجم عليه المدعو علي القمي وذبحه بسكين. وقد ظهر أن الجاني مختّل الشعور وحكم عليه بالسجن المؤبد. ونقل بعد ذلك إلى مستشفى المجانين.

قال جعفر الخليلي إن السيد أبا الحسن انتهى من صلاته فعلم بمقتل ابنه فلم يقل شيئاً سوى الترجيع «إنّا لله وإنّا إليه راجعون». وطلب العفو عن المجرم.

يوسف العطا

مفتي بغداد العالم الفقيه السيد يوسف العطا، وهو صلاح الدين يوسف بن محمد نجيب بن أحمد بن خليل، ينتهي نسبه إلى السيد عطاء الحسني الذي عرفت به الأسرة، وهي من أسر بغداد القديمة المشهورة بالفضل والثراء. ذكرها ابراهيم فصيح الحيدري في كتابه «عنوان المجد» ووصفها بأنها «بيت تجارة وخير». وقال الشيخ محمد صالح السهروردي في كتابه «لبّ الألباب» إنّ جد المفتي يوسف العطا كان، في بعض سني القحط والمجاعة، يمتلك مخازن واسعة مشحونة بأنواع الأطعمة والحبوب وقد دفع له التجار أثماناً باهظة لشرائها، لكنه قال: لقد بعتها للذي يربي الصدقات، وفرّقها على الفقراء والجياع.

ولد يوسف العطا في بغداد سنة ١٨٦٩ ونشأ في نعمة ورفاهة عيش. ودرس على أجلّة علماء عصره كعبد السلام الشّواف وغلام رسول الهندي وعبد الوهاب النائب. وظهر نبوغه وهو شابّ طريّ العود، فأسند إليه التدريس والوعظ في جامع القبلانية وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٨٩٢). وعيّن عضواً بمجلس المعارف على عهد

الوالي ناظم باشا، وعهد إليه بالتدريس في مدرسة الحقوق على العهد العثماني واستمّر على ذلك في العهد الوطني أعواماً طويلة.

وقد عيّن مفتياً لبغداد في تشرين الثاني ١٩٢٣، وواظب على التدريس والارشاد حتى توفي ببغداد في ٤ ايلول ١٩٥١.

كانت له منزلة إجتماعية مرموقة لعلمه وفضله وسعة صدره وكرم نفسه وسعيه في مصالح الناس وحدبه على ذوي الحاجة والمعوزين.

وكان مجلسه في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ملتقى طبقات رجال الدولة والادب والفضل والوجاهة. وكان هو نفسه يحضر مجالس بغداد ودواوينها، ولا سيّما مجلس الملك علي عاهل الحجاز السابق. ذكر أحمد حسن الزيّات الأديب المصريّ الذي درّس أمداً في بغداد إنه كان يلقاه في مجلس الملك علي وكان يوسف العطا لا ينقطع عن حضوره فكان يقول في كلّ شيء ويجيب في كلّ شيء، ولا ينطق الا ببيت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية من القرآن. . .

وقال جمال الدين الألوسي إن المفتي قد أصيب في أيامه الأخيرة بمرض عقل لسانه، فكان يجلس إلى الشيخ ابراهيم الراوي كلّ أمسية يقرأ له على ماء فيبلّ به فمه. فإذا حضر الألوسي سأله أن يقرأ له في كتاب أو مجلة أو ديوان شعر.

وذكر المفتي أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابه: «البغداديون أخبارهم ومجالسهم» فقال إنه ورث عن أبيه ثروة طائلة فعاش في بلهنية ونعمة، لكنه لكرمه وانبساط يده أضاع معظم أمواله. وقال إن مجلسه يختلف إليه الملوك والأمراء والوزراء والعلماء والساسة والقادة والأشراف والتجار. . . وقد وقف كتبه على الحضرة القادرية.

وقد حدثني مصطفى علي إن يوسف العطا كان رفيع المنزلة، واسع المعرفة، لكنه عرف بالتعصّب. وقد كفّر معروف الرصافي فهجاه هجاءً مقذعاً. وكان ذلك على أثر إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، إذ جاء بغداد وفد من حزب الاتحاد والترقي وزار محمود شكري الألوسي وكلفه بقراءة منشور على الناس بعد صلاة الجمعة في بعض المساجد. واعتذر الألوسي، لكنه قال: إن تلميذي الرصافي يقرأ المنشور على جمهور المصلين.

وفي يوم الجمعة المعيّن نبّه على الناس بأن لا ينصرفوا عند انتهاء الصلاة، ووقف الرصافي فقرأ منشور الحزب بحضور الوفد ورهط من أعيان بغداد، وقد افتتحه بقوله: أيها الوطنيون!

وشاع بعد ذلك ان الرصافي قال: أيها الطبيعيون! وأذاع خطبة تدعو إلى المادية اللادينية، فهاج العوام وقضى يوسف العطا وغيره من العلماء بتكفير الشاعر.

واتخذ العطا وسائر العلماء موقفاً مناوئاً لدعاة السفور في سنوات العشرين. قال

مصطفى علي: كان العطا يدرّسنا في مدرسة الحقوق. وعلم أنني وحسين الرحال من السفوريين فكان يعنفنا في أثناء الدراسة.

أقول: عرفت يوسف العطا يوم كنت موظفاً في وزارة الخارجية، فكان يزورني في ديوان الوزارة ويصّر عليّ بأن أحضر مجلسه ظهر الجمعة في الطابق الاعلى من جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، (وقد اتخذت غرفه بعد سنوات من وفاته مكتبة عامة جمعت فيها آلاف الكتب والمخطوطات). وكان مجلسه يلتئم بعد صلاة الظهر فيؤمه الوزراء ورجال الدين والدنيا وممثلو الدول العربية، يتناولون طعام الغداء ويظلون يتحدثون ويتسامرون إلى العصر.

وأذكر ان يوسف العطا زارني في وزارة الخارجية صباح أحد أيام رمضان، وكان إلى جانبي عبد الحميد الباجه جي مدير التشريفات جالساً وهو يدخن. وفجأة دفع المفتي باب الغرفة ودخل بدون استئذان، على عادته، فاضطرب الباجه جي وأسرع ففتح دُرْج مكتبي ووضع السيكارة فيه دون أن يطفئها، ثم أغلقه. وقمت أرحب بالمفتي وأسلم عليه، ثم عدت وفتحت الدرج بسكون وأطفأت السيكارة التي كادت تحدث حريقاً. ومرّ الأمر بسلام.

وقد نقل الباجه جي بعد أشهر مديراً لأوقاف بغداد.

الرصافي والعطاء:

كفّر معروف الرصافي فهجاه بقصيدة لاذعة منها:

إن كنت قد كفّرتني بجهالة ... فبالبُهت كم كفّرت من مسلم قبلي

إنك في تكفيرك الناس كافر ... تهاونُ بالله الذي جل عن مثلي

وأنت من الإسلام في كل حالة ... بمنزلة الظّلم الصّريح من العدل

وقال:

لئن كنت تنمى للعطاء فإنه ... عطاء الذي تزكو الورى فيه بالبخل

وقال فيه أيضاً:

يا أيها المفتي بتكفيرنا، ... مهلاً فقد جئت بأمر نكير

بأي جهل فيك مستأصلٍ ... علمت، يا جاهل، ما في الضمير؟...

نعمان الأعظمي

الواعظ الخطيب المفوّه الحاج نعمان بن أحمد بن اسماعيل بن أحمد العبيدي الأعظمي، ولد في ناحية الأعظمية بظاهر بغداد سنة ١٨٧٦، وانخرط في سلك طلبة مدرسة الإمام الأعظم ونال الإجازة العلمية (١٩٠٦). وقد عيّن معلماً بمدرسة الاعظمية

الرسمية (١٨٩٩) ثم نقل إلى مدرسة الكرخ (١٩٠٨). وعرف بطلاقة لسانه وقوة بداهته وارتجاله. وأصدر في آب ١٩١٠ مجلة شهرية دينية باسم «تنوير الأفكار» فدامت سنة واحدة.

ولما نشبت الحرب العامة انتدبته الحكومة التركية في وفد مع محمود شكري الألوسي وعلي علاء الدين الألوسي والرئيس الاول الحاج بكر افندي إلى أمير نجد عبد العزيز آل سعود لحمله على شدّ أزر الأتراك، لكن البعثة أخفقت في مهمّتها. وعيّن سنة ١٩١٥ واعظاً عاماً وألحق بقائد الجيش نور الدين بك في ساحة الكوت. واحتل الجيش الانكليزي بغداد فاعتقل نعمان الأعظمي في آخر ايار ١٩١٧ وأبعد إلى الهند، حتى أطلق سراحه سنة ١٩١٩.

وقد عاد إلى التدريس في كلية الإمام الأعظم، وأصبح مديراً لها سنة ١٩٢٤ فمديراً لدار العلوم العربية والدينية كما أصبح اسم الكلية المذكورة في تشرين الأول ١٩٣١. وتوفي ببغداد في ٢ ايلول ١٩٣٦.

وله مؤلفات منها: التاريخ العام، ارشاد الناشئين (١٩١٤) وخطب ومقالات كثيرة.

الشيخ قاسم القيسي

قاسم بن أحمد الفرضي القيسي ولد في بغداد سنة ١٨٧٦، ودرس علوم العربية والدين واللغتين التركية والفارسية، وكان من شيوخه عبد المحسن الطائي وعبد الوهاب النائب وغلام رسول. عيّن مدرساً لقضاء خانقين (١٩٠٠) فالجزيرة (الصويرة) (١٩٠١). وعمل بعد ذلك عضواً في مجلس المعارف ببغداد (١٩٠٩) وعضواً بالمجلس العلمي للاوقاف (١٩١٧) ومدرساً بولاية بغداد ومدرساً في دار المعلمين ومدرساً لمدرسة نائلة خاتون.

عيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي في كانون الاول ١٩٢٢ وظلّ في ذلك المنصب سنين طويلة حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٣٧ وقد درّس في كلية الشريعة وخلف السيد يوسف العطا مفتياً لبغداد اثر وفاته سنة ١٩٥١. وتوفي الشيخ قاسم القيسي ببغداد في ١١ ايلول ١٩٥٥.

له مؤلفات في اللغة والفقه والمنطق، منها: رسالة في مصطلح الحديث (١٩٣٨) الزهر اللطيف في مسلك التأليف (١٩٤٠) الحديقة الندية (١٩٤٠) النزهة البهيّة (١٩٥٤) تاريخ التفسير (١٩٦٦).

كان الشيخ قاسم القيسي عالماً وقوراً مهيباً تخرّج عليه عدد عديد من العلماء ورجال الأدب والفضل. وقد قال فيه تلميذه معروف الرصافي:

إذا قـاسم القيسي مـرّ بخـاطـري — تـذكـرت عهداً في الصّبـا مـرّ كـالحلم
تـذكـرتـه إذ كنت للعلم طـالبـاً — بفكـري وسعيي مجهـد النفس والجسم
فقـد كنت أحيـانـاً أزور فنـاءه — وأنتـابـه للـرشف من منهـل العلم
هـو العـالم الحَبر الـذي من يلُـذ بـه — يكـن فـائزاً بـالعلـم والأدب الجم
بقيّـة أعـلام مضـوا، وكفى بـه — من العلـم طـوْداً فـوق أطـواده الشُّمّ
لـه نظـر في غـامض العلـم نـافـذ — ورأي سـديـد لا يحوم على الـوهم
إذا مـا نحـا في العلم قتـل عـويصة — رمـاهـا بسهم من فطـانتـه مُصِمي

أمجد الزهاوي

الفقيه العالم الشيخ أمجد بن محمـد سعيد بن محمد فيضي الزهـاوي. كان أبوه الشيخ محمد سعيد مفتياً لبغداد، خلف في ذلك المنصب أباه محمد فيضي سنة ١٨٩١.

ولـد أمجد الـزهـاوي ببغداد في سنـة ١٨٨٢، ودرس على أبيـه وعلى عبـاس حلمي القصاب وغلام رسول الهندي وسائر علماء عصره. ثم شـدّ الرحال إلى استانبول وانتمى إلى مدرسة القضاة فتخرّج فيها سنة ١٩٠٩. وعاد إلى بغداد فأسندت إليه رئاسة محكمة الاستئناف على العهد العثماني.

زاول المحـاماة، ثم عيّن مشـاوراً حقـوقياً لـدائرة الأوقـاف (أول حزيـران ١٩٢٠)، وخلف أباه في التدريس بالمدرسة السليمانية. وقام بالتدريس أيضاً في مدرسة الحقوق، وألقى فيهـا محاضرات في المجلّـة والفـرائض جمعت في كتـاب الـوصـايـا والفـرائض (١٩٢٥). وعيّن في ١٨ أيلـول ١٩٣٣ رئيساً لمجلس التمييـز الشرعيّ السنّي، فقضى في منصبه نحواً من ١٣ عاماً واعتزل الخدمة في صيف ١٩٤٦.

كان معجبـاً بالإمام الغـزالي مفضّلاً له. وجاور في المدينـة المنوّرة أمداً بعـد ثورة تموز ١٩٥٨، ثم عاد إلى بغداد وتوفّي بها في ١٧ تشرين الثاني ١٩٦٧.

قال إبراهيم الـدروبي في كتابه «البغداديون: أخبـارهم ومجالسهم» إن أمجد الزهاوي قد نال مكانة سامية في العالم الإسلامي وانتخب رئيساً للمؤتمر الإسلامي العام. وجاب الأقطـار العربيـة وغيرها داعيـاً إلى الإصـلاح والتضامن الـدينيّين ومنـافحاً عن قضيـة فلسطين والجزائر. وقـد عاش عيشـة الزهـد والتقشّف والورع، وعـرف بسعة الاطـلاع والتبحّر في العلوم العقلية والنقلية.

وكـان أمجد الزهـاوي متشدّداً، قـال عبـود الشالجي إنـه كان يحرّم التبغ والتـدخين لاعتقاده بأنه تبذير مخلّ بصاحبه.

حمدي الأعظمي

العالم الفقيه الحقوقيّ الحاج حمدي الأعظمي، وهو ابن الملا عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن خضر العبيدي. ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد في أيلول ١٨٨٢، ودرس في المدرسة الرشدية، ثم حضر دروس نعمان الألوسي وعبد الرزاق الأعظمي ومحمد سعيد النقشبندي ومعروف البشدري وغيرهم من علماء عصره. وانتمى بعد ذلك إلى مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩١٢.

عمل في التعليم منذ آذار ١٨٩٨ في مدارس الأعظمية وبعقوبا. وبعد زيارة للأستانة سنة ١٩٠٧، عاد معلماً في العمارة وبغداد. وعيّن سنة ١٩١٢ مديراً للمدرسة الأنموذجية، فمدرساً بالمدرسة السلطانية (١٩١٤) إلى احتلال بغداد سنة ١٩١٧. وكان علاوة على ذلك عضواً في مجلس المعارف.

عيّن على أثر احتلال بغداد مدرساً بمدرسة الإمام الأعظم (١٧ نيسان ١٩١٧) ومدرساً بدار المعلمين (آب ١٩١٧) ومدرسة الهندسة (شباط ١٩١٨). ثم نقل مفتشاً للأوقاف (أيلول ١٩١٨) فمديراً لأوقاف بغداد (١٩١٩) حتى استقال في نيسان ١٩٢٣، وزاول المحاماة.

وعاد إلى دائرة الأوقاف سنة ١٩٢٤ مديراً للأملاك فمديراً للواردات. وأوفد في أيلول ١٩٢٦ إلى تركيا لاستنساخ القيود الوقفية، وكان معه عبد الحميد الباجه جي. ثم عيّن مدوناً قانونياً في وزارة العدلية في آذار ١٩٢٨، فظلّ في وظيفته إلى سنة ١٩٤٣ حين اعتزل الخدمة. وعهدت له في تشرين الثاني ١٩٣٨ إدارة دار العلوم العربية والدينية بالوكالة خلفاً لفهمي المدرّس. ثمّ عيّن عميداً لكلية الشريعة (١٩٤٦ ــ ١٩٥٣). واختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣.

وقد درّس الأحوال الشخصية في كلية الحقوق أعواماً طويلة، ووضع مؤلفات عديدة، منها: الدرّ المنتقى (١٩٠٧) مرقاة العقائد (١٩٠٧) خلاصة الهندسة (١٩١١) زبدة الحساب (١٩١١) علم الكلام (١٩١١) المحاضرات في الأحوال الشخصية (١٩٣٥) مذكرات في أصول الفقه (١٩٣٨) خلاصة المحاضرات في علم الكلام (١٩٤١) علم العقائد (١٩٤١) غاية المرام في عقائد أهل الإسلام (١٩٤٨) تاريخ الفقه الإسلامي (١٩٤٩) المرشد إلى أصول الفقه (١٩٥٤) أصول الفقه (١٩٥٤) إلخ. وله عدا ذلك فهارس للقوانين ومحاضرات ومقالات في شتى الصحف والمجلات. وقد وقف خزانة كتبه وجعلها مكتبة عامة في قصبة الأعظمية (١٩٦٢).

وقد توفّي حمدي الأعظمي ببغداد في ١٤ آذار ١٩٧١ بعد مرض طويل.

محمد سعيد الراوي

محمد سعيد بن عبد الغني بن محمد بن حسين بن عبد اللطيف الراوي ولد في عانة سنة ١٨٨٣ في بيت علم وورع. ودرس على والده. ثم جاء إلى بغداد وأخذ العلم عن شيوخها كيوسف العطا ومحمد سعيد التكريتي وعباس حلمي القصاب وعبد الوهاب النائب ومحمود شكري الألوسي وغيرهم.

وتوفي والده سنة ١٩٠٦ فخلفه مدرساً في جامع خضر الياس، ثم عيّن خطيباً بالتكية الخالدية وإماماً في جامع الشيخ معروف الكرخي. وانتخب عضواً بالمجلس العمومي لولاية بغداد، فلما احتلها الإنكليز اعتقلوه وأرسلوه أسيراً إلى الهند.

وعيّن بعد إطلاق سراحه مدرساً في دار المعلمين الابتدائية (١٩٢١) فأستاذاً بجامعة آل البيت (١٩٢٤)، ، وتولى تحرير المجلة التي أصدرتها باسم «الجامعة» (آذار ١٩٢٦). ثم نقل مدرساً في المدرسة الثانوية المركزية. وعيّن بعد ذلك نائب عضو ورئيساً لكتاب مجلس التمييز الشرعي السنّي في بغداد (كانون الأول ١٩٢٨)، فظلّ في منصبه إلى وفاته في بغداد في ١٥ شباط ١٩٣٦.

من مؤلفاته: شرح مجلة الأحكام العدلية (١٩٢٤) وكتاب معلّم الفرائض (١٩٢٥) والمعلومات الدينية للمدارس الابتدائية. وله أيضاً خطب ومواعظ وشعر، وبحوث ومقالات في تاريخ العراق ومعاهده ومساجده ومساجلات مع مؤرخي عصره في هذا الباب.

قال في أسره:

لعمرك ما حال الفتى بعد سجنه	وتقييده في الأسر يمسي ويصبح؟
حنانيك لو أبصرتنا لرأيتنا،	ونحن سكوت، حالنا لك يفصح
نطأطىء رأساً ما رأى غير رفعة	ونخضع للأدنى وما ثمّ مفلح
بقفر بأرض الهند بين وحوشها	أصاغر في ذلّ الأسارة نسرح

عبد الكريم الزنجاني

الشيخ عبد الكريم الزنجاني من علماء النجف وفقهائها المعروفين، ولد في النجف سنة ١٨٨٧. ودرس على مشايخها وعلى الشيخ كاظم اليزدي وأجيز بالاجتهاد (١٩١٤). وانصرف إلى التدريس والتأليف، حتى توفي في ١٠ أيلول ١٩٦٨.

وضع مؤلفات كثيرة منها: جامع المسائل في الفقه، دروس الفلسفة (في جزءين ١٩٤٠ ـ ٦٢)، طريق النجاة، برهان إمامة ووحي وإلهام (بالأوردية ١٩٣٥) مسائل

شرعية (بالفارسية ١٩٥٧) ابن سينا خالد بآثاره وخصاله (١٩٥٢) ذخيرة الصالحين، الفقه الأرقى في شرح العروة الوثقى (١٩١٤)، محاضرات (١٩٤٦) المثل العليا (١٩٤٦)، صفحة من رحلة الإمام الزنجاني وخطبه في الأقطار العربية والعواصم الإسلامية (جزآن ١٩٥٦ ـ ٥٧) الوحدة الإسلامية (١٩٦١) الكندي خالد بفلسفته (١٩٦٢) الإعداد الروحي للجهاد الإسلامي في فلسطين (١٩٦٧) إلخ.

عرف الزنجاني بروحه الإصلاحية وسعيه في سبيل توحيد كلمة الإسلام. وقد رحل إلى الأقطار الإسلامية وطوّف بها يخطب ويكتب للدعوة إلى آرائه سنة ١٩٣٦، ثم عاد إلى مسقط رأسه منقطعاً للتدريس والتأليف.

محمد جعفر الحسيني

ولد محمد جعفر الحسيني الحائري في كربلاء سنة ١٨٨٣ ودرس الفقه وعلوم الدين. عيّن قاضياً جعفرياً في البصرة في شباط ١٩١٩، وظلّ في منصبه حتى انتخب نائباً عن لواء البصرة في أيار ١٩٢٨ إلى تموز ١٩٣٠. ومارس المحاماة بعد ذلك في البصرة.

وقد توفي سنة ١٩٥٧.

من مؤلفاته: الزلال المرشوف في وضع الأسماء والحروف (١٩٣٠) قلائد اللآلىء (١٩٢٩) مرآة الفقاهة (١٩٢٩).

الكردينال أغناطيوس جبرائيل تبّوني

من أمراء الكنيسة الكاثوليكية، ولد أغناطيوس جبرائيل تبوني في الموصل في ٣ تشرين الثاني ١٨٧٩ وانتمى إلى السلك الكهنوتي، فرسم راهباً سنة ١٩٠٢. وقد أقيم نائباً بطريركياً عاماً في ماردين في كانون الثاني ١٩١٣، وأصبح رئيساً لأساقفة حلب في شباط ١٩٢١.

انتخب بطريركاً على أنطاكية للطائفة السريانية في ٢٤ حزيران ١٩٢٩، ورفّعه البابا إلى مرتبة الكردينال في ١٦ كانون الأول ١٩٣٥، وكان أول شرقي ينال هذه المنزلة.

وقد توفي في ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٨. وضع رسائل ومصنفات دينية باللغتين العربية والسريانية.

وهو ليون بن داود بن بطرس تبّوني، ووالدته أمينة بنت سليمان زبوني من أسرة السيد أقليميس يوسف داود (١٨٢٩ ـ ١٨٩٠) مطران دمشق والباحث المؤلف باللغات العربية والفرنسية والآرامية.

أغناطيوس افرام برصوم

من علماء التاريخ والمباحث الشرقية مار اغناطيوس افرام الأول بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، وهو ابن اسطيفان برصوم. ولد في الموصل في ٥ حزيران ١٨٨٧ وانتمى سنة ١٩٠٥ إلى المدرسة البطريركية بماردين فتخرّج فيها واتّشح بثوب الرهبنة (١٩٠٧). وقام بسفرة إلى الأقطار الأوروبية سنة ١٩١٣ فزار خزائن الكتب.

انتخب مطراناً للأبرشية السورية سنة ١٩١٨. وأوفد في السنة التالية إلى أوروبا قاصداً بطريركياً بعد أحداث الحرب العامة، ثم أرسل قاصداً بطريركياً إلى أميركا سنة ١٩٢٧ لتفقد الجاليات السريانية فيها. وقد انتخب بطريركاً للسريان الأرثوذكس في حمص وتم تنصيبه في ١٢ شباط ١٩٣٣.

كان يحسن اللغات العربية والسريانية والفرنسية وشيئاً من التركية والإنكليزية. وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي بالشام سنة ١٩٣٣. ووضع مؤلفات وبحوثاً كثيرة منها: الألفاظ السريانية في المعاجم العربية (١٩٤٨ ـ ٥١)، تاريخ دير الزعفران (١٩١٧)، تاريخ الكنيسة (١٩٤٠)، تاريخ الآداب السريانية (١٩٤٣)، قيثار القلوب (١٩٥٤)، مار أنطون التكريتي (١٩٣١)، مزارع الجزيرة (١٩٥٥)، نوابغ السريان في اللغة العربية الفصحى (١٩٣١) إلخ.

وقد توفي في ٢٣ حزيران ١٩٥٧.

قال الأب يوسف سعيد: «... فكان البطريرك مؤرخاً قديراً ومحاضراً طويل النفس، وشاعراً يتحسّس المرء في كل بيت من قصائده أنفاس الشرق، وبحاثة ذو جلد عجيب».

وذكره رفائيل بطي فقال إنه بطريرك عراقي يكتب بلغة قسّ بن ساعدة.

محسن الطباطبائي الحكيم

مرجع الشيعة الإمامية الأكبر في عصره، السيد محسن بن مهدي الطباطبائي الحكيم. كان أبوه مهدي بن صالح بن أحمد بن محمود الطباطبائي الحكيم النجفي من الفقهاء المعروفين، ألّف «تحفة العابدين» و «معارف الأحكام»، وتوفي بجبل عامل في نحو سنة ١٨٩٤.

ولد محسن الحكيم في بلدة بنت جبيل في لبنان سنة ١٨٨٩ ونشأ في النجف ودرس في معاهدها وكان من أساتذته محمد كاظم الخراساني وضياء الدين العراقي ومحمد حسين النائيني وعلي باقر الجواهري. وانضمّ إلى المجاهدين في جنوبيّ العراق سنة ١٩١٥ بزعامة محمد سعيد الحبوبي وهادي مكوطر.

واصل التدريس والتأليف وبرزت شهرته الروحية حتى انفرد بزعامة الشيعة في العراق وإيران وسائر الأقطار بعد وفاة السيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني سنة ١٩٤٦ . وعرف بسعة علمه وزهده وتواضعه وبعده عن التعصّب .

وقد وضع مؤلفات، منها : مستمسك العروة الوثقى (في الفقه، ١٢ مجلداً)، منهاج الصالحين (في جزءين ١٩٤٨)، شرح كتاب المراح (في الصرف) توضيح المسائل (١٩٦٢)، حقائق الأصول (في جزءين ١٩٥٤)، دليل الحاج، دليل المناسك (١٩٥٩) ، شرح الكفاية (في جزءين)، الصلاة، المسائل الدينية، منتخب الرسائل (بالفارسية)، منهاج الناسكين (١٩٤٨) نهج الفقاهة (١٩٥٣)، إلخ .

توفّي ببغداد في أول حزيران ١٩٧٠ .

أصدر السيد محسن الحكيم في شباط ١٩٦٠ فتوى ندّد فيها بالشيوعية وعدّها مخالفة لروح الإسلام .

لكنه على أثر تولي حزب البعث مقاليد الحكم في العراق سنة ١٩٦٨ واضطهاده لبعض العناصر الشيعية، سئل أن يدعو أبناء الشيعة إلى الإضراب أو أن يتخذ إجراءات أخرى ملائمة، فرفض قائلاً إنه رجل دين لا رجل سياسة .

قال حسن العلوي في كتابه «الشيعة والدولة القومية في العراق» (١٩٩٠) إنه يمكن اعتبار عهد الحكيم واحداً من أصعب عهود المرجعية الشيعية .

شهد الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ فأفتى بدعم نضالها في أثناء العدوان على بور سعيد .

وشهد ثورة العراق سنة ١٩٥٨ فأفتى بنصرتها . وقامت الثورة الكردية فأفتى بتحريم قتال الأكراد المسلمين .

ظهر قانون الإصلاح الزراعي والقطاع الاشتراكي فأفتى بحرمة الصلاة في الأراضي المغتصبة وحرمة التعامل مع بضائع المصانع المغتصبة أيضاً . وطلب من رئيس الوزراء طاهر يحيى أن تنظر الحكومة إلى مختلف أبناء الشعب نظرة واحدة دون تمييز أو تفريق بين قومياتهم أو مذاهبهم . وطالب بتأكيد حقيقة العراق الإسلامية وروحه العربية وتراثه الرفيع .

وقد أصدر السيد محسن في ١٢ شباط ١٩٦٠ فتوى بعدم جواز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإنّ ذلك كفر وإلحاد وترويج للكفر والإلحاد .

نجم الدين الواعظ

نجم الـدين بن السيد عبـد الله الواعظ، ولـد في بغداد سنـة ١٨٨١، ودرس علوم العـربية والـدين على عبـاس حلمي القصـاب وغلام رسـول الهنـدي الأنصاري وعبـد الوهاب النائب. وعيّن مدرساً لجامع العادلية سنة ١٩٠٤، فلبث أعواماً طويلة يدرّس فيه وفي مدرسة نائلة خاتون وجامع حنان وجامع القبلانية.

وقد عيّن مدرسـاً في دار العلوم الدينية والعربيـة سنة ١٩٣٤، وخلف الشيخ قاسم القيسي مفتياً لبغداد عند وفاته سنة ١٩٥٥.

لـه مؤلفـات منها: غـاية التقـريب (في الأصـول) وبغية السـائل في شرح منظومـة العوامل للشيخ عبد الوهاب النائب، الدين الحنيف (١٩٥٤) إلخ.

ونجم الدين الواعـظ من رجال الدين الذين يقرنـون العلم الغزير بالأخـلاق الرفيعة والدعوة إلى الإصلاح والتسـامح بالرغم من موقفه الشديد سنـة ١٩٢٥ ضد دعاة تحرير المرأة.

وقد توفي ببغداد (الأعظمية) في ٧ شباط ١٩٧٦.

أبو عبد الله الزّنجاني

العالم الإسلامي المصلح أبو عبد الله بن عبد الرحيم بن نصر الله ولد في زنجان شمالي إيران في ١٥ كـانون الأول ١٨٩١. وارتحل إلى النجف فدرس على كـاظم اليزدي وشيخ الشريعة الأصفهاني وحسين النايبني. ثم درس الفلسفة في طهران.

دعا إلى الإصلاح الديني وتوحيد الكلمة وعقد الصلة بين المذاهب الإسلامية، فقام برحلات إلى الشام والأردن وفلسطين ومصر والحجاز، ثم قفل عائداً إلى زنجان. ورحل ثـانيـة إلى مصر سنـة ١٩٣٤، وعرّج على دمشق. وانتخـب عضواً مـراسـلاً بـالمجمع العلمي العربي في الشام.

وقد توفّي في ٢٣ تموز ١٩٤١.

من مـؤلفاتـه: تاريخ القـرآن (١٩٣٥) بقاء النفس بعـد فساد الجسـد، الفيلسوف الفارسي صدر الـدين الشيرازي، طهارة أهل الكتاب (١٩٢٧) عظمـة الحسين (باللغة الفـارسيـة)، أصـــول القـــرآن الاجـــتماعية، فلسفـة الحجـاب (١٩٢٤) رسـالـة في التصوّف.

الشيخ كمال الدين الطائي

محمد كمال الـدين بن الشيخ عبد المحسـن آل بكتاش الطائي، من علماء الـدين. كان أبوه مدرس جامع المصرف وخطيب جـامع علي أفندي، ولد في بغداد سنة ١٨٥٧ وتوفي سنة ١٩٤٥. وقد وضع تآليف في المنطق وعلم الكلام والتصوف.

ولد كمال الدين في بغداد سنـة ١٩٠٣ ودرس في المدارس الرسمية التركية، ثم سلك مسلك التحصيل الديني على كبار العلماء. عيّن إمامـاً في جامع منوّرة خاتون، واختير محاضراً في دار العلـوم العربيـة والدينيـة سنـة ١٩٣٢. وكان واعظـاً في عدة جـوامع، واشترك في تأسيس جمعيات خيريـة ودينية، منها جمعية الشبـان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية ونادي الإرشاد.

تولى تحرير المجـلات التي أصدرتها جمعية الهداية الإسلاميـة: الهداية (أيار ١٩٣٠) وصـدى الإسلام (كـانـون الأول ١٩٣٠) والصراط المستقيم (١٩٣١) وتنـوير الأفكـار (١٩٣٢) والاعتصام (١٩٣٢) والكفـاح (١٩٣٤) ولسان الهدايـة (١٩٣٥). وأصدر مجلة دينيـة بإسم الـذكرى (١٩٣٥) ورئس تحريـر مجلة الـراية لصـاحبها نهاد الـزهاوي (١٩٣٦).

اعتقل في تشرين الثاني ١٩٤١ وأبعد إلى العمارة والفاو. وفي أيلول ١٩٤٧ تولى رئاسة تحرير مجلة الكفاح لجمعية الآداب الإسلامية، وقـد عادت هذه المجلة إلى الصدور سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩. ووضع مـؤلفات شرعيـة وأدبية، منها الـذكرى المحمـدية (في عشرة أجزاء، ١٩٣٢ ـ ١٩٤١)، الفقر في الإسلام، إلخ.

توفي في بغداد في ١٢ آب ١٩٧٧.

محمد باقر الصدر

المجتهد الإمـامي ذو النظرة العصريـة والنزعة الإصـلاحية السيد محمـد باقـر حيدر الصدر ينتمي إلى الأسرة المعـروفة في الكاظمية التـي شهدت مولده سنـة ١٩٣٥. توفي والده وعمره لا يتجاوز الأربع سنوات. وقد درس العلـوم العربية والدينية في الكاظمية والنجف، وكـان من أسـاتـذتـه السيـد محسن الحكيم ومـرتضى آل يـاسين وإسماعيل الصـدر. ونال درجـة الاجتهاد، فأكبّ على التـأليف والإرشاد. وأنشأ حـزب الدعـوة الإسـلاميـة في النجف سنـة ١٩٥٧. واعتقل في النجف لمعـارضتـه لحكم البعث في ٥ نيسان ١٩٨٠ ونقل إلى بغداد واغتيل شهيداً بعد ثلاثة أيام (٨ نيسان ١٩٨٠).

حدّد في أواخر أيام حياته المهام العاجلة للمعارضة العراقية ولخّصها بأربع مهامّ:

١ ـ إسقاط نظام صدّام حسين والنضال في سبيل ذلك داخل العراق وخارجه.

٢ ـ إعادة السلطة للشعب ومنحه الفرصة الكاملة للتعبير عن رأيه .

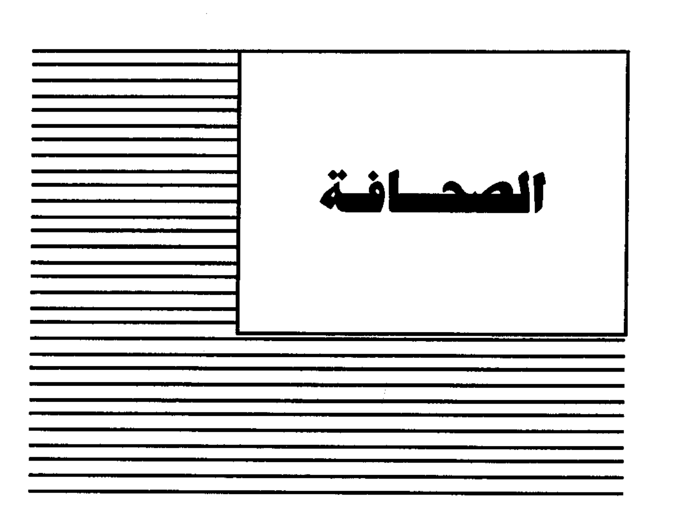
٣ ـ تحقيق وحدة الكفاح بين قوى المعارضة والشعب وتوحيد الكلمة .

٤ ـ إقامة نظام يعبّر عن إرادة الشعب ويحقق له الكرامة .

وضع محمد باقر الصدر مؤلفات كثيرة طبعت في النجف وبيروت والكويت، منها : غاية الفكر في الأصول (١٩٥٥) فدك في التاريخ (١٩٥٥) فلسفتنا (١٩٥٩) اقتصادنا (جزآن، ١٩٦١ ــ ١٩٦٨) ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي، المعالم الجديدة للأصول (١٩٦٥) المدرسة الإسلامية (جزآن، ١٩٦٥) الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية (١٩٦٥) البنك اللاربوي في الإسلام (١٩٦٩) الأسس المنطقية للاستقراء، إلخ .

قال لي عبد الهادي الجلبي : لو طال به الزمان لاجتهد اجتهادات كثيرة تتفق مع روح العصر.

وقال الدكتور محمد بحر العلوم إنّ محمد باقر الصدر «قاد الثورة الإسلامية في العراق في السبعينات وأعطى من نفسه لها كأي قائد رسالي الغالي والنفيس، وكان آخرها حياته الغالية وحياة أخته الطاهرة المجاهدة بنت الهدى». وقال إنه كان رائداً فذاً للحركة العلمية الدينية في النجف وكربلاء وقم وخراسان وغيرها من مراكز المرجعية الإمامية. ورأى أن الطليعة من أبناء الأمة في العراق بحاجة إلى توعية إسلامية ثورية وبناء جيل يتحمل مسؤوليته الدينية والتاريخية في رسم خط إسلامي فكري هادف ينقذ الأمة من التذبذب وعدم الرسوخ في المعتقد والالتزام في العطاء العلمي بما يتناسب وحاجة الظرف المُعاش. ولذلك كان لعطائه المتجسّد في مؤلفاته من تفسير وفقه وأصول وفلسفة واجتماع واقتصاد الأثر الكبير في خلق طبقة علمية رائدة . . .



الصحافة



داود صليوا

من قدماء رجال التعليم والصحافة، المعلم داود صليوا ابن الشمّاس يوحنّا صليوا ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٥٢، وفقد حنان الأمومة طفلاً. درس في المدرسة الكلدانية، ثم تلقى اللغة العربية وآدابها على المطران ميخائيل نعمو ويوسف باشعالم والبطريرك عبد يشوع خياط. وعيّن وهو بعد صبيّ معلماً في مدرسته، ثم عهد إليه بإدارتها فأمضى في تلك المهمة أربع سنوات.

وانتقل إلى بغداد سنة ١٨٧٤ وزاول التعليم في المدارس الأهلية ثلاثين عاماً. ثم أعلن الدستور في البلاد العثمانية وأطلقت حرية الصحافة، فأصدر جريدة «صدى بابل» في ١٣ آب ١٩٠٩، وقد اشترك في إصدارها معه في بادىء الأمر يوسف رزق الله غنيمة. وأصدر بعد ذلك مجلة فكاهية روائية نصف شهرية باسم «الغرائب» (شباط ١٩١٣) نشر منها ١٢ عدداً.

نشبت الحرب العامة وخاضت تركية غمارها، فنفي داود صليوا مع الأب أنستاس الكرملي وعبد الحسين الأزري وغيرهما إلى قيصرية الأناضول، حيث قضى قرابة السنتين (١٩١٤ـ١٩١٦).

وقد فقد بصره في أعوامه الأخيرة، وقضى نحبه ببغداد في ٤ تشرين الثاني ١٩٢١.

وضع رسالة في ترجمة الوالي ناظم باشا (١٩١٣) وألف كتباً في الصرف والنحو والمنطق واللغة العربية. ودعا في جريدته إلى استعمال العربية في العراق في الشؤون الرسمية بدلاً من التركية، ونادى بأهمية الصحافة في تثقيف أبناء الشعب وإصلاح أمور البلاد ونشر العلم والأدب وشدّ وثاق الروابط الإنسانية. ونظم شعراً في التهنئة والمديح، كقوله:

غرست لكم في المدح ما اخضرّ روضه ... وألقت إليه الزُّهْر عقداً من الزهر
وسطّرت في خدّ الزمان حقيقة ... ملخّصها فخر يدوم على فخر
لقد جمع الله المحاسن فيكم ... كما جمع الأضواء في مطلع الفجر

سليمان الدخيل

الكاتب الصحفي المؤرخ سليمان الدخيل وهو ابن صالح بن دخيل بن جار الله النجدي، ولد في القصيم من أعمال نجد سنة ١٨٧٣ . وقدم إلى بغداد فتتلمذ على محمود شكري الألوسي. وقد طاف في بلاد العرب والهند، وكان واسع الاطلاع على أحوال الجزيرة العربية والخليج وعادات العرب وأخبارهم.

أصدر في بغداد جريدة أسبوعية باسم «الرياض» (٧ كانون الثاني ١٩١٠)، أعانه على إصدارها عمه الشيخ جار الله الدخيل، وكان وكيل الأمير ابن رشيد وصاحب تجارة واسعة مع نجد وجزيرة العرب. وكان إبراهيم حلمي العمر محرراً لهذه الجريدة. ثم أصدر سليمان الدخيل وإبراهيم حلمي مجلة بإسم «الحياة» (كانون الثاني ١٩١٢) احتجبت بعد صدور أربعة أعداد.

نشبت الحرب العامة وخاضت الدولة العثمانية غمارها فشرّدت رجال الفكر وأصحاب الأقلام، وفرّ سليمان الدخيل إلى نجد. وعاد بعد الحرب إلى بغداد فعين قائممقاماً لقضاء عانة في نيسان ١٩٢١ . ثم عيّن مديراً لناحية بلد في كانون الثاني ١٩٢٣ ، ونقل إلى المحمودية فالكوفة (حزيران ١٩٢٥) وكان وكيل قائممقام الجبايش في كانون الأول من تلك السنة. ثم عاد إلى الصحافة في كانون الأول ١٩٣١ رئيساً لتحرير جريدة «جزيرة العرب» الأسبوعية لصاحبها داود العجيل، ولم تستقم سوى ثلاثة أشهر.

ورجع إلى الوظيفة بعد ذلك فكان مديراً للتحرير في لواء كربلاء (١٩٣٤) فالناصرية (آب ١٩٣٨). وتوفي ببغداد سنة ١٩٤٥ .

كتب سليمان الدخيل مقالات عن الجزيرة العربية في مجلة لغة العرب وغيرها. وألف: القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد (١٩٦٦) الوهابية (١٩١٤) العقد المتلألىء في حساب اللآلىء، تحفة الألباء في تاريخ الاحساء (١٩١٣). ومن الكتب التي قام بنشرها: عنوان المجد في تاريخ نجد (١٩١٠) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (١٩١١)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (١٩١٤).

وكان أبوه الشيخ صالح بن دخيل بن جار الله النجدي من رجال العلم كتب بحوثاً في مجلة المقتطف المصرية في الدفاع عن المذهب الوهابي وذلك في السنوات الأولى من القرن العشرين.

محمد كامل الطبقجلي

ينتمي إلى الأسرة البغدادية المعروفة. أصدر في ٦ كانون الأول ١٩٠٩ جريدة عربية

تركية باسم «بين النهرين». كان ائتلافياً مناوئاً للاتحاديين، فلما اغتيل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا في استانبول سنة ١٩١٣، أقام الأفراح في داره ثلاثة أيام ابتهاجاً بمقتله ـ على ما حدّثني به سامي خوندة. واعتقل على أثر ذلك في حزيران من تلك السنة. ثم رأى استفحال سلطة رجال الاتحاد والترقي فغادر بغداد ناجياً بنفسه إلى الهند، وأقام في بمبي.

قال سامي خوندة إنه كان يصدر جريدة «الرافدين» سنة ١٩٢١ فإذا برجل يدخل عليه في الإدارة، وكان معتمراً الطربوش ولابساً السّراويل الهندية والجلباب، وعرّف نفسه بأنه محمد كامل الطبقجلي. رحّب به سامي، فقال الرجل: لقد قمنا بواجبنا تجاه الترك، فعليكم، يا أولادي، أن تواصلوا جهادكم ضد الإنكليز وتستخلصوا حقوق الشعب منهم.

وعاد محمد كامل إلى الهند ثانيةً وأدركه الحمام فيها.

وهو والد الزعيم ناظم الطبقجلي الذي اشترك في حركة العقيد عبد الوهاب الشوّاف في الموصل سنة ١٩٥٩ وأعدم معه على عهد الزعيم عبد الكريم قاسم.

داود نيازي

من رجال الصحافة القدماء، مارس داود نيازي المحاماة في البصرة وأصدر فيها، على أثر إعلان الدستور العثماني، جريدة عربية تركية باسم «الفيض» (أيار ١٩١٠). وقد ظلّ يصدر جريدته حتى انتحر في نيسان ١٩١١.

قاسم جلميران

من قدامى رجال الصحافة، موصليّ المنبت، كان من ذوي الأملاك في البصرة. أصدر فيها جريدة «إظهار الحق» باللغتين العربية والتركية في أول حزيران ١٩٠٩، وعهد بتحرير القسم العربي إلى الشاعر عبد القادر العبادي.

وقد اغتاله فلاحوه في نيسان ١٩١٠.

فتح الله سرسم

فتح الله بن جرجيس سَرْسَم ولد في الموصل سنة ١٨٧٥ وتعلم اللغات العربية والتركية والفرنسية. عيّن عضواً بمحكمة البداءة سنة ١٩٠٥، فعضواً بمجلس إدارة الولاية ومحكمة الاستئناف.

ولما أعلن الدستور العثماني أصدر جريدة أسبوعية في الموصل باللغتين العربية والتركية باسم نينوى (١٥ تموز ١٩٠٩)، وكان مديرها المسؤول محمد أمين الفخري. وعاد بعد ذلك عضواً بمجلس الإدارة (١٩١٢) فعضو مجلس الولاية العام (١٩١٤ ـ ١٩١٨).

واحتلّ البريطانيون الموصل سنة ١٩١٨ فعينوه عضواً بالمجلس البلدي (١٩٢٠) فعضواً بمجلس الإدارة ونائب متصرف لواء الموصل (١٩٢١). وانتخب نائباً عن اللواء المذكور في المجلس التأسيسي العراقي سنة ١٩٢٤. وقد توفي في سورية في تشرين الثاني ١٩٢٧.

كانت له عناية بالمخطوطات ولا سيّما ما يتعلق منها بالموصل وتاريخها.

ولده: متّى فتح الله سرسم أصدر في الموصل جريدة «فتى العراق» (١٩٢٩) و «الإخلاص» (١٩٣٠) فجريدة «البلاغ» (١٩٣٠) وانتخب نائباً عن الموصل في حزيران ١٩٣٩، وأعيد انتخابه في آذار ١٩٤٧ وظلّ نائباً إلى ثورة تموز ١٩٥٨.

عبد الوهاب الطباطبائي

ينتمي إلى أسرة بصريّة قديمة حسنيّة النسب، وهو عبد الوهاب بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجليل الطباطبائي. كان جدّه عبد الجليل شاعراً فقيهاً معروفاً في عصره ولد في البصرة سنة ١٧٧٦ وارتحل إلى البحرين فالكويت حيث أدركه الحمام سنة ١٨٥٤.

وقد ولد عبد الوهاب في الكويت سنة ١٨٧٥ ودرس على علمائها. ثم جاء إلى البصرة فأتم دراسة الأدب واللغة وعلوم الدين. ولازم السيد طالب النقيب وزار معه مصر والأستانة، والتحق بالجمعية الإصلاحية التي أسّسها قبيل الحرب العامة. وراسل جريدة المؤيد المصريّة لصاحبها الشيخ علي يوسف.

وحرّر جريدة «الدستور» التي أصدرها في الثغر عبد الله الزهير في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٢. وأصدر بعد ذلك جريدة «صدى الدستور» باللغتين العربية والتركية في ٢٥ أيلول ١٩١٣، فظلت تصدر إلى احتلال البصرة في كانون الأول ١٩١٤.

وعيّن على أثر تأليف الحكومة العراقية مديراً لناحية الزبير (كانون الثاني ١٩٢٣)، ثم أصبح رئيساً لكتاب بلدية البصرة في سنة ١٩٢٩. واعتزل الخدمة سنة ١٩٤٩. وله مقالات كثيرة في الصحف.

وقد توفي في البصرة في تموز ١٩٥٧.

أخوه عبد المحسن بن عبد الله الطباطبائي (١٨٨١ ـ ١٩٢١) ولد في الكويت ونشأ

في البصرة واشترك مع أخيه عبد الوهاب في تحرير جريدة الدستور. وكان كاتباً أديباً وشاعراً ينظم بالفصحى والعامية، ويعمل في التجارة.

علي الجميل

الصحفي الأديب علي الجميل ولد في الموصل سنة ١٨٩٠، ودرس في المدارس الدينية. ووظف كاتباً في المحكمة الشرعية بمسقط رأسه (١٩١٠)، ثم انتقل إلى دائرة الأوقاف. وظهر ميله إلى الكتابة، وهو في عنفوان الشباب، فنشر مقالاته في جريدة «النجاح» الموصلية لصاحبها خير الدين العمري وراسل جريدة «المصباح» التي أصدرها عبد الحسين الأزري في بغداد قبيل الحرب العظمى. وتولّى تحرير القسم العربي في جريدة «الموصل» الرسمية والترجمة في مطبعة الولاية. وألف: التحفة السنية في المشايخ السنوسية (١٩١٣).

مضى إلى حلب طلباً للاستشفاء من مرض ألمّ به، فلما عاد إلى الموصل، زاول أعمال والده التجارية، ثم عيّن رئيساً لكتّاب غرفة تجارة الموصل. وأنشأ جريدة «صدى الجمهور» سنة ١٩٢٧ نصف أسبوعية واستمرّ على إصدارها إلى وفاته. وقد توفّي في حلب في أول تشرين الأول ١٩٢٨ ونقل جثمانه إلى الموصل ودفن بها.

كان شاعراً أديباً رقيق الحاشية، حاضر النكتة، سريع البديهة، عرفه إبراهيم الواعظ في أثناء إقامته بالموصل سنة ١٩١٧/١٩١٨ وتوثقت صلته به وحصلت بينهما مطارحات شعرية ونثرية. فمما قاله علي الجميل يهنىء الواعظ بعيد الأضحى:

يميناً بربّ البيت والليل إذ يسري، بك ابتزّ قدّ العيد في حلل الفخر
تكامل حسناً من معانيك سعده فأضحت به الأيام باسمة الثغر
وأبدى من الإقبال ما أنت أهله وقد جاء للتبريك، يا طلعة البدر
فدم رافلاً بالعزّ والسّعد والبقا حبيباً لكلّ العالمين مدى الدّهر

وقال أيضاً:

لك منّي بين الجوانح قلب صادق الودّ معجب بولائك
وكأنّي به إليك اشتياقاً خافق لا يقرّ دون لقائك

رزّوق غنّـام

شيخ الصحـافة العـراقية في عصره ولـد في بغداد سنـة ١٨٨٢ وتوفي بها في ٢٤ آذار ١٩٦٥ . أصـدر جريـدة «العـراق» سنين عديـدة . وقد تـرجمت لـه في «أعلام اليقظـة الفكرية» .

كـان رزّوق غنـام ، مثل أمين الـريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠) ومـارون عبّـود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢) في لبنان ، مؤمناً بكل جوارحه بالقومية العربية والوحدة العراقية . وكان كثيراً ما يقول إنّ على المسيحيين وسائر الأقليات في العراق أن يؤمنوا بالإسلام أو ، في الأقلّ ، أن يتقاربوا مع الأكثرية المسلمة ويتركوا ضيق أفكارهم الطائفية ليندمجوا ويذوبوا في الوحدة الوطنية الجامعة . وكـان مخلصاً للمبادىء العربية منذ شبابـه حين كان موظفاً في بعض الشركات الإنكليزية العاملة في العراق في العهد التركي . فلما احتلّ الإنكليز العراق كان سهلاً عليه أن يصدر جريدته ويصبح داعية من دعاة القومية العربية ، منضوياً إلى لواء نوري السعيد ورفاقه من رجال الثورة العربية .

وقد قال سلامة موسى : إنّ الإسلام دين بلادي ومن واجبي أن أدافع عنه . وفي سنة ١٩٣٦ قال مكـرم عبيد بـاشا وزيـر المالية المصريـة : أنا مسيحي دينـاً ، ولكنني مسلم بالنظر إلى بلادي المسلمـة . وكان مارون عبّود الأديب الناقد الشهير يـدعو إلى إسلامية مسيحيّي الشرق .

كان رزوق غنام يرى أن الدولة العثمانية التي استعمرت البلاد العربية قروناً طويلة قد وقفت سداً منيعاً في وجهها وحالت دون تقدمها وأخذها بأسباب النهضة الحديثة ودون إبراز شخصيتهـا الأصيلة في مجال الآداب والعلوم . وكـان يضرب مثلاً على ذلك بمصر التي ، حالما انفصلت فعلاً عن جسم الدولة وتولّى أمورها محمد علي باشا سنة ١٨٠٥ ، اتجهت وجهة جديدة نحو النهضة جعلت منها الرائدة في ميدان التقدم بين العرب .

قال إبراهيم صالح شكر يذكـر رزوق غنام (تشرين الثاني ١٩٢٣) إنه أقدر صحافي عرفنـاه في هذه الـديار يعمل على جعل جريـدته في مقدمـة الجرائد العراقيـة . وقال إن ثمـرات جريـدة العراق تنطق لـه بالجهـاد ، وهـذه خدمـة «العراق» لـلآداب العربيـة بإصدارها الأعداد السنوية الممتازة المحتوية على «الجليل والبليد» من آثار أدبائنا . وقال إن سياسة رزوق عربية منذ كان المتبجّحون بالعروبة في صفوف أعدائها الاتحاديين . . .

إبراهيم حلمي العمر

الكاتب الصحفي البارع إبراهيم حلمي العمر ولد في بغداد سنة ١٨٩٠ وتوفي بها في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٢ . فصّلت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية» .

لقيته في دمشق الآنسة جرترود بيلّ التي زارت سورية في تشرين الأول ١٩١٩ في أثناء

حكم الأمير فيصل وقدّمت إلى الحكومة البريطانية تقريراً سرياً عن الوضع هناك والرجال الذين يضطلعون بالحكم، وجلّهم من الضباط العراقيين كنوري السعيد وياسين الهاشمي وجعفر العسكري ومولود مخلص وناجي السويدي إلخ.

قالت إن الصحفي إبراهيم حلمي العمر زارها مراراً، وهو يصدر صحيفة اسمها «لسان العرب». وقالت إن معرفته للّغة العربية ممتازة حتى أن الأب أنستاس ماري الكرملي، وهو خير حكم في هذا الموضوع، حاول استدراجه إلى المجيء إلى بغداد ليعاونه في تحرير الصحيفة العربية التي تصدرها الإدارة البريطانية.

وقالت إن إبراهيم حلمي ميّال إلى بريطانية، وقد نشر في «لسان العرب» عدداً من المقالات المحبّذة للإدارة البريطانية. وتفاوض مع المس بيلّ عن إمكان انتشار جريدته لديها، وقال إن دعوته الصادرة من سورية تكون أكثر نفوذاً مما لو كانت تصدر من مطبعة الحكومة في بغداد. وهو يأمل أن تعضد السلطات صحيفته، وأشار إلى إمكان موافقته على العمل في بغداد «إذا منحناه شروطاً سخيّة». . وختمت كلامها قائلة إنه، ولا ريب، شابّ قدير.

عاد إبراهيم حلمي إلى بغداد فأصدر فيها جريدته «لسان العرب» ثم استعاض عنها بجريدة أسماها «المفيد». وقد غيّر لهجته وصار ينتقد سياسة الانتداب البريطاني وظاهر الحركة الوطنية وتحدث عن المعاهدات والعهود بأنها «قصاصات ورق». . . وقد عطلت جريدته في آب ١٩٢٢ وفرّ إلى إيران.

رجع إلى بغداد سنة ١٩٢٣. ولما لم يمنح امتيازاً لإصدار جريدة، قام صديقه معروف الرصافي باستحصال امتياز جريدة باسم «الأمل» وعهد بتحريرها إليه. أخبرني مصطفى علي أن الرصافي قال لإبراهيم بعد ذلك: إنك تحسن جيداً تعليق الطبل في عنق البعض، ثم تدقّ عليه دقاً عنيفاً!

وأخبرني صبحي البصام أن الشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي سئل أن يرثي إبراهيم حلمي العمر عند وفاته، فقال ارتجالاً:

قالوا: ألا تبكي على مثله؟ ... فقلت: صونوا الدمع عن طيشه

وإنّا لفي دهر وجدنا به ... موت الفتى أفضل من عيشه!

كان إبراهيم حلمي كاتباً قديراً يحمل على الحكومة باسم المعارضة حملات شعواء ناشراً مقالاته غفلاً من التوقيع، ثم يصبح في الغداة فإذا به ينبري للردّ باسم الحكومة على مقاله بالأمس، وهو في كلا المقالين قويّ الحجة ناصع البيان. وقيل إن السيد جمال الدين الأفغاني كان ذا موهبة خاصة في قوة الإقناع، فكان يستطيع أن يأتي بما يدلّ على استحسان الشيء واستهجانه في آن واحد. وسئل في ذلك فقال: إن لكل شيء وجهين، ولكل إنسان صفات طيبة وقبيحة. وإن الحكم على الأشخاص والأشياء إنما

يختلف باختلاف الظروف واختلاف رغبة الناظر وموقفه. فإذا نظرنا إلى الشخص من جهة المحاسن مدحناه، وإذا نظرنا إليه من جهة المساوىء ذممناه.

قاسم العلوي

قاسم السيد خضر العلوي من رجال الصحافة الوطنية في العراق ولد في جانب الكرخ من بغداد سنة ١٨٩٦، ودرس في المدرسة الرشدية العسكرية. ثم قصد الأستانة سنة ١٩١٢ وانتمى إلى المدرسة العسكرية، لكنه تركها عند نشوب الحرب العظمى بعد سنتين والتحق بمدرسة الهندسة.

عاد إلى بغداد في أوائل سنة ١٩١٧. وأنشئت دار المعلمين في حزيران من تلك السنة فعيّن مدرساً بها. ثم عمل مهندساً في دائرة الريّ بمنطقة الفرات الأوسط، وتولّى التدريس في مدرسة الهندسة ببغداد حيناً.

وأصدر عبد الغفور البدري جريدة الاستقلال في أيلول ١٩٢٠ فعهد بتحريرها إلى قاسم العلوي. قال رفائيل بطي في محاضراته عن الصحافة في العراق: «تولّى تحرير (الاستقلال) قاسم العلوي... وأعظم ما صرفت إليه الجريدة جهدها المقال الافتتاحي - وكان العهد عهد مقالات - فكان في الغالب يعالج القضية العراقية ويطالب بفسح مجال الحرية ويبرهن على استعداد الشعب للاستقلال. وقد عنيت الجريدة بمشروع الحكومة العراقية المؤقتة التي كوّنتها سلطة الاحتلال البريطانية تخلّصاً من أزمة الثورة وتمهيداً لتأسيس دولة العراق...» وقد عطلت الجريدة بسبب مقالاتها التي تلهب الشعور الوطني وسجن صاحبها وقاسم العلوي وفريق من كتابها كمحمد مهدي البصير وعلي محمود الشيخ علي (شباط ١٩٢١)، وأفرج عنهم بعد ستة أشهر.

قام بعد ذلك بالتدريس في مدرسة التفيّض والمدرسة الثانوية المركزية، وكان يدرّس الرياضيات وعلم الطبيعة. وفي سنة ١٩٣١ انتمى إلى كلية الحقوق، وتخرّج فيها سنة ١٩٣٤. وزاول المحاماة ثلاثين عاماً حتى سنة ١٩٦٤ حين اعتزل مهنته لمرضه. وأدركه الحمام ببغداد في أول آب ١٩٦٧.

كان كاتباً سياسياً ألمعياً، ضليعاً بالعربية والفقه والأدب، يحسن من اللغات التركية والفارسية وشيئاً من الفرنسية والألمانية.

حسن غصيبة

من رجال الصحافة والإدارة والمحاماة، ينتمي إلى شيوخ قبيلة العزّة. وهو حسن بن محمود الخلف الغصيبة الفارس. ولد سنة ١٨٨٩، وتخرّج في مدرسة العشائر في استانبول، وعيّن مديراً للمدرسة الرشدية في بعقوبا سنة ١٩١٢. ثم كان ضابطاً في الجيش العربي في أثناء ثورة الحجاز.

عاد إلى بغداد بعد الحرب العظمى، فاشتغل في الأحزاب الوطنية. وأصدر جريدة «العاصمة» في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ لتنطق باسم الحزب الحرّ العراقي. قال رفائيل بطّي في محاضراته عن الصحافة في العراق: «عرفت مقالات حسن غصيبة رئيس تحرير «العاصمة» الافتتاحية بأنّها من أحسن المقالات الصحفيّة في يومها، بل من أحسن المقالات في الصحافة العراقية، مكتوبة بأسلوب فصيح، معتدلة اللهجة، ناضجة التفكير. . . » وسجلت هذه الجريدة موقفاً مشرّفاً في الدفاع عن الحرية الفكرية وعن كرامة الصحافة والصحفيّين. وعطّلت في ٢٤ آب ١٩٢٣.

درس حسن غصيبة في الوقت نفسه في مدرسة الحقوق فتخرّج فيها سنة ١٩٢٣. وعيّن في آذار ١٩٢٤ رئيس ديوان الإنشاء في المجلس التأسيسي. ونقل إلى السلك الإداري فكان قائممقاماً لقضاء شط العرب (تشرين الأول ١٩٣١) فعلي الغربي (آب ١٩٣٣) فتلّعفر. ونقل مدعياً عاماً في بغداد (تشرين الثاني ١٩٣٤)، ثم اعتزل الخدمة وزاول المحاماة في أوائل سنة ١٩٣٨.

وقد توفّي ببغداد في ١٢ آذار ١٩٦٠.

وعرف أخوه محمد شاكر غصيبة من الكتاب والمحامين البارزين، وقد ولد في نحو سنة ١٨٨١. وهو ظريف، راوية للشعر الجيد والأخبار اللطيفة، قال إبراهيم الواعظ في أسبوعياته (١٩٤٤): وقد قرأ لي الأستاذ شاكر غصيبة المحامي هذين البيتين:

وأصحابٍ عهدتهم دروعاً	فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهم نصالاً صائبات	فكانوها ولكن في فؤادي

ولا يزال شاكر غصيبة حياً (١٩٧٤).

سليم حسّون

الصحفي الكاتب المعلّم سليم حسّون، وهو سليم بن سمعان بن إبراهيم حسّون، ولد في الموصل سنة ١٨٧١ ودرس في مدرسة الآباء الدومنيكيّين، ثم أصبح مدرساً بتلك المدرسة سنين طويلة، ووضع كتباً مدرسية منها: تعليم الطلاب أصول التصريف والإعراب (١٨٩٩) الأجوبة الشافية في فنّي الصرف والنحو (١٩٠٦) مختصر مفيد في أصول الصرف والنحو (جزآن ١٩٠٦) خلاصة الجغرافية، كتاب الذهب لتهذيب أحداث العرب (في جزءين، ١٩١١). وترجم مسرحية استشهاد مار نرسيسيوس (١٩٠٢) وألف مسرحية شَعُّو (١٩٠٥)، وقد مثّل كلاهما في الموصل.

ولما أعلنت الحرب العظمى انصرف عن التعليم واشتغل بالرسوم الفنّية، حتى إذا ما احتلّ الإنكليز الموصل وأصدروا جريدة «الموصل» الرسمية في تشرين الثاني ١٩١٨،

عمل محرراً بها أمداً، ثم عيّن مفتشاً للمعارف في مسقط رأسه. ونقل إلى البصرة فلم يلبث طويلاً حتى استقال وزار أوروبة وأسس دار الطباعة الحديثة في بغداد. وأصدر جريدة «العالم العربي» اليومية في آذار ١٩٢٤، فظلت تصدر إلى ما بعد سنة ١٩٤٧، وإن كان سليم حسون قد ترك الإشراف عليها في سنواتها الأخيرة لمرضه وعجزه. وكانت هذه الجريدة من الصحف الشعبية تعنى بشؤون الناس ومعيشتهم اليومية وتنتهج الاعتدال في أسلوبها وسياستها.

انتخب سليم حسون نائباً عن الموصل سنة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ و ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥، ثم انتخب نائباً عن البصرة خلفاً لرفائيل بطي (أيار ١٩٣٧). وناب عن بغداد بعد ذلك في مجلس ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩.

وتوفي ببغداد في ٤ تشرين الأول ١٩٤٧.

كان سليم حسّون كاتباً ميسّر الأسلوب، قريب المعاني إلى أذهان الجمهور، كتب «نقدات الحسّون» وسواها من الأبواب الصحفية. وقد عني بقضية فلسطين والدفاع عن عروبتها، واهتمّ بالبحوث والكتب التي تناولت شؤون العراق فعهد بترجمتها وتولى نشرها في جريدته بصورة متسلسلة.

قال جلال بابان: إنّ الأستاذ سليم حسّون يعتبر في نظري مثالاً طيّباً للخلق الصحيح لوفائه وأمانته وتحلّيه بالصفات الحميدة العالية، هذا إلى مواهبه الكثيرة وقابلياته الفذّة التي استثمرها في سبيل المصلحة العامة...

وقال صبيح نجيب: إنّ (سليم حسّون) يعتبر من أوائل المناضلين في سبيل القضية العربية وخاصة القضية الفلسطينيّة... وثمة ناحية ينبغي الإشارة إليها، وهي صراحته في القول والعمل...

وقال نور الدين داود: كان (سليم حسون) إلى جانب كونه من الصحافيّين البارعين مربّياً صالحاً تخرّج على يديه عدد غير قليل من الطلاّب النابهين... وأذكر أن صحيفته «العالم العربي» قد صدرت في يوم افتتاح المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤ واعتبرت فتحاً جديداً في عالم الصحافة لأنها جاءت بنوع جديد من النقد الهادىء الرزين والموجع في نفس الوقت. ولم يكن في بغداد آنذاك سوى صحيفتين سياسيتين: العراق والاستقلال، وكانت الأخيرة صحيفة الوطنية الملتهبة، والعراق صحيفة الاعتدال المتطرّف، فكانت العالم العربي بين الاثنتين تعتدل وتتطرف كما يقضي الزمن وتقضي المصلحة العامة...

بولينا حسّون

وهي ابنة عمّ سليم حسّون، ولدت في الأردن في نحو سنة ١٨٩٥. وقدمت بغداد مع أسرتها سنة ١٩٢٢ فأصدرت مجلة «ليلى» وهي أول مجلة نسائية عراقية في تشرين

الثاني ١٩٢٣ واستمر صدورها سنتين. وعملت بولينا حسون في الوقت نفسه مديرة لإحدى مدارس البنات، ثم عادت إلى الأردن. وتوفّيت هناك سنة ١٩٦٩.

وخال بولينا حسون: الشاعر الباحث إبراهيم الحوراني (١٨٤٤ ــ ١٩١٦)، وهو حمصيّ الأصل حلبيّ المولد بيروتيّ الوفاة، كان معلماً في الكلية الأميركية ببيروت ومحرراً للنشرة الأسبوعية، وفي شعره جزالة ورقّة.

رفائيل بطّي

دعاه أمين الريحاني ابن خلّكان العراق، وسار ذكره في الآفاق، وكان واسطة عقد الأدباء ودائرة معارفهم ولم تتجاوز سنّه الثانية والعشرين.

ولد رفائيل بن بطرس بن عيسى بن بطّي في الموصل سنة ١٩٠٠، ودرس في مدرسة الآباء الدومنيكيّين بها، ثمّ أصبح معلّماً. وأقبل على المطالعة بنهم شديد وأخذ بالكتابة والتحبير. وتوفّي أبوه، وكان حائكاً رقيق الحال، وجاء إلى بغداد سنة ١٩١٩، وانتسب إلى دار المعلمين الابتدائية وتخرّج فيها سنة ١٩٢١. وعيّن معلماً، لكنه ترك مهنة التعليم وعمل محرراً في جريدة «العراق» (١٩٢١ ــ ١٩٢٩). ونهض في الوقت نفسه بأعمال جمّة، فكاتب الصحف والمجلات في سورية ومصر. وأصدر مع عبد الجليل رزق الله اوفي مجلة «الحرية» (تموز ١٩٢٤)، فدامت سنتين وكانت من المجلات العربية الراقية. وخدم في دوائر الحكومة، فكان مديراً للتحرير في مديرية الزراعة العامة (أيار ١٩٢٤) فمعاون سكرتير وزارة الداخلية (كانون الثاني ١٩٢٦). ودرس في مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٩.

وأصدر في ذلك العهد كتباً، منها: الأدب العصري في العراق العربي (جزآن ١٩٢٣) سحر الشعر (١٩٢٢) أمين الريحاني في العراق (١٩٢٣) الربيعيّات (١٩٢٤). وترجم رواية «يوم زلزلت الأرض زلزالها» نشرت تباعاً في جريدة العراق.

كانت سنة ١٩٢٩ عام تحوّل في حياة رفائيل بطّي، إذ أصدر جريدة «البلاد» في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٩، وابتكر فنوناً وأبواباً صحفية لم تعهد من قبل في الصحافة العراقية. وعطّلت البلاد في ٨ أيار ١٩٣٠، فأصدر بدلاً منها جريدة صوت العراق (١٠ أيار) فالجهاد (٢٧ تموز) فالشعب (٢٧ آب) فالزمان (آخر آب). وسيق إلى المحاكمة بعد تعطيل هذه الجريدة في ٢٧ تشرين الأول ١٩٣٠ بتهمة الطعن في الذات الملكية.

ثم استأنف إصدار جريدة البلاد في ٢٧ آذار ١٩٣١، فعطّلت بعد ٥ أيام. وأصدر جريدة الأخبار (١٨ حزيران ١٩٣١) فالاخاء الوطني (٢ آب ١٩٣١). وأعاد إصدار الأخبار في ٢ تشرين الثاني، فظلت تصدر وتغيب، حتى صدرت البلاد مرة أخرى في

١١ كانون الأول ١٩٣٤ ، وعطلت في ٣٠ آب ١٩٣٥ . وعادت إلى الصدور حتى أوقفها في أول حزيران ١٩٤١ .

كانت هذه الحقبة من الجهاد الصحفي حافلة، أوقف في أثنائها (١٩٣١) وأقصي إلى أربيل وكركوك وكويسنجق مع فهمي المدرّس في آذار ١٩٣٢ فأمضيا في المنفى نحواً من ستة أشهر. وانتخب نائباً عن البصرة (كانون الأول ١٩٣٤) وعن الموصل (آب ١٩٣٥) وعن البصرة والموصل في شباط ١٩٣٧ فاحتفظ بنيابة الموصل. وناب بعد ذلك عن البصرة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٣). واعتقل خلال الحرب العالمية الثانية في العمارة من تموز ١٩٤٢ إلى تموز ١٩٤٣ .

أعاد إصدار جريدة البلاد سنة ١٩٤٥ . وسافر إلى مصر في منتصف سنة ١٩٤٦ ، لكن الجريدة استمرّت على الصدور إلى أواخر تلك السنة. وأقام في القاهرة نحواً من سنتين، عمل خلالها محرراً في جريدة الأهرام وجريدة الأسبوع، وألقى محاضرات عن الصحافة العربية في الجامعة الأميركية.

وانتخب نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٤٨ ، وقد عاد من القاهرة. واستقال من النيابة في آذار ١٩٥٠ ، ثم عيّن مديراً عاماً بوزارة الخارجية (كانون الأول ١٩٥٠) وعهدت إليه شؤون الدعاية. ونقل بعد شهرين مستشاراً صحفياً في سفارة القاهرة، وأعيد إلى العمل في ديوان الوزارة بعد ذلك. وترك الوظيفة في كانون الأول ١٩٥٢ حين انتخب نائباً عن بغداد، وأصبح وزيراً للدولة في وزارة فاضل الجمالي الأولى (١٧ أيلول ١٩٥٣) والثانية (٨ آذار ١٩٥٤) إلى ٢٩ نيسان ١٩٥٤ .

وأعاد إصدار جريدة البلاد في تموز ١٩٥٣ ، ثم أوقفها حين استوزر، واستأنف إصدارها في ٢١ نيسان ١٩٥٥ . ودعي في تلك السنة لإلقاء محاضرات عن الصحافة العراقية بمعهد الدراسات العليا في القاهرة، فجمعت في كتاب «الصحافة في العراق» (١٩٥٥). وألف أيضاً: فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله (١٩٤٥).

وثابر على عمله الصحفي حتى أدركته الوفاة في بغداد في ١٠ نيسان ١٩٥٦ .

وقد شغلته أعماله الكثيرة في الصحافة والنيابة عن طبع آثاره وجمع مقالاته العديدة في الصحف والمجلات العربية، منها: كتاب «في قفص الأسلاك الشوائك» (عن اعتقاله سنة ١٩٤٢)، وتراجم لرجالات العراق والعرب، وتاريخ شامل للصحافة، إلخ.

رثاه الشاعر مهدي مقلّد فقال:

أ أبا بديع، قد نجوت فما ... في داركم فند ولا كند

لكنّما غرّ الحقائق في ... مثواك تنطق بالّذي تجد

لا معتدٍ غرّ هناك ولا ... أحد يشيع بقلبه الحسد

واسلم، ظفــــرت بعـــــالم شرفت
أخـــلاقـــه والأهـل والـــولـــد

قـــــد زالت الأحقـــــاد وارتفعت
بعـــد الـــردى وقـــد انطـــوى اللّـــدد

لا يظلم التــــاريخ مـن خــدمـــوا
أوطـــانهم، وسيـــذهـب الـــزبـــد

قـــــد كنت سيفـــــاً للحِمَى، وإذا
بـــالسيف من فـــوق الحمى قعـــد

تكفيك، روفـــــائيل، مفخـــــرة
يـــــوم النعيّ مشى لـك البلـــــد

وقال طالب الحيدري:

يـــا صـــاحب الأدب العـــالي يصـــوّره
يـــراع متّـــزن التفكير، نسّـــاجِ

ويـــا أبـــا النثـــر تمليـــه مهـــذّبـــة
ألفـــاظـــه ومعـــانيـــه كـــديبـــاج،

-حتى ولجت مضيقـــاً مـن مـــذاهبـــه،
خـــرجتَ أكـــرم ولّاج وخـــرّاج

تمثل «الـــدور» مطبـــوعـــاً، وأكثـــرهم
يمثلـون وهم في ثـــوب «مكيـــاج»...

يـــا غـــارس الـــورد يسقيـــه بأدمعـــه،
الأرض غـــابـــة أشـــواك وأحـــراج

هي الحيـــاة، كما فـــارقتهـــا، نكـــد
ومنـــــزل ليس فيـــه غير إزعـــاج

شبّهت أوضـــاعهـــا في كل مـــرحلـــةٍ
بـــزئبـق قلق الأوضـــاع رجـــراج

تجفـــو الحيـــاة عليـــاً في عـــدالتـــه
وطـــالما تترضّى ظلـم حجّـــاج!

وقد كتبتُ عند وفاته الكلمة الآتية:

في سنة ١٩١٩ قدم بغداد من الموصل فتى نحيل الجسم، أقنى الانف، مرفوع الرأس، حادّ النظرات، لم يبلغ العشرين من عمره ليجرب حظه في خضّم العاصمة الزاخرة.

كان ذلك في اعقاب الحرب العالمية الاولى. وكانت تلك الأيام عجيبة حقاً مثقلة بالأحداث المرتقبة، متألقة كالفجر الطالع على نهار يعد بالضوء والدفء وضروب الهناء والنشاط. لقد انتهت الحرب بويلاتها وكوارثها، وانقشع ظل الاحتلال العثماني الذي دام مئات الاعوام وأعلنت الدول العظمى حق الشعوب المستعبدة في الاستقلال وتقرير المصير، وبدت تباشير عهد العلم والمعرفة والرخاء. ولئن كانت البلاد لا تزال تئن تحت نير الاحتلال، ونيل الحرية والرفاهية والسيادة لم يزل رهين الغيوب، ولم يتضح حتى الطريق الذي يؤدي إلى تحقيق الاماني الوطنية والشخصية، لقد كانت النفوس عامرة بالأمل والإيمان، متطلعة إلى أيام مقبلة حافلة بمشاق الجهاد ولذاته على السواء. كانت تلك الأيام شبيهة بعهد الشباب الفوار بما يتسم من رجاء وارتقاب وتلهف واندفاع وتطلب للمعالي واستهانة بالمتاعب والمصاعب، فوفدت على مدينة السلام التي عادت تحلم بمجد الملك ولذة السلطان جموع الشبان المتحضرين الطامحين، جاؤوا من البصرة والموصل ومن الحلة والنجف ومن سائر الحواضر والقصبات ليشاركوا في حياة البلاد الجديدة.

لكن الشاب الموصلي لم يكن يماثل الشبان الوافدين، بل يفوق معظمهم ثقافة والمعية وذكاء. نشأ في الموصل حيث درس في بعض مدارسها المتواضعة اللغة العربية وشيئاً من الفرنسية والسريانية. وكان ولوعاً بالمطالعة يقرأ كل ما يقع في يده ويعي كل ما يقرأ ولا يني جهداً في سبيل الحصول على الكتب في عهد كانت عسيرة المنال، وقد أتيح له إلى ذلك أن يزاول التعليم آنا قصيراً وأن يحاول الكتابة والنشر. فلما وصل بغداد انتمى إلى دار المعلمين التي كانت آنذاك ملاذ الشبان الراغبين في التعلّم وسرعان ما تعرف إلى الحلقات الادبية والصحفية وأصبح من روادها ومحاور حركاتها.

لم يكن ذلك الشاب الموصلي الطموح الذي نتحدث عنه سوى رفائيل بطي الذي عرفه العراق والعالم العربي فيما بعد من أساطين الصحافة ومن رجال السياسة والقلم. احتضنته بغداد فجعلت منه كاتباً ونائباً ووزيراً، وردّ الجميل لها فرفع لواء صحافتها وترجم اعلامها وزان ندواتها ومجالسها بأدبه وفضله.

كانت السنون العشر الاولى التي قضاها الشاب رفائيل في العاصمة سني عمل ونشاط جمّ: فقد درس في دار لمعلمين ومدرسة الحقوق، وعمل في الصحافة ووظائف الدولة، وكتب وألف وترجم ونشر، ووجد الوقت إلى جانب ذلك كله ليكون اللولب النابض للحركة الأدبية وليتزوج ويكون اسرة. أي طموح كان يحفز تلك الشعلة الملتهبة من العزم والنشاط، فيرضيها بالقليل من المتعة والراحة والنوم، ويحملها على الكثير من العمل والدرس والاستطلاع! لقد كان هذا الشاب المغترب في بعض تلك السنين العجاف ينهض صباحاً فيقبل على مكتبه في دائرة الزراعة أو وزارة الداخلية، ولا يكاد يفرغ من عمله الرسمي حتى يكتب المقالات ويباشر اعمال التحرير في صحيفته، حتى إذا ما حل المساء وجدته مكباً على الدرس شأن الطالب المجتهد.

ولم يكن يفوته على كثرة مشاغله ومطالب معيشته المساهمة في تكريم الريحاني وغير الريحاني، والاشتراك في مجالس الثقافة والادب المنعقدة بلا انقطاع في دير انستاس والمعهد العلمي وفي ندوة جريدة العراق ومجالس الزهاوي والرصافي وفهمي المدرس وأضرابهم.

أخرج رفائيل بطي في هذه الحقبة «الأدب العصري في العراق العربي» بجزئيه «وسحر الشعر» و «أمين الريحاني في العراق» و «الربيعيات». وكان «الأدب العصري» الذي لم تتم اجزاؤه أول محاولة لتسجيل الأدب العراقي الناهض وتعريف اركانه ومقوماته. وأصدر مجلة «الحرية» فكانت من المجلات العربية الراقية التي لم يهيأ للعراق ـ بعد ربع قرن من الزمن ـ أن يشهد مثيلها ومثيل زميلتها «لغة العرب» الانستاسية الكرملية.

في سنة ١٩٢٩ تخرج رفائيل بطي في مدرسة الحقوق، فأصدر جريدة «البلاد» مع جبران ملكون وانصرف إلى تحريرها. وكان ذلك بدء عهد جديد في حياته.

حقق تقدماً لامعاً للصحافة اليومية العراقية وأساليبها، وخاض غمار المعامع السياسية والحزبية، فلم يلبث أن أغلقت صحيفته المرة تلو المرة، وأن قاسى مرارة الابعاد والسجن والتشريد. وفي هذه الحقبة انتخب نائباً مرات فسمعت الأمة صوته من منبر المجلس بعد أن قرأت مقالاته ووعت آراءه ونزعاته الإصلاحية.

ونشبت الحرب العالمية الثانية تنذر بالويل والثبور، ففتحت في حياة صحفينا صفحة جديدة لعلها كانت أزخر ايامه بالتقلبات والمفاجآت. قضى عهداً في معسكر الاعتقال، ثم خرج ليستأنف جهاده الصحفي. وضاقت به سبل العيش في بلده، فشدّ الرحال إلى مصر حيث عرفت مكانته وقدر فضله في المحافل العربية والأدبية. وعاد إلى بغداد فكان نائباً حينا وموظفاً حيناً آخر. ولم يلبث أن أعيد إلى مصر مشاوراً صحفياً للسفارة العراقية. ثم آب إلى بغداد ليقضي عهداً قصيراً في وزارة الخارجية، ثم يستأنف إصادر «بلاده». وحظي بالوزارة شهوراً معدودات ثم عاد إلى جهاده الصحفي، فأخذه الموت على حين غرّة وقلمه في يده، وفي نفسه آمال بعيدة لم يسمح الدهر بتحقيقها.

كان رفائيل بطي في هذا العهد من حياته كثير التلهف على عهد من الراحة والطمأنينة المادية والذهنية ينصرف فيه إلى تدوين المؤلفات التي عزم على وضعها وهيّأ لها المادة النادرة الغزيرة. لقد جمع خلال نحو من اربعين سنة معلومات شاملة تتناول سير الآلاف من رجالات العراق والعروبة خلال المائة سنة الاخيرة، ودونها على الجذاذات والبطاقات، وحقق لها المصادر والمراجع. وقد عزم ان يدوّن سير الرجال فيسهب في ترجمة العباقرة والنابغين في حقول السياسة والإدارة والعلم والادب، ولا يبخل على التابعين بإيجاز يبل الغليل. ونشر نماذج مقتضبة من هذه التراجم في جريدته في عهدها الاخير، لكن الدهر لم يمنحه ما تاق إليه من سعة وفراغ لاخراج مشروعه الضخم الذي أعد له العدة وهيأ له الاسباب.

كنت وثيق الصلة برفائيل بطي في سنواته الاخيرة، فكثيراً ماكنا نجتمع هنا أو هناك لنتكلم في الأدب والتاريخ وسير الرجال ولنتبادل الرأي في المواضيع الكثيرة التي عنينا بها كلانا. كان يحدثني عن آماله ومشاريعه الأدبية الضخمة، وعن التراجم التي شغف بها والتي كان يود ان يتفرغ يوماً ما لكتابتها بشكل يرضي نزعته الأدبية والتاريخية. وكان واسع الإطلاع على تواريخ الرجال الذين نبغوا في العراق وسائر الاقطار العربية منذ عهد النهضة الحديثة، يحفظ سيرهم وآثارهم ولا تفوته من أمرهم شاردة ولا واردة. ولعله كان أعرف أهل زمانه بالمظان التي تضم أخبارهم خطيرها وصغيرها، وكان يفرح بالعثور على خبر جديد لشخص مشهور أو مغمور أو الوقوف على مصدر أنفٍ لتراجم الرجال الذين نذر نفسه لتحقيق سيرهم.

لم يشك رفائيل بطي على ما أعلم من مرض أو هزال، فجاءت وفاته المفجعة المفاجئة

ضربة قاصمة صمّت لها الآذان وجزعت النفوس. قضى وهو أكثر ما يكون قوة ونشاطاً وأوسع ما يكون أملا ورجاء. ولقد وقف في بيروت قبل شهر واحد من وفاته يرثي زميله اللبناني كميل يوسف شمعون، فقال: «وعند اجتماعكم لتمجيد أحد أجناد الصحافة بعد ان غيبّه الثرى، أعرب عن أمنيتي بأن يلتفت رجال البلد الشقيق ـ ونساؤه طبعاً ـ إلى من سبقوا صاحب الاحرار إلى دار البقاء، فيعترفوا بأياديهم على النهضة بل على الكيان الاستقلالي للبنان العزيز. فإن الوعي المتغلغل في العالم العربي قد بثه هؤلاء الرواد الذين جازوا العقبات واقتحموا المخاطر. ، وبينهم شهداء ضحّوا بأرواحهم في سبيل الحرية والاستقلال والمجد القومي. فمن واجبنا أن نلتفت إلى الرعيل الأول من صحافييهم، فنخلدهم بتدوين سيرهم والمباهاة بأعمالهم رعاية للوفاء، ولخلق معالم تحفز الشباب ليندفعوا في ساحة العمل والجهاد وهم واثقون بما ينعمون به من راحة الضمير وسعادة الخلود. . »

ان هذه الكلمات التي نطق بها رفائيل بطي قبل أن يصرعه الموت وهو في حلبة الجهاد جديرة أن تلقى أسماعاً صاغية وقلوباً واعية من أبناء الجيل الجديد، فيخلدوا سيرته وسيرة اخوانه من أبطال الصحافة ويتخذوهم قدوة حسنة ونبراساً مضيئاً في السعي والجهاد.

***

عرفت رفائيل بطي أعواماً طويلة، وكتبت في جريدته وربطتنا بعد ذلك أواصر صداقة وثيقة لم تنقطع إلى يوم وفاته. وقد زارني في مكتبي على عادته كلما مرّ به صباحاً قبل أن يذهب إلى ادارة جريدته. وفي اليوم الثاني رنّ جرس التلفون قبيل الظهر، فإذا بالناعي ينعاه فجأة، ولم يكن مريضاً بل ربما كان مجهداً مرهق الأعصاب.

كان كثير الطموح، ولا يعتني بصحته وراحته، ويريد أن يستفيد من وقته أكثر مما يتاح لكهل في سنّه. كان يريد أن يكون كاتباً أديباً وصحفياً وسياسياً وطنياً ورجلاً اجتماعياً ويريد لو استطاع أن يحضر في مكانين في آن واحد وأن يكون موضع ثقة الحكومة والمعارضة معاً. وحاول مراراً أن ينشيء مشاريع صحافة ونشر مشتركة بين العراق ومصر وبين رجال المال والسياسة والأدب. أذكر على سبيل المثال أنه جمعنا في داره مراراً لانشاء شركة نشر يساهم فيها المصريون والعراقيون، فلم يخرج المشروع إلى حيّز الوجود لأن أكثر الذين دعاهم إلى بحث الأمر لم يكونوا من رجال الأعمال بل من رجال السياسة ومنتهزي الفرص.

وقد أصدر جريدته «البلاد» لأول مرة في خريف سنة ١٩٢٩ بالإشتراك مع جبران ملكون الذي كان يعمل إلى ذلك الحين محاسباً في جريدة العراق. وكان جبران رجلاً عملياً يعرف من أين تؤكل الكتف ويعلم أن المال قوام الجريدة الناجحة، فيهتم بالاعلانات والاشتراكات. أما رفائيل بطي فكان يريد الجريدة للتعبير عن آرائه ولخلق

صحافة متفنّنة تكون فتحاً جديداً في عالم الصحافة العراقية. ولذلك سعى إلى اجتذاب أقلام الكتاب اللامعين، وفتح أبواباً في صحيفته للشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ولم يغفل عن الرياضة والهزل. وأراد في الوقت نفسه أن يتصل بالأحزاب الوطنية ويعرب عن أفكارها وأهدافها، وأراد أن يتخذ من جريدته وسيلة للوصول إلى النيابة والوزارة والمشاركة في الحياة العامة (وقد حقق ذلك، ولكن بعد جهاد مرير طويل).

ولم يلبث الخلاف أن دبّ بينه وبين شريكه جبران ملكون فانفرد كل منهما باصدار جريدته. ومن اللطائف التي تروى في عهد عملهما معاً في جريدة البلاد، ان جبران كان يأتي مساء إلى المطبعة فيجد حقول الجريدة مليئة بالأخبار والمقالات وليس فيها متّسع كافٍ للاعلانات التجارية، فيأمر في غفلة من صاحبه أن ترفع أخبار وبحوث وتوضع الاعلانات في محلها.

ثم يأتي رفائيل بطي في منتصف الليل حاملاً خبراً مهماً أو مقالاً طريفاً، فيوعز برفع اعلانات معينة ووضع المادة التي جلبها معتزاً بها في محلها.

وقد تكرّر هذا الأمر وسبب عتاباً ونزاعاً بين الشريكين حتى انتهيا إلى الفراق.

توفيق السمعاني

الكاتب الصحفّي الأديب، توفيق بن بهنام بن يونان بن سمعان، عرف في بادىء أمره باسم الشماس اسطيفان، ثم اتخذ اسم توفيق السمعاني، ولد في الموصل سنة ١٩٠٢ ونشأ في قرية بعشيقة المجاورة ودرس في احدى المدارس الاكليركيّة. وقصد بغداد سنة ١٩٢٢ فدرّس في مدارسها الأهلية، وحرّر في جرائد مختلفة، وكتب المقالات الأدبية والاجتماعية مشاركاً في المساجلات الفكرية والثقافية التي احتدمت في العاصمة العراقية في تلك الحقبة.

ساهم في إصدار مجلة الزنبقة سنة ١٩٢٢، والتحق بمدرسة الحقوق ثم تركها بعد مضيّ سنتين. وعمل محرراً في جريدة العراق فالبلاد، ثم تولّى تحرير جريدة «صدى العهد» سنة ١٩٣٠. وأصدر بعد ذلك جريدة «الطريق» (٦ آذار ١٩٣٣) فجريدة «النداء» (٢١ ايار ١٩٣٦) فجريدة «الزمان» (أول أيار ١٩٣٧). وقد أصبحت هذه الجريدة الأخيرة من كبريات الصحف السياسية اليومية في بغداد، وكانت منبراً للأدباء والكتّاب أكثر من ربع قرن، حتى قدّر لها التعطيل في شباط ١٩٦٣.

انتخب السمعاني نائباً عن البصرة في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٧ ـ شباط ١٩٣٩)، ثم ناب عن الموصل في المجالس النيابية المتعاقبة في كانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وايلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨. واختير بعد ذلك نائباً لرئيس

نقابة الصحفّيين (حزيران ١٩٦١).

وهو صحفي بارع وأديب سلس العبارة، جميل الأسلوب، سئل عن مساهمته في بناء النهضة الأدبية، فأجاب بتواضع قائلاً (جريدة الزمان، ٣ آذار ١٩٥٨):

«ليس من المستحسن أن يفاخر الإنسان بنفسه وأعماله. فإني صحافي قديم، وقد قضيت القسم الاكبر من عمري في الصحافة بين المحابر والكتب والاوراق والدفاتر والكتابة. وكلها عمل يتصل بجوهر الأدب وحياته وتطوره. وقد كانت صحيفتي، ولا تزال، ميداناً للكتاب والادباء ومدعاة لتشجيعهم وإظهار فضلهم ومواهبهم، وهذا أيضاً مساهمة في النهضة الأدبية».

وضع توفيق السمعاني في صدر شبابه قصصاً نشرت في الجرائد والمجلات كمرآة العراق والحاصد والبلاد. وقد زار الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٥٧ فكتب مشاهداته في مقالات متسلسلة نشرت في جريدة «الزمان» توفي في بغداد في ١١ نيسان ١٩٨٢.

سلمان الشيخ داود

من رجال الصحافة والنيابة والمحاماة سلمان الشيخ داود، ولد ببغداد سنة ١٨٩٧ ونشأ في كنف والده الشيخ أحمد الشيخ داود وتخرج في المدرسة السلطانية سنة ١٩١٦، وانتمى إلى دورة المعلمين الابتدائية في حزيران ١٩١٧ وعيّن مديراً لمدرسة الفضل. ولم يلبث أن نقل كاتباً في محكمة البداءة (١٩١٨) فسكرتيراً لأمانة العاصمة (١٩٢٢).

ودرس في الوقت نفسه في مدرسة الحقوق فنال إجازتها سنة ١٩٢٣. وكان في السنة نفسها سكرتيراً للوفد العراقي إلى مؤتمر الكويت الذي عقد لحسم النزاع بين العراق ونجد والحجاز وشرقي الأردن.

بدأ بالكتابة في جريدة الإستقلال وغيرها من الصحف سنة ١٩٢٠. ولمّا تخرّج في مدرسة الحقوق، طلّق الوظيفة وانصرف إلى المحاماة والصحافة. وكان مديراً لجريدة المداعب التي أصدرها حسين يحيى في كانون الثاني ١٩٢٦، ثم تولّى تحرير جريدة التقدم لسان حال حزب التقدّم (١٦ تشرين الثاني ١٩٢٨). وأصدر بعد ذلك جريدة النّاقد (١٣ حزيران ١٩٢٩) وبريد الجمعة (نيسان ١٩٤٧).

وانتخب نائباً عن الديوانية (شباط ١٩٣٧) فنائباً عن بغداد (شباط ١٩٤٢) وتشرين الاول ١٩٤٣، فنائباً عن ديالي (آذار ١٩٤٧). وانتخب نائباً عن العمارة في آذار ١٩٤٩ وثم في حزيران ١٩٥٥. واعتقل في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وأطلق سراحه بعد أمد وجيز.

توفي سلمان الشيخ داود ببغداد في صيف سنة ١٩٧٧. وكان قد اعتقلته سلطات

الأمن أياماً بوشاية مغرضة، فاشتد عليه المرض وأسرع بإخلاء سبيله ولم يلبث أن قضى نحبه.

وهو كاتب سياسيّ واجتماعي لمع اسمه في أوائل سني العشرين. قاله فيه خالد الدّرة في مجلة الوادي (١٥ آذار ١٩٤٧): «صريح ومشاغب وبغدادي، وخطيب لبق رغم لثغته لمزاولته مهنة المحاماة أعواماً طوالاً. وإذا قلت بأن ابن الشيخ خطيب فأنا أعني ما أقول... لأنه لا يتوغل إلى هذه المقدمات المهلكة ولا يلجأ إلى المواقف الخطابية الرعناء، كما لا يعبأ بأن تكون جميع عباراته بالفصحى وهو القادر على الخطابة فيها، ولكنه يدخل إلى الموضوع رأساً ويعلن فكرته فوراً ويجلس بأسرع ممّا نهض.. وسلمان إن لم يكن بارد الطبع فهو سكسونيّ الدم».

كتب سلمان الشيخ داود في صدر شبابه نثراً عاطفياً جميلاً منه أقصوصة لطيفة بعنوان «العاطفة الذابلة» روى فيها حكاية فتاة «في الربيع الخامس عشر من عمرها لا يغمر قلبها سوى أنوار السرور ولا تعرف من الحياة غير الضحك والابتسام». كانت الزهرة الوحيدة لوالديها الموسرين فرمقتها أعين الشباب حباً بجمالها وطمعاً بثروتها، لكن راحت هي تبحث عن الحبّ الصحيح حتى وجدته. واقترنت بحبيبها وأنجبت طفلاً ثم مرض زوجها وقضى نحبه وداهمتها الاحزان وهي لم تتجاوز العقد الثاني من حياتها.

وتنازعت الأرملة الشابة عاطفتان: عاطفة الفتوة العارمة التي تدفعها إلى التمتع بلذائذ الحياة، وعاطفة الوفاء لذكرى قرينها الراحل. ويختتم الكاتب هذه القصة فيقول:

«فإذا ما هجعت تمّر أمام ذاكرتها أشباح كثير من الشبان الذين خطبوا ودّها، فيبتسمون لها ويسجدون أمام جمالها الفتان. وعندما تحاول أن تجزي الابتسامة بمثلها، يمّر من أمامها شبح زوجها فتمدّ ذراعها لتضمه إلى صدرها. لكنها لا تلبث حتى تنتبه مذعورة، فلا ترى في القرب منها سوى ولدها الصغير، فتأخذه صبيحة كل يوم إلى قبر والده حيث تنثر عليه الدموع والازهار. وقد ظلت محافظة على ذكرى زوجها عشرين عاماً.

ورغم أن ولدها قد بلغ مبلغ الرجال وتزوج وولد له ولد، لم تحفظ في مخيّلتها له سوى صورة الطفولة التي كان بها عندما لفظ والده النفس الأخير.

«وعندما بلغ حفيدها الشهر الثالث من عمره، انتابتها حمّى شديدة أفضت إلى موتها. وقبل أن تودّع أنفاسها الأخيرة مدّت يدها وقبضت على مهد حفيدها حاسبة انه مهد طفلها الذي خلّفه زوجها الراحل، لأنه لم تنطبع في مخيّلتها ذكرى جديدة منذ فقدت زوجها قبل عشرين عاماً. ولم تبتسم منذ ذلك التاريخ، لكن الذين وقفوا

حول جسدها الهامد في موقفها الأخير رأوها باسمة، على محياها علائم السرور، لأن أرواح المحبين لا يهدأ لها روع الاّ أن تتعانق في العالم الخالد، مقرّ النفوس الأبدي».

وكذلك ختم سلمان الشيخ داود أقصوصته الشجية خاتمة حزينة هادئة شأن شعراء الروما نتيكية وأدبائها في كل عصر ومصر.

سلمان الشيخ داود والرصافي:

كان موالياً للحلف والتعاون مع بريطانية العظمى، وقد ألقى في مجلس النواب في ١٩ نيسان ١٩٤٢ خطبة مسهبة مدح فيها بريطانية واستنكر حركة ايار ١٩٤١ ووصم القائمين بها بالخيانة والمروق. وقد حبّذ السياسة الموالية للأمم الحرة والاستفادة من خبرة الاستشارة الانكليزية. وقال إنه يرجح ادارة عاملة نظيفة متّزنة ولو يرأسها أجنبي على إدارة مذبذبة مترجرجة مفككة فاسدة يرأسها عراقي.

وقد ردّ عليه معروف الرصافي بقصيدة قال في مطلعها:

قل لسلمان، بعد ما كان حراً، كيف قد جاز رقّه والإسار؟
ان ماقلته من القول هُجر منكر لا تقوله الأحرار

حتى قال:

كيف نسعى إلى العلا في أمور ليس فيها رأي لنا واختيار؟
فبذا ركن عزّنا يتداعى وبذا صرح مجدنا ينهار
انّ للأجنبّي فينا لحكماً أسدلت دون جوره الأستار

محمد عبد الحسين

من رجال الصحافة العراقية الذين اشتهروا في فترة مابين الحربين العالميّتين، محمد بن عبد الحسين بن أحمد الحسني، ولد في الكاظمية في سنة ١٨٩٩ من أسرة لها خدمة في الحضرة الكاظمية، وكان عمّه باقر سركشك (١٨٩٣ ــ ١٩٥٨) معاوناً لرئيس التشريفات الملكية (١٩٢٤) فمدير البريد والبرق العام (١٩٤٥) فمدير النفوس العام ١٩٥٠). وقد انتخب نائبا عن الكاظمية في مجلس النواب ايار ١٩٥٥ وايار ١٩٥٨.

نشأ محمد عبد الحسين في الكاظمية وبها تثقّف، ثم مضى إلى النجف في ابان الثورة العراقية وأصدر جريدة «الاستقلال» (أول تشرين الاول ١٩٢٠)، وقد ظهر منها ثمانية أعداد. ولما اقتربت القوات الإنكليزية من النجف ذهب إلى البصرة وعمل في جريدة الأوقات البصرية.

وعـاد إلى بغداد، فأخـذ بـالتحريـر والكتـابة في صحفهـا، كـالعراق والاستقـلال والنهضة العراقية، وطارت له شهـرة، كاتباً سياسياً في رعيل الصحفيين الشبّان. وعيّن مفتشاً لمعارف منطقة الفرات في حزيران ١٩٢٢، لكنه لم يلبث أن عاد إلى الصحافة.

أنشأ جريـدة «الشعب» في ١٠ نيسان ١٩٢٤ فلم يطل عهدها أكثـر من اسبوعين. وقد وقّف جـريدتـه ـ كما قال رفـائيل بطي في محاضراته عن الصحـافة في العـراق ـ على مناقشـة المعاهدة العراقيـة البريطانية والـدفاع عن وجهة نظر المعـارضين لهـا، وكانت «الشعب» شديدة الوطأة في مقالاتها وبحوثها السياسية.

درس محمد عبـد الحسين الحقوق في الوقت نفسـه، ونال إجازتها ومارس المحـاماة. وألّف كتاب «المعـارف في العراق على عهد الاحتـلال» (١٩٢٢) و«ذكرى فيصل الأول» أو «العـراق في اثني عشر عـاماً» (١٩٣٣). وانتخب نـائبـاً عن الحلـة في كانـون الأول ١٩٣٤.

اعتقل في أثنـاء الحرب العـالمية في تشريـن الثاني ١٩٤١ وأُقصي إلى الفـاو. وأدركتـه الوفاة سنة ١٩٥٢.

له أيضاً: محنة العرب (١٩٣٦).

سلمان الصفواني

الصحفي الأديب سلمان آل ابـراهيم الصفـواني القطيفي، ولـد في قريـة صفـوة من أعمال نجـد سنة ١٩٠٠، وجـاء إلى العـراق فتلقى دروس العربيـة والـدين في معاهـد النجف وكربلاء.

اشترك مع الشيخ مهـدي الخالصي في منـاهضـة انتخـاب المجلس التأسيسي في الكـاظمية، فأبعـد عن العـراق في حزيـران ١٩٢٣. وعاد إلى بغـداد فأصـدر جريـدة «اليقظـة» (٥ ايلـول١٩٢٤) فجريـدة «المنبر العـام» (كـانون الاول ١٩٢٥) فجـريـدة «المعارف» مع عبد الملك حافظ (ايلـول ١٩٢٦). وعيّن في سنة ١٩٢٧ سكرتيراً خاصاً لوزير المواصلات والاشغال، لكنه استقال بعد ذلك واستأنف إصدار جريدة «اليقظة» (تشرين الثاني ١٩٢٩) فجريدة «النهضة» (١٩٣٠).

وعاد إلى الوظيفة معـاوناً لسكرتير أمانة العاصمة، ونقل إلى وزارة الداخليـة فمديرية المحـاسبات العـامة. وكـان بعـد ذلك مدرسـاً للغـة العربيـة في دار المعلمين الريفيـة والمدرسة الثانوية المركزية للبنات ومدرسة التفيّض الأهلية.

ساهم في الحركة الـوطنية خلال الحرب العالميةالثانيـة فاعتقل في الفاو (تشرين الاول ١٩٤١)، إلى تموز ١٩٤٣، ثم أبعد إلى الهند وعدن.

وعـاد إلى بغـداد (آذار ١٩٤٦)، فـاستأنف إصـدار «اليقظـة» وكـانت من الجرائد العنيفـة في قوميّتهـا. ثم أصـدر جريـدة «صـدى اليقظـة» ايار ١٩٥٣). وقـد حطم مطبعتهـا الجمهور بعـد فشل حركـة العقيـد عبدالـوهاب الشـوّاف في الموصل في آذار ١٩٥٩.

وسكن في القاهرة من ١٩٥٩ إلى ايلول ١٩٦٥، ثم عاد إلى بغداد إذ عيّن وزيراً للدولة في وزارة عميد الجو عارف عبدا الرزاق (٦ ايلول ١٩٦٥) ووزارة عبد الرحمن البزاز التي تلتها في ٢١ ايلول ١٩٦٥ إلى ٩ آب ١٩٦٦. واعتقل بعد ثورة تموز ١٩٦٨ البعثية، وأفرج عنه في شباط ١٩٦٩.

وقد ألف: رواية الرزقاء(١٩٢٥) ذيول صِفِّين (رواية) أذن وعين (١٩٤٧) محكوميتي (١٩٥٢) هذه الشعوبية. ونشر كتاب تاريخ الحروب العربية أو حرب البسوس لمحمد بن اسحق (١٩٢٨).

قالت مجلة «الأديب» البيروتية (ايلول ١٩٤٧) تذكر صدور كتابه «أذن وعين»: «.. قلم، سيّال لكاتب جريء يعبّر عمّا يخالجه من احساسات وآراء جلا فيها مكامن الداء... ولعلّ الشيء الذي يتميّز به الكاتب هو نزعته العربية القوية ودفاعه المجيد عن الوحدة العربية فكأنّ سني الاعتقال لم تزده الا مضيّاً في الكفاح وروسوخاً في العقيدة. فيدعو القائمين على أمور العرب في الخروج من ميدان النظريات إلى ميدان العمل والاسراع في توحيد الثقافة العربية، بعد أن يعالج قضية القومية العربية معالجة دقيقة بأسلوب خطابي قويّ النبرات، واضح الغاية، عذب المنال».

توفي سلمان الصفواني في بغداد في تشرين الثاني ١٩٨٨.

نوري ثابت

الكاتب العراقي الهزلي نوري ثابت المعروف باسمه المستعار «حبزبوز»، ولد في السليمانية في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٩٧، وكان والده ثابت بك الكروي عقيداً في الجيش التركي، فانتقل معه إلى الأحساء حيث أتم دراسته الابتدائية. وكلف ثابت بك بتأديب أهالي السماوة لإخلالهم بالأمن على عهد والي بغداد جلال بك (١٩١٤). انتمى نوري إلى المدرسة الاعدادية ببغداد، ومضى إلى الاستانة فولج مدرستها العسكرية (آب ١٩١١) وتخرج فيها ملازماً ثانياً.

حارب في اثناء الحرب العظمى في الدردنيل والقفقاس، وجرح في المعارك فأعيد إلى الاستانة واستخدم ضابط استخبارات في مقر وزارة الحربية التركية حتى عقد الهدنة. وعاد إلى العراق سنة ١٩٢٣ فعّين معاوناً لمدير المدرسة الجعفرية الأهلية (تشرين الأول ١٩٢٣) ثم انتقل إلى وزارة المعارف وكان مدرساً ومدير مدرسة ثانوية. وعين مفتشاً في ايلول ١٩٢٥ وأخذ يكتب نقداً اجتماعياً باسلوب طريف في الصحف المحلية، فلما أنشأ رفائيل بطّي جريدة «البلاد» سنة ١٩٢٩ كلفه بكتابة باب خاص بالهزل والتفكهة فيها.

فصل من الوظيفة في ٢٤ آب ١٩٣١، فأصدر جريدة فكاهية اسبوعية باسم «حبز بوز» (٢٩ ايلول ١٩٣١) ووالى اصدارها إلى وفاته ببغداد في ١٢ تشرين الاول سنة ١٩٣٨.

قال رفائيل بطي في وصف اسلوبه: «وحبزبوز كاتب خفيف الظل، أسلوبه محبّب إلى النفوس، تمازجه تعابير دارجة عند الدهماء، مطعمة بالأمثال السائرة على ألسنة الناس على اختلاف طبقاتهم وتحلّيها حكايات ونوادر مما يتناقله الجمهور من عهد العثمانيين، ويختزن الكاتب في ذاكرته منها محصولاً وافراً». ونقل بطّي عن ياسين الهاشمي قوله: «ان نوري ثابت خير من يصف أخلاق المجتمع وأهله وصفاً فيه الإجادة كلها والعبرة البالغة».

جبل نوري ثابت على روح فكاهية أصيلة، وتأثر بكتاب الأتراك الهزليين تأثراً بليغاً. وعني بالمأثورات والحكايات الشعبية العراقية فوعاها وحلّل ما تنطوي عليه من تهكم لاذع وحكمة فطرية.

ولقد أثر تأثيراً عميقاً في الجيل العراقي الذي كان يقرأ كتاباته بلهفة واشتياق. وإذا كان أكثر الكتاب يحاولون رفع القراء إلى مستواهم، فإنّ نوري ثابت وأمثاله من الكتاب الشعبيين يحاولون أن ينزلوا بأدبهم إلى مستوى العامّة ليؤدّوا رسالة التثقيف والتهذيب التي اضطلعوا بها. وكذلك وفّق «حبزبوز» للتغلغل في المحافل الشعبية وابلاغ آرائه الإصلاحية إلى مختلف الطبقات.

وقد قال جميل صدقي الزهاوي في تحية جريدة حبز بوز:

الهزل في الكلام	كالملح في الطعام
قليله كثير	ومرّه نمير
ربَّ عتاب حمد	وربّ هزل جدّ
طرائف الهزال	كالدرر الغوالي...

وروى عبد القادر المميّز الكاتب الهزّال صاحب جريدة «أبي حمد» وصديق نوري ثابت الأمين أنه أبلغ تلفونياً في ليلة من ليالي الشتاء القارسة نبأ وفاته، فهرع إلى داره ووجده جالساً يطالع في ديوان المتنبي. فحياه وقبّله وعاتبه عتاباً مراً على هذه الدعابة القاسية، فأجابه نوري ثابت:

كان رفيق خالد بك من كتّاب الأتراك المعروفين، نال منصب الوزارة. ثم تقوّض عرش آل عثمان وهرب بقية الخلفاء والسلاطين وأرباب الدول، فلجأ صاحبنا إلى مدينة حلب وأنشأ فيها جريدة تركية. ورأى أن يداعب الجرائد التركية فأبرق إليها ينعى نفسه بتوقيع بعض أصحابه، فخرجت الصحف في الغداة تؤبّنه وتشيد بذكره وتطري مواهبه. ورأى في حياته كيف يكون منعاه بعد موته.

قال نوري ثابت لصاحبه المميّز: وأنا أيضاً دبّرت هذا النعي التلفوني لأقف على موقعي من نفسك!

ولقد أشاع المرجفون موت الشاعر الشعبي عبّود الكرخي فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أشـــاعـــوا نعّيك من غيظهم — يـريـدون للشعـر مـا لايـريـد
ولما تبّين إخفـــاقهـم — لـدى لنّـاس عـادوا بغيظ جـديـد
فعش وادعـــاً رغـم آنـــافهـم — بعمـر جـديـد وعيش رغيـد

قال مهدي مصطفى القزّاز ان نوري ثابت كان ضابطاً مقداماً في الجيش العثماني ينافح عن قوميته وبلاده ويعمل سراً وجهاراً على رفع شأن الأمة العربية وتعزيز مكانتها.. ويوم أن كان مدرساً في المدارس الأهلية والرسمية في العراق يهذب ناشئة البلاد ويسدّد خطواته نحو المجد والسؤدد باثاً في نفوسهم روح الاقدام والفضيلة. ولقد كانت له من تجاربه في الجيش خير عون على قيادة الطلاب نحو الاقبال على الدرس وارتشاف مناهل العلم... ولما كان بطبعه رياضياً فذاً فقد بثّ هذه الروح في نفوس طلابه، فخلق منهم شباباً قوياً جريئاً مقداماً ممتلئاً فتوّة ونشاطاً... وقد سماه بعض زملائه المدرسين «معلم عقل وبدن».

ثم أشار القزاز إلى حبزبوز الصحفي فقال انه اكتسب محبة الجماهير لأنه كان يكتب بلغة يفهمها الجمهور، باللغة الدارجة على الألسن وفي البيوت والمجتمعات ونوادي السّمر خالية من التكّلف وممزوجة بروح الدعابة والهزل والفكاهة ومطعّمة بالنقد اللاذع والتهكم المرّ، متناولة لما يجري من أوضاع في البلاد من سياسة واجتماع وأخلاق وأحداث كانت الدهماء من أبناء الشعب لا تعرف عنها شيئاً إلى أن صدرت جريدة «حبز بوز» فأخذت تنقلها اليهم بلغتهم الدارجة وأحاديثهم العادية مقدمة لها بمقدمة فكاهية تفهمها العامة وتعرف المقصود منها...

ميخائيل تيسي

ميخائيل نجاتي بن يوسف تيسي الكاتب الناقد الهزلي المعروف باسم «كنّاس الشوارع»، ولد في بغداد في ١٢ آب ١٨٩٥، ودرس في مدرسة القديس يوسف، وعمل في التجارة. ووظّف في تموز ١٩١٨ مترجماً بنظارة المالية، ثم نقل إلى دائرة الاوقاف فوزارة الدفاع.

أخذ بكتابة نقدات اجتماعية في جريدة الرافدين ودجلة باسلوب فكاهي، وسرعان ما ابتكر لنفسه أسلوباً هزلياً خاصاً مطعماً بالعبارات العامية والحكايات الشعبية لقي رواجاً من القراء، فكان ميخائيل تيسي من روّاد الصحافة الهزلية في العراق. وأصدر سنة ١٩٢٢ كتاب «ماهيّة النفس وروابطها بالجسد» أحدث ضجة

في المحافل الدينية . وأصدر جريدة اسبوعية هزلية باسم «كناس الشوارع» في أول نيسان ١٩٢٥ ، ثم اغلقها بعد اطلاق النار عليه واصابته بجرح خفيف . وانشأ في تشرين الاول ١٩٢٦ سلسلة روايات باسم «مرآة الحال» ، ثم أصدر في ١٧ كانون الاول ١٩٢٦ جريدة اسبوعية ادبية اجتماعية مع حسين الرحّال باسم «سينما الحياة» ، فلم تدم طويلاً .

وعاد ميخائيل تيسي إلى الوظيفة مديراً لناحية تلكيف (١٩٣١) فقائممقاماً لقضاء الشيخان (حزيران ١٩٣٢) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (شباط ١٩٣٤) حتى فصل من الخدمة في شباط ١٩٣٦ . وعاوده الحنين إلى الصحافة فأصدر جريدة اسبوعية جديدة باسم (الناقد» (٦ ايار ١٩٣٦) وظلّ يصدرها إلى ٢٦ شباط ١٩٣٩ ، وكانت تجمع الجدّ إلى الهزل وتعنى بالإصلاح الاجتماعي والسينما والمسرح وغير ذلك من الشؤون .

ووظف بعد ذلك مميزاً في دائرة الإذاعة (آذار ١٩٤٢) ونقل إلى الديوان الملكي وأصبح مديراً فيه في تشرين الاول ١٩٤٩ ، واعتزل الخدمة سنة ١٩٥٧ . وتوفي في كانون الأول ١٩٦٢ في بغداد . وقد جمعت طائفة من مقالاته الانتقادية في كتاب «نقدات كنّاس الشوارع»صدر منه ٥ أجزاء (١٩٢٢ ــ ٢٦) . وألف رواية «ضحية العدالة» (١٩٢٩)الخ .

قال رفائيل بطي في محاضراته عن الصحافة في العراق : «سألته يوماً : لماذا اخترت «كناس الشوارع» اسماً قلمياً لك؟ فأجابني : أردت أن أختار شخصية آدمية كثيرة التجوال في شرايين المدينة وقلبها ، دوّارة تقترب من الأبواب وتدخل البيوت ، بيوت الفقراء وقصور الأغنياء ، فلم أجد خيراً من كناس الشوارع . ثم وددت ، واني أعتزم الانتقاد والحملة على العادات والنواقص في الناس والمجتمع ، أن اختار اسماً يوافقه حمل سلاح للتهويش والضرب ، ولسميّي مكنسة مشهرة دائماً يحملها على كتفه ويكنس بها وينظف ، وقد يستخدمها للضرب والدفاع عن النفس عند الحاجة» .

ثم يقول :

«وتدور أكثر ملاحظاته حول النظافة ووجوبها ، والتشنيع بحركات الآخرين وأصواتهم المزعجة ، وفضح جيل الباعة والدوارين ، ثم تنبيه بعض الدوائر الحكومية ولا سيما البلديات إلى ما هو من واجباتها من تنظيف وانارة الطرق وتجفيف البرك في الشوارع . ويعمد كناس الشوارع أحياناً إلى النقد الأخلاقي والاجتماعي ، فيعرِّض بالعادات السيّئة والطبع اللئيم ، ويصف أمراض الحياة والبيئة ومساخرها وحيل النسوان وبلادة الرجال ـ وبتعبير محكم ـ الأزواج .

«وكتابات هذا الكاتب الهزلي طراز لتفكير طبقة كبيرة ممّن أصابوا حظاً من التعليم. ومع أنه يجيد الفرنسية ويحسن الانكليزية فلم يعنَ أن يسلك طريقة أحد الكتاب الفرنسيين أو الانكليز الهزّالين، بل اهتم بأن يفكر ويستوحي من الجوّ المحلي. وهذا سرّ اقبال الجمهور على قراءته..»

خلف شوقي الداودي

ينتمي إلى قبيلة الداودة الكردية التي تقطن في لواء كركوك، وكان أبوه أمين ضابطاً في الجيش التركي، وقد ولد خلف شوقي في بلدة الديوانية سنة ١٨٩٨، وقضى سني صباه في الحلة. ثم جاء إلى بغداد وانتمى إلى دار المعلين، وجنّد ضابطاً احتياطياً في اثناء الحرب العظمى، فحارب في جبهة العراق. وأسره الانكليز فاعتقلوه في الهند، وهيّء له فيها تعلّم اللغتين الانكليزية والهندية، إلى جانب التركية والفارسية والكردية التي عرفها في بلاده.

عاد إلى العراق فانخرط في سلك الوظيفة في ايار ١٩١٩. وعمل بعد ذلك في الصحافة، فكان محرراً في جريدة الاوقات العراقية في البصرة. وأصدر في تلك المدينة مجلة باسم «شط العرب» (كانون الثاني ١٩٢٣)، فلم يصدر منها سوى عدد واحد. وحرّر بعد ذلك في جريدة الاوقات البغدادية، وأصدر جريدة «شط العرب» في بغداد في آذار ١٩٢٤، فدامت نحواً من ستة أشهر.

عيّن مترجماً في وزارة المالية فمفتشاً مالياً (تشرين الأول ١٩٢٦) فسكرتيراً مالياً لوزارة الاقتصاد والمواصلات (حزيران ١٩٣٥) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (كانون الثاني ١٩٣٨). وتوفي ببغداد في ٢ شباط ١٩٣٩.

كان خلف شوقي ميالاً إلى الدعابة والفكاهة منذ صباه، فلا عجب أن أصبح كاتباً هزلياً فكهاً ينتقد المجتمع العراقي انتقاداً ساخراً لاذعاً. أما اسلوبه الكتابي فكان، كما قال جعفر الخليلي، اسلوباً صحافياً قليل الغور، لكنه مطبوع بطابع جذاب فيه الشيء الكثير من الحلاوة والمتعة على الرغم مما يعتوره من المآخذ اللغوية والنحوية. وكتب قصصاً جمعها في كتاب باسم «سفينة نوح» نشر بعضها في مجلة الهاتف النجفية وحال موت المؤلف دون طبعها.

وله مؤلفات أخرى، منها: قصص مختارة من الأدب التركي (١٩٣٦) الفلقة (١٩٣٨)، قضية فلسطين (مجموعة مقالات مترجمة، ١٩٢٤)، نقدات الملا نصر الدين (١٩٢٣) وساوس السلطان عبد الحميد (مترجم)، زاد المسافر (رسالة تاريخية للشيخ فتح الله الكعبي، حققها ونشرها سنة ١٩٢٤)، ذكرى سعد زغلول (١٩٢٧).

ومن مصنفاته المخطوطة: مائة فكاهة وفكاهة، حقيبة الداودي، الخ.

قال جعفر الخليلي مشيداً بأثر خلف شوقي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً»:

«وبالاجمال فإنّ خلف شوقي من أوائل روّاد القصة العراقية الحديثة ومن الذين انفردوا بنوع خاص منها، لا من حيث امتزاجها بالفكاهة فحسب، وإنما من حيث جوهرها وسبكها وكونها قصصاً تحوم حول ذاته على الغالب». وأشار إلى النقص الفني، حسب رأيه، في هذه القصص فقال إنه الإطالة أو الإيجاز في غير مواقفها، وعدم مراعاة الخبن الفني الذي تقتضيه قواعد القصة ووضع الحوار.. وقال: إن الداودي قد وفّق في الكثير من قصصه توفيقاً غير قليل من الناحية الفنّية.

مريم نرمة

الصحفية مريم نرمة بنت رفائيل يوسف رومايا، ولدت ببغداد في ٣ نيسان ١٨٩٠ ودرست في مدراسها. وقد أخذت تكتب المقالات الاجتماعية في الصحف بعد الحرب العظمى الاولى ومارست التعليم. واقترنت بمنصور كلّوزي الموظف في دائرة الكمارك والمكوس، ولم تنجب ولداً.

أصدرت صحيفة «فتاة العرب» في ايار ١٩٣٧ وواظبت على إصدارها نحواً من ستة أشهر. وقد أخبرني يوسف يعقوب مسكوني أنه ساعدها في تحرير صحيفتها. وعاشت بعد ذلك في عزلة هادئة، لكن أقيم لها في ايار ١٩٤٥ احتفال في ذكرى اليوبيل الفضّي لمشاركتها في النشاط الأدبي. وكرّمتها وزارة الإعلام العراقية سنة ١٩٦٩ بأنها من رائدات الصحافة النسائية، وذلك في أثناء الاحتفال بمرور مائة سنةعلى الصحافة العراقية وصدور جريدة الزوراء.

توفيت مريم نرمة ببغداد في ١٥ آب ١٩٧٢. واسمها «نرمة» كلمة فارسية تعني «لطيفة».

كانت مريم نرمة في مقدمة الداعيات إلى نهضة المرأة العراقية وتعلمها. وقد كتبت سنة ١٩٢٤ مقالاً في مجلة المصباح البغدادية بعنوان «العيشة الزوجية». قسمتها هذه العيشة إلى قسمين: هنية وشقية. وقالت ان العيشة الهنية ترتكز على الحب والطاعة والعفة والصفات المحمودة والاخلاق الحسنة. وقالت ان سعادة الزواج تكون بالمحبة واتحاد الزوجين بقلب واحد ونفس واحدة. وصاحب الأخلاق الراقية يجب ان يكون معلماً حاذقاً ومدبراً نشيطاً لزوجته يجد ويجتهد لاعالة زوجته واولاده.

وارتأت أن تكون الزوجة تلميذة ذكية فطنة تسمع نصائح زوجها وتنفذ أوامره، وتقوم بجميع أعمال منزلها وتربي أولادها خير تربية وتمارس طرق الاقتصاد لتكون زوجة صالحة وأماً فاضلة.

ووصفت الشقاء الـزوجي وما يلابسـه من القسوة والشراسة والعجـرفة، ولا سيما في العوائل التي قـامت على الزواج طمعـاً بالمهـور العالية أو شغفـاً بالجمال الـزائل والمحبة الفاسدة. ولم تبخل الكاتبة في نهاية الأمـر بنصائحها في الزواج وتكوين الأسرة الصالحة القائمة على الأخلاق والحب والفضيلة.

يوسف هرمز

من رجال الصحـافة يوسف هـرمز جَمُّو ولد في بلـدة تلكيف سنة ١٨٩٢ وعمل في الزراعة والحيـاكة. وقدم إلى بغداد سنـة ١٩١١، ثم رحل إلى البصرة ودرس في المدرسة الأميركيـة (١٩١٥). وفي سنـة ١٩١٧ عيّن معلماً في نفـس المدرسـة فمارس التعليم ١٦ عاماً.

أصدر جريدة «صوت الشعب» في البصرة (١٩٣٥) ثم نقلها إلى بغداد وواظب على اصدارها أعواماً طويلة.

وقد توفي سنة ١٩٦٥ في بغداد بحـادث سيارة. ألف كتباً منها: الضعفاء (١٩٢٧) آثـار نينوى أو تـاريخ تلكيف (١٩٣٧) ستـة أشهـر في أميركة (١٩٤٨). وتـرجم عن شكسبير «الضلالة» و«الكيل بالكيل».

عبد القادر المميّز

من كتّاب الصحـافة الهزلية، لازم نـوري ثابت (حبزبوز) أعـواماً طويلـة وسار على نهجه في كتاباته الفكاهية ونقداته الاجتماعية.

وهو عبـد القادر بن عبد الـوهاب بك بن عبـد القادر المميّز بن محمـد صالح بك. ينتمي إلى أسرة بغداديـة معروفة تتـولّى أوقاف عادلة خـاتون بنت أحمد باشـا والي بغداد وزوجـة الوالي سليمان بـاشا المتـوفّاة سنـة ١٧٦٧. وكان جـدّ الأسرة ابراهيم المميـز من موظفي الدولة العثمانية.

ولد ببغداد في نحو سنة ١٩٠٠، ودرس في المدرسـة السلطانية على العهد العثماني. وعمل في الحكومـة العراقية مـوظّفاً مالياً، وتنقّل في الألـوية، حتى اعتزل الخدمـة سنة ١٩٣١. ثم أصدر جريدة فكاهية في بغداد باسم «أبو حمد» (١٩ تشرين الاول ١٩٣٣) وظلّ يصدرها أعواماً.

أدركته الوفاة في بغداد في ١٢ تشرين الاول ١٩٥٤.

يوسف رجيب

الصحفي الأديب يوسف بن حمود بن مهدي رجيب ولد في النجف سنة ١٩٠٠ من أسرة خفاجية متواضعة. وكان والده عطاراً، وقد توفي ويوسف طفل يحبو إلى الرابعة من عمره، فكفله عمه ناصر. مال إلى الدرس صغيراً، فأكبّ على تحصيل اللغة والأدب وواظب على المطالعة حتى كوّن لنفسه ملكة أدبية ومقدرة كتابية. وقد استهوته الآراء الإصلاحية والافكار الحديثة، فلما أسست مدرسة الغريّ سنة ١٩٢١، انتمى يوسف رجيب إلى قسمها المسائي ارواء لظمأ العلم في نفسه. وقد قال حسن الأسدي فيه: «وعاش ثورة النجف على الأتراك في عام ١٩١٥، وثورتها على الانكليز في عام ١٩١٨، وأحداث الثورة العراقية الكبرى على الانكليز في عام١٩٢٠ والتي كانت النجف مركزها الرئيسي، عاش كل هذه الأحداث، وهو يجمع بين عمله المعاشي في دكان العطارة، وبين دراساته الأدبية وتتبّعاته الثقافية في الصحف والمجلات».

وأصدر في نيسان ١٩٢٥ جريدة اسبوعية باسم «النجف» فواصل إصدارها نحواً من سنتين، وكان في الوقت نفسه يقوم بالتدريس في مدرسة الغريّ.

وترك النجف إلى بغداد سنة ١٩٢٧، وعيّن مدرساً في المدرسة الحسينّية. وشارك في تحرير جريدة «الزمان» التي ربطته أواصر الصداقة بصاحبها ابراهيم صالح شكر. ثم عهد إليه برئاسة تحرير جريدة «النهضة العراقية» التي أصدرها حزب النهضة في آب ١٩٢٧.

واضطرته الحاجة بعد ذلك إلى قبول وظيفة مفتش استهلاك في الهندية والمسيّب (١٩٣٤) فمدقق ماليّ. وقد أوفد إلى سوق الشيوخ، فلما وقع التمّرد فيها سنة ١٩٣٥، اعتقل يوسف رجيب وأحيل على المجلس العرفي في الناصرّية. ثم أطلق سراحه وأعيد إلى الوظيفة منقولاً إلى الفلوجة، ونقل إلى بغداد سنة ١٩٣٨، وعيّن ملاحظاً للرسائل في ديوان وزارة المعارف. ثم عيّن ملاحظاً في المفوضية العراقية بدمشق سنة ١٩٤٥. وأصيب بالسّل فدخل مصح ظهر الباشق في لبنان، وقضى نحبه فيه في ٨ حزيران ١٩٤٧.

كان كاتباً سياسياً واجتماعياً لطيف الأسلوب وجندياً مجهولاً من جنود الصحافة العراقية في سنوات العشرين. وألف قصة «المهادي الشمري» (١٩٤٢).

رثاه الشاعر عبد الحسين الأزري فقال:

قابلتُ نعيك من ربوع الشّام ... في مقلة عبرى وقلبٍ دام
أنكرتُ من جزعي عليك سماعه ... وظننته من مُرجفٍ نمّام
ولَبِثْتُ بين مصدّق ومكذّب، ... والنفس تغري الشك في إيهامي . .

حتى يقول :

نم هادئاً، إنّ المنية فُرجةٌ ... تُحمى الأباة بها من الإرغام
ما قيمة الدنيا إذا جبلت على ... أن لا يعيش الحرّ غير مُضام؟
ما العمر الاّ فترةٌ محدودة، ... يا ليتها لو تنقضي بسلام

محمد طه الفيّاض

محمد طه الفياض العاني ينتمي إلى قبيلة المشاهدة الحسينية، ولد في عنة سنة ١٨٩٨، ودرس على والده وفي المدارس الرسمية. وعيّن أميناً لصندوق البلدية، ثم جاء إلى بغداد سنة ١٩١٥ وولج دار المعلمين. وأخذ إلى الاستانة حيث أدخل دورة عسكرية منح على أثرها رتبة نائب ضابط.

اشترك في الحرب العظمى في صفوف الجيش التركي، فرفّع ملازماً ثانياً وشهد معارك الحجاز وفلسطين. وأسره الانكليز فاعتقلوه في مصر، حتى إذا ما عقدت الهدنة أخلي سبيله وعاد إلى مسقط رأسه عن طريق البصرة. وعمل كاتباً لناحية عنة، ثم شخص إلى البصرة حيث مارس التجارة وعني بالشؤون الوطنية والاسلامية، فاشترك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية وجمعية الدفاع عن فلسطين. وأبعد إلى اربيل في حوادث سنة ١٩٣١، ثم عاد إلى البصرة واستأنف نشاطه. واقتحم ميدان الصحافة، فأصدر مجلة الشبان المسلمين سنة ١٩٣٤، وشفعها عند اغلاقها بمجلة صدى الشبان المسلمين وصوت الشبان المسلمين. وأنشأ جريدة السجّل اليومية سنة ١٩٣٧، وكانت من الجرائد السياسية الإسلامية.

وجاء بعد ذلك إلى بغداد فأصدر جريدة اللواء، ثم اعاد اصدار جريدة السجل (تشرين الاول ١٩٤٦). وبعد نشوب ثورة تموز ١٩٥٨ أنشأ جريدة «الفجر الجديد» في كانون الثاني ١٩٥٩.

وفي آذار ١٩٥٩، بعد انهيار تمرّد العقيد عبد الوهاب الشوّاف في الموصل، هاجم الجمهور مكتب جريدته ومكاتب جريدة اليقظة وغيرها وحطمت مطابعها. ثم أعاد طه الفياض إصدار جريدة «الفجر الجديد» بعد انحسار المدّ الشيوعي في تموز من تلك السنة.

وانتخب نقيباً للصحفيين في حزيران ١٩٦١ خلفاً لمحمد مهدي الجواهري وأعيد انتخابه في نيسان ١٩٦٢ .

أدركته الوفاة في بغداد في أواخر تشرين الاول ١٩٦٤ بعد جهاد صحفي طويل .

من مؤلفاته : صولة الحق على جولة الباطل ، اللغة العربية رابطة الشعوب الإسلامية (١٩٣٥) الاعصار الشديد في تنفيذ سياسة السعيد (١٩٥٦) الظلم لا يدوم (١٩٥٩) عدوان الانكليز على واحة البريمي (١٩٥٥) كيف تحارب الشيوعية الخ .

عبد القادر السيّاب

من رجال الصحافة ، ينتمي عبدالقادر السيّاب إلى أسرة عربية من عشائر ربيعة نزحت إلى البصرة منذ عهد عهيد . وهو ابن الشيخ سيّاب المرزوق ، ولد في أبي الخصيب في نحو سنة ١٩٠٠ وأتم دراسته الثانوية في بغداد .

انتمى ، وهو شاب ، إلى الحزب الوطني العراقي وأصدر صحفاً أدبية مع أحمد جمال الدين كجريدة الحوادث (آذار ١٩٣٠) . ثم انفرد باصدار جريدة الناس اسبوعية مصورة (كانون الثاني ١٩٣١) . وأصبح في شباط ١٩٣٢ سكرتيراً لتحرير جريدة بهلول التي احتجبت سريعاً .

وعاد إلى البصرة فأسّس فرعاً للحزب الوطني في أبي الخصيب ، وبعد ذلك في مدينة البصرة ، ثم أسس فرعاً لحزب الاخاء الوطني فيها . وأعاد إصدار جريدته «الناس» سياسية يومية في البصرة (١٩٣٥) فعطّلت واعتقل صاحبها مراراً . وأبعد إلى كويسنجق في كانون الاول ١٩٣٨ مع فريق من رجال السياسة والشباب الوطني .

وقد انتخب نائباً عن البصرة في حزيران ١٩٣٩ إلى حزيران ١٩٤٣ . وأصدر جريدة «الجهاد» (نيسان ١٩٤١) ، ثم اعتقل خلال الحرب العالمية الثانية وأبعد إلى الفاو والعمارة . وأعاد إصدار جريدة الناس أعواماً طويلة ، وتولّى بعد ذلك إصدار جريدة «الحياة» .

أدركته الوفاة بالبصرة في ٢٠ شباط ١٩٧٠ .

محيي الدين أبو الخطّاب

محيي الدين الشيخ شهاب المعروف بـ «أبي الخطّاب» ، الصحفي الحقوقي الأديب ، ولد بالموصل سنة ١٨٩٦ . وتخرّج في دار المعلمين سنة ١٩١٥ ، وألحق بمدرسة ضباط الاحتياط خلال الحرب العظمى فمنح رتبة ملازم ثانٍ في الجيش التركي .

ودرس بمدرسة الحقوق في بغداد فنال اجازتها سنة ١٩٢٦ ، وزاول المحاماة . ثم أصدر جريدة «الأديب» الاسبوعية في الموصل سنة ١٩٣٤ ، فثابر على إصدارها وجعل اسمها «الرقيب» (١٩٦٣).

توفي في مسقط رأسه سنة ١٩٧٠ . وكان أبو الخطاب ظريفاً حسن الدعابة . وله مطارحات أدبية مع شعراء عصره ولا سيّما محمود الملاح الذي نظم فيه شعراً كثيراً على سبيل التفكهة . وداعبه عبد الجبار الجومرد يوم أصدر جريدته «الأديب» فقال :

لم يكن كاتباً أبو الخطّاب ... بل طبيب الأرواح والألباب

الكسائي يستقي النحو منه ... والحريريّ واقف بالباب

قال الدكتور أكرم فاضل : سئل عن علة وقوف الحريري بالباب فأجاب : لقطع التذاكر.

حدثني الدكتور أكرم فاضل قال : كنت ، قبل أن أشدّ الرحال إلى باريس وأحصل على شهادة الدكتوراه في القانون ، كاتباً في محاكم الموصل ، فعرفت المحامي محيي الدين أبا الخطّاب الذي كثيراً ما كان يترافع أمامنا . وجاءني في يوم من أيام الربيع قبيل الظهر وقال لي : أتخرج معي في نزهة خلوية إلى ظاهر المدينة حيث العشب العطر والزهور والرياض؟قلت : ولكن كيف أصنع وأنا مقيّد بالدوام؟ فذهب إلى الحاكم واستأذن لي بالخروج .

وكانت سيارة فخمة في انتظارنا عند باب المحكمة ، وفيها شاب وسيم من أبناء العشائر يرتدي حلة أنيقة من ثوب وعباءة وكوفية وعقال . فامتطينا سيارته ، ومضى بنا بأمر من أبي الخطاب إلى السوق ، فاشترى أطيب المأكولات والفاكهة .

وقال الشاب : والآن هل نذهب إلى حيّ العرب لأداء مهمتنا؟ فأجاب أبو الخطاب : بل نمضي أولاً إلى ضفاف دجلة حيث الماء والخضراء لنتناول الطعام ونتمتع بأفياء الربيع ، ولدينا بعد ذلك متّسع من الوقت لانجاز العمل الذي أوكلته إليّ .

وكان الكلأ يمتّد بساطاً أخضر يصل الأفق بالنهر الرقراق . فجلسنا ، ساعة وبعض ساعة نأكل ونشرب ، وأبو الخطاب يقصّ علينا ما لذّ وطاب من نوادره وأخباره مرصّعاً قصصه بالأمثال والأشعار.

ثم ركبنا السيارة واتجّه الشاب إلى البّر حتى بلغنا بعد لأي حياً من البدو يخيمون في الأرض الملساء . ووقف بنا على مبعدة من الخيام ، ونزل أبو الخطاب يتبعه الشاب وسارا يقصدان مضارب الأعراب ، وصاحبنا المحامي يتلكأ في سيره ، ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى ويتلفّت إلى الوراء ، والشاب يستحثّه ويستعجله . وسرعان ما نبحت الكلاب وخرجت نسوة من الحيّ لاستطلاع الخبر، ثم تبعها الرجال والاولاد ، ورأوا أبا الخطاب

يأتي اليهم فتقدموا نحوه، ولم يروا صاحبه الشاب وراءه حتى علموا مغزى الزيارة، فصاحوا بالقادمين: ما لكم ولنا تجيئون إلى بيوتنا وتقلقون راحتنا؟ وأمطروهما بوابل من الشتائم وحصبوهما بالحصى والحجارة. وعاد أبو الخطاب أدراجه يجري كالكتيبة المهزومة، ولا تكاد تحمله رجلاه، والشاب يسير خلفه ويقول بأعلى صوته: انّ مقصدنا شريف، ولا غاية لي الا الزواج على سنة الله ورسوله!

بيد أنّ الكلاب بادرت بالهجوم وهي تنبح نباحاً مخيفاً، ووراءها الرجال والنساء يقذفون الشتائم ممزوجة بالحجارة. فجرى أبو الخطاب وصاحبه، ولم يصدّقا أن دخلا السيارة التي انطلقت تسابق الريح.

ولما ارتاح أبو الخطاب وسكن جأشه وهدأت نبضات قلبه، قلت: يا أستاذ، ما هذا المشهد المثير بعد تلك النزهة اللطيفة والغداء اللذيذ؟

فقال ضاحكاً: أنا وكيل هذا الشاب المترف النبيل. لقد رأى جارية حسناء من جواري ذلك الحيّ فشغف بها حباً، وخطبها الى أهلها فردّوا طلبه. وقد وكلني، وأنا المحامي الـمِدْرَه والخطيب المفوّه، لأقنعهم بمصاهرته، فرأيت من أمرهم ما رأيت.

قال أكرم فاضل: وكان ذلك آخر عهدي بنزهات أبي الخطاب.

كان أبو الخطاب أكولاً، وكأنه ذلك النهم الذي وصفه ابن الرومي في شعره الرائع. قال توفيق السمعاني:

جاء أبو الخطاب يوماً الى بغداد، فلما قضى أشغاله وودّع أصحابه، قال لي: إنني أزمع العودة مساء اليوم بالقطار، فأحضر لي عشاء يشبعني وأْتِ به عصراً الى الفندق لتأخذني بسيارتك الى المحطة، وذلك أقلّ ما يقوم به الصديق. قلت: على العين والرأس.

أخذته الى المحطة قبل موعد قيام القطار، وقد أحضرت زنبيلاً كبيراً فيه عدد من كبّة الموصل يكفي لعدة أشخاص، مع الفاكهة وغيرها. ووصلنا الى المحطة مبكّرين، فاقترح أبو الخطاب أن نجلس في المقهى ونلعب النرد ريثما يحين موعد السفر. وقال: أين زاد الطريق؟ فجلب السائق زنبيل الطعام ووضعه عند قدميه.

وأخذ أبو الخطاب يرمي الزهر ويتناول شيئاً من الزنبيل ويضعه في فمه، وهو يواصل اللعب. ولم نسمع صافرة القطار حتى كان صاحبنا قد أتى على كلّ ما في الزنبيل من كبّة وفاكهة. فدفع بالنرد جانباً وقال ضاحكاً: خذ زنبيلك، يا رجل. وسنمضي الليلة جائعين، سامحك الله وأغدق عليك!.

***

قلتُ: جاءني أبو الخطاب يشتري سيارة من طراز «شفروليت»، فألحّ في طلب السماح وتخفيض السعر. وقال: ليست هذه السيارة لي، وإنما هي لمساكين الموصل

وأيتامها وأراملها! قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنني سأقف في شوارع الموصل صباحاً ومساءً وأنقل بها الضعفاء وأبناء السبيل مجاناً لوجه الله تعالى.

وابتاع السيارة بسعر متهاود وشروط سمحة، فأنشأ في جريدته «الأديب» مقامة يصف فيها السيارة وشراءها على طريقة الحريري وبديع الزمان.

وقد قلت فيه مداعباً:

أبو الخطاب، يا نعم المحامي!	أبو الأيتام والرّهط الصِيَام
أديب كاتب فذ خطيب	له في الصُّحْف مرموق المقام
رؤوف بالمساكين الأيامَى	وخصم المعتدين من اللئام
قنوعاً زاهداً تلقاه حقاً	وطمّاعاً لإسعاد الأنام
فباسم العطف قد «ضرب» الأراضي	ليبذل ماله بذل الكرام
فإنّ المال أودع في يديه	لكي يحبو الأرامل بالطعام
ويركب مركباً رهواً سريعاً	فيحمل من يدبّ من الطَّغام
ويأكل مأكلاً دسماً وفيراً	ليدمغ آكلي السُّحْت الحرام
يوافي الأصدقاء بغير وعد	ويبدي الودّ رعياً للذمام
ويشكر نعمة الباري عليه	فيلتهم الطعام مع الإدام
ويقضي بين أصحاب القضايا	قضاء مقسّط سلس الكلام
يريد رضاءهم ليفوز منهم	بأجر بزّ تَهْطال الغمام
وتلك خصاله: كرم وبرّ	وإفشاء المروءة والسلام

إبراهيم الجلبي

من رجال الصحافة إبراهيم بن محمود بن عبد الرحمن الجلبي، ولد بالموصل سنة ١٨٨٢، وبدأ عمله الصحفي سنة ١٩٣١ في جريدة «العمال» لصاحبها سعد الدين زيادة. وأصدر جريدة «فتى العراق» سنة ١٩٣٤ وحرّرها ثلاثين عاماً، ثم استعاض عنها بجريدة «فتى العرب» (١٩٦٤).

وأسّس مطبعة «أم الربيعين» واشترك في جمعيات البرّ والإحسان والثقافة في مسقط رأسه. وساهم في تحرير جريدة «الرقيب» التي صدرت سنة ١٩٣٧.

أدركته الوفاة بالموصل في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٢.

شفيق نوري السعيدي

من رجال الصحافة والقانـون شفيق نوري السعيدي ينتسب الى أراضي السُّعَيْدة على نهر ديالى جنوبيّ بغـداد. ولد ببغداد سنة ١٨٩٥ ودرس في مدرسة الحقـوق فتخرج فيها سنـة ١٩٢٣، واتّهم سنة ١٩٣١ بـالاشتراك في قضيـة الرسـائل السريـة في عهد وزيـر الـداخلية مـزاحم الأمين البـاجة جي مع أخـويـه رفيق وجميـل وفاضـل قـاسم راجي وغيرهم.

وقبض عليه في كـانون الثاني ١٩٤٠ إثـر مقتل رستم حيدر وزير الماليـة مع إبراهيم كمال وعارف قفطان وصبيح نجيب الخ، ثم أطلق سراحه. وأصـدر جريدة «الشهاب» اليومية في تموز ١٩٤١، فظلّت تصـدر خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أعـاد إصدارها في تشرين الثاني ١٩٥٢. وكان شعارها:

إنّ الشهـــاب لنـــور يستضـــاء بـــه   حينـــاً، وحينـــاً رجـــوم للشيـــاطين

وانتخب نائباً عن لـواء بغداد في نيسان ١٩٤٢ خلفاً لعلي جـودت الأيوبي، ثم أعيد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ الى تشرين الثاني ١٩٤٦.

وقد توفي ببغداد في ٩ تشرين الأول ١٩٥٨.

كان له مجلس حافل يحضره رجال السياسة والصحافة والأدب.

محمد علي البلاغي

من الصحفيين الألمعين، وهــو محمــد علي بن حسن بن مهــدي ينتسب الى أسرة البلاغـي الدينيـة النجفية المتحدّرة مـن جدّها الأعلى الفقيـه المتبحِّر الشيـخ محمد علي البلاغي المتوفى سنة ١٥٩٢م.

ولد محمـد علي في النجف سنة ١٩١٣ ودرس في معاهـدها. وأصدر فيهـا في شباط ١٩٣٢ مجلته «الاعتـدال» الشهرية التي أصبحت مـن مجلات العراق الراقيـة واجتذبت أقـلام أشهـر الكتّاب والشعـراء. واحتجبت المجلـة سنـة ١٩٤١ حين اشتـدّت وطأة الحرب، ثم عادت الى الصدور سنة ١٩٤٦ سنة واحدة.

ترك البـلاغي مجلته بعـد ذلك، ثم لجأ الى ميدان الوظيفـة فعيّن مديـراً لفرع مصرف الرافدين في النجف (تشرين الثاني ١٩٤٩) وأقام في منصبه أعواماً طويلة.

توفي في ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٦.

نـور الـدين داود

من رجـال الصحـافة نـور الـدين داود سليم، ولـد سنة ١٨٩٨ ودرس في مـدارس بغـداد، ووظّف في دائرة البرق في تشرين الثـاني ١٩١٩. وأصـدر بعـد ذلك مجلّـة «الحديث» (تشرين الثاني ١٩٢٧)، فدامت سنة واحدة.

وعاد موظفاً في مديرية الواردات العامـة، ونقل معاوناً لمدير كمرك بغـداد (حزيران ١٩٣٦). وعيّن مديراً عاماً للدعاية في حزيران ١٩٤١ فنهض بأعباء منصبه أشهراً، ثم أعيد في أواخر تلك السنـة معاون مدير كمرك ومكوس. وأصبح معاونـاً لمدير التموين العام (آذار ١٩٤٢) وعهـدت إليه وكالـة مديـرية وسائل النقل العـامة (آب ١٩٤٢). وكان بعـد ذلك مفتشاً مالياً (شبـاط ١٩٤٣) فمعاون مدير انحصـار التبغ العام (تموز ١٩٤٣).

واعتزل خـدمة الحكومـة فأصدر جريدة «النـداء» اليوميّة (آب ١٩٤٤)، فجـريدة «الرائد» (كانون ثاني ١٩٤٧). وانتخب رئيساً لجمعية الصحفيّن (١٩٤٧).

ألّف كتباً منها: حقوق الإنسان (١٩٤٩) محنة في الفردوس: بلاد كشمير (١٩٥٠) ضحيّة المكائد (١٩٥٠).

توفي ببغداد سنة ١٩٥٥.

إبنته: الشاعرة أميرة نور الدين داود، ولدت ببغداد في تموز ١٩٢٥ وتخرّجت في كلية الآداب بجامعة القاهرة (١٩٤٧). وزاولت التعليـم في المدارس الثانوية، ثم عادت الى القـاهرة ونـالت درجة «الماجستير» في شبـاط ١٩٥٧، وكان مـوضوع رسـالتها «الشعـر الشعبي في منطقـة الفـرات الأوسط». وعيّنـت مـدرسـة في دار المعلمات الابتـدائيـة في بغداد.

نظمت الشعر منذ حداثتها ودرست العروض على صديق والدها الشاعر جميل أحمد الكـاظمي (١٩٠٧ ـ ١٩٧٠). ونقلت الى العـربيـة نظماً «درراً من شعر إقبـال شاعـر الإسلام وفيلسوفـه» (١٩٥١). قالت الشعر في المناسبـات الوطنية والقوميـة، وطرقت أبواب الـوصف والرثاء، وتمسّكت ـ كما ذكـرت صبيحة الشيخ داود ـ بأهـداب المدرسة الكلاسيكية القديمة.

قالت أميرة نور الدين في الربيع:

ربيـع ولكـن الفـــؤاد ملـــــوع	وفي العين في إثـر الـدمـــوع دمـــوع
ربيـع ونــــــار الحزن تحرق مهجتـي	كما احترقت للسّـــامـــرين شمـــوع
ربيـع وقـــد عـــزّ التصبر مطلبـــاً	وغـادر منّـي القلب وهـو جـزوع . . .
ربيـع ألا ليـت الـــــربيـع بما مضـى	يعـــود ففـي قلبي اليـــه نـــزوع

وصرّحت أميرة نور الدين أنها تأثرت بطه حسين وأحمد أمين والدكتورة سهير القلماوي التي أشرفت على رسالة «الماجستير». وقالت، وهي من الشاعرات الملتزمات بالشعر العمودي، إن النتاج الأدبي الحديث فيه الغثّ والسمين، وإن التجديد في الشعر قسمان: مستساغ جيد ورديء ممسوخ. ونصحت من لا تتوافر له الموهبة الشعرية أن ينصرف الى كتابة النثر، ودعت الجيل الصاعد الى قراءة التراث القديم والإفادة منه. وقالت إنها لم تتأثر بالأدب العالمي إلا في نطاق محدود، لا يتجاوز ترجمة طائفة من القصائد من اللغتين الفارسية والانكليزية.

هذا وقد نظمت أميرة قصيدة في رثاء والدها مطلعها:

أبي، صدفت عن الدنيا على عجل   أبي، حنانيك قد حطّمت لي أملي...

سعد الدين زيادة

من رجال الصحافة والمحاماة والقضاء، أحمد سعد الدين زيادة ابن الشاعر الأديب داود سليمان الملاح المتوفى سنة ١٩١١.

ولد بالموصل سنة ١٩٠١ ودرس الحقوق وزاول المحاماة. وأصدر في مسقط رأسه جريدة «العمال» (أيلول ١٩٣١)، ثم تولى تحرير جريدة «فتى العراق».

وبعد أعوام طويلة قضاها في الصحافة والمحاماة، انتمى الى سلك القضاء وعيّن مدوّناً قانونياً (حزيران ١٩٤٥). ونقل حاكماً بمحكمة استئناف حقوق الأراضي ببغداد (نيسان ١٩٤٩) فرئيس المنطقة العدلية في لواء ديالى (حزيران ١٩٥٤) فحاكم استئناف التسوية بالموصل (حزيران ١٩٥٦). واعتزل الخدمة بعد ذلك.

يونس بحري

يونس بحري الجبوري المعروف في شبابه بـ «السائح العراقي» كاتب وصحافي ومذيع كثير المغامرات والأسفار، ولد في الموصل سنة ١٩٠٤ لأسرة كادحة رقيقة الحال. وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية في بغداد سنة ١٩٢١، لكنه لم يكمل دراسته والتحق بوظيفة كتابية في وزارة المالية.

وترك وظيفته سنة ١٩٢٣ ومضى الى خارج العراق في سياحة معتمداً على نفسه وسائراً في معظم الأحيان على قدميه، فجاب أنحاء أوروبة وآسية واشتغل في مختلف المهن. وعاد الى بغداد بعد سنتين، لكنه لم يلبث أن عاود السفر في السنة التالية في البلدان المختلفة فسجن في باريس وزار تونس وليبيا وحضرموت وجاوة والهند

والأفغان وإيران ورجع سنة ١٩٣٣ ، ناسجاً حول أسفاره قصصاً تمزج الحقيقة بالخيال. وأصدر في أثناء سياحته، على ما رواه، صحفاً منها «الكويت والعراق» و «الحق والإسلام».

أصدر في بغداد جريدة العُقاب في تشرين الثاني ١٩٣٣ ، و «الميثاق» (١٩٣٤)، ففرض الأتاوة على التجار والموظفين. ثم سافر الى المغرب العربي سنة ١٩٣٧ ومضى الى باريس فكلفه السيد قدّور بن غبريط بتعهد شؤون الجامع الذي أنشأه فيها سلطان مراكش سيدي محمد بن يوسف والمقهى والحمّام الملحقين به.

ولما بدت سحب الحرب العالمية ذهب الى برلين في نيسان ١٩٣٩ وأصبح مذيع محطتها العربية الداعية لهتلر والنازية، واشتهر بحماسته المثيرة وندائه اللاهب «هنا برلين، حيّ العرب!» لكنّه أخذ بالدسّ لمفتي فلسطين الحاج محمد أمين الحسيني تارة ولرشيد عالي الكيلاني الزعيم العراقي أخرى، فأبعد الى بريسلاو مراراً. واندحرت ألمانية النازية فاستطاع أن يجد طريقه الى عمّان بعد أهوال شديدة. إلتجأ الى الأمير عبد الله عاهل الأردنّ الذي طالما ندّد به وشتمه من إذاعة برلين، لكن الأمير عفا عنه وأكرم وفادته بما عرف عنه من سماحة وطيبة نفس.

وأقام بعد ذلك في بيروت وأصدر كتباً مختلفة. ثم جاء الى بغداد في تموز ١٩٥٨ ، فاعتقل عند قيام الثورة. وأطلق سراحه فعمل طبّاخاً في بعض المطاعم، ومنها الذي أنشأه عادل عوني عبد الله صاحب جريدة «الحوادث» المغلقة.

وعاد الى لبنان في آخر سنة ١٩٥٩ وتنقل بينه وبين إمارات الخليج العربي. وأدركه الحمام في بغداد في شهر نيسان ١٩٧٩ .

تزوج يونس بحري زيجات عديدة في مختلف البلدان التي أقام فيها، لكنه كان يترك زوجاته وأولاده ويمضي ميمّماً شطر بلد آخر لمغامرة جديدة وزواج جديد.

من مؤلفاته: العراق اليوم (بيروت ١٩٣٦) تاريخ السودان (القاهرة ١٩٣٧) هنا بغداد (١٩٣٨) الجامعة الإسلامية (باريس ١٩٤٨) تونس (بيروت ١٩٥٥) الجزائر (بيروت ١٩٥٦) الحرب مع إسرائيل وحليفاتها (بيروت ١٩٥٦) دماء في المغرب العربي (بيروت ١٩٥٥) ليبيا (بيروت ١٩٥٦) المغرب (بيروت ١٩٥٦) هنا برلين، حيّ العرب (٨ أجزاء، بيروت ١٩٥٦) سبعة أشهر في سجون بغداد (بيروت ١٩٦٠) محاكمة المهداوي (بيروت ١٩٦١) موريتانيا الإسلامية (بيروت ١٩٦١) ثورة ١٤ رمضان المبارك (بيروت ١٩٦٣) ليالي باريس (باريس ١٩٦٥) أسرار ٢ مايس ١٩٤١ (بغداد ١٩٦٨) الخ.

عرفتُ يونس بحري شخصياً لأول مرة سنة ١٩٣٥ حين شرعنا بإصدار الدليل العراقي، فأخذ يكتب عنه في جريدته «العقاب» وصار يهدّد بانتقاد المشروع والتنديد

بـه. فـاسـتـدعينـاه ونفحنـاه بالمال وأعطينـاه إعـلانـات عن الـدليل فـانقلب يـؤيـده ويستحسنه.

ثم رأيته في المفـوضية العـراقية في باريـس سنة ١٩٣٧، وقد جـاء يفاخـر بأعماله في المشرق والمغرب ويطلب التوسط له في الحصول على وسـام جوقة الشرف الفرنسي. وقال إنه ذهب الى جاوة في الشرق الأقصـى، (وكانت آنذاك مستعمرة هولنـدية ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية جمهوريـة أندونيسية المستقلة) وشدّ أزر بعض الأحزاب المحلية بالمطالبة بالاستقلال وأصدر جرائد عربية تنطق بلسان الشباب الأحرار. وقال إنه ذهب الى الربـاط وأسدى الخدمات لسلطـان مرّاكش محمد بن يـوسف (الملك محمد الخامس عاهل المغرب فيما بعد) فمنحه وساماً. . . ورأينـاه بعد ذلك في جامع باريس وشاهدناه يضرب على الطبلة وينقر على الدفّ في المقهى ليلاً ويقف في باب الحمام الملحق بالجامع نهاراً. . .

وسمعناه خـلال الحرب يرغي ويزبد ويصرخ ويتـوعد من إذاعة برلين العـربية. ثم رأيناه في بغـداد سنة ١٩٥٩ لابسـاً المئزر في مطبخ مطعم «بـوران» الذي أنشأه صـديقنا الصحفي عادل عوني عبد الله. وكان يونس بحري الـذي عرفناه فيما مضى بديناً موفور الصحة قد رقّ بدنه واستدقّ وأصبح صورة كـاريكاتورية لشخصه السابق. وكان ذلك آخر العهد به حتى قرأنا نبأ وفاته في بغداد أخيراً.

عبد الرزاق الناصري

من رجال الصحـافة والتعليم عبد الـرزاق الناصري ولد بـالبصرة سنة ١٩٠٤ لأسرة تكريتيّـة الأصل نزحت الى جنوب العراق قبـل عهد بعيد. وقد عني والـده الشيخ عبد العـزيز النـاصري بتربيتـه، ثم مضى الى بغـداد وانتمى الى دار المعلمين العاليـة وتخرّج فيها.

عيّن مدرساً في المدرسة الثانويـة المركزية. ثم أصدر مجلة «النشء الجديد» في البصرة في شبـاط ١٩٢٧ ونقلها الى بغـداد في تموز ١٩٢٨. وتـولّى بعـد ذلك إصـدار جريـدة سياسية بـاسم «الأيام» ظهرت في البصرة في كانون الثـاني ١٩٣٠ ودامت نحواً من ثمانية أشهر.

وعاد بعد ذلك الى التدريس وكان مديراً للتحـرير بوزارة المعارف فمدرساً في المدرسة الثانوية في مسقـط رأسه. وطلّق التدريس مرة أخرى فاستقـرّ في البصرة وأصدر جريدة «الأنباء» في شهر تموز ١٩٣٦. وتوفي في البصرة قبل سنة ١٩٤٩.

كان عبد الرزاق الناصري صديق الشبـاب للشاعر محمد مهدي الجواهري، ذكره في قصيدته «ليلة من ليالي الشباب» (١٩٢٩)، فقال:

ومعي صـــاحـب تفـــرّست فيـــه كـلّ خير فلم تخّني الفَــــراســـة
أريحيّ مـلء الطبيعـــــة منـــــه عـــزّة وانتبــــاهـــة وســــلاســـه
خـدن لهو . إني أحبّ من الشـاعـر (م) في هــــذه الحيـــــاة انغماســــه . . .

فاضل قاسم راجي

من رجال الصحافة فـاضل قاسم راجي، ولد سنة ١٩٠٤ . ومال إلى الكتـابة شاباً فكـان مخابـراً ومحرراً في جريـدة الاستقـلال وصـدى العهـد والـزمان . وحـرّر أيضـاً في الصحف الأدبية والهزليـة كالمداعب لصاحبهـا حسين يحيى (١٩٢٦) والصراحة لهاشم الرفاعي (١٩٢٨) والصرخة إلخ .

واعتقل سنة ١٩٣٢ بتهمـة التعرّض للحكم الملكي في قضيـة الرسـائل السريّة التي اتهم فيها مزاحم الأمين الباجه جي . ثم رئس تحرير مجلة المرأة الحديثة لصاحبتها حمدية الأعرجي (حزيـران ١٩٣٦)، صدر منها ٨ أعداد، ثم أصـدر بعد ذلك في تلك السنة مجلة فتاة العراق لصاحبتها حسيبة راجي، وظلت تصدر نحو ٤ سنوات، ثم عادت إلى الصدور أمداً قصيراً بعد الحرب العالمية الثانية .

وأصـدر سنة ١٩٤٧ صحيفتـه الهزلية «قـزموز» على نسق جـريدة حبـزبوز وكنـاس الشوارع وأبـو حمد، فكانت من الصحف التي تستهـدف الفكاهـة والنقد الاجتماعي، ودامت إلى ١٩٥٢ . وأصدر أيضاً جريدة الصراع في تموز ١٩٤٨ .

توفي ببغداد في ٢٣ كانون الأول ١٩٥٤ .

قـال هـاشم النعيمي : «لقـد كان رجـلاً طيب القلب هـادئاً لطيف المعشر، وكـان صحفياً مطبوعاً وكاتباً هزلياً قـديراً . وقد ترك بعض الكتب، من بينها : ولدي أسامة، ومذكرات بائس . . . ودنيا الكمال في مملكة الخيال» .

وكان بائساً صارع الحياة وذاق شظف العيش وسقط في معركة الداء والحاجة .

خالد الدرّة

من الكتاب الصحفيّين البـارزين، ولد خالد الـدُّرَّة ببغداد سنة ١٩٠٨ ، ودرس في معهد الحقـوق بدمشق، وتخرّج في كليـة الحقوق ببغـداد (١٩٣٨) . وقد زاول المحـاماة وعمل في الصحافة أعواماً طويلة، وأصدر جريدة «الشعلة» سنة ١٩٣٠ .

أنشأ مجلـة «الوادي» سنة ١٩٣٦ ، وقـد صدرت سنين كثيرة وكـانت من الصحف الهادفة النـاقدة التـي عرفت بنـزعتها الحرة وخطّتها الجريئـة . ثم حـرّر الدرة في مجلات

وجرائد مختلفة منها «العهد الجديد» و «الفلقة» بعد ثورة تموز ١٩٥٨ .

وخالد الدرة من الكتاب الذين ترسّموا خطى إبراهيم صالح شكر في نقداته اللاذعة، ولا سيّما في تحليله للأحداث السياسية والصور القلمية البارعة التي رسمها لرجال السياسة والمجتمع. وهو إلى ذلك كاتب قصصيّ يدعو إلى الإصلاح ويحمل بعنف على الفساد والتقهقر الاجتماعي. قال الدكتور صفاء خلوصي في فصل «أدب القصة في العراق» (دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠): «... ولكن يجب أن لا ننسى أن الدرّة متأثر بالطريقة العربية القديمة في كتابة القصص، فطريقته ليست قصصية وإنما روائية على نحو ما نجده في ألف ليلة وليلة. ولذلك لم يعالج الأقصوصة لأنها تحتاج إلى قدرة فنية خاصة تختلف عن القدرة على كتابة الروايات. وكان أكثر ما كتب القصة الطويلة... وأبطال روايات الدرة في بعض الأحيان ـ كأكثر شخوص القصص العراقية ـ ليسوا أكثر من دمى تتحرك، ولكنها تفعل الأفاعيل».

من مؤلفاته: لقتل الضجر (١٩٣٥) المشعوذ (١٩٣٧) حول المنهج القومي العربي (١٩٤١) في قفص الاتهام (١٩٤٦) أفول وشروق رواية (١٩٥٣) طبيعة الأشياء (١٩٥٥).

توفي ببغداد سنة ١٩٨٠ (؟).

لطفي بكر صدقي

من رجال الصحافة لطفي بكر صدقي، وأبوه بكر صدقي أخو المؤرخ الصحافي علي ظريف الأعظمي. ولد ببغداد في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٢ وأنجز دراسته الثانوية في مسقط رأسه. واشترك وهو طالب في المظاهرات الوطنية. ومال إلى الأدب والصحافة يافعاً، فكتب في جريدة الاستقلال والبلاد والزمان والأهالي.

وأصدر صحيفة «الوميض» في تشرين الثاني ١٩٣٠، فلم يطل عهدها. ثم اشترك في الحركة الوطنية في أيار ١٩٤١، وفرّ إلى طهران، فقبض عليه وأبعد إلى روديسية الجنوبية. وأعيد إلى بغداد في أوائل سنة ١٩٤٤ فاعتقل في العمارة.

وعاد إلى ميدان الصحافة بعد نهاية الحرب العالمية، ثم التحق بتحرير جريدة صوت الأحرار (١٩٤٦). وأصبح مالكاً لهذه الجريدة سنة ١٩٤٩، وأصدر عند تعطيلها جريدة العالم العربي والاخاء. وطلّق الصحافة بعد ذلك ليمضي إلى أوروبة ويقضي فيها سنوات.

عاد إلى بغدادبعد ثورة تموز ١٩٥٨ واستأنف إصدار جريدة صوت الأحرار أمداً، ثم اعتزل الحياة الصحفية.

نشر قصصاً في مجلة الوميض وجريدة البلاد والاخاء الوطني والأخبار وغيرها (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤).

أخوه: عوني بكر صدقي من رجال التعليم والأدب ولد ببغداد سنة ١٩٠١ وتوفي سنة ١٩٦٨. وقد تخرّج في دار المعلمين (١٩٢٥) وزاول التدريس أعواماً طويلة، ثم نقل مديراً لمعارف لواء الدليم (١٩٤٥) فمديراً للمناهج والكتب بوزارة المعارف (١٩٤٦)، فمدير التدريس الابتدائي (١٩٥٠)، فمدرساً في مدرسة الصناعة (١٩٥٣). وكان من رواد الحركة الكشفية في العراق، أصدر كتاب «الكشاف العراقي» (١٩٢٢) واشترك مع محمود أحمد السيّد في كتابة «السّهام المتقابلة» (١٩٢٢).

عادل عوني

عادل عوني عبد الله، من رجال الصحافة، ولد بالموصل سنة ١٩٠٦، وترك الدراسة بعد أن وصل إلى الصفّ الثاني الثانوي. وقد أولع بالصحافة، فقدم إلى بغداد وعمل محرراً ومراسلاً في جريدة العراق والعقاب والبلاد. ورئس تحرير مجلة الميثاق (كانون الأول ١٩٣٣)، ثم أصدر مجلة الحديث وجريدة البعث (تشرين الأول ١٩٣٤) فجريدة الوحدة (١٩٣٥).

وأصدر جريدة الحوادث اليومية المسائية في أيلول ١٩٤١، فظلّت تصدر إلى ثورة تموز ١٩٥٨. واعتقل على أثر الثورة، ولما أطلق سراحه افتتح مطعماً في بغداد فلم يصب نجاحاً. وعاش بعد ذلك متنقلاً بين بغداد وبيروت.

وهو كاتب لطيف الأسلوب، ظريف الطبع، خفيف الظلّ، جعل جريدته أداة لتأييد نوري السعيد والحكم الملكي والحملة على المعارضة بشدة وقساوة.

توفي في بيروت سنة ١٩٧٩.

عبد المجيد الونداوي

من رجال الصحافة والأدب، عبد المجيد عبد العزيز الونداوي، ولد في بلدة الكوت سنة ١٩٢٤ وتخرّج في كلية الحقوق ببغداد. ومارس المحاماة، لكنه انصرف إلى الصحافة فحرّر في جريدة الأهالي لصاحبها كامل الجادرجي. ثم تولّى التحرير في صحف متعددة أمداً يربو على ربع القرن، وكان في أعوامه الأخيرة محرراً في جريدة الثورة.

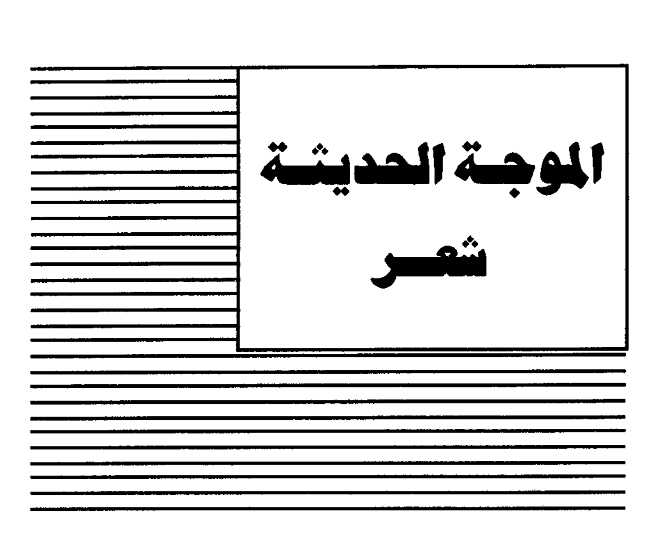
وقد أدركته الوفاة في بغداد في ٨ آب ١٩٧٤.

كتب عبد المجيد الونداوي مقالات سياسية وأدبية عديدة. وألف: محاكمة كامل الجادرجي (١٩٤٩) الحلف التركي الباكستاني والمشاريع الاستعمارية في الشرق الأوسط (١٩٥٤) من يوم إلى يوم (١٩٥٤) المانية أخطر المشاكل العالمية القائمة (١٩٥٥). وترجم مختارات من همنغواي (١٩٥٧).

كان عبد المجيد الونداوي من الكتّاب الأحرار المؤمنين بالديمقراطية والمناضلين في سبيل مبادئها. قال عبد القادر البرّاك أن الونداوي تعرّض للاضطهاد والاعتقال والمطاردة خلال عمله الصحفيّ في العهد الملكي دون أن يصرفه ذلك عن المضيّ في خطه الوطني الديمقراطي الذي آمن به.

ثم قال: «فلقد كان في أحلك الظروف يكتب المقالة والخاطرة ويترجم الرأي والخبر، ويعدّ ما تتطلّبه منه طبيعة عمله كرئيس لتحرير عدد من الصحف، وهو مشرق الأسارير ساكن الجوارح، يشارك أصدقاءه وخلطاءه فيما هم فيه من أحاديث بعيدة عن هموم العاملين في حقول صحافة الكفاح الوطني، طاوياً ضلوعه على كثير من الشجون والآلام التي كان يأنف من إظهار جزءه منها... إن صحف الكفاح الوطني التي صدرت قبل اندلاع ثورة ١٤ تموز وبعدها طافحة بآثار الفقيد... وهي تسلكه في مقدمة رجال القلم والرأي الجديرين بالاعتزاز والتقدير...».





الموجة الحديثة
شعر



حافظ جميل

شاعر الغزل والخمرة حافظ بن عبد الجليل بن أحمد بن عبد الرزاق بن خليل بن عبد الجليل آل جميل. كان أبوه الشيخ عبد الجليل جميل (١٨٧٠ ـ ١٩٥٧) مدرس جامع العدلية الكبير والآصفية ومفتي الكاظمية وأستاذاً في جامعة آل البيت. وقد نفاه الإنكليز إلى الهند بعد احتلال بغداد (١٩١٧ ـ ١٩١٩)، ثم أصدر صحيفة الإرشاد في تشرين الثاني ١٩٢٦. ووضع مؤلفات منها: إرشاد العباد في علم الاعتقاد، تنوير الأذهان (في المنطق، ١٩٠٣) العجالة في النحو، المحاضرات في الأصول، إلخ.

ولد حافظ جميل في بغداد سنة ١٩٠٨ والتحق بالجامعة الأميركية في بيروت (١٩٢٥) فنال شهادة بكلوريوس علوم سنة ١٩٢٩. وتتلمذ في الوقت نفسه على أبيه وعلى منير القاضي فأخذ عنهما اللغة والأدب والشعر. وأصدر، وهو طالب لا يتجاوز عمره السادسة عشرة، مجموعة شعرية باسم «الجميليات» قدّم لها الأستاذ منير القاضي.

عاد إلى بغداد فعيّن مدرساً في المدرسة الثانوية المركزية (تشرين الأول ١٩٢٩) فدار المعلمين الابتدائية (١٩٣٠). واستقال من التدريس في شباط ١٩٣٢. ثم وظف في السنة التالية في وزارة المالية فكان مخمناً لضريبة الدخل فمميزاً بمديرية الريّ العامة (تموز ١٩٤٠) ونقلت خدماته إلى مديرية البريد والبرق العامة (آب ١٩٤١) فكان مدير التلفونات (آذار ١٩٤٩) فمدير دائرة البرق المركزية (نيسان ١٩٥٠) فمدير الحسابات فمعاون مدير البريد والبرق العام (نيسان ١٩٥٢) فمفتش البريد والبرق العام (شباط ١٩٦٢) حتى اعتزل الخدمة في حزيران ١٩٦٣. وقد منحته الحكومة اللبنانية وسام الأرز (١٩٧٤). وتوفي في بغداد في ٤ أيار ١٩٨٤.

شعره وأدبه:

نشأ حافظ جميل في جوّ ديني متزمّت ودرس اللغة والأدب وقرض الشعر صبياً وهو لا يزال على مقاعد الدراسة الثانوية. لكنه لم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى شدّ الرحال إلى بيروت وانتمى إلى الجامعة الأميركية وانصرف إلى دراسة العلوم، فتفتحت لعينيه، وهو الشاب الغضّ كالطين في يد الخزّاف، آفاق رحيبة وعوالم جديدة لم يألفها في بغداد ولم يشهد مثيلها في بيئته الوقورة المحافظة. رأى الفتيات يزاملنه في الجامعة

ويلتقين به في الأندية والمجتمعات، ورأى معالم الحضارة طيّبها وخبيثها تغشاه وتحيط به وتسدّ عليه المنافذ. ورأى كؤوس الخمرة تترع وتكرع، وحلقات الرقص تنتظم وتندفع وتتقدم وتتراجع بنظام وغير نظام، فانطلق بحافز من روح الشباب ونظم الشعر في المرأة وبنت الحان، وتنفس ملء رئتيه الهواء الطلق الذي غمر روحه وفاض على لسانه.

عاد حافظ بعد ذلك إلى بغداد وانتظم في سلك التدريس والوظيفة، واختلف إلى مجالس صباه ومراتع شبابه، فظلّ حياته تتجاذبه عوامل متباينة متناقضة تقرن القديم بالجديد وتجمع روح التزمّت والجمود إلى الوثبة والتفتح والانطلاق. وظهرت آثار ذلك في شعره فطبعته بطابع خاص وشرّقت به وغرّبت، لكن شيئاً واضحاً بقي في هذا الشعر على ما عصفت به من عواصف المحافظة والتجديد، ذلك هو تقيّده بالطابع العربي الأصيل في مبانيه ومعانيه وترسّمه خطى السابقين من شعراء العربية الأقدمين وشعراء النهضة الحديثة. والغريب أن حافظ جميل الذي أتقن اللغة الانكليزية واطلع على آدابها وفنونها لم يتأثر بالأدب الانكليزي بصورة مباشرة ولم يحاول أن يصطنع أساليبه ومناهجه.

أصدر حافظ أربعة دواوين: الجميليات (١٩٢٤) نبض الوجدان (١٩٥٧) اللهب المقفى (١٩٦٦) أحلام الدّوالي (١٩٧٢). وله أيضاً: كتاب «عرفت ثلاثة آلاف مجنون» (١٩٤٤) نقله عن الانكليزية بالاشتراك مع الدكتور فائق شاكر، رسالة في القرآن (محاضرات ألقاها على طلبة دار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٣١).

وشاعرنا غمر البديهة، طويل النفس، ينقد القصيدة التي ينظمها نقداً قاسياً ويزن كلماتها وأبياتها بميزان الدرّ والذهب، كما كان يفعل من قبله زهير بن أبي سلمى في حولياته ومروان بن أبي حفصة في أماديحه، وكما كان يفعل الأديب الفرنسي غستاف فلوبير صاحب «التربية العاطفية». وقد تأثر، على ما قال، بالشعراء أبي نواس وابن الرومي والمتنبي وشوقي والأدباء أحمد حسن الزيّات وطه حسين والمنفلوطي والعقاد.

يبرز حافظ جميل أكثر ما يكون تبريزاً في غزلياته وخمرياته التي يصدر فيها عن قلب فتيّ لا يؤمن بالهرم وعاطفة مرهفة مشبوبة.

لقد بلغ الشاعر سنّ الكهولة، لكنه لم يزل يعيش بـ (الآمال) ويترقب (بريد القبل) ويستذكر (ليالي لبنان) ويأنس إلى (كأسه). فلنستمع إليه يقول:

حيّي بما يحلو لديك وسلّمي	بالعين إن أحببت أو بالمبسم
حسب الحبيبة لحظها إن سلّمت	وشفاهها إن أومأت لمسلّم
أعيا بصمتك ناظراك فأفصحا	عمّا بقلبك من جوى متضرّم
وتبلّجت شفتاك عنه، فما عسى	تبغين من كتمان ما لم يكتم؟...

وهو يكتئب للوعة الحبيبة فيهتف قائلاً :

مـــــاذا أردّ عـــلى اكتـــئابـــك إن كـــان مـــا بي فـــوق مـــا بك؟

وهو يسخط لجفاء الحبيبة فيخاطبها قائلاً :

ودّعـت عهــــدك وانتهــــيت وخــــرجت منـــــه بما اكتفيت

وهو يناجي الراح ويرتضي الخمرة دواءً لكلوم نفسه ، فينشد قائلاً :

ألا مـــا كـــان أعظمني شقـــاءً وأكثـــرني بـــلا سكـــر عنـــاءَ

وأنـــزلني على أحكـــام دهـــر قضـى أن لا أرد لـــه قضـــاءَ

وهل كـــالـــراح من محمـــود عقبى لمن ســـاءت عـــواقبـــه وســـاءَ؟

وشعـر حـافظ جميل بعـد ذلك في لبنان وفي بغـداد سـائر على الألسنـة ، محبّب إلى القلوب . فبغـداد مسقط الرأس وملعب الطفولـة ومدرج الصبا فـلا عجب أن يخاطبها الشاعر فيقول :

لغيرك ، يـا بغـداد ، لم يهف جـانحي ولا شـاقني في غير ظلـك أن أشـدو

ولا طـاب لي في غير دجلـة مـرتع ولا لـذّ لي في غير شـاطئهـا الـورد

وكيف اصطبـاري عن حنـان ربيبـة سريـراي في أحضـانها القبر والمهـد!

أما لبنان فهـو كهف الشاعر الروحـيّ لا يفتأ يردد ذكره ويشيد بمحـاسنه ومحامده ، فهو تارة يقول :

ذر الـدمع الملحّ يـزيـد وكفـا فما لـك غير لبنـــان وتشفـى . . .

أظلّك في الشبـاب فكـان وكنـاً وحـاطك في المشيب فكـان كهفـا

ومـن لـك في النـــوازل إن ألمت بـأرعـى ذمّـــة منـــه وأوفى

ويقول طوراً في ليالي لبنان :

ليـــــال بعثـت فيـك مـن النشـــوة أقصـــاهـــا

وزانـت لـك دنيـــاك وأنستـك رزايـــاهـــا

ليـــــال غسـل الطـلّ حـــواشيهـــا فنـــدّاهـــا

وجـــال الـــزهـــر في خضر روابيهـــا فـــوشّـــاهـــا . .

أو يقول :

أيـن من أرضهـــا أديم سماهـــا أين وضّـــاح صبحهـا مـن دجـاهـا؟

ربـــوة من جنـــان لبنـــان حلّت من أعـــالي الشـــويـــر عـــالي ذراهـــا

أو يقول:

يقولون: ما شأني ولبنان كلّما تغنّيت فيه جنّ في الشعر شيطاني
فقلت: هبوني فخر بغداد محتدا فمن غير لبنان رعاني وربّاني
ومن غير لبنان شكوت فرقّ لي ومن غير لبنان بكيت فواساني
ومن غير لبنان، إذا ما وهبته حياتي، أحال الأرز قبراً فواراني؟

وقد تقدم الشاعر في العمر، واعتزل الوظيفة، وزادت أوصابه وآلامه، ونزفت جراحات جسمه وروحه، فداواها بمودّة وثيقة ربطته بأخ مواس أديب هو الأستاذ يوسف يعقوب مسكوني الرجل الطيب الباحث المحقق. وتوفي هذا الأخ فثارت لواعج الشاعر وأرسلها نفثة جسّمت الحزن واللوعة والشكوى والإشفاق والمرارة والألم. حزن داود النبي قبل عصور طويلة لمقتل شقيق روحه يوناثان فرثاه بكلمات مؤثرة وقال: «أسفاً عليك، يا أخي، لقد طابت مودتك لي فكانت أعجب من حبّ النساء». وفقد الشريف الرضيّ صديقه الصابىء فقال: أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟ وقديماً مزق كلكامش ثيابه وحثا التراب على رأسه حين مات صاحبه انكيدو وقال: «من أجل انكيدو خلّي وصاحبي أبكي وأنوح نواح الثكلى، فقد كان الفأس التي في جنبي وقوس يدي والخنجر الذي في حزامي والمجنّ الذي يدرأ عني، وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي...».

وروى صاحب الألياذة حزن البطل آخيل على خدينه بطروكلس الذي سقط صريعاً في القتال على أسوار طروادة ورثاءه له متمنياً لنفسه الموت لأنه تخاذل في نصرة صديقة وإنقاذه.

أما حافظ جميل فبكى في يوسف مسكوني طبيب نفسه وصديق روحه وموضع سرّه وشكواه، بكى الذي كان يشفي كلومه بلقائه ويؤاسيه في البلوى ويصرفه عن تشهّي طعم المنون. ثم قال:

غب حيث شئت فما كانت مودّتنا لتنتهي عند هذا الحدّ أو ذاكا
ولح خيالاً فإني رافع بصري وسامع من وراء القبر نجواكا
لا تشكُ في الموت أحباباً فجعتهم وعشرة وألوفاً من يتاماكا
لا أوحش الله قبراً أنت نازله لو أستطيع جعلت القلب مثواكا

إن رثاء حافظ جميل ليوسف مسكوني صلاة على فم شاعر مرهف الحس حلّق على أجنحة المودة والوفاء، وطاف في عوالم هيولية من الطيبة والصفاء.

***

ولا بدّ لنا بعد ذلك أن نقول كلمة في خمريات حافظ جميل. برع الأقدمون والمتأخرون في وصف الخمر. وجاء ابو نواس فكان مجدداً في عصره، مبتكراً للمعاني، متصرفاً في

أساليب البيان. وإذ وقف الشعراء قبله على الطلول وبكوا على المنازل والديار وحنّوا إلى ساكنيها الـذين فرّق شملهم الدهر، وقف ابو نواس على مـربع القصف واللهو، وذكر مجالس الشرب والندامى والأخلاء فقال:

ودار نـــــدامى عطلّـــــوهـــــا وأدلجوا   بها أثـــــر منهم جـــــديـــــد ودارس

وابتدع أرباب التصّوف الخمرة الروحية فقال ابن الفارض سلطان المحبّين:

شربنـــا على ذكـــر الحبيـــب مُـــدامـــة   سكـــرنـــا بها من قبـل أن يخلق الكـــرم

وجاء حافظ جميل فجـدّد في بغداد عهد النواسيّ. وشعر حـافظ في هذا الباب رائق لطيف تستسيغـه النفس ويطرب لـه اللبّ لكنه لا يكـاد يأتي بمعنى جديـد أو وصف مبتكر كما فعل أبو نواس في عصره.

فحافظ يشرب قبل كل شيء لمداواة كلوم قلبه ونسيان همومه وأوصابه، وهو يردّد هذا المعنى فيقول:

عـــركت الليـــالي ســاهــراً وعــركتني   فما راعني منهـــا ســـوى مطلع الفجـــر
إذا دهمتني رعشـــة الصحـــو بغتـــة   فـــزعـت لكأسي أدفـع الشرّ بـــالشرّ
كأني، ومـــا غير الكـؤوس عصـــابتي،   أشـاغـل دهـراً من نكـال ومـن غـدر
يـــزايلني غمّي بجـــرعـــة خمرة   وأصحـو ومـا غمّي سـوى جرعـة الخمر
وأبـــدو كمعلـــول بـــه ألف علّـــة   ومـــا بي مـن داء ســـوى تعب الفكـــر
ومن كـــان مثلي فكـره الـدهـــر متعب   فأخلـق بـــه أن لا يفيـق من السّكـــر

وجد الشاعر في الراح مسلّياً ومسعفاً ومعيناً فتعاطاها، وكانت دواءه وداءه، وقال:

ألا مـــا كـــان أعظمني شقـــاء   وأكثـــرني بـــلا سكـــر عنـــاءا
وهل كـــالـــراح من تلقـــاه عـــونـــاً   على البلـــوى ودرعـــاً واتّقـــاءا؟
وهل كـــالـــراح من محمـــود عقبى   لمن ســـاءت عـــواقبـــه وســـاءا؟
لئن عـــانيت صرعتهـــا طـــويـــلاً   كفـــاني أن وجـــدت بها العـــزاءا
وكـم في زحمة الآلام صـــــــاح   رأى في سكـــرة الموت انتشـــاءا
نظـرت فلم أجـــد كـــالـــراح طبّـــاً   لمن فقـــد الطبـــابـــة والـــدواءا
ولا كجـــوارهـــا للنفس أنســـاً   إذا بـــرمت مـن الـدنيـــا استيـــاءا
ولا كـــدبيبهـــا في الجسم لطفـــاً   وقـــد خـــدرت مفـــاصلـــه ارتخاءا
ولا كـأريجهـــا في الطيب نفحـــاً   إذا راح النسيم بـــه وجـــاءا
ولا كـــرضيعهـــا نهماً وجـــوعـــاً   إن أتخمتـــه لقـــد زاد اشتهـــاءا

ولا كطـــريحهـــا إن نـــام دهـــراً شكـــا من طـول صحـوتـه العيــاءا
وهل كـــالصحـــو من كـــابـــوس همّ لعــــانٍ لان بـــالسّكـــر احتماءا؟ . . .

وهذه الابيات، ولا ريب، جميلة أخاذة: كلماتها حلوة الرنين، متّسقة واضحة تتدفق كالجدول الـرقراق. والغرض الـذي تفصح عنه وتـرمي اليه واضح أيضاً. فهـو اعتذار ضمنيّ عن شرب الخمرة، لولا أنها دواء لا مفّـر من الاستعانة به والخضـوع له. ولننظر بعد ذلك إلى ذكر محاسن الخمرة، فهي طبّ لمن بـرّح به الداء واستعصى علاجه، وهي سلوى النفس التي ضاقت بالدنيا ذرعاً، وهي مخدّر يسكّن الآلام ويولّد الأحلام. وكّلنا نعلم أن معاقرها يزيد ظمأً كلما زاد شربـاً، وقد رأينا طريحها لا يعبأ أين يسقط ليغفو في حلم هنيء.

ويهيب حافظ بكأسه أن ترعى له الودّ والذمّة فلا تهجره ولا تغدر به، فيقول:

دومـي دوام العمــــر، يـــا كـأسي، يـــا كـــوثـــري العـــذب وفـــردوسي
لـــولاك غـــام الكـــون في نـــاظـــري وعشـــــت في داجٍ مـــن اليـــأس
وظلّ صـــدري جـــدثـــاً حـــالكـــاً لم يَـــــرَ لـــــولاك سنـى الشمس

وهكذا نـرى شاعرنا يـردّد هذا المعنى ويلبسه في كل قصيدة ثـوباً جديداً وينحـو به منحىً فـريداً: فـالخمـرة بيضـاء تحبّب حتى بياض الشيـب، وهي تدور في الـرؤوس فتمنح الرعديد بأساً وشجاعـة، وهي تميّز الشهم عمّن لا خلاق له ولا خير فيه، وهي بلسم الجراحات والأسقام. . .

ويخاطب المدام بعد ذلك فيقول:

وفيتِ، يـــا راح، فـــلا تغـــدري مـــــا دمـتُ في حبّـك لم أكفـــــر
أفنيـت عمـــــــــري فيـكِ لم أفترق عنـك ولم أســأم ولم أضجـــــــــر

حتى يقول:

شهـــدتِ فـــرعـــون وأهـــرامـــه وعـــرش بلقيـــس فلم تكبـــري

وهذا المعنى افتتن به القدماء، فطالما ذكروا قدم الخمرة وشهودها عصوراً خلت ودولاً دالت واحتفاظهـا بشبابها ورونقها برغم مـرور الأجيال والأزمان. ثم يتطـرق حافظ إلى وفـاء الخمرة لأحبـابها، فهي ليست ممن يغـريه شرخ الصبـا ولا ممن يطوي كشحـاً عن الشيوخ الذين ذهب رواؤهم وذبلت أجسامهم. وهي لم تكن سلعة في سوق الغرام تباع وتشرى.

وأعرب حـافظ، ومن قبله أبو نواس، عـن عدم اكتراثه بالـلاحين والناصحين. ثم أغـرق في خمرياتـه فحسب النهار الـذي يخلو مـن الشرب يومـاً ضائعـاً من أيام العمـر

وصفحة بيضاء من صفحات الحياة. ثم يقول:

أَفَحَتْـــمٌ عليّ أن أهجـــع الليـــل وتـأبى أن تهجـع الأوطـــــــــار
ولِمَ النـــوم مـــا وجـــدت حبيبـــاً همّه الليلَ شـــاعـــر وعقـــار؟
ولِمَ الصحـــــو، والحيـــــاة شراب ونـــــديم وقبلـــــة وحـــوار
ولِمَ الصبح إن تجهّـم يـــــــــومي واكفهـــرّت بـــوجهي الأنـــوار؟

كلاّ، أيها الشـاعر، إنّ الليل حبيب الشعراء فتمتع به مـا شئت وارشف من قبلات الحبيبة والكأس ما وجدت إلى شفاههـا سبيلاً. ولتكن الحبيبة كما تشتهي وتتمنى، جنّة في عينيك وجحيماً في أحـــداق ســـواك من النظّـــار. ولتكبح الشـــوق الجامح في فؤادك، ولتتعرف إلى شعورك من وراء أبيات الشعر التي توحيها إليك.

أجل، أيها الشاعر، أنشد أغانيك وتمتع بالحب والحياة، وردّد قولك:

ربّ حسنـــاء مـن بنـــات الشقيـق يـــزدري حسن لـــونها بـــالعقيـق
مـــزجت رطب لـــؤلـــؤ بـــرحيق وتحسّتـــــه من فـم الإبـــــريـق
والحشـــا بعـــد ظـــامـىء حـــرّان
وصحـــا نـــائم القـــرنفـل فجـــرا فـــانبرى للـــزّقـــاق حلبـــاً وعصرا
كلما رقّصـت بـــه الـــراح سكـــرا خنـق الـــزّق وهـــو يقطـــر خمرا
فتنـــدّت شفـــاهـــه والبنـــان...

وهكـذا ينعت حـافظ الخمـرة ويثني عليهـا كما أثنى من قبلـه أبـو نـواس وغير أبي نواس. ومثلما قال أبو نواس:

يـــا ربّ، إن عظمـت ذنـــوبي كثـــرة فلقـــد علمـت بأن عفـــوك أعظـم

ومثلما قال أبو نواس في التوبة والندم، قال حافظ جميل:

غفـــــــــرانَـكَ، اللّهـم ربي لكبير معصيتـــــــي وذنبـــــــي
تـــــابعت غيّـي ســـــادراً بين الغـــــــــواة فجلّ خطبـي
وأمـــــرتني بـــــالصـــــالحات فـأعمـت الشهـــــــوات قلبـي
وتـــــركتني، وأنـــــا الضعيـف، حليـف أسقـــــامي وكـــــربي
ومنحتنـــــي الصبر الجميـــــل فكنـت تعـــــــزيتي وطبّـي
وجعلـت من فـــزعي لـــديك مـــزيـــد أشـــواقي وحبـيّ...

ومهما يكن في شعر شـاعرنـا وخمرياته من تجديـد وتقليد فإنه شـاعر غمـر البديهة، صـادق اللهجـة، عذب الجرس، ناصـع البـيان، وحسـبه ذلك مرتبـة بين شعـراء العصر.

علي الخطيب

الشاعر المبدع علي بن محمد جميل بن عبد القادر الخطيب، وهو أخو المفتي عطا الخطيب. كان أبوه رئيس بلدية بغداد أمداً قصيراً، وقد ولد شاعرنا في بغداد سنة ١٩٠١ ودعي «شوكت علي». درس في دار المعلمين الابتدائية (١٩١٩ـ ٢١) ثم تخرج في مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٧. وظف في وزارة العدلية ومحكمة التمييز، وعيّن ملاحظاً للمطبوعات في وزارة الداخلية سنة ١٩٣٠. ونقل في السنة التالية ملاحظاً في ديوان مجلس الوزراء، لكنه ابتلي بمرض عصبي اضطره على ترك الوظيفة (١٩٣٣) وأقعده عن العمل وألزمه العزلة. وعين بعد ذلك موظفاً في مديرية الشرطة العامة (١٩٣٨) ودعي في ايلول ١٩٣٩ إلى الالتحاق بدورة ضباط الاحتياط. ثم انطلق من قيد الوظيفة فكان مديراً مسؤولاً لجريدة العراق وجريدة الاخبار.

وعاد إلى الوظيفة سنة ١٩٦٣ ملاحظاً للحقوق في مديرية السياحة والاصطياف العامة إلى ١٩٦٦. وانزوى في عقر داره في أعوامه الأخيرة حتى وافاه الأجل في بغداد في أواسط شهر ايار ١٩٧٧.

نظم علي الخطيب شعراً رائقاً في الاجتماع والوطنية والوصف والغزل. وكم ألقى من قصيدة صارخة عرضته لسخط الحكومة ونقمتها وهو موظف في دوائرها العدلية.

علي الخطيب شاعر الغزل، من المرأة التي يصفها ويتغزّل بها؟ ـ انها ليست الفتاة الغامضة، الحيّية الجريئة، القابعة في خدرها والتي، على الرغم من ذلك، لا تخشى الحب والمغامرة، تلك التي يقول فيها عمر بن أبي ربيعة:

أشارت لأختيها: أعينا على فتى ... أتى زائراً، والأمر للأمر يُقْدَرُ

انها ليست القينة العابثة اللّعوب التي يقول فيها أبو نواس:

نضت عنها القميص لصبّ ماء ... فورّد وجهها فرط الحياء

ويقول:

يطمعني لحظها ويؤيسني ... باللفظ منها فؤادها القاسي

وهي ليست الفتاة الرمزية التي يردّد ذكرها الزهاوي، ولا الخطيبة أو الزوجة التي يومىء إليها الهنداوي في قصصه الشعريّ، ولا المرأة التي يدافع عنها الرصافي ويحكي مأساتها فيقول:

تَبَسّمُ حيناً ثم تجهش بالبكا ... فمن لؤلؤ تبدي ومن لؤلؤ تذري

كأنّ تلاميح الأسى في جبينها ... بقايا ظلام الليل في غرّة الفجر

وهي بعد ذلك ليست الكاعب الفاتنة المتحررة التي يهيم بها نزار قبّاني أو تهيم به في التعبير الأصحّ. فمن المرأة التي يتغزّل بها علي الخطيب؟

انها الفتاة العراقية النافرة الخفِرة ـ فتاة سنة ١٩٣٠ التي لم تكد تسفر عن جبينها وتظهر أمام الرجال، فهي تخفي جمالها ودلالها تحت نقاب من الوقار شفّاف، وهي تدير وجهها لتبتسم خوفاً من النظرات والأقاويل. هي واحدة من سرب يخرجن معاً إلى النزهة ليزددن جسارة ومنعة.

يقول علي الخطيب في موشحه «عند اللقاء»:

أقبل الغيد على الجسر مساءً سافرات
بقدودمائسات
وخطى متزّنات،
مشرقات القسمات،
فرحات، مرحات،
فانثنى الصحب وحيّوا الصاحبات القادمات
بوقار وأناة
ووجوه ضاحكات
وعيون خاشعات
وقلوب خافقات
فتلقّين تحايانا بأحلى الحركات
من رؤوس مومئات
وثغور باسمات
ناظرات، مغضيات،
فتهامسن ببعض الكلمات . . .
ثم تابعن الخطى في خفر محتشمات

لكنّ شاعرنا يلقى الحسناء التي تعبث به وتُدِلّ عليه، وتأخذه بالجذب والدفع، وتطالعه بالإعراض والرّضا، وتبعده ثم تدنيه، وتكلمه وتزورّ عنه، فيصفها قائلاً في «وصل وهجر»:

تكايدني الحسناء في شغفي بها ... فلا تتحاماني ولا هي تسلس
تحاورني حتى إذا ما طلبتها ... تناءت صدوفاً وهي بي تتفّرس
فأبهت، لا أعدو مكاني، وتنثني ... إليّ، فأستبقي أناتي، فتأنس
أقاربها مستبشراً في تهيّب، ... أمدّ يدي من عطفها أتلمّس

وعيني بعينيها تلوذ، ومهجتي | خفوق، وفي نفسي التظنّن يهجس
أتأبى، أترضى؟ لست أدري، وإنما | أنطت يدي الأخرى بها أتحسّس
فآنست من طلق المحيّا بشاشة | فما عدت منها خيفة أتوجّس
فأدنيتها حتى ضممت قوامها | فلان، وكانت عند ذلك تهمس:
أخاف إذا واصلت منك قطيعة | تهدّم ما يبني الهوى المتحمّس
نظرت إليها في عتاب فأعتبت | وجادت بما أخفى الرضا المتحرّس
فكان عناق وارتشاف، ولم نزل | على ظمأ، والشوق أحلى وأنفس
وظلّ هوانا بين لقيا وفرقة، | فلا الوصل موصول ولا الهجر مؤيس

ان في هذه الأبيات لنفس من أنفاس ابن أبي ربيعة، لكنه نفس معطّر بشذا حضارة العصر. ولئن كان شوقي قد أوجز رواية الحب في بيت واحد:

نظرة فابتسامة فسلام | فكلام فموعد فلقاء

انّ الخطيب قد فصّلها في اثنى عشر بيتاً من الشعر الرقيق الطريف، المتماوج المتوهج.

وقد قرأ علي الخطيب رواية الزنبقة الحمراء لأناتول فرانس، وقرأ «أناتول فرانس في مباذله» في ترجمة شكيب أرسلان، فظل معجباً بالروائي الفرنسي العظيم وببطلات حبّه وقصصه، لا يفتأ يردّد ذكرهن ويكبر هيامهن ويشيد بمآثرهن ومحامدهن. ولست أعلم مقدار أثر ذلك في شعره، لكنني أعلم أن أثر ذلك في نفسه بليغ كبير: فهو يعظّم الحبّ ويتهيبّه ويشفق على نفسه منه. ألا يقول في «تساؤلات»:

ما للفؤاد، إذا لاقيتني، يجبُ | وما لنفسي، إذا ما غبت، تكتئب؟
وما لجسمي إذا صافحتني بيد | سرت به هزة عجلى فأضطرب؟
إن ضمّنا مجلس فالصمت يشملني | مشتّت الفكر مشدوهاً، فما السبب؟
إني أحسّ التياعاً ناره اتقدت | ما بين جنبيَّ أخفيها فتلتهب
هذا هو الحبّ أو هٰذي بوادره | ولست تدرين ما ألقى وأصطحب!

وهو ينصح قلبه أن يجتنب الحبّ فيقول:

هو الحبّ لا يبقي على المرء قلبه | فإنّي أراه اليوم للقلب قاتلا
فيا قلب، لا تحمل من الحبّ لوعة | مخافة أن تفنى بما كنت حاملا
أراك كفرخ بين فرعاءَ والهوى | كريحٍ إذا هبّت تطوّحت عاجلا

وهو يرى الشاعر أسير الحبّ وضحيّته فيقول:

ومـا الشـاعـر المفـؤود الاّ متيّم	لـه شقـوة في حبّـه وحيـاة
فبينـا يـرى والـدمع ملء جفـونـه،	إذا الثغـر منـه تلمع البسمات
وبينـا يـرى بـالبشر يطفح وجهـه،	إذا الصـدر منـه تصعـد الـزفـرات
وكم نـوبـةٍ تنتـابـه عصبيّـة	يلطّـف منهـا الشعـر والعبرات
وكم تعتريـه حـدّة من صغيرة	مصـادرهـا نـاسٌ هُم النكـرات
إذا هـم في خبـث تلكأ وافيـاً	وتمنعـه من نفسـه زجـرات
مـلامحه تبـدي كـواتـم صـدره	إذا حـاول التمـويـه، والنّظـراتُ
فيـالـك من طفـل كبير يعـوزه	دهـاء بـه تستحضر الـرغبـات
لـه عـالم من نفسـه متحـدّر	تحفّ بـه الأحـلام والـذكـرات
خيـالاتـه شتّى إذا مـا عـددتها	وحسبـك منهـا أنها نـزعـات

الرقّص:

نظم علي الخطيب قصيدة لطيفة «في ردهـة الرقّص» طبعت في كـرّاس خاص سنـة ١٩٥٠. والرقص فنّ قديم عـرف في الشرق والغرب، وقال الشاعـر الفرنسي ألفرد دي موسيه (١٨١٠ ـ ١٨٥٧) Alfred de Musset:

«إنّ شهر آذار يشهـد تفتّح الزهـور، وحينئذٍ تزيـد المراقص حبوراً وتطيل معـازفها. فترتمي الراقصة بين يـدي مراقصها في استرخاء أكثر، وتشتّد العيـون جراةً، وتقلّ الشفاه بخلاً، ويثمل الراقصون تعباً، ويطفح القلب هياماً».

ثم يقـول: «أيتّها الجنيّـة الألمانيـة ذات الحذاء الذهبـي، يا قينـة الـرقص، يا زهـرة الشعـر، من ذا الذي يستطيع أن يتغنّى بقـدميك الماهـرتين في إيقاعهما وأسرارك الإلهيـة التي يجهلها السـذّج؟ وأين في زماننا شـاربو رحيق الآلهة الجديـرون بنسيان أنفسهم بين ذراعيك المعبودتين؟..»

وقال معروف الرصافي في قصيدته «ليلة في ملهى» يصف راقصة:

وتجلّـت في مسرح الـرّقـص حتى	أرقصت بـالغـرام منّـا القلـوبـا
أقبلـت تنثني بقـدّ رشيـق	ألبستـه البُرد القصير قشيبـا
قصّرت منـه كُمَّـه عن يـديها	وأطـالـت إلى النهـود الجيـوبـا
حبس الخصَر حيث ضـاق ولكـن	أطلق النحـر بـاديـاً والتريبـا
خطـرت والجمال يخطـر منهـا	في حشـا القـوم جيئـةً وذهـوبـا

وعلى أرؤس الأصـــابع قـــامت تتخطّى تبختراً ووثـــوبـــا . . .

وقال خليل مردم بك شاعر الشام (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩) من موشّح في الرقص :

نفـخ الصّــــور فهبّـــوا مسرعين مثلما نفّــــرت طيراً بـــالصفير

وعلى الصهبــاء كــانــوا عــاكفين من رأى سرب قهــاً حــول غــديــر؟

***

كـم فتـــاة فتنــــةٍ بـــالمقلتين واعتـــدال القّـــد والجيــد التّليع

جمّت الشّعــــر إلى الســـالفتين فـــاستبـدّت بـابـن هـاني والصريع

أخــذت مـن ذيلهــا للـــرّكبتين ومـن الطـــوق إلى أقصى الضلـــوع

ومـــن الكمين حتـــى المنكبين فبـــدت في درعهـــا غير المنيع

مـن عـــراء واكتســاء بين بين بـل من الحسن بجلبـــاب بـــديع

وفتـى من حسنـــه ملءُ العيـــون حسن اللفتـــة كـــالظبي الغـــريـــر

هـــو لــو لم يتخــذ زيّ «الّــذين» عُـــدّ من حـزب «اللــواتي» في الأثير

***

كـلّ إلفِين انضــــوى شملهما أقبـــلا فـــاعتنقــا أيّ اعتنـــاق

لـــو صببت الماء مـــا بينهما لم يكـــد يخلصُ مـن فـــرط اعتـــلاق

علقـــت كـــفّ بكـــف منهما شركـــاً واختلفت ســـاق وســـاق

ودنـــــا الخدّان مـن بعضهما حينما الجيــــدان همّا بـــالتـــلاق

وعلى الانغـــام كـــانـت لهما خطـــوات بـــاتـــزان واتّســـاق

رقصـــا شتّى ضروب وفنـــون مـن دبيب خــــافـت أو ذي صريـــر

بينما عــــومهما عـــوْم السّفين إذ هما بـــالحجـل كـــالطير الكسير

ثم يصف سكـرهما بـالمدام والغـرام والشبـاب وامتزاج الأنفـاس واعتـلاج تبـاريح الغرام.

أما الشاعر عدنان مردم ابن خليل مردم فيصف راقصة (الباليه) فيقول :

سطعت في عبقـريّ مـن صبـــاهــا أين منــه الشمس في رأد ضحــاهــا؟

فتـــنٌ في كـــل قلـــب أيقظـــت فتنـــاً للشرق مـــا أومـت يـــداهـــا

حـــركـــات الموج في أشكـــالـــه حققت أشكـالـه نسجـاً خطـاهـا . . .

ضربـت كـــالنسر في أجنحـــة للهـــوى وانطلقت دون هـــواهـــا

وانبرت تفتــل في حلبتهـــــــــــــا كـــريـــاح عصفت ملء ربــاهـــا. . .
عمـــــــدت تجري على ابهامهـــــا لمدىً يقصر شأواً عن مـــــداهـــا
وانثنت عـــــاصفـــــة في قطب عـــاصف يلهب من حمّى لظـــاهـــا
كل عضـــو شعّ من أعضـــائهـــا كشعـــاع وانثنى طـــوع منـــاهـــا
لطفت أعضـــاؤهـــا واتّسقت كـــدرارٍ يسحـــر العين سنـــاهـــا
تلتـــوي منســـابـــة في شـــاسع مثل أفعى تتلـــوّى في سراهـــا. . .
حسبهـــا مـــا حققت من صـــور كست الفنّ فتـــونـــاً وكســـاهـــا
ليس رقصـــاً مـــا جـــرت تـــرسمـــه بخطـــاهـــا، إنـــه وحي صبـــاهـــا

وقال الشاعر الضابط المصريّ محمد توفيق علي (١٨٨٧ ـ ١٩٣٧) من قصيدته في «مصيف الرمل»:

ربّ مشغـــــوف بغـــــانيـــــة بـــــارك الـــــرقـص لها سببـــا
ضمهّـــا شـــوقـــاً مخاصرة ثـــم دارا دورة خببَــــــــــــا
كفّهـــا في كفّـــــة سكنت انما قلبـــــاهما ضربـــــا
كلما هـــاجـت لـــواعجـــه وهي في أحضـــانـــه جـــذبـــا
صـــدره في صـــدرهـــا نشبـــا ثغـــره من ثغـــرهـــا قـــربـــا
واختـــلاســـات حـــديثهما في خفـــوت يبعث الـــريبـــا
مـــا الـــذي قـــالـت وقـــال لها؟ ليـس الاّ مـــوعـــداً ضربـــا
ربّما قـــالـت تنـــاظـــره: أنـــا أهـــواك، وقـــد كـــذبـــا
هـــويهوى كـلّ راقصـــة وهـي تهوى المال والنّشبــــا. . .

وقلت في وصف راقصة:

«فهي اذا ما اعتلت خشبة المسرح وانسابت في حلقـة الضوء المسلّط عليها في الظلام الخافت، تجرّدت من ذاتها البشرية وأصبحت طيفاً نـورانياً متموجاً أبلغ في تعبيره وأدائه من الموسيقى التي تـرافق حركاتـه. وكان المشـاهدون يؤخـذون بسحر رقصهـا فينسون الـزمان والمكـان ويذهلـون عن سماع الأنغام الموسيقيـة، ويشخصون بأبصـارهم وكل جارحـة من جوارحهم إلى ذلك الجسم اللّدن الذي يتمـدد ويتقلص، ويتلوى ويتثنّى وينعطف ويعتـدل، ويتقلب ويتراخى، ويتـدافـع ويتماسك، ويتهـافت ويتمايل ويتخـايل ويدور، وإلى الـرأس المتعالي والمتهـاوي، والجيد المشرئبّ والمتلّفت، والنهـد النـافـر والضـامـر، واليديـن المتموّجتين والسـاقين المترجـرجتين والـرجلين المتقـاربتين

والمتباعدتين، والأقـدام المتطاولة والمتقوّسة والمنبسطـة في ايقاع رائع أخاذ. لم يكن ذلك رقصاً بل تعبيراً فنيـاً ينطق تارة بالحزن، فإذا النظـارة تنفطر قلوبهم كمـداً وأسى، وطوراً بالفـرح، فإذا هم لا يملكون نفـوسهم بهجة وسروراً. ولقـد ينطق أحيانـاً بسكرة الحبّ ولـوعة الشـوق وحرقـة الـوجد وعـذاب الشك وسعـادة الثقة والإيمان ومـرارة الوحـدة والحرمان وغبـاوة الذهول والنسيان وعبث الطفـولة وغرور الشباب ووقـار المشيب ولذة الحياة ووحشة الموت وفتنـة الجمال وذلّة البؤس والشقاء وعذوبة الأحـلام الجميلة وقسوة القوة الجامدة وحياة الفتاة البريئة وصلف الغانية المتغنجة. . .»

وقال الشاعر الفرنسي ألفرد دي فنيي (١٧٩٧ ـ ١٨٦٣) Alfred de Vigny :

«ارتجف القيثار وأرسل المزمار أنينه، فقد انطلق الرقص في مملكته الدائرية.

وبهرت العيون الأزواج العابرة، وطاروا متشابكين في دوائر رشيقة.

وقفوا وقفات ينتظمها الإيقاع، وازدهوا بـزينتهم إذ عكستها المرآة، ثم اندفعوا ثانية، وتعثروا بأذيال جمعهم الضـاحك، فكانت حركاتهم أقلّ مهـارة، وكان تزاحم وصخب وضجيج.

وثملت الراقصـة بحماسة المهرجان، فبعثرت في مـرورها الأزهـار التي تكلل رأسها وسحقتها بالأقدام، واستسلمت إلى الذراع الـذي يسندها، ودارت وقد شحب لونها، وخفضت أنظارها إلى صدرها الخافق. . .»

وقال الشاعر الألماني هنريك هيني Heinrich Heine (١٧٩٧ ـ ١٨٥٦):

«يا مـلاكي النبيل، لا تكفّي عن الرقص، فـرقصك القادم من عـالم الأحلام بلسم حاني لجراح نفسي وخير دواء لسقم جسدي الذي أنهكته الأعوام».

وقـال أحمد شـوقي يصف حفلـة راقصـة في قصر الخديـو عبـاس حلمـي الثاني (١٨٩٦):

يـا ليلـة (البـال) مـا خـالـوك راقصـة ... الاّ وأنت جمال الـدهـر والحقب. . .
أهـاجهـا هـائج الألحان فـانعطفت ... مثل النسيـم سرى سـاريـه في القصب
ودارت الـراح بـالأجيـاد مثقلـة ... بـالحلي فـاستسلمت من شـدة الـوصب
وبـالخصـور فمـن واهٍ ومن قلـقٍ ... ومـن سقيـم ومن فـانٍ ومـن تعبِ

ولكن لنعـد إلى قصيـدة علي الخطيب. ويصـحّ القـول ان هـذه القصيـدة تمثل فنّ شاعـرنا، فهي شريط سينمائي بطـيء الحركة يسجّل كل خطـوة وسكنة ونأمـة في حلبة الرقص. يدخل الشاعر إلى ندوة القصف واللهـو فيرى الحسان يخطرن فاتنات ويعطّرن الجّو بـالبهجة والصّبـا والجمال. شفاههنّ الحمـر كـالورود، وأعنـاقهن فوق الأكتـاف العارية مشرئبة إلى المرح والاستمتاع:

تهادي حسـان الحيّ في ردهـة القصر ... منضرّة المرأى، مصفّفـة الشَّعـر
يفضن شبـابـاً في فتـونٍ وبهجـة ... لـدى أعين نجـل، لـدى أوجـه غـرّ
كـأنّ الشفـاه الجون بين صفيحهـا ... أزاهير حمر في أضـاميم مـن نَـوْر
نـواهـد أبـدين الترائب والطّلى ... وكشّفـن عن أعلى المتـون إلى الخصر
وأبـرزن أكتـافـاً وعـرّين أيـديـاً ... وكـنّ بها أظهـرن في رونـق مُغْـر
على البشَرِ البـضّ الغضير تـألقّـت ... أسـاور مـن مـاسٍ، قـلائد من درٍّ
جـوارحهّن الكـاسيـات مـواثل ... كما شـاءت الأزيـاء من بـدع العصر
محاسن أعضـاء تنـاهـى انسجـامهـا ... نسبن القـدود الفـارعـات إلى السّمـر
تـأنقن في زينـاتهن عـرائسـاً ... بنـات خيـال مـاخطـرن على فكـر
فـأشرقن والأنـوار في كـلّ جـانـب ... فـولّى ظـلام الليل من طلعـة الفجـر
وظلّت عيـون القـوم فيهن رُتّعـاً ... تَنَقّلُ بين البيـض والسّمـر والشّقـر

وقـد جلس حول الموائد الغيـد والفتيان، وتـلامست الاقداح، وتمايل النـدامى بين الصحو والسكر، وتبودلت الأحاديث العذبة كقطرات الطلّ المتساقط، وتردّدت الألحان وتماوجت في رقة وانسجـام تدعـو السّامـرين إلى الرقص على نغم الموسيقى الـذي يعلو ويهبط، ويشتـد ويلين، ويئن ويهدر. . . وانتظمت الحلقـات، وسلّمت كـل غـادة قامتها إلى صنوها في نشوة من الفرح والحبور.

ومـا اتحّد الصّنـوان حتـى تـدافعـا، ... فطـوراً بها يجري وطـوراً بـه تجري
يمـور بها، والصـدر بـالصـدر لائذ، ... وكـفّ إلى كـفّ، وكـفّ إلى الظهـر
ويقبل حينـاً ثم يـدبـر تـارة ... تسـايـره الهيفـاء بـالكـرّ والفـرّ
يـرى الحفل فـوضى بين غـادٍ ورائح ... فهـذا على طـور وهـذا على طـور
عجبت لفـوضـى يستتبّ خـلالها ... نظـام يسـود الـراقصين بـلا أمـر
يـدورون مثنـى والخطـى تتبع الخطـى ... تشـايع ايقـاع المعـازف والنقـر
يجولـون جـولاً يبتـدي حيث ينتهي ... يـروح مع الأنغـام كـرّاً على كـرّ
فمـن دوران يستقيـم ويلتـوي ... إلى جـولان يستـديـرعلى حـذر

ثم يرى الشاعر بين جمع الراقصين زوجين يسترعيان نظره فيصفهما قائلاً:

وصنـوين جـدّا فـاستقـلاّ بحيّـز ... تـوقف منـه الـراقصـون عن السّير
وشيكـاً ومهـلاً يمضيـان، سراهما ... طليـق على قيـد، يسير على عسر
وبينـا بها يـرتـدّ عجـلان ينثني ... بها ذاهبـاً نحـو الأيـامن واليسر

ويفصلهـا عنـه فتنأى وتـدّني، فنشر إلى ضـمّ وضـمّ إلى نشر
تـدور حـواليـه فيرعى مـدارهـا فكيف اغتـدت يغـدو وأنّى سرى تسري
يعلّـق احـدى راحتيهـا بكفّـه ويطلقهـا تفتنّ في رقصـة بكـر
ومـا انفلتـت الا استـدارت حبـائكـاً شراشر ذيل مـن حـرائرهـا الخضر
تلفّ بسـاقيهـا الـذلاذل ان ونت عن الفتـل حتى تسحـب الـذيل في كبر
إلى صنـوهـا السّـاعي اليها مـراقصـاً فكـانـا كبيت الشعـر شطـراً إلى شطـر

ويلحظ الشاعر حركات الراقصين ونجواهم فلا يفوته تسجيلها:

تـرى حـركـات الـراقصين كثيرة فمنهـا على سّر ومنهـا على جهـر
فمـن همسـات لست تبلـغ كنههـا ومـن بسمات ينطـوين على سرّ
أبقيـا على ودّ؟ أوعـداً، أدعـوة؟ أم أن ابتسـام الخود لـون مـن المكـر؟
ومن لفتـات تستبيك رشـاقـة ومـن نظـرات لا لجّد ولا هـزر
سـواحـر تبـدي المبهمات مـن المنى وتـأبـى عليـك المفضيـات إلى الحزر
غمـوض كأطـوار الملاح محيّر فأنـت بتيـهٍ من غـوامضهـا الكثـر
إذا لم تحد عّما أسرّت وأبهمـت بليت بحـال من مكـايـدهـا وعـر

ولا ريب ان هذه القصيـدة من القصائد الفـريدة في موضـوعها وسلسـالها ووصفها الطلّي الدقيق لا في الأدب العربي وحده ولكن في الآداب العالميّة قاطبة.

في الطريق:

ان شعر علي الخطيب لا يمثل مرحلة من مراحل تطور الشعر العراقي فحسب، بل يمثل ايضاً مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي: فقد لقي ثلاثة شعراء ـ كل في عصره ـ فتاة في الطريق، وهو يسير الهوينا في بغـداد، تلك المدينة التي فيها للمشاة دروب، كما قال جميل صدقي الزهاوي. قال أولهم، معروف الرصافي:

لقيتهـا في الطـريق عـابـرة يهصِرُ من قـدّهـا تبختُرهـا
أعجبهـا منظـري وأعجبني بـالحسن عنـد اللقـاء منظـرهـا
فصـار قلبي بـالحّب يـأمـرني وقلبهـا بـالغـرام يأمـرهـا
وحين مـرتّ والشـوق يسكـرني بخمـرة تـارة ويُسكـرهـا
لَفَـتُّ جيـدي أرى أتنظـرني والتفتـت لي تـرى أأنظـرهـا
فقلـتُ، والشـوق فيَّ ملتهـب: إن عـذرتني فسـوف أعـذرهـا

وقال الثاني، علي الخطيب:

لعيني لاحت غـــادة، فتلكّأت — خطـــاي أراعي مـــا لها من روائع
على النظر العجلان هزّت مشاعري — ملامح وجـــه للمفـــاتن جـــامع
أرى الشَّعرَ المركوم فوق جبينها — تراوح لونـــاً بين قانٍ وفاقع
تجاعيده كالتاج من فوق بعضها — تراكبن في حسن من الصنع بـــارع
لها الأعين النجّل اللواتي، إذا رنت، — أثـــار فؤادي ضجة في أضالعي
على شفتيهـــا رفّ روحي محوّمـــاً — كأن لم يجرب جـــامحات المطـــالع
لقد خطرت تحت العباء فعبّرت — عبـــاءتها عمّا لها من بـــدائع
تجلّي المحيـــا في دجاهـــا، فزانـــه — كما زان عـــرض الليل إيماض طـــالع
تلفّعتِ صـــوناً أم تلفّعتِ فتنـــة؟ — ومـــا أنت لو غادرت سود الملافع؟

وكان الثالث مير بصري (مؤلف هذا الكتاب) فقال:

بسمت لي مـــدلـــةً في الطـــريق — فكـــوت مهجتي بنـــار حـــريق
ومضت تحمل الفـــؤاد أسيراً — بلحـــاظ العيـــون ذات البريق
انّ قلبـــاً يهتـــاجـــه اللحظ وجـــداً — لهو قلب في الحبّ غير عـــريق الخ...

وقال أيضاً:

لبست سراويل الـــرجـــال تأنقـــاً — ومشت كما يسري النسيم رخـــاءا
هيفـــاء أولتهـــا الأنـــوثـــة رقـــة — والحسن يقطـــر فتنـــة ورواءا
خشع الطـــريق، كأنما هـــو أعين — تـــرنـــو وأفئـــدة تـــرف رجـــاءا
أجميلتي، رفقـــاً بفتنـــة كـــاعب — أن تـــرتـــدي حُلل الـــرجـــال ريـــاءا
فأجـــابت الحسنـــاء، وهي مـــدلّـــة، — والثغـــر يبسم خيلـــة وحيـــاءا:
إنّي رأيت من الـــزمـــان خشـــونـــة — فطلبت في خشن اللبـــاس وقـــاءا

وقد طرق هذا المعنى شاعر الحماسة القديم، رأى الحبيبة الحسناء تعرض عنه وتمضي في سبيلها، ثم تلتفت إلى الوراء لتنظر اليه، فقال:

وممّـــا شجـــاني أنّها يـــوم أعـــرضت — تـــولّت، ومـــاء العين في الجفن حـــائر
فلما أعـــادت من بعيـــد بنظـــرة — إليَّ التفـــاتـــاً أسلمتـــه المحـــاجـــر

وروى شاعر الغزل الرقيق عبد الله بن الدمينة، المتوفّى في نحو سنة ٧٤٧م، أنه لحق بالحبيبة ودونها صاحبها الجبار الغيور، فلما دنامنه وسلم عليه ردّ السلام مغتاظاً كارهاً.

ثم يقول :

فسايرته مقدار ميلٍ، وليتني ... بكرهي له ما دام حياً أرافقه
فلما رأت أن لا وصال وأنّه ... مَدَى الصُّرم مضروب علينا سُرادقه
رمتني بطرف لو كمياً رمت به ... لبُلَّ نجيعاً نحره وبنائقه
ولمحٍ بعينيها كأنّ وميضه ... وميض الحيا تُهدى لنجد شقائقه

ويا لها نظرةً تفتك كالسّهم القاتل وتحيي كالغيث الهاطل.

أطلال بابل :

أكثر الشعراء العصريون في العراق ومصر وسائر الأقطار العربية من وصف الآثار القديمة والاشادة بذكرها والتغنّي بالأهرام وأبي الهول وبابل ومدائن كسرى. وقد ثار علي الخطيب على هذا الشعر كما ثار أبو نواس على الوقوف في الأطلال الدوارس والبكاء عليها. قال أبو نواس :

ودار ندامى عطّلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جرّ الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنيّ ويابس

لقد سخر أبو نواس من الباكين على الطلول وسفّه أحلامهم وذكر مغاني الانس وملاعب البهجة والسرور ودور الخمر التي جمعت الندماء والظرفاء، ثم خلت من أصحابها وتفّرق شملهم، فحنّ إليها وردّد ذكرياتها ورسم صورها وأخبارها.

واستعار الخطيب الوزن والقافية وكسر الرويّ المضموم فقال :

أممنا ديار الغابرين ببابل ... فلم نَرَ فيها غير خاوٍ وطامس
ولم تُوحِ لي ما كنت أرجو وإنما ... عرائس أحلامي انطوت بالدّوارس
ركام من الأحجار فوضى شتيتة ... عرضت لها ما بين ضحل ويابس
وقفت أراعي ما استقرّ وما عفا ... وبالنفس قامت موحشات الهواجس
كأنّ نجاد الأرض دون وهادها ... غضون بوجه الحادثات العوابس
كأنّ ركود الماء أصفر آسناً ... صديد بجسم الأرض قنْد الملامس
ولم أر من صرح أقيم ممرّداً ... ولا من ميادين ولا من مجالس
وما لنتت ذهني إليها عجيبة ... ولا راقني فيها بديع النفائس
هنالك أنقاض ترامت على الثرى ... وحيطان قامت مثل سور المحابس
وذو أربع من تحته نام ذو ثُنىً ... وما لهما من سحنة وتجانس
تعاودنا الريح السّموم خلالها ... وقد عفّرت حتّى خبيء الملابس

فـأسماعنـــا مخدوشـــة بصفيرهـــا	ولم تتعّـــود غير همســـة هـــامس
طلـــول وإعصـــار وشمس ووحشـــة	ونحـن بها مـــــــابين لاهٍ ودارس
لقـد أقفـرت حتى خلت من أنـاسهـا	فليس بها من مـــونـق أو مـــؤانس
ومـــا هلك السكّـــان لكن تـرحّلـوا	إلى غيرهـــا مـن طيبّـــات المغـــارس
فظلّت خـــلاءً في تقـــادم عهـدهـــا	إلى أن عفت مطمـــورة في البســـابس
ولـــولا فضـــول بـــالطّبـــاع مـركّب	لما نُبِشَتْ آثـــار مـــاضٍ ودارس

وكذلك خالف علي الخطيب شعراء عصره، فلم ير في اطلال بابل عظة نافعة ولا ذكرى جاذبة، لم توح إليه بعظمة الماضين ولا تطلع الحاضرين. وقد استغرب كيف تُنبش آثار الماضي المندرس وتخرج إلى النور بقايا الدول المنقرضة، فكأنه فكّر، كما فكّر من قبله معروف الرصافي، ان الدهر جدّد للموتى مناقب لم تكن لديهم، فعظّم الناس القبور وتناولوا سكانها بالمدح والاطراء. قال الرصافي:

سقى الـدهـر لـلأموات غـرس مناقب	يِمَيْنٍ فظل الغـــرس ينمـــو فيبسُق
أرى كلّ ميت مـــا تقـــادم عهـــده	تقـــام لـــه ســـوق الثنـــاء فتنفُق
فأقـــربهم عهـــداً أقـلّ غضـــاضـــة	وأقـــدمهم عهـــداً أغضّ وأسمـق
إذا شطّ جيـل خطّ مـن جـــاء بعـــده	أكـــاذيب عنـــه بـــالثنـــاء تُـــزَوّقُ

من غزليات علي الخطيب:

إلى الحبيبة

أحبّـك حبّـــاً ليس ينسى ويجحـــد	ومهما يكن فـــالحبّ عنـــدي مخلـــد
أحبـك حبـــا في فنـــون كثيرة	وأزيـــاء في ألـــوانها تتعـــدّد:
أحبك لـــو أقبلت خُـــوداً رشيقـــة	لها مثل مـــا للـــورد طيب ومشهـــد
محيّـــاك ميمـــون المطـــالـع مشرق	تحوم حـــواليـــه عيـــون وأكبـــد
ولحظك فتّـــــان وأنفك أسنع	وثغـــرك مفتر وجيـــدك أغيـــد
وشعـــرك مصفـوف الأفـــانين مـرسل	غـــدائر سبط بعضـــه ومجعّـــد
أحبك لـــو لـفّ القـــوام غـــلالـــة	تـــريني مـن الأعضـــاء مـــا يتجسّـــد
أحبـك غضبى في فنـــون ورقّـــة	فأسعـى إلى استرضـــائهـــا أتـــودّد
أحبّك لـــو وليت وجهك جـــانبـــاً	كـأن لم يكن بيني وبينك مـــوعـــد

أحبك حبـــاً زاده البين لـــوعـــة | فكـــان عنيفـــاً ثـــائراً يتجـــدّد
كأني وهـــذا الحبّ يشتـــدّ صـارخـــاً، | خضم بـــه هـــوج الـــريـــاح تعـــربـــد
أحبّك حبـــاً تخوفت أن يُـــرى | فيغمـــزه الـــواشي الـــذي يترصّـــد
فكنت حـــريصـــاً في التكتّـم، انما | ينم على المكنـــون مـــا ليس يجحـــد :
نحـــول بجسمي واصفـــرار بسحنتي | وآهـــات أشـــواقـي تصـــوب وتصعـــد
أحبك حبـــاً مـــا ارتشفت رحيقـــه | على أنـــه زادي الـــذي أتـــزوّد
أحبك حبـــاً سلسبيل فـــراتـــه | يثـــرّ واني الظّـــامىء المتـــوجّـــد
أحبك حبـــاً دانيـــات قطـــوفـــه | على قـــربها منّي تنـــاءى وتبعـــد
وقفت على حبّيك مـــا ملكت يـــدي | ومـــا يحتـــوي أمسي ويـــومي والغـــد
أحبك حبـــاً جلّ شأنـــاً عـن الهوى | بـــه النفس مـن أدرانها تتجـــرّد
أحبك حبـــاً عبقـــريـــاً مـــؤاتيـــاً | بـــوضع مـن الأوضـــاع لا يتقيّـــد
وحبـــاً وديعـــاً هـــادئاً مترفّقـــاً | وحبـــاً جنـــونيـــاً يغـــار ويحقـــد
تـــريـــدينني أن ألـــزم الصبر وادعـــاً | ومـــا أنـــا ممّن للسّكينـــة يخلـــد
لئن تصرمي حبلي ففي الـــذكـــر مـــوئل | يخفّف مـن حـــزني الـــذي يتجـــدّد

حـال ومـآل

جلّ خطبي ومـــــا إليك سبيل | فلمـن أشتكي ومـــاذا أقـــول؟
كـــم مشير إليّ يســـأل عنّـــي : | أفهـــذا متيّـم متبـــول؟
لست أدري مـــا راعـــه غير أني | ســاهـم الـوجـه قـد بـراني النحـول
أتهادى في مشيتي كـــالسّكـــارى | يعتريني كـــآبـــة وذهـــول
لي من طيفك الحبيـب مـــلاذ | من شجـــون على فـــؤادي تصـــول
انّ يـــومـــاً لقيـــاك تسنح فيـــه | غـــرر الـــدهـــر دونـــه والحجـــول . .

قـضـي الأمـر

قضي الأمـــر وانتهت أيـــامـي | وتـــلاشى مـــا كـــان من أحـــلام . . .
أنـــا مـن ظلّ في الحيـــاة شقيـــاً | يتـأسّى بـــالـــوحي والإلهام
أنـــا مـن ظلّ عـــاشقـــا يتفـــانى | بـــالهوى الجهـم والهوى البسّـــام
أنـــا مـن أنشـــد الحبيبـــة شعـــراً | رائع النّسج، عبقـــري الغـــرام

ثم صار الزمان غير زماني ... ومقامي لديك غير مقام

وتوالت عليّ سود الليالي ... أنا منها أشفى عليّ حمامي

ثم ساءت مع الزمان شؤوني ... وابتلاني بالفقر والأسقام

ثم لان الزمان شيئاً فشيئاً ... واشتداد الخطوب في إيلامي

فتنفّست في صباح الأماني ... وتبيّنت موطىء الأقدام

وتماسكت في مجال المنايا ... وترفعت عن لجاج الخصام

وتدافعت في زحام المعالي ... وطريقاً شققت وسط الزحام

وإذا بي مضيع، لا المساعي ... ناجحات ولا بلغت مرامي

غير أني أقول، والقلب دام ... لك منّي تحيتي وسلامي

كيف الحال؟

حال... كما شاء اللئام بليدة ... لا تعرف الأفراح والأحزانا

ما ميّزت شرّ الورى وخيارهم ... تستقبل الأحرار والعبدانا

بلهاء سائرة بغير رويّة ... تستصحب الجبناء والشجعانا

سحقاً لها ما استحسنت ما استقبحت ... تتقبّل الأضداد أيّاً كانا

من حولها الأحداث في ضوضائها ... تترى فما مسّت لها آذانا

كالطّود راسخة فقرّ قرارها ... لم تلتفت يسراً ولا ايمانا

العيش عيش ليس تبلو طعمه ... سيّان إن هو قد قسا أو لانا

مغمورة فيه على علاته ... ما إن تبالي عزّ أو إن هانا

وإذا تجمّعت الشكوك حيالها ... لا تطلب الإيضاح والبرهانا

قد تستقيم صريحة لا تلتوي ... والوضع يستدعي لها البهتانا

مغرورة لا تتّقي ما يُتقى ... فبقيت منها مشفقاً خشيانا...

شمطاء عاطلة وكنت أريدها ... حسناء حالية حلىً أفنانا

بخلالها ومقالها وفعالها ... ووصالها وصدودها أحيانا

برواحها وغدوّها وقرارها ... تتعرّف الأحوال والأزمانا...

ما كنت أحسبُني أناضل حالةً ... قد أتعبتني فكرة ولسانا

فلكم رأيت المخزيات وأهلها ... فظللت منها واجماً حيرانا

لــــو لم تكن لي في النضــــال بقيّـــة ... للــزمت حــالاً فــاتت الحسبــانــا

ظلــــم

تخبّطت في ليل من الظلم حـــالـك ... فلم أتبين مسلكـــاً في المســـالكِ
إذا ســـدّدت لي ضربـــة واتّقيتهـــا ... فقـــد دفعتني غيرهـــا للمهـــالك
فإن أنْــأً عن ســوح الخصام مسـالماً ... ففي أثـــري شر الخصــوم الفــواتك
إذا نــافســوني في طــريقي تــركتـه ... دعـــوت لمن يحويـــه: ربي بـــارك
لعلّي أغـــــدو من أذاهم بنجــــوة ... وأصبح مـن أفعـــالهم غير هـــالك...
كبحـت جماح النفس حتـى ملكتهـــا ... ولما ابتغــــــــاني الهون لم أتمالـك
فأرسلتهـــا هــوجــاء غضبـة حـانق ... إذا قـــال: مــــا بـــالي، ولم يتــــدارك
أرى النـاس مـا عـاشــوا نفـوساً ضعيفـة ... إذا رغبـت هــــــــانت ولم تتماسك
أرى النـاس مـا عـاشــوا نفـوساً ضعيفـة ... إذا رغبـت عفّـت ولم تتهـــــــالـك
تلمّست في دنيـــاي سلماً فلم أجـــد ... ســوى سـافك يمشي على إثـر سـافك
أخـوض غمار النـــاس لـو كنت مثلهم ... على أننـي لا حــــول لي في المعــــارك
وحيـــد غـــريب لا صحـــاب ولا حمى ... طـــريـــد شـــديـــد بين شتّـى الممالك
وأعجب شيء في بـــــلادي رأيتـــــه ... عمار الأراضي في خـــــــراب المدارك

وزن وقافيـة

لم يبق عنـــدي مـن حـــول أذود بـــه ... إلا كـــلامــــاً مقفّى وهـــو مـــوزونُ
مـــا يصنع المرء في وزن وقـــافيـــة، ... والظلم مـن حـــولـــه والكيـــد والهون؟
ولا قـــرار لـــه في ظل مـــوطنـــه ... وليس تـــؤويـــه دور أو ميــــاديـن
يسعـــى ولا أمــــل يحدوه في عمـــل ... مصيره بيـــد الأقـــدار مـــرهـــون
مـــا شـــاء من عمل الاّ وضعضعــه ... مـن المصـــــاعـب تحريك وتسكين
فـــالعيش مضطـــرب والكسب ممتنع ... والعقـل في حيرة والجسم مــــوهـــون
بلـــواه بـــالغـة شكـــواه صـــارخـــة ... لم يلفـــه النـــاس الا وهـــو محزون
حـــرّ ينـــاضل دون العـــزّ مضطهـــداً ... ولا قـــــوانين تحميـــــه ولا ديـن
خـــابت مطـــامحه، ســـاءت عـــواقبـــه، ... صفـــر اليـــدين وفي دنيـــاه مغبـــون
فما انتفـــاعيَ مـن وزن وقـــافيـــة؟ ... حتى المقـــاييس ضـــاعـت والموازين
أين المفـــرّ، ومـــالي مـن يعـــاضـــدني ... لي الملائك خصـم والشيـــــاطين

لا ينفع المرء أمـــوال ومـــوهبـــة ولا المجـــالس تجدي والـــدواويـن
أعيـذكـم، أهل ودّي، من مشـــاطـرتي حـــالاً تحيط بها الأخطـــار والـــدون
حسبي وحسبكـم مـــا كـــان من خبري إن كـــان تعـــوزكم بعـــدُ البراهين

أسائـل نفسـي

إلامَ خطـــوبي تستفـــزّ شعـــوري ويكبـت حلمـي مـــا يجنّ ضميري
تـــردّدت بين الصمت والنطـق حقبـــة أقـــول لعلّي تستقيم أمـــوري
وضـــاعفت صبري في سراهـــا تعلّـــة ولكنهـــا ســـاءت فســـاء مصيري
ولست ألـــوم الـــدهـــر أكبر شـأنـــه بلـــومي على مـــا كـــان غير جـديـــر
ولكن ألـــوم الحلـم عنـــدي وحكمتي وطـــول أنـــاتي وانعـــدام شروري
فإني رأيـت القـــوم يخشـــون بعضهم إذا مـــا استـــووا في شرّة وغـــرور
وجـــاروا ومـــا عفّـــوا وكـــادوا وزوّروا إلى أن تـــراءى الـــزور ليس بـــزور
وقـــد عظّمـــوا مـن لم يكن بمعظّـم وقـــد صغّـــروا من لم يكـن بصغير
وليـــــــــس صغير دائماً بصغير وليـــــــــس كبير دائماً بكبير
ولكن هـي الأهـــواء تعمـي صحـــابها تعيـــد بصير القـــوم غير بصير
كم استمـــرأوا حلـــواً ومـــراً ولم أكن لأحسبهـم يستسهلـــون وَعـــور
إذا مـــا ادلهمّ الخطب عـانيت مـوضعي فـألفيتنـي وحـــــدي بغير ظهير
تلفـتُّ حـــولي لا أرى لي مخرجـــاً كـأني مـــوكـــول بكـلّ عسير
أكـــابـــد عيشـــاً مثـل حظي ســواده شغلـت بـــه عـن بهجتـي وسروري
وأدمت يمينـي شـــائكـــات زهـــوره تعـــودت منهـــا أن أعـــاف زهـــوري
وأمسكت عـن هـــزل الكـــلام وجـــدّه أســـائل نفسي: مـــا يكـــون مسيري
وبعـــد اللّتيـــا والتـي سرت مطـــرقـــاً أتمتـم ألفـــاظ الأسـى بـــزفير:
سـأبقى وحيـــدا مـــا حييـت محاولاً تنـــاسي آمـــالي وكبـت شعـــوري

الشعر الذي أريد

أحـــاول قـرض الشعـــر، وهـــو جموح وبـــالنفس تغـــدو حـــاجـة وتـــروح
أجـــاذبـــه حبل القـــوافي أروضـــه فينصـــاع منـــه بـــارع وفصيـح
يفيض على عضـب اللســـان بـلاغـــة يـــرفّ عليهـــا مـن كيـــانيَ روح
إذا كـــان آمـــالاً تفتـح بـــاسماً كما افترّ زهـــر بـــالعبير يفـــوح

يمسّ شغاف البائسين بلطفه فيجلو هموماً ما لهنّ مزيح
وإن يك آلاماً سكبت عواطفي أكاد بها أبكي أسىً وأنوح
وان يكُ عشقاً فالفؤاد خلاله صريع هوى قد أثخنته جروح
يشير ويومي لا يبين، وتارة يهّم بمكتوم الغرام يبوح
ويعرب عما يعتريه فإنّه حليف ضنى ممّا أصيب طريح
وان يك إيقاظاً هببت أصوغه وفي كل بيت وازع ونصيح
إذا استنهض الوانين قمنا جميعنا خفافاً وما بالناهضين طليح
وفي معرض الشورى حكيم أخو نهىً يسود له رأي أغرّ رجيح
وينقد أغراض الزمان وصرفه متون له ما تنقضي وشروح
يروعك كالبحر الخضم مهابة وليس به الاّ الضّليع سَبوح
شديد على الأخصام يكبت بأسهم وعنهم إذا زال الخصام صفوح
ولوع بتبيان الحقائق نصّعاً ولو كان من جرّائهن ذبيح
أتحت له صدق الشعور، وفاتني بدنياي من صدق الحظوظ متيح
وما همني فوت المنى، وقريحتي بكل مجالٍ في القريض تشيح
فللّه شعر لم يسعه زمانه وبعض دناه للزمان فسيح . . .
عجبت له في السعد والنحس عاملاً على جانبيه سانح وبريح
بعيد عن النقصان فيما يرومه نزوع إلى المجد الأثيل طموح
رفيع، عزيز ما أسفّ وما وهى عليه كمال النّابغين يلوح
ونزهته عن أن يكون بضاعة مداه هجاء أو مداه مديح

السياسة

من قصيدة :

تسلمت السياسة ما ملكنا فما أحيت لنا أرضاً مواتا
ولا شادت لنا مجداً رفيعاً ولا عن حوضنا ذبّت عداةَ
وكافحت المواهب واستمرت تحطّم أهلها ذاتاً فذاتا
إليك القوم عاينهم تجدهم عيوناً أو سعاةً أو جباةَ
فما نبغ النوابغ في ذراها ولا ضمّت عباقرة هداة
وكل مفوّه أمسى عيّياً تضايقه وما يبدي شكاة

عجبت لأمـــرهـــا قبـــلاً وغبـــاً تخال المرجفين لها دعـــــــــاة
ومـــا اختطّت تصـــاميم المعـــالي وعن أهـــدافهـــا الإصـــلاح فـــاتـــا
وأفســـــدت الخلائق، وهـي غـــرّ، وصـــار العقل ميـــلاً أو بـــداة
قضـت ظلماً على جـلّ الأمـــــاني وعـــاشـت في تنطّعهـــا افتئـــاتـــا
وضـــاهـت في تبرجهـــا الغـــواني وبـــزّت في بهارجهـــا الغـــواة
فما اجتـــذبت ســـوى نـــاس أتـــوهـــا عبيـــداً يـــرفعـــون لها الصـــلاة
وصـــــــارت للضعيف سبيـل رزق وفي دنيـــــا التحكم مشتهـــاة
فضلّـت في تخبطهـــا سبيـــــلاً وطـــاشـت في تقلبّهـــا حصـــاة
ومـــا غـــرست بحقـل العلم غـــرسـاً وفي الآداب مـــا بـــذرت نـــواة
ومـــــا اتخذت لـــ ـــذي داءٍ دواءً ولا جعلـت لمرضـــانـــا أســـاة
إذا مـــا الجدّ جـــدّ مضـى خفـــافـــاً مـــريـــدوهـــا يـــرومـــون النجـــاة. . .
ألا ويـح المواطـن مـن بنيهـــــا إذا أضحـى الجنـــــاة لها حماة
ويـــا ويل السيـــاســـة مـن رقيب يـــريها الموت أحيـــانـــاً حيـــاة
يسيّرهـــــا على نهج قـــــويم يثقفهـــا ويمنعهـــا التفـــاتـــا
والاّ فـــــالمواطـن في ظـــــلام يعيـث المفســـــدون بها عُتـــاةَ

وقال في انتماء العراق إلى عصبة الأمم (١٩٣٢):

أأعـــلام نصر مـــا أرى في الشـــوارع ولا نصر الاّ للهـــوى والمطـــامع
يقـــولـــون: نلنـــا لامع الفـــوز عـــاجـــلاً ومـــا لامعـــاً شمنـــا ولا غير لامع
ولكـن رأينـــــا كـلّ مبـكٍ ومضحـك فـــدلّـت على العقبى شكـول الطـــلائع

وله:

وكـم هنـــا وطنّي في مظـــاهـــره بـــالمكـــر ملتفع، بـــالـــدسّ مقتبع
يقـــدم البعض رجـــلاً ثـم يـــرجعهـــا فكـــان أول مـن لبّـــوا ومـن رجعـــوا
وتلـك شعـــوذة جـــازت على وطـن أحـــوالـــه فتن، أبنـــاؤه شيع
يـــا ليت أذنـــاً إلى الأحـــرار مصغيـــة أو ليـت عينـــاً على الظّـــلام تطّلع

أنور شاؤل

الشاعر الأديب القاصّ المحامي أنور شاؤل ولد في الحلة سنة ١٩٠٤ وتوفي في ١٤ كانون الأول ١٩٨٤. أصدر مجلة الحاصد الأسبوعية أكثر من ست سنوات. قال أحمد حسن الزيات في مجلة الرسالة المصرية أن أنور شاؤل ثاني اثنين مهَّدا لكتابة القصة الحديثة في العراق (أما الأول فكان محمود أحمد السيد). وأثنى عليه جعفر الخليلي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً» فقال إنه من أوائل ممارسي أدب القصة الحديثة وأن مجلته الحاصد كان لها أبلغ الأثر في تشجيع كتابة القصة والفنون الأدبية الأخرى.

ترجمت لأنور شاؤل ترجمة وافية في كتابي «اعلام اليهود في العراق الحديث» الصادر سنة ١٩٨٣. وقد نشر مجموعات قصصية، منها: الحصاد الأول (١٩٣٠) في زحام المدينة (١٩٥٥) أربع قصص صحية (١٩٣٥) قصص من الغرب (١٩٣٧).

كان شاعراً مطبوعاً نشر من الدواوين: همسات الزمن (١٩٥٦) وبزغ فجر جديد (١٩٨٣). وله أيضاً: قصة حياتي في وادي الرافدين (١٩٨٠) عليا وعصام (قصة سينمائية، ١٩٤٨) وليم تل (مسرحية مترجمة، ١٩٣٢) الطباعة العامة: فنونها وصناعاتها (١٩٦٧) إلخ.

شارك في الحياة الأدبية العامة بشعره ونثره أعواماً طويلة، فحيّا في قصيدته «عذراء أثيوبيا» جهاد الأحباش ضد الغازي الإيطالي سنة ١٩٣٥ وجلجلت قصائده خلال الحرب العالمية الثانية تشجب النظام النازي:

نظام أقاموه على النار والدم ... وفيه استباحوا كل فعل محرّم

وحيّا انتصارات الحلفاء ودعوتهم إلى الحرية واستقلال الشعوب وسيادة القانون والنظام. وقد قال:

إن كنت من موسى قبست عقيدتي ... فأنا المقيم بظل دين محمّد

وسماحة الإسلام كانت موئلي ... وبلاغة القرآن كانت موردي

ما نال من حبي لأمة أحمد ... كوني على دين الكليم تعبّدي

سأظل ذياك السموأل في الوفا ... أسعدت في بغداد أم لم أسعد!

أكرم أحمد

شاعر الشباب الذي ظلّ شاباً بالروح بالرغم من كهولته وتمرّسه بالوظائف والأعمال.

وهو أكرم بن أحمد أفندي محاسب لواء المنتفق ابن توفيق من عشيرة الكرخية. ولد في البصرة سنة ١٩٠٦ ونقل رضيعاً إلى بغداد فنشأ بها وترعرع في كنف خاله فؤاد أفندي

الموظف بالدائرة السنّية. وقد أتم دراسته الثانوية واضطرّ إلى الانصراف إلى العمل لوفاة والده. ولازم عبد الوهاب النائب فأخذ عنه طرفاً من علوم اللغة العربية، واتصل بجميل صدقي الزهاوي وكان من أشياعه ومريديه.

انتظم في سلك الوظيفة كاتباً في مديرية السجون العامة في ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٦، ثم نقل معاون مدير التحرير في متصرفية لواء البصرة فمدير تحرير لواء ديالى (أيلول ١٩٣١) فالحلة فالبصرة (١٩٣٥). وعيّن بعد ذلك مدير ناحية فتنقل في أنحاء العراق حتى أصبح مدير ناحية الأعظمية، ثم رفّع قائممقاماً لقضاء عفك (كانون الأول ١٩٤٢) فأبي صخير (تموز ١٩٤٣) فالصويرة (آذار ١٩٤٤) فالحيّ (أيار ١٩٤٦) فخانقين (١٩٤٦) فعنة (كانون الأول ١٩٤٧) فالحيّ ثانية (نيسان ١٩٤٨) فالمحمودية (نيسان ١٩٥٠) فالصويرة أيضاً (شباط ١٩٥١) فالكاظمية (تشرين الأول ١٩٥١). ورفّع مفتشاً إدارياً (أيلول ١٩٥٢) فمتصرفاً للواء المنتفك (آذار ١٩٥٣) فمتصرف الدليم (كانون الأول ١٩٥٣) حتى أحيل على التقاعد في تشرين الثاني ١٩٥٦، بعد خدمة ثلاثين سنة تدرج خلالها من كاتب صغير إلى موظف إداري كبير.

وقد توفي ببيروت في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٦٨ أثر نوبة قلبية لم تمهله سوى أيام.

شعره وأدبه:

بدأ أكرم أحمد ينظم الشعر شاباً، وكان شعره في أول الأمر تقليدياً جامداً، فمن ذلك رثاؤه لأستاذه عبد الوهاب النائب المتوفى سنة ١٩٢٧:

جفا الحياة وجدّ السّير مضطعنا ... عن معشر حالفوا الأحقاد والإحَنَا

رأى غمار المنايا وهي ثائرة ... فخاضها غير هيّاب وما جبنا

لم يدفنوا ذكره بل ظلّ منتشراً ... وإن هُم دفنوا في قبره البدنا

ثم قرأ عيون الشعر العربي القديم والحديث واتصل بالزهاوي وشعراء المدرسة الحديثة، فصار يقرض الشعر الرقيق ويتصرّف في فنونه وأغراضه، وبرّز في الغزليّات حتى لقّب بشاعر الشباب، ولازمه اللقب سائر حياته.

زاره خيال الحبيبة بعد هجر وفراق، فسرّ به واحتفى وقال:

رسول من خيالك زار وهناً ... وما غير النجوم له رقيب

فقلت، وقد هتفت به حفيّاً ... أعانقه: تذكرني الحبيب

أبحت لك الفؤاد فَحُلَّ فيه ... ففي جفني مقامك لا يطيب

أخاف عليك من جفن قريح ... تؤرقه الطوارق والخطوب

نعمت بقربه أشكو إليه ... صوادع في الفؤاد لها ندوب

وخلت الليل مثل الروض يندى ... به من نشرك الفوّاح طيب...

وحنّ إلى ليالي السعادة والصفاء فتأوّه وتلهف وقال :

حننت إلى الليـــــالي البيض ولّـت ... وطـــاف بخـــاطـــري منهـــا خيـــال
وأنـت بجـــانبي فـــردوس حـبّ ... تبسّـم كـــالـــربيع بـــه الجمال
تضــــوّع مـن مُقَبَّلَـكِ الغـــوالي ... ويغمــــر عينك السّحـــــر الحلال
ومجلسنــــا حيــــال الشــــام تحنــو ... علينـــــا من خمائلهــــا الظـــلال
تنـــاولنــــا الــــوشـــاة بما أحبّـــوا ... فتمّ لهم لما قصـــــدوا منـــــال
دعينـــا نغنم اللـــذات هـــوجـــاً ... وخلّيهم ومـــا زعمـــوا وقـــالـــوا
ألفـت الحبّ تيهـــــــاً أو دلالاً ... فهل أغنـــاك تيهـك والـــدلال؟ . . .

هام أكرم أحمد بالجمال فقال :

الهوى نعمـــــة الطبيعـــــة فـــاضت ... في قلـــوب تحسّ معنى الـــوجـــود
هتفت بـــاسمـــه الليـــالي وغنّـت ... بـأنـــاشيـــده حيـــاة البيـــد
أيّ سر قـــد طلسم الحسن فيــه ... ففتنّـــا بمقلـــة أو بجيـــد؟
أي سحـــر يبـــدو لعينيك حتـى ... تنثني والهاً بقلـب عميـــــــد؟
رسـم النـــاس للجمال كما شـــاؤوا ... حـــدوداً ومـــا لـــه من حـــدود

وفكّر في مصير الجمال، وهو العاشق المغرم بالجمال، فقال :

ســألتنـي ودمـــــــوع العين ... بـــالشكــــــوى تبـــوح
عـــــــــانس رقّ لها لفـظ ... كما قـــــــــد رقّ روح
نـــاطق بـــالشجـن الخافي ... بعينيهــــا وضـــــــوح
في محيّـــاهـــا بقـــايـــا ... مـن مـــلاحـــات تلـــوح
أتـــــرى الحسـن نـــــزيـل ... مثلما جـــــاء يـــــروح؟
قلـت : لا يغـــــررك وجـــــه ... لـك كـــــالصبـح مليـح
وشعــــــــاع مـن جمال ... كسنـــــــــى البرق لموح
وعيــــون فـــاتـــرات اللحظ ... بـــالسحـــــر تليـح
وأريـــج الطيـــب مـــن مبسمـــك ... العـــــــذب يفـــوح
وكقطـــــــر الطـلّ دمـع ... فـــوق خـــدّيـك سفـــوح
عنـــدمـــا يعتلـج السهـم ... وتهتـــــاج الجروح
إنّ هـــذا الحسـن مثـل الـــروض ... ينـــــدى ويصـــــوح
وغـــــداً إذ يهجـم الشيـب ... ويعتـــــلّ الصحيــــح

وتعـــــــــــرّي غصنـك المورق   للعـــــــــــــاصـف ريـح
يتســـــاوى في حَشـــا الأرض   مليـــــــــح وقبيـــــــــح
حيـث لا يغنـي جميــــــــــلاً   كبريـــــــــــــاء وجموح

لقد عبّر أكرم أحمد في هذه المقطوعة عن معنـى عزيز على الشعراء تفنّنوا في الإفصاح عنه وبـالغوا في ذكـره على مرّ الـزمان، معنـىً مآلـه أن الشعر خـالد والجمال زائل. ألم يخاطب رونسار الشاعر الفرنسي فتاته الحسناء المدلّة قائلاً:

«حينما تبلغين من العمـر عتيّـاً، وأنت جـالسـة تصطلين بـالنـار مساءً، تنسجين وتحوكين على ضوء الشموع، ستقولين إذ تنشدين شعري في زهو وخيلاء: إن رونسار قد أشاد بـذكري يوم كنت رائعـة الجمال... سوف أكـون آنذاك راقداً تحت الثـرى، طيفاً تائهاً في الظلال الهيوليّة. أما أنتِ فسوف تكـونين عجوزاً شمطاء قابعة في الدار، نادمة على حبّي وما أسلفتِ من صدّ وكبرياء...».

ويردّد رونسار نفس هذه الفكرة في مقطوعة أخرى من شعره فيقول: «أيتها المليحة، لنذهب ولنـرَ الوردة التي نشرت في الصباح غـلالتها الأرجوانيـة في ضياء الشمس، هل فقدت في المسـاء أفواف ثوبها الـزاهي وبَشَرتها المضاهية لحسن طلعتك؟... فيـا أيتها المليحـة، اقطفي شبابك الغـضّ، وأنت في ميعة الصبـا وغضـارة البهاء قبل أن يـذبل جمالك كهذه الوردة في ظلّ المشيب!».

وقديماً قال المتنبّي شاعر العرب:

زوّدينـــا من حسـن وجهك مـــا دا   م، فحسن الـــوجـــوه حـــال تحول
وصلينـــا نصلـك في هـــذه الـــدّنيـــا   فـإنّ المقــــام فيهـــــا قليـل

وقـال بيير كورنـاي (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) يخاطب ممثلـة شابّـة: «لئن كان وجهي قـد شابت خطوطه، اذكري أنك حين تبلغين عمري لن تكوني خيراً مني.

فالزمان الذي يسرّه إهانة الأشياء الجميلة كفيل بأن يذبل زهورك كما غضّن جبيني.

ولكن لي مـزايا بـاهـرة تقيني صروف الـدهر. ولك مـزايـا يعبـدها النـاس. غير أن سجاياي التي تستهينين بها سوف تدوم بعدما تبلى محاسنك...».

***

لقد تألم شـاعرنـا لتأخّر أمتـه وجهلها والأخطار الملمّـة بها وتغافل المسـؤولين عنها، فقال:

نحـن في معـــــــــرض الأمـم   كقطيـــــع مـــــن الغنـــــم
نـــام عنـــه الـــرعـــاة والـــذئب   يقظـــــــــــــان لم ينـم
شغلتهـــــم عـــــن الحمـــــى   متـــــع العيـــــش والنعـــــم
مـــــدهقـــــات كـــــؤوسهـم   قـــــد حســـــوهـــــا على نغم

لا يحسّـــون صرخـــة الشعب ... من لـــــذعـــــة الألم
ولأمــــر تصــــامـــوا ... مــــا بــــآذانهم صمم
مــــا عليهم وقـــد خبت ... فيهـم جــــذوة الهمـم
أن أبيحـت ديـــــارهـم ... واستبيحـــت بها الحرم...

حتى يقول:

إن للظلـم ســـاعـــة ... تتـــــوارى بمـن ظلـم
ســـوف تشقـى حيـــاتها ... أمـــة تعبـــد الصّنم

وأكرم أحمد يوالي تحذير رجال الحكم ويدعوهم إلى العدل والبرّ بالشعب، فيقول:

قل لـلألى استهتروا بـالشعب حكّـامـا ... لا تسرفـوا، إن لـلأقـدار أحكـامـا
غيظ الشعـوب إذا مـا ثـار ثـائره ... كـالسّيل يجتـاح جبّـاراً وظـلاّمـا
مغبّـة الظلم بـالبـاغين عـاصفـة ... وإن تطـاول عمـر الظلـم أعـوامـا

ووقف على قبر معروف الرصافي مؤبّناً، وقد أودع لحده، فقال:

أبعـد الـروح تـرسـل منـه شعـراً ... تكـــون لـك الحفيرة مستقـــرّا؟
عجبت لحفـــرة في الأرض ضـــاقت ... مجالاً كيـف تحوي منـك بحـــرا...
هـمُ خطّـــوا ضريحك في تـــرابٍ ... ولكنّـي جعلـت حشـــــاي قبرا
بـــررت بمـــوطـن سبعين عـــامـــاً ... فســـامـك بغضـــة وأذى وغـــدرا
وحسبـك فيــــه أنك عشـت حـــرّاً ... على رغـم الخطـــوب ومُـتَّ حـــرّا

ومن شعره في الهجاء:

بليـت بثعلـب يبـــــدي ولاءً ... ويخفي في مطـــاوي النفس ضغنـــا
جبـــان يحسب الأشبـــاح ليـــلاً ... إذا بصرت بها عينــــاه جنّـــا
وإن سمـع الـــرعـــود لها هـــزيم ... نهاراً ريـع مـن فــــزع وجُنّـــا
كحـــربـــاء يبـــدّل كـلّ آن ... مخادعـــة من الألـــوان لـــونـــا

وشعره متفرق في الصحف والمجلات لم يجمع في ديوان. وقد وضع أكرم أحمد رواية غرامية سماها «ذكريات المدرسة»، وكتب مقالات أدبية أكثرها في الدفاع عن الزهاوي.

من شعر أكرم أحمد:

رويــــدك قلبي أطلت الــولــوع — إلامَ اضطــــرابك بين الضلــــوع؟
حملت مـن الــوجـد مـــا لا يطـاق — ومن لـــذعـــات النــوى مــا يــروع
تنـــــــاءوا وشطّت بهم دارهـم — وأقفـــرن ممّـن تحبّ الـــربــوع
تسيـل دمـــوعـك في إثـــرهـم، — فهل تــرجـع الظـاعنين الـدمـوع؟

وقال:

يــا صحـوة الفجـر، هل عـود فأغنمهـا — والكـــفّ تعصر لي خمراً فـــأرتشـف؟
أروي من الحبّ عينـــاً ملـــؤهـــا نهم — وخـــافقـــاً من تبـــاريح الجوى يجف
أضمّهـــا وهـي مثل النـــار لاهبـــة — وأضلعي بعصـــوف الشـوق تـــرتجف
تفتح الحسـن بسّـــامـــاً بطلعتهـــا، — أهـــذه طلعـــة أم روضـــة أُنُـفُ؟
أمعنت في وردهـــا نشـــوان أقطفـــه: — ورد الجمال بلحــظ العين يقتطـــف
يـا فتنـة الشـاعـر الحسّـاس قـد لمست — فيك العــواطف شيئـاً فـوق مـا وصفـوا
عينـــاك خمري والنهــدان خـــابيـــة — وهـل لمثلي عـن هـــذيـن منصرف؟
يـا ســاقي الخمـر عَـدِّ الكأس صـافيـة — عن الـــذين على خمر اللّمـى عكفـــوا

نعمان ثابت عبد اللطيف

الشاعـر الضابط الرئيس الركـن نعمان ثابت عبد اللطيف ولد ببغـداد سنة ١٩٠٥، وانتمى إلى المدرسة العسكرية (١٩٢٤) فتخرج فيهـا ملازماً ثانياً سنة ١٩٢٧. واشترك في دورة الأركان سنة ١٩٣٦ فرفع إلى رتبة رئيس (نقيب) في الجيش. وساهم في الحركات العسكرية في أنحاء بارزان والفرات.

مال إلى قـرض الشعر فتتلمـذ على منير القاضي وأمضـى أوقات فـراغه في الـدراسة والتتبّع. وقد وضع كتبـاً ورسائل عديـدة، وقام صديقـاه إبراهيم أدهم الزهـاوي وعبد الستار القراغـولي بعد وفاته بنشر ديـوانه «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابـه «الجندية في الدولة العبّاسية» (١٩٣٩). ومن مصنفاته المخطـوطة: الألغاز العربية، الجاسوسية، جـواسيس الميـدان، وسائط الاستخبـارات في الحرب، قضـايا التجسّـس الفاصلـة في التاريخ، ورسائل في الحمام الزاجل والحبر السرّي والشطرنج إلخ. وألّف روايات منها: مصرع المتوكل، مأساة القائد السجين، آخر بني سراج.

قتل برصـاصة طـائشة، في أثنـاء حوادث السماوة، في ١٢ حـزيران ١٩٣٧، فـرثاه إبراهيم أدهم الزهاوي قائلاً:

مـــا عـــــزائي الجميـل عنـك جميل وقصير عليـك حـــــزني الطـــــويـل

وقال أيضاً :

يـــا دولـــة السيـف عـــزّي دولـــة القلم كلتـــاكما فجعـــت بـــالمفـــرد العلم

وقال عبد الستار القراغولي :

لا تقـل لي: بـــالله أجمـــل عــــزاءا إنّ رزئــــي قــــد جـــاوز الأرزاءا

وممّن رثـاه أيضاً عبـد الـرحمٰن البنـاء وحسين الظريفي وكمال نصرت وخضر الطـائي وجميل أحمد الكاظمي وغيرهم .

شعره :

كان نعمان ثابت من شعراء الجيش كمحمود سـامي البارودي وحافظ إبراهيم وعبد الحليم حلمي المصري، لكنـه امتاز بحسّـه المرهف وعـاطفته المتقـدة، فكـان الشاعـر الوجداني الأصيل . قال متغزلاً:

ليست النـــار كـــآلام يـــؤجـجن ضلـــوعي

تهطل الأمطـــار مـــدراراً وليست كـــدمـــوعي

وولـــوع البلبل الصـــدّاح لا يحكي ولـــوعي

فـــاذكـــريني عنـــدمـــا أسقى بكـــاســـات الفنـــاء

كلّما النيران شبَّـــت

كلما الأمطـــار صبّت

وقال :

لست أخشـى رمـــاحك السمهـــريـــة ورصـــاصـــاً تصبّـــه البنـــدقيّـــة

بـل خـــدوداً ورديّـــة ولحاظـــاً مصلتـــات على رقـــاب البريّـــة

غلبت على شعـره مسحة من الحزن، فهـو إذا ذكر الحبّ والهيـام راودته فكـرة الموت فقال :

حنـــــــانيـــك إذا مـــتّ فبـــــــالأوراد غطّيني

فـــزهـــر النـــرجس الغضّ يحيّينـــي فيحيينـــي

وغنّيني بـــأشعـــاري فـــأشعـــاري تعـــزّيني

فـــإنّي شـــاعـــر يهوى عيـــون الخُرَّد العِينِ

وغمرت نفسه اللوعة والكآبة فقال :

بـــذمّـــة بـــاريها الـــذي تتجـــرّع فكـم تلتظي شـــوقـــاً وكم تتفجّـع
كـأنّ بجنبيهـــا الكـــآبـــة تصطلي ومعتلـج الآلام فيهـــا مـــودّع
وتأرق لا تـــدري المنـــام جفـــونها إذا مـــا نجـــوم الليل في الليـل تطلع
وتسجع كـــالـــورقـــاء غـــادرت الحمى إذا سمعـت ورقـــاً على الأيك تسجع
وإن نهل الأمـــواج مـن وابل الحيـــا تسحّ على وجنـــاتها الصفـــر أدمـع
كـأن أوار الحبّ يحيـي مـــــواتها إذا التهبت فيـــه قلـــوب وأضلـع
وقـــد تعتريها هـــزّة تلـــو هـــزّة لـــذكـرى أويقـات مضت ليس تـرجع
زمـــان بـه تسقـى السّـلافـة، والهوى يجلّلهـــا، والعيش فينـــان ممـــرع
ألا هي نفسي، يـــا أحبّـــاي، فـارقـوا بنفسي التي آمـــاقهـــا الـــدمع تهمع

وذكر وطنه وأحبّاءه فقال :

أمـــا للنـوى نـأي يـرقّـــه خـاطـري فنـــوحي على الـــزوراء أدمى محاجـــري
سـلامي على مثـوى أمـانيّ عنـدمـا تميل الصَّبـــا بـــاليـــانعـــات النّـــواضر
ســـلامي عليهـــا مـــا تهادى نسيمهـــا على بسـط حيكت بتبر الأزاهـــــر. . .
أحبّـــاي في الـــزوراء مهما ديـــاركم تنـــاءت فأنتم ملء سمعي ونـــاظـــري

وعشق آله وقومه فقال :

عــــــربيّ يعشق العـــــربـــــا لا تلــــــومـــــوه إذا انتحبـــــا
أســــــــد كلّـت مخالبـــــــه وجـــــواد في السبـــــاق كبـــــا
نـــــــادراً تلقـــــــاه مبتسماً ولكـم تلقـــــــاه مكتئبـــــــا

ومن جميل شعره قصيدة مترجمة عن الإنكليزية في رثاء طفل :

الكـــوخ رغم بســـاطـــة الأريـــاف جلّت محاسنـــه عـــن الأوصـــاف

إلى أن يقول :

والطفل أنحلـــه السّقـــام وهـــدّه هـمّ يـــدكّ رواسيـــاً وبحـــارا
قـــد أظلمت عينـــاه، أمّـــا خـــدّه فـــذوى، وأمـــا حسنـــه فتـــوارى
والأم قـــد ركعت بجنـب سريـــره تبكي بهمس في الظـــلام الـــدامس
كي لا يحسّ وحيـــدهـــا ببكـــائها يـــا ويح من يـــؤذيـه صـوت الهامس
صلّت بخـــاطـرهـــا وأعـــرب دمعهـــا عن حـــرقـــة في نفسهـــا ومـــرارة
ومن المصيبـــة أن تفيض دمـــوعهـــا عنـــد الصـــلاة بلهفـــة وحـــرارة. . .

قال محمود الدرّة في كتابه «الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١» إن النقيب نعمان ثابت الأعظمي من ضباط الاستخبارات الأكفاء، وكان قومياً عنيفاً يعمل في مقر قيادة الفريق بكر صدقي خلال الحركات العسكرية في الفرات (١٩٣٦). وقتل برصاصة من الوراء، ونسب قتله إلى مؤامرة دبرت بأمر بكر ونفذها ضابط من قوة الشرطة السيارة.

نديم الأطرقجي

ثلاثة وعشرون ربيعاً وأحلام وشعر قليل: تلك حصيلة نديم الأطرقجي من الحياة. أما المرض والألم والحرمان فذلك حظّ النفس الحسّاسة المرهفة والشباب الفوّار.

وماذا نعلم عن نديم محمّد الأطرقجي؟ لقد ولد ببغداد سنة ١٩١٤ لأسرة موصلية النجار، ودرس اللغة الإنكليزية التي ترجم عنها شيئاً من الشعر والنثر. وهام بالتمثيل، فانتمي إلى جمعية أنصار التمثيل التي كانت تضمّ أقرانه من الشبّان الهواة برئاسة عبد الله العزاوي. وارتقى خشبة المسرح في بغداد وبعض الألوية. قرض الشعر يافعاً فأفرغ نفسه في كؤوسه رضاباً نديّاً، وابتلي بالفقر والسلّ فتوفّي في مستشفى العزل ببغداد في نيسان ١٩٣٧.

ذلك ما نعلمه عن حياة نديم، ونعلم أنّه كان شاعراً وجدانياً مترسّماً خطى شعراء المهجر الذين اتخذوا من آلامهم ومشاعرهم قيثارة يعزفون عليها أناشيد الوجود والعدم. كان نديم مثال الفراشة التي تمنحها الطبيعة أيام الربيع القلائل لتزور الرياض وتسامر الزهور وتسكر بالعطور. وكان نديم مثال الشعراء الذين قضوا في ميعة الشباب، مثل طرفة بن العبد والشاب الظريف التلمساني وشاترتن وشيلي وكيتس وهيجيسيب مورو، ومثل محمّد تيمور الذي ضاق ذرعاً بثروته وجاه آله ودراسته العالية، فانصرف إلى التمثيل وأنس برفقة المحرومين والبائسين، وشعر بأجله القريب فقال:

هيّئوا لي في باطن الأرض قبراً ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي ومن النور شقوتي وعذابي

وإنّنا نحسّ لذكرى نديم بمودّة عاطفية، كتلك المودة العاطفية التي نحسّ بها ـ كما قال الأديب الفرنسيّ جول ساندو ـ لذكرى الأصدقاء الشبّان الذين حصدهم الدهر قبل الأوان، وإنّ ذلك الحسّ لينمو في الحشاشة كما تنمو الزهرة الغريبة الغامضة...

كانت حياة نديم كالقطار الذي ركبه ووصفه قائلاً:

صفـــر القطـــار فأسرعـت عجـلاتـــه تطـــوي السّهـــول وعـــالي الأنجـــاد
فـــوجمتُ أنظـــر بـــاسماً بمـــرارة لمدينـــــة فيهـــا قبرت فـــؤادي
لا الطبّ بعــــد اليــــوم يشفـي علّتي ويـــزيـل عنّي لـــوعتي وسهـــادي
فـــالجسم لا يـــرجى الشفـــاء لـــدائه إنْ قلبُـــــه أضحى صريع عـــوادي

أجل، لقـد اشتـدّ عليـه الداء وزايلـه الأمل ورأى شبح الموت ينظـر إليـه كما ينظـر الوحش إلى فريسته، فقال:

أقضي الليـــالي بين أحضـــان مضجعي أنـــادي، ومـــا من راحـم يتقـــرّب
مـــريض أذاب الـــداء قلبي، ولم أهن ومـــا كنـت أدري في كفـاحي ســـأُغْلَبُ
فبـــــؤت كسير النفس أحمل خيبتي وقلبـــاً غـــدا فيـــه دمي يتصبّب
وأصبحت وحـدي في ابتعـادٍ وعـزلـة أنـــاضل كـــالمسجـــون حين يعـــذّب
وليس سميري في الـــدجى غير شمعـــة تـــذوب اشتعـــالاً مثل قلبي وتنضب
فأشعـــر أن الليل طـــال ظـــلامـــه فأبقـى لنـــور الفجـــر أسعى وأرقب
وأسمع في طـيّ الظـــلام هـــواتفـــاً وأنظـــر أشبـــاحـــاً تلـــوح وتغـــرب
فأفـــزع من تلك المشـــاهـــد خـــائفـــاً وتسرع دقّـــات الفـــؤاد وتضرب

رأى نديم شبح الموت، وكان في وسعه أن يخاطبه كما خاطبه من قبله الشاعر الفرنسيّ أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤) فيقول:

«أيها الموت، إنك تستطيع أن تنتظر، فابتعد، ألا ابتعد.

اذهب واذرف بلسم العزاء في القلوب التي يأكلها العار والفزع واليأس الشاحب.

أمّـا أنا فـالطبيعـة تمدّ لي بسطها السنـدسيّـة، والحبّ يحفظ لي قُبَلَـه، وربّة الشعـر معازفها.

إنني لا أريد الموت بعد...».

لقد كان في وسعه أن يقول، كما قال أندره شنييه أيضاً:

«ليمضى الفيلسوف الرواقي ذو العينين الجامدتين وليسع إلى معانقة الموت.

أما أنا فأبكي وأتشبّث بأذيال الرجاء.

وإذا هبت رياح الشمال القاتمة، أحني هامتي ثم أرفعها.

ولئن كانت الأيام مرّة، إنّ ثمة أياماً حلوة بهيجة.

آه! فأيّ عسل لم يترك قطّ طعماً مريراً، وأيّ بحر لم تزعزعه قطّ العواصف؟...»

لكنّ شاعرنا الشاب لم يجد بداً من الاستسلام والارتماء في حضن الموت، فرثته مجلة الحاصد التي طالما نشرت شعره على صفحاتها قائلة: «توفّي. . . بعد صراع عنيف بين جسمه الواهن وبين مرض السلّ الوبيل، فقضى نحبه وحيداً في مستشفى العزل. . . بكاه الشعر الفيّاض الحيّ، بكته النجوم اللوامع التي طالما حاكى شعره عقودها الزاهية».

إننا لا نعرف شيئاً عن طفولة نديم الأطرقجي وصباه، لكننا نسمعه يقول في قصيدته «ابن الشقاء»:

قد حرمت العطف من أهل قسوا	وأنا طفل رضيع وسط حضنِ
فرضعت البؤس من مهد الشّقا	وذوى من قلّة الإرواء غصني
ليس لي ثوب يقيني في الشّتا	زمهرير البرد أو يدفع عنّي
أرتدي سملاً إذا هبّت به	نسمة طار، فتذري الدمع عيني
ولثقل الفلس جيبي لم يزن،	ورنين الفلس لم تسمعه أذني
يضحك الناس ولا يرثون لي	وأرى أطفالهم تسخر منّي

ولقد اختار الفتى البائس الشعر وهفا إلى الحبّ، فهل حظي بهما ووجد فيهما السّلوة والعزاء؟ قال:

يشكو الحياة ويشدو	مثل الحمامة شاعر
يبكي فؤاداً خليّاً	قد بات في الحبّ عاثر

للغاب سار بناي	ألحانه ذات روعه
فأصبح الغاب يبكي	وأكسب الدّوح لوعه
وحمرة الورد غاضت	والغصن أرسل دمعه
وقام يبكي عليه	فوق الأريكة (؟) طائر
وحلّ بالغاب صمت	يحكي سكون المقابر

ولاحت للشاعر عروس الغاب فعاهدته أن ترعى مودّته. لكنّها غدرت ولم تعرف الوفاء ومنحت حبّها سواه، فطوى صدره على الحزن والأسى، وأطلق نغماته الشجيّة تردّدها الرياح وينشدها المحبّون المتيّمون.

وعلّل الشاعر نفسه بالطيوف والأوهام، وتراءت لعينيه أخيلة الهناء كالسراب الخادع، فقال:

ألهو وأعبث في الحيـــــــــاة لعلّني ... أسلـــو همومـــاً في الفـــؤاد خفيّــــه
فـأضـمّ ليلى أو أزور عفيفــــــــة ... أو أشتكـي ضرّ الهوى لنجيّـــــــــه
لكـنّ همّي لم يـــــــــزل متحكّماً ... في القلب يـــذكي لـــوعـــة منسيّـــه
قـالـوا: الخمـور تـزيل عنك شـواغـلاً ... فشربتهـــا بـــالأكـــؤس الخزفيّـــه
فأذاب كـأس الخمــــر حبّـــة مهجتي ... وكـأنّ شربي كـــــان كـأس منيّـــــه
فسكبت فـــوق الأرض خمر زجـــاجتي ... وتـــركـت كأسي في الثـرى مـــرميّــه
مـــا زلت أبحث في الحيـــاة مفتّشـــاً ... عـن نشــــوة تنسي الحزيـن بليّـــــه
فضللـت في طـــــرق الحيـــاة مشرّداً ... وتخذت أخيلـــة الهنــــاء مطيّــــة . . .

ورأى فتـاة أحلامـه تطلّ من الشبّاك . هـل كان أوّل شـاعر يـرى الحبّ في النافـذة البعيدة؟

إنّ روبرت برنز شاعر اسكوتلاندة الوطني (١٧٥٩ ـ ١٧٩٦) قد دعا حبيبته أن تطلّ من نافذتها، فقال:

«يا ماري، اجلسي إلى نـافذتك، فقد أزفت الساعـة الموعودة المؤكّدة، وأريني تلك البسمات وهاته النظرات التي تجعل من كنوز البخيل عنوان الفقر. . .

إنّ حبي ليشبه وردة حمراء قانية قد تفتحت براعمها في حزيران.

إنّ حبي كاللحن الذي تصدح أنغامه في لطف واتّساق. . .».

وجيرار دي نرفال (١٨٠٨ ــ ١٨٥٥) الشاعر الفرنسيّ المجـذوب قد تخيّل في شعره قصراً من قصور الإقطـاع في القرون القديمة، طلي زجـاج نوافذه باللـون الأحمر الصارخ وأحاطت به الـرياض الزاهرة، وغسل قدميه النهـر الجاري بين الورود. وأطلّت السيّدة من نافذتها العـالية شقراء ذات عينين سوداوين، متّشحة بثياب العصـور الخالية. لقد تذكّرها الشاعر، فقد رآها من قبل في حياة سالفة!

أما شاعرنا الأطرقجي فلم ير صاحبته من قبل، فقال:

هيفـــــاء قـــد ملكت نهاي بحسنهـــا ... مـن غير معــــرفـــــة وغير لقـــــاء
بـــانـت من الشبّـــاك تنظـر فـــاكتـوى ... قلبـي بحــبّ زاد في إيــــــــــذائي
فـــوقفـت مبهـــوتـــاً أمـــام جمالها ... مـن روعـــة كـــالصّخـــرة الصمّاء
فتعجّبــــت مــــن وقفتـــي وتحيّرت ... وبقيت مصعــــوقـــاً بـــلا إبـــداء
غمـــزت بعينيهـــا تســـائل: يـــا فتى، ... مـــاذا دهـــاك، فهل أُصَبْتَ بـــداء؟
لم أستطع قـــولاً، وبعـــد هنيهـــة ... كلّمتهـــا بـــالغمـــز والإيماء:
إنّي قتيلـك، فـــارحميني وانظـــري ... حـــالي فقـــد أصبحت في بلـــواء

فجمال وجهك قـد أضـاع مشاعـري وغـدوت، يـا حسنـاء، في بيـداء
فـاحمرّ مـن خجل لقـولي وجههـا، غضبت لـذاك وأطـرقت بحيـاء
وبـلا جـواب أغلقت شبّـاكهـا في قسـوة كـالنّـافـر المستـاء
فـوقفت أنظـر مـا جـرى من غـادتي والتعتُ مـن صـدّ وكثـر جفـاء
كم مـرّة حـاولت في طـرق الهوى صيـداً فبـؤت بخيبـة وعنـاء

وظلّ شاعرنا باحثاً عن جنّة الحبّ، فقال:

هيّـا معي للـروض، وابتسمـي فهنـاك ننسى مـا نعـانيـه
نصغـي لشـدو الطير في فـرح وبشـدونـا السّـامـي نناجيـه
والماء يجري فـوق أرجلنـا كـالتبر يبـدو في مجاريـه
والـزهـر تخفينـا خمائلـه عـن كـلّ واشٍ لا نصـافيـه
نجنـي الهوى غضـاً ونهصره، يـا هنـد، مـن بعـد الملمّات

***

إنّ الهوى سرّ سنعـرفـه، يـا هنـد، من ضمّ وتقبيـل
فـالحبّ لم يفقـه حـلاوتـه مـن تـاه في أقـوال تضليـل
ولينقل الـواشـون مـا عـرفـوا عنّـا، ولـو شـاؤوا بتهـويل
لسنـا نخـاف اليـوم كيـدهم فليـذهبـوا في كـلّ تـأويـل
ولنقطـف اللـذّات دانيـةً، يـا هنـد، من غصـن المسرّات

لقد ابتلي، كما ابتلي شعـراء الغزل من قبلـه، بالـواشي ينغص عليه سروره والـرقيب يقضّ مضجعه، فيا له من محبّ بائس.

ولازم الشقاء شـاعرنـا وحفّت به الأحـزان، فدعا نفسـه الأسيّة إلى انتهـاب ملذّات الحيـاة الفانيـة وعدم المبـالاة بما كان ومـا سيكون. وعصفت الأشجـان قبله بـالشاعـر الإنكليزي برسي شيلّي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢)، فطلب الراحة في الموت وقال:

«إنّ الشمس دافئـة والسماء صـافيـة، والأمـواج تتراقص سريعـة متألقـة. والجزر اللازورديّة والجبال المكسوّة بالجليد تأتزر ببأس الظهيرة الأرجوانيّ الشفّاف.

ونسمة الأرض النـديّة خفيفـة حول أكمامهـا التي لم تتفتّح. وقـد توحّـدت في نداء واحد من البهجة والسرور، أصوات الرياح والأطيار وأمواج البحر الخضمّ...

وا أسفاه! ليس لي من أمـل ولا عافية ولا راحـة في قرارة نفسي ولا هـدوء حواليّ، ولا الرضا، تلك الثروة الزاخرة التي يجدها الحكيم في التأمّل والتفكير...

وحتّى اليأس نفسه قد أصبح الآن لطيفاً كالرياح والمياه الهادئة الوديعة. وإنّ في وسعي أن أرقد كالصبيّ الذي أنهكه التعب فأبكي على حياة الشجون التي حملت أعباءها، ولا أزال، إلى أن يأتيني الموت خلسة كالنعاس، فأشعر في الجوّ الدافىء بصفحة خدّي تصبح باردة هامدة وأسمع البحر ينفخ في فكري المائت نغماته الراتبة الأخيرة».

ذلك ما فعلته الهموم بالشاعر الإنكليزي ودفعت به إلى هوّة الفناء. أما شاعرنا الفتى المنذور للموت فقد حاول، على نقيضه، أن يتمسّك بأذيال الحياة ويفوز بمباهجها، فقال:

لا تبتئس عندما تبلى بأحزان ... واهنأ بلذّات عمر زائل فان

دعهم يقولون: بعد الموت وقفتنا، ... وخلّني في ضلالي شبه سكران

أنظر: قصيدي من اللذات أنفقه ... لأنّ يوم غدٍ في طيّ نسيان

فكم لثمن شفاه الغانيات، وكم ... بالقرب منهنّ قد واريت أشجاني

وكم رميت بقلبي بينهنّ، وما ... خفت العيون التي تصمي باتقان

فما ارتويت وكأس الحبّ ما فرغت ... فلذّ لي في الهوى إنفاق أزماني

لا أستقرّ على غصن ولا سرر ... مثل الفراشة تلهو لهو نشوان

هذي الحياة جنان الخلد، كوثرها ... شهد اللّمى في كؤوس صنع رضوان

والحور هذي الغواني، إن عقلت، فلا ... تضيّع العمر في زهد وخسران

واشتدّ على شاعرنا الداء فلم يغن عنه الشعر ولا أجداه اهتبال الملاذّ. وحار في أمره الطبيب:

قال الطبيب: دع القريض ونظمه ... فالشعر يجهد قوّة الأعصاب

هذا نحولك لا يفيد له الدّوا، ... إنّ الكتابة مبعث الأوصاب

ماذا استفدت من القريض ونشره ... في كلّ مطبوع وكلّ كتاب؟

إنّي أراك بلا رداء لائق ... وبلا فراش ناعم وثياب

تضني دماغك هاصراً أفكاره ... فتذوب ملتهباً كعود ثقاب

إنّ السّقام، إذا بقيت معانداً، ... يرديك أو يرميك دون صواب

فأجبته: بالشعر أسلو بلوتي ... وبه أسطّر شقوتي وعذابي

إنّي سأسكب مهجتي ومدامعي ... لقصائدي وأصبّ ذوب شبابي

وكانت حشرجة المحتضر فقال:

قلبي من الأمـراض بـات ممـزّقـا ... وأمضّني مـرضي وجسمي أُزْهِقَـا
فعـرفـت أنّي سـوف أرحل تـاركـاً ... دار الضيـافـة، قـاصـداً دار البقـا
ففـزعـت من هـول النـذيـر ووقعـه ... لضيـاع قصـد رمـت أن يتحقّقـا
قـد كنت أرجـو أن أعيش لفَيْنـة ... حتـى أحقّق مـا أردت من البَقَـا
لكنّما حلمـي الجميـل قـد اختفـى ... لما رأى شبـح الممات محلّقـا
فـذويت في روض الحيـاة كـزهـرة ... مـاتت جفـافـاً قبل أن تتشقّقـا
هـذي هي الـدنيـا فـلا تـأمن بها، ... فـرحيقهـا سمّ وخمرتها الشَّقَـا
أرثيك، يـا نفسي، فقـد أزف النّـوى ... ودنـا البعـاد وبـان يـوم الملتقى

وكـذلك قضى شـاعـرنا كما قضى مـن قبله الشـاعر الفـرنسي جـوزيف جلبرت (١٧٥١ ـ ١٧٨٠) Joseph Gilbert، ذلك الذي قال:

«لقد جئت يوماً إلى مأدبة الحياة ضيفاً شقياً، ثم علقت بي حبال الموت.

إنني أموت، وعلى قبري الذي أمضي إليه وشيكاً، لن يأتي أحد ليذرف الدموع.

فسـلام عليك، أيتهـا الحقـول التي أحببت، وأنت، أيتهـا السهـول السنـدسيـة الجميلة، أيتها الغابات الضاحكة في عزلتها.

أيتها السماء، مظلّة الإنسان، أيتها الطبيعة الزاهرة.

عليك سلام الوداع الأخير!

آه، وليتمتع بمـرأى جمالك المقدّس طـويـلاً كلّ أولئك الأصـدقاء الـذين لا يصل وداعي إلى أسماعهم. وليناممـوا في أحضان الموت بعد حيـاة حافلة، ولتهطل الـدموع في مماتهم، وليقم بعض الأصدقاء بإغماض جفونهم!».

ذلك نديم الأطـرقجي الشاعـر، أما الناثـر فكتب قصصاً قصيرة منها: اللقـاء بعد الموت، عشيق الجنيّة، العناق الأخير. ووضع مسرحية الثـورة العربية التي مثّلت ببغداد في تموز ١٩٣٦ وقام هو نفسه بتشخيص بعض أدوارها.

ونظم في تلك السنة مسرحية شعرية بعنوان «مصرع السّلام» متأثراً بالأحداث العالمية آنذاك، من تغلّب الـدكتاتورين هتلـر وموسوليني وتعكيرهما لصفـو السلم والاستيلاء على الحبشة وتفجير الحرب الأهلية في إسبانيـا. جمع الأطرقجي في مسرحيته الخير والشرّ وإله الحرب وربّة السـلام، فتبجّح الشر بفرض سلطانه على العـالم ودحره لجيوش الخير والإحسان. ويبرز له الخير واهناً مرذولاً، لكنـه قويّ الإيمان بنفسه وخلوده. ولاحت في الأفق المدافع والدبابـات والرشّاشات والجنود تسير إلى القتال. ثم ظهـر الطاغية الجبّار

تعنو له الملوك والشعـوب، فرفع عقيرته مفتخراً بصولته ومجده، وكـان له الفوز على ربّة السلام.

ووضع نـديم الأطـرقجي مسرحيّتين أخيرتين هما: الاعتراف وابن الـدلال، مثّلتـا في حياته وبعد مماته ـ على ما قال الممثل القديم علي الأنصاري.

إن شعـراء كثيرين اخترمهم الدهـر كـالزهـرة اليانعـة قبل أن يتيح لهم، مثل نـديم الأطرقجي، إبراز مواهبهم الكامنة. وكان ذلك حظ الشاعر الفرنسيّ جاك دي لا تاي Jacques de la Taille الـذي ألف مسرحيـة ديـدون (١٥٦٠) وشفعهـا بعـد سنتين بمسرحية دارا والإسكندر، ثم لم يلبث أن توفّي في العشرين من عمره. لقد هوى التمثيل ومارسه مع أخيه جون، ثـم طوى الزمان صفحتهما وعفّى على أثرهما، كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

هل الـــدهـــر إلاّ ليـــلةٌ ونهارهـــا   وإلا طلـــوعُ الشمس ثـم غيـــارهـــا؟

أو كما قال الجرهمي القديم:

كأنْ لم يكـن بين الحجـــون إلى الصفـــا   أنيس ولم يسمـــر بمكّـــة ســـامـــر

عبد القادر رشيد الناصري

الشاعر عبد القادر بن رشيد بن إسماعيل، ولد في السليمانية سنة ١٩٢٠ من أبوين كرديين. ونزح والده إلى الناصرية فاستوطنها ولقّب بالناصري. وأتم عبد القادر دراسته الثـانويـة في بغداد، وأخـذ ينظم الشعر، واتصل بمحمـد مهدي الجواهـري وغيره من أسـاطين الأدب. ودرس البلاغـة والمنطق على الشيخ عبد القـادر عبد الـرزاق الخطيب (خطيب جامع الإمام الأعظم توفي في أيلول ١٩٦٩).

عمل محرراً في الصحف كجريـدة الرائد والنداء والأوقات البغـدادية، ووظف في دار الإذاعة العراقيـة سنة ١٩٤٨. وأوفد سنة ١٩٤٩ لإكمال دراسته في بـاريس، لكنه عاد بعد سنة واحدة لأسباب اضطرارية.

ووظف في أمانـة العاصمة في وظيفة لا تكـاد تسدّ رمقه. وقد أدركتـه حرفة الأدب، واستبـدّت بـه الآلام النفسيـة، وطلب في الخمرة عـزاءً فملكت لبّـه وأوهنت أعصـابـه وأهانت عزة نفسه. وتوفي ببغداد في ١٥ أيار ١٩٦٢.

مؤلفاته وشعره:

كان الناصري شاعراً مطبوعاً، كثير الحياء، جمّ الأدب. أصدر ديوان «ألحان الألم» سنة ١٩٣٩، ومسرحية ضحايا المجتمع (١٩٣٧)، وديوان صوت فلسطين (١٩٤٨). و «الأسفار» (١٩٤٩). وأصدر كـامل خميس «ديوان عبد القادر رشيـد الناصري» سنة

١٩٦٥ ـ ٦٦ في جزءين. وترك دواوين مخطوطة لم يتيسّر له طبعها، منها: «الآثام» و «الأفعى» و «غزل» و «أغاني السندباد» و «عرائس ومآتم» و «الأعماق» و «زينب» (ملحمة شعرية) و «قصة حبّي» (ملحمة شعرية) و «شموع تحترق» و «خمريات الناصري» و «الفاكهة المحرّمة» (مسرحية منظومة). وله مقالات نشرها في الصحف العراقية والعربية.

وقد تفوّق عبد القادر رشيد الناصري في الغزل فنظم فيه فنوناً وألواناً، ولهج بذكر المرأة والخمرة، وتنقل في الحبّ كالفراشة تنتقل بين زهور الرياض. خفضته أرزاء الحياة وأعباؤها، ورفعه الشعر إلى المحلّ السّامق، وخلّده خلود المحبّ الوامق.

إنّ حظّ شاعرنا الناصري ليذكرنا بالشاعر الإنكليزي المحبّ جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) الذي أصيب بداء السلّ وقضى نحبه في ريعان الشباب قبل أن يروّي ظمأه من الحياة والحبّ والشعر. كان الناصريّ حالماً كشقيقه الروحيّ الإنكليزي الذي قال: «إنّ الحالم وحده يسمّم كلّ أيامه ويحمل من العذاب أكثر مما تستحقه كل آثامه». ورفع الناصريّ المرأة إلى مرتبة الآلهة، ثم وصمها بالغدر والخيانة وشبّهها بالأفعى. أما كيتس فقد روى في شعره قصة «لاميا» أو «لامعة» المرأة الأفعى التي ذابت أمام عيني محبّها، وحديث «السيدة الجميلة التي لا ترحم» تلك الحسناء التي رآها الفارس الصنديد وسحره جمالها، فعمل لرأسها إكليلاً ولمعصمها أساور، وأظهرت له الحبّ ثم تركته وانياً مضنى سليب الفؤاد.

وقد غبط كيتس في آخر شعر له النجم المتألق في الرقيع وتمنّى لو كان ثابتاً مثله، لا منفرداً في عزلته السامية تحت جناح الليل، ولكن ناعماً بحب الحبيبة الجميل، نشوان بأنفاسها العذبة، فيحيا كذلك إلى الأبد أو يغشى عليه في سكرات الموت.

وغرّد الناصريّ بقلب كليم فقال:

أحبّكِ، والهوى وتر صدوح، ... وأنسام معطّرة وروح
ومجمرة دم العشاق فيها ... بخور كلما احترقت تفوح
وفردوس من المتع الغوالي ... على شطآنه يحلو الصّبوح
أحبّكِ، هل علمت، سلي دموعي ... على كفّيك لو سئلت تبوح
أحبّكِ، هل علمت بأن روحي ... على شفتيك ذائبة تنوح
وإني قد عصرت دمي غراماً ... فأزهر من دمي طلح وشيح
وإني لو أبوح بسرّ حبّي ... لناح على فمي الوتر الذبيح
وهل تدري الشقائق في الروابي ... بأن دمي بمبسمها يلوح؟
أحبكِ، يا سهيل، فكل عرق ... من الأشواق ملتاع جريح

تنـــــاهـى في هـــــــواك، فكـل آهٍ | يضيق بنـــارهـــا الصـــدر الفسيح
إذا عـــانقـت طيفـك في خيـــالي، | وطيفـك بـــاللّقـــا أبـــداً شحيح
فإني قـــد نـــذرت إليك عمـــري | وعمـــــري في هـــــواك سنـىً لَموح
ومـــا رتّلت أشعـــاري غنـــاءً | ولكـن غـــــــــرّدت فيـكِ الجروح

وقال في أشواقه الحائرة:

سكـرنـــا، يـــا سهيلـة، من هـــوانـا | فخلّي الكأس يـــرشفهـــا ســـوانـــا
دعيهـــا للنّـــدامى يحتســـوهـــا | كفـــانـــا خمر صبـــوتنـــا كفـــانـــا
ألسنـــــــــا بلبلين بكـلّ دوح | لنـــا عـشّ مـــلأنـــاه حنـــانـــا؟
زرعنـــا الحبّ في الـــدنيـــا دمـــوعـــاً | فأزهـــر واحـــةً وزهـــا جِنـــانـــا
فـإن نبخل على العشّـــــاق فيـــــه | فما قطفت أزاهـــره يـــدانـــا...
شـــدونـــا، والهوى وتـــر حنـــون، | وخمر عتّقـت فصفـت دنـــانـــا
وعـــرس كـــالـــربيع يفيض حسنـــاً | ويسخـــو بـــالشـــذا آنـــاً فـــآنـــا
وعيـــــد للمنـى مـــــا لاح إلاّ | أجـــدّ لنـــا مبـــاهجنـــا الحسـانـــا
فمـــن عينيـــك في عينـــيّ نبـــع | تـــدفّق بـــالحنين ومـــا سقـــانـــا
ومـن ذاتي وذاتـك بيـت شعـــــــر | رقيق كـــالهوى يـــزهـــو افتتـــانـــا

وقال في كرمة الهوى:

أيـــا كـــرمـة للحبّ يـزهـو بها الصّبـــا، | تبـــاركت عنقـــوداً وظـــلاّ وملعبـــا
سألتـك بـــالحرمـــان يأكـل خـــاطـــري | وبـــالجوع يستلقي بعينيّ مُتْعَبـــا
وبـــالجرح ظمآنـــاً وبـــالسهم غـــائراً | وبـالـدمع مسفـوحـــاً وبـالعمـــر مجدبا
أمـــا هـزّك الشـوق الـذي هـزّ خـــافقي | فبـــاح بأسرار الجمال وشبّبـــا؟
ونضّر لي حقلي فـأينع غـــــرســـــه | ومسّ ثـــرى عمـــري الجديب فـأخصبـــا
وطـــار بأحـــلامـي وجنّح خـــاطـــري | وأطلع في آفـــاقيَ السّـــود كـــوكبـــا
وجـــدّد أعـــراس الشبـــاب وسحـــره | ومـــا العمـــر إلا الحبّ واللهـــو والصّبـــا

وفني الناصريّ في الحبّ وذاب في شخص محبـوبته فقـال في مقطوعته «أنت» نـاعتاً إياهـا بأكـوابه ودنّـه ونـدماه وفنّه وقيثارتـه ولحنه وقمره وضميره. ثم قال إنه يتملاّها في ثغـر الصبـاح البـاسم وخـرير الجدول الحالم ونسمـة الـروض وبلبل الـدوح، حتى يقول:

أنتِ في قلبي حنين ودموع ملء عيني
أنتِ في روحي ابتهال وصلاة ملء أذني
فكأني أنا جزء منك أو جزءتِ مني[1]
بل أنا أنتِ التي أبصرها أو أنت أنّي

وهكذا تغنّى النّاصريّ بالحبّ واللهو والصبا، ومضى لم يمتّع بالحبّ واللهو والصبا، ذلك الشاعر الذي قال:

جف نبعي وشف روحي الغليل وتمشى على حطامي الذبول
وغدا قلبي الندي يباباً ما به واحة ولا سلسبيل
وارتضت نفسي الجريحة بالوهم وللوهم يركن المخذول
فزع صارخ يلف حياتي فحياتي تلفت وذهول
وفراغ كوحشة القبر ازجيه فلا فرحة ولا ترتيل...

من قصيدة:

إلى الخالدة

غدائرك السّود، يا فتنتي، عناقيد لم تحوِها دالية
أفاعٍ تدلّت على منكبيك فَجُنَّت بها المقل الرانية
غدير من العطر هذا الحرير تنفّس عن ليلة ساجية
إذا قبّلته شفاه النّسيم سرى الطيب في النّسمة السارية
فدى ناظريك جراح الهوى تفجّرت شوقاً بأعراقية
فسهمك إن غار في مهجتي حنوتُ على السّهم، يا قاسية
وإن عربدت حول روحي الجحيم تلمّست جنّتك الغاوية
أحواء، لمّا يزل آدم يفتّش عن جنّة ثانية
سألتكِ، كيف أعرتِ الدّجى سواد غدائرك الداجية؟
فكم غاب في ظلّها عاشق تخدّره الفتنة الطّاغية
أخالدة الحسن، لولا الجمال لما غرّدت بالهوى قافية
فمن سحر عينيك سحر الغناء وأصداء قيثارتي الشّادية

(١) تِ مخفّف أنت لضرورة الشعر.

كمال نصرت

شاعـر البؤس والأسى ، كمال نصرت وهـو كمال الدين نصرت بن توفيـق بن طه بن ياسين بن طـاهر بن السيـد عثمان ، ولد في كربـلاء سنة ١٩٠٧ ، وتعلم في مـدارسها . وانتمى الى كلية الإمام الأعظم ، لكن انصرف عن الدراسة بعد أمد .

وأصدر مجلة الرصافة الأسبوعية في كـانون الثاني ١٩٣٠ ، وأعاد إصدارها في حزيران من السنة نفسهـا ، فلم تعمّر طـويلاً . وكـان محرراً في صحف مختلفة كجـريدة الـزمان والفرات والرائد وحبزبوز . وعيّن موظفاً في أمانة العاصمة .

نشر شعـره في الصحف والمجـلات ، ثم جمعه في ديـوان طبع سنـة ١٩٦٨ . ووضع مسرحية شعرية بعنوان «وفاء العرب» (١٩٦٩) .

سجل ترجمة حياته بقلمه في تموز ١٩٣٥ ، فقال :

«ونشأت يتيماً محروماً من حنـان الأم وعطف الوالد . توفيت والـدتي وأنا ابن سنتين ، واتّبعها أبي ــ وهو في ريعـان الشباب ــ وأنا لم أتجاوز إذ ذاك الربيع الثـالث ، فكفلتني جدّتي والـدة أبي . فنشأت في حجرها ، وقـد عكفت على تربيتي ، فقرأت عليهـا القرآن الكريم ومبادىء العلوم الأولية والكتابة باللغتين العربية والتركيّة . ثم انتقلت جدّتي الى جوار ربّها ، فكفلني عمي المرحوم عزت بك القـائمقام المتقاعد ، إلا أنني عشت مهملاً في هـذه البيئـة الجديـدة لا يسأل عني ولا يعتنـي بي أحـد . وقـد قـاسيت من ضروب العذاب والشقاء مالم تحتمله نفسي الكبيرة وجسدي الواهن الصغير . وكم كنت أتألم كلما رأيت الأولاد الصغـار غـادين رائحين الى المدرسـة ، فـرحين مستبشرين ، ولا أستطيع مشاركتهم بالجلوس معهم على رحلة التدريس ، لأني كنت مهملاً كما ذكرت ، ولم يعتنِ أحـد بتربيتي وتهذيبي التهذيب الصحيح . غير أني وجـدت من نفسي حافـزاً لدخـول المدرسـة ، فـذهبت الى أحـد كتاتيـب البلدة ، فسرعـان مـا قبلني بعـد محاورة قصيرة . فدرست مبادىء الحساب والفقه وشيئاً من التاريخ والجغرافية .

«وفي رأس السنة الدراسية دخلت المدرسة الابتدائيـة ، وكان التدريس باللغة التركية طبعاً ، وكنت أتقنها إتقاناً جيداً لأنها كانت لغة العائلة التي نشأت بين ظهرانيها . ولهذا تقـدمت جميع رفـاقي في الـدروس وظهـرت عليهم في الامتحانـات وأحـرزت الشهـادة الابتدائيـة . وبعد الاحتـلال قبلت في الصفّ الأخير من المدرسة البـارودية ، ثم تـركتها وانتقلت الى كليـة الامام الأعظم . فـدرست فيهـا العلوم العـربية أربع سنـوات . ولكن بعض الظروف القاسيـة حالت بيني وبين أخذ الشهادة ، فتركتهـا مضطراً ودرست على بعض العلماء .

«ومنذ هـذا العهد صـار لي ولع شديد بقـرض الشعر ، فعكفت على مطـالعة بعض

الدواوين لمشاهير شعراء العرب كالمتنبيّ وابن الرومي والبحتري وأبي تمام وبشّار وأبي نؤاس، كما عكفت على قراءة كتب الأدب القديمة منها والحديثة، وحفظت قسماً كبيراً من شعر المتنبّي والشريف الرضي، إلا أنني الى شعر الرضي أميل منه الى المتنبي لسهولة لفظ الأوّل وتعقد ألفاظ الثاني. وإني ميّال بطبيعتي الى فخامة اللفظ في الشعر ومتانة التركيب فيه، وقد نظمت الشعر في شتى المواضيع، وجلّ ما نظمت في الشكوى والوصف والغزل. ونشر قسم كبير من قصائدي في مختلف الجرائد والمجلات. وأما اليوم فإني في شاغل عن قرض الشعر بأمور العيش في هذه الحياة التي لا تفتأ تناوىء كل أديب حرّ، فهو منها في جحيم لا يخمد أواره».

من شعره، قال في رثاء سعد زغلول:

أنظر الى المجد كيف اليوم ينهدم ... وعروة الملك كيف اليوم تنفصم
وكيف غال الردى طوداً سما شرفاً ... في المكرمات وكيف الموت يخترم
وكيف أودع قلب الشرق نار أسىً ... فقد الزعيم الذي باهت به الأمم...
إنّا سنذكر سعداً، والفؤاد به ... نار تشبّ وفي الأحشاء تضطرم
إنّا سنذكر سعداً كلما طلعت ... شمس النهار ووافت بعدها الظّلم
قد كان في مصر خير الناس كلهم ... وكان أحسن من تسعى به قدم
وكان سيفاً على الأعداء منصلتاً ... وكان بحراً به الأمواج تلتطم
وكان للعرب عوناً في مصائبهم ... وكان ذخراً وفيه الشمل ملتئم...
يا سعد، شعبك آلى أن يقيم على ... عهد الولاء ويبقى وهو يلتئم
وسوف يظفر بالآمال أجمعها ... وسوف يخفق في عليائه العلم
وسوف يبقى على الأيام متّحداً ... والإتّحاد به الأقوام تعتصم
وسوف يقتحم الأخطار مزدرياً ... وسوف عن ساحتيه الضيم ينهزم

وله في الغزل:

أيحول فيما بيننا أن نلتقي، ... في الله والحبّ الطّهور، عذول؟
مالي وما للعاذلين، فليتهم ... بُكْمٌ فلا دجل ولا تضليل
أهواك لا عن مطمح أو مطمع: ... إنّي امرؤ عفّ الضمير نبيل...

وقال في سنة ١٩٢٨:

أرى كلّ يوم في العراق وزارة ... تقوم وأخرى بعدها في تَثَبُّتِ
فلا هذه ترجى لدفع ملمّة ... ولا هذه تسعى لتحرير أمتي

وقال :

ألا مــا لهذا الغــرب يستعبــد إلشرقــا ... فبعــداً لــه بعــداً وسحقــاً لــه سحقــا

لــه الــويـل من مستعبــد قــدّ قلبــه ... من الصمّ لم يعــرف بأحكــامــه الـرفقــا

تعــاني شعــوب الشرق من جــور حكمـه ... مكــائد ســدّت دون غــايــاتها الطــرقــا

تــروم انطــلاقــاً مـن قيــود اعتســافــه ... ويأبـى ســوى أن تستضـــام وأن تشقى

أقــام عليهــا حــاجــزاً من عيــونــه ... فلم تستطـع فعـــلاً ولم تستطع نطقـــا

وسخّـــرهـــا تسخير عبــد مــذلّل ... يحاول عتقـــاً وهـــو لا يجد العتقـــا

وســام بنيهـــا الخسـف في جبروتـــه ... وبــاغتهم قتــلاً وبــادرهم محقــا

وجــرّعهم كــأســاً من الــذل علقماً ... تكــاد بــه تنشق أحشــاؤهـم شقّــا

وقـد أصيب كمال نصرت بمـرض عضـال أقعده في داره أعـوامـاً حتى قضى نحبه ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٤ .

محمود الحبّوبي

ورث الشعر عن عمّه الشاعر المجتهد المجاهد محمد سعيد الحبوبي . وقد ولد محمود بن حسين الحبـوبي في النجف سنـة ١٩٠٤ ، ورضع لبــان معـارفهـا ونشأ وتـرتـرع في معاهدها . وكان أحد مؤسّسي الرابطة الأدبية سنة ١٩٣٢ ، وأصبح أميناً لسرّها .

ثم انتقل الى بغداد سنة ١٩٤٨ وأقام فيها حتى أدركته الوفاة بها في أول أيّار ١٩٦٩ .
كـان رضيّ الخلق ، أبيّ النفس ، إنسـانيّ النزعـة ، حلـو الحديث ، مشرق الابتسامـة ، لم يعمل في تجارة ولا وظيفة ، بل عـاش عيشة تقشّف وقناعة على إيراد عقـار له في مسقط رأسه .

وقد عني بجمع ديوان محمد رضا الشبيبي (المطبـوع في القاهرة سنة ١٩٤٠) وديوان محمد جواد الشبيبي وديوان محمد سعيد الحبـوبي . وأصدر الجزء الأول من ديوانه (ديوان محمـود الحبـوبي) سنـة ١٩٤٨ ، وربـاعيات محمـود الحبـوبي (١٩٥١) شـاعـر الحيـاة (موشح ، ١٩٦٩) .

شعره

محمود الحبوبي شاعر عربي وطني علقت روحه بالعراق وتوزعت بين فلسطين ومصر ولبنان وسورية وسائر أقطار العروبة ، فشعره يـزخر بذكرها ويتألم لألمها ويفرح لفرحها . وكانت آخـر قصيدة نظمها قبيل وفـاته في فلسطين ، أعـدها لتلقى في مهرجـان الشعر المقام في بغداد آنئذٍ .

إن وطن الحبوبي حبيبه ومعشوقه، فهو يقول:

ليت الألى فتنتهم الأحداق ... باتوا وهم لبلادهم عشّاق
ما خير حسنٍ لا يدوم وصبوة ... تفنى وهجرٍ ما يكاد يطاق؟
أنا إن فتنت ففيك، يا وطني، وكم ... هزّت لذكرك قلبيَ الأشواق
غذّيت حبّك والتمائم في يدي، ... وألفته وبجيديَ الأطواق
يجري هواك محبّباً مجرى دمي ... مني إذا ذكر الهوى مشتاق
إن كان خمرته الشفاه فإنّما ... خمري الشهيّة ماؤك الرقراق
أو راقه الخدّ الأسيل فلم يرق ... عينيَّ إلاّ الحقل والأوراق
وإذا هناه شذاً يضوع فقد هنا ... هذا الفؤاد نسيمك العبّاق
أو بات يطربه الغناء ففيك لي ... من كلّ ورقاء شدت إسحاق
وإذا ابتغى الخلق الجميل فبغيتي ... أن تزهر الآداب والأخلاق

وهو إذ يحبّ وطنه يريد نهضته وتقدّمه ورخاء أهليه من عامل وفلاح. فهو يندب حال الريف المهجور:

خلت المنازل والمرابع ... فاكفف فليس بهنّ سامع
ماذا وقوفك وهي قفرى ... من أماجدها بلاقع
لم يبق منهم نهشل ... بين البيوت ولا مجاشع

وهو يأسى للكادح المحروم:

أيّها الكادح المرزّأ عيشاً، ... خلِّ هذي البلاد وَأْوِ القفارا
خلّها هازئاً بها وبمن فيها ... عبيداً تستخدم الأحرارا
خلّها وانتزع هوىً لك فيها ... من قديم وأسدل عليه الستارا
خلّها فالكهوف أرحب صدراً ... لك منها والوحش أوفى ذمارا...
لست حراً إن ترضَ أن تلبس القوم ... حريراً وتلبس الأطمارا
لست حراً إن ترضَ أن تجني الشوك ... ويجنوا ممّا غرست الثمارا

وهو يخاطب الأغنياء ويدعوهم الى العطف على المعوزين وإطعام الجياع وتجفيف دموع اليتامى، فيقول:

أيّها المثقل الخِوان طعاما ... راق للعين منظراً ونظاما
حوله صفّت الفواكه أنواعاً ... وقد فاضت الكؤوس مداما

كـل هنيئـــاً واشرب هنيئـــاً ولا تعبـأ بمن قـــال : قـــد فعلت حـــرامـــا
أيطيـب الطعـــام أكـــلاً وتهنـــا الخمـــر شربـــاً على أنينِ الأيـــامى؟
أم يلـــذّ الإفطـــار مـن قـــوت قـــوم قـــد طـــووا يـــومهـم اليك صيـامـــا؟
لا تُصِـغْ مسمعـــاً لنصحٍ كهـــذا واهْنَ واتـــرك للبـــائسين الـــرغـامـــا

وهو يهيم بالحرية ويناشدها الرفق بالناس :

أكثيرة العشّـــــاق في الأمـــم قـــد طـــال هجـــرك فـــارفقي بِهِمِ
الـــوضع أظلـم فـــابـــزغي قمـــراً وتجهّم القـــانـــون فـــابتسمي . . .

ومحمود الحبوبي بعد ذلك شاعر عاطفي يتألم لـلإنسان والحيوان ، بل يتألم حتى للنملة تدبّ على الأرض . وله رثاء يفيض باللوعة والدموع ، منه رثاؤه لأبيه إذ يقول :

لا شعّ منبلجـــاً لعين الـــرائي صبحٌ بـــدا وطـــلائعَ الأرزاء
أأبي ، وعـــــزّ عليّ أنك لم تجب صـــوتي ولم تسمع لـــديك نـــدائي
سرعـــانَ مـــا ســاء النـــوائب جمعنـــا فمشـت ببينٍ بيننـــا وتنـــائي
لـــو كنتُ أُعْطَـى مـــا أودّ وأشتهـي لـوددتُ بعـدك أن يـــزول بقـــائي . . .

لقد أدركته حرفة الأدب ، فلم يعجب لـلأمر ولم يستغربه ، وهو الذي عرف حال الأديب في وطنه وقال :

بلـــد يعيش بـــه الأديب غـــريبـــا أشقى الـــورى من عـــاش فيـه أديبـــا
يجلـو الكـــروب عن الأنـــام ، ولم يـزل من كـــربـــه أوفى الأنـــام نصيبـــا
ويـــذوب قلبـــاً كي يـــرى شركـــاءه في الشعب أهنـأ أنفســـاً وقلـــوبـــا
ولـع بإنماء الحيـــاة لقـــومـــه . حتى تجفّ حيـــاتـــه وتـــذوبـــا

قال محمود الحبّوبي من قصيدة بعنوان «عاصفة» :

يـــا نفسُ ، حسبك مـــا لقيت فـــودّعي عهـــد الهوى وإلى رشـــادك فـــارجعي
عـــودي الى مـــا كنتِ فيـــه سعيـــدة ـــ أعنـي السّلـوّ ـــ وبـالحيـــاة تمتّعي
وخـــذي نصيبك من هنـــائك ، فـــالهوى لا يستقـــرّ مع الهنـــا في مـــوضـع
شرط المحبّين الشقـــاء ، ومـن خـــلا ، يـــا نفس ، منـــه فإنّما هـــو مـــدّعي
فـــدعي التصـــابي لـــلألَى لم يحسبـــوا خلقـــوا لغير صبـــابـــة وتـــولّع
وتيقّظي ، يـــا نفس ، سكـــرى واغسلي درن الأنـــام بطـــاهـــرات الأدمع
صونـــي مواهبـــك الثمينـــة واحـــرصـــي أن تغـــــرسي الأوراد في مستنقـع
وعلى شعـــاع العلـم والأدب اسلكـي نحـــو الحقيقـــة في طـــريـق مهيع . . .

خضر الطائي

شاعر سمّاه غازي عبد الحميد الكنين «الجنديّ المجهول في سماء الأدب العراقي الحديث». ولد خضر عباس الطائي في بغداد سنة ١٩١٠، وأصل أسرته من سنبس القبيلة الطائية النازلة في أراضي شهامك بقضاء مخمور بين الزابين. وقد أتمّ دراسته الابتدائية، ثم لازم الشيوخ قاسم القيسي وعبد الوهاب النائب ونجم الدين الواعظ وغيرهم ودرس عليهم علوم العربية والدين. وانتمى الى جامعة آل البيت (١٩٢٦) فتخرّج فيها سنة ١٩٢٩ وعيّن مدرساً في البصرة. وعمل بعد ذلك في سلك التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية في عنة وبغداد والحلة حتى اعتزل الخدمة في حزيران ١٩٦١.

وقد أدركته الوفاةفي بغداد في ٢ تشرين الثاني ١٩٦٩.

مؤلفاته وشعره:

كان الشاعر خضر الطائي هادئاً منزوياً لم يسع الى الشهرة حتى انطبق عليه قول عبد الله بن عمر العَرْجي (المتوفى في نحو سنة ٧٣٨م) الذي تولّى تحقيق ديوانه مع رشيد العبيدي:

أضاعوني، وأيّ فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

نظم الطائي الشعر يافعاً، واختلف الى مجلس جميل صدقي الزهاوي وندوات الأدب، واقتفى آثار أحمد شوقي في مسرحياته المنظومة. قال عبد القادر البرّاك (جريدة الجمهورية البغدادية، ٧/ ١١/ ١٩٦٩):

«ولقد كان اعتزاز الطائي بانتسابه لطيء مصدر إعجابه وتخليده للشاعر العربيّ الكبير حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمّام، فكان يترسّم خطاه في كل ما نظم من شعر في مناسبات عديدة. وبلغ من وفائه لهذا الشاعر أن تقصّى كل ما كتب عنه، فخرج على الناس بكتاب فنّد فيه الكثير من آراء الدكتورين طه حسين وعمر فرّوخ في هذا الشاعر، وقد أحسنت وزارة الثقافة في طبع هذا الكتاب...

«لقد نظم خضر الطائي قصائد رائعة في مناسبات وطنية وقومية ودينية عبّر فيها عما يدور في نفوس الأمة من الانفعالات والدوافع والآمال والمطامح في شعر محكّك أفقده التحكيك والمعاودة ما كان يجب أن يكون فيه من تدفق وانسياب، فهو من بقايا مدرسة العمود الشعري في مبانيه ومعانيه. وكان التزامه الجامد بآراء هذه المدرسة حائلاً دون تحليقه فيما نظم من مسرحيات شعرية استحق أن يكون لها رائداً للمسرحية الشعرية في العراق. ذلك أن مسرحية قيس لبنى وأهل الكهف الشعريّتين كانتا أسبق المسرحيات

الشعرية التي أنتجها الشعراء العراقيون بعد أن نالت مسرحيات أمير الشعر شوقي إعجاب كافة أدباء وشعراء العرب».

حقق الطائي بالاشتراك مع رشيد العبيدي ديوان العرجي وطبعاه سنة ١٩٥٦، وألفّا معاً «دليل النحو الواضح»، وهو كتاب مدرسي.

وللطائي عدا ذلك: مسرحية قيس لبنى (١٩٣٤) مسرحية أصحاب الكهف والرقيم (١٩٦١) أبو تمّام الطائي (١٩٦٦)، الخ. ومن آثاره المخطوطة ديوان شعره ومسرحيته سيف بن ذي يزن ودراسة عن الحطيئة ونقد لديوان محمد بن عبد الملك الزيات وديوان الشيخ صالح التميمي.

قال في روعة الشعر:

ابتغِ النجم للخلود مكانا ... واجعل الفنّ سلّماً والبيانا
وتأمل زهر الطبيعة في ربوتها ... تلقَ روعة وافتتانا
كوّنته يد الربيع من الفنّ ... ومن سحره البديع فكانا
كلما طافت العيون عليه ... شاهدت فيه منظراً فتّانا
يتهادى على الزمان ويزهو ... في نواحي الحياة آناً فآنا
هبة من مواهب الله جاءت ... لتغذّي العقول والوجدانا
ملأت ساحة البسيطة تبراً ... ولجيناً ولؤلؤاً وجمانا
فربت مثل جنّة الخلد في الزهو ... وأحيت بروحها الأذهانا
نسج الفنّ جانبيها ووشّاها ... فرفّت خمائلاً وجنانا
طاف فيها براحتيه ابتداعاً ... فأقامت لشكره مهرجانا
فالتمس في نسيمها روعة الشعر ... وحسن الخيال والألحانا
وكن البلبل الذي إن تغنّى ... سحر الكون صوته والزمانا
وتلقّ المعانيَ الغرّ منها ... تلقَ أبكارهن فيها حسانا

وقال في التمثيل:

كلّلوا هامة الممثل غارا ... وانثروا في طريقه الأزهارا
وأقيموا من الفنون صروحاً ... خالدات تغالب الأقدارا
أظلم العيش في الحياة فلّما ... سطع الفنّ في الحياة استنارا
وهدى القلب للجمال فغنّى ... بالقوافي وحرّك الأوتارا
نغمات تسري بهنّ الأماني ... صبوة وانبساطة وادّكارا
ما على القلب أن يخفّ بسحر ... يستخفّ العقول والأفكارا

حتى يقول:

ايـــه يـــا أيها الممثل هــــذا | مسرح الــدهــر فــارفع الأستـــارا
قم ومثل فيـــه الحيـــاة كما تبــدو | بشتى شـــؤونها أطـــوارا
قم ومثّل فيـــه الحيـــاة ابتســـامـــاً | أو دمـــوعـــاً تسيلهـــا مـــدرارا
قـم ومثّل فيـــه الحيـــاة جـــلالاً | قـم ومثّل فيـــه الحيـــاة صغـــارا
قـم ومثّـل فيـــه الحيـــاة نعيماً | أو جحيماً تـــؤجّـج الأرض نـــارا
قم ومثّل فيـــه الحيـــاة ومـــا فيهـــا | لكـي ننظـــر الحيـــاة جهـــارا
قـم ومثّـل لنـــا الحيـــاة الى أن | يســـدل الموت دونها الأستـــارا

وقال يرثي أباه:

عـــزاؤك، يـــا قلبي، وكيف عـــزائيـــا | وقـــد غـــاب عني مـــوئلي ورجـــائيـــا
نقمت الـــرضـا عـن بهجـة العيش بعـده | فلم آلَـفَ إلا عن دمـــوعـيَ راضيـــا؟
هـــل البرّ إلاّ أن أردّد ذكــــــــره | خـــواطـــر يتركن المنـــايـــا أمـــانيـــا؟
يحبّبـن للقلـب الحنين الى الـــــرّدى | حنينـــاً الى من بـــات في اللحـد ثـــاويـــا
فـــديت بنفسي نـــائماً في تـــرابـــه | وقـد كـــان في المحـراب يطـوي اللّيـــاليـــا
لـــه الله مجهـــوداً مـن السّقم مـــا رأى | ســـوى الصبر ممّـــا قـــد ألمّ مـــداويـــا
شفتـــه من الـــداء المنيّـــة بعـــد مـــا | تحدّى بـــه حكم القضـــاء النّطـــاسيـــا
سأبكيـــه لا أبقي من الـــدمـع بعـــده | لعينـيَ حتّى ألفـظ النفس بـــاقيـــا
بقيّـــة مـن يحنـــو عليّ فـــؤاده | وأكـــرم من يهفـــو إليـــه فـــؤاديـــا
ثـــلاثين عـــامـــاً عشتهـنّ بظلّـــه | فلم أرهـــا في العمـــر إلاّ ليـــاليـــا
ومن لـــذّة الـــذكـــرى أردّد عهـدهـــا | دقـــائق أحصي حسنهـــا وثـــوانيـــا...
أيـــا ســـاكنـــاً تحت التراب، تحيّـــة | تعـــوّدت فيهـــا أن تـــردّ جـــوابيـــا
ستبقى لك الـــذكـــرى وإن أبعـــدت بنـــا | وهيهـــات لا نـــرضى عليهـــا التّنـــاسيـــا

وقال من قصيدة نظمها في رثاء زعيم مصر سعد زغلول:

لا الحزن ينفعـــــــــه ولا الصبر | شعب مضى بسعـــوده الـــدهـــر
آمـــالـــه أمست مضيّعـــة | وطـــريق نيـل مـــرامـــه وعـــر
قـــد كـــان ينصره أخـــو ظفـــر | واليـــوم لا ظفـــر ولا نصر

ليت الــــزمـــــان يــــدور منقلبـــــاً   فيعـــــود مثل قـــــديمـــــه الأمـــــر
مـــــاذا على الأيـــــام لـــــو تـــــركت   سعـــــداً تنـــــال بـــــه المنى مصر؟
بـــــالأمس ضمّ اليـــــه نجـــــدتها   واليـــــوم ضمّ عظـــــامـــــه القبر

وقد سار في هذه القصيدة على نهج جميل صدقي الزهاوي فوحّد الوزن رنوّع الرويّ طلباً للتجديد.

***

نظم خضر الطائي قصصاً من التاريخ العربي كقصيدة «معن بن زائدة الشيباني» التي يقول منها:

مـن كمعن في حلمـــــه، من كمعـن   في نـــداه، مـن مثلـــه في الطعـــان؟
عـــــربيّ كأنّ أخـــــلاقـــــه الغـــرّ   نجـــــوم السماء في اللّمعـــــان
قـــدّمتـــه خـــلائف من بني الـــ (م)   عبّـــاس حتّى سما بأعلى مكـــان
وحبتـــه ولايـــة البصرة الفيحـــاء (م)   لمّا رأتـــــه طـــــوع البنـــــان
فمشى العـــــدل والأمـــــان بها في   ظلّـــــه وازدهـت على البلـــــدان

***

مـــرّ يـــومـــاً بـــه رجـــال أحـــاطـــوا   بفتى مـن ســـــلائل الأعيـــــان
وضعــوا القيـد في يـديـه ورجليـه (م)   فـأمسى في ذلّـــــة وهـــــوان
زعمـــــوا أنـــــه أديـن بـــــذنب   فـــوشـــوا بـــالفتى الى السلطـــان
والـــوشـايـــات طـــرق كلّ كـــذوب   عـــاجـــز أو ســـلاح كـلّ جبـــان

استنجد الفتى الأسير بمعن فأجاره وأمّنه. وسخط الخليفة حين بلغه الأمر، فدعا معناً وأنّبه على فعله وتحدّيه لأعوان السلطان، فاعتذر معن.

قـــال: عفـــواً، يـا سيّـــدي، أنـا عبـد   لم أكـن بـــــالمخـــــالـف الخوّان
إنّ عـــذري، يـــا سيّـــدي، إن عـــذري   أن ألبـيّ نـــداء من قـــد رجـــاني
كيف ألـــوي عمّن ينـــادي: أجـــرني،   وهـــو دون الـــرجـــال طـــراً دعـــاني؟
عـــوّدتني على الجميل كما كـــانت (م)   حماة الضعيف مـن شيبـــــان
إنـني ذلـك الحســـــام، فصُلْ بي   تـــــرني ذائداً عن الأوطـــــان
كـم عـــدوّ قتلتـــه بحســـامي،   كـم خصيم طعنتـــه بسنـــــاني؟
أولم أستحقّ في خـــــدمـــــاتي   أن تـــراني أهـــلاً لفخـــر أتـــاني؟
يـــا كثير الهبـــات، هب لي فـــرداً   واحـــداً عـن جميع صرعي طعـــاني

ورضي الخليفة عنه فقرّبه وأدنى مكانه وعفا عن جاره وأكرمه .

حسين علي الأعظمي

من رجال الأدب والفقه والقانون، ولد حسين علي الأعظمي بضاحية الأعظمية شماليّ بغداد سنة ١٩٠٧ ودرس في كلية الإمام الأعظم وجامعة آل البيت . وتخرّج سنة ١٩٢٨ فعيّن مدرساً في كلية الإمام الأعظم نفسها .

وانتمى الى كليّة الحقوق (١٩٣٢)، فلما تخرج فيها مارس المحاماة أمداً وجيزاً، ثم عيّن مدرساً معيداً في تلك الكلية (آذار ١٩٣٦) . وظل يدرس في كلية الحقوق ببغداد حتى أصبح أستاذاً (كانون الثاني ١٩٤٧) ورئيساً لقسم الشريعة وعميداً للكلية .

وقد توفي ببغداد في ٥ أيلول ١٩٥٥ . وضع مصنّفات كثيرة في الحقوق، منها: علم الميراث (١٩٣٨) والوصايا (١٩٣٩) الوجيز في أصول الفقه وتاريخ التشريع (١٩٤٢) أحكام الزواج (١٩٤٦) أحكام الأوقاف (١٩٤٧) الأحوال الشخصية (١٩٤٧) أصول الفقه (١٩٤٨) الوصايا والمواريث (١٩٤٨) .

كان حسين علي الأعظمي شاعراً أديباً تفرقت قصائده في الصحف والمجلات . وقد نشر: أناشيد وأدبيات الفتاة (١٩٢٦) مع ابن سينا (١٩٥٢) .

أهدته صبيحة الشيخ داود مسبحة فقال فيها قصيدة، منها:

جاءت إليّ بسبحة من أدمع ... أو سبحة من أكبد وقلوب
من جيد راهبة تسبّح ربّها ... في الدير باسم مسيحها المحبوب
خلعت بها ثوب الذنوب بزحلة ... وخلعتُ في بغداد ثوب ذنوبي
وعكفتُ في محراب قلبي خاشعاً ... لأنال في محرابه مطلوبي
متعلقاً بالله جلّ جلاله ... متشفّعاً بحبيبه وحبيبي
متوسلاً متأملاً متضرّعاً ... متطلعاً في لوحه المكتوب
مترقّباً عند الغروب شروقه ... لتدور بي شمس بدون غروب،
وتسير في بحر الوجود سفينتي ... بشراع روحي أو بخار لهيبي
وتطوف حول حبيبها هيمانةً ... بجماله من غير عين رقيب
فهو القريب لهائم في قربه ... ولمن جفا ونأى فغير قريب
وهو المجيب لعاشقيه سُؤلهم ... ولمن طغى في الأرض غير مجيب
.... الخ

محمّد هادي الدفتر

الشاعر الصحفي محمد هادي بن علي الدفتر. ولد بالبصرة سنة ١٩٠٤ ونشأ بها. وتعلّم في مدارسها. نزع منذ فجر صباه الى الأدب، فقرض الشعر وكتب المقالات وعمل في القضايا الوطنية.

وجاء الى بغداد فحرّر في صحفها. ، ثم أصدر جريدة «الدفتر» (١٩٤١) واشترك بعد ذلك في إصدار جريدة «النهار». ومضى في سنيه الأخيرة الى الكويت، فأدركه الحمام فيها في ٨ أيلول ١٩٦٦.

عرف شاعراً أجاد في وصف الطبيعة ونظم ديوان شعر بعنوان «من وحي المصايف» (١٩٤٥). وألف أيضاً: نظرة اليقين (١٩٢٩) أمرؤ القيس وأشعاره، صفحة من رحلة الإمام الزنجاني وخطبه في الأقطار العربية والعواصم الإسلامية (في جزءين ١٩٤٧) الخ.

من شعره في قرية بنجوين:

قضى الله أن يرمي برحلي لقرية ... توهمتها خلداً فماثلها الخلد

بصوّرها فكري لعيني جنّة ... بها الحور والولدان والراح والشّهد

وقال في شلّال:

مررت بشلال فقلت بنعته ... وقد كان مرفضّ الأفاويق ينبع

تغذّيه أثداء الجبال بدَرّها ... وترفده الوديان فيها وتترع

فتحسبه، والماء ينساب جارياً، ... تعاريج برق في سحاب يلعلع

يلجلج ما بين الجلاميد هازجاً ... بلجّته والموج للموج يقرع

فتسمع منه تارة صرخاته ... وآونة جرس الغناء يرجّع

يمدّ به نهر تلاطم ماؤه ... وينصبّ في نهر به العين تولع

وقد ثجّ من بين الشمام عبابه ... فصبّ على نهر من البرق أسرع

وغيّب أعلاه عن العين بعده ... وأظهر أدناه لدى القرب منبع

جرى مثل فجر سال من جوف ليله ... على جدول كالصّبح بالماء يلمع

يمرّ به تيّاره متدفق ... على الصخر لا يعيا ولا يتكعكع

نعمان ماهر الكنعاني

الشاعر الضابط نعمان ماهر الكنعاني ينتمي الى أسرة حسينية، ولد في بلدة سامراء في نيسان ١٩١٧. وأتم دراسته الثانوية في بغداد، فالتحق بالكلية العسكرية وتخرج فيها

ملازماً ثانياً (١٩٣٩). وساهم في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.

تدرّج في مراتب الجيش حتى أصبح مقدماً وأحيل على التقاعد في نيسان ١٩٥٧، ثم أعيد الى الخدمة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ برتبة عقيد. وأخرج من الجيش ثانية في نيسان ١٩٥٩ بعد ثورة عبد الوهاب الشواف في الموصل، فلجأ الى سورية وانتقل منها الى القاهرة. وحكم عليه بالإعدام غياباً بتهمة التآمر على الجمهورية (أيار ١٩٦٠).

عاد الى بغداد بعد الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم، فعيّن مديراً عاماً بوزارة الثقافة والإرشاد (١٩٦٤) فوكيلاً لنفس الوزارة (١٩٦٧) حتى استقالته في ٢١ تموز ١٩٦٨. وقد انتخب نائباً للأمين العام لاتحاد الأدباء والكتاب العراقيين (للشؤون العامة) سنة ١٩٨٦.

مال الى الشعر والأدب منذ صباه. وقال إنه تأثر أكثر ما تأثر بأبي تمام والبحتري والمتنبّي وأبي فراس الحمداني، ومن الشعراء المعاصرين أحمد الصافي النجفي ومحمد رضا الشبيبي. ولازم معروف الرصافي في أواخر أيامه فوضع عنه رسالة «الرصافي في أعوامه الأخيرة» (١٩٥٠) بالاشتراك مع سعيد البدري.

من مؤلفاته الأخرى: شعراء الواحدة (١٩٤٥) في يقظة الوجدان (١٩٤٣) شاعرية أبي فراس (١٩٤٧) الشعر في ركاب الحرب (١٩٤٩) المعازف (١٩٥٠) لهب في دجلة (١٩٦٠) ضوء على شمال العراق (١٩٦٥) من شعري (١٩٦٦) مختارات الكنعاني (١٩٦٦) مدخل في الاعلام (١٩٦٨) من القصص الانكليزي (١٩٥٤)، الخ.

من شعره:

أطياف

سكر الليل بالسّنى والعبير	فاستثارت ذكراك همس الضمير
وأطلت من عهدنا حائرات	ذكريات عصيّة التعبير
يا حبيبي، أراك في رافل البدر	سنيً فاتناً فيشرق نوري
ويضوع الشذا فأستاف نجواك	عبيراً من أمسنا المهجور
فرّقتنا ما فرّقت أنجم الليل	شؤونٌ وأوغلت في المسير
عاودتني من ذكرياتك أطياف	فحنّ الظما لذاك النمير
وتمّنت، والشوق يهتف بالحبّ،	لياليك في شذاها الغمير...
يا فؤادي، ولم تعد ذِكَرُ الماضي	سوى آهة الحنان الكسير
هل أثار الليل المضمّخ شوقاً	لليالي عهد الصبا المغرور

وشعره في الغالب عموديّ قوميّ النزعة، وله شعر غزلي جميل. وهو معارض للشعر الحرّ الجديد، وقد قال: «إن الاستهانة باللغة تعني فقدان الأداة، والجنوح نحوالطلسمة يعني الضياع، ورسم الصورة بغير ما تحتمله من الألوان نوع من العبث المرفوض. والتجديد والخلق صفة الأصالة الشعرية».

ناجى بغداد فقال:

بغداد، يا نجوى الخيال — غنّتك أحلام الليالي
يا طلعة اللألاء مُشر — قةً على أفق المعالي
يا كبرياء المجد يرفل — بالفتوّة والصّيال
أقسمتُ بالعزمات ما — ترتدّ في الشوط الطُّوال
بسماحة الكفّ الخصيب — بنشوة العفّ المغالي
تدري الحضارة أنها — بكِ قد علت عرش الجمال
وروت عن المنصور لألأ — جيال ملحمة الجلال...

رباب الكاظمي

الشاعرة رباب الكاظمي ابنة شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي، ولدت في القاهرة في ٢٢ آب ١٩١٧ فكانت عزاء أبيها في كبره وسلوته في شقائه، قال فيها:

رباب لنفسي زهرة طاب غرسها — فلا ذبلت نفسي ولا ذبل الزهر

وقال:

فداء رباب داء قلبي ومهجتي — وإنّ شفاها، لو علمت، شفائي
رجوت بقاها في الأنام، وإنما — بقاء رباب في الأنام بقائي

وقال:

إذا سألوني: من رباب؟ أجبتهم — هي الروح والعقل المدبّر والشعر

إن شعر الكاظمي في ابنته رباب لا يضارعه سوى شعر فكتور هوغو الذي قال يذكر ابنته مخاطباً الله:

ألا ترى، يا مولاي، إنّ أبناءنا ضروريون لنا، فحينما نرى في حياتنا، ذات صباح، وسط المتاعب والرزايا والشقاء وفي الظلّ الذي تنشره علينا يد القدر،

حين نرى ظهور طفل، رأس عزيز مقدّس، مخلوق صغير بهيج، قد بلغ من الجمال أننا نتوهم حين يأتي أن باباً قد فتح من أبواب السَّماء . . . » .

نشأت رباب الكاظمي في كنف أبيها ورتعت في بحبوحة أدبه وفضله . ولم تكد تبلغ العاشرة من عمرها الرطيب حتى فقدت أمّها، فذاقت مرارة اليتم . وكان أبوها يرعاها بحنانه ويعلّمها شدو الشعر، لكنه لم يلبث أن قضى نحبه وهي في الثامنة عشرة . وفي حزيران ١٩٣٥ دعيت الى بغداد لحضور حفلة تأبين أبيها، فزارت لأول مرة موطن آبائها واكتحلت عيناها بمرأى شطآن الرافدين ومنائر الأئمة الذهبية، وكانت موضع العطف والرعاية .

وعادت الى القاهرة فأكملت دراستها الثانوية في حزيران ١٩٣٧ . وعقد قرانها سنة ١٩٣٦ على حكمت أحمد الجادرجي (المولود سنة ١٩١٢)، وكان موظفاً في المفوضية العراقية بمصر.

والتحقت بكلية طبّ الأسنان في القاهرة سنة ١٩٤٦ ، وواصلت دراستها في الاسكندرية وباريس، حيث انتقلت مع قرينها في وظائفه الدبلوماسية، وحصلت على إجازة طب الأسنان في العاصمة الفرنسية سنة ١٩٥٠ . ثم نالت شهادة الاختصاص بأمراض أسنان الأطفال من جامعة جورج تاون في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة (١٩٥٣) .

وعادت أخيراً الى بغداد في آب ١٩٥٤ برفقة زوجها الذي أصبح مديراً عاماً للدائرة العربية في ديوان وزارة الخارجية . وعينت طبيبة أسنان في مستشفى الطلاب، ورفعت سنة ١٩٥٥ رئيسة لقسم طبابة الأسنان في صحة المعارف . ثم نقل قرينها مستشاراً للسفارة العراقية في تونس في تموز ١٩٥٦ ، فصحبته إليها . وعادت معه الى بغداد في شباط ١٩٦٢ عند نقله وزيراً مفوضاً في ديوان الوزارة وتعيينه على الأثر مفتشاً عاماً في السلك الخارجي .

وقد أحيل حكمت الجادرجي على التقاعد في تشرين الأول ١٩٦٢ ، وتوفي في لندن في تموز ١٩٧٠ . وعيّنت الدكتورة رباب طبيبة للأسنان في مستشفى الطفل العربي ببغداد في تشرين الأول ١٩٦٤ .

شعرها :

نظمت رباب الكاظمي شعراً منذ صباها، ونشرت قصائدها في المجلات والجرائد المصرية والعراقية . وقد أثبتت نماذج طيبة منه في كتاب أدب المرأة العراقية لبدوي طبانة (١٩٤٨) وشاعرات العراق المعاصرات لسلمان هادي الطعمة (١٩٥٥) . ووضع عبد الرحيم محمّد علي كتاباً فيها باسم «رباب الكاظمي : دراسة وشعر» (النجف ١٩٦٩) .

إنّ شعر رباب صلة متأخرة لأدب عائشة تيمور (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢) ووردة اليازجي

(١٨٣٨ ـ ١٩٢٤) وملك حفني ناصف (باحثة البادية ١٨٨٦ ـ ١٩١٨) وأخواتهن من الشاعرات القديمات اللواتي حملن لواء النهضة الأدبية النسائية قبل الحرب العظمى الأولى. ويكاد شعر الكاظمية يقتصر موضوعه على مطالب قومية ومصرية وشخصية مما عالجه والدها وشعراء عصره.

قالت عائشة تيمور:

بيد العفاف أصون عزّ حجابي	وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقّادة وقريحة	نقادة قد كُمِّلَتْ آدابي
ما ضرّني أدبي وحسن تعلّمي	إلا بكوني زهرة الألباب...

وقالت رباب:

أنا الرباب في الورى	لقولِيَ انسجام
جواد فكري مطلق	ليس له لجام
قريحتي سيّالة	وفكرتي سجام...

وقالت أيضاً:

أنا رباب الشاطرة	الى الامام سائرة
بالعلم أدرك المنى	والجدّ والمثابرة
أجدّ لا أخشى العثار	يوم غيري العاثرة
أذود عن كرامتي	وعن بلادي الطاهرة
من دونها لي أذن	تصغي وعين ساهرة...
بغداد لي إذ أنتمي	مجدي ومصر القاهرة
إن نسبوا أخلاقنا	فهي الرياض الزاهرة
أو ذكروا أنسابنا	فهي الشموس السافرة
إذا مشينا وقفت	لعزّنا القياصرة
وإن بدينا سجدت	لنورنا الأكاسرة...

وقالت باحثة البادية:

أعملتُ أقلامي وحيناً منطقي	في النصح، والمأمول لم يتحقّق
أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم	صوتاً يهزّ صداه عطف المشرق؟
أيسرّكم أن تستمرّ بناتكم	رهن الإسار ورهن جهل مطبق؟...

وقالت الكاظمية:

يـــــــا أيّها النفـــــــــر الألى فتنـــوا بـــــداعيــــة الفتـــــون
إنّي أســـــــــــائلكـــم، ومـــن حـــــــولي البـــــــلاد لها أنين:
مـــــــا يصنع الجهّـــــــال إن جهــل الهداة العـــــــــــــالمون؟
أجهلتــــمُ آلامنـــــــــــــــــا أم أنتُـــــــمُ لا تعبــــــأون؟
هــــــل أنتـــــمُ في مـــــأمـــن ممـــــا لــــه تستهــــدفــون
هــــــلاّ أخـــــذتم أهبــــــة لمطــــــــــــامع المتـــأهّبين
إن بعتــم استقـــــــــــــلالكـم يــــــــومـــــــاً فماذا تشترون؟..

وقالت:

أدبي لــــــدى الأيـــــام جـــرمي وجـــريــــرتي في الـــدهـــر علمي
أظما ولا أحظــــــــــــــــى بغير مـــــــوارد في النـــــــاس تظمي
أصغـــــــي الى زمنـــــي وطيـــــب كــــلامـــــه حَــــرَقــــات كلم
غــــــودرت بين حقيقـــــــة حيرانـــــــــــــــة أمشي ووهمي
وبقيـت مـــــا بقيت يــــــد بقيـت بها آثـــــــــــار وشـم
أغـــــــدو على حـــــرّ الجوى وأروح في غيظـــــي وكظمـــــي
يهنـي المجــــاهــــد غنمـــــه وغنيمتـي في الجهــــــد غَـــــرمي
أكــــــذا المصـــــائر كلّهـــــا إمّـــــا لغـــــــرم أو لغُنْـم؟

ثم قالت:

أنـــــا مـن أنـــــــاس كلّهـم بــــــــدر ولكـن عنـــــــد تـمّ
كــــرمـــــوا ولمّا يلبســـــوا لعـــــداتهم جلبــــاب لـــــؤم
لأبي وأمـــــــــــي أنتمـــــــــي والأطيبـــــــــــان أبي وأمّــي
أمــــــا أبي فلقـــــــــد أبى عنــــــد القـــــوافي غير حكمي
لم يـألُ جهــــــــداً سعيــــــه فمـــــن المهّـــــم الى الأهـــــمّ
ويظـــــلّ في حـــــلّ الأخــــصّ مـن المشـــــــــــاكـل والأعـــمّ
يبكـي على أوطـــــــانـــــــه وينـــــــوح في نثـــــــر ونظـم
في أضلـع تـــــذكـــــو جـــوىً أو أدمـع في الـــــوجـــــد سجـم
يقضي الليــــــالي حـــــائراً مـــــا بين إفـــــلاس وسقـم
يلقـى حـــــوادثهـــــا بخيـل مـن عــــــزائمــــــه ولجـم
إن أثقـــــل الخطــــب الملـمّ يخفّ بـــــــــالخطـب الملمّ

وكـأنّـــــه في يـــــومـــــه ... في جنـح ليـلٍ مــــــدلهمّ
فـإذا فـــــررت الى حمـــــاه ... فـــــررت من همي لهمّـي . .

ورباب الكاظمي بعد ذلك شاعرة وطنية مصرية تعلقت بأهداب الوفد وسعد زغلول وزوجه أمّ المصريين وخليفته مصطفى النحاس وقالت فيهم خير شعرها وأصدقه عاطفة وحماسة ومودّة . قالت في ذكرى سعد :

مـــا بـــال لـــون الشرق حـــائل ... وجـــوانب الـــدنيـــا زلازل؟
مـــا للعيـــون الـــداميـــات ... كـأنها ديـم هــــــواطـل؟
مــــا للقلــــوب كـأنها ، ... والـوجـد يـذكيهـا ، مشـاعل؟
مـــا للكنـــانـــة والخطـــوب ... طـــوارق فيهـــا نـــوازل
مــــا للقـــوافل ذاهبـــات ... للبلى تلـــو القـــوافل
لم أنـسَ يـــــــوم البين إذ ... جـــدّ النعيّ فقلت : هـــازل
حتـــى إذا الشـــكّ انجلى ... أيقنت أن الأمـــر هـــائل
وعلمت مـن طـــول النـــوى ... أنّ المســافـــر غير قـــافل

ثم قالت :

لا قـــــــرّب الله الأُلى ... هضمـــوا الحقـــوق بكلّ بـــاطل
وسطـــوا على أوطـــاننـــا ... سطـــو اللصـــوص على المنـــازل
إنّ المهـــــــازل جمّة ... وحيـــادهـم إحـــدى المهـــازل
خلـف الحيـــــــاد تستّروا ... والقصـــد لا يخفى لعـــاقـل
ليس الحيـــاد كما ادّعـــوا ... إنّ الحيـــاد لــــه دلائل
ودليلهـم فــــرســـانهم ... في كـل ميـــدان جـــوائل
يـــا أيّها الـــرامي ، أرح ... رنّـت سهـــامك في المقـــاتل
واستبـق قـــومك للـــزمـــان ... فهـم حصـــونك والمعـــاقل
وهـم وقـــاك مـن البـــلاء ... وهـم فـــوارسك البـــواسل
النيـل يظمـأ أهلــــــه ... والعـــابثـون بـــه نـــواهل
غفـل الـــزمـــان فـأدركـــوا ... حكماً ولكـن غير فــــاصل

وقالت :

يـــا بني مصر، رفعتم شـأنها ... يـــا بنـــات النيل ، زنتنّ العصـــورا
هـــذه الأهـــرام، فليفخـــر بها ... كلّ مـن كـــان على الـــدهـــر فخـــورا

جـاهـدوا أو تـدركـوا غـايـاتكم	أو تـروا العـزّ الى النيـل مشيرا
وسلـوهـم كيف كـانـوا ومتـى	كـانـت الأعجـاز في النّـاس صـدورا
سجّلـوا المجـد وأشتـات العلى	كلمات طيّبـات وسطـورا
كلمات نسّقـت أحـرفهـا	فتلـونـاهـا وروداً وزهـورا

ولقد ذهب بعض النقاد الى أن شعر رباب من نظم والدها أو من تنقيح قلمه، فقال كمال إبراهيم متحدثاً عن عبد المحسن الكاظمي أنه كان يتلو القصائد الطوال من شعر ابنته رباب وارتأى أن شعره والشعر الذي رواه لابنته كان نمطاً واحداً وروحاً واحدة ولغة واحدة لا تكاد تحّس بينهما اختلافاً. والمعتقد أن شعره ينسبه اليها، إذ كان ينشر باسمها القصائد الطويلة في الصحف المصرية، وهي لمّا تـزل في دور الطفولة. ودفع هذه الريبة نقّاد آخـرون، منهم عبد الرحيم محمـد علي مؤلف كتـاب «رباب الكاظمي» والـدكتور بدوي طبانة وغيرهما. وقـال الشاعر المصريّ صالح جودت: «تأثـرت بروح أبيها، لولا تلك الأنوثة الرقيقة التي تبدو في شعرها. ولكن ديباجتها العربية هي من النماذج العالية للشعراء لا للشاعرات فحسب...».

إنّ عصر الشاعرة رباب الكاظمي. قـد انتهى ليهلّ عصر أدبي نسائي جديد لمعت في سمائه نجوم نازك الملائكة وعاتكة وهبي الخزرجي وأميرة نور الدين داود وصواحبهنّ.

الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي

شاعرة الحزن والنجوى والتأمل والتقوى عـاتكة وهبي الخزرجي، ولدت في بغداد في ١٤ تشرين الثاني سنـة ١٩٢٦، وكان والدها وهبي الأمين الخزرجي ضـابطاً في الجيش التركي بـرتبة قـائممقام (عقيد) وأصبـح متصرفاً للموصـل سنة ١٩٢١ فمتصرفـاً للواء ديالي. وتوفي بعد ذلك وعمر ابنته لا يتجاوز ستة أشهر.

ذاقت عاتكـة مرارة اليتم طفلـة فنشأت ميّالـة إلى الشجو والأسى. وانتمت إلى دار المعلمين العـالية فتخـرّجت فيها سنـة ١٩٤٥ وعيّنت مـدرسة للغـة العربيـة في بعض مدارس البنـات الثانـوية. وأرسلت بعـد ذلك لإتمام دراستها في جـامعة السـوربون في باريس (١٩٥٠) فحصلت على شهـادة الدكتوراه في الآداب (١٩٥٦)، وكان مـوضوع أطروحتها العبّاس بن الأحنف الشـاعر الغزلّي الرقيق، وكانت عاتكـة قد حققت ديوانه ونشرته في القاهرة سنة ١٩٥٤.

وعادت إلى بغداد فعيّنت مـدرسة بدار المعلمين العاليـة التي أصبحت فيها بعد كلية التربية، وواصلت الدكتـورة عاتكة التدريس في كلية الآداب بجامعـة بغداد. وسافرت إلى باريس في صيف سنة ١٩٧٠ للقيام ببحوث أدبية وعادت إلى بغداد بعد أمد قصير.

قال الدكتـور صفاء خلوصي في كلمته عن هـذه الشاعرة في مجلة الجمعيـة الأسيوية

الملكية الصادرة في لندن (١٩٥٠) ما ترجمته: «ان عاتكة بدأت حياتها فتاة حييّة لم تكن لتتغلب على خجلها الا حين كانت تلقي خطاباً أو تتلو بعض أشعارها. وكانت تضع الحجاب حتى في ساعات الدرس، لكنها سرعان ما تبدلت حالها ورأى العراق فيها امرأة حرة ثائرة».

نظمت عاتكة وهبي الشعر صبيّة، وكانت باكورة شعرها صرخة مدوّية تترجم عن اليتم والذّل والشقاء فقالت:

وألقت عليّ الأم نظرة أيّم	قرأت بها يتمي وتاريخ حسرتي
وكم كنت آسى إذ أشاهد طفلة	تصيح: أبي أذ يتديها بطفلتي
فأسرع في ذلّ ويأس ولهفة	أسائل أمي إذ أغالب دمعتي:
حنانيك يا أمي، أمالي من أبٍ؟	أمالي من كفّ تكفكف عبرتي؟

وشعرها قويّ رصين التزمت فيه الطريقة العمودية الأصيلة وغلب عليه الحزن والتفجّع والألم. ونزعت إلى التصوّف فنظمت في الزهد والعشق الإلهي قصائد من عيون الشعر. وقد أشبهت الشاعرة الصحابية عاتكة بنت زيد العدوية التي رثت قرينها عبد الله بن أبي بكر الصدّيق قائلة:

فآليتُ لا تنفكّ عيني حزينة ... عليك ولا ينفك خدّي أغبرا

وأعادت على طريقة العصر سيرة رابعة العدوية الشاعرة الناسكة الصالحة التي سكرت بخمرة الهيام الالهية وزهدت في الحياة الدنيا وقالت: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيّئاتكم».

نشرت عاتكة مسرحية شعرية بعنوان «مجنون ليلى» (١٩٦٣) ودواوين: أنفاس السّحر (١٩٦٣)أفواف الزهر (١٩٧٦) لألاء القمر (١٩٦٥).

ان شعر الخزرجية الحزين الرقيق ليشبه في أمواجه المتضارية ونغماته الساجية شعر مارسلين ديبورد فالمور Marceline Desbordes Valmore

(١٧٨٥ ــ ١٨٥٩) التي رتلّت أناشيد الأسى والحبّ الصوفي ولواعج النفس على قيثارة الشعر الفرنسي. ولدت هذه الشاعرة في أحضان أسرة مرفّهة، لكنّ الثورة الفرنسية التي نشبت، وهي طفلة، حملت إلى آلها البؤس والشقاء. وأرسلت الفتاة إلى جزيرة الغادلوب النائية في بحار أميركة الوسطى لاستيفاء إرث عائلي، بيد أنها عادت من رحلتها المضنية أشدّ فقراً. وتوفيّت والدتها، فقست عليها الحياة، وشرّدتها، وقسا عليها الحبّ فأورثها السقم والعناء. ثم لقيت شريك حياتها في بروكسيل، فكانت مثال الزوج الصالحة والأم الحنون، وهدهدت أطفالها وأطفال فرنسة عامة بألحان شجيّة تفيض رقّة وعذوبة. ان مارسلين ديبورد التي عرفت بشقيقة الشعراء الروحية قد بلغت ـ

كما قيل ـ قمّة الشعر الوجداني بـلا تكلفّ، وكانت وسيلتها نفسها المرسلة على سجيّتها وعواطفها المرهفة. وقد ودّعها الشاعر تيودور دي بانفيل قائلاً:

«ايتها الميتّة العزيزة، التي جاعت روحها وظمأت إلى سماء اللازورد،

يا مارسلين، هل ترقدين في تربة التلّ الباردة؟

هل وجدت الهدوء أخيراً؟»

قرأت الشـاعرة الفرنسيـة قصيدة الشاعـر الفارسي عبـد الرحمن جامي الـذي سبقها بثلاثة قرون، تلك القصيـدة التي يتغزّل فيها بحبيبة مجهولة لم ترهـا عيناه واشتاقت إليها روحه عبر الأثير، فأجابته بقصيدة تقطر لوعة وتلهفاً وتشوقاً. قالت:

«حينما تتعذّر عليّ رؤياك، يرهقني الزمان وتثقل الساعة كاهلي بعبء أنوء بحمله.

وأشعر بقلبي يذوب وكأنه يـزمع مغادرة ضلوعي، وينحني رأسي، فأشقى وانخرط في البكاء.

وحين يهتف صـوتك المدوي في قرارة ذاكـرتي، أرتجف وأصغي بلا حـراك، ويمتلك الرجاء قيادي.

وكأنّ الله يمسّ قصبة واهية، وأنا بكل حواسّي أجيب قائلة: اللّهم، فليأت!!..»

وقالت عاتكة وهبي:

أهـــــواه، هــل يبغـي على ... صـــدق المحبّـــة من شهـــود؟

إيماض ألحاظـي واطــــراقـي ... وصمتـــــي أو جمودي

ووجيـب مـــا بين الضلـــوع ... وحيرتي بين الشهــــــود

مــولاي، رفقـك قـــد قســوت ... ومـــا قســوت على جليـــد

زُحماك هـــذي مهجـــة ... وأضـــالـع لا من حـــديـــد

ولئـن غـــدوت وبيننـــا ... بحـــر تـــرامـى إثـــر بيـــد

فـلأنـــت أدنــى ــ رغـــم ذاك ـ ... إليّ مـن حبـل الـــوريـــد

وقالت:

كـن مـن تشـــاء فـــانني ... لــك مـــا حييـت ولا لغيرك

أحيــــا لعليّ أن أراك ... وأجتلي لألاء فجــــرك

يـــا سيـــدي، كيـف السبيل ... إلى سلــــوك أو لهجــــرك؟

قلبـي بحبّـك مــــؤمـن ... وانـــا بحبّك لست أشرك

ووصفت حبيب الخيال فقالت:

فسمـــرتـــه من سهـــوم الـــرمـــال وطلعتــــــه الفجــــــر أو أنبـل
كـأن بعينيـــــــه سرّ النجـــــــوم إذا مـــــا دجى ليلهـــــا الأليـل
وفي قــــدّه من شمــــوخ السيـــوف معــــانٍ بها كلّ مـــا يـــذهـل

انّ تأمّلات الشاعرة الخزرجية وشطحاتها الصوفية فيها كثير من الألم والحبّ والنزوع وسائر ما يطفح به شعر مارسلين ديبورد من الاشواق الروحية. قالت الخزرجية:

بلـــوت مـن الأيـــام كـل عظيمـــة، وحسبـي أنّي قـــد ولـــدت بمأتـم!
وكـــانت أغـــاني المهـــد لي رنّـــة الأسى ووقـع نحيب قـــد بـــرى قلب أيّـم
ولقنـت في مهـــدي سجـل مـــآتمي وكم هـــالني فصل الشقـــاء المجسمّ

وردّت عليهـا الشـاعرة الفـرنسيـة من وراء حُجب السنين، بقصيـدتها «إلى اللـواتي ينتحبن»، قائلة:

«أنتن اللواتي يتعـذّبن، لقد اخترتكن لي أخوات، واليكن تتـوجه أحلامي السـاجية والحلاوة المرة لدموعي المغنّاة.

ففي هـذا الكتـاب روح تكمن أسيرة. افتحن واقـرأن، واحسبن الأيـام التي حملت لنفسي الألم.

ايتها الباكيات في هذا العالم الذي مررت به مجهولة، احلمن على هذا الرماد واغمسن فيه قيودكنّ.

أطلقن اصواتكن في الغناء، فألحان المرأة تشجي العذاب.

أحببن، فالبغض يؤلم أكثر من الحبّ.

وامددن أيديكن بالعطاء، فالصدقة تحيي الأمل،

فمن يستطيع العطاء لا يريد الموت!..»

والدكتـورة عاتكـة وهبي بعد ذلك شـاعرة قـومية تكنُّ الحبّ لأمتهـا وتعتزّ بقـومها فتقول:

علمّـــــوا الأيـــــام أنّـــــا أمـــــة تنقـل الخطـــــو على هـــــدْي نبـي
تستمـــــد الـــــوحي من قـــــرآنـــــه ســـــوراً مكتـــــوبـــــة بـــــالـــــذهب
وتـــــرى الموت لـــــذيـــــذ المجتنى إن دعـــــا داعي القنـــــا والقضُـــــب
وتخطّ العـــــزّ في تـــــاريخهـــــا بـــــدمـــــاء الشهـــــداء النُجُبِ

وتتغنّى بحبّ وطنها فتقول:

قفي أنشـــديني من لحونك مـــا يصبي … فأنت ابنـــة الآلام والشعـــر والحبّ
حنـانيك، يـا ورقـاء، كفّي عن البكـا … وغنّي لحون البشر في غصنك الـــرطب
حنـــانيك، مـــا يشجيك إذ أنت حـــرّة … تطير بك الأنســـام في العـالم الـــرحب؟
ألا ليت لي جُنحـــاً فـأهجـــر بقعـــة … فشـا اللـؤم فيهـا في الأقـارب والصّحب
وأصعب مـــا يلقى الفـــؤاد إذا قضت … صروف الهوى سلـــوان حبٍّ إلى حـبّ
وكيـف بقلب قــــد تملّكـــه الهوى … فأضحـى ومـــا يصغي للـــومٍ ولا عتب
هـــوى بقع فيهـــا زُفـــات أحبّتي … وفيهـــا أحبّ الـــذكـــريـــاتِ إلى قلبي
هـــوى بقع فيهـن مهـــدي ونشـأتي … ومسرح جـــدّي في الشبيبـــة أو لعبي
هـــوى بقـع فيهن قلـت قصـــائداً … أحبّ إلى روحي مـن البـارد العـذب. . .

وتحنّ إلى بلادها فتذكر نخلها وشطآنها:

تبــاركتِ، يـــا نخلـــة الشـــاطئين، … ويـــــا آيــــة الأعصر الخاليـــــه
نهلـت الخلـــود من الـــرافـــدين … فبــــوركـت مسقيـــة ســـاقيـــة
تـــرفين في أفقك الشـــاعـــريّ … رفيف الـــزهـــور على الـــرابيـــة
وتضفين مـن لـــونـك السنـــدسيّ … شفـــوفـــاً مفـــوّفـــة الحاشيـــة
وتسقين مـــــن خمرك المشتهـــــى … حـــلالاً من الأكـــؤس الصـــافيـــة
وفي طلعـــك النّضر كـــم تنشريـــن … على الكـــون أنفـــاسك الـــزاكيـــة
وفي ظلّـك الـــرحـب عنـــد الحرور … وأكنـــافـــه العيشـــة الـــراضيـــة
تبـــاركت في أرضنـــا جنّـــة … قطـــوف عنـــاقيـــدهـــا دانيـــة

وقالت من قصيدة لها تشكو الدهر:

ضللتُ، فهـل في غيهب العيش شمعـة … وهـل في دجى الأيـــام لمح بـــريـق؟
أنحن بعصر النـــور أم عصر ظلمـــة … وظلم وإجـــرام وهـــدر حقـــوق؟
أدنيـــاي هـذي خـدعـة إثـر خـدعـة … يُضلّ فـــريقـــا من وراء فـــريق؟
أبحـــــر مـن الأسرار خضت غماره … وحـــالي فيـــه اليـــوم حـــال غـــريق
إلى أين، يـــا دنيـــاي، أسري وأنثني … أمـــا مـــال نجم السّعـــد نحـــو شروق؟
ألا مـــا أغلَّ الـــدهـــر، مـــا أضيع المنى، … ومـــا أخيب المسعـى بجـــوف مضيق!
أكـــاد من الأشجـــان أخفـى عن الـــورى … وأشرق من فـــرط السّقـــام بـــريقي

من شعر عاتكة الصوفي الرقيق مقطوعة عنوانها «الطيف العاتب» قالت فيها :

الطيف يطـــرقني إذا جنّ الــدجى ... متحــــذراً مـن رقبـــة السمار
يختــال في بـــرد الشبـــاب كـأنّـــه ... غصن يميـل بـــه النسيم السّـــاري
متـأزراً بـــالليـل ، يسري ســـادراً ... بكـــؤوس تيـــه لا كـــؤوس عقـــار
والجيـــد تضنيـــه العقـــود فينثني ، ... والكـفّ يلـــويها رقيـق ســـوار
فتشعبـت سبـل الحديـــث ، ولا تسـل ... عـن رقـــة في العتـب والأعـــذار
وبلـــوعـــة مكتـــومـــة تصف الجوى ... نـــاشـــدتـــه بترفّع ووقـــار:
أتـــزورنـــا عنـــد الظـــلام هنيهـــةً ... وبـــذاك فقـت كـواكـب الأسحـــار؟
ويـــروعنـــا بـــالعتب ، وهـــو جنـــايـــة ... أخـــرى ، وتـــرفـض أفصح الأعـــذار؟
أتجود بـــالطيـف الملمّ بنـــا دجى ... وتـــريـــد زورتنـــا بـــرأد نهار؟
والليـل يكتم كـل سرّ ســـافـــر ... والصبـح يفضـح كـلّ ذات ستـــار؟
فأجـــابني والسّخـــر ملء جـــوابـــه : ... إنّ الحيـــاة مطيّـــة الأقـــدار
ومضى وخلّفنـي أطـــارد في الـــدجى ... قلبـــاً تشرّد في رحـــاب قفـــار

وقد حيّا الاديب الشاعر المصريّ محمّد عبد الغني حسن شاعرتنا الخزرجية فقال :

أيتهـــا الشـــاعـــرة الـــوفيـــة ... في أمّـــة نبيلـــة سريـــة
عـــاشقـــة للمجـــد والحريـــة ... ليـس عجيبـــاً هـــذه الحميـــة
والعـــزّة الغـــاليـــة الفتيّـــة ... وهـــذه الخلائق الـــرضيـــة
فـأنـت في أشعـــارك الطليّـــة ... وأنـت في ألحانـك السحـــريـــة

عـــاتكـــة ، وأنت خـــزرجيـــة !

وقال أحمد حسن الزيات : «ان الينابيع الصافية الثرة التي ارتوى على فيضها واغتدى على جناها شعر الدكتورة عاتكة هي : الله والطبيعة والنفس . والينبوع القدسي هو أندى على كبدهـا وأروى لشعورهـا من الينبـوع النفسي والينبـوع الطبيعي لأنها حين تصف النفس أو تصـور الطبيعة يتمثل فيهـا بـديع السموات والأرض الـذي أحسن كل شيء خلقه ومنح كل جميل جماله . . .

«ان الشبابـة من قصب ، ولكن اللحن من نار، فكلما نفخت فيهـا من روحها ذاب قلبها في حبّهـا ، فتئن أو تحنّ أو تشكو أو ترجو أو تثـور بألفاظ منسّقة كالنغم ، مـونقة كالزهر، منمقة كالوشي ، تسري فيها المعاني الشاعرة سريان النشوة في الرحيق أو الفوحة في الطيب . فأسلـوبها نسق مطّرد من الفكـر والخيال والعـاطفة ، يصقلـه طبع وذوق ،

ويقوّمه درس واطلاع . . . »

تحدّثت عاتكة وهبي الخزرجي فقالت انها تستمد موارد أدبها من الشعر العربي الأصيل قديمه وحديثه، وان اساتذتها فيها كثر أولهم البحتري. وهي معجبة أشدّ الاعجاب بالشريف الرضيّ وأحمد شوقي. وقد مارست النقد الأدبي والقصة القصيرة. وعلى الرغم من اطلاعها الواسع على الآداب الغربية، لم تخرج على نظام القصيدة العربي القديم.

قال عنها خالد القشطيني إنها شاعرة محافظة فكراً واسلوباً، وقد التزمت بالأشكال الكلاسيكية للشعر العربي، ودعت إلى التمسّك بالقيم الإسلامية والتقاليد العربية. وقال: «ومما يذكر انها حين تمضي إلى القاهرة، وكثيراً ما تزورها، تقيم في دير وتمتنع عن النزول في محلّ أكثر ترفاً».

وقال انها بالرغم عن حبها العميق لبلادها وشعبها ودينها وثقافتها وتقاليدها لم تستطع عاتكة إلاّ أن تشعر بشعور الخيبة، شأن سائر المثقّفين المعاصرين للضعف والنقص اللذين يتسم بهما المجتمع الجديد. وقد عبرت عن هذا الشعور مراراً في قصائدها.

كمال عثمان

الشاعر الضابط كمال عثمان ولد في بغداد سنة ١٩٠٧ لأسرة كردية أربيلية الأصل. وقد انتمى إلى المدرسة العسكرية فتخرج فيها ملازماً ثانياً (١٩٢٧). وكان ضابطاً خيالاً، فدخل في دورة طيران لأجل الانتقال إلى القوة الجوية، لكن طيارته الصغيرة سقطت به وهو يقودها في أثناء التدريب، فأصيب بعطل في رجله وأحيل بعد ذلك على التقاعد برتبة مقدم سنة ١٩٤٧.

له شعر رائق وخطّ جميل، (لا يزال حياً، ١٩٨٨)

لازم المقدم كمال عثمان الاب أنستاس ماري الكرملي سنوات طويلة ورثاه عند موته بقصيدة مطلعها:

شقّ «اللسان» عليك جيب بيانه ... ونعاك فانصدع العلى بكيانه
والرافدان توجّدا وتشاكيا ... هذا بحرقته وذا بحنانه . . .

كان قومياً في نزعته صوفياً في مشربه.

أخبرني كمال عثمان انه، عند تخرجّه من المدرسة العسكرية ضابطاً صغيراً، أرسل إلى

الموصل. وكان شهر رمضان فكلف بالإشراف على اطلاق مدفعي السحور والفطور.

سهر ليلتين أو ثلاثاً لإطلاق مدفع السحور في وقته المعين. وقال له العريف:

يا سيدي، لماذا ترهق نفسك بالسهر؟ ألا تعتمد عليّ، وقد خدمت في الجيش أعواماً، للقيام بهذه المهمة على وجهها الصحيح؟ واقتنع الملازم الشاب بكلامه، فأوصاه بالاهتمام وتدقيق الوقت ومضى إلى فراشه. وفيما هو مستغرق في نومه شعر بدوي المدفع فاستيقظ مذعوراً وفرك عينيه. ماذا؟ كانت الشمس ترسل أشعتها وقد طلع الصباح منذ ساعات. فاستدعى العريف وأنبّه وقال له: كيف تطلق المدفع في هذا الوقت؟ فأجابه: انني غفلت عن اطلاقه في وقت السحور، وخفت أن تبقى لدينا قذيفة زائدة فتداركت الأمر!

وهبّ أهل الموصل مستنكرين اطلاق المدفع في غير أوانه، فأحيل كمال على لجنة تأديبية قضت بتغريمه راتب عدة أيام والإيعاز بنقله إلى وظيفة أخرى.

أخبرني كمال عثمان ان اباه عثمان بك كان ضابطاً في الجيش التركي من أقران صبيح نشأت. ولما أنشئت الحكومة الوطنية في العراق عرضت عليه مناصب مختلفة، لكنه رفضها اعتقاداً منه بأن الأتراك سيعودون.

وقد أنفق كلّ ما يدّخره من مال وقاسى شظف العيش حتى قضى نحبه وهو لايزال يأمل عودة الحكم التركي.

وأخبرني كمال عثمان انه، حين تقدم لأداء الامتحان النهائي في المدرسة العسكرية تعطل فكره فجأة وصار يدرس يومه وليله فلا يعي شيئاً من درسه. ودلّه بعض أصحابه على شيخ ذي كرامات، فذهب إليه وحدثه بما كان من شأنه، فكتب له ورقة فيها اسم الله وقال له: اشتر كعكاً واغمس قطعة منه في الماء مع هذه الورقة وكله فينتعش فكرك. وفعل كما أوصاه الشيخ وأقبل على الدرس، فإذا به يفهم الموضوع بسهولة. وأدى الامتحان فكان النجاح حليفه.

فؤاد عباس

من رجال التربية والأدب، وهو محمد فؤاد بن عباس حبّابة بن محمد حسن ولد في دلتاوة التي تعرف الآن باسم الخالص سنة ١٩١١ ودرس في دار المعلمين الابتدائية في بغداد. وعيّن معلماً في بعض المدارس الابتدائية في تشرين الأول ١٩٣١ فتنقل في مدارس بغداد والبصرة والناصرية. ثم أوفد في بعثة حكومية لإكمال دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٣٣) فنال شهادة البكالوريوس في التربية سنة ١٩٣٨.

عـاد الى بغداد فتنقل في الـوظائف التعليميـة مدرسـاً ومديـراً في المدارس المتوسطـة والثـانويـة حتى عيّن سنـة ١٩٦٠ مفتشاً للّغـة العـربية في وزارة المعـارف . وأحيل على التقاعـد سنة ١٩٧٣ . وقـد نظم شعراً رقيقـاً منذ أيـام دراسته في بيروت ، لكنـه اشتهر محدّثاً لبقاً في الإذاعة والتلفزيون وعرف بأدبه وسعة إطلاعه وحلو فكاهته . قال الدكتور صفاء خلوصي : «كـان فؤاد أميل الى الحديث والخطابة الارتجالية البليغة منـه الى الكتابة والتأليف . . . ولعلّ لسحـر صوته الـذي لا يمكن أن يدوّن على قـرطاس أثـراً في هذا المنحى الذي انتحاه» .

توفي ببغداد في ١٠ أيار ١٩٧٦ .

من شعره : من قصيدة «رأس بيروت» :

تهادين مـن كل الجوانب كـالقفـر[1] ... على رأس بيروت الى سـاحـل البحـر

كـواعب أتـراب كـأنّ وجـوههـا ... يفيض بها مـاء الملاحـة والبشر . . .

خـرجـن ليستروحن طيـب نسـائم ... ويشخصن بـالأبصـار في مسرح الفكـر

وفي جـانـب منهن شيـدت مسـاكن : ... قصـور وأكـواخ لمثـرٍ وذي فقـر

فثمّـة قصر قـائم شـامخ الـذرى ... وثمـة كـوخ جـاثـم واطىء الجدر

وبـالقـرب منـه دوحـة قـام فـوقهـا ... حمام بـوكـر كم شجى النّـاس بـالهزر

وقـد طـرزت أيـدي الـربيع ونمّقت ... بسـاطـاً من الـريحان والعشب والـزهـر

وفي جـانـب منهنّ بحـر وشـاطىء ... عليـه من العشـاق طير بـلا وكـر . . .

وله :

وفتـاة لا أقصـد الشمس ، لا بـل ... فضلتهـا بقـامـة وبجيـد

أرأيـت الغـزال يبـدي نفـوراً ، ... أرأيـت انعطـافـة الأملـود؟

مـا ائتـلاق اليـاقـوت من شفتيهـا ، ... مـا الثنـايـا بلـؤلـؤ منضـود

تلك أحيـاء ، هـذه جـامـدات ، ... أفحـيّ كميّت ملحـود؟

لبست مثـل طهـرهـا حلّـة بيضـاء ... تـزري بنـاصـع مـن جليـد

وبـدت والـدلال يعبث فيهـا ... كجنـاح الملاك عنـد الصعـود

يثب النهـد تحتهـا ، أسجين ... بـاذل جهـده لكسر القيـود؟

أم كقلبـي لما دنـت وتـدلّـت ... بعـد حـرّ الجوى ومـرّ الصـدود . . .

---

(١) لم أعرف ماذا يقصد بـ القفر ولعله يريد قفير النحل أي خليته (وهي عامية) .

ورثى جعفر الخليلي فؤاد عباس فقال :

نم، يـــا فـــؤاد، فقـــد والله عـــزّ على نفسي منامـك، لكن مـا الـــذي بيـدي؟
إن ضـــاق صـدري ولم تسكـن لـواعجـه لأنّ كـلّ صـــــديـق راح لم يَعُــــــدِ

وقال الخليلي إن لفـؤاد عباس في مكتبـة تسجيلات الإذاعـة والتلفزيـون وفي أشرطة الأندية ما يؤلف خمسين مجلداً أو أكثر لو أردنا أن ننقله على الورق .

حسين مردان

شاعر البـؤس والحرمان ورائد الأدب المكشوف، ولد حسين مـردان في بعقوبا لأسرة كردية الأصل سنة ١٩٢٧ . وانقطع عن الدراسة صبياً، فجاء الى بغداد وعمل في حقل الصحافة سنة ١٩٤٧ . طبع أول مجموعة شعرية له سنة ١٩٤٩ بعنوان «قصائد عارية» فجاءت تعبّر عن نفسـه القلقة المحـرومة التي تضطرم فيهـا الشهوة وتعتلج بـالعواطف الهائجة. وعقبهـا بمجموعات نرى فيهـا لفحات تذكـرنا بأزاهر الشرّ للشاعـر الفرنسي شارل بودلير. وقد حوكم حسين مردان سنـة ١٩٥٢ بسبب ما سمي بالبذاءة في قصائده العـارية كما حـوكم بـودلير في بـاريس في منتصف القرن التـاسع عشر بسبب أشعـاره المتحررة. وقضى شاعرنا أمداً في السجن ضريبة أدبية فرضت عليه .

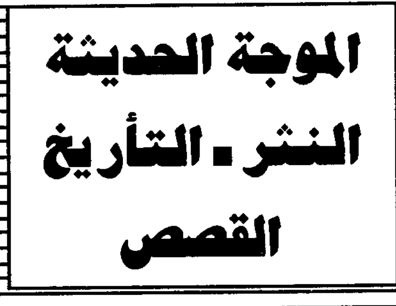
عاش شاعرنا بائساً يتبلّغ براتب ضئيل يدرّه عليه عمله في الصحف مخبراً ومحرراً حتى أدركه الحمام في بغداد في تشرين الأول ١٩٧٢ .

قال الدكتـور داود سلّوم «إن مادة «قصائد عارية» و «اللحن الأسـود» . . قد أثارت بعض النقاد من ذوي المقـاييس الخلقية وبعض المحافظين من رجال الـدين والحلقات الاجتماعيـة . وإن مقاسـاة حسين مردان في حقلـه ومقـاساة الآخـرين في حقول أخـرى مختلفة يظهر فيه تحديد الحرية في التفكير والتأليف للذين يريدون أن يقولوا ما يرغبون أو يعتقدون أنه الحقيقة» .

وقال الدكتور سلوم أن حسين مردان بالـرغم من جرأته في الموضوعات الشعرية التي عالجها لم يتحرر من الوزن القديم والقافية المتكررة إلا في مواضع قليلة .

مؤلفاته : قصـائد عارية (١٩٤٩) عزيزتي فلانـة (١٩٥٢) نشيد الأنشاد (١٩٥٥) هلاهل نحو الشمس (١٩٥٥) الربيع والجوع، مقالات في النقد الأدبي (١٩٥٥) رسالة من شاعر الى رسّام (١٩٥٦) الأرجوجة هادئة الحبال، طراز خاصّ، العالم تنّور.





الموجة الحديثة
النثر ـ التأريخ
القصص



عبد المسيح وزير

عبد المسيح جبر وزير ولد في ماردين سنة ١٨٨٩ ، ودرس في مدارسها ، ثم تخرج في كلية عينتاب الأميركيـة وأتقن اللغتين العربية والانكليزية . وقد عمل مـدرساً في ماردين ولبنان ، وكان محرراً لمجلة مدرسة التهذيب في الشويفات (١٩١٣) . ثم رحل الى مصر عند نشوب الحرب واشتغل مترجماً فيها .

وجاء الى العـراق فعيّن مترجماً في وزارة الدفاع (شباط ١٩٢١) ، وسميّ مـديراً لقسم الترجمة بها في آب ١٩٣٣ . وقـد خدم في هـذه المهمة أكثـر من ٢٢ عامـاً ، ووضع آلاف المصطلحات العسكـرية بـاللغة العـربية ، وألف قـاموسـاً عسكريـاً باللغتين العـربية والانكليزية أصبح مرجعاً في بابه .

وتوفي ببغداد في ٢٠ أيلول ١٩٤٣ .

كـان عبد المسيح وزيـر أديباً عـربيـاً لطيف الأسلوب ألف روايـات ، مثل «الصنم المحطّم» ، وأنشأ بحـوثـاً ومقالات كثيرة . وتـرجم الى اللغـة العـربيـة طرفـاً من الشعـر الانكليزي والعالمي ، كـ «ريفيّات» فرجيل شاعـر اللاتين وأشعار طاغور ، وكتاب عبد الرحمن الناصر (١٩٣٩) ، وخواطر طاونزند أو محاربتي في العراق (١٩٢٣) .

ومن مترجماته أيضاً شريعة حمورابي ، وروايـة القيصرة في مقصورتها لوليم ليكيو نشرتها جريـدة العراق البغداديـة تباعـاً (١٩٢٣) ، وكتاب الثورة العـربية من تـأليف ت . أ . لورنس (طبعت منه كرّاستان فقط) .

وكتب في مـوضــوعـات متنوعـة بحــوثـاً نشرتها المجـلات والصحف العــراقيـة كمجلة الحرية ، منها مقالاته عن نظرية اينشتين والذرّة الخ .

وطبعت قصّتــاه «الصنم المحطّم» و «عجـوز تتصــابى» في مجلّـد صـدر سنـة ١٩٧٢ . ونقل مع مسـاعديه في وزارة الـدفاع عـدداً عديداً مـن الكتب الفنيّة ، ونهض بعبء سبك المصطلحات العربيةالتي تناظر المصطلحات الغربية في الفنون الحربية .

وكان في طليعة المترجمين الذين رافقوا فجر النهضة العراقية في المائة العشرين ، فأحيوا

في بغداد بعد ألف ونيّف من الأعوام عهد يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحٰق وأضرابهما من مترجمي عصر الرشيد والمأمون. و «صناعة المترجم» ليست بالهيّنة ولا اليسيرة»، وقد عرّفها وزير نفسه في محاضرة ألقاها في نادي القلم العراقي، قال: «فالترجمة والمترجمون كانوا ـ وما يزالون ـ عماد كل نهضة علمية ثقافية قائمة على ناموس تفشّي الثقافات باقتباس كل أمة ممّا عندها من عناصر العلم والفنّ والحكمة والأدب، فضلاً عن عناصر السلوك والعادات وغيرها . . .»

ثم قال: «وأقول في الترجمة: لا يعرف انسان حلو الترجمة ومرّها إلا من يعانيها، فهي صناعة وفنّ في غاية الدقّة. والمترجم كالشاعر والأديب والمصوّر والموسيقيّ والفيلسوف والرياضيّ والمهندس مخلوقة قابليته معه لا مختلقة، هذا فضلاً عمّا تقتضيه له صناعته من الاطلاع الواسع مع العلم الغزير بلغته واللغة التي ينقل منها أو إليها. والمترجم الحقيقي فيه ذوق الفنّان ودقة الرياضي واطلاع المؤلف. وليس كلّ من نقل نبذة أو كتاباً من لغة الى أخرى عدّ مترجماً، بل المترجم هو الراز الفرد والمهندس النابغة ـ راز اللغة التي ينقل اليها ومهندس صرح الأفكار التي يصبّها في قوالب الكلام . . .».

وقد كان عبد المسيح وزيرا معروفاً بالذهول وشرود الذهن. فمن النوادر التي تروى عنه في هذا السبيل أنه وقف صباح أحد أيام الجمعة على باب داره، وهو في مباذله، فرأى عربة تمرّ في الشارع، فما كان منه إلا أن استوقفها وركب مشيراً الى الحوذيّ بالذهاب الى وزارة الدفاع. ونظر الحوذي اليه ملياً، ثم قال ضاحكاً: «وماذا تفعل في وزارة الدفاع، يا أستاذ، واليوم جمعة، وأنت لم ترتدِ ملابسك؟ . . .».

وانفضّ إجتماع نادي القلم ذات مساء، وكان يعقد في دار بعض أعضائه، فقام عبد المسيح وزير يهمّ بالخروج ورأى كتباً على الأريكة، فقال ضاحكاً: من نسي كتبه، يا سادة؟ وظهر بعد التحقيق أنها كتبه، ولم يفطن أنها له.

وروى خيري العمري أنه دخل ذات مرة الى وزارة الدفاع قاصداً مكتبه، لكنه دخل الى الغرفة المجاورة، وكانت غرفة مدير الأمور الطبية، فجلس الى المنضدة. واستغرب وجود الآلات الطبية والأدوية، فاستدعى الحاجب وصرخ في وجهه يسأله عن كتبه وقواميسه.

وليس من ريب أن عبد المسيح وزير لو أدرك عهد الكاتب الفرنسي لا برويير (١٦٤٥ ـ ١٦٩٦) صاحب كتاب «الطبائع» لسلكه في عداد أبطاله: فقد حدّثنا هذا الكاتب الشهير عن «مينالك» عنوان الذهول الذي يهبط سلالم داره ويفتح الباب ليخرج الى الشارع فيجد نفسه في ملابس النوم وقد حلق نصف لحيته فقط . . . ويبحث عن قفازه وهو يحمله في يده. ويدخل الى إحدى المقاصير فيتعلّق شعره المستعار بالثريا التي يمرّ تحتها، فيضحك مع الضاحكين ويبحث عن الرجل الذي يكشف عن صلعه ولا يفطن أنه هو نفسه ذلك الرجل، وهلم جراً.

***

دبّت المنافسة والتنابز بين عبد المسيح وزير والأب أنستاس ماري الكرملي، فكانت موضوع حديث المحافل الأدبية سنين طوالاً. وقال الأب إن عبد المسيح وزير لا يحسن الترجمة وهجاه هجاءً مقذعاً مراً حتى في بعض الفهارس السنوية لمجلة لغة العرب في عهدها الأخير. أما وزير فقد عرّض بالأب في محاضرة له ألقاها في نادي القلم العراقي فقال:

«وقبل سنوات نشرت مجلة في بغداد اشتهر صاحبها ومنشئها في العالم العربي بكونه علماً من أعلام اللغة العربية واشتقاق مفرداتها مقالاً طويلاً يبحث في ضرورة الألعاب الرياضية للأمة. وفي معرض البحث استشهد الكاتب بولع الانكليز بالرياضة البدنية، فقال إنّ شغف الأمة الانكليزية بالألعاب الرياضية حملها على تخصيص يوم جعلته عيداً قومياً سمّته «يوم الملاكمة». ونشر الكاتب الأصل الانكليزي مع هذه العبارة وهو Boxing day! ولكن المسكين فاته أن المراد بهذا اليوم ليس «يوم الملاكمة» بل «يوم الهدايا»، وهو عند الانكليز أوّل يوم في الأسبوع بعد عيد الميلاد يقدم فيه أصحاب البيوت الهدايا الى مستخدميهم وسعاة البريد وغيرهم. فنبّهت حينئذٍ صاحب تلك المجلة على غلطته الفاحشة، فأصلحها معتذراً في العدد التالي من مجلّته».

ذكر رفائيل بطي أن عبد المسيح وزير نشأ في جوّ مشبع بتعاليم الكتاب المقدّس فكان ذلك مردّ خلقه الوادع اللطيف. إلاّ أن إدمانه قراءة أصحاب العقول الثائرة والمتشككّة من الفلاسفة وسّع آفاق ذهنه وأنشأ في رأسه هذا الصراع المشبوب بين الشكّ واليقين.

ثم قال: «وقد غنمت الثقافة العسكرية العربية من مساعيه وكفايته وعلمه وانكبابه آناء الليل وأطراف النهار على التنقيب والتحقيق والبحث في المعاجم ودواوين اللغة والأسفار العربية والانكليزية هذا «المعجم العسكريّ» البكر في اللغتين. . . » وقال عن أسلوبه الكتابيّ: «ونهجه أن يكون الأدب أرستقراطياً يصون فنونه عن الاسفاف والابتذال. . . ». وقال: «أما طريقة عبد المسيح في الترجمة فدقة في النقل ومتابعة الأصل بما يقرب من الترجمة الحرفية، مع مراعاة الفروق في التعابير بين اللغتين وعناية بالغة بفصاحة المفردات و إفراغ العبارة في ديباجة مشرقة وتركيب محكم».

كان عبد المسيح وزير ينفق راتبه بسخاء وقد أثر عنه أنه لا يدّخر شيئاً من المال. وجرت المناقشة ذات يوم في نادي القلم بشأن بناء عمارة للنادي، فشكا الأعضاء أن الحكومة لا تمنح أية إعانة لهذا الغرض.

فقال عباس العزّاوي؛ أقترح أن نستلف المبلغ اللازم للبناء من عبد المسيح وزير.

فردّ عليه وزير قائلاً: إن جميع ثروتي تحت تصرّف النادي. وأضاف ضاحكاً: يحقّ لنادينا أن يعتزّ بكنزين: ثروة عبد المسيح وزير وجمال عباس العزاوي!

وقد سمّى عبد المسيح وزير ابنته إِيَنس باسم قدّيسة إسبانيّة معروفة. وكانت تربطه صداقة وثيقة بمعروف الرصافي، فقال في الفتاة إينس أو ـ كما سمّاها ـ إيناس:

إخـــــــال بيتـي، لمّا جئتِ زائرةً،	كـأنّ وجهك فيـــــه نـــور نبراس
كـم أوحشتني الليـــالي في تصرّفهـــا	فـــزال إيحاشهـــا عنّي بـإينـــاس
أدامك الله، يـــا إينـــاس، تـــذكــرة	لـــوالـد فـــات فضـــلاً كلّ مقيـــاس
قــد كـــان يأســو جـروحـاً فيَّ داميــةً،	واليـــوم عنــدي جـــروح مـــا لها آس

عرفت عبد المسيح وزير، وأنا في مطلع الشباب، وأفدت منه فوائد جمّة. وقد أطلعته على ترجمة لي عن الانكليزية، فنبّهني إلى أمـور تتعلق بصميم نقل أسماء الأعلام ومعاني الجمل الخاصة بكـل لغة. من ذلك أنني كتبت اسم حـاكم فلسطين الرومـاني في عهد السيّد المسيح «بـونطيوس بيلاطس» كما جـاء في اللغة الانكليزية، فقـال لي: اسمه في العربية: بيلاطس البُنْطي نسبةً الى بُنْط بالضمّ (أو بونط) وهو الجسر.

وحدث بعد عدة أعوام، قبيل وفاته، أنني وجدت منه شيئاً من الجفوة، فاستغربت الأمـر لأنني لم أعلم بصدور أي تفـريط في حقّه من جـانبي. ثم عرفت السبب: كـان مديـر الأنواء الجوية الانكليـزي قد رغب في ترجمة كتـاب في هذا الموضوع الى العـربية، فكلّم الأب أنستـاس ماري الكـرملي الذي قـال له: إنّ خير من يقـوم بهذه الترجمة مير بصري، أما عبد المسيح وزير فلا يفقه شيئاً لا من العربية ولا الانكليزية. وقد راجعني هـذا الانكليزي في غـرفة تجارة بغـداد، فاعتـذرت عن ترجمة الكتـاب لكثرة مشـاغلي، وقلت له: إن عبد المسيح وزيـر شيخ المترجمين، فإذا وافق على تولّي الترجمة فقد ربحتم ربحاً عظيماً.

وأفهمت عبـد المسيح وزير بما جـرى، فسرّ بما كان وعـادت صلاتنـا الى الصفاء لا يعروها كدر.

قال الدكتور طه حسين:

«... إن الناقل ملزم حينئـذٍ أن يكون من القدرة والكفايـة بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول، فيشعر بقلبه ويحس بحسّه، ويرى الأشياء بتلك العين التي رأى بها المؤلف، ويصفها بهذا اللسان الـذي وصفها. فإنّ الترجمة في الفن والأدب ليست وضع لفظ عربي موضع لفظ أجنبي، إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور في اللغة الطبيعية، فكيف بها من لغة أخرى؟ إنما الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عملين مختلفين كـلاهما صعب عسير: الأول أن يشعـر المترجم بما شعـر به المؤلف وأن تـأخذ حـواسّـه

وملكاته من التأثر والانفعال نفس الصورة التي أخذتها حواسّ المؤلف وملكاته إن صحّ هذا التعبير. والثاني أن يحاول المترجم الإعراب عن هذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وخفاياها بأشدّ الألفاظ تمثيلاً لها وأوضحها دلالة عليها.

وخلاصة القول إن المترجم يجب أن يجتهد ما استطاع، لا في أن ينقل إلينا معنى الألفاظ التي خطتها يد المؤلف، بل في أن ينقل إلينا نفس المؤلف جليّة واضحة، نتبيّن فيها من غير مشقة ولا عناء ما أثر فيها من ضروب الإحساس والشعور».

جواد الدجيلي

المحامي الكاتب الأديب الشيخ جواد بن حسين الدجيلي، أخو الشاعر كاظم الدجيلي، ولد بجانب الكرخ من بغداد سنة ١٨٨٨. درس علوم العربية والفقه، حتى إذا ما نشبت الحرب العظمى سنة ١٩١٤، لجأ الى البصرة وعمل معلماً في مدارس أبي الخصيب والناصرية. وعاد الى بغداد فزاول التعليم حيناً في عهد الاحتلال البريطاني. ثم سافر الى الهند فتنقل في أنحائها زهاء ثلاث سنوات، وكتب في أثناء ذلك مقالات عن شؤونها ومللها ونحلها في مجلة المقتطف المصرية (١٩٢٠). وذهب الى مصر فحضر الدروس في جامعتها، ثم عاد بعد سنة الى بغداد ووظّف في وزارة العدلية. وانتمى الى مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٤ وتخرّج فيها (١٩٢٧) ومارس المحاماة.

كتب مقالات كثيرة في الصحف العراقية في الأدب والاجتماع، أهمها سلسلة مقالاته في جريدة «الاستقلال» بعنوان «الانسان همجيّ الطبع: لا توجد أخلاق وإنما هي حاجات» (١٩٢٧).

وقد كان في مبدأ أمره متديّناً متزمّتاً، ثم وقعت في يده مؤلفات الدكتور شبلي شميّل وفرح أنطون وغيرهما من رجال النهضة الحديثة في مصر ولبنان، فمال الى حرية الفكر.

أدركته الوفاة ببغداد في ٢١ آذار ١٩٥٩.

كان غريب الأطوار، مسالماً صريحاً بعيداً عن المجاملة، متقشّفاً في معيشته، متهاوناً في شأن نفسه، سمحاً حلو الفكاهة يتقبّل دعابة أصدقائه القاسية برحابة صدر وسلامة طويّة. وكان الى ذلك دؤوباً على المطالعة، وقد اعتاد السير على قدميه ساعات طويلة كلّ يوم للرياضة والتفكير، ولم ينقطع عن تلك العادة الى سني شيخوخته.

رثاه أخوه الشيخ كاظم الدجيلي بقصيدة، قال منها:

قضى نحباً وآل الى الخمود	وساوى الميّتين من الجدود
ونام بقبره نوماً عميقاً	وأضحى لا يفيق من الرقود
وشيّعناه بالعبرات حرّى	وقد تهمي الدموع على فقيد

وعـــدنـــا منـــه نـــذكـــره بخير
وشرّ مـن قـــــريـب أو بعيـــــد

وكـــان أسير جيلـــه في هـــواه
وفي رأيٍ لعـــــالمه جـــديـــد

يـــرى في جيلـــه مكـــراً وختـــلاً
وبهتـــانـــاً ونقضـــاً للعهـــود

ودينـــاً ليس فيـــه ســـوى ريـــاءٍ
وجهـل بـــالعبـــادة والحدود

يـــرى بـــالموت للعـــاني نجـــاة
إذا مـــا ظلّ يـــرسف في القيـــود

كثير الظـنّ سيّئـــــه يماري
بها عنـــــد المقلّـــــد من جمود

قضـى الأيـــام في دنيـــاه يسعـى
لمعـــرفـــة الحقيقـــة في الـــوجـــود

وأسعـــده التبتّـل في حيـــاة
خلت منهـــا السّعـــادة للـــوحيـد

ففـــارقهـــا ولم يحسـب حســـابـــاً
لأخـــراه ولا يـــوم الـــوعيـــد

ولم يـأسف على الـــدنيـــا بشيء
ولم يـــؤمن بفلسفـــة الخلـــود. . .

وهو رثاء أخ لأخيه نادر المثيل، خالٍ من العاطفة، فلسفيّ النزعة، واقعيّ السّمات.

روى جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» (الجزء الثالث) عن الشيخ جواد الدجيلي أنه كان معروفاً برحابة الصدر والسذاجة وحرية الفكر، قليل الإيمان بالأديان وفلسفة الوجود. واستغلّ زملاؤه المحامون وأصدقاؤه المقرّبون طيبته وبساطته فراحوا يداعبونه وينسبون إليه على سبيل الفكاهة مالم يقله ولم يفعله. وزعموا أنه وقف يوماً أمام المحكمة يدافع عن متّهم بالقتل. وعرضت البندقية التي أطلق منها الرصاص، فقال الدجيلي: إن هذه البندقية التي يقدّمها الإدعاء العام أداة إثبات للجريمة ليست إلا حديدة لا ينطلق منها الرصاص.

وظلّ الدجيلي يؤكد ويكرّر البندقية عاطلة، فقرّر الحاكم تجربتها على الفور في ساحة المحكمة ووضع فيها الرصاص، وضغط على الزناد، فانطلقت الرصاصة وأصابت السقف.

قال الحاكم: والآن ماذا تقول؟

فاعتذر الدجيلي وقال: كنت أحسب البندقية عاطلة!

هذا وقد رأيت الشيخ جواد الدجيلي في بعض الأماسي يسير متمهلاً في شارع أبي نواس على شاطىء دجلة وهو يأكل خبز شعير. فسلّمت عليه وقلت له مداعباً: كيف تأكل في الطرق، أيّها الشيخ؟ إن شهادتك لن تقبل إذا رآك الناس. فقال: أرجو أن لاتقول لأحد. . . أرجوك. . . ثم شاهد كلباً يجري فناداه: يا أخي، يا أخي! وأعطاه كسرة من الخبز.

كان جواد الدجيلي حرّ الفكر كما تدل عليه كتاباته وأحاديثه . قال له عباس العزاوي ذات يوم :

إنك لا تدين بدين أو مذهب فلماذا تتمسك بطائفتك الشيعية وتتعصب لها؟

قال الدجيلي : إن المجتمع العراقي لم ينصهر في بوتقة وطنية ولا تزال طبقاته منتمية الى الأديان والمذاهب . فإذا تركت طائفتي نبذتني ولم تقبل بي الطوائف والمذاهب الأخرى ، ففقدت قاعدتي الاجتماعية .

عبد الرزّاق الحصّان

الكاتب العربي القومي عبد الرزاق بن مجيد بن حميد الحصّان الكرخي ، ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ ، ودرس في المعاهد القديمة ثم أقبل يطالع أمّهات الكتب وينهل من موارد الثقافة العربية حتى أصاب حظاً وافراً من اللغة والتاريخ . ومارس تجارة الخيول في الهند ، وهي - كما قال سليم طه التكريتي - حرفته التي اشتقّ منها لقبه ، فتعلّم شيئاً من اللغة الانكليزية .

وأضاف التكريتي قائلاً : «ولقد دفعه حبّه لعروبته الى أن يساهم في الحركة العربية في مطلع القرن الحالي وأن يوثق علاقاته مع روّاد تلك الحركة سواء في الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية أم في العراق» .

مال الى الصحافة بعد الحرب العظمى وإقامة الحكم الوطني في العراق فكان من كتّاب المعارضة في جريدة الاستقلال . ثم رئس تحرير جريدة صدى العهد الصادرة في ٧ آب ١٩٣٠ ، ولم يلبث أن تخلّى عنها . وعمد الى إصدار كتب ورسائل شديدة اللهجة أثارت المشاعر فحوكم سنة ١٩٣٣ إثر صدور كتابه «العروبة في الميزان» وأودع السجن أشهراً .

وواصل إصدار كتبه ونشر مقالاته ، داعياً الى التربية القومية والأخلاق الإسلامية ، ومنادياً بالوحدة العربية ، ضارباً الأمثال بخالد بن الوليد وسواه من أبطال العروبة والإسلام ، مندّداً بالشعوبية التي تنتقص من مآثر العرب ومواهبهم ، مستخرجاً من التاريخ العربيّ القديم نماذج للتنظيم العسكري والدعاية وبعث الروح الحربية وتوحيد الكلمة .

من مؤلفاته التي صدرت في تلك الحقبة : ما العلاج؟ (١٩٣١) العروبة في الميزان (١٩٣٣) نحن (١٩٣٥) بين الأمس والغد (١٩٣٥) عربيّ المستقبل (في ثلاثة أقسام ، صدر القسم الثالث سنة ١٩٣٨) ، ربيعة العراق (في قسمين ١٩٣٦ - ٣٩) نظرة عابرة

في شماليّ العراق (١٩٤٠) المهدي والمهدويّة (١٩٥٧) الخ. وحقّق كتاب «الحسبة» (١٩٤٦).

وقد عيّن بعد الحرب العالمية الثانية مديراً لمكتبة الأوقاف (١٩٤٨) فتولّى هذا العمل أعواماً الى صيف سنة ١٩٥٨، وهجر بغداد بعد ذلك فأقام في الزبير، ثم مضى الى الكويت حيث أدركه الحمام في أواخر نيسان ١٩٦٤.

قال سليم طه التكريتي: «لقد أزاح الاستاذ الحصان عن تاريخنا العربي كلّ ما علق به من أدران، فأخرجه صافياً رائقاً يبهر الدنيا بعظمته ويثير الإعجاب بروائعه ويحظى من تقدير المنصفين من المؤرخين مالم ينله تاريخ آخر في الدنيا». ثم قال: «كانت عقيدة الحصان الراسخة وعفة نفسه ترفعه عن الدنيا والتزامه الصدق في القول والعمل من أسباب نكبته في رزقه... وكان إباؤه قد جعله يرتضي العيش الخشن ويعاني الحاجة والجوع دون أن يقبل منّة أو يسأل صديقاً».

أحمد عبد الغني الراوي

السيد أحمد بن عبد الغني بن محمّد بن حسين بن عبد اللطيف الراوي، ولد في عنة في حزيران ١٨٩٠، وكان والده مدرساً بها. وقدم الى بغداد فدرس في المدرسة الرشدية، ثم تركها وأخذ يدرس علوم العربية والدين، فتتلمذ على أخيه الشيخ محمد سعيد وعبد الوهاب النائب ومحمود شكري الألوسيّ وعباس حلمي القصاب ومحمد سعيد النقشبندي وغيرهم.

وعيّن سنة ١٩٠٩ مفتياً ومدرساً في قضاء الهندية، ونقل الى قضاء بدرة (١٩١٥) فظلّ يدرّس فيه الى احتلال بغداد سنة ١٩١٧. وأسند إليه بعد ذلك التدريس في جامع حسين باشا ودار المعلمين، ثم عهد اليه تدريس البلاغة في جامعة آل البيت (كانون الأول ١٩٢٤). ودرس الحقوق في هذه الأثناء فنال شهادتها سنة ١٩٢٥. وانتخب نائباً عن الحلة في أيار ١٩٢٨.

وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي في تموز ١٩٣٦ ثم نقل قاضياً شرعياً في كركوك (آب ١٩٣٧)، لكنه استقال بعد أمد وجيز. وعيّن مدوناً قانونياً (أيار ١٩٤٦ ـ كانون الأول ١٩٤٧).

وقد توفي ببغداد في أول آذار ١٩٦٢. كان عالماً فاضلاً صلب الرأي شديداً في المساجلة والنقاش وكاتباً له مقالات كثيرة نشرت في الصحف.

ومن شعره، وقد ظهرت براءته مما نسب إليه من التخابر مع السيد طالب النقيب بغية إنشاء حكومة عربية في عهد الوالي سليمان نظيف بك:

أرقت وســـــاورت قلبي همومي | عشيّـــة قيل هيّـــا بـــالظّلـــوم
يقلّبني الأســى ظهـــــرا لبطـن | كفعـــل الســـمّ في جســـم السليـــم
فما عثـــرت على فكـــري هنـــات | بها أدعـى، وربّـك، بـــالأثيـم...

وقال في نفي يوسف السويدي من بغداد خلال الحرب العظمى:

نـأيت عـن المنـــازل والـــربـــوع | وبنـت فبـــان قلبي عـن ضلـــوعي
منـــازل قـــد عهـــدت بها قـــديماً | حبيبـــاً لا يـــزال بـــه ولـــوعي
لها أصبـــو إذا مـــا لاح بـــرقـــاً، | وكـم أصبـــو الى البرق اللّمـــوع
ذوى روض الشبـــاب، وكـــان غضـــاً | و وخط الشيـب تخضبـه دمـــوعي...

وذكـر عباس العـزاوي أن الشيخ حسين بن عمر الـراوي، وهو أخـو الشيخ عثمان الجدّ الأعلى لأحمد الراوي، كان امام الجيش في عهد والي بغداد أحمد باشا سنة ١٧٢٤.

إبراهيم الدروبي

ابـراهيم بن عبـد الغني الـدروبي ولـد ببغـداد سنة ١٨٩٤، ودرس في معـاهـدهـا الدينيـة، وأتقن الخطّ فنسخ بيده مصنّفات عديـدة. وظف كاتباً بالمحكمـة الشرعية، وألف: البـاز الأشهب الشيخ عبـد القـادر الكيلاني (١٩٥٥) البغـداديـون أخبـارهم ومجالسهم (١٩٥٨).

توفي في مسقط رأسه في ٢ تشرين الثاني ١٩٥٩.

كانت له صلة بآل الكيلاني نقباء الأشراف ووقوف على أخبار بغداد وأسرها وعلمائها ومعاهدها، كما كان ضليعاً بالعلوم الشرعية.

وقد ألّف كتاباً في «قضاة بغداد» (مـن أبي يوسف قاضي المهدي والهادي والرشيد الى محمّد نافع المصرف)، وآخر عن نقباء بغداد، ولم يطبعا.

قال عبّاس العزاوي: وخطّـه تحفة نادرة. والـدروبي خال الأديب الـوزير مصطفى علي.

محمّد رؤوف الغلامي

من رجال التعليـم والتأليف، ينتمى الى أسرة علمية معـروفة في الموصل اشتهـر منها الأديب الشـاعـر محمـد بن مصطفى الغـلامي صـاحـب «شمّامـة العنبر» (المتوفى سنـة ١٧٧٢)، وعلي الغلامي مفتي الشـافعية، وكان أحـد المفاوضين الذين أوفـدهم الوالي حسين باشـا الجليلي سنة ١٧٤٣ الى نادر شـاه لفك الحصار عن الموصل. ولـد بالموصل سنـة ١٨٩٠. تخرج محمـد رؤوف الغلامي في دار المعلمين بمسقط رأسـه سنـة ١٩١٢

وزاول التعليم أعواماً طويلة. وواصل دراسته على علماء بلده، فنال الإجازة العلمية سنة ١٩٣٤.

سعى في العهد التركي لنشر العلم في الموصل والدعوة للحركة العربية، وثابر على نشاطه الوطني خلال الحرب العظمى الأولى وإبّان الاحتلال البريطاني وكان معتمد حزب العهد السري سنة ١٩٢٠ في الموصل. وشارك في تأسيس مدرسة دار النجاح والنادي الأدبي في سنة ١٩٢١ ــ ٢٥. وأصدر جريدة صدى الأحرار في الموصل (١٩٤٩) فواصل نشرها حتى سنة ١٩٥٤.

وقد توفي سنة ١٩٦٨.

ألف: العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي (١٩٤٢) التحفة البهيّة (١٩٤٤) المردّد من الأمثال العامية الموصلية (١٩٦٤).

ومن الكتب التي حقّقها ونشرها: الجمان المفنّد (١٩٤٠) وتخميس همزية البوصيري (١٩٤٠)، وكلاهما للشيخ محمد الغلامي، المعتقد الإيماني لأبي البقاءالأحمدي (١٩٦٢) أصحاب بدر للشيخ حسين الغلامي (١٩٦٦) الخ.

***

أخوه عبد المنعم الغلامي ولد في الموصل سنة ١٨٩٩ وتوفي عام ١٩٦٧. كان مدرّساً وألف كتباً كثيرة منها: السوانح (١٩٣٢) خروج العرب من الأندلس (١٩٤٠) مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى (١٩٤٠) بقايا فرق الباطنية في لواء الموصل (١٩٥٠) الضحايا الثلاث (١٩٥٥) أسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٦٢) جغرافية جزيرة العرب (١٩٦٢) الأنساب والأسر (١٩٦٥) ثورتنا في شمال العراق (١٩٦٦).

محمد صالح السّهروردي

من رجال الدين وأصحاب البحوث التاريخية محمد صالح بن محمد سليم بن عبد الرحمن السهروردي، وأسرته عباسية النسب سهروردية الطريقة أنجبت علماء دين وكان جدّها الشيخ محيي الدين قاضي تكريت والدور وسامراء.

ولد محمد صالح ببغداد سنة ١٨٩١ ودرس على عبد الوهاب النائب وقاسم القيسي وأسعد الدوري وغيرهم من مشايخ العصر وعيّن مدرساً في المدرسة الطبقجلية في محلة العاقولية من بغداد. وقد تولّى تدريس اللغة العربية في مدرسة الأليانس سنة ١٩٢٣. وأصدر في ٢٩ تموز ١٩٢٤ جريدة «الضاد» الاسبوعية فظهرت أمداً. وانخرط في سلك موظفي دائرة الأوقاف في تشرين الأول ١٩٢٥ فكان مفتشاً للمساجد ومديراً لأوقاف الحلة الخ. وعيّن مفتشاً للمعابد والمعاهد الدينية (ايلول ١٩٤٧) ونقل في حزيران ١٩٤٩ مديراً لأوقاف ديالى. واعتزل العمل بعد ذلك وتوفي ببغداد في كانون الثاني سنة ١٩٥٧.

وقد نشر بحوثاً تاريخية كثيرة في الصحف والمجلات، وألف: الأجوبة السهروردية (١٩٢٧) لبّ الألباب (في جزءين ١٩٣٣).

وعرف أخوه المقّدم محيي الدين بن محمد سليم السهروردي ضابطاً ونائباً. ولد ببغداد سنة ١٨٧٩ وتخرج ملازماً ثانياً في المدرسة الحربية بالاستانة (١٩٠٤)، وخدم في الجيش التركي في العراق ونجد وحارب في اثناء الحرب العظمى في ساحة الفلوجة والرمادي. إشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ـ ٢٠ واعتقل أمداً يسيراً. ثم ألحق بالجيش العراقي أوّل تأسيسه، وعيّن مديراً لشرطة لواء ديالى (نيسان ١٩٢٢). وعاد إلى خدمة الجيش ضابط ركن في الناصرية وآمراً للانضباط العسكري، وأحيل على التقاعد سنة ١٩٣١. وانتخب نائباً عن بغداد في ايار ١٩٣١ إلى ١٩٣٢، ثم نائباً عن لواء ديالى (١٩٣٩ ـ ٤٣). وكان مديراً مسؤولاً لجريدة الطريق سنة ١٩٣٣.

عمّر محيي الدين السهروردي طويلاً فتوفّي ببغداد في ٨ تشرين الثاني ١٩٧٠.

ابراهيم الواعظ

ينتمي إلى أسرة دينية حسينية النسب تعرف بآل الأدهمي، واشتهر جده محمد أمين (١٨٠٨ ـ ١٨٥٧) ابن محمد بن جعفر بن حسين بن محمود الأدهمي بالواعظ.

وكان والد ابراهيم: مصطفى نور الدين (١٨٤٧ ـ ١٩١٣) من رجال الدين المعروفين في عصره، تقلد رئاسة محكمة الجزاء في البصرة (١٨٨٠ ـ ٨٢)، ثم كان مفتياً للحلة من ايلول ١٨٨٣ إلى تشرين الثاني ١٩٠٨ حين انتخب نائباً عن الحلة في مجلس المبعوثين العثماني (١٩٠٨ ـ ١٢). وقد توفي في ٣ حزيران ١٩١٣.

ولد ابراهيم أدهم بن مصطفى نور الدين الواعظ في الحلة في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٣، ودرس في المدارس الدينية والرسمية. ورافق والده إلى استانبول (١٩٠٨) ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩١٢ وانتمى إلى مدرسة الحقوق. ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤ فأخذ جندياً كاتباً وعمل في ساحة الكوت، ثم انسحب مع الجيش التركي إلى الموصل عند احتلال بغداد ومكث فيها إلى الهدنة سنة ١٩١٨.

تابع دراسة الحقوق بعد ايابه إلى بغداد، فتخرج فيه سنة ١٩٢١، ومارس المحاماة. وانتخب نائباً عن الحلة في تشرين الثاني ١٩٣٠، ثم ناب عن اللواء المذكور للمرة الثانية من كانون الأول ١٩٣٧ إلى شباط ١٩٣٩.

وانخرط في سلك القضاء فعيّن رئيساً لمحكمة بداءة الموصل (ايلول ١٩٤٤) فرئيساً لمحكمة الاستئناف بها (حزيران ١٩٤٥). ونقل مدوناً قانونياً في ايلول ١٩٤٦، ثم أعيد رئيساً لمحكمة استئناف الموصل في كانون الاول ١٩٤٧. وعيّن مدوناً قانونياً في تشرين الثاني ١٩٥٠ وانتدب مديراً للادارة القانونية في جامعة الدول العربية بالقاهرة.

وعاد إلى بغداد في ايار ١٩٥٢ وتولى رئاسة التفتيش العدلي حتى اعتزل الخدمة في آخر حزيران ١٩٥٨ . وقد توفي بعد أيام قلائل في بغداد في ٨ تموز ١٩٥٨ .

مؤلفاته وأدبه

لابراهيم الواعظ شعر كثير وخطب ومقالات . ومن مؤلفاته : خرّيجو مدرسة محمد (الجزء الأول ، ١٩٣٧ ، الجزء لثاني ١٩٣٩) الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر (١٩٤٨) اسبوعياتي (١٩٥٠) الزّباء (مسرحية شعرية) فتح مصر (مسرحية) عبد الرحمن بن عوف ، العباس بن الأحنف ، ديوان شعر (مخطوط) المعّري كما هو لا كما عرفه الناس ، الخ .

من شعره :

أتحنو عليك قلوب الورى ... إذا حلّ رزء وخطب عرا

فكن يابس العود صلب القناة ... بعيد المنال شديد القرا

وكن رابط الجأش ثبت الجنان ... قويّ المراس متين العرى

ولا ترتجي من لئيم وفاء ... وكن كاسراً قبل أن تكسرا

ونفس الأباة تدكّ الجبال ... وشقّ على العاجز أن يفخرا

لعلّ شعر ابراهيم الواعظ ونثره يتسمان بالركاكة والخطأ اللغوي شأن الكثيرين ممّن درسوا في المدارس الدينية القديمة ، ولكن هذا النثر وذلك الشعر لا تعوزهما الأصالة والاخلاص . وقد كتب فصولاً في سيرة صحابة الرسول الكريم ضرب فيها مثلاً أعلى لأسمى صفات البطولة والتضحية والمودّة والكرم والعدالة والجرأة والدهاء ، وهي في حماستها وصدق عاطفتها تصحّ أن تكون دروساً للنشء الناهض . ولم يفته أن يصوّر الهزل والدعابة في موقعهما ، كما فعل عند الكلام على نعيمان بن عمرو الذي كان نسيج وحده بين رجال الجدّ والديانة والحرب ، حتى أضفى عنصراً من الفكاهة البريئة المحبّبة على ذلك العهد الصارم الشديد .

ومن شعره :

وطني ، بكيت شجى عليك ، ولم أزل ... أبكيك من نفسي ومن أعلاقي

وطني ، فذا قلبي يذوب وأدمعي ... تجري بحرقتها من الآماق . .

انّي إلى مصر العزيزة شيّق ... فابعث لها ولنيلها أشواقي

ولقد هويت الفضل في أرجائها ... حباً يفوق على هوى العشّاق

اني ، وحقك ، في الهوى متمصّر ... هل أنت مثلي في هواك عراقي؟

وله في ذكر الوثبة الوطنية سنة ١٩٤٨ :

هـذا العـراق، وهـذه وثبـاتـه، ودفـاعـه عن حقّـه وثبـاتـه
ان كنت تجهل صبره ونضـالـه تـأتيك بـالخبر الصحيح رواتـه
فتيـانـه لا يصبرون على الأذى والضيم لا يحملنـه فتيـاتـه
يـا هـازلاً بـالشعب، لا تهزل فقـد أعطـاك درسـاً في الحيـاة أبـاتـه

وقال في وفاء الكلاب:

الكلـب أوفى من الإنسـان في خلـق وهـو الصّبـور على الآلام والمحـن
والكلب يشكـر إذ أعطيتـه منحـاً وان منعـت فثنّـاء على المنـن
والكلـب يمنع مـولاه وسيّـده وذاك يعـدو على الأعـراض في السّكن

عرفت ابـراهيم الواعظ وصحبتـه أعواماً طـويلة، فوجـدت لديه، مجسّمـة إلى أبعد حدود التجسم، تلك الروح الغيورة الودودة التي تعتـزّ بالأدب وتحبّ الأدباء وتأخذ بيد الناشئين والمتأدبين. لقـد نشر كتاب «الـروض الازهر» وفاءً لأجـداداه وأسرته، ولا سيما لأبيـه وأخيـه إسماعيل، فجعل منه صـورة رائعـة للحيـاة الاجتماعية والأدبيـة في الأيـام السالفة. وانتخب عباس العزاوي عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، فلما رأى رجال الأدب والتاريخ متقاعسين عن الاحتفاء بـالرجلِ الذي سجّل عصور العراق وأحداثـه في سلسلة كتب تعجـز عن اخراجهـا المجامع بَلْـهَ الأفراد، نشط إلى تكـريمه باسم نقـابة المحامين. وأمضى في الموصل سنـوات، فأوجد ندوة أدبية وشعـرية وخلق حركـة جميلة بالرغم من ضحـل أدبها ودورانها في حلقةمفرغة. وكـان كثيراً ما يكتب إليّ ويكتب إلى غيري في بغـداد يسأل معـارضة «يـا ليل الصبّ» أو تشطير أبيـات أو نظم شعـر في موضـوع يقترحه، لتـلاوته في النـدوة العمـرية ووصل تيّـار الفكر بين الـزوراء والحدباء.

وسافر إلى القاهـرة للعمل في ادارة الجامعة العربية، فاتصل بـالشعراء والادباء وكان همزة الوصل بينهم وبين زملائهم في العراق. ثم اشترى عشرات النسخ من ديوان محمد الأسمـر وغيره، فأهـداهـا إلى أصـدقـائه في بغـداد ودعـاهـم إلى مـراسلـة أصحـابـه المصرّيين...

أما تشجيعه للناشئة وشداة الأدب فـالكثير من الشباب يذكرون يده البيضاء عليهم ويحمدون لـه وساطته لتوظيفهم وتـرفيعهم أو طبع آثارهم أو ارسالهم في بعثـة دراسية. وكان مجلسـه في داره ومكتبه على السّواء منتـدى ترى فيـه رجال الأدب والفضل وتسمع أحاديث الشعـر المحبّبة إلى النفوس. لقد كـان فوّار الحماسة، دائم الابتسامـة، شديد الاخلاص، فمهما تأزمـت الأمور وتعقدت، كنت مـوقناً أن تحظى لـديه بما تـريده من بشاشة ومشورة ومعونة وتفهّم.

كان المرض يترصّده ويتربّص به الدوائر، فلم يكد يعتزل العمل الحكومي ويتطلع إلى حياة الدعة والهدوء، حتى اغتاله الموت بلا مهلة ولا انذار، وطوى سيرته خبراً من الأخبار. وماذا أقول فيه الا أن أردّد أبيات عبدة بن الطبيب التميمي:

عليك سلام الله، قيس بن عاصمٍ، ورحمته ما شاء أن يترحّما
تحيّة من غادرته غرض الرّدى إذا زار عن شحطٍ بلادك سلّما
فما كان قيس هلكُه هُلك واحد ولكنّه بُنيان قومٍ تهدما

وقد رثاه خاشع الراوي، قال:

أفراق إلى أمد أم رحيل إلى الأبد؟
أفل الكوكب الذي شعّ بالأمس واتقد
وخبا ذلك السّنا والمنى أصبحت بدد

محمد سعيد الجليلي

ينتمي إلى الأسرة الجليلية المعروفة وهو محمد سعيد بن حسين آغا آل عبيد آغا الجليلي، ولد بالموصل سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها وشغل وظائف حكومية مختلفة، وكان كاتباً في مجلس النواب. وقد برز بين كتّاب الشباب بعد الحرب العظمى الاولى، ووضع كتباً منها: الأناشيد الموصلية للمدارس العربية (١٩١٤) كيف نجد السعادة (١٩٢٤)كيف يرقى العراق (١٩٢٤) خواطر ويوميات في مشاريع مجلس الاعمار (١٩٥٤) من صميم الواقع (١٩٥٦).

أدركته الوفاة سنة ١٩٦٣.

محمد بهجت الأثري

الأديب العالم الشاعرمحمد بهجت الأثري، وهو ابن التاجر محمود بن عبد القادر بن أحمد بن محمود، وأصل أسرته من عرب ديار بكر، هاجر جدّه الثاني أحمد إلى أربيل ثم استوطن ببغداد وزاول التجارة فيها.

ولد في بغداد في تشرين الأول سنة ١٩٠٢، ودرس في المدارس الرسمية ومدرسة الأليانس الأهلية، ثم عيّن كاتباً في ديوان محكمة الاستئناف وهو دون سنّ التوظيف. ومال إلى دراسة الثقافة الإسلامية والادب العربي فلازم علي علاء الدين الألوسي ومحمود

شكري الألوسي وتخرج عليهما في علوم اللغة والتاريخ والتفسير والحديث والأصول والمنطق والحكمة الأهلية.

بدأ بالكتابة في الصحف البغدادية ثم تولى تحرير مجلة «البدائع» الاسبوعية سنة ١٩٢٥، وعين في الوقت نفسه مدرساً في مدرسة التفيّض الأهلية. وانتدب في السنة التالية مدرساً في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد فثابر على التدريس فيها عشر سنين. وقام بسياحة في البلاد العربية وتركية واليونان سنة ١٩٢٨، ثم عاد وساهم في تأسيس جمعية الشبان المسلمين وتولى بعد ذلك رئاسة تحرير مجلتها «العالم الإسلامي».

وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣١. واشترك في المؤتمر الإسلامي العام المعقود في القدس الشريف في كانون الاول ١٩٣١، فألقى في حفلة الافتتاح قصيدة مطلعها:

لمن الوفود تفيض فيض الوادي ملء الحمى منها وغصّ النادي
ألقت بثالثة العواصم رحلها لجلاد غائرة ورمّ فساد

وعيّن في تموز ١٩٣٦ مديراً لأوقاف بغداد فمفتشاً في وزارة المعارف (١٩٣٧) إلى تشرين الأول ١٩٤١ حين فصل من وظيفته واعتقل في الفاو والعمارة وسامراء ولم يطلق سراحه إلا في آب ١٩٤٤. وقد أعيد تعيينه مفتشاً بوزارة المعارف (نيسان ١٩٤٨)، ثم أصبح استاذاً في دار المعلمين العالية (تشرين الأول ١٩٥٦) فمديراً عاماً للاوقاف من تموز ١٩٥٨ إلى شباط ١٩٦٣.

وانتخب عضواً في لجنة الترجمة والتأليف والنشر العراقية سنة ١٩٤٧، فعضواً في المجمع العلمي العراقي عند تأسيسه (كانون الثاني ١٩٤٨). وانتخب نائباً ثانياً لرئيس المجمع (نيسان ١٩٤٩)، فنائباً أول للرئيس (تشرين الأول ١٩٥٣) إلى حلّ المجمع في حزيران ١٩٦٣. واختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة عضواً مراسلاً له (ايار ١٩٤٨) فعضواً عاملاً في آذار ١٩٦١.

مؤلفاته:

لمحمد بهجت الأثري مؤلفات عديدة منها: أعلام العراق (١٩٢٧) المجمل في تاريخ الأدب العربي (١٩٢٩) تهذيب تاريخ مساجد بغداد (١٩٢٧) المدخل في تاريخ الأدب العربي (١٩٣١) مجموعة رسائل عبد المحسن الكاظمي (١٩٤٦) وضّاح مأساة الشاعر متبادلة مع أحمد حسن الزيّات، ١٩٣٥) الاتجاهات الحديثة في الإسلام (١٩٥١). وله مقالات وبحوث عديدة نشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي وسائر المجلات والصحف العربية.

وله: محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية (١٩٥٨)، وهي محاضرات ألقيت في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة، الآلة والأداة (١٩٦٢) ملامح وأزهار (شعر، ١٩٧٤).

نشر وحقق معظم مؤلفات شكري الألوسي ووقف على طبعها، منها: كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (١٩٢٤) تاريخ نجد (١٩٢٥) الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر (١٩٢٣) عقوبات العرب في الجاهلية، رسالة المسواك.

وحقق كتباً كثيرة من التراث العربي، منها: مناقب بغداد لابن الجوزي (١٩٢٤) كتاب الكتّاب للصولي (١٩٢٣) ولوح الحفظ في حساب عقد الاصابع (لعبد القادر ابن شعبان)، وكتاب النغم لابن المنجم (١٩٥٠) وبعض أقسام خريدة القصر وجريدة العصر. واشترك في ترجمة كتاب الخطاط البغدادي ابن البوّاب (عن التركية) (١٩٥٨) كما اشترك في وضع كتب مدرسية منها: الأساس في تاريخ الأدب العربي (في جزءين)، ديوان الأدب (في ستة أجزاء)، المطالعة العربية (في ثلاثة أجزاء)، القراءة العربية (في أربعة أجزاء) الخ.

وله ديوان شعر طبع في القاهرة سنة ١٩٧٤، ومن مصنفاته المهيأة للطبع: شيخ الإسلام عارف حكمت، عماد الدين القرشي الاصبهاني الكاتب، شرح مقامات ابن ماري الطبيب المصري، أشهر مشاهير العراق، الردّ على الشعوبية ونقض كتاب المثالب لابنَ الكلبّي، ديوان ظلال الأيام، ديوان وراء الأسلاك الشائكة، الأدب المعاصر في العراق الخ.

شعـره:

الأثري الشاعر ذو ديباجة مؤنقة جزل العبارة نقيّ الأسلوب، وقد نظم في المواضيع الوطنية والإسلامية والوجدانية.

قال يتلهف على وفاء الأصفياء:

صبوت، وهل في الناس مثلك من يصبو، ... وهل منزل اللذات يعمره الحبّ؟
مضت بالذي تهوى المقادير فاختفى ... فلا كرم يبدو لعين ولا صحب
وقد فاتك الحظ الذي أنت طامح ... إليه، وأقصتك المودة والقرب
فواعجباً كيف السبيل إلى العلى ... إذا كان حظّ الناصح المنع والحجبُ؟
وكيف يرجّى أن ينال مغامر ... منىً عقدت بالنجم أوضاحها الشّهب
كأن مسير الحظ عكس مسيره ... فوجهة ذا شرقٌ ووجهة ذا غرب

وقال يصف الطبيعة في الريف العراقي:

تملَّ من الحسن في الضاحية ... وحيّ بها العيشة الهانية
متاع الحياة وريحانها ... ومبدى مباهجها الزاهية
هدوء كما يبتغي المتعبون ... سجو على اليقظة البادية

يد الله قد باركت أرضها … ووشت خمائلها الحالية

وألقت من السحر في حسنها … أرق من السحر في الجازية

أصيل الملامح لا لونه … الدهان ولا طيبه الغالية

ولكنه وشي خلاقه … وروح رياحينه الزاكية

وقال في فيضان دجلة:

يا نوح، قم دارت بنا الأزمان … عبد الهوى وتجدّد الطوفان

قد غبت عنه فأين منك سفينة … يا نوح، يفزع نحوها الإنسان؟

كانت ملاذ اللاجئين، ومالنا … يا نوح، ما ينجو به الحيران...

من عاصم للخلق من متوعّد … جاشت غواربه وهنّ رعان

البّر عاد به عباباً ثائراً … كالشعب حرّق غيظه الطغيان

غطّى الأديم فليس إلا ماؤه، … أرأيت بحراً ما له شطآن؟

فإذا سجا خرق القلوب تفزعاً … وإذا تحرّك زاغت الأذهان

غرثان وهو يكاد يبتلع الدّنى … وكأنما أمواجه الحيتان

هو والسماء كلاهما متغضّب … متفجّر وكلاهما هتّان

باتا على وعد، فليس بمنقضٍ … يوم إذا ما لم يكن حدثان

والنّوء يأتي بالصواعق منذراً … ومن العواصف مارج ودخان

وكأنما بغداد في أثباجه … فلك ولكن ما له ربّان

ومن رقيق شعره في الفراشة:

أفراشة الروض المنّور، شاقني … ثوب كنور الروض زانك منظرا

نفضت عليه الشمس مذهب لونها … ووشى الربيع رداءه المتخيّرا

حسن يموج على الفضاء منشّراً … أنّى يمور بك الجناح تموّرا

كأخي الصبابة، وهو يتبع قلبه، … من بات رهن غرامه أنّى جرى

ما أنتِ؟ هل طير يرفرف في السّنا، … أم وردة سكرى ترفّ تفترّا؟

أم من جنان الخلد روح ناسم … شاقته أطياف الحبيب فأبكرا؟

روحي، كروحك، بالصبابة هائم … يصل الأحبّة رائحاً ومبكّرا

ولهان يبعثه الهوى متذكراً … أبداً، ويطلقه الخيال مشمّرا

يسري أرقّ من النسيم بسحرة … ويرفّ أنظر من نباتٍ نوّرا

طرباً إلى وجه الحبيب، وانما … يشتاق من صدق الصبابة مخبرا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر المتوفى سنة ١٩٢٧ :

جـلّ الأسـى فلكـلّ نفـس مجزع وكـأنما في كـل بيـت مصرع
شمل المصـاب فما القـريب بـداره أبكى مـن النـائي الـديـار وأجـزع
الأرض دانيهـا وقـاصي ربعهـا لبست ثيـاب مـآتم لا تخلع
فمن الليـالي الحالكـات سـوادهـا ومـن الثكـالى الموجعـات الأدمع
ومن النـوادب شجـوهـا وأنينهـا ومـن الصـوادي قلبهـا المتقطّع
مـا كـان سعـد غير سعـد بـلاده ورجـاء أمّتـه التي تتطلّع
أفيـوحش الأوطـان وهـو أنيسهـا ويضيّع الخلّان وهـو مجمّع؟
أسفـي على سعـد، وكم مـن ميّت يمضي ولست لموتـه أتـوجّع
مـا إن رأيت كمثلـه من مخلص لبـلاده ومجاهـد لا يهجع
بطـل لـه في كل يـوم حـادث يعلي إلى العليـاء مصر ويـرفع

ثم يقول :

يـا مصر، إنّك للعـروبـة مـوئل وعلى يـديك نجـاحنـا متـوقع
سيري على النهج القـويـم وجـدّدي صرح العـروبـة إنـه متضعضع
وتجنّبي التقليـد في تشييـده انّ المقلّـد مفسـد لا يبـدع
من رام حكـم الـذات وهـو مقلّـد للغـاصبين فـإنـه لمضيّع . . .
بـؤسـاً لأوطـان يسـود بها الألى أوطـانهم صـارت بهم تتهـوّع
انّ الـدخيل إذا أقـام ببلـدة ثـارت بها فتن وهبّت زعـزع
فتبصّري فـالشرق خلفـك سـائر وإذا عثـرت فعـاثـر هـو أجمع

وقال محمد بهجت الأثري من قصيدة في رثاء إمام اللغة أحمد تيمور باشا :

يـا نـاعيـاً من مصر خير سراتها، أعلمـت أنك قـد نعيت النيّـلا؟
الخطب مضّـاض، فهـلّا كنت ذا رفق بنقـل الفـاجعـات بخيـلا؟
فلقـد سرى نبـأ المصـاب كما سرى سمّ يـدبّ إلى القلـوب فعـولا . .
إنّ المصـاب بمثـل «أحمد» إنّما يـذر النفـوس تسيـل منـه مسيـلا
علم رعـى الفصحى وأحيـا مجدهـا وأحلّهـا فـوق اللّغـات مقيـلا
نشراً وتحقيقـاً وكشف غـوامضٍ وبيـان أسرار يـرعـن عقـولا
بـراً بها وبأمّـة مغلـوبـة فقـدت سـواهـا الثغـر والأسطـولا

أعيد تعيينه عضواً بالمجمع العلمي العراقي على أثر اعادة تأليفه في مايس ١٩٧٩ .

وانتخب سنة ١٩٨٠ عضواً بأكاديمية المملكة المغربية . ومنح جائزة الملك فيصل السعودي للأدب العربي سنة ١٩٨٦ . ثم منح في كانون الأول ١٩٨٩ جائزة صدّام (حسين) للانتاج الأدبي الموسوعي .

أحمد حامد الصراف

لو كان للصداقة مساوىء ـ والصداقة كلها فضائل ومحاسن ـ لكان من مساوئها أنها تمنع الصديق من إيفاء حق صديقه والإشادة بذكر محامده وشمائله ومزاياه . وماذا عساي أقول في الصديق الكريم الأديب الألمعي والمحدث الساحر والراوية اللبق ذي الذوق الأنيق والطبع الرقيق الأستاذ أحمد حامد الصراف وكيف أصف عذوبة حديثه وإشراق ديباجته وصفاء جهيرته وسريرته؟

أحمد حامد الصراف شخصية ذات جوانب متعددة : فهو حقوقي بارع شغل وظائف إدا رية وقضائية كثيرة وجاب معظم ألوية العراق رسولاً للعدالة ، وهو أديب يصول قلمه ويجول ، ضليع بآداب العربية والفارسية والتركية وله حافظة قوية تختزن بدائع المنظوم وروائع المنثور، وهو باحث محقق أولع بأخبار المتصوفة والدراويش وأرباب الطرق واستقصى سيرهم وآثارهم ، وهو بعد كل ذلك رجل إنساني ذو عاطفة ملتهبة تتوقد وتتمرد وتثور، وله قلب شديد الخفقان يفيض باللوعة والحنان ودمع سريع الهميان يرثي لحال الانس والجان .

أول ظاهرة تجذبك الى الصراف أناقة ملبسه فهو يعتني بهندامه أشد العناية ويشدّ رباط رقبته شداً خاصاً ويهيم بالمسابح والفصوص والعطور. عرّف الظرف في العهد العباسي المتأخر فقيل «من تختّم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق (لاتعذليه فإن العذل يولعه . . .)» فقد استكمل الظرف . ولا ريب أن الصراف يعتبر ظريفاً في عرف هذا القياس . وقد خلّد لنا التاريخ أديبين كانا يتأنقان بملبسهما وإنشائهما على السواء أولهما بوفون الفرنسي قائل الكلمة المأثورة «الأسلوب هو الرجل» ، والآخر الكاتب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي «صاحب النظرات والعبرات» . ولا يقل الصراف عنهما أناقة في ملبسه وكتابته .

وصديقنا الصراف كما قلنا رجل عاطفي إن تذكر له حادثة مشجية أو أمراً مؤسياً لتستثير كوامن لواعجه وتمس من قلبه وتراً حساساً . وقد بلي قبل ربع قرن بوفاة أمه التي يكنّ لها أسمى معاني الحب والحرمة وبلي قبل سنوات بوفاة خالته وأخيه محمود فسكب عليهم الدمع الغزير ولا يزال كلما ذكرهم يردد الحسرات والزفرات . أما أبوه الحاج

موسى فقد فجع به وهو غلام يافع فظل في ذهنه مثالاً للرجولة والمروءة وسموّ النفس .

إن توقد عاطفة الصراف وإرهاف حسّه قد دفعه - على ما أعتقد - الى حبّ التصوف وأصحابه فدرس الخيام والحلاج وأضرابهما وتتبع أخبار الدراويش والغلاة وشدّ الرحال الى إيران بحثاً عن شؤونهم وآثارهم . وكتب اليّ ذات مرة من كركوك - وهو آنذاك حاكم بداءتها - يقول أنه عثر على ديوان مولانا خالد النقشبندي (شيخ الطريقة المبجّل في شمالي العراق المتوفى في دمشق سنة ١٨٢٧) فهو منصرف إليه مكبّ عليه منشغل به عن كل ما عداه .

فكتبت إليه من أبيات :

وجد الاستاذ شعر النقشبندي	فتناسى حافظاً جامي وسعدي
وارتضاه دون أهل الودّ خلاّ	واصطفاه إلف إغراق ووجد . . .

والصراف يحب شخصيات تاريخية كثيرة في مقدمتها الامام علي والسيد المسيح . فهو يحب في علي البطل الصنديد والرجل العادل النبيل فيفيض في ذكر محامده ويتمثل بالأبيات الشهيرة :

حب علي بن أبي طالب	أحلى من الشهد الى الشارب
لو فتشوا قلبي لألفوا به	حرفين قد خطّا بلا كاتب
العدل والايمان في جانب	وحب آل البيت في جانب

ويحب في يسوع اللطف والطيبة والوداعة ويرى في خطبة الجبل أسمى تعبير عن المحبة الإنسانية والأخوة البشرية . إن الصراف يدين بدين الحبّ فهو يكاد ينطق بلسان محيي الدين ابن عربي هاتفاً :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمسرح أظباء ومرعى لغزلان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنىّ توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

والصراف ذكي الى حدّ الإفراط وهو يعلم ذلك ولا يصطنع التواضع في الإشارة الى ذكائه . وقد قال ذات يوم : سبحان الله فاطر السموات والأرضين ، خلق أخوين لأب وأم فخصّ أحدهما بالذكاء الفارط وجعل الثاني في الحضيض الأوهد من البلادة والغباء . . . وقيل إن عمر بن الخطاب كان إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد!

ويمكن القول إن ذكاء الصراف قد جنى عليه فدعا الى فصله من الوظيفة مرتين : ففي المرة الأولى عيّن أديبنا سكرتيراً لإحدى القنصليات العراقية في ايران ، وبدلاً من أن

يشخص الى بلد الفردوسي وسعدي طلب إجازة وسافر الى ربوع الشام. وفي ذلك الصيف نفسه مضى الى الاصطياف نفس القنصل الذي عيّن الصراف سكرتيراً له فالتقى هناك الرئيس والمرؤوس. وكان القنصل رجلاً عظامياً كبير المقام قليل الكلام، وكان السكرتير الأديب ينتقل في سورية ولبنان من ناد الى ناد ومن مجلس الى مجلس فيلقي المحاضرات ويأسر الألباب بأحاديثه ولطائفه ومحفوظاته ولا ينسى في أثناء ذلك أن يقدم رئيسه الصامت بعبارات التفخيم والتبجيل، حتى إذا ما انتهى موسم الصيف وعاد القنصل وسكرتيره الى العراق ذهب الأول الى مقرّ منصبه في إيران وآب صاحبنا بالفصل والحرمان.

وفي المرة الثانية ـ وبعد زهاء عشر سنين ـ جمح بالصراف حصان اللسان فقال في نشوة الحديث «ثلاثة في العراق لا يعرفون كتابة سطرين متصلين، وصرّح بالأسماء فإذا ثالث الثلاثة الوزير الذي يعمل صاحبنا في وزارته. وسرعان ما نمي الخبر الى الوزير الخطير فلم يغمض له جفن حتى أطلق المتكلم من قيد الوظيفة.

وأحمد حامد الصراف محدث لبق تسعفه ذاكرته بمئات الشواهد والقصص والروايات والأشعار. وله منطق عذب وخيال خصب يوسع لحديثه الآفاق ويسبغ عليه صفات الامتاع والإشراق. ولعله من النفر القليل الذي يحفظ النثر فيروي المقدمات والفصول بطريقة فذة. أما روايته للشعر فتختلف باختلاف مزاجه: فإذا رغب في مدح الشاعر ورفع شأنه روى شعره بأسلوب ساحر خلاب يضفي عليه معاني اللطف والرواء، وإذا شاء غير ذلك روى الشعر بأسلوب هازل لاذع يحط من قيمته وينزل به الى دركات الابتذال والاسفاف.

والصراف يلمع في المجالس والدواوين فيأخذ بمجامع الحديث ويستهوي النفوس والألباب. وقد حدث مرة أن اجتمع نادي القلم في إبّان عزّه لسماع محاضرة للصراف في الدراويش. وكان الاجتماع حافلاً برجال الفضل والقلم، وقد حضره بدعوة خاصة سرب من المعلمات اللبنانيات. لم يكد الصراف يمضي في إلقاء محاضرته حتى نسي أنه في مجلس علم وأدب وخال نفسه متصدراً نادياً من أندية مدام ريكامييه الجميلة أو مدام دي ستال الذكية الفطنة فترك النصّ المكتوب جانباً. وأخذ يفيض في حديث الدراويش ويروي نوادرهم وأخبارهم وينشد أشعارهم وأذكارهم والعيون متطلعة إليه والاسماع مصغية والاعناق مشرئبة.. وإذا بصوت يشق السكون الشامل، ذلك صوت الصديق الاستاذ عباس العزاوي يقول: «يا أبا شهاب، ليست هذه محاضرة بل هي «تكويكات». فما كان من أبي شهاب إلا أن مد يده الى جيبه وأخرج ورقة نقدية قدمها الى أبي فاضل وقال: «هاك ديناراً و «كوّك مثلها»، وضجّ المجلس بالضحك.

كان الصراف في صدر شبابه يحضر مجالس الأدب والفضل في بغداد ويصيخ بسمعه الى أحاديث الشيوخ وأرباب الكمال. وقدم بغداد الشيخ عبد العزيز الثعالبي

فأصبحت داره ندوة يقصدها الناس كبيرهم وصغيرهم يحفون بالزعيم الوطني التونسي ويلتقطون نفثات علمه الزاخر وقريحته الوقادة .

قال الصراف : كان الشيخ رحمه الله يعلم جميع العلوم حديثها وقديمها ويتصرف في فنون القول ، غمر البديهة حلو البيان مطواع اللسان ثابت الجنان لا يردّ سائلاً ولا يعفي من التعقيب قائلاً . قال الصراف : فعجبنا لأمره كيف لا تعجزه مسألة ولا يعييه موضوع وقلنا : لنمتحننّه امتحاناً عسيراً . وأزمعنا أمرنا أنا وبعض رفاقي من أدباء الشباب فمضينا الى منتداه الحافل وجلسنا نصغي بأدب ووقار حتى إذا ما سنحت الفرصة تنحنحت وقلت : «يا أستاذ ، سمعنا بكتاب نفيس مخطوط اسمه «قلائد النحور في بدائع وشي المنظوم والمنثور» لابن بيكال النباري (أو ما جرى مجرى ذلك من الاسماء التي اتفقنا على تلفيقها) فهل وقفتم عليه في سياحاتكم وتحقيقاتكم؟ ولم تطرف للشيخ عين بل أجاب على البداهة : أجل . إن هذا مخطوط جليل القدر وقد وجدت نسخة منه في مكتبة الاسكوريال في مدريد وأخرى في مكتبة الفاتيكان ومؤلفه أندلسي فاضل من أبناء القرن السابع الهجري . . .) وأفاض في ذكر سيرة المؤلف وفحوى المؤلف حتى حسبنا أنه يقرأ في كتاب مفتوح . وقمنا وقد أيقنا أن للشيخ على جلالة قدره وجزالة فضله قريحة تسعفه حيث يعجز العلم وقلنا لعله خلط مخطوطنا بآخر مما وقف عليه ونظر فيه من وفير المصنفّات . والله أعلم .

وقد لازم الصراف جميل صدقي الزهاوي أعواماً طويلة وروى أخباره وأشعاره وكتب عنه صفحات ممتعة . ورافقه سنة ١٩٣٤ الى طهران لحضور مهرجان الفردوسي . لقد أقامت الحكومة الايرانية احتفالاً عظيماً بالذكرى الألفية للشاعر الفردوسي . وفي الحفلة الكبرى التي شهدها رضا شاه بهلوي وأركان دولته والعلماء القادمون من مختلف بقاع المعمورة ألقى شاعر العراق قصيدة باللغة الفارسية أشاد فيها بذكر شاعر الأمة الايرانية ورفع منزلة الملك البهلوي الذي عرف قدر الفردوسي أكثر من معاصره الملك محمود الغزني . وكان لهذه القصيدة وقع عظيم حتى أن رئيس وزراء ايران لم يتمالك نفسه عندما فرغ الزهاوي من الإنشاد أن سحب يده وقبلها على ملأ من الحفل . قال الصراف «كان ذلك يوم الزهاوي المشهود هنأه الشاه واحتفى به الناس . فلما عدنا الى الفندق دعاني الشاعر الشيخ وقال «يا ولدي أحمد ، هل رأيت رئيس الوزراء يقبل يدي؟ قلت «نعم يا استاذ ، وقد رأى ذلك كل من حضر الاحتفال . فقال الزهاوي «احفظ ذلك جيداً يا ولدي أحمد لترويه في بغداد ، فأنت شاهدي الوحيد هناك فلتؤد الأمانة ولتوف بالعهد» .

واتصلت أسباب المودة بين الصراف والشاعر التركي الفيلسوف الدكتور رضا توفيق . فلما جاء الدكتور رضا الى بغداد في أوائل سنة ١٩٤٠ بدعوة من صديقه الاستاذ الجليل محمود صبحي الدفتري وزير العدلية آنذاك وحلّ ضيفاً على الحكومة العراقية حفل مجلسه في فندق زيا بالزوار من مختلف المشارب والطبقات . كان الدكتور رضا توفيق

يتحدث بلغات متعددة شرقية وغربية ويخوض في مواضيع شتّى من الفلسفة والطب والتاريخ الى الموسيقى والشعر والأدب والتصوف. وكان يحب أن يستأثر بالحديث دون جلاّسه ـ ولعله لم ينفرد بهذه الصفة بل شاركه فيها أحمد حامد الصراف نفسه ـ فإذا جرى بحث موضوع من المواضيع، تسلّمه الدكتور رضا فتكلم عنه ووفاه حقه باللغة التركية مثلاً ثم أعاد الحديث نفسه باللغة الانكليزية أو الفرنسية أو العربية الفصحى لفائدة من يعرف إحدى هذه اللغات من الحاضرين. وكنّا نحضر مجلس الدكتور رضا توفيق مع الصراف والصديق الدكتور مصطفى جواد وسرعان ما صار الصراف يتهرب من حضور هذا المجلس الذي قطع عليه صاحبه سبل الكلام. ثم سافر الدكتور رضا توفيق وسمح له بالعودة الى تركية التي زايلها عشرين سنة أو أكثر وأدركته منيته فيها، فكتب الصراف صفحات مشرقة عن الأديب التركي الكبير نشرتها صحيفة «الزمان» البغدادية في شهر آذار ١٩٥٧. وكان قد كتب عنه فصولاً حيّة قبل نحو من ربع قرن في ملحق «البلاد» الاسبوعي.

وارتبط الصراف بوشائج المودّة وصلات الأدب بشعراء البلاد العربية وأدبائها، وفي طليعتهم بشارة عبد الله الخوري المعروف بالأخطل الصغير الذي حيّاه قائلاً:

بدأ الكأس وثنّى	وسقى الشعر فغنّى
طائر من دجلة	الخلد الى لبنان حنّا
كم لسحر الشرق في عينيه	من معنىً ومعنى
كلّما أنشد قلنا	عمر الخيّام معنا
ينثر الأنس على المجلس	من هنّا وهنا
يا رسول الأدب العالي،	سلام الشعر عنّا
قل لبغداد، متى	عدت الى بغداد، إنّا . . .

إن الصرّاف شجاع مقدام وقد روى عن نفسه أنه استدرج أحد أصدقائه من الأدباء الى بعض البساتين النائية وأوسعه لكماً وضربا لتناوله بالنقد اللاذع المرّ كتاب «عمر الخيام» عند صدور طبعته الأولى. ومن ذكريات الصبا التي حدثنا عنها أنه اتفق مع نفر من رفاقه التلاميذ على التغرير بأصحاب الحمير الذين كانون يقومون في بغداد القديمة بدور أرباب سيارات الأجرة.

كانت بغداد في ذلك العهد البعيد تنتهي عند باب «المعظم». فإذا أراد امرؤ أن يذهب الى الأعظمية وقف عند الطاق في آخر محلة الميدان واستكرى حماراً يركبه ليقطع به الطريق الضيقة الممتدة بين البساتين الى جامع الإمام الأعظم. وجاء الفتى أحمد واصدقاؤه فاستأجروا الحمير، ولم يكن أصحابها يرسلون أحداً مع دوابهم لأن الطريق واحدة لا تنحرف يميناً ولا شمالاً بل تنتهي حيث يكون رفاقهم الذين يتسلمون الحمير

من الراكبين في ساحة الأعظمية ويؤجرونها ثانية الى المسافرين الى بغداد. لكن فتياننا المكارين الأبرياء أوقفوا الحمير في منتصف الطريق وسحبوها سحباً في داخل البساتين الى ساحل دجلة وعبروا بها في «قفة» الى الجانب الغربي حيث تركوها ترعى في الحقول حرة طليقة... وظلّ الحمّارون أياماً طويلة يبحثون عن دوابهم التي لم تصل الأعظمية ويتساءلون أين ضلّت سبيلها.

لكن الصراف يخشى ركوب الطيارة ولم يستطع أصدقاؤه أن يحملوه على السفر جواً واستنفدوا في ذلك وسائل الإغراء والإقناع فكأنه يقول بلسان أحمد شوقي:

أركب الليث ولا أركبها   وأرى ليث الشّرى أوفى ذماما

وقد استطاع الدكتور مصطفى جواد مرة أن يزين له السفر بالطيارة مسافة قصيرة من بيروت الى دمشق. فلما ارتفعت بهما سفينة الفضاء أخذ الصراف يبسمل ويحوقل ويتعوذ ويخاطب نفسه قائلاً: «يا أبا شهاب، ما حملك على ركوب هذا المركب وترك الأرض الثابتة وكيف تأمن على نفسك فوق الغمام؟... فلما وصلت الطيارة الى الشام وهبط الأستاذ في المطار بسلام جسّ الأرض الثابتة تحت قدميه وحمد الله مقسماً ألا يعود الى التصعيد في الفضاء. وكذلك حرم رواد الفضاء الكوني من أمثال غاغارين وشبرد سلفاً زميلاً لهم لن يغريه مغر بالانطلاق في الصواريخ وارتياد مجاهل الكواكب والأقمار.

ولقد حدّثنا الجاحظ عن أعرابيّ شيخ أركب فيلاً، فلما علاه صاح: الأرض، الأرض... وأنزل فقال منشداً:

وما كان تحتي يوم ذلك بغلة   ولكنّ تحتي من رفيع السّحائب

ودعي الصراف قبل سنين عديدة الى دورة ضباط الاحتياط وهو آنذاك مفتش عدلي فكتب اليّ من مقره في وزارة العدلية في ١٦ أيلول ١٩٣٩ يقول: «أنا يا أخي في كرب عظيم ومحنة ما بعدها محنة. إن الكاشحين الحاقدين غمزوا قضية إعفائي من دورة الاحتياط، فتجدد الخطب وما زلت أعانيه، ولست أدري ماذا ألاقي في هذه الأيام التي شوّه جمالها هتلر ألف لعنة عليه...

«سأزوركم يوم الخميس إما مودعاً إياكم وذاهباً الى دورة الاحتياط وإما ناجياً من هذه المحنة. لئيم ونذل من يقصّر في خدمة بلاده. لكن أين أنا من القراع والصراع والكفاح وحمل السلاح؟ لقد أصابني الأرق منذ ليال وفي استطاعتي الآن أن أرسم خريطة السماء...».

ولم يكن من الأمر بدّ فمضى أحمد حامد الصراف الى الدورة وكان معه في التدريب الدكتور مصطفى جواد وفريق آخر من الأدباء والمحامين. وأوكل بهم عريف شديد صارم فكان يوقظهم قبيل الفجر ويتولى تعليمهم الرياضة والهرولة والجري والرمي،

ذلك العريف الذي ابتلى به معهما مصطفى علي فقال :

ودّعت عقلي وآرائي وتفكيري   وسرت طوع عريف الجيش عاشور

وضاق أصحابنا بالأمر ذرعاً فلم تمض أيام قليلة حتى أعفي الصراف لتصحيح سنّه وأعفي مصطفى جواد لإصابته بالتهاب في العصب فانصرف الأديبان الى البحث والدرس والتحقيق والتنميق .

الصرّاف : حياته

ولد أحمد حامد في كربلاء سنة ١٩٠٠ ، وكان أبوه الحاج موسى بن أحمد من ضباط الدرك العثماني وأصله بكتاشي ، أما أمه فامرأة كريمة من أهل المسيّب . ونشأ أحمد في الحلة وبغداد حيث تنقل والده بحكم وظيفته ، ثم توفي عنه وهو صبّي في نحو العاشرة فكفلته أمه وكانت من فضليات السيدات الحافظات المتكلّمات . ولج أحمد حامد المدارس الرسمية ، وعلى أثر الاحتلال الانكليزي ، إلتحق بدورة للمعلمين وعيّن بعد نجاحه فيها معلماً في مدرسة البارودية في بغداد (شباط ١٩١٨) . ولم يلبث أن نقل في السنة نفسها معلماً في مدرسة الحلة فمديراً لمدرسة علي الغربي (١٩١٩) فمدير مدرسة الحلة (١٩١٩) فمدير مدرسة كربلاء (١٩١٩ ـ ١٩٢١) . ونقل في سنة ١٩٢٢ مدرساً في المدرسة الثانوية في بغداد فكاتباً في دائرة نائب مدير المحاسبات العام (١٩٢٢) فكاتباً في دائرة خزينة بغداد (١٩٢٣) . وانتمى في الوقت نفسه الى مدرسة الحقوق (١٩٢٢) وتخرّج فيها سنة ١٩٢٦ .

نقلت خدماته سنة ١٩٢٣ الى وزارة العدلية فعيّن كاتباً فيها فملاحظ التحرير (١٩٢٦) فمدير المطبوعات في وزارة الداخلية (أيلول ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠) فملاحظ مكتب المطبوعات حين خفضّت درجة المديرية نفسها (١٩٣٠) . وصحب توفيق السويدي في تموز ١٩٢٨ الى مؤتمر جدّة المعقود مع الملك عبد العزيز آل سعود سكرتيراً للوفد العراقي . ونقل بعد ذلك سكرتيراً لقنصلية العراق في كرمنشاه (١٩٣٠) لكنه استقال وامتهن المحاماة .

وأعيد تعيينه مدعياً عاماً للواء البصرة (ك أول ١٩٣٣) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (آذار ١٩٣٦) فنائب المدعي العام في الموصل (ك ثاني ١٩٣٧) فمفتشاً عدلياً (آذار ١٩٣٩) حتى ألغيت وظيفته (تموز ١٩٤٠) . ثم عيّن حاكماً منفرداً للناصرية (آب ١٩٤٠) فحاكم تحقيق الرصافة (نيسان ١٩٤١) فحاكم صلح الأعظمية (حزيران ١٩٤١) فحاكم الكوت المنفرد (تموز ١٩٤١) فنائب المدعي العام في بغداد (آذار ١٩٤٢) فحاكم بداءة كركوك (حزيران ١٩٤٢) فحاكم الصلح الأول في الموصل (تموز ١٩٤٣) فنائب رئيس إجراء الموصل (ت ثاني ١٩٤٣) فحاكم كربلاء المنفرد (نيسان

١٩٤٤) فحاكم بداءة الحلة (حزيران ١٩٤٥) فالرمادي (أيلول ١٩٤٦). ونقل من ثمَّ عضواً في المحكمة الكبرى في بغداد (ت أول ١٩٤٧) ولم يداوم أياماً حتى نقل نائباً للمدعي العام للواء بغداد (ت أول ١٩٤٧) فحاكم بداءة الكاظمية (ت ثاني ١٩٤٧). وعيّن مديراً عاماً للدعاية (أيار ١٩٤٨) فرئيساً لتسوية العمارة (١ ت ثاني ١٩٤٨) فرئيساً لتسوية بغداد (آذار ١٩٥٠) فمدوناً قانونياً (أيلول ١٩٥٢) حتى أحيل على التقاعد برغبة منه في أيلول ١٩٥٤، فأخذ يزاول المحاماة.

وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (ت ثاني ١٩٤٧)، وعضواً بالمجمع الايراني في طهران (فرهنكستان) (١٩٥١). وله مقالات وبحوث ومحاضرات كثيرة نشرت في الصحف والمجلات العربية. من مؤلفاته المطبوعة: عمر الخيّام (١٩٣١)، وقد أعيد طبعه مرتين موسّعاً، الشبك (١٩٥٤). أما مؤلفاته المخطوطة فكثيرة، منها: بين بغداد وطوس، الدراويش، رسالة في الحلاج، رسالة في ابن سينا وأدبه الفارسي، الزهاوي شاعر العراق، الخ.

توفي أحمد حامد الصرّاف في بغداد في ١٨ شباط سنة ١٩٨٥ بعد مرض طويل.

***

كان لأحمد حامد الصرّاف مساجلات ومداعبات مع أكثر أدباء عصره.

قال ذات يوم: أشهد على رؤوس الملأ أن الشبيبي (محمد رضا) شاعر كبير، أجل، شاعر كبير أشعر من البنّاء (عبد الرحمن)!

وغضب ذات يوم من عباس العزاوي فحفظ مقدمته للجزء الأول من «تاريخ العراق بين احتلالين» وصار يقرأها في الدواوين والمجالس الأدبية بأسلوب عابث مزرٍ. ثم يقول: أسمعتم مثل هذا الخلط والخبط؟ إنها مقدمة تاريخ العزاوي مؤرخ العراق!

ونقل العزاوي في تاريخه أخباراً كثيرة عن «دوحة الوزراء»، وهو كتاب مخطوط نادر باللغة التركية القديمة المشوبة بالفارسية. فقال الصراف: وهل يعرف العزاوي التركية ليترجم أخبار دوحة الوزراء؟

ونقل الحديث الى العزاوي فقال: وهل رأى الصرّاف بعينه نسخة من دوحة الوزراء ليستطيع الحكم في الموضوع؟

ولكم نشب الخلاف بين أحمد حامد الصرّاف ومصطفى جواد وعباس العزّاوي وغيرهم من الأدباء والشعراء واشتدّ الخصام والجفاء، فكنتُ أقيم لهم المآدب والحفلات إصلاحاً لذات البين وجمعاً للشمل ورتقاً للفتق. وفي ذات مرة عاد الخلاف الى الاستحكام بين الصرّاف والعزاوي وتراشقا بسهام الكلام، فقلت لهما مداعباً: إنكما تعملان هذا عمداً لتفوزا منّي بمأدبة الصلح، ولكن سأخلف ظنكما هذه المرة وأترككما تتنابذان وتتنابزان ما شئتما وشاء لكما الظرفاء من الحسّاد والشامتين!.

والتقى الصراف والعزاوي في المجمع العلمي العربي بالشام وكانا على جفاء لا يكلم أحدهما الآخر، فقال العزاوي: لا بأس من التحدث بيننا ما دمنا في سورية حفظاً للمظاهر على أن نعود الى القطيعة في بغداد!.

رشح الصرّاف مديراً للتشريفات فرفض قائلاً: إن مدير التشريفات خادم مؤدَّب.

ذهب أحمد حامد الصرّاف في إحدى زياراته الى طهران لتفقّد مكتبة الفرهنكستان. قال: وجدت وأنا أقلب في المخطوطات مخطوطة قديمة في الطبّ فقرأت فيها ما يلي معناه: «فصل في خضاب اللحية: خذ المواد كذا وكذا (وقد عدّدها المؤلف وأكثرها من الأعشاب) ودقّها في الهاون، ثم اعجنها بماء الورد واخضب بها لحيتك فلا تتحكم بها النار». قال الصرّاف: ووجدت في الحاشية بخط وحبر مختلفين كلاماً يظهر أنه أحدث عهداً من المخطوطة الأصلية ما نصه: «كذبت ولعنت، أيها الملفّق ـ عملت بوصفتك فاحترقت لحيتي وشوّه ذقني. فحذار حذار من الأفّاق الجاهل النصّاب».

وقد عيّن الصرّاف حاكماً مدنياً في الكوت فجيء الى المحكمة بأحد أفراد رئاسة عشيرة الميّاح متهماً بقتل عبد له، وقيل له: أرفق به فالقتيل عبد لا قيمة له.

قال: لا عبد ولا حرّ أمام القانون! ودعي الى وليمة فخمة وبذلت له الأموال فلم يرتدع. وأخيراً هدّد بالقتل فلم يسعه إلا الهرب الى بغداد وطلب نقله الى لواء آخر فنقل.

حدثني أحمد حامد الصرّاف انه أصدر كتابه عن عمر الخيام فقال له الشيخ جواد الدجيلي: لقد جمعت كتابك من شتى المصادر فلفقته حتى خرج كالثوب المرقع. قال الصراف: موعدنا في المساء في مقهى الباب الشرقي لنتكلم في الموضوع.

وفي المساء التقيا، وكان الباب الشرقي آنذاك مجموعة من البساتين الملتّفة الأشجار لم يصلها العمران، فسارا والشيخ جواد يشرح وجوه الانتقاد والمآخذ على الكتاب. وفجأة وقف الصراف وأخذ بتلابيب الشيخ وقال له: أتنتقد كتابي الذي تعبت في تأليفه؟ وانهال عليه ضرباً ولكماً والشيخ يستغيث ولا مغيث. وتركه أخيراً على أسوأ حال وعاد أدراجه.

وفي صباح اليوم الثاني جاء الشيخ جواد يشكوالصراف الملاحظ في وزارة العدلية الى مديرها العام توفيق السويدي. فاستدعى السويدي الصراف وقال له: كيف تعتدي على الشيخ بالضرب؟ فأجاب: هل اعتديت عليه في الدائرة؟ قال الشيخ: لا. قال السويدي: إذن فارفع شكواك الى الشرطة.

مصطفى علي

الأديب الحقوقي الوزير، راوية الرصافي ومؤرخه، مصطفى علي محمد الكُرْوي القيسي، ولد في بغداد سنة ١٩٠٠ وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية (١٩١٩) فتخرّج فيها وعيّن معلماً في أيلول ١٩٢١. ودرس بعد ذلك في مدرسة الحقوق

فنال شهادتها سنة ١٩٢٩ .

وقد ترك مهنة التعليم فعيّن كاتباً في ديوان مجلس الأعيان (١٩٢٥)، فرئيساً للكتاب، فكاتباً عدلاً (١٩٣٢)، فملاحظاً للأمور الذاتية بوزارة العدلية (١٩٣٤) وانتخب في شباط ١٩٣٧ نائباً عن بغداد في مجلس النواب .

أولع بالأدب منذ فجر شبابه، فكتب المقالات في الصحف والمجلات، ولازم الرصافي أعواماً طويلة حتى أصبح راوية شعره ومؤرخ حياته والملّم بأموره دقيقها وجليلها . واشترك مع حسين الرحال في تحرير مجلة «الصحيفة» في كانون الأول ١٩٢٤ ، وكانت من الصحف التقدمية التي تدعو الى تحرير الأفكار وسفور المرأة والأخذ بأسباب التقدم والنهضة، ولم تعمّر طويلاً . ثم أصدر مجلة «المعول» في أيلول ١٩٣٠ فحجز عددها الأول وصودرت نسخه . وكتب مصطفى علي في جريدة «الأيام» البغدادية (٣١ كانون الأول ١٩٦٢) فصلاً ممتعاً عن قصة هذه المجلة الموؤودة في مهدها، فقال إن معروف الرصافي، حين علم بعزمه على إصدار «المعول»، إرتجل بيتين كانا شعاراً للمجلة :

حال جدار من تقاليدنا	دون الذي نحن به نعتلي
فنحن نحتاج الى هدمه،	والهدم يحتاج الى المعول .

***

إمتهن مصطفى علي المحاماة بضع سنوات، وتولّى التدريس في المدرسة الثانوية بالبصرة سنة ١٩٣٨/ ٣٩ . ثم عاد الى الوظيفة فعيّن مفتشاً للطابو (آذار ١٩٤٢) فمدوناً قانونياً (أيار ١٩٤٨) فمديراً للحقوق بوزارة المالية (كانون الثاني ١٩٥٠) فحاكماً بمحكمة استئناف البصرة (تشرين الثاني ١٩٥٠) فنائباً لرئيسها (أيلول ١٩٥٤) . ونقل رئيساً للمنطقة العدلية في لواء ديالى (حزيران ١٩٥٥) فمفتشاً عدلياً (تشرين الثاني ١٩٥٦) . وتفجّرت ثورة تموز فاختير وزيراً للعدل في الجمهورية العراقية (١٤ تموز ١٩٥٨)، وشغل هذا المنصب الى ١٤ أيار ١٩٦١ . واعتقل بعد ثورة رمضان (١٩٦٣)، ثم أطلق سراحه بعد أسابيع قلائل واعتزل الحياة العامة، منصرفاً الى الكتابة والأدب .

مؤلفاته وأدبه :

مصطفى علي في طليعة كتّاب النثر العرب في عصره، جريء القلم، مشرق الديباجة، ناصع البيان، يتحرّى في كتابته اللفظ الفصيح والقول الصريح . وقد كان منذ عهد الشباب الباكر داعياً الى التقدم وتحرير المرأة ومكافحة الآراء الرجعيّة، وتعرية الأدب الجامد والمتحذلق والمتحجّر . وأثبت في كتابه «جرائم مرّت أمامي»، وهي

قصص مستلهمة من عمله في محكمة الجزاء الكبرى بالبصرة، إنه يحسن سرد القصة وحبك عناصرها وسلسلة وقائعها بأسلوب جذاب يأخذ بمجامع القلوب.

ومن مؤلفاته المطبوعة: رسم الخطّ العربي (في تبسيط قواعد الإملاء ١٩٣٠)، في هامش السجل(١٩٣٧)، وهي مجموعة مقالات قصيرة نشرها في الصحف سنة١٩٢٧ ـ ٢٨ و ١٩٣٢ ـ ٣٤، أدب الرصافي (١٩٤٧)، كتاب «الرصافي»، وقد نشر منه الجزء الأول (١٩٤٨)، جرائم مرّت أمامي (١٩٥٨)، محاضرات عن معروف الرصافي (ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية، ١٩٥٣).

وقد وضع دراسة موسّعة عن الرصافي وسيرته ومؤلفاته وشعره وشرح قصائده وذكر مناسبات نظمها وغير ذلك من شؤون الشاعر الكبير تستوعب مجلدات عديدة، فكان من الرصافي مثل جيمس بوزويل (١٧٤٠ ـ ١٧٩٥) الذي سجل سيرة الأديب الانكليزي الكبير صموئيل جونسون (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) ودوّن حركاته وسكناته وذكر أقواله وأحاديثه وعظاته.

قابل بوزويل معبوده الأدبي لأول مرة في سنة ١٧٦٣، وكان محامياً ناشئاً قنّاصاً لأسود الشهرة. جاء الى لندن من مسقط رأسه في اسكوتلاندة وسعى للقاء جونسون الذي بلغ آنذاك قمّة مجده الأدبي إذ نشر معجمه اللغوي قبل ذلك وتنافست المحافل الأدبية والأندية الاجتماعية على دعوته والاحتفاء به. وتمّ لقاء الرجلين ــ كما رواه مترجم جونسون نفسه ـ في مكتبة تجارية فتحدّثا، ولم يحظ الشاب بكبير اهتمام من العلاّمة الكهل. ولم يخف بوزويل خيبة أمله بعد خروج الرجل العظيم، لكن الكتبيّ طمأنه وقال له: «لا تنزعج، لقد رأيت أنه مال إليك كثيراً». وكذلك كان، فلم يمض شهر واحد حتى كان الرجلان يتعشّيان جنباً الى جنب ويتسارّان في بعض المطاعم، فكان ذلك بداية صحبة العمر وحدثاً أدبياً له شأنه في التاريخ الانكليزي.

وروى لنا مصطفى علي في الجزء الأول من كتابه «الرصافي» أول عهده بالشاعر: سمع الفتى مصطفى باسم الرصافي، وقرأ شعراً له، واقتنى ديوانه، وتنسّم أخباره وتتبع سيرته وتعقب خطواته، فلما عاد الشاعر العراقي الى رصافته بعد الحرب العظمى فكر جمع من طلاب دار المعلمين، ومصطفى علي بينهم، أن يقصدوه زائرين مرحّبين. وهكذا اكتحلت عين الشاب لأول مرّة بمرأى الكهل الشهير الذي أعجب به وحفظ قصائده، فوجد فيه «رجلاً طويل القامة، أسمر اللون، وثيق التركيب، ذا لحية خفيفة سوداء وشاربين غير مهذبين، مهيب الطلعة، مرآه يوجب عليك احترامه، أنيقاً في ملبسه. وكان مرتدياً بذلة شتوية لازوردية، وعلى رأسه طربوش... وكان حين يتكلم يستعين بيده اليمنى فيشير بها إشارة هادئة، وبعينيه الصغيرتين البرّاقتين... فكانت عيناه الشاقبتان تنفذان الى أعماق النفوس من سامعيه كأنه يريد أن يتغلغل فيخاطب النفوس لا الشخوص، بل كأنه ينظر بعين الشعر التي يقول فيها:

وللشعـــر عين لـــو نظـــرت بنـــورهـــا الى الغيـب لاستشفت مـــا في بطـــونـــه . .

وتحقق حلم الشبـاب، فأرهف الأذن لسماع إنشـاد الشـاعـر، وأعدّ القلم لكتـابـة شعره، وهيّأ الصـدر لحفظه ووعيـه. وكانت تلك الجلسـة الهادئة فاتحة صـداقة دامت عشرات الأعوام وامتدّت الى ما بعد موت الشاعر، إذ أصبح طالب دار المعلمين امتداداً لحياة الرصافي وشعره ونهجه.

***

لخّص مصطفى علي أهـدافه حينما أصبـح أول وزير للعـدل في الجمهـورية فقـال: «أهـدافي، كأهداف زمـلائي، خدمـة الشعب والسير بـه في ركب الحضارة والتقـدم، واعـداده وتهيئته ليجـاري ركب الأمم الحيّة في هـذا العصر، وإنقاذه ممّـا كان يعـاني من مهلكات الشعب: الجهل والفقر والمرض».

ومن أمثلة أسلـوبه الكتابي وآرائه الحرة نجتـزىء بنقل قسم من مقال كتبه في كـانون الأول ١٩٢٧ بعنوان «القبعة والطربوش».

«القبعة لباس للـرأس كغيرها من الألبسة، اعتاد أن يلبسها قـوم ولم نعتد أن نلبسها نحن، فرميناها ظلماً بكل مـا يشين، وجعلناها رمزاً للكفر وعلامـة للمروق من الوطنية وشعاراً للهرب من الشرقية و. . . و. . .

عادة لو اعتادها أسلافنا لكفونا شرّ هذا النزاع والخلاف، ولو اعتدناها نحن لكفينا أبناءنا وأحفادنا مؤونة ذلك.

أقول ما تقدم، بعد ما قرأت في «الهلال» ما نشر حول القبعة والطربوش: فمصطفى صادق الـرافعي يدافع عن الطربوش ويـدلي بأسباب تمسّكه به، ويشرح محمـود عزمي سبب لبسه القبعة ويعزز قوله ببراهينه في فضلها على الطربوش.

فالرافعي يرى أن القبعة على رأس المصريّ في مصر تهتّك أخلاقي أو تهتك سياسي أو تهتك ديني أو من هـذه كلها معـاً. ثم هو يستمسك بـالطربـوش لأنه يـريد الـدقّة في التعبير لتعبّر به نفسه حين تعلن عن نسبته وقوميّته.

وعزمي يرى أننا نأخـذ من حضارة اليوم كلّ مظاهرها مـا خلا القبعة. ثم يقارن بين خفّة قبعة الصيف التي ذاق حـلاوتها في فرنسة وبين كبس الطربوش على دمـاغه الذي ذاق مرارتـه في مصر. وقد لبسها بعـد أن أفتى جمع من الأطباء بفـائدتها وبتفضيلها على الطربوش.

يتكلم الرافعي عن حرص شديد على ما ألفـه لأنه وجد نفسه مطربشاً بحكم العادة والمحاكاة ودون أن يجهـد نفسه ويختاره تفضيلاً منـه على سواه. ولكنه الآن يحاول أن يجد أسبابـاً يدّعي أنه يتمسّك بـالطربوش من أجلهـا، لا بل يحاول أن يخلق تلك الأسباب التي من أجلها يستمسك بالطربوش.

ومن حسن الإتفـاق أن مجلة الهلال نشرت صورة الـرافعي الى جنب صورة عـزمي في العدد الـذي نشر فيه مقالتيهما، فتأمّلـت في الصورتين، فلم أجد الفـرق بينهما في الزيّ

سوى قبعة عزمي وطربوش الرافعي. ولو صادف أن صوّرا حاسري الرأس لما وجدنا بينهما فرقاً في الزيّ مطلقاً.

زيّ الرافعي، كزيّ عزمي، إفرنجي: بذلته إفرنجية ورباطه افرنجيّ، حليق اللحية مهذّب الشاربين. وأنا أزعم أن آلاته وأدواته البيتيّة افرنجيّة كذلك. فهذه كلها لا تخرجه عن شرقيّته ولا عن ديانته ولا عن نسبته... ولكن القبعة... القبعة وحدها تخرجه عن تلك الصفات التي يحرص عليها.

لو كان الرافعي يوم بدأ القوم يلبسون الملابس الافرنجية لوقف تجاه الأزياء الحديثة وتجاه «الرباط» منها خاصة موقفه الآن تجاه القبعة، ولكنه اليوم مطمئنّ راض بملابسه لأنه نشأ على ذلك ولأنه اعتاد أن يراها هكذا.

أجزم لو نشأ الرافعي ورأى القبعة تلبس في مصر، ثم حاول عزمي ومن على شاكلة عزمي إبدالها بالطربوش التركي «الشرقي» لوقف تجاهه موقفه الآن تجاه القبعة... ألا رحم الله المتنبّي إذ يقول:

راعتك رائعة البياض بمفرقي، ولو أنها الأولى لراع الأسحم

فهل هذه إلا عادات قضت على الرافعي وعلى كثير من أمثال الرافعي من الكتاب أن يفكروا لأنفسهم؟...».

نظم مصطفى علي الشعر للتفكهة والدعابة. دعي الى دورة ضباط الاحتياط في آذار ١٩٣٩، فضاق ذرعاً بالمدرّب العريف عاشور، وكان قاسياً عنيفاً، فقال فيه من أبيات:

ودّعت عقلي وآرائي وتفكيري ... وسرت طوع عريف الجيش عاشور

عاشور، لست بذي رأي فأتبعه ... لكن بذاك قضى لؤم المقادير

لولا السياسة ما أبصرت لي شبحاً ... ولا رأيتَ بزيّ الجند تصويري...

وهجا بعض أصدقائه فقال:

... إنني قد أكلته بالتجاريب (م) ... فلا تسمعوا الى من ذَاقَهْ

ما حوى قطّ من صفات بني آ ... دم إلّا صلافة وصفاقه

إن أهين استكان ذلاً وإن (م) ... أكرم في محفل أهان رفاقه

تنكر الذوق والحجى والسّجايا ... حين تبلو سلوكه ومذاقه

هو لا يطمئنّ للمرء إلاّ ... حين يبدي خداعه ونفاقه

ثم قال يذكر البصرة:

صاحِ عـرِّج على حمى البصرة الفَيْحَا (م) وسـائلـه : هـل سـلا مشتـاقـه؟
وتلطّف وحيّهـا بـاحترام فهـي في المجـد والعلى سبّـاقـه
أنـا صبّ مـدلّـه بهواهـا فهـواهـا استبـاح قلبي وشـاقـه
بلـد حفّـه الجمال وسـاد الـ (م) ـحسـن والـزهـو والبها آفـاقـه
كـلّ مـا ضمّـه حبيب لنفسي وبقلبي لـه أجلّ عـلاقـه
قـف بها وادّكـر ليـالي لهو لـو سـلا القلب هيجّت أشـواقـه
كم سهـرنـا نلهـو بمجلس أنس والـدجى فـوقنـا يمـدّ رواقـه
مجلس عمّـه الصفـاء وسـاد الـ (م) ـودّ فيـه وجمّلتـه الطّـلاقـة
نسرق الأنـس من عيـون زمـان شـارد اللّبّ لا يـرى سرّاقـه
قـد أمنّـا الغـوائل السّـود طـراً ونسينـا من دهـرنـا إرهـاقـه
واجتلينـا من مطلع الشمس نـوراً فـاق إشراق كأسنـا إشراقـه
عصبـة قـد تحرّرت ليس فيهـا غير من رام في الحيـاة انطـلاقـه
كـلّ ذي رقّـة وطبـع سليم شـاقـه مجلس السرور وراقـه
طـاب نفسـاً فـلا يـرى العيش إلاّ أن يـوالي اصطبـاحـه واغتبـاقـه

وبعـد أن يسهب في وصف مجلس الأنـس وصفـاء المودّة يعـود الى مهجـوّه فيـذكـر اقتحامه لذلك المجلس وتعكيره لصفوه وهنائه .

مصطفى علي

استحضار الأرواح

مال مصطفى علي في الأعوام الأخيرة الى استحضار الأرواح : فقد قرأ مع رفاق له من المحامين والأدبـاء الفضلاء كتباً في الموضـوع ، فجرّبوا طـريقة مخاطبة الأرواح بـالقدح . وذلك أنهم كتبوا الحروف الأبجدية والأرقام وطـائفة من الكلمات الشائعة على رقعة ورق كبيرة وضعـوها على المائدة ، ثم جلسـوا بخشوع وطلبـوا حضور الأرواح . ووضع اثنـان منهم جلسا متقابلين يـدهما على القدح الذي صارت الروح تحرّكـه على وجه خارج عن إرادتهما ـ كما يشعـران ـ فيقف عند أحـد الحروف أو الكلمات . ويتولىّ بعض الحاضرين تسجيل الكلمات التي تمليهـا الروح عن طريق القـدح ، فإذا توقفت عـن البثّ ، قرئت الجملة وكانت واضحة مفهومة .

وظلّ الصحاب يعقدون مجالسهم في ليالي السبت ، وسجلـوا أحاديث وأجوبة كثيرة

لأرواح متعـددة معـروفة ومجهولـة .

ولا عجب أن آمن مصطفى علي وصحبه بـاستحضار الأرواح ، وقـد آمن بذلك من قبل علماء أعلام وأدباء يشـار إليهم بالبنان ، كالسر أوليفر لودج العـالم الفيزيائي والسر آرثر كونان دويل الروائي الانكليزي الشهير. . . وادّعى الشاعر المتصوّف وليام بليك أنه كتب قصائد بإملاء مباشر من أصدقائه في عالم الخلود (كما قال) .

وقـــد حضرت أرواح عـــاش أصحـــابها قبل مئـــات السّنين وأملت سيرتها على الحاضرين . واستحضر الجماعـة أيضـاً أرواح فـريق من أصـدقـائهم المتـوفّين كجميل صدقي الزهاوي والدكتور عبد الجبار عبد الله رئيس جامعة بغداد الخ .

***

إشتركت في بعض تلك المجالـس في شبـاط ١٩٧٣ ونظمت في ذلك مقطـوعـات شعرية قدمتها الى الاخوان ، منها :

مناجاة الأرواح :

هفتِ النفس الى الغيب المَصُـــــون ... واعترتها هـــزّة الـــوجـــد المثير
عجبـــاً قـــد بهر النـــور العيـــون ... واجتلى الأشبــــاح في مَسْرى الأثير
خثـــر الإحســـاس واعتـلّ الشعـــور ... وغـــدا الجسم كشفّـــاف الثيـــاب
ضمّ روحـــاً من هَيُـــولَى، والبخـــور ... يغمـــــر الجوّ بطيبٍ وضبـــــاب
وسرت مـــن أُفُـقٍ نـــــاءٍ رفيـع ... نغمات مثـل أنســـام الـــربيـع
تحمـل الحبّ وأنفـــاس الخلـــود ... فتنـــاجـت في سكـــون وصفـــاء
أنفس قـــد ظهـــرت بعـــد الخفـــاء ... حـــرّة تختـــال في سحـــر الـــوجـــود

لمصطفى علي ذكريـات طريفة كثيرة عن معـروف الرصافي ، ومن الأسف أنـه لم يدوّن أكثرهـا . وقد حـدثني أن أم كلثوم قـدمت الى بغداد سنـة ١٩٣٢ وأحيت حفلاتها على مسرح فندق الهلال . وقد غنت ، فيما غنّته ، أغنية عراقية شهيرة :
«قلبك صخر جلمـود» ، أدّتها بتلطيف كلماتها وترقيقهـا خلاف اللهجة العـراقية . فقال الرصافي وكان حاضراً : ماذا نريد؟ أخذت لحم ثورنا فجعلته لحم غزال وقدّمته لنا هنيئاً مريئاً ! .

ولم ينظم الرصافي شيئاً في أم كلثوم ، لكنه نظم أبياتاً في المغنيّة الراقصة العراقية منيرة ، فقال :

هـل سمعتم منيرة مـــذ أفـــاضـت ... من بـــديع الغنـــاء في كلّ فـنّ
مـــذ أقـــرّت بـــرقصهـــا كلّ عين ... واسترقّت بصـــــوتها كـل أذن
رقصهـــا يـــرقـص القلـــوب على أنّ ... غِنـــاهـــا عن المزامير يغنـي . . .

لكنّ شعراء عراقيين كثيرين حيّوا أم كلثوم، في مقدمتهم جميل الزهاوي الذي قال:

الفـنّ روض أنيق غـــــير مســـــؤوم ... وأنـت بلبلــــه، يــــا أمّ كلثـــــوم

وقال الشيخ جواد الشبيبي:

قمـــريّـــة الـــدّوح، يـــا ذات الترانيم ... مـع النســـور على ورد الـــرّدى هـــومي

وهو تكليف المطربة ما فوق طاقتها!

وقال الرصافي أيضاً في المغنية منيرة:

هلـمّ الى ذا الغنـــــاء الــــــذي ... منيرة منــــــه أتـت بـــــالعجـب

أليسـت منيرة في عصرنـــــــــا ... مليكـــــة فـنّ غنـــاء العـــرب؟

***

مصطفى علي الأديب يـؤمن بتفـاهم البشر وتقـاربهم ومحو الخلافـات الطبقيـة والسياسية والنعرات الدينية والمذهبية. وقد كتب في رسالة خاصة الى المؤلف يقول:

«فالبشر، بعد تـاريخه الدامي وبعد ما شـاد مدنيّته هذه التي يفخـر بها (!) وأقامها على أسس من الهمجية تكدست فيها جماجمه وتجمعت أشلاؤه، لا بدّ أن يثوب الى رشده ويرجع الى صوابـه فيتدبّر ويتفكّر... ولا بدّ أن يعقل فيخلع عنه نير التقـاليد ويتحرر من العادات فيتقارب ويتفاهم ويتّحد. ولا بدّ أن يدين بدين الإنسانية ويقدّس الأخوّة البشريـة. وهو سـائر نحـو هدفـه وإن كان سيراً وئيـداً، وإذا مـا سار فهـو واصل لا محالة».

حدثني مصطفى علي أنه كان في شبابه مولعاً بالمقامات والغناء العراقي. كان يجلس مع رفاقه في مقهى محلّته «قنبر علي» الى ساعة متأخرة من الليل، فإذا عاد يوسف زعرور مغنّي المقام المشهور من الملهى الذي يغني فيه دعوه الى الجلوس معهم برهة من الزمن. فإذا ما احتسى القهـوة وشرب الشاي، لم يجرؤ الشبان أن يطلبوا إليـه إسماعهم شيئاً من المقام لعلمهم بأنـه عاد متعباً، بل يأخـذ أحدهم بالدنـدنة ويقول للفنـان: أليس هذا المدخل الى مقام البهيرزاوي أو الـدشت؟ فيردّ عليه القارىء الكهل: كلا، يـا ولدي. ويأخذ بالقـراءة وينتقل شيئاً فشيئاً من مقام الى آخر. وهكذا كـان مصطفى علي ورفاقه الشبّان يستدرجون الفنّان الى تشنيف آذانهم بطرائف من فنّه المحبوب.

وقـال لي مصطفى علي: أعتقـد أنني أستطيع مصـادقة جميع النـاس على اختـلاف طبقاتهم وأديـانهم ومذاهبهم لأنني أحاول تفهّم آرائهم وعـدم المسّ بمعتقداتهم. لكنّ الوحيدين الذين لا أستطيع مجالستهم والتفاهم معهم هم اليـزيدية لتعصبهم الشديد. فقـد تـوفيت زوجـة حـاكم محكمـة الشيخـان فعقـد لها مجلس الفـاتحة وكلّف كـاتب المحكمة، وكان مقرئاً حسن الصوت، بتلاوة آيات من القرآن. ولما افتتح الكاتب ترتيله

بـ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ، هاج اليزيديون وماجوا وتجمعوا حول الدار يريدون قتل المقرىء . ولم تستطع الشرطة إنقاذه وتهريبه الى الموصل إلاّ بشقّ النفس .

كان ذلك منذ خمسين سنة . أما اليـوم فأقبل الجيل الجديد من اليزيديين على التعليم والثقافة واختلطوا بجيرانهم ونبذوا التعصب الذميم .

أصـدر مصطفى علي ديوان الـرصافي بشروح وتعليقـات موسعـة ، وقد نشرتـه وزارة الإعـلام في خمسة أجزاءٍ (١٩٧٢ ـ ٧٧) . ونبهت مصطفى علي الى قصـائد للرصـافي لم تنشر في دواوينه (منهـا قصيدة في رثاء محمـد سامي بك مـدير معارف بغـداد في العهد العثماني) وسألتـه أن ينشرها في الـديوان الشامـل الذي أشرف على إصـداره ، فقال : إن الرصافي قد أسقطها في حياته فلا أنشرها بعد مماته .

أصيب مصطفى علي برمد في عينيه سنـة ١٩٧٣ فحرم البصر إلا بصيصاً ضئيلاً من النور يهتـدي به في طريقـه ، فصار يستكتب أولاده وأصـدقاءه ويستقرئهم في شـؤونه . ويقول إنه أصبح كأبي العلاء المعري «المستطيع بغيره» .

وقد أدركته الوفاة في بغداد في ٤ آذار ١٩٨٠ .

على أثر سفـري الى لندن سنة ١٩٧٤ ظللت أنـا ومصطفى علي نتبادل الـرسائل الى حين وفاتـه سنة ١٩٨٠ . وكـان بصره ضعيفاً فكـان يستعين بأولاده أو بعض أصحـابه يملي عليهم رسائله . وكان يردّد أنه «المستطيع بغيره» إقتداء بأبي العلاء شاعر المعرّة .

كتبت إليه عن تناقض آراء الـزهاوي والرصافي في شعـرهما ، فكتب إليّ في ٤ حزيران ١٩٧٨ يقول : «أمـا ذكرك تنـاقض الرصافي والـزهاوي في شعـرهما فليس ذلك ببدع في الشعـراء ، ونظرة خـاطفة الى شعـراء العرب تكفـي لأن تؤكـد لنا أنهم جميعهم من هـذا الطراز . وإذا كان بينهم من شذّ عن هذه الطريقة فهو من النوادر .

«والـذي أراه هو أن ننظـر الى إجـادة الشاعـر أكثر من أن ننظـر الى ثبـاته على مبـدأ واحد . فـالشاعر دقيق الحسّ يتأثـر بالأحداث المختلفـة فينطق أو يضطّر الى النطق بما يجول في خاطـره . وقد أشار القرآن الى ذلك بقـوله : ﴿**والشعراء يتّبعهم الغـاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمـون وأنهم يقولـون ما لا يفعلـون**﴾ . وإن كنتُ من الغاوين الذين اتبعتُ الرصافي وغيره من الشعراء» .

جعفر الخليلي

بقيت النجف قـروناً مـديدة معقـلاً من معاقل الـدين واللغة ، عـزلتها الطبيعـة في صحراء قـاحلة لا مـاء فيها ولا نبـات ، وحرمتها الـرياض الـزاهرة والحقـول الناضرة ، وأكسبت أهلها صرامة وجـداً وصلابة وجفاءً وزهداً في مباهج الـدنيا وملاهيها . دارت الحياة حول الـروضة الحيدرية المطهّرة ، وانتشرت المدارس يؤمهـا طلبة العلم من أقاصي

البقـاع ودانيهـا ليجلسوا على البسط والحصران بين أيـدي المؤدبين والمدرسين وليقضـوا أعواماً طويلة في المطالعة والحفظ ومـراجعة الكتب الصفر العتيقة التي طالعها وحفظها وراجعها أبناء الأجيال المتعـاقبة. وقامت المقابر تمتّد من ظاهـر البلدة وتلاصق مساكن الأحياء وتزاحمها وتدافعها. قال الصافي النجفي:

صدق الـذي سمّاك في «وادي طـوى» يـا دار، بل وادي طـوى وعـراء

جلست على الأنهار بلـدان الـورى، فعـلامَ أنت جلست في الصحـراء؟

وقال

فصـادرات بلـدتي مشـائخ وواردات بلـدتي جنـائز

وهبّت على المدينة الهرمة في مطلع القرن العشرين نسـائم التبديل والتحويل، فنادى فـريق من العلماء بالتجـديد والإصـلاح، ودعـوا الى إنشاء الحكم الـدستوري في إيـران وتقييد السلطة المطلقة. وتبعتهم زمر الشبـاب المتحمّس الذي أخذ يطالع مجلات مصر ولبنـان والشام وينظم الشعـر في المطالب السيـاسيـة والاجتماعية. وأنشئت الى جـانب المساجد ودور العلم القديمة، مدارس عصريـة تعنى بتدريس بسائط العلوم الحديثة. واصطرعت الأفكار بين القديم والجديد اصطراعاً شديداً لا هوادة فيه ولا لين، ومهدت السبل للإنتقـاض على السلطة التركية أولاً وعلى الإحتلال البريطـاني بعد ذلك، وهيّئت النفوس للتمرّد على الجمود ونبذ البدع التي التفّت حول الدين وكلّست مظاهره.

في تلك النجف المتحفّزة المصطـرعة المتطلعة ولد جعفـر الخليلي سنة ١٩٠٤. وكان أبوه الشيخ أسد من رجال الفضل والأدب يتعـاطى الطب القديم شأن الكثير من أفراد أسرته، تلك الأسرة التي أنجبت أيضـاً على مر العصـور رجال دين بلغوا قمّـة الزعـامة الروحية. ونشأ جعفر بين أسرة متفتّحة في بيئة متـزمّتة، وانتمى الى المدرسة العلوية التي أنشئت قبل عهد قصير لتعليم الصبيان على أسس حـديثة. وأقبل على مطالعة الكتب الأدبية والمجلات بنهم شديد، وقرض الشعر وهو يافع.

وحدثت في النجـف في أواخر العهد العثماني وبـداية الاحتـلال الانكليزي حـركات وطنية طـاغية اشترك فيها أخـوه الأكبر عبّاس ووالـده، لكن جعفراً لم يبلغ السنّ التي تؤهّلـه للعمل فـاكتفى بالتطلع إليهـا والمساهمة فيهـا بفكره وروحـه. ومال الى الكتـابة فوضع، ولم يكد يشرف على عامه الثامن عشر، قصة إنسانية بعنوان «التعساء».

وامتهن التعليم عشرة أعوام في الحلة والنجف وسوق الشيوخ والرميثة، وكان مدرساً للتاريخ والجغرافية في المدرسة الثانويـة بالنجف ثلاث سنوات. وأصدر في تلك الأثناء جريدة «الفجـر الصادق» الأسبوعية (٧ آذار ١٩٣٠)، وكـانت حرة النزعـة، تدعو الى النهضـة والإصـلاح، فـاضطـرّ على غلقهـا في تشرين الأول ١٩٣٠ بعـد أن أنـذرتـه السلطات المسؤولة بعدم الجمع بين التدريس والصحافة.

واستقال من التدريس سنة ١٩٣٣، ثم أصدر جريدة «الراعي» (١٣ تموز ١٩٣٤)، وقد عطّلت لأسباب سياسية في ١٩ نيسان ١٩٣٥. وأصدر جريدته الثالثة «الهاتف» في ٣ أيار ١٩٣٥، فكانت مدرسة سيّارة عالجت فنون الأدب وعنيت بالقصة وأظهرت مواهب جيل كامل من الشعراء والقصاصين.

وانتقل الخليلي بهاتفه الى بغداد سنة ١٩٤٨، ثم جعل جريدته سياسية يومية (٢٧ كانون الأول ١٩٤٩)، مع مواصلة العناية بالقصة والأدب وإصدار أعداد ممتازة سنوية جامعة. وعاد الهاتف أدبياً أسبوعياً في تشرين الأول ١٩٥٢ حتى احتجب سنة ١٩٥٤.

أنشأ الخليلي بعد ذلك دار التعارف للإعلان وأخرج «موسوعة العتبات المقدسة» وهو مشروع ضخم نهض بأعبائه وتولى بنفسه شؤون الإدارة والتحرير والطبع والنشر والتوزيع، وجنّد لمساعدته أقلام صفوة من الأدباء والبحاثين والكتاب.

أما جعفر الخليلي الرجل فهو - كما وصفه روكس بن زائد العزيزي - «ربعة في الرجال، تكمن وراء لطفه المهذب رجولة حازمة تنمّ عليها نظرات فاحصة نفاذة. أناقة متناسقة تدل على ذوق رفيع، ونكتة حاضرة بارعة يواكبها وفاء للصديق وإنصاف للخصم وهدوء نفسي ينمّ على حياة عائلية سعيدة».

مؤلفاته وأدبه

جعفر الخليلي أديب وصحفيّ وشاعر، وهو من رواد القصة العراقية، له أسلوب لطيف، سلس العبارة، قريب المتناول، يطعم كتاباته بالحكايات واللطائف والأمثال الشعبية. كتب في السياسة والاجتماع والتاريخ والقصص والأدب عامة، وبرع في وصف الحياة الاجتماعية ومعالجة المشاكل العامة وتصوير المجتمع والأفراد والدعوة الى الاصلاح وحرية الفكر والتسامح وتوسيع آفاق المعرفة والثقافة.

وضع مؤلفات كثيرة، منها: يوميّات (في جزءين) ١٩٣٥، التعساء (١٩٢٣) الضائع (١٩٣٨)، عندما كنت قاضياً (١٩٤١) في قرى الجنّ (١٩٣٩)، من فوق الرابية (١٩٤٩) تسواهن (١٩٥٣) على هامش الثورة العراقية الكبرى (١٩٥٢) مجمع المتناقضات (١٩٥٣) إعترافات (١٩٣٧) حديث القوة (١٩٤٢) أولاد الخليلي (١٩٥٥) مقدمة في القصة العراقية (١٩٥٧) هؤلاء الناس (١٩٥٦) جغرافية البلاد العربية (١٩٣٤) حبوب الاستقلال (١٩٣٦) خيال الظلّ (١٩٣٦) حديث السّعلى (١٩٣٤) السجين المطلق (١٩٣٦) آل فتلة كما عرفتهم (١٩٣٦) نفحات من خمائل الأدب الفارسي (١٩٦٥) ما الذي أخذ الشعر الفارسي من العربية (١٩٦٧) كنت معهم في السجن (١٩٥٦) التمور قديماً وحديثاً (١٩٥٦) القصة العراقية قديماً وحديثاً (١٩٦٢) هكذا عرفتهم أربعة أجزاء ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢) موسوعة العتبات المقدسة

(صدر منها ١٣ جزءاً ١٩٦٥ ـ ٧١) الخ.

وله عدا ذلك مصنّفات مخطوطة منها:

نصيب بغداد من قصة كليلة ودمنة، صفحات من الجيل الماضي، الخ.

***

أصدر جعفر الخليلي الجزء الخامس من «هكذا عرفتهم» (١٩٨٠) ثم الجزء السادس (١٩٨٢).

تغلب على قصص الخليلي الصبغة المحلية، لكنها مع ذلك إنسانية الشمول، فالبشر هم هم مهما اختلفت عصورهم وأقطارهم. وإنّ النماذج البشرية التي رسمها الخليلي لتجتمع في مناح كثيرة بشخوص بوكاتشيو الايطالي وموباسان الفرنسي وأو. هنري الاميركي على تباينّ الزمان والمكان: فمزعل الفحّام الذي يطلب البركة ليوسّع عليه الرزق ولترفه أسرته الكبيرة، وأم حسن المطلقة التي أبعد عنها ابنها وحرمت نعمة مشاهدته، وموسى الذي يعرف من أين تؤكل الكتف والذي يسخّر الجنّ توسّلاً الى الانتقال من دار آهلة الى دار مستقلة فرشت له بأحسن الرياش، وأبو علي الرجل المرح الفكه الذي يبتدع طريقة شاذة فريدة لتهدئة نفسه السريعة الى الغيظ والخصام، وعبد اللطيف الحلاق المصارع الذي يهرب من وجه العدالة ويتخفّى خمس عشرة سنة ليجد بعد ذلك أنه لم يكن مجرماً ولم تكن هناك جريمة، والشيخ أحمد المزدوج الشخصية، الشرس في داره، الهادىء الحيّي في السوق والشارع، والحاج حسين البقال الذي اشتهر بأمانته وتساهله وكرمه ثم ظهر، بعد موته، أنه كان يغشّ بضاعته ويسرق زبائنه بمهارة جازت على الناس، والشيخ دبعون القرويّ الذي يتظاهر بالعظمة الفارغة ويتشامخ على الجهلاء والسذّج ليحصل على المال فيقع في الشرك الذي نصبه لسواه، كل أولئك وغيرهم من أبطال قصص الخليلي لهم أقرانهم ونظراؤهم في الأزمنة الخالية والأمصار النائية.

إن القاصّ الاميركي وليام سدني بورتر (١٨٦٧ ــ ١٩١٠) الذي عرف باسمه المستعار «او. هنري» قد خلّد في قصصه صوراً وشخوصاً من الحياة الاميركية في عهد استعمار الولايات الغربية والجنوبية والتوغل في مجاهل الصحارى والسهول والجبال المترامية الأطراف، فروى أحاديث المجازفات وبراعة النصب والاحتيال في البورصة المالية وعلى قارعة الطريق، وسذاجة أهل القرى، وبؤس الطبقات الفقيرة في المدن الغنيّة الصاخبة، في تلك الحقبة التي مرت واندثرت ولم يبق لها في الغداة من أثر. ويمكن القول إن الخليلي قد عمل لعراق النصف الأول من المائة العشرين ما عمله أو. هنري، في قصصه السّاحرة، لأمريكا منتصف القرن التاسع عشر، فرسم، ببراعة فائقة ودقة واقعية وإخلاص فنّي جميل، الصور والشخوص التي عرفها وسمع بها وتخيّلها في

عهد الانتقال والتطوّر الذي مضى الى غير رجعة. إنّ معالم الحياة في النجف وحواضر الفرات وأرياف الجنوب - وهي في مقدمة مسارح قصص الخليلي ــ قد تغيّرت وتبدلت تبدلاً أساسياً خلال جيل واحد من جراء انتشار الثقافة ووسائل المعيشة العصرية، وسوف تجد الأجيال القادمة صور تلك الحياة وغرائبها في «أولادالخليلي» و «الضائع» و «هؤلاء الناس» و «في قرى الجنّ» و «عندما كنت قاضياً» و «من فوق الرابية» و «مجمع المتناقضات»، وتطّلع عل نماذج إنسانية خاصة في بيئتها، عامة في المجتمع البشري طوال العصور، ذلك الى جانب المتعة الروحية التي تنبثق من الأدب الواقعيّ المخلص غير المصطنع ولا المفتعل.

وجعفر الخليلي بعد ذلك أديب ذوّاقة وشاعر مطبوع. وقد رأيناه في «نفحات من خمائل الأدب الفارسيّ» يسدي يداً جميلة للآداب العربية والفارسية على السواء، فكان ـ كما قلت عنه في مناسبة ظهور كتابه ــ أديب اللغتين وجامع الحسنيين والذوّاقة الذي يحسن الاختيار ويحسن النقل والنظم والأداء.

إن نفحات الخليلي باقة عطرة من الزهور، زاهية الألوان، مختلفة الأشكال، عبقة الأشذاء. وهي نافذة تطلّ على خمائل الأدب الفارسي وتهيّىء للقارىء العربي أن يلمّ بشيء من روائع سعدي والفردوسي وحافظ وعرفي الشيرازي وعبيد زاكاني وأقرانهم. وتجمع «النفحات» فنوناً شتى من الشعر، ففيها الغزل:

قلتُ إن جئتني بشتك ما بي ... من أليم الجوى وفرط الشقاء
أيّ شيء أبثّه، وأنا إن ... جئتني زال في مجيئك دائي؟

وفيها الهيام:

سألوني عن دار هاجرتي ... قلت: قلبي المولّه الدّنِفُ

وفيها الحكمة:

هذي الحياة مراتع، وقطيعها ... هذا الأنام، وذئبها الآجال
تغتال منها كلّ آنٍ واحداً، ... فترى ولا يرتاع منها البال

وفيها الرحمة:

لا تؤذها نملةً تسعى بحبّتها ... فإنها ذات روح ملء إحساس

وفيها الشك:

كم سعينا لكي ننال من الدنيا ... مناها فما بلغنا مناها
كيف نحظى بعد الممات بأخرى ... ما سعينا لها وما رمناها؟

وفيها الأمل:

قـد تـركنـا الـريـاء والمكـر طـراً | وانتـزعنـا غـلّ القلـوب لتصفـو
فـاسقنيهـا سـلافـة، فكما أنّـا | عفـونـا فإنّ ربّـك يعفـو

وفيها غير ذلك كثير من الصور والمشاعر والأفكار.

ولئن كانت المقطوعات أغلبها قصيراً فهنالك قطع طويلة جميلة كـ «العشاء اللذيذ» لأبي القاسم حالت، وهي قصة آكل لحوم البشر الذي قصد باريس من أواسط الأدغال الكثيفة ليختال تيهاً ويصاحب الغيد الحسان، فلما سئل عن حسناء رئيت معه بالأمس، قال:

لم تكن من رأيتموني وإيّاها، | كما قد ظننتم في المساء
إنما الكاعب الجميلة كانت | إن أردتم أن تعرفوها عشائي!

وكـ «عشق الفلاسفة» لحافظ الشيرازي:

شيمة العاشقين في الحبّ لطف | وغلوّ في المدح والإطراء
وتفانٍ تسمو به الروح في الخلد | سموّ الأبطال والشهداء
لا كلام تسوده غلظة القول | ووعظ يليق بالأنبياء

والحسناء المتسائلة التي ناشدت الشاعر أن ينبئها عن الغادة التي تنفث السحر وتصمي الأفئدة وتبثّ الشّجى في النفوس:

فوضعت المرآة بين يديها | قائلاً: من تَرَيْنَ في المرآة!

لكن أطول القطع وأبدعها، ولا ريب، هي أرجوزة القط والفيران لعبيد زاكاني (المتوفى سنة ١٣٧١م). وهي قصة رمزيّة تعبر عن الإنسان بالحيوان، ولا أملك أن أرويها هنا، وحسبي أن أحيل القارىء عليها ليأنس بقراءتها ويفكر في حكمتها ويخرج منها، كما يخرج من نفحات الخليلي جميعها، بمتعة روحية ولذّة فكرية وسكرة شعرية.

***

عرفت الخليلي وصحبته أعواماً طويلة، وقضيت معه في دار الهاتف والتعارف وغير دار الهاتف والتعارف أوقاتاً ممتعة وساعات هنيئة مغمورة بالمودّة والوفاء، معمورة بالأدب والشعر، عطرة بأنفاس اللذة الروحية والمتعة الذهنية. وكان، إذا سافر أو سافرت، اتصلت بيننا الرسائل، نتبادل الأفكار ونتنسّم الأخبار ونبثّ اللوعة والشكوى، نتأسّى بالأدب، ونفرح فرحة الأديب بالأديب، ونلتقي لقاء القريب للقريب. وحسبي أن أورد أبياتاً أرسلت بها إليه في بيروت في صيف سنة ١٩٦٦ رداً على خطاب منه:

لك منّي، أيا صديق حياتي، | ألف شوق يضوع ملء الجَنَانِ
وسلام مثل النسيم رقيق | وخطاب محمّل بالمعاني

أنـــا في بهجـــة وبسطـــة عيش ورخـــاءٍ يفـــوق حـــدّ الأمـــاني
حـــامـــداً للخليل فضل مـــزايـــا وسجـــايـــا قطـــوفهنّ دواني
بيـــد أنّي ـــ وليس ذلك بِـــدْعـــاً ـ أرهق الفكـــر في اتّهام الـــزمـــان
أسهـــر الليل في اقتنـــاص الـــدّراري وأخـــال المحـــال طـــوع البنـــان
وأراني أردّد اليـــــوم شعـــــراً لحكيـم أضرّه المحبســـــــان :
«علّـــلاني، فـإنّ بيض الأمـــاني فنيت والظـــلام ليس بفـــان!»

وجعفر الخليلي شعر رقيق منـه رثاؤه لقرينته التي توفيت قبل عـدة سنوات من لحاقه بها. قال:

أنســـاكِ، لا والله لا أنســـاكِ أنسى، ومـلء جـــوانحي ذكـــراك؟
البيت بعـــدك مُغْـــوِل لا صـــوت في أرجـــائه إلاّ عـــويل البـــاكـي
والبـــاب بعـــدك مقفـل لا زائر يـأتي ولا ضيـف يـــؤمّ حماك. . .

الشعر في النجف:

حدّثني جعفر الخليلي، قال: كنت جالساً في صباح أحـد الأيام في إدارة جـريدة الهاتف بالنجف، فجاءني رجل يلبس الكوفية والعقال والزيّ البلدي، وقدّم نفسه أديباً من بغداد. فرحبت به أجمل ترحيب، وقال بعد هنيهة: إنني ماضٍ الى الرياض وأرغب في مدح الملك عبد العزيز ووليّ عهـده الأمير سعود طمعاً في صلتهما بعد أن كسد سوق الأدب في العـراق. فهل لـك أن تنظم لي قصيـدتين في المعنى المطلـوب، فقـد خمدت القريحة واشتدت الحاجة وأضنكت اللأواء.

قـال الخليلي: فقلت: إن مجلس الأدب يلتئم في «الهاتف» عصراً، فلعلّك إذا جئت حصلت على مأملك.

وجاء الرجل عصراً فوجد المجلس حافلاً بالشعراء والأدباء. ولما علموا بأمره هشّوا له وبشّوا، وأخذ كل منهم ينظم الشطر والبيت والبيتين حتى استقامت قصيدتان جيّدتان في مدح الملك والأمير. فكتبهما الرجل بخطّه وقرأهما مرة أو مرتين، وسلّم وخرج شاكراً.

ومضت أسابيع قليلـة فإذا بالرجل يعـود، وقد حسنت حالـه وظهرت عليه مظـاهر النعمة. وأخـرج من جيبه بضعة دنـانير وقال: جزاكم الله وجـزى الاخوان عنّي خيراً، فقد أنشدت القصيدتين وفزت بجوائز آل سعود. وهـا أنا ذا قد عدت غانماً، فأرجو أن تعطي هذه الدنانير الى الشعراء الذين تفضلوا عليّ بالنظم.

لكنّ الخليلي أعـاد اليـه النقـود وقـال: لا داعـي للشكـر ولا للمكـافأة، فـاحتفظ بـدنـانيرك. إن الشعـر يجري على ألسنـة أهل النجف، وهي التي قـامت في الصحـراء

وحرمت الماء، كما تجري دجلة في بغداد وكما يجري الفرات في الحلة. ومتى بيع الماء بالنقد؟

حدثني جعفر الخليلي أنه حين أصدر جرائده الفجر الصادق والراعي والهاتف في النجف في مطلع سنوات الثلاثين كان يدعو الى حرية الفكر ومكافحة البدع والخرافات، فكان العوام والمشايخ الجهلة ومن لفّ لفهم يناوئونه ويكفرونه.

كانت إدارة جريدته خارج مركز البلدة يقابلها مقهى لحفّاري القبور وقرّاء الفواتح وأمثالهم وتجاورها أرض عفاء. وفي ذات مساء كان في مكتبه وليس معه سوى عامل واحد شيخ، فإذا به يرى جماعة من العوام والأوباش يحيطون بدار الجريدة وينادون بالويل والثبور ويهددون «الكافر» بالقصاص العاجل لكي يرتدع عن غيه. وكان الجمهور يتزايد والأمر يتفاقم، والخليلي محصور في إدارته لا تلفون لديه ولا سبيل له لطلب المعونة ولا طريق للخلاص. فأحكم غلق باب الدار وسلّم أمره لله منتظراً ما يكون.

وفجأة قدم قادم من المقهى وقال إنّ جنازة «سمينة» جيء بها من الحلة، فصاح القوم وأكثرهم من مرتزقة «وادي السلام» مقبرة النجف: لنذهب الآن ولا يفلت «المارق» من يدنا في فرصة قريبة! ولم تمرّ دقائق معدودة حتى خلا الطريق، فخرج الخليلي وصاحبه وهما لا يكادان يصدّقان بالنجاة - وأسرعا بالمضيّ الى البلدة.

كلمة أخيرة

أصيب الخليلي بداء النقرس واشتدّ عليه الألم. فقيل له: لا تحزن، فالنقرس داء الملوك. قال: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. أيكون كلّ حظي من الملوك داءهم؟

حين اشتدّ الجفاء بين الحكومتين العراقية والإيرانية ونفي آلاف العراقيين من أصل إيراني الى إيران بعد خروج محمد رضا شاه وتولي آية الله روح الله الخميني مقاليد الأمور، خشي جعفر الخليلي أن يبعد الى إيران، فالتجأ مع أسرته في ربيع سنة ١٩٨٠ الى عمّان وأقام فيها. وزار خلال هذه المدة لبنان والمانية الغربية وفرنسة.

وذهب الى دبيّ بالإمارات العربية المتحدة لزيارة ابنته ابتسام فتوفي ودفن فيها في ٢ شباط ١٩٨٥.

وكتب أكرم زعيتر على أثر وفاة جعفر الخليلي يقول إن لقاء الخليلي متعة للذهن وترويح للنفس وحديثه ينم على حضور البديهة وبراعة النكتة وسعة الاطلاع ولطافة الاستطراد وطرافة الاستشهاد بالشعر.

وقال إن الحديث دار معه حول ضعف الذاكرة ونسيان الأسماء فأنشد الخليلي:

أفـــرط نسيـــاني الى غـــايـــة لم يــــدع النسيـــان لي حسّـــا
فصرت إمـــا عـــرضت حـــاجـــة مهمـــة أودعتهـــا الطـــرســـا
فصرت أنسى الطـــرس في راحتي وصر ت أنســـى انـنـــي أنســـى

وقيل له : إن جميع صحفيي العراق يلقبونك «أبو الصحافة العراقية» ، فأجاب : «أنا أبوها حين يريدون لعنها بقولهم : لعن الله أبا الصحافة!» .

وقـال زعيتر إنه علم أن الخليلي ألف في عمان كتـاب «مما احتفظت بـه الذاكـرة من الخواطر» وكتاب «الشعر العربي والغناء» وقصة تمثيلية عنوانها «رهبان بلا دير» .

جعفر الخليلي : وفاته

حين علمت بوفاة الصديق جعفر الخليلي بادرت إلى الكتابة إلى ابنته فريدة معرباً عن ألمي وحزني لهذا النبأ الفـاجع . وقلت انه حيّ بآثـاره الأدبية وحيّ ببناتـه ، واستشهدت بأبيات من قصيدة أحمد شوقي في رثاء شيخ وزراء مصر مصطفى فهمي باشا :

انّ البنـــات ذخـــائر مـن رحمة وكنـــوز حبّ صـــادق ووفـــاء
السّـــاهـــرات لعلّـــة أو كبرة والصـــابـــرات لشـــدّة وبـــلاء
والبـــاكيـــاتك حين ينقطـع البكـــا والـــزائراتك في العـــراء النـــائي . . .

وقد جاءني جوابها يقول : «بكيت اليوم بكاء مراً . ولا يعني أنني نسيت البكاء ، فهو يرافقني منذ رحيل أبي ، لأنني فقدت صـديقاً وانساناً وأباً ومؤنساً في الـوحدة والغربة ، وبكائي اليوم جاء حسرة على أبي الذي مات وهو يلهج بك ، مات وهو لا ينساك قط . مات في قلبه حسرة على من عرفهم وأحبّهم . رسالتك أثـارت شجوني ، أثارت ذكريات تلك الأيـام الحلوة في داركم العـامرة ومـأكولات السيـدة اللذيـذة والبنات الجميـلات الحبيبات . كان عسيراً علينا أن ننساكم حتى في أوج محنتنا وغربتنا» .

ثم قالـت ان أباها كـان يعاني الآم النقـرس والضغط العالي والقلب واشتـدت عليه الوحدة القـاسية ، وليس معه غير ابنته فـريدة التي رافقته في كل مكـان . وقد مضيا في السنوات الأخيرة إلى المانية وفـرنسا وسويسرا . وقالت انه كان يـزور أختها في دبي شتاء . وشـاء القدر أن تـذهب فـريدة معـه لأول مرة ، فأصيب هنـاك بجلطـة قويـة ونقل إلى المستشفى حيث عاش أسبـوعاً وهـو يتمتع بالصحـة والراحة والعنـاية الفـائقة . ونظم الشعـر الجميل في مـدح الطبيبات والعـاملين على راحتـه . . . لكنـه توفي في ٢ شبـاط ١٩٨٥ ، وأقيمت الفـواتح على روحه في سـوريـة ولبنان ودبّي والشـارقة . وجـرى تأبين الأربعين في سورية والشارقة وفي مصر برعاية نادي الأدب الحديث . . .

وقد رثاه الدكتور صفاء خلوصي المقيم في اكسفورد ، قال :

أو هكــــــذا تمضي السنــــــون والـــــدمع مـــــدرار هتـــــون؟
يـــــا (جعفـــر) العلـم الغــزيــــر وكــلّ أنماط الفنــــــــــــون
كنـت المجلي في القـــــريــض وفـــــارس النشــــر المبين . .

الدكتور متّى عقراوي

من رجال التربيـة ، ينتمي متّى يوسف عقـراوي إلى أسرة تجارية معـروفة ، وقـد ولد بالموصل في ٩ كانون الأول ١٩٠١ ودرس في جامعة بيروت الأميركية .

وعيّن مـدرسـاً في دار المعلمين ببغداد في ايلـول ١٩٢٤ وألف «مـذكـرات التـاريخ القديم» (١٩٢٧) .

ثم درس علم التربية في جامعة كولمبية في نيـويورك ونال فيها درجة الدكتوراه . وعيّن مديراً لدار المعلمين (ايلول ١٩٢٩)، ثم تقلب في منـاصب وزارة المعارف وأصبح مديراً لمعـارف كركـوك والحلـة . ونقل بعد ذلك استـاذاً في دار المعلمين العـالية ، وأنيطت بـه عمادتها وكالةً (آب ١٩٣٧) فأصالة (آب ١٩٤٠) .

وعيّن مـديراً عـامـاً للتعليم العـالي بوزارة المعـارف (تشرين الأول ١٩٤٥)، واختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي عند تأليفه في كانون الثاني ١٩٤٨ .

وأعيرت خدمـاته إلى منظمـة التربية والثقافـة والعلوم التـابعة لهيئـة الأمم المتحدة في باريس (اليونسكو) في شباط ١٩٤٩ . . وعـاد إلى العراق فكان أول رئيس لجامعة بغداد (١٩٥٧) . واعتـزل رئاسة الجامعـة بعد ثـورة تموز ١٩٥٨ وعـاد إلى العمل في مؤسسـة اليونسكو التي كلفته بمهام تربوية في أنحاء مختلفة من العالم .

ثم عيّن أستاذاً في جـامعة بيروت الأميركيـة حتى اعتزل العمل سنـة ١٩٧٤ وأقام في بيروت . وقد توفي بها في سنة ١٩٨٢ .

وضع الدكتور عقراوي مؤلفات عديدة ، منها :

مشروع التعليم الاجبـاري في العـراق (١٩٣٧) العـراق الحديث (ألفـه بـاللغـة الانكليزية ثم نقله إلى العربية بمسـاعدة الدكتور مجيد خدوري (١٩٣٦) اصلاح الخط العـربي (١٩٤٥) محاضرات في تطويـر البرامج (١٩٦٤) . وقد اشترك في تأليف كتـاب «التربيـة في الشرق الاوسط العربي» (١٩٥٠) ووضع «تقـرير عن التعليم في الكـويت» (١٩٥٥) . واشترك في ترجمة كتاب الديمقراطية والتربية للاستاذ جون ديوي (١٩٤٦) .

وقـد كان متى عقـراوي من المربّين ذوي الشأن في تـاريخ معـارف العراق بين سنـة ١٩٣٠ ـ ٥٨ . عنـي في بادىء الأمر بشـؤون التعليم الاجبـاري والتربية الأسـاسيـة ، ثم اهتم بنشر التعليم العالي وتطويره ورسم مناهجـه . وفي محاضرة له ألقاها في نادي القلم

العراقـي ونشرت في مجموعته الاولى (١٩٣٨) عـن التعليم الاجباري في العـراق، قال: «خير ضمان لحياة هـذه البلاد يقظـة الأمة بـرمَّتها، وهـذا لا يتّم الاّ بالتعليـم الابتدائي الاجباري». ثم مضى إلى وضع منهاج لتعميم التعليم الابتدائي وانشاء المدارس الكافية وتهيئة المعلمين واحضار المال وسائر اللوازم لتنفيـذ المشروع ومعالجة المشاكل التي تعتور ذلك التنفيذ كتوزيع السكان وتنظيم الاحصاء وتعليـم البنات وتنويع المناهج الحضرية والريفية وهلم جراً.

وهيىء له أخيراً أن يخدم التربيـة والثقافة في البلاد العربيـة عامة عن طريـق مؤسسة اليونسكو الـدولية، سابقاً في هـذا المجال طائفة من المربّين العـراقيين كخالد الهاشمي وعبد الحميـد كاظم وأقرانهما. وقال الـدكتور عقراوي: «من واجبات الجامعـة في العالم العربي أن تنمّي اللغة العـربية وتجد المفردات اللازمة ليصبح بـالإمكان استعمالها كعامل فعّال للتعليم وللتعبير عن الفكر العربي، سواء أكان هـذا الفكر علمياً أو تكنولوجياً أو انسانياً أو اجتماعياً».

حسين الرحّال

من أدباء العـراق المتحررين، ولـد حسين الرحال ببغـداد في ٢١ آب سنة ١٩٠٠، وأصل أسرته من بلدة راوة تعـرف بآل يحيى، اشتهرت بالتجارة بين نجـد والعراق والهند والحجاز وسوريـة ومصر، وقد انتقل جده عبد الـرحمن الرحّال إلى بغداد فـاتّخذها سكناً له.

سافـر حسين إلى أوروبة بعد نهاية الحرب العظمى ودرس في ألمانيـة. ثم قفل راجعاً إلى بغداد سنة ١٩٢٠ وانتمى إلى مدرسة الحقـوق ونال اجازتها (١٩٢٩). وأصدر مجلة الصحيفة (كـانون الأول ١٩٢٤) فكانت من الصحف المتحررة، ولم تـدم الاّ شهرين. ثم كان مديراً مسؤولاً لجريدة «سينما الحياة» التي أصدرها ميخائيل تيسي في كانون الاول ١٩٢٦.

ووظّف مترجماً في ديوان وزارة الخارجيـة (١٩٣١) فوزارة الـدفاع والـداخلية وأصبح بعد ذلك مميزاً للمطبـوعات الخارجية بمديريـة الدعاية العامة (نيسـان ١٩٣٧) فمدير الإدارة في أمانة العاصمة (شبـاط ١٩٤٥). ودعي إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط في ايلول ١٩٣٩.

وتولّى مديـرية الاذاعة في آذار ١٩٤٨. وعيّن مديـراً للإدارة المحلية بوزارة الـداخلية (ايار ١٩٥٠).

ثم نقلت خدمـاته إلى إدارة السكك الحديديـة فأصبح سكرتيراً لمجلس إدارتها (تموز ١٩٥٤).

واعتزل الخدمة، وتوفي ببغداد في ١٣ نيسان ١٩٧١ .

كان كاتباً أديباً واسع الثقافة بحث عن الاشتراكية والتطور الإقتصادي ودعا إلى تحرير المرأة في أوائل العشرينات، ونقل جانباً من أشعار ناظم حكمت عن التركية . وقد أجاد اللغة الانكليزية واطّلع على آدابها .

وشارك في تأليف كتاب «الإدارة المركزية والإدارية المحلية في العراق» (١٩٥٣) .

عباس فضلي خمّاس

من الكتّاب المعروفين عباس فضلي خمّاس أخو اللواء حسين مكي خماس، ولد ببغداد سنة ١٨٩٩ . وانتمى إلى دار المعلمين بعد الاحتلال البريطاني فتخرج فيها وعيّن معلماً (شباط ١٩١٨) وكان في سنة ١٩٢٠ ـ ٢١ يكتب في جريدة الاستقلال بتوقيع «الكسائي الصغير» . ودخل بعد ذلك دار المعلمين وأوفد لاكمال دراسته في انكلترة، لكنه عاد قبل الحصول على الشهادة .

وعاد إلى سلك التعليم، ثم استقال وأصدر مجلة (الطلبة» الاسبوعية (كانون الثاني ١٩٣٢)، فلم تدم طويلاً . وعيّن في دائرة الحسابات بوزارة الدفاع (١٩٣٣) وأصبح رئيساً لديوان وزارة الدفاع (ايار ١٩٣٧) فمفتشاً للطابو (تموز ١٩٣٩)، ونقل رئيساً لتسوية حقوق الأراضي (تشرين الثاني ١٩٤٧) . وعّين مديراً عاماً للتسوية في كانون الثاني ١٩٥٠ ، وأدركه الحمام سنة ١٩٥٢ .

كان عباس فضلي مولعاً بالأدبين العربي والتركي، وقد ترجم عن الانكليزية كتاب منازع الفكر الحديث (طبع ١٩٥٦) من تأليف كيرل ادوين ماتجنسن جود .

محيي الدين يوسف

من رجال التربية والتعليم، ولد محيي الدين يوسف في الموصل سنة ١٩٠٣ وأتم تحصيله في مدارسها . ثم أوفد ضمن البعثة الدراسية إلى جامعة بيروت الأميركية (١٩٢٢) فنال شهادة بكلوريوس علوم سنة ١٩٢٦ . وعيّن مدرساً للرياضيات في المدرسة الثانوية بالموصل، ثم نقل إلى بغداد . وعيّن مديراً للمدرسة المتوسطة الشرقية ببغداد فمديراً لثانوية الموصل فمديراً لمعارف منطقة كركوك (نيسان ١٩٣٣) . ونقل مراقباً للتعليم الابتدائي بوزارة المعارف فمديراً للتعليم الثانوي (نيسان ١٩٣٧) .

وعيّن استاذاً في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٤١) فمديراً للتعليم الثانوي مرة ثانية (شباط ١٩٤٣) فمفتشاً عاماً للمعارف (آب ١٩٤٦) فمديراً عاماً للتعليم

العالي . وأعيد إلى التدريس في دار المعلمين العالية (كانون الأول ١٩٥٣) وظلّ يدرّس فيها حين أصبحت تعرف بكلية التربية .

واختير عضواً في المجمع العلمي العراقي (آذار ١٩٤٩) . وأدركته الوفاة في بيروت في ايلول ١٩٥٩ .

نشر محيي الدين يوسف بحوثاً في العلوم والرياضيات . وقد اشترك في ترجمة كتاب «نظرية الأعداد» ، ونقل إلى العربية «مقدمة الرياضيات» من تأليف وايتهيد (١٩٥٢) .

مكّي الجميل

الكاتب الصحفي ورجل الإدارة والقضاء مكي بن عبد المجيد الجميل ، أخو حسين جميل وابن عمّ الشاعر حافظ جميل . وقد كان أبوه عبد المجيد بن أحمد جميل (١٨٨٠ ـ ١٩٧١) من رجال الفقه ، تخرّج في مدرسة الحقوق ببغداد (١٩١٢) وكان حاكماً في المحاكم المدنية (١٩١٩ ـ ١٩٤٦) .

ولد مكي الجميل ببغداد سنة ١٩٠١ ، ودرس في مدارسها ، ووظّف في ايلول ١٩٢٠ .

وأصدر في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٣ جريدة «الغربال» الاسبوعية ، فدامت نحواً من ستة أشهر . وانتمى إلى مدرسة الحقوق فنال إجازتها سنة ١٩٢٧ . وعيّن مديراً لتحرير لواء الموصل (ايلول ١٩٣١) فمدير ناحية المحاويل (١٩٣٣) . ونقل مديراً لناحية شثاثة ثم استقال في حزيران ١٩٣٥ وزاول المحاماة . وانتخب نائباً عن لواء ديالى في شباط ١٩٣٧ ، وأصدر جريدة الحارس (تشرين الثاني ١٩٣٦) فجريدة «الانقلاب» .

وانخرط في سلك القضاء فعين حاكماً لتحقيق البصرة (تموز ١٩٤٣) فحاكم صلح الحلة (آب ١٩٤٤) . وكان بعد ذلك قائممقام لقضاء القرنة فمعاوناً لمتصرف البصرة (ايار ١٩٤٦) فقائممقام قضاء عنة (حزيران ١٩٤٦) فقضاء المحمودية (١٩٤٧) . وعيّن متصرفاً للواء الدليم (١٩٤٨) فالحلة (١٩٤٩) فكربلاء (تشرين الثاني ١٩٥٠) فمديراً عاماً للتسوية (آب ١٩٥٢) . ونقل بعد ثورة ١٩٥٨ مديراً عاماً للبلديات فوكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية (١٩٥٩) . وكان سفيراً للعراق في الأردنّ فالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٦٥ .

مؤلفاته : مباحث في الإصلاح (١٩٥٥) البدو والقبائل الرحالة في العراق (١٩٥٦) .

تاريخ المسألة الشرقية (١٩٢٦) مباحث في نظام إدارة أموال الأيتام (١٩٣١) نظرات في قانون العقوبات العراقي الجديد (١٩٣٢) البداوة والبدو في البلاد العربية (١٩٦٢) التخطيط الموحد للتنمية الاجتماعية والاقتصادية (١٩٦٦) تعليقات على نظام دعاوى العشائر وتعديلاته (١٩٣٥) توطين البدو (١٩٦٦) نفحات اسلامية (١٩٦٦) .

كان مكي الجميل من رجال الإدارة العاملين المفكرين، ودعا في كتاباته إلى الإصلاح وتوطين البدو وتعليمهم الزراعة وتوفير الماء لهم ورفع مستوى القرى والارياف.

توفي مكي الجميل ببغداد في ٨ ايار ١٩٧٣.

عبد الرزاق الحسني

مؤرخ العراق الحديث ومسجّل وقائعه وأحداثه، وهو عبد الرزاق بن السيد مهدي البغدادي الحسني آل السيد عيسى، وتعرف الأسرة بـ «آل العطار». ولد ببغداد سنة ١٩٠٣ ودرس في المدرسة الجعفرية ودار المعلمين الابتدائية. مال إلى الكتابة والصحافة شاباً، وساعد محمد عبد الحسين في إصدار جريدة الاستقلال النجفية في تشرين الأول ١٩٢٠.

وكان محرراً بجريدة المفيد البغدادية لصاحبها ابراهيم حلمي العمر. وأنشأ في أول أيلول ١٩٢٥ جريدة الفضيلة ووالى اصدارها، ثم انتقل إلى الحلة وأصدر فيها جريدة الفيحاء (٢٧ كانون الثاني ١٩٢٧).

عاد إلى بغداد فعيّن موظفاً في وزارة المالية (تشرين الأول ١٩٢٧) وخدم في الحلة وديالى وبغداد، ونقل بعد ذلك إلى دائرة الري فمديرية البريد والبرق العامة. وفصل من الخدمة بعد أحداث مايس ١٩٤١ واعتقل في الفاو والعمارة حيث قضى أربع سنوات. وأعيد إلى الوظيفة بعد الحرب العالمية، ورفع معاون مدير بريد مركزي في تشرين الأول ١٩٤٩، وانتدب للعمل في ديوان مجلس الوزراء وعهد إليه بتنظيم سجلات تاريخ الدولة حتى أحيل على التقاعد في أواخر سنة ١٩٦٤. وحضر مؤتمر المستشرقين الدولي في موسكو سنة ١٩٦٠.

صنف كتباً كثيرة تناولت تاريخ العراق وحوادثه منذ الاحتلال البريطاني فضلاً عن أديانه ونحله وبلدانه وصحافته، فأعيد طبعها مراراً وأصبحت مصادر لتاريخ هذه الحقبة.

من مؤلفاته: تاريخ الوزارات العراقية (١٠ أجزاء ١٩٣٣ ـ ٦١) تاريخ الثورة العراقية (١٩٣٥) أسرار الانقلاب (١٩٣٧) العراق في دوري الاحتلال والانتداب (في جزءين ١٩٣٧ ـ ٣٨) الأسرار الخفيّة في حوادث السنة ١٩٤١ التحررية (١٩٥٨) تاريخ العراق السياسي الحديث (ثلاثة أجزاء ١٩٤٨) الثورة العراقية الكبرى (١٩٥٢) العراق في ظلّ المعاهدات (١٩٤٨) العراق قديماً وحديثاً (١٩٤٨) الأصول الرسمية لتاريخ الوزارات العراقية (١٩٦٤) تحت ظلّ المشانق (١٩٢٤) رحلة في العراق (١٩٢٥) موجز تاريخ البلدان العراقية (١٩٣٠) اليزيدية أو عبدة الشيطان (١٩٢٩) البابيون في التاريخ، تعريف الشيعة، الصابئة قديماً وحديثاً (١٩٣١) الأغاني الشعبية (١٩٢٩) البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥٧) تاريخ الصحافة العراقية

(١٩٣٥) الخوارج في الإسلام، الصابئون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥٥) اليزيديون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥١) ثورة النجف (١٩٧٢)الخ .

قال محمد رضا الشبيبي يقدّم الجزء الاول من تاريخ الوزارات العراقية :

« . . . وقد أطلعني الكاتب الأديب المعروف السيد عبد الرزاق الحسني على الكتاب الذي جرّده في هذا الباب ، فإذا به يتوخّى جمع الحوادث وسردها سرداً لا يقصد من ورائه الا عرض الوقائع كما هي بدون أن يستبطن أسرارها أو يذهب إلى التفكير في هذا ونحوه ، متخلصاً بذلك من كلفة التأويل وكثرة القال والقيل . وبالجملة فالكتاب سجّل خاص سجلت وجمعت فيه حوادث العراق السياسية على اختلافها ، وذلك من قيام الحكم الوطني إلى الآن . فللمؤلف في عمله هذا فضيلة التنقيب عن الوقائع وجمعها من مظانّها ، ثم تبويبها وترتيبها على وجه يجعلها قريبة التناول ، هذا مضافاً إلى بعض الشروح والتعاليق ونحو ذلك ، ممّا يدل على أن الغيرة الصالحة وحبّ المساهمة في خدمة البلاد من حيث نشر تاريخها بقدر الطاقة وضمن المقدور من جملة البواعث التي بعثت على تأليف الكتاب . . . » .

ولئن صحّ ما قاله الشبيبي في مؤلَّف عبد الرزاق الحسني عام ١٩٣٣ ، لقد عمد الحسني بعد ذلك إلى توسيع نطاق بحوثه واستقراء الحوادث وتعليل أسبابها ومآتيها واستجلاء حقائقها واستنطاق أبطالها ، حتى لقد ترك آثاراً تسترشد بها الأجيال الآتية في تدوين تاريخ العراق في هذه المرحلة الخطيرة من مراحله . ومع كثرة الصحف والمطبوعات والمذكرات التي سجّلت أحداث هذه الحقبة فانّ جمعها وتحقيقها في مؤلفات الحسني الكثيرة ليهيىء مورداً عذباً ميسوراً لمؤرخ المستقبل . يضاف إلى ذلك انّ إكباب الحسني على عمله واتصاله بمعظم المسؤولين المتصلين بالأحداث والناهضين بأعباء الحكم ووجوده في ديوان مجلس الوزراء أعواماً غير قليلة يرجع إلى وثائق الدولة في منبعها كلّ ذلك قد أتاح له فرصة الاستفادة والافادة على وجه قلّما أتيح لغيره .

ان المؤرخين العرب الذين سجلوا أحداث زمانهم على طريقة السنين أو غيرها لا يحصرهم العدّ ، وقد تركوا للأجيال المتعاقبة كنوزاً ثمينة من الأخبار والأنباء كانت لولاهم تضيع في مجاهل العصور. ولعلّ الحسني يمكن تشبيهه ــ مع فارق الزمن ـ بالمؤرخ الفرنسي الراهب فرواسّار Froissart (١٣٣٧ـ ١٤١٠) الذي سجّل في «أخباره التاريخية» حوادث عصره وحروب زمانه ، وعرف بدقّة تفاصيله وصحّة نقله . لقد تجشّم الرجل مشاقّ السفر إلى أنحاء أوروبة ، واتصل بأمرائها وكبرائها ، وسأل رجالها عن الأمور التي شهدوها والوقائع التي شاركوا فيها ، ودوّن كل بذلك بأمانة في تاريخه . ولم يكتف بذلك بل رسم صورة رائعة لذلك العهد من تاريخ فرنسة وحربها الطويلة مع انكلترة ، وأحيي تقاليد فروسيّة القرون الوسطى وحفلاتها ومآثرها وشهامتها . ولم يكن هو نفسه فارساً من أصحاب تلك الفروسية التي تتصل بصلة وثيقة بالفتوة العربية ،

لكنه شهـد مبارياتها واستنطق رجـالها فدون ما رآه وسمعـه ، كما دوّن المعارك والحوادث السياسيةِ ، حتى قال فيـه بعض النقاد : «لقد صوّر زمانه تصويـراً رائعاً ، لكنه لم يفهمه الاّ قليلاً . فإنّ جعجعة التاريخ قد غطّت لديه على معناه» .

وأقـول أخيراً ان عبد الـرزاق الحسني زار لندن مـراراً للاصطيـاف والمعالجة الطبيـة . وكانـت آخر زيارة لـه سنة ١٩٨٣ ، ثم عـاد إلى بغداد وأصيـب بالشلل ولا يـزال قعيد الفراش (١٩٩٢) .

محمد رضا المظفر

ولـد في النجف سنــة ١٩٠٤ من أسرة علميــة ودرس في معـاهــدهــا . ثم زاول التدريس ، ومال إلى استصلاح طرق التعليم القديمة في بلده . وكان من مؤسسي جمعية منتدى النشر سنة ١٩٣٥ واختير سكرتيراً لها ثم معتمداً .

قـال جعفر الخليلِ في الجزء الثـاني من كتـابـه «هكذا عـرفتهم» : «والمتتبع لتـاريخ الشيخ محمد رضا مظفر يجد أن بين النصف الأول من عمره والنصف الثاني تبايناً كلياً في طريقة التفكير وفهم الحيـاة وأهداف الدين . فقد كانت الـرجعية تتغلب عليه وتتملّك كل تصرّفاتـه في نصف عمره الأوّل ، لكنـه ما كاد يخطـو إلى الثلاثين حتى ظهـرت عليه بوادر التجديـد والدعوة الصحيحة السليمة إلى الإصلاح الـديني وتنزيهه من الشوائب التي علقت بـه ، الأمـر الـذي حدا بـه إلى البحث في إيجاد الحلقـة المفقـودة وإلى تنظيم الدراسة الدينية وتثبيت مناهجها» .

وقد سعى لتأسيس مـدرسة حديثة تـابعة لمنتدى النشر وفتح صفوف لخطبـاء المنابر الحسينية ووضع كتب تدريس عصرية لطلبـة النجف . وأينعت جهوده في تأسيس كلية الفقه في النجف ، أجازتها وزارة التربية في ٣٠ تشريـن الثاني ١٩٥٨ ، وأصبح هو نفسه عميداً لها .

انتخب عضـواً بـالمجمع العلمي العـراقي في آب ١٩٦٣ . وتـوفي بـالنجف في ٣١ كانون الثاني ١٩٦٤ .

من مؤلفاته : السقيفة (١٩٤٩) عقـائد الإمامية (١٩٥٤) المنطق (٣ أجزاء ١٩٤٨) أصـول الفقه (٣ أجـزاء) (١٩٥٩ ـ ٦٢) ابن سينـا ، إلخ . ولـه شعر وبحـوث لغويـة وتاريخية وفلسفية .

وقد حقق ونشر كتبـاً مختلفة ، ونشر الجزء الرابع من كتابـه «أصول الفقه» بعد وفـاته (١٩٧١) .

قال في تأبينـه الشيخ محمد رضا الشبيبي : «واقترن لديـه العرفان بالإيمان وبـالعاطفة

الـروحيـة، ولا يخفى أن المربي الصـالح والـراعـي الـرفيق هـو الـذي يجمع بين هـاتين الخصلتين».

وهو محمد رضا بن محمد بن عبـد الله بن محمد بن أحمد بن مظفر النجفي، كان أبوه فقهيـاً اماميـاً توفي في النجف سنـة ١٩٠٤ ووضع كتـاباً في «شرح شرائع الإسـلام» في مجلدين.

الدكتور جواد علي

المؤرخ البحاثـة الدكتـور جواد بن محمـد علي يمتّ بصلة نسب إلى السيـد محمد بن السيد أحمد الحسيني المعروف بالمنشيء البغدادي الـذي ترجم عباس العزاوي رحلته إلى ديار الكرد ونشرها سنة ١٩٤٨.

وردّ الدكتور حسين علي محفوظ أسرته إلى عكيل وقال انه ابن الحاج محمد علي المنشي بن محمد حسين بن قاسم.

ولـد جواد علي في الكـاظميـة سنـة ١٩٠٧، وتخرج في دار المعلمين العاليـة ببغـداد (١٩٣١).

وقد عيّن مدرساً في أول تشرين الأول ١٩٣١، ثم أوفد لـدراسة التاريخ الإسلامي في ألمانيا، فنـال شهادة الدكتوراه من جـامعة هامبرغ سنـة (١٩٣٩). وقد اعتقل في آذار ١٩٤٢ ثم أفرج عنه.

وعيّن مـدرساً في دار المعلمين الابتـدائيـة (ايلـول ـ ١٩٤٣) فسكـرتير لجنـة الترجمة والتأليف والنشر بـوزارة المعارف (١٩٤٧) فسكرتيراً للمجمـع العلمي العراقي (كـانون الثاني ١٩٤٨) فأستاذاً بدار المعلمين العالية (ايلول ١٩٥٦).

وقد أصبحت الـدار كلية للتربية وألحقت بجامعـة بغداد، فظلّ استاذاً فيها أعـواماً طويلة. واختير استـاذاً زائراً في جامعة هارفارد سنة ١٩٥٧/ ٥٨ وبعـد ذلك في جامعة لندن (١٩٦١/ ٦٢).

وقد كان عضواً بالمجمع العلمي العراقي (كانون الثاني ١٩٤٨) إلى نيسان ١٩٦٢). واختير عضواً مراسلاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة في نيسان ١٩٥٦.

وضع مؤلفات تـاريخية عديدة أشهرهـا كتابه «تاريخ العـرب قبل الإسلام» في ثمانية أجزاء (١٩٥١ ـ ٦٠)، وقـد أصبح مرجعاً في موضـوعه. وله أيضاً: تـاريخ العرب في الإسـلام، صدر منـه جزء واحـد (السيرة النبويـة، ١٩٦١)، أصنام العـرب (١٩٦٧) تاريخ الصلاة في الإسلام (١٩٦٨) الخ.

أعيد تعيينـه عضواً بالمجمع العلمي العراقـي إثر إعادة تأليفه في أيـار ١٩٧٩. وقد وضع أخيراً «معجم ألفاظ الجاهليين» وتوفي في بغداد في ٤ تشرين الأول ١٩٨٧.

توفيق الفكيكي

من رجال الأدب والصحافة والقانون، وهو توفيق بن علي بن ناصر بن محمد سعيد الفكيكي، ينتسب إلى الفكيكات من فروع قبائل ربيعة.

ولد ببغداد سنة ١٩٠٠، ودرس الفقه وعلوم اللغة على الشيخ كاظم السّاعدي وعبد الوهاب البدري في سامّراء والشيخ شكر الله القاضي الجعفري في بغداد، وتتلمذ بعد ذلك على الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في النجف. وامتهن التعليم أمداً، واشترك في ثورة ١٩٢٠، وحرر في جريدة «المفيد» (١٩٢٢). ثم درس القانون في مدرسة الحقوق ببغداد وتخرّج فيها وتعاطى المحاماة.

كان المدير المسؤول لجريدة الكرخ التي أصدرها عبوّد الكرخي في كانون الثاني ١٩٢٧. وأنشأ توفيق الفكيكي بعد ذلك جريدة اسبوعية باسم «النظام» (٢٢ آب ١٩٢٧)، فعطلت إثر صدور عددها الأول. كان مديراً مسؤولاً لجريدة نداء العمال (تشرين الثاني ١٩٣٠)جريدة «الرياض» في شباط ١٩٣١.

وانخرط في سلك القضاء في كانون الثاني ١٩٣٤ فعين حاكماً لصلح سامراء فخانقين (١٩٣٤) فمعاون رئيس تسوية (آذار ١٩٣٦) فحاكماً للصلح في النجف فكربلاء (ايار ١٩٣٨) والكاظمية (آب ١٩٤١) فالأعظمية (كانون الثاني ١٩٤٢) إلى سنة ١٩٤٣. وقد أصدر جريدة «الرعد» (آذار ١٩٤٨)ورئس تحرير جريدة «القبس» (١٩٥٢). وانتخب نائباً عن لواء المنتفق في ايلول ١٩٥٤ إلى آذار ١٩٥٨.

وقد تطوّرت آراء الفكيكي على مرّ السنين، فكان سنة ١٩٢٤ في طليعة المناهضين لسفور المرأة. لكنّه في كانون لثاني ١٩٥٨ قدّم اقتراحاً إلى مجلس النواب لتعديل الدستور والاعتراف بحقوق المرأة السياسية.

وأدركته الوفاة ببغداد في ٢٢ تموز ١٩٦٩.

والفكيكي كاتب بليغ، مشرق البيان، أنيق الديباجة، له مؤلفات كثيرة في الفقه والقانون والأدب، منها: الحجاب والسفور (١٩٢٧) كتاب المتعة (١٩٣٧) المعاهدات في الإسلام، المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي، سكينة بنت الحسين (١٩٥٠) الراعي والرعية (جزءان ١٩٣٩ ـ ٤٠) شجرة العذراء (١٩٦٢) النخيل (شعر ونثر، ١٩٦٤)، رسالة في سياسة الإمام جعفر الصادق، رسالة في فقه الوقف المقارن، الدين والأخلاق (١٩٣٩) أدب الفتوة والدعاية العسكرية عند العرب (١٩٤١) دفاع عن الشاعر أبي العتاهية، أقرب الوسائل لنشر الحضارة الصحيحة في العراق (١٩٣٨)، الإمام جعفر بن محمد (١٩٤٧) عبقرية الشبيبي (١٩٤٥) هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق (١٩٥٢) دفاع عن شعراء (طبع ببيروت ١٩٧٥) رسالة في حماية الحيوان في شريعة القرآن، الخ..

كان فطناً واسع الاطلاع، حلو الحديث، قصير القامة، نحيل الجسم، لـه عينان صغيرتان زئبقيتان تشعّان ذكاءً تحت زجاج النظّارة. يروى عنه أنه كان يسير مع المحامي خالد الـدرّة صاحب مجلة «الوادي» فاعترض سبيلهما شحّاذ شيخ وقـال مخاطباً الدرّة: «حسنة لوجه الله، حفظ لك هذا الصبّي».

فصاح الـدرة: «هذا الصبّي! انـه في عمر جـدّي!» ثم تمثّل الدرة ــ والعهدة على الراوي ـ بأبيات لاسحٰق بن خلف البهرائي من شعراء القرن الهجري الثالث:

مـــا سرّني أنني في طـــول داود | واننـــي علـــم في البـــأس والجود
مـــاشيت داود فـاستضحكت من عجب | كـأنني والـــد يمشي بمـــولـــود!

وقد أبنّه حافظ جميل فقال:

سـأظـلّ أجهش بـــالنحيب | أبكـي الأديب أبـــا أديـب
أبكي خصـــالاً مـــا نفحن | على المدى غير الطيـــوب
أبكـــي الجواد الأريحيّ | خـــلا من النـــدّ الضريب
شهـم يجوع ولا يـــردّ | ســؤال محتـــاج حـــريب
لم يـــدّخـــر في يـــومـــه | مـــا عنـــده لغـــدٍ قـــريب
فكـأنـــه يجد الغنـى | شرّ الخطـــايـــا والـــذنـــوب
يعطـي ويخشـى أن يـــرى | غير المروءة مـــن رقيـــب
يـــا ذروة الخلق الـــرفيع | وواحـــة الفكـــر الخصيب
لاالسقـم جـــرّك للخمـــول | ولا المشيـب إلى نضـــوب
لم تشـك ليـــلاً مـن سهـــاد | أو نهاراً مـن لغـــوب
الا مـــذاب حشـــاشـــة | مـــرهـــونـــة بيـــد المذيب
تـأبـى مجابهة الحيـــاة | بما ينـــمّ عـــن الهروب
وتـــرى السعـــادة كلهـــا | في همّة الشيـخ الـــدؤوب...

ووصف أدبه قبل ذلك عبد القادر رشيد الناصري فقال:

أدب كسلســال الصفـا يترقــرق | سحـــر العقـــول رواؤه والـــرّونـق
نظمت لآلئـــه بـــراعـــة عـــالم | يملي عليـــه فـــؤاده والمنطـق...

الدكتور أحمد سوسة

ولد نسيم بن موسى اسحق سوسة في الحلة في ١٠ حزيران ١٩٠٠ وكان أبوه من الملاكين، وعضواً في مجلس إدارة لواء الحلة، وقد أنشأ بعد الحرب العظمى الأولى مشروع الكهرباء في بلدته. وقد تسمى نسيم بعد اعتناقه الاسلام باسم «أحمد».

درس في الجامعة الاميركية في بيروت، ثم قصد الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٢٣ فتخرج مهندساً مدنياً في كلية كولورادو (١٩٢٧). وواصل دراسته في جامعة جورج واشنطن (١٩٢٨) وحصل على الدكتوراه من جامعة جونس هوبكنس سنة ١٩٣٠.

عاد إلى بغداد فعيّن معاون مهندس ريّ (أول نيسان ١٩٣٢)، ثم أصبح مديراً لريّ ديالى فالحلة، واعتنق الديانة الاسلامية بعد التأمل والقناعة في مصر في تشرين الثاني ١٩٣٦، ووضع في ذلك كتاب «في طريقي إلى الاسلام» في جزءين. وأوفد إلى المملكة العربية السعودية حيث تولى إنشاء مشروع الخرج الزراعي جنوبيّ مدينة الرياض (١٩٣٩ ـ ٤٠).

وقام خلال الاعوام العديدة التي قضاها في دائرة الريّ بدراسات فنية في أنحاء العراق. ثم نقل في أيار ١٩٤٥ مميزاً للترجمة والنشر بوزارة المعارف. وأسندت إليه مديرية المساحة العامة في تشرين الاول ١٩٤٧، ثم نقل مديراً عاماً لديوان وزارة الزراعة في تموز ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦، فمدير المساحة العامة ثانية إلى ١٩٥٧.

عيّن عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الاول ١٩٤٩ وانتخب نائباً ثانياً لرئيسه في تشرين الأول ١٩٥٩ فاستقال فوراً. وانتهت عضويته بالمجمع عند إعادة تأليفه في حزيران ١٩٦٣. وأعيد تعيينه عضواً بالمجمع في ايار ١٩٧٩. وتوفي في بغداد في ٦ شباط ١٩٨٢.

وضع كتباً عديدة في الريّ والهندسة باللغتين العربية والانكليزية، منها: المصادر عن ريّ العراق (١٩٤٢) ووادي الفرات (في جزءين ١٩٤٤ ـ ٤٥) تطور الري في العراق (١٩٤٦) الريّ في العراق (١٩٤٢) ريّ سامراء في عهد الخلافة العباسية (جزآن ١٩٤٨ ـ ٤٩) فيضانات بغداد في التاريخ (٣ أجزاء، ١٩٦٣ ـ ٦٦) الري والحضارة في وادي الرافدين (الجزء الاول ١٩٦٨) العراق في الخوارط القديمة (١٩٥٩) عصبة الأمم والعراق (١٩٣١) نهر الفرات (١٩٤٥) مأساة هندسية (١٩٤٧) مشروع بحيرة الحبانية وتطوراته (١٩٤٩) مشروع سنحاريب لارواء منطقة نينوى (١٩٦٢) المؤتمر الدولي لتجميع حقوق الدول (١٩٣١). وألف ايضاً: العرب واليهود في التاريخ (١٩٧٢) الشريف الادريسي في الجغرافية العربية (في جزءين ١٩٧٤).

ووضع أطالس للعراق وبغداد وصنّف «الدليل الجغرافي العراقي»، واشترك مع

محمود فهمي درويش والـدكتور مصطفى جواد في إصـدار «دليل الجمهورية العـراقية» سنة ١٩٦٠ .

وجديـر بالقول أن الـدكتور سوسة في أثنـاء دراسته في الولايـات المتحدة حصل على شهادة في العلاقات الدولية ، وذلك ما يفسّر تآليفه عن عصبة الأمم وحقوق الدول .

ومن مؤلفاتـه باللغة الانكليزيـة : نظام الامتيازات الأجنبية في تـركية (١٩٣٣) سدّة الهندية (١٩٤٥) الريّ في العراق (١٩٤٥) الخ .

ولـه ايضـاً : حيـاتي في نصف قـرن (نشرتـه في بغـداد ابنتـه الـدكتـورة عـاليـة سنـة ١٩٨٦)، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور (١٩٧٩) حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسـومريين (١٩٨٠) تاريخ حضـارة وادي الرافـدين (جزآن، ١٩٨٣ ـ ٨٥).

الدكتور عبد الرزّاق محيي الدين

عبد الـرزاق أمان محيي الـدين ، ولد في النجف سنـة ١٩١٠ ودرس في معاهـدها . وانتمى إلى دار العلوم بالقـاهرة سنة ١٩٣٣ ودرس الأدب العربي . وعـاد إلى بغداد سنة ١٩٣٧ وعيّن مدرساً في دار المعلمين الابتدائية .

عـاد إلى القاهـرة سنـة ١٩٤٢ ليواصل الـدراسـة في جـامعتها فحصل على شهـادة الاستاذيـة (١٩٤٨) فالـدكتوراه (١٩٥٦) . وقفـل راجعاً إلى بغـداد سنة ١٩٤٨ فعيّن استاذاً مساعداً بدار المعلمين العالية (تشرين الاول ١٩٤٨)، ورفع بعد ذلك استاذاً في تلك الدار التي أصبحت تعرف بكلية التربيةوألحقت بجامعة بغداد .

اختير عميداً لكلية التربيـة سنة ١٩٦٣ فنائباً لرئيس جامعـة بغداد . وعيّن عضواً في المجمع العلمي العراقي إثر إعادة تأليفه في آب ١٩٦٣ وانتخب نـائباً ثانياً للرئيس . ثم أصبح وزيـر دولـة لشـؤون الـوحـدة في وزارة الفريق طـاهـر يحيى (٣١ كـانـون الثـاني ١٩٦٤)، واحتفظ بمنصبـه وزيراً للـوحدة في وزارة طاهـر يحيى الثـانية (١٧ حـزيران ١٩٦٤) والثالثة (١٤ تشرين الثاني ١٩٦٤) ووزارة عارف عبد الرزاق (٦ ايلول ١٩٦٥) وعبـد الرحمن البـزّاز (٢١ ايلول ١٩٦٥) إلى ٩ آب ١٩٦٦ . وعيّن أميناً عـاماً للقيـادة السيـاسية الموحـدة بين الجمهـوريتين العراقيـة والعـربيـة المتحدة في ٢٧ تشرين الثـاني ١٩٦٥ (علاوة على منصبه الوزاري) فظل في هذا المنصب إلى تشرين اول ١٩٦٨ .

وانتخب رئيسـاً للمجمع العلمـي العـراقي في ١٠ تشرين الاول ١٩٦٦ وعضـواً بمجمع اللغة العـربية في القاهـرة في شباط ١٩٦٧ في محل محمد رضـا الشبيبي وعضواً بمجمع دمشق . وعاد وزيراً للوحدة في وزارة رئيس الجمهورية الفريق عبد الرحمن محمّد عارف في ١٠ ايـار ١٩٦٧ فوزيراً للـدولة في وزارة طـاهر يحيى (١٠ تموز ١٩٦٧) حتى

استقال في ١٣ كانون الثاني ١٩٦٨ .

وجدّد انتخابه رئيساً للمجمع العلمي العراقي للمرة الثالثة في تشرين الاول ١٩٧٢ .

مؤلفاته وأدبه :

للدكتور عبد الرزاق محيي الدين مؤلفات عـديدة ، منها : ابوحيّان التوحيدي (رسالة الماجستير إلى جـامعـة القـاهرة) (١٩٤٩) أدب الشريف المرتضـى (رسالـة الـدكتـوراه (١٩٥٧) ديوان شعر(مخطوط) خواطر وملاحظات في التعليم العالي ، من أجل الإنسان في العـراق (١٩٦٠ رسالـة)، الخ . شعب أصيل ومبـدأ دخيل (١٩٦٥) . وقـد حقّق ونشر كتاب البصائر والذخائر لأبي حيّان التوحيـدي ، والمقابسات (له ايضاً)، والوجيز في تفسير القرآن العزيز. وألف بالاشتراك مع أساتذة آخرين كتباً مدرسية منها : المطالعة العربية (في جزءين) وتاريخ الأدب العربي .

وعبد الرزاق محيـي الدين شاعر اشتهـر موشّحه في لاعب كرة السلـة ، وقد ترجمه الى اللغة الانكليـزية ديزمـوند ستيوارت وجون هـايلوك المدرّسان في بغـداد ونشر في كتابهما «بابل الجديدة» (١٩٥٦) .

يقول في هذا الموشح :

يـــــا حبيب النفس في خلـــــوتها ... وسميري في ليـــــالي السمـــــر

إنّ يـــومـــاً لم أشـــاهـــدك بـــه ... لم أكـن أحسبـــــه مـن عمــــري

وصبــــاحــــاً لم أطـــالعك بـــه ... يتســـاوى والـــدجى في نظـــري

وطـــــريقـــــاً لم أصـــادفك بـــه ... غـــالطت رجـــلاي فيـــه بصري . . .

كــــــرة السّلـــــــة لا تلعب بها ... هـــــاك قلبي كـــرة بين يـــديك

واتّئـــد بـــالـــركض ، هـــذي مهجتي ... علقـت أطـــــرافهـــــا في قـــدميك ،

وتـــــرنّـم بـأنـــــاشيـــــد الهوى ... فعليّ النظـــم واللحـــــن عليــــك

أنـــا أستـــاذك فـــاحفـظ حـــرمتي ... أو سأشكـــــو منك يـــا هـــذا إليك

قـــد قضيت العمـــر بـــالـــدرس ، فما ... نفـع العلم ولا أجـــدى الكتـــاب

ان خيراً مـن أمـــــور كلهـــــا ... ســـاعـــة بين نـــديمي والشراب

خلِّ عنـك الـــدرس ، لا تحفـل بـــه ، ... واغتنـم عيشـك في ظـلّ الشبـــاب

حلم دنيـــاك ، فـــاجهـــد أن تـــرى ... حلـم اللّـــــــذة لا حلـم السّراب

التـــلاميـــــذ على غــــرّتهم | عـــرفـــوا سرّي، وهل يخفـى الغـــرام؟
فمـن الهمس حـــــوار صـــامـت | وعلى الألحاظ نجــــوى ومـــــلام
ومـن الأطفـــــال ضحك خـــافـت | ومـن الشبّـــان غمــــز وكـــــلام
ومتى قلـتُ: ســـلامـــاً، هتفـــوا: | وعلى الاستــــاذ والحبّ الســـلام

ومن شعره في رثاء الملك حسين الهاشمي:

مـــا على الشـــاعــر لـــو عـــزّ البيــــان، | سكت القــلب فمـــا يقــوى اللّســـاد
نبـأ هـــــزّ البرايــــــا وقعــــه | وعلى السّلـك تجلّى الخفقـــــــــان
أمـل الأمــــــة أودى وهــــــوى | بيتهـــا الشـــامخ وانحطّ الكيــــان
رجـل كـــــان كـألـف، رأيـــــه | ينظـــــر الغيـب كما شــــاء العيــان

وقال في ذكرى الفيلسوف محمد اقبال:

ذكـــراك، إقبـــال، نحييهـــا فتحيينـــا | كـــآيـــة الـــذكـــر نتلـــوهـــا فتهـــدينـــا
أهــاب بي منك روح فـــاستجـــاب لــــه | روح أبى القـــول في مجبـــولــــةٍ طينـــا
لم يكفهـم أن هبطنــــا الأرض دانيـــــة | حتى هبطنـــا بهم من أرضنـــا دونـــا
مــا كـــان ابليس، إذ ولّى بـــوالـــدهم، | أشـــدّ منهم إلى أبنـــائه هُـــونـــا

وقال في تكريم خليل مطران:

سل عـن الشــاعـــر أو خـــذه مثـــالا | تغنِ عـن شعب جـــوابـــاً وســـؤالا
تلتقـي الآفـــــاق في أبعــــــاده | وهـــو دون العين مـــرأىً ومنـــالا
ضـلّـت الألبـــــاب عـن إدراكـــــه | ومضـت تخبط رشـــــداً وضـــــلالا
ليـس تـــدري أيّـــــة تنسبـــــه: | أمــــلاك حطّ أم جـنّ تعــــالى؟
وبماذا تتحـــــــــــامــى شرّه | وتـــرجّى الخير منـــه والنّـــوالا

وقال في وظيفة الشعر، وهي من بواكير نظمه:

إذا الشعـــر لم يحدث بشعبـك ضجّــــة | فتلـك قــــوافٍ قـــد نظمـن وأوزان
وإن لم يكن حـرّ العقيـــدة، مـــوقظـــاً، | فليس لـــه في نهضــة الشعب إحســـان

بقي عبد الـرزاق محيي الدين رئيسـاً للمجمع العلمي العراقـي إلى أيار ١٩٧٩ حين أعيد تأليف المجمع وأنهيت عضويته.

وتوفي في بغداد في اواخر سنة ١٩٨٣.

نظم قصيدة في تأبين طه حسين مطلعها:

حيّ مع النـــاس أحيـــاءً بما شعـــروا، لا الـــرأي يبلى ولا ذو الـــرأي ينـــدثـــر

عبد الفتاح إبراهيم

الكاتب الحرّ المناضل عبد الفتاح ابراهيم عبد الفتاح آل وريّد، ابن عم رائد القصة محمود أحمد السيّد.

ولد ببغداد سنة ١٩٠٤، وكان أبوه وجدّه من أئمّة المساجد. وقد أتم دراسته في الجامعة الاميركية ببيروت، فلمّا عاد إلى مسقط رأسه عيّن مدرّساً في المدارس الثانوية الرسمية (ايلول ١٩٢٨). ثم أتمّ دراسته في الولايات المتحدة.

وكان بعد ذلك مترجماً في دائرة ميناء البصرة فوزارة العدلية في بغداد (١٩٣٢). وعاد إلى التدريس، وأصدر مع نفر من الشباب المثقف مجلة العصر الحديث (١٩٣٦). ثم عيّن استاذاً مساعداً في دار المعلمين العالية (ايلول ١٩٤٠) فمفتشاً بوزارة المعارف (نيسان ١٩٤٣).

واستقال من الوظيفة في السنة التالية فأسس شركة الرابطة للطبع والنشر وتولّى إدارتها. وأصدر مجلة الرابطة (آذار ١٩٤٤)، مجلة نصف شهرية لمكافحة النزعات الرجعية وبثّ الثقافة القومية الديمقراطية.

آمن عبد الفتاح ابراهيم منذ مطلع شبابه بالآراء التقدمية والأفكار الحرة فكتب وناضل في سبيل مبادئه، وكان في مقدمة كتاب جريدة الأهالي. وكتب يقول: «يجب على المجتمع الذي يريد أن يحفظ كيانه أن يسيطر على الشؤون الاقتصادية ولا يجعلها أداة لفئة ضئيلة تسخّر المجموع لمنفعتها». ودعا إلى تأميم الاقتصاد ووضعه بيد الدولة.

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، انطلق من قيد الوظيفة لينصرف إلى العمل السياسي. وألف في نيسان ١٩٤٦ حزب الاتحاد الوطني واختير رئيساً للجنته السياسية. واتخذ جريدة الرأي العام (لصاحبها محمد مهدي الجواهري) لساناً للحزب، ثم أصدر جريدة السياسة (حزيران ١٩٤٦) فجريدة صوت السياسة.

وحلّ الحزب بعد أمد قصير (ايلول ١٩٤٧)، فواصل عبد الفتاح جهاده وتعرّض للمضايقة والاضطهاد.

ونشبت ثورة تموز ١٩٥٨ فعيّن مديراً عاماً لمصلحة مصافي النفط الحكومية في آذار ١٩٥٩ حتى اعتزل منصبه في آذار ١٩٦١، وغادر العراق فلم يعد إليه إلاّ بعد عدة أعوام.

وضع مؤلفات كثيرة، منها: على طريق الهند (١٩٣٢) مقدّمة في الاجتماع (١٩٣٩) كلمة في وجهة المجتمع بعد الحرب (١٩٤٢) مشكلة التموين (١٩٤٢) وحدة الحركة

الديمقراطية (١٩٤٦) دراسات في الاجتماع (١٩٥٠) معنى الثورة (١٩٥٩) قصة النفط (١٩٦٠) الخ . . .

محمود فهمي درويش

محمود فهمي بن محمد درويش آل عزيز، ولـد ببغداد سنة ١٩٠٥ ودرس في مدرسة الصيـدلـة، وتخرّج في دار المعلمين الابتدائيـة (١٩٢٦). وأنشأ مختبراً كيماويـاً، وعمل مدرساً في بغداد والبصرة، ثم كان مديراً للمدرسة الحسينية الأهلية (١٩٢٩ ـ ٣٠).

واشترك في إصدار الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ وتولّى رئاسة تحريره. ثم عيّن ملاحظـاً في دائرة الزراعـة (١٩٣٦)، وظلّ يعمل في تلك الدائرة، التي أصبحـت بعد ذلك مديرية عـامة فوزارة، نحواً من ٢٢ سنة. وأشرف على إصدار مجلة الـزراعة أعواماً طويلة وأصبح مديراً للمطبوعات الفنيّة والنشر في ديوان الوزارة حتى أحيل على التقاعد سنـة ١٩٥٨. واشترك مع الـدكتـورين مصطفى جواد وأحمد سـوسـة في إصـدار دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠.

وقد تولّى تحريـر مجلة الاتحاد سنة ١٩٣٤، وكتب مقالات أدبية وبحـوثاً علمية كثيرة في الصحف والمجلات. وألف كتباً مـدرسية ومصنّفات أخرى، منهـا: كارثة فلسطين (طبع سنة ١٩٤٩)، لمع وأقباس (مخطوط في جزءين) الكيميـاء العربية، بين آطام مكة ووادي يثرب، الخ.

وتوفي ببغداد في ٦ شباط ١٩٦٢، فكتبت الكلمة الآتية في رثائه:

كلمـة وداع

إلى المرحوم محمود فهمي درويش:

لقد آلمني حقـاً وأحزنني وحزّ في نفسي نعي الصـديق الكريـم المرحوم الاستـاذ محمود فهمي درويش ـ ذلك الأخ الوفي الذي نعمت بصداقتـه ومودته أكثر من ربع قرن. لقد اشتركنا أول الأمر في إخـراج الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ الذي أصـدره التاجر المعروف السيـد الياهو دنكور، فكـان محمود فهمي رئيساً لتحريـر القسم العربي وكنت مدير الدليل والمشرف على تحرير القسم الانكليـزي. وبوسعي أن أقول إن ذلك الدليل كـان بجزءيـه الضخمين العـربي والانكليزي خير دعـايـة لبلاد الـرافـدين في تاريخهـا الحديث. فلما اضطلع المرحوم محمـود مع الصديقين الـدكتور مصطفى جواد والـدكتور احمد سوسـه بإصدار دليل الجمهـورية العـراقية الجديد لسنـة ١٩٦٠ سألني أن أكتب

مبحث ـ التجارة العراقية ـ ، وكنت آنئـذ في شغل شاغل فاعتذرت، لكنه رحمه الله ألحّ والحف قـائلاً: لا أحب أن يخلـو الدليل الجديـد من أثـرك بعـد أن اشتركنا في إصـدار الدليل الأول وكذلك فعلت، فخرج دليل الجمهورية العراقية يضم بحثاً لي كما أراد.

كان المرحوم محمود فهمـي درويش محدثاً لبقاً وكاتباً ألمعياً وخطيبـاً مفوهاً، وكان إلى ذلك صديقاً محباً مخلصـاً. وكانت له هوايات عديـدة من التقويم والفلك إلى الكيمياء والزراعة. وقد خدم في وظائف الزراعة مذ كانت مديرية إلى أن أصبحت وزارة نحواً من ربع قرن، وعمل قبل ذلك في مسلك التربيـة والتعليم والصحافة، فكان مثـال العامل النشيط والموظف النزيه الجاد. واخرج مجلة الزراعة وتولى تحريرها عدة سنين وجعل منها مجلة علمية راقية.

كـان كما قلت محدثـاً لبقاً، أنيس المحضر لطيف المخبر، يحفـظ النوادر واللطـائف الكثيرة، ويرويها بأسلـوب ساحر وبيان زاخـر. فكنت كلما ضاق الصدر بأعبـاء الحياة أسألـه أن يروي أحـاديثه، فـلا نلبث أن ننسى متـاعب الدنيـا وننطلق إلى عالم فيـاض بالمسرة والحبور.

وكانت دمـاثه خلقه وطيب سريرتـه وطلاوة حديثه تحببه إلى النفـوس، فكانت دائرة اصـدقائه واسعـة تضم مختلف الطبقـات والبيئات، فيهم المثقفـون والعوام والموظفـون والكسبـة ورجـال العلم والعمل يكلم كـل واحـد بلسـانـه ويحتفل بـالكبير والصغير والجليل والـوضيع على حد سـواء، فلا عجـب أن أسف الجميع لمرضه وجـزعوا لفقـده وخرجوا لتشييعه إلى مقره الاخير وكلهم عيون دامعة وقلوب واجمة واجفة.

أكب في سنـواته الاخيرة على القـراءة والكتـابـة ووصل الليل بالنهـار لاخـراج دليل الجمهورية العراقية حتى كف بصره واشتدت عليـه وطأة الامراض، فكان آخر العهد به طـريح الفراش متجلـداً معتصماً بـالصبر لا يبصر ولا يتحرك فلـم يبق منه إلا اللسـان والجنان.

لقد تـوفاه الله صبيحة السـادس من شهر شبـاط ١٩٦٢. ومن الغريب أن في نفس اليوم السادس مـن شهر شباط قبل عام واحـد قرر مجلس الوزراء الغاء أمـر احالته على التقاعد وان يعاد إلى الوظيفة بعد أن يبل من مرضه، فيا لسخرية الاقدار!

كـم مـن أخ لي صـالـح	بـوّأتـه بيـدي لحدا
مـا إن جـزعت ولا هلعـت	ولا يـرد بكـاي رشـدا
ذهـب الـذيـن احبهـم	وبقيـت مثـل السيـف فـردا

***

زارني محمود فهمي درويش يوماً في غـرفة التجارة، وجلس يحتسي القهوة وينظر إلى تاجرين كبيرين كانا عندي يتحاوران.

قال الأول : لم تدفع ، يا جلبي ، ثمن الحنطة التي تسلمتها في الاسبوع الماضي .

فأخرج الثاني دفتر الصكوك وكتب لأمر الاول صكاً ناوله إياه قائلاً :

لم يفرغ الكاتب من تدقيق الحساب ، فخذ عشرة آلاف دينار سلفاً ريثما يتم التدقيق .

لكن الأول رفض الصك وقال : ماذا أعمل بعشرة آلاف دينار؟ استبقها لديك وعجّل بالتدقيق والدفع !

وظل الصك بمبلغ عشرة آلاف دينار يرمى من يد إلى يد ، ومحمود فهمي يتبعه بنظراته ، وقد اتسعت حدقة عينه وقام بحركات مضحكة بيديه وكأنها حركات لا إرادية . ومدّ يده إلى جيبه فأخرج درهمين أو ثلاثة وعرضها علي من طرف خفيّ وهو يقول هامساً : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، الحمد لله ، الحمد لله ! وكان التاجران الكبيران في شغل عنه ، ثم انتهى الحوار بينهما بأن مزّقا الصك وسلّما وخرجا .

فصاح محمود فهمي درويش : هل تريد سفك دمي؟ هل ترغب في إثارتي وتحطيم أعصابي؟ تدعوني إلى زيارتك في مركز المال والأعمال ، وفي جيبي دراهم معدودة ، فتريني السيارات الفارهة في الباب وذوي الجاه والثروة بملابسهم الانيقة يرمون آلاف الدنانير في أيدي بعضهم فيردّها مستصغراً مشمئزاً . . . والله لقد صممت أن أمدّ يدي بغير وعي فأقبض على الصك الطائر وأفرّ به ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! . . .

ثم أطلق ضحكة عريضة وقال : لا بأس ، نحن في غنى عن كلّ هذه الثروة ، فليذهبوا بها وليتركوا لنا راحة بالنا وصفاء نفوسنا .

كلانا غنيّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

ولا أدري كيف مرّت بخاطري أبيات الشاعر المصري محمد حفني ناصف :

أتقضي معي ، إن حان حَيْني ، تجاربي وما نلتها إلا بطول عنائي؟
ويحزنني ألاّ أرى لي حيلة لإعطائها من يستحقّ عطائي
إذا ورّث المُثرون أبناءهم غنى وجاهاً ، فما أشقى بني الحكماء !

***

قال لي محمود فهمي درويش ذات يوم : أتذهب إلى مجلس الحاج ص . خ . ؟ قلت : نعم . قال : اذن فاصطحبني متى ذهبت إليه لأريه بطاقة ثمينة عثرت عليها بين أوراق والدي رحمه الله .

قلت : حباً وكرامة ، ولكن ما هذه البطاقة؟

فأراني دعوة إلى حفلة عقد قران الحاج المومأ إليه ، وقد وجهها والده إلى محمد درويش

جاره في محلة باب الشيخ. والحقيقة انها دعوة نادرة، فهي مكتوبة باليد وعباراتها خليط من التركية والعربية والمجاملات المألوفة في العهد العثماني. وقرأت تاريخها فإذا بها تعود إلى ما قبل نصف قرن أو أكثر.

قلت: لا أرى مناسباً أن تريها للحاج في مجلسه الحافل الذي يؤمّه فريق كبير من أشراف بغداد وتجارها وأدبائها، فلعله لا يودّ أن يعرف القوم أنه بلغ من العمر عتيّاً.

لكن محمود فهمي ضحك وقال: لا أظن ذلك. وفي اليوم الذي يجلس الحاج لزواره دخلنا مجلسه فإذا به مكتظّ برجال البلد، ولم تمضِ برهة من الوقت حتى أخرج محمود فهمي ورقته وقال للحاج: ان والدي كان جاراً وصديقاً حميماً لوالدك عليه الرحمة والرضوان.

قال: لا شك في ذلك، وكنت أرى والدك يزور والدي دائماً في دارنا القديمة فيتحادثان طويلاً.

قال محمود: وجدت هذه البطاقة بين أوراق والدي، وهي دعوة إلى عقد قرانك المبارك. فأخذ الحاج البطاقة وألقى عليها نظرة ثم وضعها في جيبه.

لكن تحسين علي، وكان حاضراً في المجلس، قال: أيها الحاج، أرينا هذه التحفة الثمينة، لماذا وضعتها في جيبك؟

وحاول الحاج عبثاً أن يخفي البطاقة، لكن تحسين علي أخذها وقرأها وقال للحاضرين: لم نكن نعلم ان مضيفنا الكريم قد تزوج قبل أكثر من خمسين سنة. كم كان عمرك يوم تزوجت، أيها الحاج؟ قل لنا بصراحة ولا تكتمنا أمرك.

وبدأت تعليقات الحاضرين ومراجعاتهم، فقال صاحب المجلس: يا محمود، جئتنا بعد غياب طويل فأنسنا بمقدمك، فما لك قد جلبت هذه البطاقة التي أكل الدهر عليها وشرب، وأظهرت ماكان مكنوناً فجعلتنا أضحوكة المجلس وموضع سخريته ودعابته؟

حدثني محمود فهمي درويش أنه كان مسافراً في بعض أيام الخريف إلى كركوك، فاستقل القطار في المساء. ولم يصطحب معه سوى حقيبة صغيرة فيها ادوات الحلاقة وسائر الحاجات الآنية لأنه كان ينوي العودة بعد يوم أو يومين. ولم يكد القطار يتحرك حتى تغيّر الجوّ وهبّت موجة من البرد تلسع المسافرين. وقال في نفسه: كيف أقضي هذه الليلة الطويلة في ملابسي الصيفية ولادثار لي يقيني من البرد.

ورأى في هذه الأثناء مسافراً في نفس العربة وإلى جنبه حقيبة كبيرة وسجادتان. وافترش الرجل إحداهما وأدّى الصلاة، فلما فرغ منها استأذنه محمود في أداء الفريضة على سجادته، فأذن له. وأخذ محمود يطيل ويكثر من الركعات والسجدات، والرجل ينظر إليه. ولما استمّر أمداً طويلاً على هذا المنوال، أشار إليه الرجل بالتوقف وقال له:

حسبك، ان صلاتك مستجابة. فقد ألهمني الله أن أسمح لك باستعارة سجادتي الليلة لتقيك من البرد، ولا بأس من أن تعيدها إليّ صباحاً حين نصل إلى كركوك.

ولم ينتظر محمود، بل أسرع والتفّ بالسجادة ونام نوماً هنيئاً إلى الفجر.

كان محمود فهمي درويش نهماً أكولاً في شبابه يزدرد، حسبما يقول، طعاماً يكفي لعشرات الأشخاص. والغريب انه ظل مع ذلك نحيف الجسم غير مبتلى بالسمنة والترهّل.

حدثني أنه ذهب ذات يوم إلى صاحب مطعم من أصدقائه فقال له: انني اليوم جائع، فبكم تشبعني؟ قال: بدينار واحد. فسلمه محمود الدينار سلفاً وجلس إلى المائدة، فجاء له صاحب المطعم بقائمة الطعام. لكنه لم ينظر إليها بل قال: هات لي الأطعمة الواحد بعد الآخر من الاعلى إلى الاسفل. فلما فرغ من أكل تلك الأطعمة، قال: والآن أعد جلب الأطعمة ولكن من أسفل القائمة إلى اعلاها. فقال صاحب المطعم: ألا تشرب شيئاً من البيرة أو الماء؟ ظناً منه ان الشراب يملأ المعدة فلا يترك فراغاً للطعام. قال محمود: ان من عادتي أن أشرب بعد تناول نصف طعامي.

ـ يا لله، اذن لم تبلغ منتصف الطعام حتى الآن! فهذا دينارك خذه، وما أكلته صحة وعافية واذهب إلى سبيلك،

وكنّا في حفلة أقامتها السفارة الوطنية الصينية في بعض أمسية الصيف ومدّت فيها الموائد الحافلة بأنواع الطعام والشراب والفاكهة والحلوى في الحديقة. ولما حلّ الظلام أطفئت الأنوار وعرضت الرقوق السينمائية، بينما المدعوون يتناولون ما لذّ وطاب من المأكولات. ورأيت محمود فهمي يفرغ صحناً بعد صحن ويأكل اللحم والدجاج والحلوى والفاكهة معاً بلا فاصلة. فما انتهى العرض السينمائي وأشعل النور الكهربائي، حتى أخذ بيدي وقام يجرّني لنذهب إلى مكان آخر. والتفتّ فرأيت في وسط الخوان جزيرة كبيرة فيها الصحون الفارغة، بل صحراءغامرة في وسط بلدة عامرة.

لكنه صار في كهولته يكتفي بالقليل من الطعام خلافاً لما كان عليه من قبل.

كوركيس عوّاد

البحاثة المحقّق. من أبصر الناس بالكتب والمخطوطات، كوركيس حنّا عوّاد، كان أبوه حنّا الياس مراد بارعاً في صنع الآلات الموسيقية ولا سيّما العود، وقد درس الألحان وتفنّن فيها.

ولد في الموصل في ٩ تشرين الأول ١٩٠٨، ودرس في دار المعلمين الابتدائية ببغداد وعيّن معلماً في ايلول ١٩٢٦.

وتولّى إدارة مكتبة المتحف العراقي سنة ١٩٣٨ عند تأسيسها بصفة ملاحظ أولاً ومدير بعد ذلك (١٩٥٢). فقام بشؤونها أكثر من ربع قرن حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٦٤.

وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٤٧ والمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣.

لازم الأب انستاس ماري الكرملي أعواماً طويلة وأفاد منه في البحث والتحقيق. وسافر إلى أوروبا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بمهام تتعلق بتدقيق المخطوطات وزيارة المكتبات، وحضر مؤتمرات ثقافية وأدبية متعدّدة.

من مؤلفاته: دير الربان هرمزد (١٩٣٤)، تحقيقات بلدانية تاريخية أثرية في شرق الموصل (١٩٦١) خزائن الكتب القديمة في العراق (١٩٤٨) المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين (١٩٦٥) جمهرة المراجع البغدادية (١٩٦٢) جولة في دور الكتب الأميركية (١٩٥١)، فهرست مخطوطات مكتبة المتحف العراقي، المدرسة المستنصرية ببغداد (١٩٤٥) الدار المعزّية ببغداد (١٩٥٤) مكتبة المتحف العراقي في ماضيها وحاضرها (١٩٥٥) ما طبع عن بلدان العراق باللغة العربية (١٩٥٣ ـ ٥٤) الاسطرلاب (١٩٥٧) الورق أو الكاغد (١٩٤٨)، ما سلم من تواريخ البلدان العراقية (١٩٤٤)، مكتبة الاسكندرية: تأسيسها واحراقها (١٩٥٥) يعقوب بن اسحٰق الكندي (١٩٦٢) الآثار المخطوطة والمطبوعة في الفولكلور العراقي (١٩٦٣) الأب انستاس ماري الكرملي: حياته ومؤلفاته (١٩٦٦) فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس (١٩٦٦) أصول أسماء المواضع العراقية (١٩٦٧) مدينة الموصل (١٩٥٩) معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء، ١٩٦٩) سيبويه إمام النحاة (١٩٧٨) أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم (١٩٨٢) أشتات لغوية (١٩٩٠) فهارس المخطوطات العربية في العالم (مجلدان، ١٩٨٤) مصادر دراسة التراث العسكري عند العرب (ثلاثة أجزاء) الخ.

وقد انتخب عضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني (١٩٨٠) وعضواً مؤازراً في المجمع العلمي الهندي.

وقد اشترك في ترجمة كتاب بلدان الخلافة الشرقية (١٩٥٤) والعراق في القرن السابع عشر كما رآه تافرنيه (١٩٤٤). وحقق ونشر كتباً منها: الديارات للشابشتي (١٩٥١) كتاب التفّاحة (في النحو ١٩٦٥)، رسائل أحمد تيمور إلى الأب انستاس الكرملي (مع أخيه ميخائيل عواد، ١٩٤٧)، تاريخ واسط للرزّاز (١٩٦٧) الخ.

أخوه: ميخائيل حنّا عوّاد، بحاثة محقق ثقة، لد في الموصل في ١٢ شباط ١٩١٢ ودرس بدار المعلمين الابتدائية في بغداد وتخرج سنة ١٩٣١ واحترف التعليم. وعيّن

ملاحظاً للمكتب الخاص بوزارة المعارف (١٩٤٤) فمديراً له، فظلّ يشغل هذه الوظيفة أكثر من ربع قرن حتى اعتزل الخدمة في أيار ١٩٧٠ .

وقد كتب مقالات وبحوثاً كثيرة . من مؤلفاته :

رسائل أحمد تيمور إلى الأب انستاس الكرملي (حققه بالإشتراك مع أخيه كوركيس عواد، ١٩٤٧)، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية (بالاشتراك مع كوركيس عواد)، دير قُنّى في العراق (١٩٣٩).

المآصر في بلاد الروم والإسلام (١٩٤٨) صناعة الزجاج والبلّور (١٩٦٢) صناعة الصفر (١٩٦٢) ألف ليلة وليلة (١٩٦٢) أقسام ضائعة من كتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابىء (١٩٤٨).

وقد حقق ونشر كتاب رسوم دار الخلافة للصابىء (١٩٦٤) ونصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري (١٩٦٤).

فصل من كتاب : فضائل بغداد العراق (١٩٤٧)الخ .

أعيد تعيين كوركيس عوّاد عضواً بالمجمع العلمي العراقي لدى اعادة تأليفه في أيار ١٩٧٩ . وألف مع أخيه ميخائيل «رائد الدراسة عن المتنبي» (١٩٨٠).

وقد توفّي كوركيس في بغداد بعد مرض طويل في ١٧ تموز ١٩٩٢ .

وعين ميخائيل عوّاد عضواً بالمجمع العلمي السرياني المشكل في بغداد. وقد أدمج المجمعان الكردي والسرياني بعد ذلك بالمجمع العلمي العراقي. ووضع ميخائيل «مخطوطات المجمع العلمي العراقي» (٣ أجزاء، ١٩٨٣).

محمود أحمد السيّد

رائد القصة العراقية محمود أحمد السيّد آل المدرّس، وهو محمود بن السيد أحمد بن عبد الفتاح بن عبد الحميد بن ابراهيم آل وريّد، ينتمي إلى أسرة دينية. كان أبوه مدرساً بجامع الحيدر خانة واماماً لجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وكان جدّه من رجال الدين أيضاً. أما عمّه عبد الرحمن المعروف بالجلجلوتي (١٨٤٥ ـ ١٩٢٧) فقد كان طرازاً خاصاً في رجال الدين وتولّى الافتاء في المنتفق والحيّ.

ولد محمود أحمد في بغداد في ١٤ آذار ١٩٠٣ ونشأ في جوّ ديني وغمرته الكآبة منذ سنّ الطفولة، فعلت وجهه، كما قال جعفر الخليلي في كتاب «القصة العراقية قديماً وحديثاً»، مسحة من الأسى والتأمل، وغلب عليه الهم والتشاؤم، وجاءت قصصه بعد ذلك حزينة في مضمونها وعنوانها، كمصير الضعفاء والنكبات والقلم المكسور والصحيفة السوداء، تترك في نفس القارىء أثراً لا يمحى من تجهّم الحياة وقسوتها.

وقد درس في المدرسة السلطانية، حتى إذا ما احتل الانكليز بغداد سنة ١٩١٧ افتتحوا دورة للهندسة اشترك فيها فتانا.

وتخرّج سنة ١٩١٨ فعيّن موظفاً في دائرة الريّ بالهنديّة. لكنه لم يلبث ان ترك عمله بعد أشهر وسافر إلى الهند (١٩١٩)، وأمضى فيها سنة واحدة.

عاد محمود أحمد إلى بغداد في تموز ١٩٢٠ وأخذ بالكتابة في جريدة الشرق. ثم أقبل على تحرير المقالات والنبذ والقصص، ونشر كتاباته في الصحف كجريدة العراق والعالم العربي والاستقلال ومجلة اليقين والمصباح والصحيفة والمعرض والحديث والحاصد الخ. وعيّن كاتبا في وزارة الداخلية (كانون الأول ١٩٢٠)، ونقل مديراً لتحرير لواء الديوانية (تشرين الثاني ١٩٢٣). وعاد إلى بغداد مديراً للتحرير في أمانة العاصمة في ايلول ١٩٢٦.

وأصبح بعد ذلك سكرتيراً للبلديات في وزارة الداخلية (حزيران ١٩٣١) فسكرتيراً لمجلس النواب (آذار ١٩٣٣) حتى وفاته.

وقصد القاهرة للاستشفاء من مرض عضال ألمّ به فتوفّي بها في ١٠ كانون الأول ١٩٣٧، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين إلا قليلاً.

مؤلفاته وأدبه:

مال محمود أحمد السيد إلى الأدب يافعاً، وكان لسفره إلى الهند أثر بليغ في نفسه، إذ اطّلع على أحوال وأفكار جديدة. وعني بالقصة فكان رائدها في العراق في نفس الوقت الذي كان محمود تيمور رائد القصة في مصر. وأولع بالأدب التركي الحديث، فترجم إلى العربية قصص جلال نوري وأرجمند أكرم آل رجائي وضياء كوك آلب وغيرهم، وتأثر بآراء أدباء تركية المجدّدين.

جمع أقاصيصه وكتاباته في مجموعات: في سبيل الزواج (١٩٢١) مصير الضعفاء (١٩٢٢) النكبات (١٩٢٢) السّهام المتقابلة (مع عوني بكر صدقي، ١٩٢٢) هياكل الجهل (١٩٢٣) القلم المكسور (١٩٢٣) جلال خالد (١٩٢٨) الطلائع (١٩٢٩) في ساع من الزمن (١٩٣٥). وله آثار أخرى نشرت في الصحف والمجلات منها: «عندما تغرب الشمس» وسواها من القصص المنقولة عن اللغة التركية.

ان قصص محمود أحمد تزخر بالمعاني الإنسانية والصور الاجتماعية وتدعو إلى النهضة والإصلاح. ومذهبه في القصة المذهب الواقعي الذي يسلّط الضوء على المجتمع العراقي في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، ذلك المجتمع الذي يمّر بطور الانتقال والتحوّل ويضيق بالتناقضات والترسبّات القديمة ويقرن التحفزّ والجرأة وعدم المبالاة بالتحفظ والانجماد والتمّسك بأهداب التقاليد والشناشن البالية.

وقد كتب في ترجمة خطيّة له قبيل وفاته يقول عن نفسه: «اشتغل منذ عام ١٩٢٠ بالأدب غاوياً في أوقات فراغه، لا محترفاً، وسعى في سبيل تكوين النثر القصصي في العراق... وهو يعتقد بأن الجمع بين الأدب والوظيفة مستحيل فيه التجويد والتبريز... ويشتغل بتأليف مجموع صور عراقية بعنوان «الدفتر الأزرق»، لاهياً عابثاً، متمنياً أن لا تدركه حرفة الأدب في هذا الزمن، في هذا البلد، لأنه لم يعتزم بعد الانتحار جوعاً والموت في ظلام الزراية والإهمال».

قالت مجلة «الصباح» القاهرية في عددها المؤرخ في ٢٤ كانون الأول ١٩٣٧: «... وقد بدأ حياته الأدبية برواية «جلال خالد» التي قدّمها إلى «فتية العراق التي نريدها على الجهاد في سبيل الحرية والحقّ». واستند في تدوين وقائعها إلى شبه مذكرات شخصية، وبالطريقة نفسها التي استند إليها أستاذه الكاتب الهندي ف. سوامي (كذا) في معالجة قصصه.

«والحق ان «جلال خالد» هي عبارة عن موجز من حياة المرحوم السيّد وسياحته في الهند وبلاد الشرق، وفيها استعراض قيّم لحوادث العراق السياسية في غضون الاحتلال البريطاني وأثناء شبوب الثورة وحماسة الشباب في رفع راية الجهاد. وتلمح بين سطورها أحاديث طليّة عن مميّزات الأدباء الأتراك الذين تتلمذ لهم المؤلف، كعبد الحقّ حامد بك شاعر تركية القومي وجماعة «ثروت فنون»...»

وقال محمود العبطة في كتابه «محمود أحمد السيّد» (١٩٦١): «ومحمود أحمد السيّد، بما صوّرنا من ملامحه المستخلصة من ملامح عصره المأزوم وجيله القلق، قد بين رأيه في المشاكل والمواقف والأزمات الدائرة في محيطه والماثلة أمامه والشاخصة في بلده، بياناً قد لازم حياته وتطوّره الفكري ونموّ مواهبه. وقد كان الطابع العام للعراق وللبلاد العربية بين انتهاء الحرب الاولى ونهاية الحرب الثانية ينحاز بلون رومانتيكي، يتغنى بالحرية والانطلاق ويتعشق المثل وتهزه الأخيلة والألوان وتسيرّه العاطفة والأحاسيس... وكنتيجة لميلاد الواقعية من الرومانتيكية رغم التضادّ الذي يعتقد بوجوده بين الواقعية والرومانتيكية، فإنّ الدعوة إلى الأدب الواقعي بدأت في الظهور في العراق بصورة مبكّرة... ولا حاجة للقول كون السيّد من أول الدعاة إلى الواقعية الاجتماعية البدائية...»

وقال الدكتور علي جواد الطاهر في خاتمة كتابه «محمود أحمد السيّد: رائد القصة الحديثة في العراق» (١٩٦٩): «كان محمود أحمد منصرفاً إلى الأدب، كأنه لا يستطيع الحياة دونه، ولا يستطيع أن يعيش من غير أن يقرأ ويناقش ويكتب، فهو وجوده وهو مثله الاعلى. وإذا ادّعى أحياناً أنه هاو، فإنّ ذلك تواضع وقول تمليه ظروف طارئة، فيما هكذا يكون «الهاوي». ومن شأن الهاوي أن يستمتع أو يقلد دون أن ينتج أو يبدع، والإنتاج والإبداع وليدا الجدّ والمثابرة والطماح والموهبة..»

ثم يضيف قائلاً: «ان قارئه لا يحسّ بالتناقض كثيراً، وانه، بعد أن يودّع المرحلة

الأولى من حياة الكاتب، يكاد يراه منسجماً في دعوته إلى التجديد والتطور وفي تبنيه الأفكار الحديثة وفي حماسته إلى الاصلاح الاجتماعي، فهو «كاتب شعبي»، حتى قال يوماً: «نحن الشعب» وهو كاتب مبكر في خدمة الشعب والعمل على الارتقاء به إلى مصافّ البشر.

«ولو انسجم محمود أحمد تمام الانسجام مع آرائه ولم يبد عليه تناقض بين القول والعمل، لكان توفيقه كبيراً في الأنواع الأدبية التي زاولها، أكبر كثيراً مما حقق وبات فيه أهلاً للاعجاب والتقدير.

«ويمكن أن يعزى التجويد ـ فيما جوّد فيه ـ إلى أنه كان يكتب بعد أن تختمر الفكرة في نفسه وفي لحظات ينفصل بها، أو يكاد، عمّا يحيطه أو عما يكون له من رأي مناقض أو عمل مخالف أو راسب عتيق. .»

وما أصحّ الحكم الذي خرج به علي جواد الطاهر من دراسته الشاملة لسيرة محمود أحمد السيّد وأدبه، إذ قال: «كان محمود أحمد قصة لم تتمّ ورائداً جديراً بالريادة».

ذنّون أيوب

الأديب القصصي ذو النون عبد الوهاب بن الحاج أيوب العبد الواحد ولد بالموصل سنة ١٩٠٨، وتخرّج في دار المعلمين العالية في بغداد سنة ١٩٢٩، وعيّن مدرّساً للرياضيات والفيزياء في المدارس الثانوية.

وقد استمّر على التدريس في الموصل وبغداد، وكان مديراً لمعهد الفنون الجميلة. واعتقل في أيار ١٩٤٣ إثر مظاهرات حدثت في بغداد، ثم أطلق سراحه بعد أمد وجيز. وانتخب نائباً عن الموصل في تموز ١٩٥٤، لكنّ المجلس حلّ فوراً.

مال الى الأدب وهو شاب يافع، واشترك في تحرير مجلة «المجلة» التي أصدرها عبد الحق فاضل في الموصل سنة ١٩٣٨ وتولّى شؤونها بعد ذلك يوسف الحاج الياس. وكتب القصة يعالج فيها مشاكل العراق وشعبه وبؤس الكادح والفلاح. ونقم عليه رجال الحكم، فترك العراق وأقام في فيينّا عاصمة النمسا (١٩٥٥). وعاد الى بغداد سنة ١٩٥٧، فأصدر مجموعتين قصصيّتين، ثم قفل راجعاً الى النمسا.

وجاء الى بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨، فعيّن مديراً عاماً للإرشاد والإذاعة (آذار ١٩٥٩). لكنه شغل هذا المنصب أمداً قصيراً ونقل مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون (آب ١٩٥٩)، فملحقاً ثقافياً في براغ (١٩٦٠). واعتزل الوظيفة بعد ذلك وسكن فيينّا منذ سنة ١٩٦٣.

وقد حوكم غيابياً في نيسان ١٩٦٤ أمام محكمة الثورة بعد سقوط العهد القاسمي

فقيل أنه لم يكن شيوعياً ولا ديمقراطياً بل انتهازياً.

وتوفي ذو النون في فيينّا في النصف الثاني من سنة ١٩٨٨ وترك مذكّرات.

أصدر ذنون أيوب مجموعات قصصيّة: رسل الثقافة (١٩٣٧) الضحايا (١٩٣٨) صديقي (١٩٣٨) وحي الفنّ (١٩٣٨) الكادحون (١٩٣٩) برج بابل (١٩٣٩) العقل في محنته (١٩٤٠) حميّات (١٩٤١) الكارثة الشاملة (١٩٤٤) عظمة فارغة (١٩٤٨) قلوب ظمأى (١٩٥٠) صور شتّى (١٩٥٤) قصص من فيينّا (١٩٥٧). ووضع عدا ذلك قصصاً طويلة: الدكتور إبراهيم (١٩٣٩) اليد والأرض والماء (١٩٤٨) الرسائل المنسيّة (١٩٥٧). وترجم رواية الآباء والبنين لتورغنيف، بالاشتراك مع الدكتور أكرم فاضل (١٩٥٠)، وأسد الفلاندر، الخ.

وألف أيضاً: إنهيار فرنسة (١٩٤٢) برابرة سائبون (١٩٤٢) جمهورية ١٤ تموز في العراق (١٩٦٢) مختارات من روائع الأدب العالمي (١٩٥٨) وعلى الأرض السلام (رواية، ١٩٧٢).

قال الدكتور أكرم فاضل في تقييم أدب ذنّون أيوب «... إنه سجّل تاريخ العراق السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي في قصصه بأسلوب يطمع في محاكاته كلّ أحد دون أن يناله أحد. وقد خبر الكاتب الحياة خبراً عميقاً قلّ أن يتاح لسواه، أو قلّ أن ينفذ سواه الى أعماق هذه الحياة...» ثم يقول: «وليس المهم أن يكون قد ارتطم بخضمّ كل هذه الرزايا، ولكن المهم أن المرتطم كان يحسن الانفعال بالحوادث ويتقن التفاعل معها ويبرع في تصويرها، فكان هذا الإنتاج الزاخر الذي يمثّل العراق من كل هذه الجوانب...».

وكتب محمود العبطة: «يقيم الأستاذ ذو النون أيوب حالياً في مدينة فيينّا منذ ثمانية أعوام وحيداً يقاسي آلام الغربة ووحشة البعاد ويتحمل آلام مرض القُلاب الذي يعاوده من حين لآخر. ويمضي ساعاته الرهيبة في الكتابة والمطالعة السريعة. وألف حتى الآن روايتين هما: مسالمون ومعتدون وأبو هريرة وكوجكا. وكَتب دراسات أدبية ــ علمية، وكلها لم تر نور الطبع والنشر حتى الآن...»

وقد أصبح ذو النون أيوب رئيساً للهيئة الإدارية للدار العراقية التي افتتحت في فيينّا في تموز ١٩٧٤ بإشراف السفارة العراقية في عاصمة النمسا.

عاد ذو النون أيوب الى العراق في زيارة سنة ١٩٧٦. وفي السنة التالية أصدرت وزارة الإعلام العراقية المجلّدين الأول والثاني من «الآثار الكاملة لأدب ذي النون أيوب» (١٩٧٧)، وهما يضمّان مجموعة قصصه السابقة.

يوسف يعقوب مسكوني

الباحث المؤرخ يوسف يعقوب مسكوني، ولد في الموصل في ١٦ تشرين الأول ١٩٠٣، وذاق مرارة اليتم طفلاً. وعرف منذ عهد الصبا قسوة الحياة وشظف العيش فنشأ عصامياً لا يعتمد إلا على نفسه، ويرى في الحياة كفاحاً مستمراً وعملاً شاقاً متواصلاً. دأب منذ نعومة أظفاره على الجدّ والجهد، يسهر الليالي في طلب العلم ويقضي نهاره في العمل المفيد.

ولقد طالما حدّثني عمّا تحمله في صباه من عنت ومشقّة، لا سيّما في أثناء الحرب العظمى التي أناخت بكلكلها على البلاد والعباد ومدّت ذراعها الرهيب بالقتل والدّمار. تحمّلت الموصل قسطها الأوفر من الأوصاب والآلام في تلك السنوات العجاف، فقاست الجوع والحرمان، واضطرّ الناس سداً لرمقهم أن يأكلوا الجيفة والقطط والكلاب. وتدفقت جموع القرويّين وأبناء العشائر المشرّدين على المدينة يملأون ساحاتها وشوارعها، ويحملون إليها الأوبئة والأمراض، ويسيرون في طرقاتها أشباحاً حيّة تخفي تحت أسمالها الفاقة والهزال. وامتدّت أيدي نفر من الوحوش البشرية الى سرقة الأطفال وذبحهم وبيع لحومهم طعاماً ممجوجاً على موائد القحط والحقارة. وقد أرغم ذوو الفتى مسكوني على بيع دارهم القديمة الصغيرة ليقتاتوا بثمنها البخس في ذلك العهد المريع.

خرج يوسف مسكوني من تلك المحنة صافي النفس كالذهب الذي مرّ بالبوتقة. وعاد الى مقاعد الدراسة، ثم جاء الى بغداد سنة ١٩٢٣ فانتمى الى دار المعلمين الابتدائية وتخرّج فيها (١٩٢٦). وزاول التعليم في المقدادية والأعظمية والخالص وبغداد، ثم نقل الى وزارة المعارف ملاحظاً للمكتبة (١٩٤٤) فمترجماً للّغة الانكليزية (١٩٤٩). واعتزل الخدمة سنة ١٩٦٣.

تعرّف عند قدومه الى بغداد برجال الأدب واللغة والتاريخ، وفي مقدمتهم مصطفى جواد الذي زامله في مدرسة الخالص. واتصل بالأب أنستاس الكرملي فلازم مجلسه وأفاد منه.

وقد توفّي ببغداد في ١١ نيسان ١٩٧١.

مؤلفاته:

من مؤلفاته: من عبقريات نساء القرن التاسع عشر(١٩٤٦)مدن العراق القديمة (ترجمه عن الإنكليزية، لدوروثي ماكاي(١٩٣٢)شخصيات القدر (بالاشتراك مع الدكتور مصطفى جواد، ١٩٦٣)، الألحان والتراتيل الأرامية والعربية(١٩٦٥)نصارى كسكر وواسط قبيل الاسلام(١٩٦٤)، سبط ابن التعاويذي (١٩٥٩)فتح العرب للصين(مقالة ترجمةعن الدكتور دنلوب، ١٩٦٨).

ومن الكتب التي حققها ونشرها : رسالة في حوادث الجو للكندي (١٩٦٥)رسائل في النحو واللغة (لابن فارس والرماني ، بالإشتراك مع الدكتور مصطفى جواد ، ١٩٦٩)، كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل لمحمد بن أحمد الوشّاء (١٩٧١) الخ .

وكتب عدا ذلك كتاباً جامعاً عن واسط مدينة الحجّاج ومقالات وبحوثاً كثيرة عن الأدباء والأديبات وأصحاب المقامات ومغنّيات صدر الإسلام الخ . وقد جمع مكتبة خاصة زاخرة بالمطبوعات والمخطوطات اشتراها المتحف العراقي بعد وفاته .

***

عرف يوسف مسكوني بالوداعة وطيبة النفس والسذاجة . ولئن قيل إنّ وراء كل أديب امرأة ، لقد كانت وراءه زوجه الفاضلة التي هيّأت له الراحة المنزلية الوفيرة وجعلت من داره ندوة أدبية يحضرها رجال العلم والفضل . وكانت المطارحات والمفاكهات الشعرية والنثرية تدور في ذلك المجلس اللطيف ، فممّا قلته فيه :

ذا يوسف فضله قد فاق فائقه ... وطيبة النفس زانت ناصع السُّرُرِ
أبدت ظواهره مكنون مخبره ... لم يَخْفَ سرّ له في الوِرْد والصَّدرِ
فهو البريء كطفل يوم مولده ... وهو الصفيّ الذي يخلو من الكدر
تلك السّذاجة معنى من لطافته ... دامت ودام كريماً هانىء العُمُر

وقلت في الأرجوزة المسكونيّة :

أهلاً بمسكوني الصديق الفاضل ... زانت حجاه رقة الشمائل
قد أنعم الله عليه نِعما ... يشكرها مصلّياً مبتسما
من زوجة كاملة رقيقة ... محبّبة صافية السّليقة
ثمّ ابنةٍ أديبة مهذّبه ... الى القلوب كلّها محبّبه
وستّة من أفضل الأبناء ... كالأنجم الزهراء في العلاء
حازوا على الآداب والأخلاق ... فهم جميعاً أنفس الأعلاق
حفّوا به ، وهو لهم خير أب ... متّسم حقاً بفضل الأدب
فهذه توقظه صباحا ... تقدّم الماء له قراحا
تأتي له بأطيب الطعام ... ناطقة بأعذب الكلام
وذاك يصغي لتلقي أمره ... منفّذاً ما يبتغي من فوره
وآخر يلبسه رداءه ... مستمعاً في أدب آراءه
وثالث يركبه السيّارة ... منتظراً من أمره الإشارة

وتلـك تمضي في انتســـاخ مـــا كتـب		خـــوف الضيـــاعِ لا تبـــالي بـــالتعب
والأمّ، ذي السيــــدة الـــوقـــورة،		بـأمـــــره صــــادعــــة شكـــــورة
تحفـظ مـن نكـــــاتــــــه الكثيرا		وتحسـن التبريــــــر والتّـــــدبيرا
تقـــــول: زوجي العـــــالم الأريـب		ليـس لـــــه في فضلــــه ضريـب
إذا رأيتـم غفلـــــــة في طبعـــــــه		فليـس ذاك بـــــدعــــة في شرعـــه
فـــالعلـم من آفــاتـــه النّسيـــان		وشرطــــه الـــــذهـــول والإيمان
أروي لكـــــم سراً مــــن الأسرار		مثيلـــــه لم يأتِ في الأخبـــــار:
أرسلـــــه صـــــاحبـــه يخطبني		إذا بـــــه لنفســــــه يطلبني
قـــد نسي الطــــالـب مــــذ رآني		فـــاختــــارني زوجـــاً لـــه اجتبـــاني
وكـــــان ذاك القـــــدر المقـــدّر		قـــد شـــــاءه الله العليـم الأكبر
حمداً لـــــه دومـــــاً على الألطـــاف		ودام مسكــــوني بعـــزّ ضـــافِ

وارتبط يوسف مسكوني في أعوامه الأخيرة بصلة وثيقة بالشاعر حافظ جميل الذي رثاه عند وفاته بقصيدة مؤثّرة تذكّرنـا بمرثية الشريف الرضي للصابىء، بل برثاء أحمد شوقي لحافظ إبراهيم.

قال في مستهلّها:

كم كنت تشفـي جـراحــاتي بلقيــاكــا		وكم تشهّيت طعم الموت لـــولاكـــا
كنـت الطبيب لنفسي، لم تجد بـــــدلاً		من لطف روحـك في تطبيب مـرضــاكـــا
مـــا انهلّ دمعي ولم تجهش عليّ بُكـــاً		فما أشـــدّك إخـلاصـــاً وأوفـــاكـــا..

وقد روى شـاكر علي التكـريتي أنه قـال ليوسـف مسكوني، إذ رآه رابضـاً في مكتبته يحقق ويدقّق: إن الضـوء غير كافٍ. فأجاب: نعم، ولكن الكلمات المضيئـة وإشراقة الكتب أعتمد عليها قبل نور الكهرباء.

***

رويت نوادر كثيرة عن سذاجـة يوسف مسكوني وذهولـه وشرود ذهنه: من ذلك أنه زار انكلترة مع زوجته وذهبـا الى حديقة الحيوان. ولما تعبت السيّـدة من السير، وزوجها مستمـرّ على التجوال والتطلّع، جلست على أحـد المقاعـد وسألته أن يعـود إليها بعـد حين. ومرّت سـاعة وساعتـان وثلاث، وصاحبنـا لم يعد، فـذهبت السيدة الى مكتب الاستعلامـات ونادوا بـاسمه في مكبّرة الصـوت وطلبوا إليـه المجيء الى المكتب... ولم يجىء.

وقلقت السيدة فعادت الى النُزُل وأفضت بالأمر الى ربّة الدار التي اقترحت إخبار الشرطة. وفي هذه الأثناء حضر مسكوني هاشاً باشاً، مسروراً بجولته الطويلة، غير ملتفت الى القلق الذي استحوذ على قرينته. وقال: يا للغرابة! هل تعلمين أن في لندن رجلاً آخر يحمل اسم «مسكوني» وكان يزور حديقة الحيوانات في نفس الوقت الذي زرناها؟ لقد نادوا اسمه في مكبّرة الصوت، فعجبت وودت لو تعرّفت اليه..

ولم يفطن أنه كان المقصود بالنداء!

من القصص التي تروى عن ذهول مسكوني وغفلته أنه أراد قبل عام من وفاته السفر الى أوروبّة، فكلّم صديقه شاكر علي التكريتي في استصدار جواز سفر. قال الصديق:

هلّم بنا نمضِ الى مدير الدائرة أحمد سامي (أبي عائدة) فتأخذ الجواز المطلوب في لحظات.

قال مسكوني: أبو عائدة، إنني كنت مدرساً لزوجته وهو يعرفني حقّ المعرفة.

ومضيا إليه، فأكرم المدير وفادة مسكوني وذكّره بذكريات الدراسة، ثم أمر بتقديم القهوة وإنجاز معاملة جواز السفر. ولم يمض وقت طويل حتى تسلم يوسف مسكوني جوازه وسلّم على المدير وشكره وخرج مع صديقه.

ولما أصبحا في الرواق التفت مسكوني الى شاكر علي وقال: لقد كمل جواز السفر، ولم تبق لنا حاجة الى معونة أبي عائدة الذي درّست زوجته، ولكن مع ذلك، ما دمنا قد أتينا الى هنا، فلا بأس أن نمرّ به للسلام عليه.

فقال التكريتي متعجبّاً: ولكننا خرجنا من دائرته الآن وهو الذي أنجز لك المعاملة!

قال مسكوني: كنت أظنه مدير جوازات السفر وليس أبا عائدة، فكيف هو هو؟

***

انتقل يوسف مسكوني من داره، لكنه ظلّ بين حين وآخر يعود من دائرته ظهراً الى داره القديمة، ويعجب لوجود أناس غرباء فيها!

وكان راكباً يوماً في سيارة الباص، فصعدت سيّدة وجلست في المقعد الخالي الى جانبه. وغضّ صاحبنا من بصره، لكن السيدة كانت تتقرب منه وهو يبتعد عنها جهده. وأخيراً قالت له: ما لك، يا أبا زهير؟ فنظر إليها متعجباً وقال: أنت هنا، يا أم زهير؟ ماذا جاء بك، وكيف عرفت أنني راكب في هذا الباص فجلست الى جنبي؟

من نوادر يوسف مسكوني أنه نهض ذات صباح وارتدى ملابسه وقام ليذهب الى دائرته فقال لزوجته: أم زهير، إن الحذاء الأيمن يؤلم رجلي فلا أستطيع المشي.

ـ هل تشعر بألم في رجلك؟

ـ كلا، وإنما الحذاء ضيّق جداً يضغط أصابعي.

ـ إن الحذاء لم يصغر ورجلك لم تكبر، فما القضية؟

ـ والعجيب أن الحذاء الأيسر لا يضايقني، بل الأيمن فقط. ومضى يوسف مسكوني الى دائرته وهو يعرج، وعاد بعد الظهر يشكو الضيق والألم.

فلما نزع حذاءه الأيمن وفحصته أم زهير وجدت فيه زوجين من الجوارب وضعت فيه سهواً وكانت مصدر المضايقة!

محمد علي كمال الدين

من رجال التربية والتأليف محمد علي بن عيسى كمال الدين، ولد بالنجف سنة ١٩٠٠، ودرس على والده وغيره من العلماء، وتفرّغ لدراسة العربية والمنطق.

إشترك شاباً في ثورة سنة ١٩٢٠ فكان من محرري جريدة «الاستقلال» و «الفرات». ولما خمد أوار الثورة هرب الى الكويت برفقة أحمد الصافي النجفي وسعد صالح، وعاد الى مسقط رأسه بعد صدور العفو العام. والتحق بدار المعلمين الابتدائية في بغداد (١٩٢١) وعيّن بعد تخرّجه معلماً في المدارس الابتدائية فمدير مدرسة فمدرساً في المدارس الثانوية فملاحظاً لمجلة «المعلم الجديد» حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٥٩. وتوفي ببغداد سنة ١٩٦٦.

من مؤلفاته: سعد صالح (١٩٤٩) ذكرى السيد عيسى آل كمال الدين (١٩٥٧) التطوّر الفكري في العراق (١٩٦٠) تيسير العربية (١٩٦١) معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ (١٩٧١).

ترك مصنّفات مخطوطة منها: النجف في ربع قرن، رحلة الى سورية ولبنان، الخ.

الدكتور عبد الجبّار الجومرد

ولد عبد الجبار الجومرد في الموصل سنة ١٩٠٩، وكان أبوه محمد شيت الجومرد من شعرائها المعروفين في عهده (١٨٥٠ ـ ١٩٢٥). وقد تخرّج بدار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٢٩، ثم التحق بمعهد الحقوق في الشام ونال شهادتها (آب ١٩٣٥). وبعد أن مارس المحاماة سنتين، شد الرحال إلى باريس وواصل دراسته في السوربون واختص بالحقوق الدستورية والإدارية. وعاد إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية، لكنه لم يلبث أن قفل راجعاً إلى فرنسة، وحصل على درجة الدكتوراه في الحقوق (١٩٤١) والدكتوراه في الآداب (١٩٤٤).

وعاد إلى العراق فزاول المحاماة، وعيّن بعد ذلك ملحقاً بالأمانة العامة لجامعة الدول

العربية (١٩٤٦) وانتخب نائباً عن الموصل في مجلس النواب في حزيران ١٩٤٨، وكان عضواً بالوفد العراقي إلى هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩. وقد استقال من النيابة في آذار ١٩٥٠، ثم أعيد انتخابه نائباً عن الموصل في كانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤. وكان من رجال المعارضة في المجلس ومن مؤسّسي الجبهة الشعبية، وعرف بخطبه الوطنية ومواقفه الجريئة الصلبة.

ولما قامت الثورة عيّن وزيراً لخارجية الجمهورية العراقية من ١٤ تموز ١٩٥٨ إلى ٧ شباط ١٩٥٩. واختير عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٦١. وقد سمّي سفيراً في وزارة الخارجية في آذار ١٩٦٣، بيد أنه رفض المنصب.

وضع مؤلفات عديدة منها: الدستور العراقي (باللغة الفرنسية، وهو أطروحته في الحقوق ١٩٤١)، والأصمعي (بالفرنسية أيضاً، وهو أطروحته في الأدب)، مأساة فلسطين العربية (بالفرنسية ١٩٤٥). وألف عدا ذلك باللغة العربية: الأصمعي (١٩٥٥) هارون الرشيد (جزءان ١٩٥٦) يزيد بن مزيد الشيباني غرّة العرب (١٩٦١) داهية العرب أبو جعفر المنصور (١٩٦٣). ووضع تاريخاً للموصل في ٣ أجزاء، و «تاريخ حياتي ١٩١٠ ـ ٧١» (مخطوط).

توفي عبد الجبار الجومرد بالموصل في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧١.

قال الدكتور أكرم فاضل: «كان عبد الجبار وردة شباب الموصل، فهو يلعب كرة القدم بمهارة عجيبة، ويجيد التمثيل، ويبرع في الخطابة، ويحسن الكتابة، ويبدع في الشعر العامي والفصيح، بالإضافة إلى كونه خطيباً يستهوي الأسماع وصاحب أجوبة مسكتة...»

ثم قال: «وعاد إلى العراق في أعقاب الحرب الثانية فتطلعت الأنظار إلى الاتجاه الذي سيتّجه إليه، فإذا به نائب في مجلس النواب... وكانت خطبه في المجلس طريفة مرصّعة بالأرقام والشواهد والشعر والأمثال والأقوال المأثورة. وهو أول من سمعناه يذكر «الديمقراطية المنافقة»، وهي مقولة فرنسية. وكان يقظاً للمتربّصين به من النواب: خطب مرة فنهض وزير نائب ليقول ما مضمونه: أشهد أنّ الجومرد ممثل قدير، كان زميلي في دار المعلمين وكان ممثلاً بارعاً. فما كان من المغموز إلاّ أن نهض ليردّ على الغامز بقوله: كلنا في الحياة ممثلون، وجزاء كل ممثل الصفير أو التصفيق. وسنرى أخيراً لمن يكون الصفير ولمن يكون التصفيق!».

وقد نظم الجومرد قصائد في رثاء الزعيم السوري إبراهيم هنانو والشاعر الزهاوي إلخ. ومما قاله في تأبين الزهاوي:

فقد الشعر زاهيات المعاني	وذوت أعين القوافي الحسان
وتعرّت قصائد الشعر عن ثوب	قشيب معطّر الأردان
وكأنّ المنون راشت سهاماً	لتصيب الآداب في العنوان...

وقال في فلسطين :

مَنْ سامعٌ فأبثّ شكوى لم تزل ... بين الضلوع دفينة آلامها؟
لا تفخروا: كانت وكان لواؤها، ... طوي الزمان ومزّقت أعلامها
شيع وأحزاب يحطّم بعضها ... وجرائد مأجورة أقلامها
علماؤها غضّوا الجفون على القذى ... وسعى لكلّ بليّة حكّامها . . .

ومن شعره :

ذنبي من الأيام أعرفه ... نفس لها ثوب من الكبْرِ
أجد الحياة، على مكانتها ... لا تستحقّ إهانة الحرّ
فأصون وجهي أن يفرّط بي ... وأصون لفظي عن غدٍ يزري

محمد شيت الجومرد الشاعر والد الدكتور عبد الجبار ولد في الموصل سنة ١٨٥٠ وتوفي سنة ١٩٢٥ . وقد طبع ديوانه في القاهرة باسم «ديوان الجومرد» (١٨٨٨) ونشر في السنة نفسها ديوان صديقه الشاعر الموصلي الملاّ حسن البزّاز (١٨٤٥ ـ ١٨٨٧) .

صبيحة الشيخ داود

إذا ذكرت النهضة النسائية في العراق فلا ريب أنها تقترن باسم الأديبة الحقوقية صبيحة الشيخ أحمد الداود رائدة الدراسة النسوية العالية ومؤلفة كتاب «أول الطريق» .

ولدت صبيحة ابنة أحمد الشيخ داود (الذي أصبح فيما بعد وزير الأوقاف) في بغداد سنة ١٩١٢ . وأقيم في بغداد في شباط ١٩٢٢ المهرجان الأدبي المعروف باسم سوق عكاظ، فدعيت وهي فتاة صغيرة إلى تمثيل دور الشاعرة الخنساء، فاعتلت ظهر جمل وألقت قصيدة. قال أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» (الجزء الثاني) : «أقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العبّاسيين، وكانت أول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج، حضرها جلالة الملك فيصل، فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون. وكان قسّ بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله أحد الصبيان الأذكياء، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها إحدى الأوانس المسلمات سافرة صافنة . . .» .

وتخرّجت صبيحة الشيخ داود في دار المعلمات الابتدائية فعيّنت معلمة في المدارس الرسمية في أيلول ١٩٢٧ . ثم انتمت إلى كلية الحقوق سنة ١٩٣٦ ، فكانت أول فتاة وطأت أقدامها هذا المعهد. ولما تخرّجت بعد أربع سنوات عيّنت مفتشة في وزارة المعارف (أيلول ١٩٤٠) فمدرّسة بدار المعلمات الابتدائية (أيار ١٩٥٠) . ونقلت سنة ١٩٥٦ عضواً بمحكمة الأحداث، فظلّت فيها حتى اعتزلت الخدمة في كانون الثاني

سنة ١٩٧٠، وانصرفت إلى ممارسة المحاماة وألّفت كتاب «تجربتي في قضاء الأحداث».

ساهمت في النهضة النسائية فاشتركت في المؤتمر النسائي الأول الذي عقد ببغداد في تشرين الأول ١٩٣٢ واختيرت سكرتيرة له وألقت محاضرة عن حقوق المرأة المسلمة. واشتركت بعد ذلك في المؤتمر النسائي العربي في بغداد (آذار ١٩٥٢)، وكانت لها جهود مذكورة في الجمعيات الخيرية كالهلال الأحمر وحماية الأطفال إلخ.

ووضعت كتابها «أول الطريق» إلى النهضة النسوية في العراق (١٩٥٨)، كتب مقدمته منير القاضي، فقال: «وكانت مؤلفة الكتاب الأستاذة صبيحة الشيخ داود، عضو محكمة الأحداث، أول فتاة دخلت كلية في العراق، وهي كلية الحقوق، باستثناء فتاة أخرى دخلت كلية الطبّ، وكنت آنذاك عميد كلية الحقوق. وقد وجدت فيها النشاط والانصراف التام إلى الدراسة والتتبع، فتوسمت فيها كل الخير، وحدست أنها ستكون القدوة الصالحة لأخواتها الفتيات العراقيات. وقد صدق حدسي، كما أنها قررت أن تقوم بخدمات صالحة في المجتمع النسوي في العراق، وأنها ستنشر مؤلفات وأبحاثاً علمية. فكان ما حزرتُ، فقد كتبت أبحاثاً في مواضيع مختلفة نشرت في المجلات والجرائد، وكان آخر ما وقفت عليه من ثمار أعمالها كتابها «أوّل الطريق»... وقد دفعني إلى كتابة هذه المقدمة قيام الصلة الوثيقة بيننا، صلة أستاذ مخلص مع تلميذة نجيبة وفيّة. فقد قضيت في تدريسها مع زملائها أربع سنوات في كلية الحقوق، وهي الفتاة الوحيدة بين نحو ألف طالب يحترمونها وتحترمهم ويقدرون نشاطها وسعيها، وتقدر أدبهم وحسن سيرهم معها على وجه المساواة والحرمة المتبادلة...».

توفيت صبيحة الشيخ داود ببغداد في ١١ تشرين الثاني ١٩٧٥.

كانت صبيحة الشيخ داود ابنة رجل دين مثقف عصريّ النزعة أتاح لها الدرس والانخراط في سلك التعليم والقضاء. فإذا ذكرت باحثة البادية وميّ زيادة وهدى شعراوي في مصر فلا بد من ذكر قرينتهن صبيحة في العراق.

كان لها صالون أدبي يعقد كل أسبوع في دارها المطلة على دجلة فيحضره رجال الفضل والصحافة والأدب والسلك الدبلوماسي. وقد زارت الأقطار العربية مراراً واتصلت برائدات النهضة النسوية فيها.

قال جعفر الخليلي إن صبيحة متأنقة في لباسها، صريحة في قولها، يكاد لسانها ينطق بكل ما في صدرها، صبيحة الوجه حلوة الشمائل بعيدة عن التكلف إلى حدّ معقول.

مار إغناطيوس يعقوب الثالث

العالم البحاثة مار إغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك السّريان الأرتذكس، واسمه الأب عبد الأحد توما. ولد في قرية برطلّي من قرى شمال العراق سنة ١٩١٢، ودرس الفلسفة واللاهوت في معهد مار مَتّى بالموصل. ثم مضى إلى حمص فترهّب سنة ١٩٣١، وقام بالتدريس سنة واحدة في بيروت. وأرسل سنة ١٩٣٢ سكرتيراً للرسول البطريركي في الهند، ولم يلبث أن أصبح عميداً للمعهد اللاهوتي في ملابار (١٩٣٤). وعاد إلى الموصل سنة ١٩٤٧ وعمل مدرساً للآهوت، ثم اختير أسقفاً لبيروت ودمشق (١٩٥٠). وانتخب سنة ١٩٥٧ بطريركاً لأنطاكية وجميع المشرق خلفاً لمار إغناطيوس افرام الأول برصوم، فاتخذ لقب إغناطيوس يعقوب.

زار بريطانية سنة ١٩٧٩ واجتمع برئيس أساقفة كانتربري رئيس الكنيسة الإنكليزية، ومضى قبيل وفاته إلى روما وتباحث مع البابا يوحنّا بولس الثاني.

توفّي في دمشق في ٢٦ حزيران ١٩٨٠.

وضع مصنّفات كثيرة، منها ديوان شعر باللغة السريانية (طبع في حلب ١٩٦٠)، بين الشرق والغرب: صفحات ذهبية من تاريخ الكنيسة المسيحية (في جزءين، ١٩٤٩)، تاريخ الكنيسة السريانية الهندية (١٩٥١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية (في جزءين، ١٩٥٣)، المشعل الوضّاء في طريق السماء (١٩٥٤) نزهة الرائد في الكتاب الخالد (١٩٥٢) دفقات الطيب في تاريخ دير القدّيس مار مَتّى العجيب (١٩٦١) الكندي والسريانية (١٩٦٣) الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السّريانية (١٩٦٦) بطاركة الشرق (١٩٦٩) خطب المهرجانات (١٩٦٩) صدى المنابر (١٩٦٩) اللآلىء المنثورة في الأقوال المأثورة (١٩٦٩).

وكان عضواً بمجمع اللغة العربية في دمشق.

جلال الحنفي

الشيخ جلال محيي الدين الحنفي الأديب الفقيه الشاعر ولد ببغداد سنة ١٩١٢ ودرس في المدارس الرسمية. ثم لازم الشيخ أمجد الزهاوي وغيره من العلماء فأخذ عنهم. وكان سكرتيراً لجمعية الناشئة الإسلامية ورئيس تحرير مجلتها. ثم مضى إلى القاهرة وداوم في الجامع الأزهر سنة واحدة عاد على أثرها إلى بغداد (١٩٤٠) لنشوب الحرب العالمية.

عيّن إماماً لبعض المساجد. وأوفد إلى الصين سنة ١٩٦٤ لتدريس اللغة العربية في بكين. وعاد إلى بغداد بعد ثلاث سنوات، وقد تعلّم اللغة الصينية ووضع معجماً عربياً

صينياً لم يتسنّ لـه طبعه وكتب فيـه الكلمات الصينية بحروف عـربية . وعين مـوظفاً في وزارة الإعلام أمداً قصيراً، ثم أسندت إليه إمامة جامع الخلفاء . وأعيد إيفاده إلى الصين للتدريس في شنغهاي (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) وعاد منهـا بعد سنة ونصف ليستأنف الإمامة في جامع الخلفاء . ودعي إلى تونس سنة ١٩٧٨ لإلقاء محاضرات أدبية وثقافية .

وضع كتبـاً ورسائل عديـدة منها : التشريـع الإسلامي : تـاريخه وفلسفته (١٩٤٠) معاني القـرآن (١٩٤١) رسالـة اجتماعية خـالدة (١٩٥٣) الـزكاة وفلسفـة الإحسان في الشريعة الإسـلامية (١٩٥٥) صحـة المجتمع (١٩٥٥) الروابط الاجتماعيـة في الإسلام (١٩٥٦) بقايـا ديوان (١٩٥٦) مقدّمـات الجنوح في الأحـداث (١٩٥٧) أحاديث من وراء الميكروفـون (١٩٦٠) الأمثال البغداديـة (في جزءين ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤) الـرصافي في أوجه وحضيضه (١٩٦٢) المرأة في القرآن الكـريم (١٩٦٠) الأيمان البغدادية (١٩٦٤) معجم الألفاظ الكويتية (١٩٦٤) معجم اللغة العامية البغدادية (في جزءين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦) المغنّون البغـداديون والمقـام العراقي (١٩٦٤) الصنـاعات والحرف البغـدادية (١٩٦٦) العَروض (١٩٧٨) إلخ .

ونشر من الكتب : أعيـان البصرة (١٩٦٠) لعبـد الله بـاش أعيان العبـاسي ، الـدرّ النقيّ في علم الموسيقي (١٩٦٤) لأحمد بن عبد الرحمٰن القادري الرفاعي .

كـانت معرفـة جلال الحنفي للّغـة الصينيـة ـ وهـو شيء نادر في العـراق ـ مصـدر مضـايقة لـه . فقد كـان يتحدث مع زوجتـه بـالصينية لكي لا ينسيـا اللغة . وفيما هـو يكلمها تلفونياً إذا برقيب التلفونات يقول له على الخط :

ـ ألا تعرف العربية ، يا شيخ جلال؟ هل أنت تتكلم بلسان الطيور؟

ـ أنا أكلم زوجتي بالصينية لكي لا ننسى تلك اللغة .

ـ تكلم بالعربية لنفهم ما تقول!

ولما استمر الشيخ جلال على التحدث بلغة الصين قطع الخط .

وفي مناسبة أخرى قبض رجـال الأمن في البصرة على بحّار صيني تخلف عن اللحاق بباخرته واتهموه بـالتجسس . وأخذ الحنفي عنوة إلى البصرة ليترجم للبحار الذي لم يكن يعرف سوى لغتـه . قال البحار إنه كـان يسبح في شط العرب فإذا به يرى البـاخرة التي يعمل فيها قـد أقلعت تاركـة إياه بلا مـلابس ولا نقود . أمـا رجال الأمن فلم يصـدقوا كلامه وحثوا الشيخ جلال على مضـايقته وحمله على الاعتراف . واستطاع الحنفي بعد أن تخلص من هذه المهمة المضنيـة أن يعود إلى معتكفه في جامع الخلفاء تـاركاً رجال الأمن وبحارهم في مساجلة غير مجدية .

وجلال الحنفي رجل دين متسامح واسع الأفق . ومن الغريب أنه اشترك في الضجة التي أقيمت سنة ١٩٤٤ على معـروف الرصـافي حين نشر كتابه «رسـائل التعليقات» .

وقيل إن أعداء الشاعر أثاروا تلك الضجة بتحريض وتشجيع من البلاط الملكي انتقاماً منه لهجوه الأمير عبد الإله ومساندته لحركة مايس ١٩٤١ ضد الإنكليز. وقد أخبرني مصطفى علي أن الشيخ الحنفي أبدى نشاطاً محموماً في تكفير الرصافي، فهجاه بقصيدة مقذعة شديدة أكتفي بنقل بيتين منها:

ولست بمعجـــزي أبـــداً، فـإنّي ... على كبح الغـــواة قصرت عمـــري

شحــاك عليّ بــالنكــراء شــاحٍ، ... وكم أغـــراك بـــالنبهــاء مُغْـــرِ

وقد نشر مصطفى علي القصيدة كاملة في الجزء الرابع من تحقيقه لديوان الرصافي (١٩٧٦).

الدكتور علي الوردي

ولد علي حسين الوردي في الكاظمية سنة ١٩١٣، وكان مدرساً بالمدارس الثانوية. ثم أوفد إلى الولايات المتحدة وأتم دراسته في جامعة تكساس، فنال شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، وكان موضوع اطروحته ابن خلدون.

وعاد إلى بغداد فعيّن مدّرساً في كلية الآداب (تشرين الاول ١٩٥٠) فأستاذاً مساعداً (كانون الأول ١٩٥٣). وأصبح بعد ذلك استاذاً لعلم الاجتماع في كلية التربية فكلية الآداب بجامعة بغداد. واعتزل التدريس في حزيران ١٩٧٠ منصرفاً إلى التأليف.

عرف الدكتور علي الوردي كاتباً اجتماعياً جريئاً أثارت كتاباته ومؤلفاته حركة فكرية عارمة.

مؤلفاتـه:

من مؤلفاته: شخصية الفرد العراقي (١٩٥١) خوارق اللاشعور (١٩٥٢) وعاّظ السلاطين (١٩٥٤) مهزلة العقل البشري (١٩٥٥) أسطورة الأدب الرفيع (١٩٥٧) الأحلام بين العلم والعقيدة (١٩٥٩) منطق ابن خلدون (١٩٦٢) طبيعة المجتمع العراقي (١٩٦٥) نشأة الوعي السياسي في العراق (١٩٦٨) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (الجزء الأول ١٩٦٩، الثاني ١٩٧١، الثالث ١٩٧٢، الرابع ١٩٧٤) الخامس عن ثورة العشرين في قسمين (١٩٧٧ ــ ٧٨).

نشأ علي الودري نشأة متواضعة أعانته فيما بعد عل تشخيص أدواء المجتمع و إظهار الازدواجية الشخصية التي ابتلي بها أفراده. قال في مقدمة كتابه وعاظ السلاطين: «ولقد أتيح لي في بدء حياتي فرصة ثمينة، حيث كنت أكسب قوتي بعرق جبيني، وعانيت من الذلّ والحرمان والمهانة قسطاً كبيراً، فأدركت آنذاك مبلغ ما يقاسي أبناء السوقة والصعاليك من عذاب ومذلّة على أيدي الطغاة المترفين والجلاوزة»..

حمل الوردي في كتاباته على الأفكار القديمة والتقاليد البالية وحللّها في ضوء النظريات الاجتماعية العلمية ودعا إلى نبذ الترسّبات القبائلية في المجتمع وبناء مجتمع عصري مثقف يدين بالترابط الوطني والولاء للدولة، وكان أشدّ كتبه إثارة «وعاظ السلاطين» و«أسطورة الأدب الرفيع».

تخلّص في كتابه «وعاّظ السلاطين» إلى القول: «لقد آن الأوان لكي نحدث انقلاباً في أسلوب تفكيرنا، فقد ذهب زمان السلاطين وحلّ محله زمان الشعوب.. وليس من الجدير بنا، ونحن نعيش في القرن العشرين، أن نفكّر على نمط ما كان يفكر به أسلافنا من وعاظ السلاطين. آن لنا أن نفهم الطبيعة البشرية كما هي في الواقع، ونعترف بما فيها من نقائص غريزية لا يمكن التخلّص منها، ثم نضع على أساس ذلك خطة الإصلاح المنشودة».

ودرس الأدب العربي دراسة العالم الاجتماعي لا الناقد الأدبي، فقال: «لا ننكر أن شعراءنا اليوم قد تغيروا عما كانوا عليه بالأمس، فقد تحوّل الكثيرون منهم من مدح السلاطين إلى مدح الشعوب. ولكننا يجب أن لا ننسى أن تغيَّرهم هذا إنما كان من ناحية الشكل في الغالب، أما من ناحية المحتوى فلم يتغيروا الا قليلاً. انهم ظلوا يسيرون في شعرهم على نفس الطريقة القديمة من حيث الاندفاع في الفخر والحماس وقلة المبالاة بحقائق الأمور، فهم بدلاً من أن يجعلوا السلطان ظلّ الله في الأرض وأعدل الناس طراً، اتجهوا نحو الشعب فجعلوه نبيلاً كاملاً في جميع صفاته لا يتطرّق إليه النقص أبداً.

«يبدو أن شعراءنا حين تركوا مدح السلاطين واتجهوا نحو مدح الشعب صاروا كأنهم عادوا إلى حياة البداوة الأولى، حين كان الشاعر يمدح قبيلته ويذم خصومها في الحق والباطل. فهم لا يختلفون عن شعراء الجاهلية إلا من حيث أنهم وسعوا نطاق القبيلة فجعلوه «الشعب» أو «الوطن» أو «الأمّة»، إنهم بعبارة أخرى، غيروا شكل العصبيّة، أما مضمونها فلم يغيروه، حيث بقوا ينظرون إلى شعبهم أو وطنهم أو أمتهم كما كان الشاعر البدوي ينظر إلى قبيلته.

«انّ هذا النمط من التفكير الحماسي ـ وهو الذي يصح أن نسمّيه بالتفكير الشعري ـ لم يقتصر أثره على الشعراء فقط، بل شمل أيضاً الكثير من المفكرين وحملة الأقلام والخطباء، فهم جميعاً يجرون على طريقة واحدة، هي طريقة عمرو بن كلثوم: «ماء البحر نملأه سفينا!» (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ١: ٣١٣ ـ ٣١٤).

وقال علي الوردي في تصريح له إنه لم يتأثّر بشعر شاعر، لأنه منذ البداية ضعيف الثقة بالشعر والشعراء ويرى ان الشعر من أهم الأدواء الاجتماعية التي ابتلي بها العرب منذ عصر الجاهلية. أما الكتاب الذين تأثر بهم فكانوا كثيرين، منهم الغزالي وابن خلدون وسلامه موسى ودورانت ووليم جيمس وهـ. ج. ويلز وعلماء الاجتماع عامة

(جريدة الجمهورية البغدادية، ٤/ ١٢/ ١٩٦٩).

ودعا في فرصة أخرى إلى معالجة المشاكل الاجتماعية ومناقشتها، فذلك - كما قال - خير من الانشغال بالأدب الفارغ حول البحتري وتأبط شراً. وأضاف قائلاً: «اننا، في هذه المرحلة الراهنة، في حاجة إلى ثورة فكرية نتحوّل بها من عالم الأدب إلى عالم العلم. فقد مللنا الانهماك المفرط بالأدب الذي لا صلة له بالحياة. ولعلّني لا أغالي إذا قلت انّ هذا النوع من الأدب أضرّ بنا وعرقل علينا سبيل الحياة الحديثة» (جريدة الجمهورية، ١٢/ ٦/ ١٩٧٠).

انّ علي الوردي عالم اجتماعي وليس أديباً، ولو أنه عانى - كما قال - نظم الشعر في شبابه. وقد استطاع مع ذلك، في كتابيه وعاظ السلاطين وأسطورة الأدب الرفيع بوجه خاص، أن ينقد الأدب العربي نقداً صريحاً، فيفصل قشوره عن لبابه ويخلع الأردية البرّاقة التي يلتفع بها الكثير من الشعر والنثر فيظهر عريهما وهزالهما.

وكذلك هيّىء له أن يكشف عن قيم رفيعة ظلّت خلال عصور طويلة مستهجنة مرذولة في عالم أدبّي مصطنع.

الدكتور ناصر الحاني

ناصر محمد ظاهر الحاني ولد في بلدة عنة على الفرات سنة ١٩١٧ وتخرّج في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٤٣. وواصل دراسته في كلية الآداب بالقاهرة فأحرز شهادة الليسانس في الآداب (١٩٤٧) ونال الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن (١٩٥٠).

عيّن مدرساً في كلية الآداب في تشرين الثاني ١٩٥٠. ونقل مديراً للبعثات في وزارة المعارف (١٩٥١) فأستاذاً مساعداً بكلية الآداب (١٩٥٤). وألقى في تلك السنة محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، ثم عيّن ملحقاً ثقافياً في السفارة العراقية في واشنطن (ايلول - ١٩٥٤)، وانتدب استاذاً في جامعة لندن (١٩٥٩). وانتقل إلى وزارة الخارجية مديراً عاماً للعلاقات (آذار ١٩٦٠) فسفيراً في بيروت (آب ١٩٦١)، وأضيفت إلى عهدته سفارة اليونان أيضاً. ونقل سفيراً في دمشق (تموز ١٩٦٢) فسفيراً في ديوان وزارة الخارجية، وأسندت إليه وكالة الوزارة في تموز ١٩٦٣. ومثّل الجمهورية العراقية بعد ذلك سفيراً في واشنطن (١٩٦٤) فبيروت (شباط ١٩٦٧). وأصبح وزيراً للخارجية من ١٨ إلى ٣٠ تموز ١٩٦٨، ثم عيّن سفيراً في ديوان وزارة الخارجية.

وقد اغتيل ببغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٨.

مؤلفاته وأدبه :

كان الدكتور ناصر الحاني أديباً ناقداً وضع مؤلفات منها : نقد وأدب (١٩٤٦) النقد الأدبي وأثره في الشعر العباسي (١٩٥٥) جميل صدقي الزهاوي (محاضرات القاها بالقاهرة، ١٩٥٤) من اصطلاحات الادب الغربي (١٩٥٨) الأدب العربي واعلامه (بالاشتراك مع آخرين، ١٩٥٢)، في الحضارة العربية (١٩٦٨) أوراق (١٩٦٨) الخ .

وحقق شعر الراعي النميري (١٩٦٤) . وكتب عدا ذلك دراسات ومقالات عديدة وأبحاثاً عن العراق في بعض دوائر المعارف الاميركية وغيرها .

وقد تحدث ناصر الحاني ذات مرة فقال إنه معجب بطه حسين الذي يعتبره استاذ الجيل دون منازع وأول من وضع اسلوباً عربياً تأثر به كثير من الأدباء الناشئين واقتفوه . أما من أدباء الغرب فقد تأثر الحاني ـ على ما قال ـ بالناقد الانكليزي سسل داي لويس ودعا إلى ترجمة كتابه «الأخيلة الشعرية» . ولويس من شعراء انكلترة المعاصرين ونقادها الأدبيين، ولد في إرلندة سنة ١٩٠٤ ودرس في جامعة أكسفرد وأصدر دواوين شعر متعددة وكتباً في النقد والرواية .

الدكتور عبد الجليل الطاهر

من أساتذة علم الاجتماع، ولد عبد الجليل علي الطاهر في القرنة، عند ملتقى دجلة والفرات، سنة ١٩١٤ . ودرس في دار المعلمين الابتدائية فعيّن معلماً (تشرين الاول ١٩٣٣)، ثم انتمى إلى دار المعلمين العالية وعمل في التدريس .

أوفد سنة ١٩٤٧ لاتمام دراسته في باريس، ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية (١٩٤٩) . وعاد إلى بغداد يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة فعيّن مدرساً في كلية الأداب (تشرين الأول ١٩٥٢) . ونال بعد ذلك كرسّي استاذ علم الاجتماع في جامعة بغداد، وانتدب للتدريس في جامعتي الرياض وبنغازي .

وتوفي ببغداد في ١٢ حزيران ١٩٧١ .

مؤلفاته :

كان الدكتور عبد الجليل الطاهر من أبرز المؤلفين في علم الاجتماع في عصره، فأدى خدمة مزدوجة في عالمي التأليف والتدريس . قال الدكتور شاكر خصباك : «كان يمثل بحق الاستاذ الجادّ خير تمثيل، الاستاذ المكبّ على العلم، الواسع المعرفة والاطلاع، الملتزم التزاماً تاماً في تدريسه وأبحاثه . وقد تميزت أبحاثه عموماً بسعة أفقها وعمق تتبّعها وفكرها الجادّ التقدّمي العلمي وببعدها عن الغوغائية والديماغوغية، وهي

صفات قلما اجتمعت في أساتذة علم الاجتماع العرب».

ثم قال شاكر خصباك انّ الطاهر ضحّى بالكثير من أجل الشعب وفصل بسبب الدفاع عنه ثلاث مرّات وذاق آلام التشردّ سنوات طويلة.

وقال الدكتور علي شلتوت عميد كلية التربية بجامعة الاسكندرية: «لقد كان الدكتور عبد الجليل الطاهر عالماً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ. لقد جعل منه استعداده الذهني وذكاؤه وقدراته المختلفة وصبره على القراءة وبراعته في الربط والتحليل والبحث، جعلت منه عالماً صادق الرأي عميق الفكر..»

من مؤلفاته: المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة (١٩٥٣) التفسير الاجتماعي للجريمة (١٩٥٤) البدو والعشائر في البلاد العربية (١٩٥٥) أصنام المجتمع (١٩٥٦) علم الاجتماع بين الفينومينولوجية والتجريبية (١٩٦٢) مسيرة المجتمع (١٩٦٦) الخ.

وترجم كتباً منها: المزارع التعاونية الجماعية (١٩٦٠) أصول فلسفة الطبقة الوسطى (١٩٦٠) الايديولوجية والطوبائية للاستاذ مانهايم (١٩٦٨) العشائر والسياسة (جزآن (١٩٥٨ ــ ١٩٧٢) السكان والاقتصاد (بالاشتراك مع الدكتور منصور الراوي، ١٩٦٨) عشرة أعوام في طرابلس (١٩٦٧) الخ.

عبد العزيز الدوري

الدكتور عبد العزيز عبد الكريم الدوري ولد في بغداد سنة ١٩١٧ ودر س في المدرسة الثانوية وبعد ذلك في جامعة لندن ومدرسة الدراسات الشرقية، فنال الدكتوراه في التاريخ الإسلامي.

عاد إلى بغداد فعّين مدرساً في دار المعلمين العالية (آب ١٩٤٣) فمدير الترجمة والنشر بوزارة المعارف (كانون الثاني ١٩٤٩) فعميد كليه الآداب والعلوم (آذار ١٩٥٠). وعاد استاذاً للتاريخ الإسلامي في دار المعلمين العالية وثم في جامعة بغداد. وقد انتدب استاذاً زائراً في جامعة لندن (١٩٥٥) وجامعة بيروت الاميركية (١٩٥٩). وانتخب في تموز ١٩٦٣ عضواً بالمجمع العلمي العراقي، وكان رئيساً لجمعية المؤلفين والكتاب. وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في نيسان ١٩٦٧.

وقد اعتقل في أعقاب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ متهماً بمساندة حلف بغداد والدعاية الثقافية له وأحيل على محكمة الشعب وسجن، ثم عفا عنه عبد الكريم قاسم.

عيّن سنة ١٩٦٣ رئيساً لجامعة بغداد في عهد عبد السلام عارف. وضع بحوثاً ومؤلفات كثيرة منها:

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (١٩٤٨) الجهبذة والصيرفة في

العراق (١٩٤٣) دراسات في العصور العباسية المتأخرة (١٩٤٥) العصر العباسي الأول (١٩٤٥) في الوعي العربي (١٩٥٣) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام (١٩٤٩) مستقبل الفكر العربي (١٩٥٧) نشوء الاصناف والحرف في الإسلام (١٩٥٩) نظرة إلى تاريخ صدر الإسلام (١٩٥٥) النظم الإسلامية (١٩٥٠) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ١٩٦٠) الجذور التاريخية للقومية العربية (١٩٦٠) دراسات في علم التاريخ عند العرب (١٩٦٠) ضوء جديد على الدعوة العباسية (١٩٥٧) الفكر العربي في دور التجديد والتقليد (١٩٦١) ابن خلدون والعرب (١٩٦١) الجذور التاريخية للشعوبية (١٩٦٢) الجذور التاريخية للاشتراكية العربية (١٩٦٥) الجغرافيون.

العرب وروسية (١٩٦٦) دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن اسحاق (١٩٦٥) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (١٩٦٩)، الخ.

مضى أخيراً إلى عمان وأصبح استاذ التاريخ العربي والإسلامي في الجامعة الأردنية. والف: التكوين التاريخي للأمة العربية (١٩٨٤).

وقد منح جائزة الملك فيصل (السعودية) للدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٦.

صالح أحمد العلي

الدكتور صالح أحمد العلي ولد في الموصل سنة ١٩١٦ وعيّن معلماً في المدارس الرسمية في تشرين الأول ١٩٣٦. ثم انتمى إلى دار المعلمين العالية ببغداد فتخرج فيها سنة ١٩٤١. وأوفد للدراسة في كلية الآداب بجامعة القاهرة فنال شهادة الليسانس (١٩٤٥)، ثم في جامعة اكسفورد التي حاز منها الدكتوراه (١٩٤٩).

عيّن استاذاً في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٥٠) ثم في كلية الآداب بجامعة بغداد. وأصبح رئيساً لدائرة التاريخ ووكيل عميد معهد الدراسات الإسلامية.

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تموز سنة ١٩٦٣ واصبح رئيساً له سنة ١٩٧٩. واختير أيضاً عضواً بمجمع اللغة العربية في دمشق وعضواً في مجمع اللغة الأردني (١٩٨٠).

من مؤلفاته: خطط البصرة (١٩٥٢) مستوى الاسعار في القرن الأول الهجري (١٩٥٢) محاضرات في تاريخ العرب (١٩٥٤) أحكام الرسول في الأراضي المفتوحة (١٩٥٦) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (١٩٥٣) خطط المدينة (١٩٦١) الأنسجة الإسلامية في القرن الأول الهجري (١٩٦١) النظام الاقتصادي

الإسلامي في التطبيق (١٩٦٢) منطقة الكوفة (١٩٦٥) منطقة الحيرة (١٩٦٥) موظفو بلاد الشام في العهد الأموي (١٩٦٦) المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (١٩٦٤) كتب الفقه وأهميتها في دراسة التاريخ الإسلامي (١٩٥٥) المدائن في المصادر العربية (١٩٦٧) مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية (١٩٦٧) قضاة بغداد في العصر العباسي (١٩٦٩) تنظيمات الرسول الادارية في المدينة (١٩٦٩) جزيرة العرب للأصمعي (١٩٦٨)، إلخ . . .

وقد ترجم كتباً عن علم التاريخ عند المسلمين، وتركية الفتاة وثورة ١٩٠٨، والحضارة البيزنطية والحروب الصليبية، وحقق كتباً من التراث للجاحظ والحسن الاصفهاني الخ . ووضع أطلساً تاريخياً للشعوب الإسلامية طبع في أمستردام .

وترجم أخيراً كتاب خطط بغداد في القرن الخامس الهجري من تأليف الدكتور جورج مقدسي (١٩٨٤) .

منح صالح أحمد العلي جائزة الملك فيصل السعودية العالمية في الدراسات الإسلامية لسنة ١٩٨٩ .

الدكتور عبد الجبار عبد الله

رئيس جامعة بغداد الدكتور عبد الجبار عبد الله الشيخ سام ينتمي إلى أسرة صابئية قديمة أنجبت العديد من علماء الطائفة . ولد في قلعة صالح من أعمال لواء العمارة سنة ١٩١١ وأتّم دراسته الثانوية في بغداد (١٩٣٠) وانتمى بعد ذلك إلى الجامعة الأميركية في بيروت فنال درجة بكالوريوس علوم سنة ١٩٣٤ .

عمل مدرساً في مدارس العمارة الثانوية (تشرين الأول ١٩٣٤) فمساعد مدير الأنواء الجوية في مطار البصرة (١٩٣٧) فمدرساً في مدارس بغداد الثانوية ودار المعلمين العالية (١٩٤١ ــ ٤٤) . ورحل إلى الولايات المتحدة الاميركية فأتم دراسته في معهد ماتساشوستس التكنولوجي في بوسطن وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية (١٩٤٩) . وعمل في أثناء ذلك مساعد بحوث ومساعد استاذ في المعهد نفسه .

عاد إلى بغداد فعّين استاذاً ورئيساً لقسم الفيزياء في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٤٩) إلى سنة ١٩٥٨ . ورشح خلال هذه المدة استاذاً باحثاً في جامعة نيويورك بين سنتي ١٩٥٢ و ١٩٥٥ . وعلى أثر ثورة تموز ١٩٥٨ عيّن أميناً عاماً لجامعة بغداد ووكيلاً لرئيسها، فرئيساً أصيلاً (١٩٥٩) . وكان في الوقت نفسه نائب رئيس هيئة الطاقة الذرّية .

وقد فصل من منصبه على أثر نشوب ثورة رمضان في شباط ١٩٦٣ واعتقل وعذّب

وأهين. ثم أطلق سراحه فمضى إلى الولايات المتحدة حيث عمل استاذاً في جامعاتها. وأدركته الوفاة بها سنة ١٩٦٩.

كان عالماً فاضلاً، لكن أخذت عليه ميوله اليسارية التي كانت سبب سجنه وإيذائه. وضع بحوثاً علمية نشرت في المجلات الأميركية وانتخب عضواً في جمعيات علمية متعددة، وألف باللغة الانكليزية كتاباً في «ديناميكا الأعاصير» (طبع في نيويورك سنة ١٩٥٣). وألف بالعربية: علم الصوت (١٩٥٥) واشترك في ترجمة «مقدمة في الفيزياء النووية والذرية» (١٩٦٢) والجزء الأول من موسوعة الأنواء الجوية (١٩٤١).

طه باقر

ولد في الحلة سنة ١٩١٢، وهو أخو الشاعر محمد الباقر الحلي. درس طه باقر علم الآثار في جامعة شيكاغو فنال شهادة البكالوريا والماستر وعاد إلى بغداد سنة ١٩٣٨. وعين في تشرين الثاني من تلك السنة موظفاً في مديرية الآثار العامة، وأصبح أميناً للمتحف العراقي (تموز ١٩٤١) فمعاون مدير الآثار العام (كانون الثاني ١٩٥٣) فمفتشاً عاماً سنة ١٩٥٦. وعين مديراً عاماً للآثار في أواخر سنة ١٩٥٨، وكان في الوقت نفسه أستاذ التاريخ القديم في جامعة بغداد. وتولّى نيابة رئاسة الجامعة بالوكالة سنة ١٩٦٠. وأحيل على التقاعد سنة ١٩٦٣.

انتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الأول ١٩٧١ وعضواً بمجمع اللغة العربية بدمشق. وتوفي سنة ١٩٨٤.

وضع مؤلفات كثيرة، فمن آثاره: أصل الحروف الهجائية وانتشارها (١٩٤٥) علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب (١٩٤٩) ملحمة جلجامش والطوفان (١٩٥٠) لوح رياضي على نظرية إقليدس من تل حرمل (بالعربية والإنكليزية، ١٩٥٠) قضايا رياضية أخرى من تلّ حرمل (١٩٥١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (جزءان، ١٩٥١) بابل وبور سيبا (١٩٥٩) عقرقوف (١٩٥٩) تل حرمل (١٩٦٠)...

وقد نقل عن اللغة الإنكليزية: بحث في التاريخ (لأرنولد توينبي) من ألواح سومر (لصموئيل كريمر، ١٩٥٨). واشترك في ترجمة: الإنسان في فجر حياته (لدوروثي ديفدسن، ١٩٤٥) تاريخ العلم (لجورج سارتون، ١٩٥٧) الرافدان (لسيتن لويد، ١٩٤٨). ووضع مؤلفات بالإنكليزية عن عقرقوف وبابل وبورسيبا وتل حرمل وحفريات الحكومة العراقية، إلخ.

الدكتور محمد سليم النعيمي

الدكتور محمد سليم محمود النعيمي الأعظمي ولد في قصبة الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٩١٠ . درس في دار المعلمين فعيّن معلماً (تشرين الأول ١٩٣١)، ثم أوفد إلى مصر وباريس لإكمال دراسته العالية (١٩٣٣). ووضع أطروحة الدكتوراه في جامعة السوربون في موضوع شعر المعارضة السياسية في العصر الأموي (١٩٣٩)، لكنه لم يتمكن من مناقشتها لاضطراره على العودة إلى العراق إثر نشوب الحرب العالمية .

وقد اعتقل في تشرين الأول ١٩٤١ لاتهامه بالميول النازية . وعيّن أستاذاً في دار المعلمين العالية في أيار ١٩٤٧ فملحقاً ثقافياً بالسفارة العراقية في باريس (نيسان ١٩٥٤). وعاد أستاذاً في دار المعلمين العالية في أيار ١٩٥٥ ونقل إلى جامعة بغداد عند إنشائها .

عيّن عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣ وانتخب نائباً أول لرئيسه . وأوفد سفيراً للعراق في تونس ، فلما عاد إلى بغداد استأنف عضويته في المجمع ونيابة رئاسته .

وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (نيسان ١٩٦٧) وعضواً بمجمع دمشق (١٩٧٣).

توفي في بغداد سنة ١٩٨٤ .

له مؤلفات عديدة منها : وجهة الأدب الحديث (١٩٦٢) شعر النجاشي الحارثي (١٩٦٥) ظهور الخوارج (١٩٦٧) أخطاء في دائرة المعارف الإسلامية (١٩٦٩) اسم الفعل : دراسة وطريقة تيسير (١٩٦٨).

وقد ترجم قسماً من «أعمدة الحكمة السبعة» تأليف لورنس (١٩٤٧) وتعريف الاشتراكية لأميل دركهايم (١٩٤٧). وحقق كتاب التبصير في الدين للإسفراييني (١٩٣٩) والاشتقاق لأبي سعيد الأصمعي (١٩٦٨).

واشترك في وضع مصطلحات علم الجراحة والتشريح ومقاومة المواد وهندسة إسالة الماء إلخ .

الدكتور ناجي معروف

ولد ناجي معروف في قصبة الأعظمية من ضواحي بغداد في ٢٠ كانون الأول ١٩١٠ ودرس في دار المعلمين العالية . وعيّن مدرساً في تشرين الأول ١٩٣١ ، ثم أوفد إلى باريس للدراسة فالتحق بمعهد اللوفر وجامعة السّوربون . ووضع أطروحته للحصول على الدكتوراه في الآداب ، لكنها لم تناقش بسبب نشوب الحرب سنة ١٩٣٩ وسحب طلاب البعثة الدراسية ، فاضطرّ على العودة إلى بغداد .

عيّن على أثر عودته مدرساً، ثم نقل مفتشاً بوزارة المعارف (أيار ١٩٤٦) فأستاذاً مساعداً في دار المعلمين العالية (كانون الأول ١٩٤٦). وأسندت إليه مديرية أوقاف بغداد في آذار ١٩٤٨، ثم عهد إليه بالتدريس في كلية الشريعة (نيسان ١٩٥٠) وأصبح عميد الكلية في نيسان ١٩٥٣. وكان بعد ذلك عضواً في مجلس الخدمة العامة وأستاذاً في جامعة بغداد. وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الأول ١٩٧١ وعضواً بمجمع دمشق.

أحيل على التقاعد سنة ١٩٧٠، فانتهز الفرصة لتقديم أطروحته إلى جامعة القاهرة والحصول على درجة الدكتوراه.

مضى إلى الحجاز لأداء مراسيم العمرة فتوفّي هناك في آب ١٩٧٧.

وضع مؤلفات تدريسية وتاريخية كثيرة، منها: المدرسة المستنصرية (١٩٣٥) تاريخ علماء المستنصرية (١٩٥٩) المدخل في تاريخ الحضارة العربية (١٩٦٠) المدرسة الشرابية (١٩٦١) التوقيعات التدريسية (١٩٦٣) عروبة المدن الإسلامية (١٩٦٤) مقدمة في تاريخ مدرسة أبي حنيفة وعلمائها (١٩٦٥) نشأة المدارس المستقلة في الإسلام (١٩٦٦) تخطيط بغداد (١٩٦٦) حياة إقبال الشرابي (١٩٦٦) المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة (١٩٦٦) مدارس مكة (١٩٦٦) مدارس واسط (١٩٦٦) عالمات بغداديات في العصر العباسي (١٩٦٧) العملة والنقود البغدادية (١٩٦٧) المراصد الفلكية في بغداد (١٩٦٧) مستشفيات بغداد في العصر العباسي (١٩٦٨) أصالة الحضارة العربية (١٩٦٩) التأميم الاجتماعي في الإسلام (١٩٦٩)، عروبة العلماء المنسوبين إلى البلاد الأعجمية (الجزء الثالث ١٩٨٠).

وترجم كتاب «خطط بغداد» للمستعرب الفرنسي كليمان هوارت Clément Huart (١٩٦١). وكان هوارت (١٨٥٤ ـ ١٩٢٧) من مترجمي وزارة الخارجية الفرنسية وأعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق، وضع تآليف بالفرنسية عن تاريخ بغداد والآداب العربية ونشر كتباً من التراث القديم.

وقد حاول ناجي معروف إثبات عروبة البلدان الإسلامية وأنساب علماء المسلمين، وفاته أن الحضارة الإسلامية الزاهرة شارك فيها بنصيب كبير الفرس والروم واليهود والنصارى والصابئة وسائر الملل التي استظلت بظل الإسلام واتخذت العربية أداة للكتابة والتعبير.

فؤاد جميل

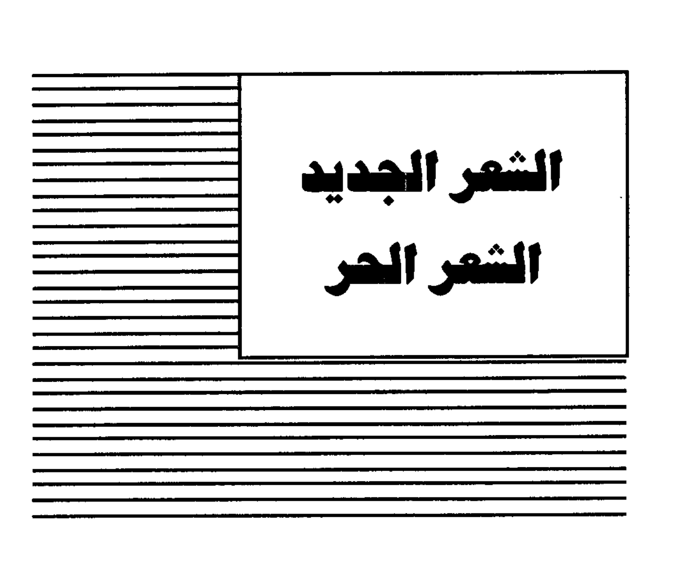
من رجال التربية والتأليف، ولد في العمارة، حيث كان أبوه جميل أفندي موظفاً، سنة ١٩١٤. أتم دراسته الثانوية في بغداد ومضى بعد ذلك إلى بيروت ودرس في جامعتها الأميركية متخصصاً في اللغة الإنكليزية.

عاد إلى بغداد فعيّن مـدرساً (١٩٣٤)، ثم كان أول سكرتير للجنة الإذاعـة في بداية تأليفها (١٩٣٧). ونقلت خدماته إلى وزارة التموين بصفة مميز (١٩٤٥)، ثم أعيد إلى التدريس في دار المعلمين الابتـدائية (١٩٤٨) والإعـدادية المركـزية (١٩٥٠). وأصبح مدير مكافحة الأمية بـوزارة المعارف (١٩٥٤) فمفتش معارف فأستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد.

لازمَ الشيخ قـاسم القيسي ومحمد بهجت الأثـري أمـداً آخذاً عنهما اللغـة العربيـة، وكان من روّاد البحث الفـولكلوري، كتب الفصـول المسهبة عن بدو العـراق وعاداتهم وتقاليدهم ومأثوراتهم وقصصهم.

أدركه الحمام في بغداد في ١٩ تشرين الأول ١٩٧١.

من مؤلفـاته: مقالات وأحاديث (١٩٥٨). وقـد ترجم فؤاد جميل كتبـاً كثيرة منها: فنّ الدراسـة، حضارة العالم الجديـد (١٩٥٨) العراق في القرن الـرابع للميلاد بحسب وصف المؤرخ الروماني أميانوس مرشيلينوس (١٩٦١) في بلاد الرافدين: صور وخواطر (من تأليف الليـدي دراور زوجـة السر أدوين دراور مشـاور وزارة العـدلية العـراقيـة، ١٩٦١) بغداد مـدينة السـلام (تأليف ريجارد كوك، في جـزءين ١٩٦٢ ـ ٦٧)، يليني (١٩٦٣) ثورة العـراق ١٩٢٠ (تأليف الجنرال ايلمر هـالدين، ١٩٦٥) هيرودوتس في العراق (١٩٦٢) رحلات إلى العراق (تأليـف السر واليس بادج، جزءان ١٩٦٦ ـ ٦٨) أريان يـرون أيام الإسكندر الكبير في العـراق (١٩٦٧) بلاد مـا بين النهرين بين ولاءين (تأليف السر ارنولـد ولسن، في ٣ أجزاء ١٩٦٩) رحلـة متنكر إلى بلاد مـا بين النهرين وكردستان (تأليـف الميجر سون، ١٩٦٩) سنتان في كردستـان (تأليف هاي، ١٩٦٩) الدين مادة ورمزاً (تأليف هدلي، ١٩٦٢) إلخ.



الشعر الجديد
الشعر الحر



نـازك الملائكـة

الشاعـرة المجدّدة نـازك الملائكة، ابنـة صادق جعفـر الملائكة (١٨٩٢ ـ ١٩٦٩) الذي درّس اللغة العربية في المدارس الثانوية الرسمية أكثر من ربع قرن. وأمها الشاعرة أمّ نزار الملائكة (سلمى عبد الرزّاق) ولدت ببغداد سنة ١٩٠٨ وتزوجت في سن مبكرة. وتوفيت سنة ١٩٥٣، وقد طبع ديوان شعرها بعنوان «أنشودة المجد» (١٩٦٨).

واقترنت نازك الملائكة سنة ١٩٦٢ بالدكتـور عبد الهادي محبوبة (ولد ١٩١٢) وكان أستاذاً بجامعة بغداد ثم أصبح رئيساً لجامعة البصرة.

ولدت نازك في بغداد في ٢٣ آب سنة ١٩٢٣، وتخرّجت في دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٤، ثم واصلت دراستهـا في جامعـة وسكونسن الأميركيـة (١٩٥٤). وعادت إلى بغداد فكانت أستـاذة مساعدة في جامعتها، وانتقلت بعد ذلك إلى التـدريس بجامعة البصرة ثم في جـامعة الكـويت. وأصدرت دواويـن شعريـة: عاشقـة الليل (١٩٤٧) شظايـا ورماد (١٩٤٩) قرارة الموجة (١٩٥٧) شجـرة القمر (١٩٦٨)، ودراسة نقـدية بعنوان «قضايا الشعر المعاصر» (١٩٦٢). ولها أيضاً: الأدب والغزو الفكري (١٩٦٥) محاضرات في شعر علي محمود طه (١٩٦٥).

وقد أصدرت ديوان شعر جديداً بعنـوان «مأساة الحياة وأغنية للإنسان» (١٩٧٠)، ولها أيضاً: التجـزئة في المجتمع العربي (١٩٧٤) للصـلاة والثورة (١٩٧٧) يغيّر ألـوانه البحر (شعر).

نحّي زوجهـا عن رئاسـة جامعـة البصرة كما نحّيت هي أيضـاً عن تـدريس الأدب العربي، فمضيا إلى الكويت ودرّسا في جامعتها. وعادت إلى بغداد سنة ١٩٨٩.

ومنحتها كليـة الآداب بجامعـة الكويـت سنة ١٩٨٥ إجـازة تفرّغ للعـلاج بعد أن عانت وضعاً صحياً ونفسياً متدهوراً.

قال عبد اللطيـف شرارة في نازك الملائكة مقيّماً ديوانها «عاشقـة الليل» (مجلة الأديب البيروتية، آذار ١٩٤٨):

«أما عنـد الآنسة نازك فإن بـواعث الكآبة التي تتجلّى في كل بيت من أبيـات ديوانها

هذا ليست في الحرمان ولا في الحبّ الضائع ولا في فكـرة الموت، وإنما هو «حزن فكريّ» نشأ عن تفكير في الحياة والموت من جهة، وتأمّل في أحوال الإنسانية من جهة ثانية، ثم انتقلت هذه الملاحظـات والتأمّلات إلى صعيد الحسّ، فحفرت في «القلب» جـروحاً لا تندمل، وأخذت من بعد ذاك تتدفّق آهات وأحزاناً. وتلك هي رواية شاعريتها . . .».

وقال إيليا أبـو ماضي في جريدتـه «السّمير» (نيويورك، ١٦ ك٢ ١٩٤٨): «نبغ في العرب عدد من النساء الشاعرات أشهرهنّ الخنساء التي فجّر موت أخيها صخر كل ما في روحها من ينابيع الشعور، فكانت مراثيهـا فيه من أرقّ ما فاضت به قرائح الشعراء. ولا بدع فالمرأة في هذه الناحية، في ناحية الإحساس العميق واللهفة والدموع، أعظم بما لا يقاس من الرجل، فكأنما أعصابها أوتار قيثارة تخرج منها الأنغام كلّما مرت بها أصابع عابث ـ سـواء كان هذا العابث هو الـزمان أم الإنسان. وأمامنا الآن ديوان شعـر أهدته إلينا ناظمتـه الشاعرة المرهفة الحسّ نازك الملائكة التي تحكي الخنسـاء في نواحها، ليس على أخ لها كصخـر، ولا على زوج مثل ابن طريف، بل على ذاتها. فهي في الليل ثـائرة غضبى، وفي الصباح باكية دامية، لا ترى في الناس من تألفه ولا في الطبيعة ما يصرفها عن نفسها الكئيبة الحزينة . . .

ويلمح القارىء روحهـا حائرة حزينة مضطـربة مكفهرة في كلّ قصيـدة من قصائد الديوان الذي أسمته «عاشقة الليل». وهذه التسميـة وحدها كافية للدلالة على رغبتها في السكينة والعزلة والانطواء لكي تطالع في كتاب روحها سطور الألم وآيات الأسى.

«ويبـدو لنا من بعض تعـابيرها ومن الـروح السّاريـة في شعرهـا أنها متأثرة بشعـراء الكآبـة مثل الشاعر كيتس الإنكليـزي وسواه . . . على أنّها مبدعة في التصـوير والتعبير إبداعاً ندر نظيره . . .»

***

قالت من قصيدة لها في «لعنة الزمن»:

كنّا كالأمواج الخرس
في عينينا لون الشمس
في وجهينا الوقرين خشوع المغرب والأبد الخلّاق
كنّا نهمس كالأنداء
كصدى مجداف في الماء
لم نقطع صوت الظلماء
بمدامع ذكرى أو أشواق
كنّا قد كفّنّا الماضي ودفنّا اللهفة والأشواق
في الظلمة في صمت الأعماق

***

وأراق المغرب ألوانه

فوق الأشياء الوسنانه

لم يبق بناء لم تحمر أعاليه، لم يبق زقاق

حتّى في صفرة خدّينا

حتى في وجمة قلبينا

أحسسنا اليقظة واللّونا

أحسسنا شيئاً كالثورة في الدم، في الأعين، في الأعراق

شيئاً كاللّهفة، كالأشواق . . .

* * *

وهجسنا شيئاً منفعلا

في قلبينا، شيئاً ثملا

يلهث عاطفة بعد جمود سنين مرّت في استغراق

وانبجست أشواق وَسْنَى

من أعيننا لوناً لونا

وتحرّك في دمنا معنى

ناريّ الشوق صَدٍ توّاق

وسدى حاولنا أن نسكنه فهو صَدٍ مرح توّاق

وسدى نطمره في الأعماق

* * *

ووقفنا في الظلمة نحلم

بالموج وبالليل المبهم

ونحوك من الرؤيا والأنجم والأمواج لنا أطواق

ونجوب العالم في عربات

صنعتها أذرع جنّيّات

من عطر الأزهار الخجلات

في أسلاك الضوء الألّاق

في قصر النهر على أرض يلمسها القمر الألّاق

وتناست مولدها الآفاق

سئلت نـازك الملائكة عن الشعر الحرّ الذي كـانت في طليعة الـداعيات إليـه وعلة تسميته بهذا الاسم، فقالت:

«إنّما سمّينـاه بهذا الاسم باعتبـاره غير مقيّد بـالتـزام الشطرين المتسـاويين والقافيـة الموحّدة. وفكرة «الحرية» هنا تستند إلى القيود المفـروضة في البحور الشعرية الستة عشر وليست حرية مطلقـة كما يتوهّم بعض الناس. والواقع انّ هـذا الشعر ليس نثراً، وإنما هـو شعـر تحرّر مـن بعض القيـود الشكليـة. إنّـه لا يثـور على الـوزن وإنما على نظـام الشطرين، وهو لا يرفض القافية وإنما يرفض القافية الموحّدة...».

ثمّ قالت: «لا شكّ أن في التزام الأوزان القديمـة ذات الشطرين الصارمين شيئاً من التضييق على الشاعر، غير أنها لا تحول إطلاقاً دون التعبير عن العاطفة وصياغة الفكرة الصياغة المطلوبة. ولا بدّ من التنبيـه إلى أن الموضوعات التي تصلح لها الأوزان القديمة تختلف عن الموضـوعـات التي تنـاسب الأوزان الحديثـة، ولـذلك يـدهشني أن بعض الشعراء لا يستعملون إلا الأوزان الحرّة».

وسئلت الشاعـرة عن الكآبـة التي تغلب على شعرهـا فأجابت قـائلة: «لعلّ سبب ذلك أنني أتطلب الكمال في الحيـاة والأشيـاء وأبحث عن جمال لا حدود لـه. وحين لا أجد مـا أريد، أشعـر بالخيبـة وأعدّ القضيـة قضيّتي الشخصية. يضـاف إلى هذا أنني كنت إلى سنوات خلت أتخذ الكآبة موقفاً إزاء الحياة، وكنت أصدر في هذا عن عقيدة لم أعـد أؤمن بها، مضمـونها أن الحزن أجمل وأنبل من الفـرح، فكنت أقف إزاءه مـوقف العابدة وأتحدث عنه كما لو كان إلهاً. ومن أمثلة هذا في «قرارة الموجة»:

نحن هيـّأنا له حبّاً وتقديساً ونجوى
وتهيّأنـا للقيـاه عيـونـاً وشفـاهـا،
وسنلقاه مصلّين كما نلقى إلهاً...»

إن شعر نـازك الملائكة يعبّر من حيث المبنى والمعنى، عـن الكبت النفسيّ والتمرّد، ولم يكن ذلك غـريبـاً على فتـاة نشأت في بيئـة محافظـة وانطلقت فجأة إلى آفـاق العـالم الرحيب. إن الصراع قـد اشتدّ في قـرارة نفسها بين دنياهـا القديمـة التي فتحت عليها العينين، تلك الدنيا التي كانت تعدّ الفتاة جوهرة ثمينة ينبغي الحفاظ عليها في صندوق مبطن بـالقطيفة وإبعـادها عن الأبصـار، وبين العـالم الجديد الـذي خرجت إليـه على مقاعد الدراسة وفي الولايـات المتحدة الأميركية. وزادت حدّة الصراع حين أطلت الفتاة التي أشربت حبّ الأدب العربي الاتّباعي بين والديها الأديبين الشاعرين، حين اطلعت على الآداب العالميـة وقرأت آثار الفكـر الأوروبيّ المتفتّح. وكانت نتيجـة هذا الصراع زمّ عواطفها والتمرّد على القديم مع الخوف من الحديث.

تمرّدت نـازك على مباني الشعر العمـودي فابتـدعت الشعـر الحرّ الذي حـافظ على

تفـاعيل البحـــور العــربيــة في أبيــات تطـــول وتقصر وتسرع وتتلكأ وتهدأ وتموج وتحلّق وتسفّ .

وتمرّدت نازك على المعاني الشعريـة ، فتشبّثت بأذيال الألم وتمرّغت على أقدامه وتغنّت بألحانه ، فقالت :

نحن توّجناك في تهويمة الفجر إلٰها
وعلى مذبحك الفضّي مرّغنا الجباها
يا هوانا ، يا ألم
ومن الكتّان والسمسم أحرقنا بخورا
ثم قدّمنا القرابين ورتلنا سطورا
بأبيات النغم . . .

ونـزعت إلى الحبّ وخشيته فـدفعتها رهبتهـا إلى الأحلام . لم تكتحل عينـاها بمـرأى الشفق ، بل ضربت في أودية الخيال وحاولت أن تحلم بالمساء الجميل والدجى السّاجي والنجوم المتألقة بصفاء وهدوء ، حاولت أن تتصيّد الرؤى وتنصب الشراك للسعادة التي في متناول يـديها . حاولت أن تحلم بالحبّ الـذي هو المنحة الطبيعية للشبـاب ، فطلبته على جبال القمر، بعيداً عن الـزمان والمكان وفي معزل من البشر. طلبت الحبّ في أمس الدابر، بدلاً من اليوم الحاضر والغد القريب ، فقالت :

سنحلم أنّا نسير إلى الأمس لا للغد
وأنّا وصلنا إلى بابل ذات فجرٍ ندٍ ،
حبيبين نحمل عهد هوانا إلى المعبد ،
يباركنا كاهن بابليّ نقيّ اليد .

ونـزعت الشـاعرة إلى الحيـاة وخـافتهـا ، وهفت إلى الهناء فمـلأتها رهبتـه ، فتعلّلت بالصور والكلمات وسألت : هل؟ ومتى؟

(هل) و (متى) لحن جفون ضارعة وشفاه ،
وجوابهما : إن شاء الله . . .
هل تحضر؟ هل يأتي المطر؟
هل يسخو العطر وينهمر؟
إن شاء الله ،
إن شاء الله .
ومتى يسري نسغ السكّر
في الرمّان الحامض؟ والفجر متى يظهر؟
والشاطىء بعد ضنى الأسفار متى سنراه؟
إن شاء الله . . .

ورأت شاعرتنا في الحزن والكآبة منطلقاً من القيود التي ترسف فيها، فأحبّت لواعجها وتمسّكت بحزنها وقدّست كآبتها. وصوّرت حزن نفسها غلاماً صافي الشعور، ناصع الجبين، يسبح في بحر من النور والأريج، غلاماً خجولاً يحيى في دموع المآقي الخرس، لا يعرفه إلاّ من خبر الصمت العميق وكتم الألم في عمق الحشا السحيق. وقالت:

نحن هيّأنا له حبّاً وتقديساً ونجوى،
وتهيّأنا للقياه عيوناً وشفاها.
وسلنقاه مصلّين كما نلقى إلٰها.
وسنهديه انفجار الأدمع العذبة سلوى
وسنحبوه أسىً أقوى وأقوى
وسنعطيه عيوناً وجباها...

لقد أولعت نازك بالرمز، لكن رموزها لا تكاد تخفي تمرّدها وكبت نفسها. وحتى إذا شاءت أن تذكر زمان الصفاء وعهد المحبّة والوئام فهي تصف تلك السعادة عن طريق الذكريات بعد أن تختلق الخصام الذي فرّق بين المحبين وأفرغ كأس الغرام وطوى المشاعر الجميلة التي اعتلجت في حنايا الصدر. مرّت بذهن الشاعرة لحظات الصفاء التي فاحت بالشذا واتّسمت بالعذوبة والسماح، فلم تكد تأسف لانقضائها، بل قالت:

وكنّا عشقنا انبثاق الحرارة في مقلتينا،
فدعنا نحبّ النضوب.
وكنّا هوينا التورّد والشعر في شفتينا،
فلم لا نحبّ الشحوب؟
ولم لا نخلّف ركناً من المقت بين يدينا؟
فدعنا نقم أسس الحبّ والودّ بين العيوب،
وأفسح مكاناً لبعض الحماقات بعض الذنوب.
ودعنا نكن بشراً طافحين نفيض جنونا
وننضح ضحكاً ودمعاً سخينا.

وها هي ذي الشاعرة قد مزجت اللحن بالبكاء والضحك بالدموع والسرور بالألم، لكن ألمها الصامت الدائم يبرز في كل حين من وراء السطور.

بدر شاكر السيّاب

من روّاد الشعر الحرّ في العراق، بدر شاكر السيّاب، ولد في قرية جيكور المجاورة لبلدة أبي الخصيب سنة ١٩٢٦. وهذه القرية ذكرها إبراهيم فصيح الحيدري في كتابه «عنوان المجد» وقال إن معنى اسمها: مكان الأعمى. وحرم حنان الأمومة طفلاً، وذاق مرارة العوز والحاجة، لكنه واصل دراسته الثانوية في البصرة والعالية في بغداد بالرغم من كل المثبّطات.

وأذكر له قصة* قرأتها قبل أعوام طويلة ولم تزل عالقة بذهني لأنّها من صميم الواقع الذي يهز ويثير: قصة قدوم الفتيات، تروي مجيء فتيات لقضاء عطلة الصيف في القرية المنعزلة النائية المحرومة نور الكهرباء ومتع الحضارة. لقد علم الشبّان بقدوم قريبات لهم، فظلوا يترقبون ذلك القدوم بقلوب مؤمّلة واجفة ويتطلعون إليه تطلّع المحروم الذي لم ير في حياته وجه فتاة مدنية...

وجاء السيّاب إلى بغدادسنة ١٩٤٣ فانتمى إلى دار المعلمين العالية وارتاد ندوات الأدب ونظم الشعر. وتخرج سنة ١٩٤٨ فعيّن مدرساً في الرمادي. ولم يلبث أن شارك في الحركات السياسية الوطنية ففصل وسجن. ولما أطلق سراحه، عضّه الفقر بنابه، فعمل محرراً ومخبراً ومترجماً في صحف بغداد وتشبّث بأشغال أخرى سدّاً لرمقه. وسافر إلى إيران والكويت والمملكة السعودية، ثم عاد إلى بغداد ليقبع في زوايا مديرية الأموال المستوردة موظفاً صغيراً. وكان بعد ذلك مترجماً في جريدة الشعب (١٩٥٧).

واندلع لهيب الثورة في تموز ١٩٥٨، فحيّا مطلع النور الجديد وأعيد إلى التدريس، لكنه لم يلبث أن اعتقل وسجن في سنة ١٩٥٩. وتنكّر بعد ذلك لآرائه السياسية القديمة وقلب لماضيه ظهر المجنّ، بيد أن شعره النابع من أعماق نفسه استمرّ يتدفّق ثراً، نابضاً بالحياة.

ووظف في مديرية ميناء البصرة ردحاً من الزمن، ثم ابتلي بالمرض وأصيب بشلل جانبي، فذهب للعلاج إلى لبنان وانكلترة. وعاد إلى البصرة، ثم أدخل المستشفى الأميريّ في الكويت حيث قضى نحبه في ٢٤ كانون الأول ١٩٦٤، بعد أن تداولته تيارات السياسة وهدّ جسمه المرض ووسمه بميسمه الشقاء.

شعره ومؤلفاته:

صدر لبدر شاكر السيّاب مجموعات وملاحم شعرية، منها: أزهار ذابلة (١٩٤٧) أساطير (١٩٥٠) حفّار القبور (١٩٥٢) المومس العمياء (١٩٥٤) الأسلحة والأطفال (١٩٥٤) المعبد الغريق (١٩٦٢) منزل الأقنان (١٩٦٣) صهيل الجواد الأبيض، أنشودة المطر (١٩٦٠) شناشيل ابنة الجلبي (١٩٦٥) إقبال (١٩٦٥) قيثارة الريح

* أربع بنات، نشرت في جريدة الشعب البغدادية في ٦ آب ١٩٥٥

(١٩٧٠) إلخ. وله، عدا ذلك، قصص ومقالات شتّى، و «مختارات مترجمة من الشعر العالمي الحديث» (١٩٥٥) نقلها عن اللغة الإنكليزية، وآثار شعرية مخطوطة: زئير العاصفة، قلب آسية، القيامة الصغرى، من شعر ناظم حكمت، إلخ. وترجم أيضاً: الجواد الأدهم (١٩٦١) مولد الحرية الجديد (١٩٦١).

إنّ السيّاب الشاعر ابن جيله التائه في بيداء الضياع. تفتّح ذهنه، أوّل ما تفتّح، على ويلات الحرب والتقتيل والتدمير، وصراع المبادىء في خضمّ من الدماء والدموع. أضيف إلى ذلك نشأته العسيرة المكافحة، ونفسه المرهفة التي ضاقت ذرعاً بالجهاد والحرمان، وتأثّره بمناهج الأدب العالمي الحديث عن طريق معرفته للّغة الإنكليزية وظمأه إلى المطالعة والاطلاع. برز كلّ ذلك في شعره، وبعض ذلك في مأساة حياته وموته.

هل نستطيع أن نقرن السيّاب بالشاعر الفرنسي أرتور رامْبُو (١٨٥٤ ـ ١٨٩١) Arthur Rimbaud؟ ـ إن البون بينهما جسيم: فرامبو من شعراء الرمزية الذين يستهينون بالكلمات والحروف ويغرقون في بحر من الصور، منها المفهوم ومنها العصي الغامض. إنّ شعر رامبو يقوم على الرمز والإيحاء ويحلّق في فضاء الهيولى والضباب، ويلج ذهن القارىء بطريق التعليل والتأويل.

لكن الشاعرين يجتمعان في الضياع والبحث عن مثل أعلى مجهول. فرامبو يعاني البؤس والفاقة حتى ليقول في بعض شعره: لقد مضيت، ويدي في جيبي الممزّق، وقد أصبح معطفي رقيقاً كالخيال، سائراً في ظلّ السماء، مخلصاً لربّة الشعر، حالماً برؤى الحبّ الجميلة. إنّ مأواي نجم الدبّ الأكبر، وإنني لأجلس على قارعة الطريق لأصغي إلى موسيقى النجوم، وقطرات الطلّ تبلّل جبيني...

يطلّق رامبو الشعر في العشرين من عمره ويسافر في مغامرات غريبة إلى الهند ومصر والحبشة، يحمل آلامه وأوصابه إلى الأقطار القاصية. ثم يعود إلى فرنسة كليلاً مريضاً، ويدخل إلى مستشفى مارسيلية ليموت في شيخوخة روحية وعمره لا يتجاوز السّابعة والثلاثين.

أما السيّاب فقد رأيناه لا يقرّ له قرار في حياة قصيرة، مفعمة بالشعر والأحلام والمرارة والآلام، والعمل والتدريس والسجن والتشريد، حتى ينطفىء سراجه غريباً كئيباً.

ذاق الحبّ فقال:

هل تسمّين الذي ألقى هياماً،
أم جنوناً بالأماني أم غراما؟
أم خفوق الأضلع الحرّى إذا حان التلاقي
بين عينينا، فأطرقت فراراً باشتياقي

عن سماء ليس تسقيني إذا ما
جئتها مستسقياً إلا أُواما

* * *

هل يكون الحبّ أنّي
بتّ عبداً للتّمنّي،
أم هو الحبّ اطّراح الأمنيات
والتقاء الثغر بالثغر ونسيان الحياة،
واختفاء العين في العين انتشاءا
كانثيال عاد يفنى في هدير
أو كظلّ في غدير؟ . . .
أمس، بالأمس التقينا في سفار
هاج ذكرى كاد ينساها وينساني زماني.
كان يوم آمنت فيه الأماني بالأماني.
كان يوم فكّ عن ساعاته غلّ المدار،
ثم أمسى تحت أقدام اللّيالي،
مثل جرح في الرمال
داسه الركب وسار. . . .

* * *

العيون الحور لو أصبحن ظلاً في شرابي،
جفّت الأقداح في أيدي صحابي
دون أن يحظين حتى بالحباب
هيّئي، يا كأس، حافاتك السّكرى مكانا
تتلاقى فيه يوماً شفتانا
في خفوق والتهاب،
وابتعاد شاع في آفاقه ظلّ اقتراب. . .

وطمح أن يحمل عبء البشرية، كما حمل أطلس بطل الأساطير الإغريقية السّماء على كتفيه، وأن يصنع القدر ويبعث الحياة، فقال:

بويب، يا بويب،
عشرون قد مضين كالدهور كلّ عام.
واليوم حين يطبق الظلام،
وأستقرّ في السّرير دون أن أنام،
وأرهف الضمير دوحة إلى السّحر
مرهفة الغصون والطيور والثمر،
أحسّ بالدماء والدموع كالمطر،
يفضحهنّ العالم الحزين.
أجراس موتى في عروقي ترعش الرنين،
فيدلهمّ في دمي حنين
إلى رصاصة يشقّ ثلجها الزؤام
أعماق صدري، كالجحيم يشعل العظام.
أودّ لو عدوت أعضد المكافحين،
أشدّ قبضتيّ ثم أصنع القدر.
أودّ لو أخوض في دمي إلى القرار
لأحمل العبء مع البشر،
وأبعث الحياة. إنّ موتي انتصار!

والسيّاب بعد ذلك ابن البصرة البارّ، ففي شعره نخلها الباسق، والماء تضربه مجاذيف الزوارق، وشط العرب الذي يرتمي في الخليج حيث اللؤلؤ والمحّار. وهو ابن قريته الصغيرة جيكور التي اشتهرت باسمه وجدولها بويب الذي زاده التصغير صغراً.

أليس يقول:

وأنت يا بويب،
أودّ لو غرقتُ فيك ألقط المحار،
أشيد منه دار،
يضيء منها خضرة المياه والشجر،
ما تنضح النجوم والقمر،
وأغتدي فيك مع الجَزْر إلى البَحر.
فالموت عالم غريب يفتن الصغار،
وبابه الخفيّ كان فيك، يا بويب...

ويقول:

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السَّحَر،

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.

عيناكِ حين تبسمان تورق الكروم،

وترقص الأضواء كالأقمار في نَهَر.

يرجّه المجذاف وهناً ساعة السّحر،

كأنّما تنبض في غَوْريهما النجوم.

***

وتغرقان في الضباب من أسىً شفيف

كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء،

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،

والموت والميلاد والظلام والضياء.

فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء،

ونشوة وحشية تعانق السّماء،

كنشوة الطفل إذا خاف من القمر...

***

السيّاب شاعر المطر: إن الوابل المنهمر قد أثار شعور الشعراء، فمنهم من وجد فيه البهجة والسرور كفكتور هوغو الذي قال:

«ما أرطب المساء وأطيبه. لقد هطل المطر في الصباح، فاخضرّت أبسطة العشب النديّة. وطار الطير في ظلال الأشجار ينفض أجنحته المبتلّة. فلتباركه السماء، هذا الطير المسكين! إنه يسمع صفير الريح، وينطلق في الغناء، ويرى قطرات الماء تلمع في عشّه كاللآلىء».

ويمضي الشاعر بعد ذلك إلى وصف السماء التي عادت إلى زرقتها، والأرض التي حظيت بالخصب، والجدول الذي امتلأ وفاض وارتمى من فوق الحصى كالشلال على النمل...

ومنهم من وجد في المطر الحزن والشجون، كالشاعر الفرنسي سوللي برودوم الذي أصغى إلى وقع القطر الراتب وبكاء أوراق الشجر وحزن الهواء الذي كدّر صفو الطيور. ولقد أصبح الأفق ستاراً شاحباً... وغدت الأرض وحلاً والسماء ضباباً. وضجر الإنسان، فيا لحزن المطر!

أما الشاعر الأميركي هنري وادزورث لونغفيلّو فقد استطاع أن يرى في المطر جانبيه البهيج والكئيب: فهو في قصيدته «المطر في الصيف» يقول:

«ما أجمل المطر!

بعد الغبار والحرّ اللافح، في الشارع العظيم الواسع وفي الزقاق الضيّق، ما أجمل المطر!».

ويمضي في تعداد مزاياه، يصف وقعه على السقوف كحوافر الجياد وتدفقه في أفواه الميازيب... والرجل المريض في غرفته يرى من النافذة الجداول الطافحة فيشعر بالبرد والهدوء والسلام. وفي الريف الظامىء يرحّب العشب الجافّ والحبّ المجدب ببركات المطر، وترفع الثيران التعبة الصابرة رؤوسها الرازحة تحت النير لتشكر الله على نعمته...

لكنّ هذا الشاعر نفسه في قصيدته «اليوم الماطر» يقول:

«إنّ النهار بارد ومظلم كئيب. فالمطر يتساقط، والريح تهبّ ولا تملّ. والكرمة تلصق بالجدار المتعفّن، لكنّ أوراقها الميّتة تسقط في كل هبّة. فيا للنهار المظلم الكئيب!...».

والمطر لدى بدر شاكر السيّاب كئيب ينذر بالوحدة والضياع ويرسم الأشباح في مقلة العاشق. فلنستمع إليه يقول:

أتعلمين أيَّ حزن يبعث المطر،
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر،
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء ـ كالدم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطر!
ومقلتاكِ بي تطيفان مع المطر،
وعَبْرَ أمواج الخليج تمسح البروق
سواحل العراق بالنجوم والمحار،
كأنّها تهمّ بالشروق،
فيسحب الليل عليها من دمٍ دِثار.
أصيح بالخليج: «يا خليجً،
يا واهب اللؤلؤ والمحار والرّدى!»
فيرجع الصّدى
كأنه النشيج:
«يا خليج،
يا واهب المحار والردّى».

وكـذلك يتلمّس السيّـاب طـريقـه بين النهر والضبـاب والضيـاء والظـلام والموت والضيـاع، فيلتقي، من دون أن يعلم، بأرتـور رامبو الـذي يقـول في مقطـوعته «نـائم الوادي»، نظمها احتجـاجاً على الحرب الفرنسية الألمانية سنـة ١٨٧٠، وعمره آنذاك لا يربو على السادسة عشرة:

«ذلك ثقب من الخضرة يغنّي فيه النهر، ويعلّق في جنون بالأعشاب أسمال اللُّجَيْن، وتلتمع الشمس الفخورة بالجبل. إنه وادٍ صغير مزبد بالأشعّة.

«وثمّـة ينـام جنـدي صغير، مفتوح الفم، حـاسر الـرأس، غـارق العنق في نبـات الجرجير الأزرق الطـريّ. وهو منبسط على العشب، تحت السحـاب، ممتقع الوجـه في فراشه الأخضر حيث تمطر الأضواء».

«وينام، وأقدامه في السّـوسن، باسماً كما يبتسم الصبيّ المريض، مخلداً إلى الوسن. أيتها الطبيعة، ألا هدهديه بدفئك، فقد خدّره البرد».

«إنّ العطر لا يحرّك خيشومـه، فهو ينام في الشمس، ويـده على بطنه، هادئاً، وفي جانبه الأيمن ثقبان أحمران».

ولـو تسنّى لنا وصف ممـات بدر شـاكر السيّـاب في مستشفى الكويت، هل كـان يسعنا وصفه مجازاً بأحسن من هذه المقطوعة؟

نقد شعر السيّاب وكتب عنه عـدة أدباء. فارتأى حسين داود خضر أن السيّاب بدأ حياته الأدبية شاعراً وجدانياً، وكان معجباً بعلي محمود طه. وقرأ الأدب الإنكليزي، ولا سيّما شيلّي وجـون كيتس، فتأثـر بـه وغلب عليـه التشـاؤم والألم والمرارة، وكـان الحبّ موضوعه المفضّل. وأطلق شعره من قيود الأوزان التقليدية، وكان من روّاد الشعر الحرّ. ثم طوّف في أرجاء وطنه، فاتّصل بأبناء الشعب وتأمّل الطبيعـة في مشاهدها. ترك آنئذٍ الحب، وأخذ ينشـد مستقبلاً أفضل لـوطنه وأمّته. وفي هـذا العهد من حيـاته اكتشف ستيفن سبندر Stephen Spender وروبرت بـروك Rupert Brooke ووليم هنـري ديفز William Henry Davies و ت. س. إليوت T. S. Eliot. وحاول أن يطلق أفكاره من عقالها وأن ينهج ضربـاً من «الواقعيـة الحديثة» على مثال الشـاعر الإنكليـزي سبندر. ومال إلى الرموز والأساطير فتغنّى بعشتار وتموز ويأجـوج ومأجوج وقمر الزمان وأوذيس وهيلينا... وفي السنـوات الأخيرة من حياته انطـوى السيّاب على نفسـه. طغت عليه الأمـراض، وملكت فكرة الموت شعـوره، فتوقّع الموت في كلّ لحظـة. لم يبق له صـديق سـوى شعره، فعبّر عـن ذاته في المعبـد الغـريق ومنـزل الأقنان وشنـاشيل ابنـة الجلبي وإقبال. رفع الستار عن مسرح قفر كالصحراء، يعمره الحزن والخوف من النهاية الهائلة المريعة.

وقال حميد سعيـد: «لقد كان السيّاب رائداً وكان نقطة تحوّل، لا بـالنسبة للشعر في

العراق، بل بالنسبة للشعر العربي. . . وفي اعتقادي أنّ السياب هو الثورة الأولى على الشكل الكلاسيكي رغم كل ما يقال. . . ورغم عدم إنكاري لوجود محاولات عاصرت وسبقت محاولاته التجديدية، إلا أنه يبقى نقطة التحوّل التي ذكرتها والإشارة التي تلفت الأنظار إلى الشعر الجديد. . .»

وقال عبد الجبار داود البصري: «. . . ومن هنا يصحّ القول إنّ تأثره كان إيجاباً وسلباً، تجاذباً وتنافراً. فقد جذب القوم إلحاحه على إيجاد نغمات جديدة وتعابير طازجة وأساطير غريبة وأفكار معاصرة، مع مظهر قصائدي يوحي بالفخامة ويتشبّه بالقصور. . . وبعد وفاته، كان صوته سوطاً يلهب ظهور هذا الجيل ويهدّد أصالتهم بالإذابة. . . فهو رائد للشعر الحرّ باعتبار ما كان، وهو دافع من دوافع الموجة الجديدة باعتبار ما هو كائن. . .».

وقال علي الحلّي: «كان السيّاب من أوائل الذين تأثروا بالشعر الأجنبي من خلال قراءاته الكثيرة له، ومن ثمّ ولعه بالأساطير الإغريقية وأشعار ت. س. اليوت واديث ستويل وستيفن سبندر وعزرا باوند وولت ويتمان، فانطبعت أعمالهم وخصائصهم وأجواؤهم الحدسية والنفسية في كثير من شعره. . . كان السياب يرى بأنّ حركة الشعر الحرّ تطوّر في مفهوم الشكل الفنّي للشعر العمودي وليست عملية إلغاء وجحود وإنكار للتراث الشعري، كما يراه أدباء الضياع اليوم. لذلك فإنّ الأثر الذي تركه بدر شاكر السيّاب في شعر هؤلاء كان حاداً وبليغاً دفعهم إلى الانسحاب السريع في متاهات التعمية الداكن وكهوف الشلل الذهني وأقبية الانغلاق الذاتي.

«لقد كان المضمون الشعري لدى السياب في قصيدته الحرّة، قبيل استسلامه للمرض، عميق الإيمان بالشعب، كافراً بالصّنمية الفردية، واضح الملامح الفنية، متّسماً بأصالة الشخصية والثقة والإبداع المجنّح والحبّ للإنسان، في حين يدور الكثير من الشباب الأدباء بعده في دوّامات عاتية من القلق والضياع والتحنّط واليأس والهروبية وكره الحياة واحتقار التفاؤل وزرع الشكوك في أعماق الوجدان الإنساني. . .».

وقال سامي مهدي: «لقد كان السياب شاعراً أصيلاً، وكان له لهذا السبب أثره البيّن على الشعر العراقي المعاصر. وهذا الأثر هو في كل الأحوال أشدّ من أثر زملائه. فالسياب أثّر في بناء القصيدة وعروضها وموسيقاها وأجوائها ولغتها وحتى مفرداتها ورموزها. ويمكن القول بثقة واطمئنان إنّ هذا الأثر قد امتدّ إلى الشعر العربي المعاصر بمجموعه. . .».

وقال خالد علي مصطفى: «إنّ شعر السياب يتدرّج في إيحاءاته ابتداءً من البيئة ومروراً بالوطن الصغير (العراق) إلى الوطن الكبير (الأرض العربية) وانتهاءً بالعالم. وهذا التدرج هو تاريخ السياب النفسي والاجتماعي أيضاً. ومن هنا استطاعت «ذات السياب» الشعرية أن تستقبل روافد العالم الموضوعي بانسجام وتفتّح وحيوية».

وقال علي جعفر العلاّق: «وللسيّاب، قبل غيره، الريادة الحقيقية في استثمار الدلالات الميثولوجية اليونانية ومخزونات التراث العربي الموحية التي شحنت شعره بعوالم كثيفة وضاجّة بالقيم التعبيرية والعاطفية المذهلة».

وقال الناقد اللبناني الدكتور أنطون غطّاس كرم:

«إن السياب لم ينظم الشعر إلا بمقدار ما هو امتداد لمأساته الداخلية والتمزّق المعتمل فيه، فذوّب في مأساته كلّ فاجع أتاه، وحوّل إلى تجربته الوجدانية كل تجربة، وفي حمّى نفسه صهرت حمّى سيزيف وشعلة بروميثيوس وحرارة البعث من تموز والمسيح وتباريح جميلة بوحيرد وعدمية المحو من هيروشيما وأنين القوافل الضائعة من أرض المقدس.

يتضح لنا مصداقه في جيكور، مسقط رأسه، كيف نمت بنموّ ثقافته، من عهده الغنائي الحالم البريء إلى عهده الفكريّ المعقّد، من زمان الطفولة الريفية العذراء، تستفيق فيه حنان أمومة، وغابات نخيل، وصفاء ماء نمير، وانحناء فوق حبّ قديم من عهد الصّبا الأول، وحكايات من حلاوات الخوارق، إلى أن تصبح جيكور الكوى التي يطلّ منها على قضايا أمته، وعلى العالم الذي حاد عن محوره، بل تصبح هي العالم ومختصر مأساته وتطاحن متناقضاته: منها يرى الطهر فتتضخّم صورة البغاء، ويرى السكينة والسلام فيعظم ضجيج العالم، والحرمان الخصيب فيرى التخمة الجوفاء وانحراف العدالة والفوارق الطبقية والمثال وضده، ودفء الدار والقرية المعذبة، والموت والبعث، والضعف المستكين والاستبداد السّاحق...»

بدر شاكر السيّاب

عرفت الشاعر بدر شاكر السياب في سنة ١٩٥٧ أو نحوها. فقد كان معتقلاً، وتوسّط جماعة له عند عبد الرزاق الشيخلي ليسعى في إطلاق سراحه. وكان رئيس الوزراء نوري السعيد قد عاد لتوّه من رحلة إلى الخارج، فذهب الشيخلي لمقابلته.

قال نوري السعيد: ماذا أتى بك، يا عبد الرزاق، وأنت المعارض المزمن الذي لا ترضيك سياستنا؟.

ــ جئت أرجوك أن تأمر بإخلاء سبيل شاعر مسكين معتقل اسمه بدر شاكر السياب.

فقدم السعيد إلى الشيخلي ربطة عنق حريراً فاخرة قائلاً: هذه هديّة لك. ثم كلم دائرة الأمن تلفونياً سائلاً عن سبب اعتقال السياب، فقيل له إنه شيوعي خطر، وقد قبض عليه بهذه التهمة.

فقال الرئيس: إذا تبرّأ صاحبك من الشيوعية بتصريح يكتبه بتوقيعه فإننا نطلق سراحه.

وقـدم السياب تصريح البراءة وأخـرج من المعتقل. فجـاء إلى عبد الـرزاق الشيخلي وقـال لـه: لماذا سعيت في الإفـراج عني، وكنت في الأقل آكـل وأعيش على حسـاب الحكومة في السجن، وأنا الآن لا مورد لي ولا عمل؟ فأخذه الشيخلي ومضى به إلى ناظم الزهاوي مدير الأموال المستوردة العام وأوصاه بإيجاد وظيفة له، ففعل.

روى لي الصديق الشيخلي هذه القصة وسألني هل أعرف هذا الشاعر، فقلت: إنني أقرأ له وأودّ أن أراه. فسأله أن يزورني، وجاءني بعـد أيام إلى مكتبي، فتحدّثنا في الشعر والأدب. وكرّر زيارتي مرّات، ثم جاءت ثورة ١٤ تموز، فكان آخر العهد به.

نظم السياب، وهو في المستشفى الأميري في الكويت قبيل وفـاته، قصيدة في مدح أمير الكويت عبـد الله السالم الصباح وتطرق فيهـا إلى هجاء عبد الكريم قـاسم. وجد القصيدة الشـاعر علي السبتـي ونشرها في مجلـة الحوادث اللبنانيـة في ١٢ أيار ١٩٧٨. ومطلعها:

لمـــن زيّنـــوا بيت القـــوافي بمخمـــل؟ لـــذي لبـــد في دوحـــة المجـــد معتلي

وختمها قائلاً:

أريـــد التفـــاتـــاً منك نحـــوي هنيهـــة ففي لفتـــة من وجهـــك السمـح مأملي

وصدرت في بـاريس سنة ١٩٨١ مختارات شعـرية للسياب بعنـوان «الخليج والنهر» مترجمة بقلم أندريه ميكيل إلى الفرنسية.

عبد الوهاب البياتي

الشاعر التقدّمي عبد الوهاب بن أحمد جمعة البياتي، من زعماء مدرسة الشعر الحرّ في العـالم العـربي، ولد ببغـداد سنـة ١٩٢٦ وتخرج في دار المعلمين العـالية (شعبـة اللغـة والآداب العربيـة) سنة ١٩٥٠. عمل في التـدريس والصحافـة، ثم أقصي من الخدمة لميوله الشيوعية (١٩٥٤)، فغادر العراق وأقام في مصر والاتحاد السوفييتي.

وقد عاد إلى بغداد بعد ثورة ١٩٥٨، فعيّن ملحقاً ثقافياً في سفارة موسكو. ولم يلبث أن استقـال من وظيفته ليقـوم بالتـدريس في جـامعة الشعـوب الآسيويـة في العـاصمـة الروسية إلى سنة ١٩٦٥ حين مضى إلى القاهرة ثم عاد إلى العراق فعيّن مستشاراً في وزارة الإعلام. وفي سنـة ١٩٨٠ منحته الحكـومة العراقيـة تفرّغـاً مدى الحيـاة للانصراف إلى النظم، فاختار الإقامة في مدريد وعين مديراً للمركز الثقافي العراقي فيها.

من مؤلفاتـه: ملائكة وشياطين (١٩٥٠) أباريق مهشّمة (١٩٥٤) رسـالة إلى ناظم حكمت (١٩٥٦) بول إيلوار مغنّي الحبّ والحرية (١٩٥٧) أشعار في المنفى (١٩٥٧) المجد لـلأطفال والزيتون (١٩٥٦) عشرون قصيـدة من برلين (١٩٥٩) كلمات لا تموت

(١٩٦٠) النار والكلمات (١٩٦٤) سفر الفقر والثورة (١٩٦٥) الذي يأتي ولا يأتي (١٩٦٦) قصائد (١٩٦٥) تجربتي الشعرية (١٩٦٨) الموت في الحياة (١٩٦٨) عيون الكلاب الميّتة (١٩٦٩) الكتابة على الطين (١٩٧٠) إلخ. وله مسرحية «محاكمة في نيسابور» (١٩٦٣).

قال في مقابلة صحفية: «. . . أنا لا أعتبر الشعر هو الوسيلة الوحيدة للتعبير. وحتى الشعر نفسه لا أكتبه لكي أكون شاعراً فقط، بل إنني أستخدم القصيدة وسواها أسلحة من أجل عملية التقدم والتغيير الاجتماعي ومن أجل خلق قيم إبداعية حضارية جديدة. كما أنني أستخدم القصيدة أيضاً سلاحاً للدفاع عن الإنسان ضدَّ الشرّ والجريمة. وإنني لا أريد أن أجعل من القصيدة شعراً فقط لا غاية له بالرغم من أن القصيدة عالم قائم بذاته ولذاته. ولكن هذا العالم، من خلال ديمومته وحركته، يؤدي إلى التغيير النوعي في رؤية الإنسان. ومن هنا، أي من عملية منح الإنسان رؤية جديدة، يمكن منحه أسلحة جديدة لمقاومة الواقع الفاسد. وأريد أن أوضح الأمر أكثر، فأقول إنني ألتزم بطقوس الشعر التزاماً كاملاً. ولكنني وأنا ألتزم بها التزاماً كاملاً لا أريد جعلها غاية فقط كطقوس شعرية أو فنية، بل أريد أن أجعل منها طقوساً ثورية حضارية. وهذا الطموح يمثل أوج ما يطمح إليه أي فنّان حقيقي في كافة العصور. . .» (المجلّة، جدّة، ٢٧ آذار ١٩٨٢).

وقد أسف البياتي لمظاهر التجزئة الإقليمية والسياسية والاقتصادية التي أخذت تعكس آثارها على الأدب العربي، بالرغم من أن الثقافة العربية حاولت جاهدة، كما قال، أن تحافظ على وحدتها طوال العصور. ونسب ظهور عوامل التجزئة إلى عوامل الغزو الثقافي الداخلي والخارجي. ولاحظ اختفاء الاتجاهات والمدارس المرتبطة بواقع الثقافة العربية قديمها وحديثها وبالواقع العربي وحركة الجماهير العربية.

بُلَند الحيدري

شاعر الشباب العراقي المجدّد بُلَنْد أكرم الحيدري، ينتمي إلى الأسرة الحيدرية الشهيرة. ولد في بغداد في ١٤ أيلول ١٩٢٦، وذاق مرارة اليتم صغيراً، فنشأ بوهيمياً لا يستقرّ على حال، يتنقّل من درس إلى درس ومن عمل إلى عمل. تعرّف إلى الفنان جواد سليم فالتمس أن يقوم معه بتجربة فنية تمزج الشعر بالرسم. وحاول إصدار مجلة أدبية عصرية. ثم كان مساعداً لمحمود فهمي درويش في تحرير مجلة «الزراعة» العراقية. وانتهى به المطاف في بيروت التي اتخذ منها سكناً وملجأً روحياً. وأصبح سنة ١٩٧٠ رئيساً للمؤسسة اللبنانية للطباعة والنشر وسكرتيراً لتحرير مجلة العلوم البيروتية فرئيساً

لتحريرها. واشترك في سنة ١٩٧٤ مع عـالية ممدوح في الإشراف على تحرير مجلة «الفكر المعاصر» البيروتية.

وعاد إلى بغـداد بعد ذلك وأصبح سكرتيراً لتحريـر مجلة «آفاق عربيـة». تأثّر بأدب المهجر وعمر أبي ريشة والياس أبي شبكة، ثم اشتقّ لنفسـه نهجاً خاصاً في الشعر طالما سار عليه ثم طلّقه وعاد إليه.

أصدر مجمـوعته الشعـرية الأولى «خفقـة الطين» (١٩٤٧) وعمره لا يكـاد يتجاوز العشرين. ثم تبعهـا بمجموعـات أخرى: أغـاني المدينة الميتـة (١٩٥١) أغاني المدينـة الميتة وقصائد أخرى (١٩٥٧) جئتم مع الفجـر (١٩٦٠) خطوات في الغربة (١٩٦٥) رحلـة الحروف الصفـر (١٩٦٨) قصـائد جـديـدة (١٩٦٨) أغـاني الحارس المتعب (١٩٧٠) حوار عبر الأبعاد الثلاثة (١٩٧٢).

شعره:

وضعت الحرب العالمية الثـانية أوزارها، وفرك الشباب عينه التي بهرهـا فجر السلام الطالع وأرخى أذنيـه يتمتع بهدوء لم يشهده من قبل، ذلك الشباب الذي شبّ وتـرعرع على هديـر المدافع والقذائف وأخبـار الفتك والتقتيل والتدمير وأهـوال الجوع والتشريد والحرمان. نشأ ذلك الشباب في دوّامة كابوس شديد جثم على صدر الإنسانية المعذبة. والآن، وقد انتهت المعـارك، هل يعود إلى الإيمان بـالقيم الأخلاقيـة ويعقد الـرجاء على صلاح البشرية؟ لقد حلّ محلّ الشك والجحود والتهافت حلّ محلها صراع نفسيّ يجذب ويدفع ويهدّيء ويثير ويـدهور ويـرفع ويهزّ ويسند ويخذل، ويـرسم الأحلام ويجسّم الأوهام آناً وآناً يحدو على اليأس والقنوط.

وبـرزت تلك السمات أبرز مـا تكون في شعـراء الشباب الـذين تقرّوا مـواضعهم بين المباني والمعاني، فخرجوا بشعر جديد سماتـه المشتركة الأصالة وسهولة الأداء. لقد صدر الشعر الجديد عن منابع صافية من النفس البشريـة أو الحياة الواقعية، واحتفل بالمعاني والأداء قبل الكلمات والتراكيب، وآثـر البحـور والأوزان الخفيفـة والأشكـال الشعـريـة السهلة والقوافي الـرنانة غير الراتبـة، وتنكّب المواضيع التقليدية من فخر ومـديح ورثاء ونسيب وهجاء.

كان شعر بلند الحيدري حين أصدر ديوانه «خفقة الطين» يجمع بين طيّاته كل تلك السمات ويعدّ شيئاً جـديداً في الأدب العراقي الحديث. فلم يمض عهد بعيـد كان فيه المثل الأعلى للشعر الديباجـة العباسية والمعاني المقتنصة دون مراعـاة لوحدة الموضوع ولا لمقتضيات حيـاة العصر. وفي تلك الآونـة سمعنا محمد هـاشم عطيـة، الأستاذ المصري المتزمّت، يقول في محاضرة له ببغداد: إن الشعر العـربي قد اختتم بالمتنبي، فدالت بعده دولته وخمدت صولته. وسمعت أحمد حـامد الصرّاف، الأديب الذكيّ الألمعي، يقول:

لقد انتهى الشعر بشوقي، ولعلّ الأخطل الصغير وأمين نخلة شاعران!

وإنه لتقدم واسع سريع أن تختزل الأبعاد وتطوى الأزمنة، فيصدر في عاصمة الرشيد ديوان شعر عاطل من الصناعة اللفظية والمحسّنات البديعية، خالٍ من المعاني المقلّدة الجوف والمواضيع البالية التي عفّى عليها الدهر. وليس ذلك فحسب، بل يجمع إلى ما تقدم إخلاصاً في الشعور والأداء وصراحة صارخة جريئة ونظرة إلى الحياة شاذّة غريبة.

وشاعرنا الحيدري على جلاء بيانه وقوة أدائه يستهين أحياناً باللغة ولا يوليها ما تستحقه من العناية كأداة للتعبير. وهو شاعر مطبوع ينظم عن سجيّة خالصة، فلا عجب أن جاء شعره بعيداً عن التعمل والتكلف، مفصحاً عن نفسه الفتيّة الجامحة. تفتحت عيناه على الحياة، والحرب العالمية ضاربة على المعمورة بالجران تغرق الأقطار الدانية والنائية في بحر من الدم والنار، وتصكّ الأسماع بأنباء التقتيل والتدمير، وتهيج النفوس بأحداث لم تألفها البشرية منذ مبدأ الحضارة في هذا العالم المضطرب الصخّاب. نشأ فتانا وأدرك الحياة فانطبعت عواطفه وأفكاره بطابع جيله القلق الفائر الحيران. أليس من ظواهر ذلك الاضطراب تلك الحمّى النفسية التي تنبعث من الأشطر والمقاطيع فتبرز على أشكال مختلفة من تمرّد وإغراب تارة وألم ومرارة طوراً؟ وذلك الشعور بالهرم والكلل والملالة وما يمتّ إليه من تعلّل بالذكريات وبرم بالحاضر وفقدان الثقة بالمستقبل، أليس غريباً من شاب في ميعة الصّبا لم يكد يجتاز عتبة الحياة؟

لقد ساءل الشاعر نفسه عن نفسه فقال:

مَن أنت، يا مَن ترهب الظلماء خطوته الرهيبة؟

يمشي كما شاءت عصاه كأنما حفظت دروبه

تتنفّس الأشباح في عينيه حالمة كئيبة

لا الليل أرعبها بما يملي ولا خشيت قطوبه

من أنت؟ . . . إني شاعر عمري أعاصير غريبة!

إنّ في شعر بلند الحيدري جانباً وجدانياً يبدو فيه تأثير إيليا أبي ماضي وأقرانه من شعراء المهجر، لكن هذا الجانب تشوبه مسحة من الكآبة وظمأ الروح وتطغى عليه نوازع الخيبة واليأس. لقد خرج الشاعر إلى الحياة حاملاً نفسه المرهفة وقلبه الجيّاش بالآمال، فما هي إلا لحظة حتى صدمته بحقيقتها المرّة وبدّلت ألحانه التي لم تكد ترتّلها شفتاه مراثي حزينة تنعي الشباب وتجحد الحبّ والهناء. التمس يومه الحاضر فقيل له: لا شيء هنا. وفتّش عن أحلامه المتلاشية فقيل له: لا شيء هنا. والتفت إلى غده يستشفّ مآتيه من خلال حجب الغيب، فقيل له: لا شيء هنا. حتى إذا ما أنس إلى فكرة الموت والفناء، قيل له: كل دنياك هنا!

بيد أن هذا الجانب من شعر بلند الحيدري ليتضاءل أمام الجانب الآخر، جانب

الثورة الصارخة والكفران بقيم الحياة. يمتّ هذا الجانب بصلة روحية إلى بودلير وأبي شبكة، وقد غلّته أكبال الجسد اللاصق بالرغام، فتطبّق على جحيم مائج بالأميال البهيمية، متأجج بالشهوة المستعرة، نشوان بالكؤوس التي لا تخلّف في الفم سوى المرارة، شقيّ بنقمة الأقدار و «لعنة التراب» و «دودة الطين جنّت في الدم المأسور».
فلنستمع إلى الشاعر يقول:

أنا من نار، وناري شهوة   أحرقت جسمي وماجت في ضميري

أو يقول:

ما النار، ما الجنّة إلاّ صدى   لنظرة ماجت بعين امرأة

ويقول:

نحن طين، وأيّ طين حقير،   فلِمَ الخوف من خوالج طينك؟

إنّ بلند الحيدري الشاعر الموهوب مثال لأبناء جيله المبلبل الأفكار، المضطرب الحواسّ، الهائم في أودية الشك والضلال. لقد شهد صراع الحضارة البشرية في يومها الدامي العصيب، فخرج من تجاربه بالتجرّد والجحود والثورة السّاخرة المريرة. فلو لم أكن أدري دراية الممارس الخبير أنّ الشاعر لا يُسْأَل عن إلهامه، لخاطبت صاحب «خفقة الطين» قائلاً: مهلاً، أيها الفتى الموهوب، ورفقاً. لقد منحت جناحي طائر للتحليق في سماء الشعر الرفيعة، فما لك، شأن ملاك ألفرد دي فنيي(*)، قد يمّمت شطر العوالم السفلى تحاول هداية إبليس وردّه إلى حضيرة النعيم المقيم؟ . . .

ولقد كتبت عن شاعر «أزهار الشرّ» فقلت: «إن بودلير قد بحث في شعره عن المثل الأدنى، لكن هذا المثل الأدنى قد بلغ من القوة والجلاء مبلغاً عظيماً حتى ليثير في النفس القشعريرة والاشمئزاز ويؤدي في آخر الأمر إلى التزهيد في ذاته والترغيب في نقيضه: المثل الأعلى». ولست أدري هل يسعني إطلاق هذا القول على شاعرنا الحيدري.

وسار بلند الحيدري في طريق النقمة والقلق والغضب والعقم والقنوط، فإذا هو شاعر «أغاني المدينة الميّتة» الذي يقول:

نفس الطريق
نفس البيوت، يشدّها جهد عميق
نفس السكوت.

(*) ألفرد دي فنيي في قصيدته «علواء» (Eloa) أو «أخت الملائكة» يروي قصة روح سماوية هبطت إلى الجحيم لتهدي الشيطان رأفة به وعطفاً عليه، فعلقت بحبائله وفقدت ملكوت السّماء.

كنّا نقول غداً يموت، وتستفيق
من كلّ دار
أصوات أطفال صغار
يتدحرجون مع النهار على الطريق
وسيسخرون بأمسنا، بنسائنا المتأفّفات
بعيوننا المتجمّدات بلا بريق.
لن يعرفوا ما الذكريات،
لن يفهموا الدرب العتيق
وسيضحكون لأنهم لا يسألون
لِمَ يضحكون...

وفي المدينة الميّتة رجل ميت يقول:

ساعي البريد،
ماذا تريد؟
أنا عن الدنيا بمنأى بعيد
أخطأتَ، لا شكّ، فما من جديد
تحمله الأرض لهذا الطريد...

ينظر الشاعر إلى أعماق نفسه فينكرها ويعجب لأمرها ويقول:

لا تهابي
هذه الريح التي تطرد من باب لبابِ
ذلك الأفق الذي ينمو برعب واضطراب
والدروب
إنها ملعب أحلام شبابي
هي بعضي،
إنها تلتفّ كالأفعى، ولكن... لا تهابي...

ولقد نظم إيليا أبو ماضي شعراً على لسان الزنجي المستعبد يفيض بالمرارة والحرمان، منه:

فـــوق الجمّيـــزة سنجـــاب والأرنـــب يمـــــــرح في الحقـلِ
وأنــــا صيّـــاد وثّـــاب لكـنّ الصيـــــــد على مثلي
محـظـــور إذ إنّـــي عَبْـــدُ...

أما شعر الحيدري في العبودية ففيه مرارة من نوع آخر، مرارة هادئة ممزوجة باليأس تنبعث من أعماق الإنسان الذي يحسب نفسه حراً وهو إنما عبد أسير:

أكاد أثور، لكنّي

أحسّ الغلّ في أذني

يولول هازئاً منّي :

ويصرخ ضاحكاً: عَبْدُ! . . .

أنا العائش في ظلّي

أنا الموت بلا شكل

تُرى مَن أنت، يا غلّي؟

فعاد الصوت يشتدُّ

كأنّ عواصفاً تعدو

بأذنيّ وتربدّ :

أنا أنت، أنا العبد!

قال بلند الحيدري في حديث له: «القصيدة الحديثة تعبّر عن إشكالاتي كإنسان معاصر أكثر مما تعبّر عنها القصيدة الكلاسيكية. أحسّ بها، القصيدة الحديثة، أكثر ارتباطاً بالعصر من حيث فهمي العصري كمحاولة في تطوير البنيان الشعري. أما القصيدة الكلاسيكية فبإمكانها أن تحمل جوانب من نفسي تتميّز بالبساطة شدة ارتباطي بالمناسبة متجنّباً إبراز أعماقي المتداخلة ضمن تحرّك هذا القرن. ويظلّ الجواب أخيراً ارتباط القصيدة بالموضوع ذاته. ولكني لا أرتبط بالمناسبة ارتباط شعرائنا القدماء على أساس من تزييف في مدح أو رثاء. أنا لا أكتب القصيدة الكلاسيكية إلا منطلقاً من نفسي، مرتبطاً كل الارتباط بالموضوع الذي يثير فيّ كوامن عاطفة صادقة. . . ».

ومهما يقل بلند الحيدري فإنه يظلّ في قصيدته العمودية الكلاسيكية، كما في شعره الحديث المنطلق في متاهة من المصاريع والتفاعيل، ذلك الشاعر الباحث في قرارة نفسه، المترصّد للكلمات والتعابير التي تفصح عن قلقه وحيرته وتخلق الأجواء التي يحلّق فيها تحليقاً. وحسبنا مثالاً قصيدته التي ألقاها في الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة عمر فاخوري، وعنوانها «النسر»، يقول منها:

علونا فالذرى مرمى جناحي ودربي فيك، يا هوج الرياح

وبي من همّة صمدت ليالٍ تأبّت أن تكون إلى صباح

فليس الفجـــر لـــــلأحــــرار إلاّ مــــرايـــا تستبين بها جـــراحـي

فيحصي ألـف فَـــدْم مـــا تبقّـى بجسمي مـن لجاجـــات الــرّمـــاح

وتشمـت بسمـــــة في عين وغـــــد مسحت بجلــده بـالأمس سـاحي . . .

ألا، يـــــا ليل، أطبـق إنّ مَسّــــاً مـن النيران يـــــرعـــــد في جماحـي

تـألّق فـــــاصطلى أفـق وطــــارت رؤى عــن عين حمقـــــاء وقـــــاح

لكـم حسبت بـأنْ جبنـــاً أدرنـــا وجـــوهـــاً عن وجـــوههم القبـــاح

وإني إذ عفـــــوت فعـن كـــلال فما جـــرؤت ولا مـــرؤت رمـــاحي

وإن جبـــال قـــومي ســـوف تهوي لتــــدفن مـــا تخاذل من ســـلاحي

أصدر بلند الحيدري سنة ١٩٩٠ مجموعة شعرية «أبواب إلى البيت الضيّق».

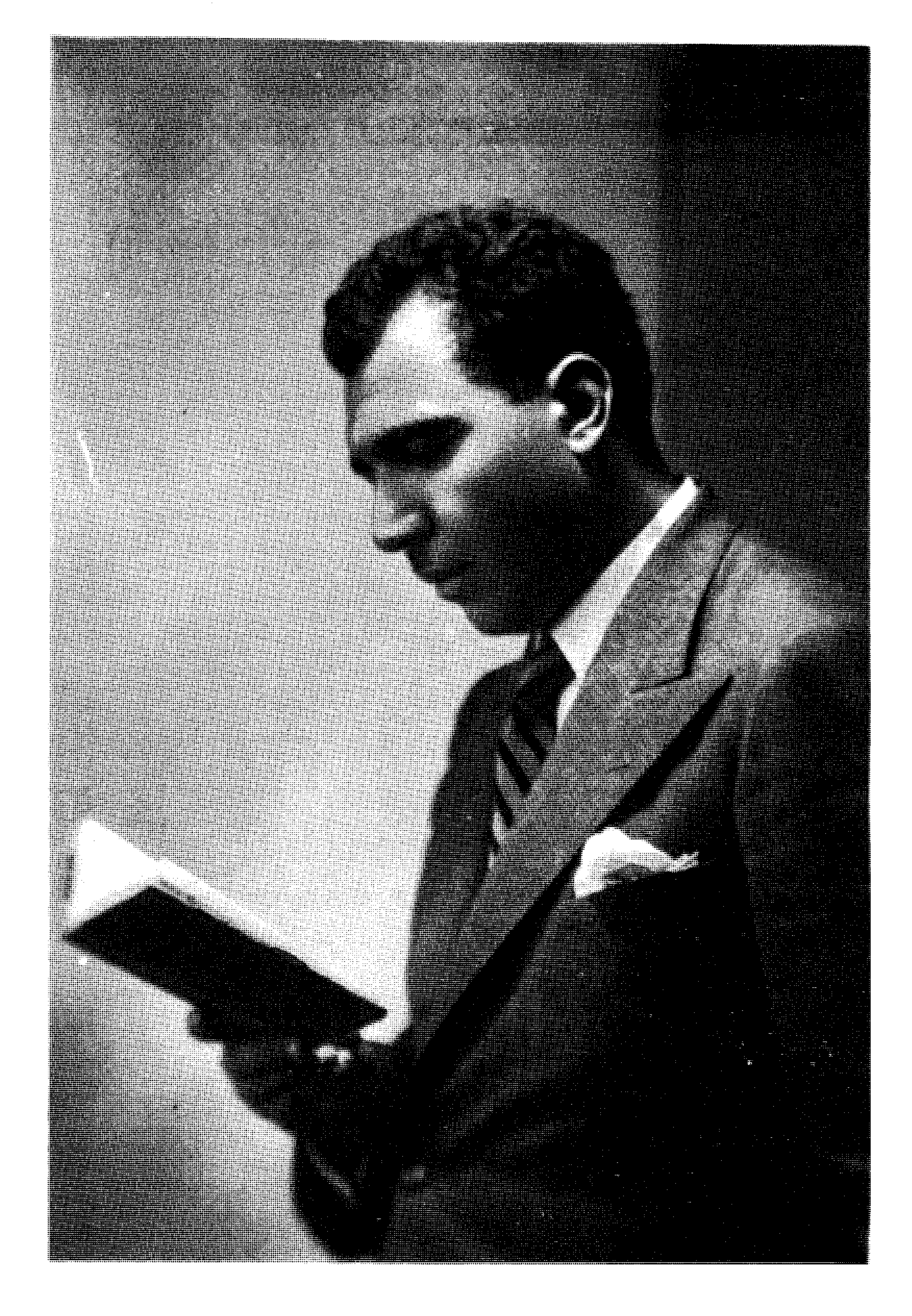


ملحق الصور

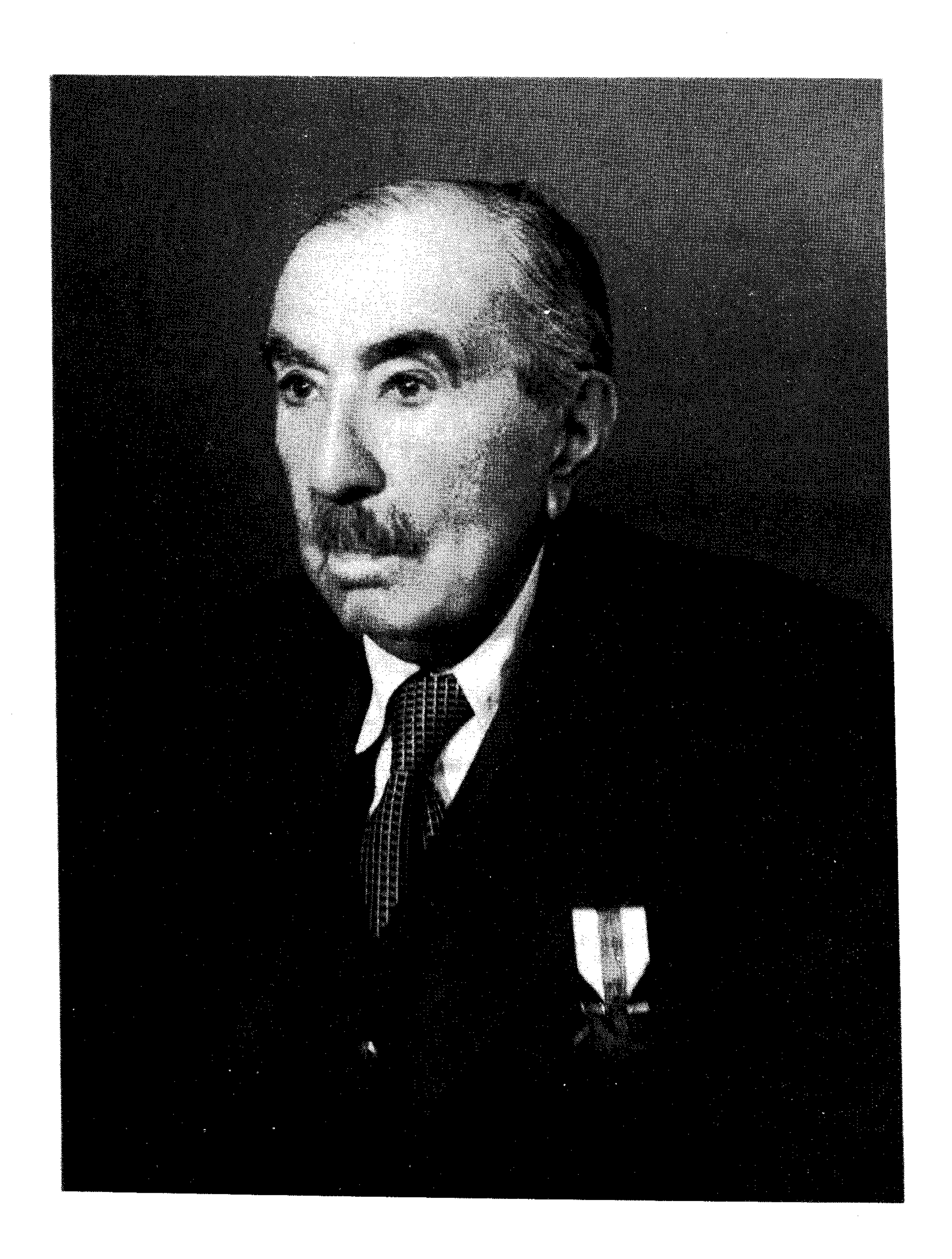




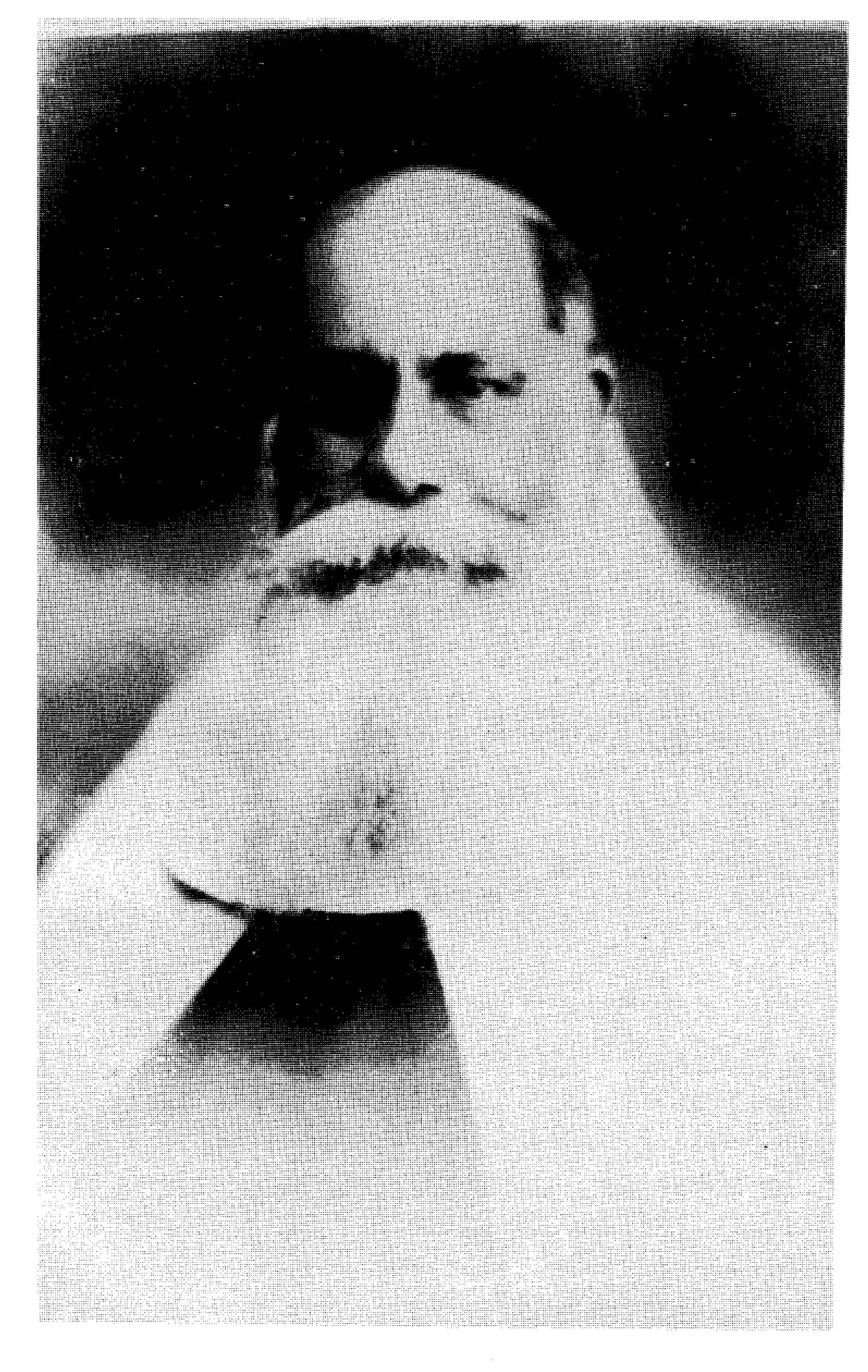
المحامي الشاعر أنور شاؤل



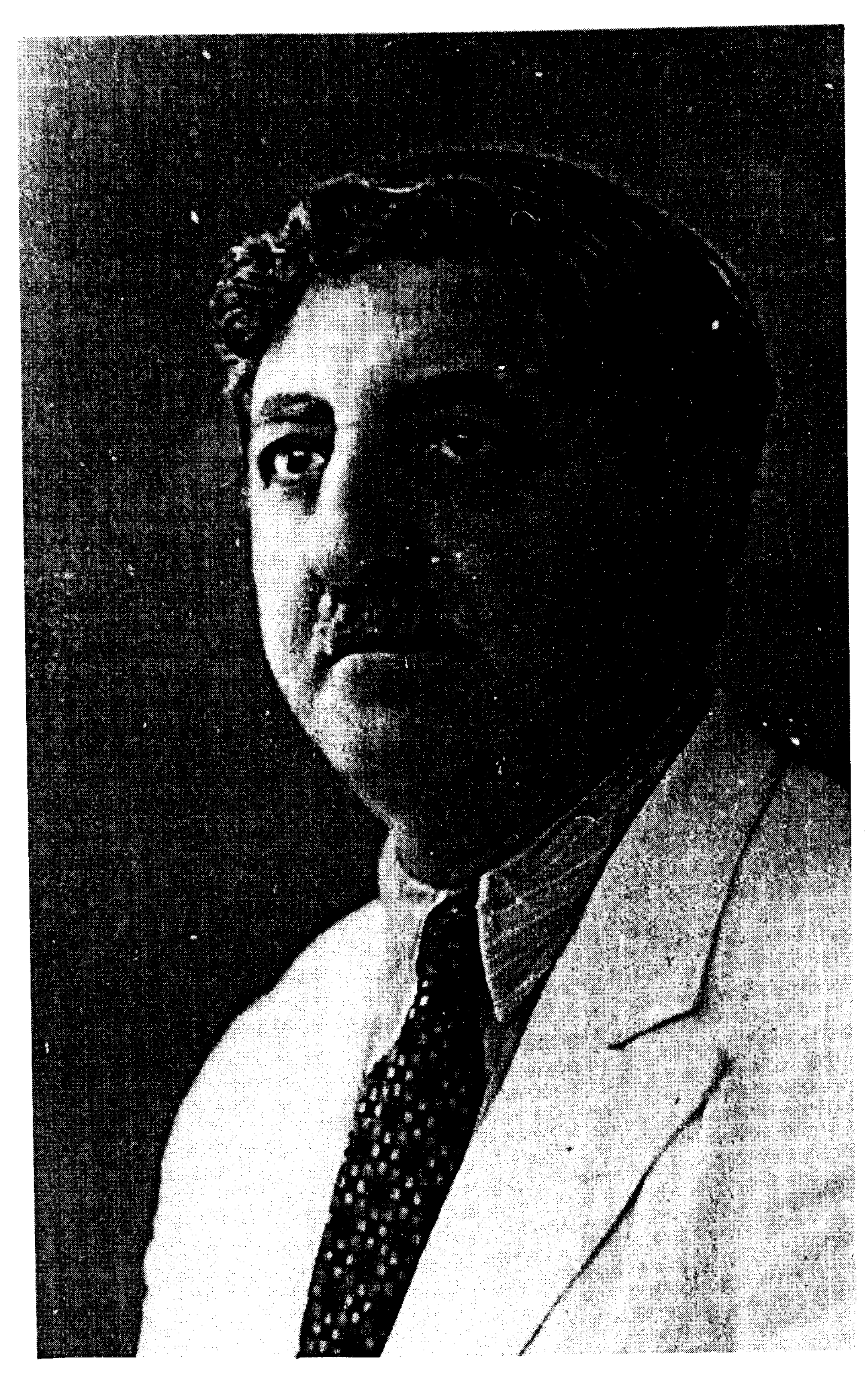
أحمد حامد الصراف



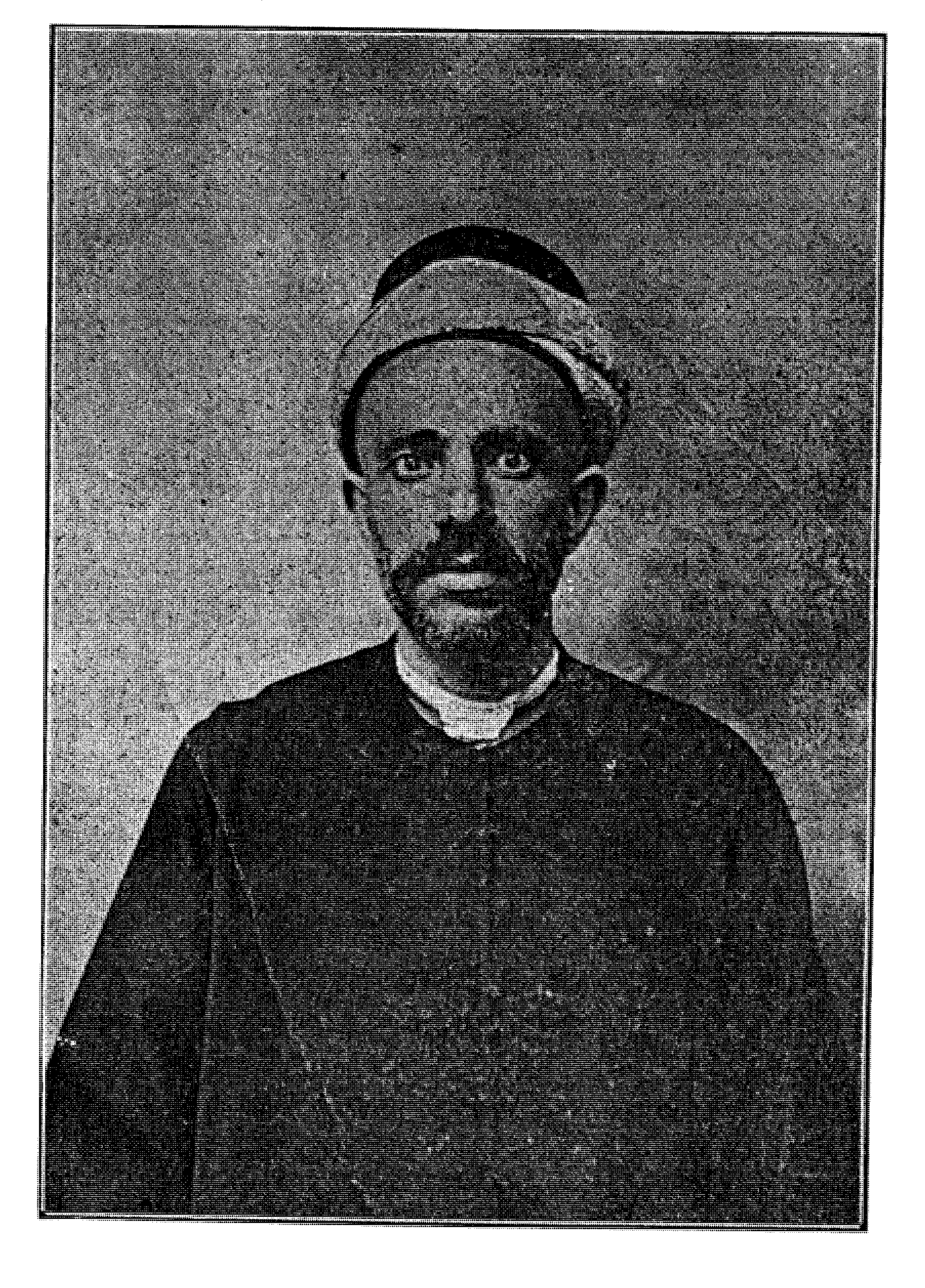
يعقـوب سركيـس



الأب انستاس ماري الكرملي



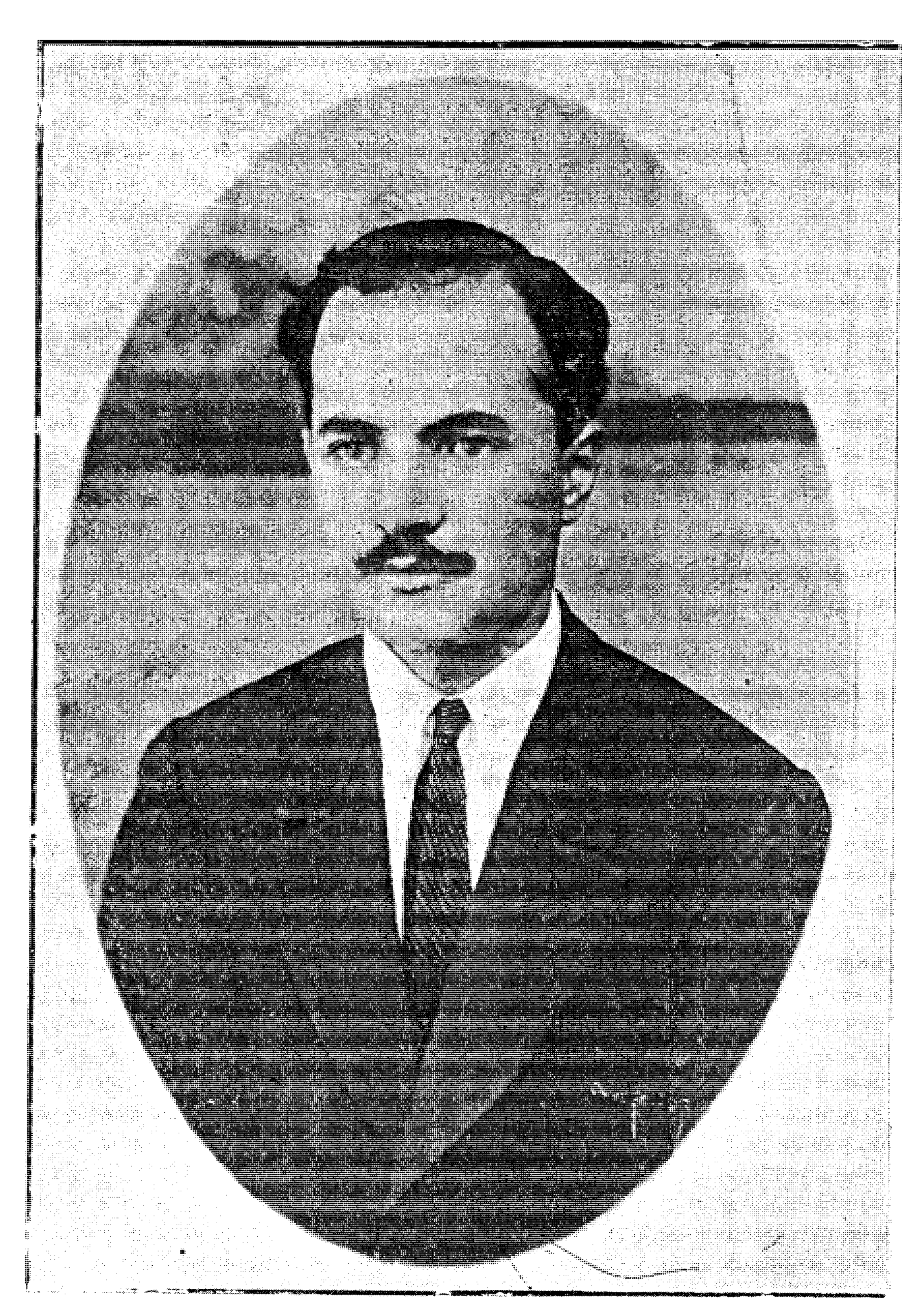
عبد المسيح وزير



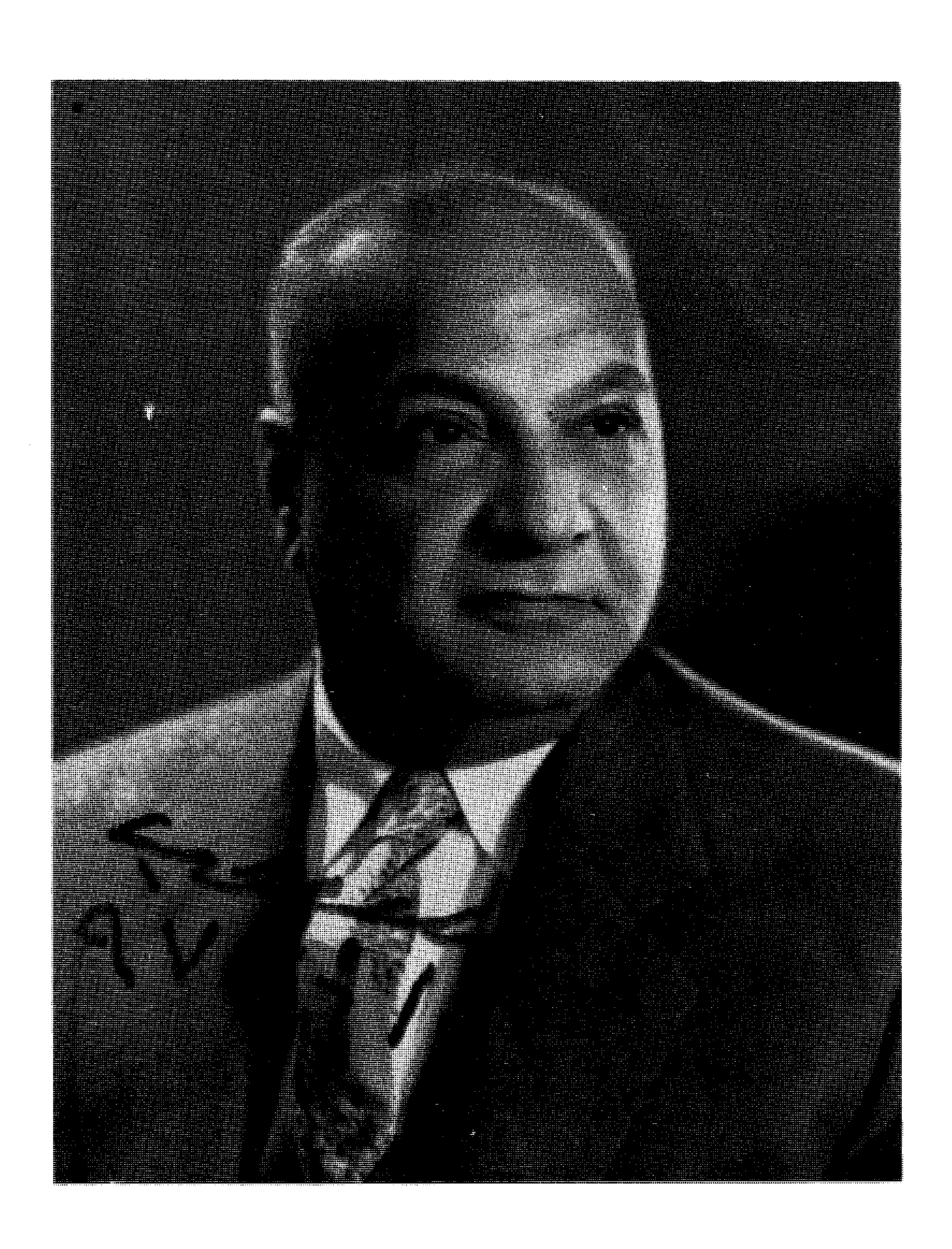
عبد الحسين الازري



المؤلف وأنور شاؤل مع الشاعر الكبير محمود الملاح (١٩٦٤) .



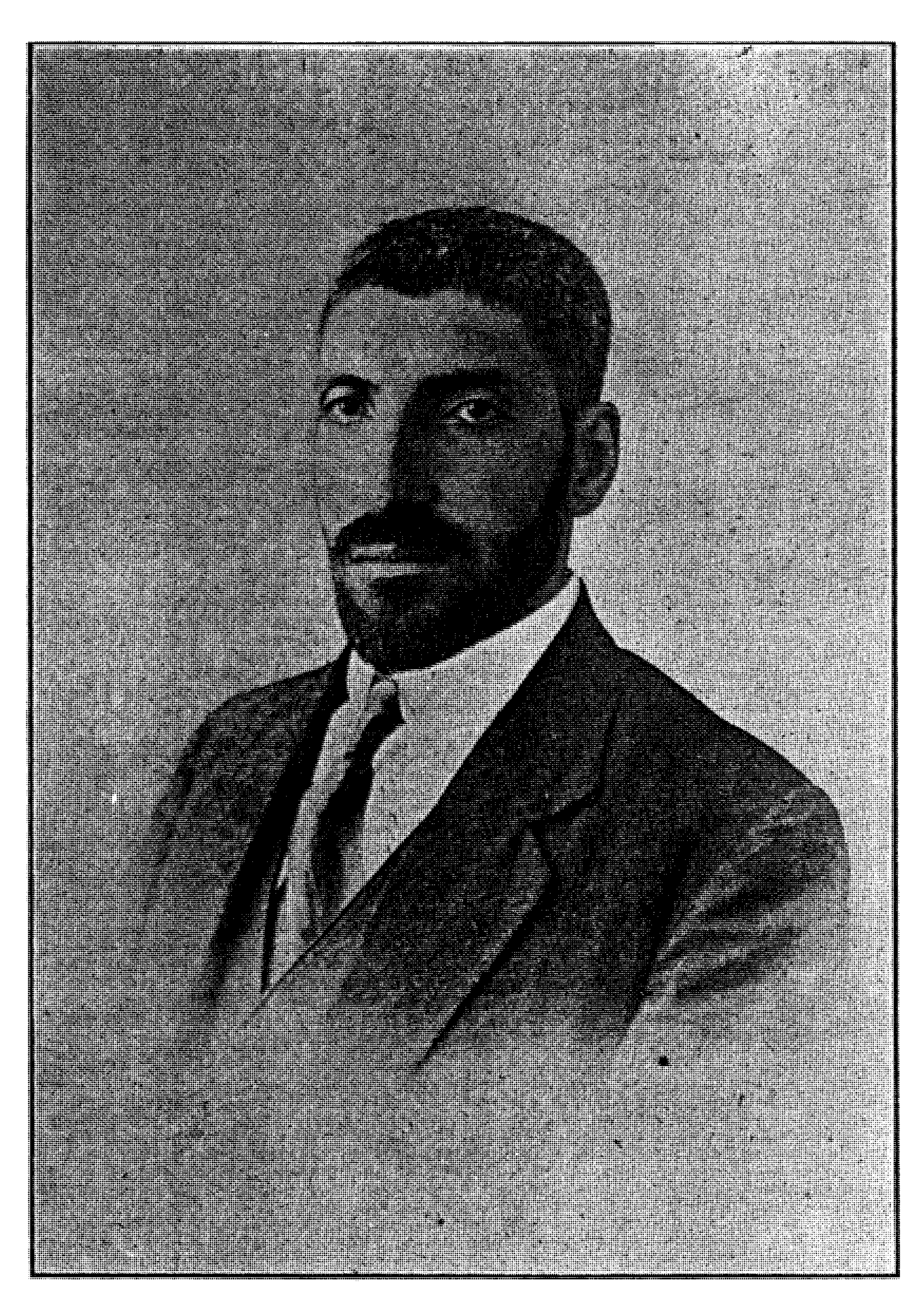
محمد الهــاشمي



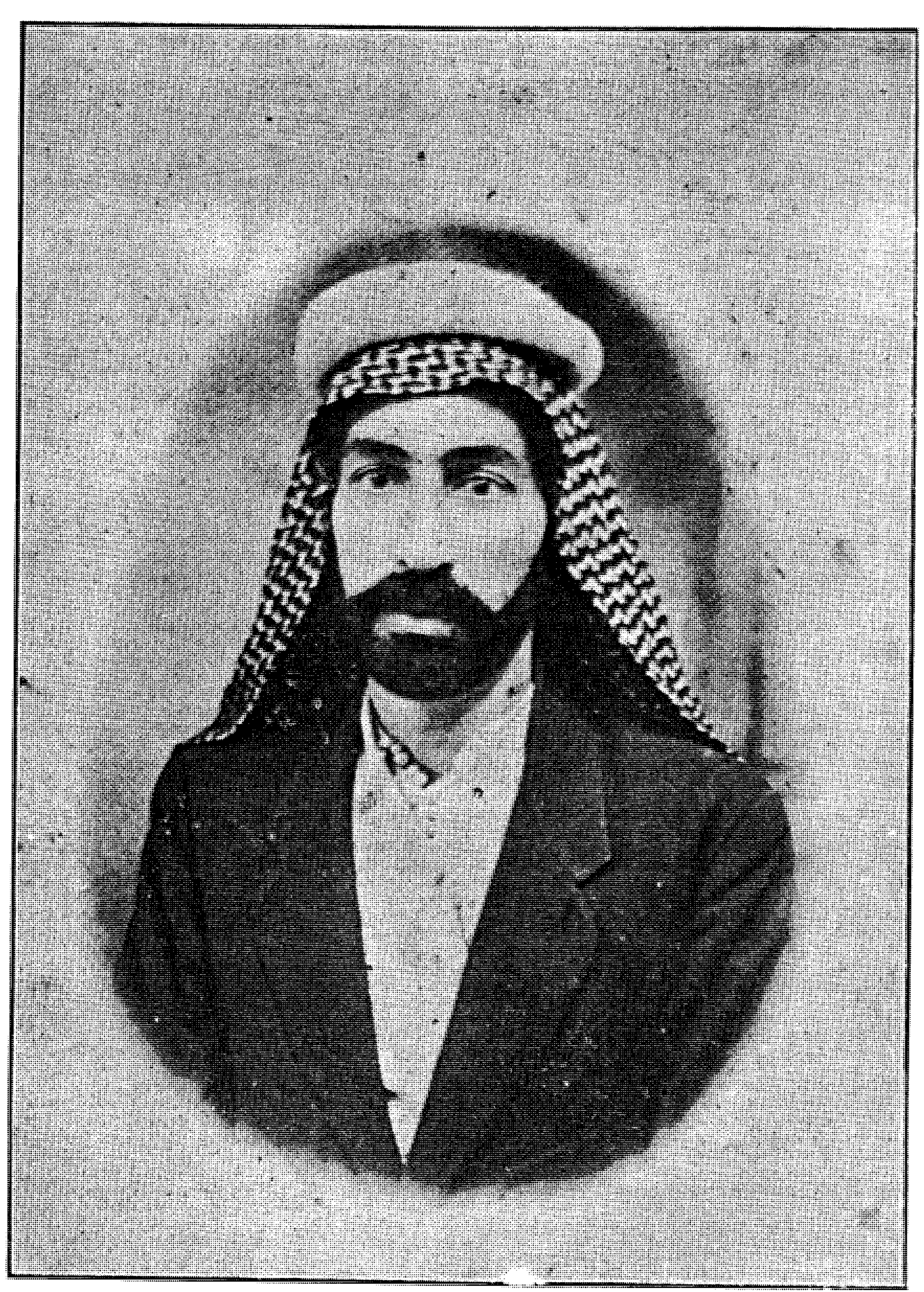
مصطفى علي



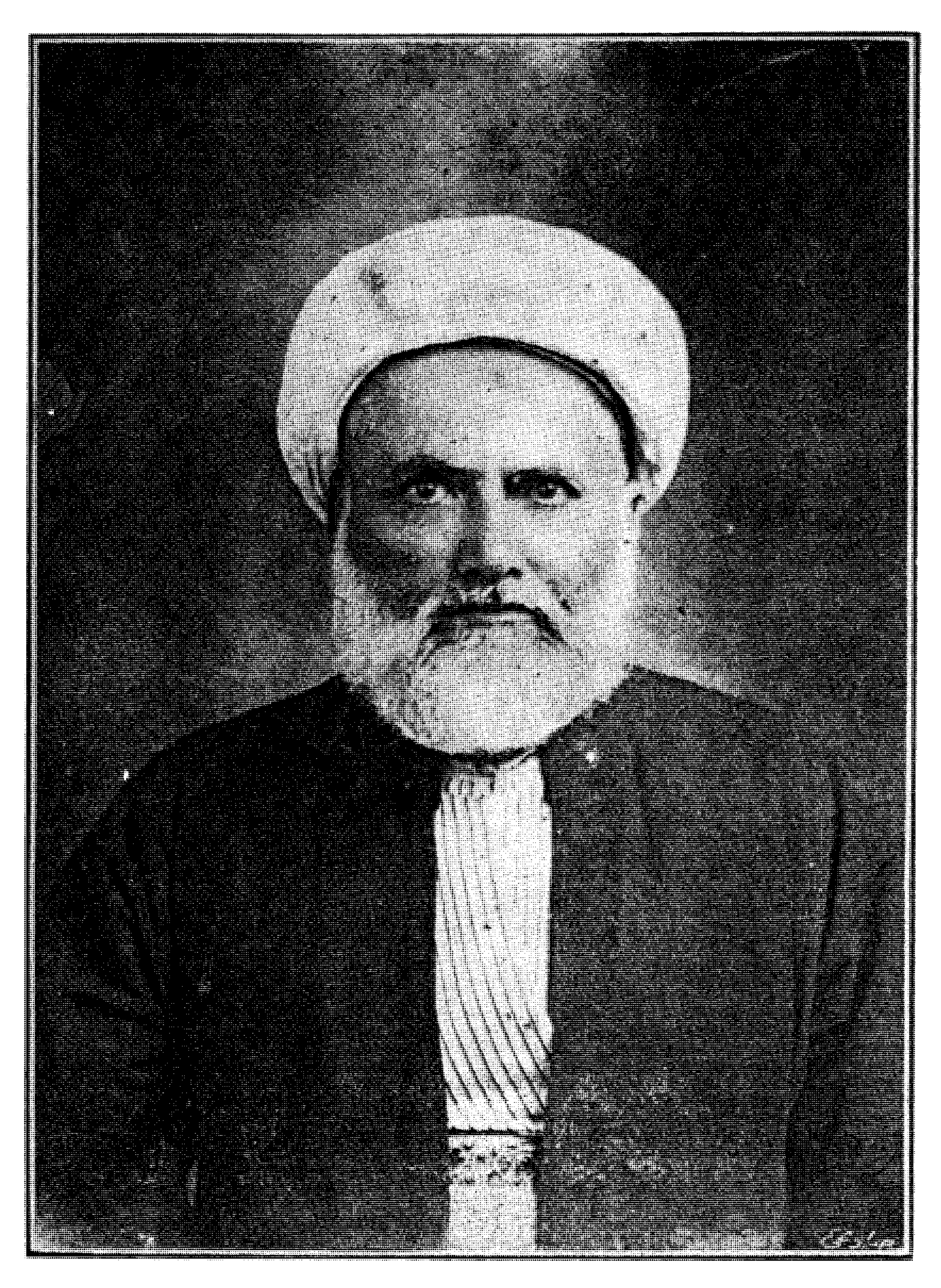
(دمشق ١٩٣٧) طلاب عراقيون مع أحمد الصافي النجفي (الرابع من اليمين) والى يساره محمد مهدي الجواهري



الشـــيخ كاظم الدجيــلي



خيـــري الهنداوي



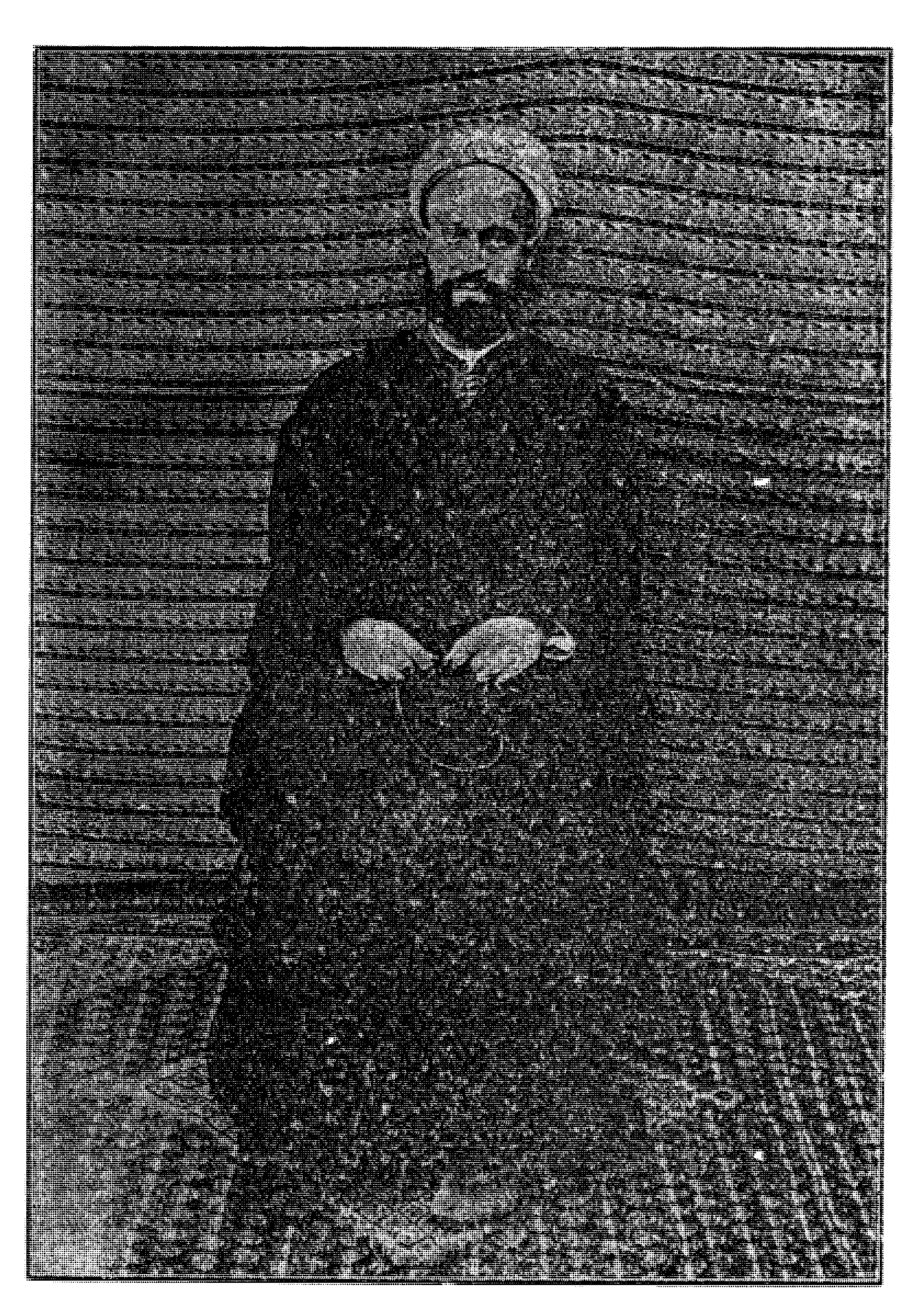
الشيخ عبد المحسن الكاظمي



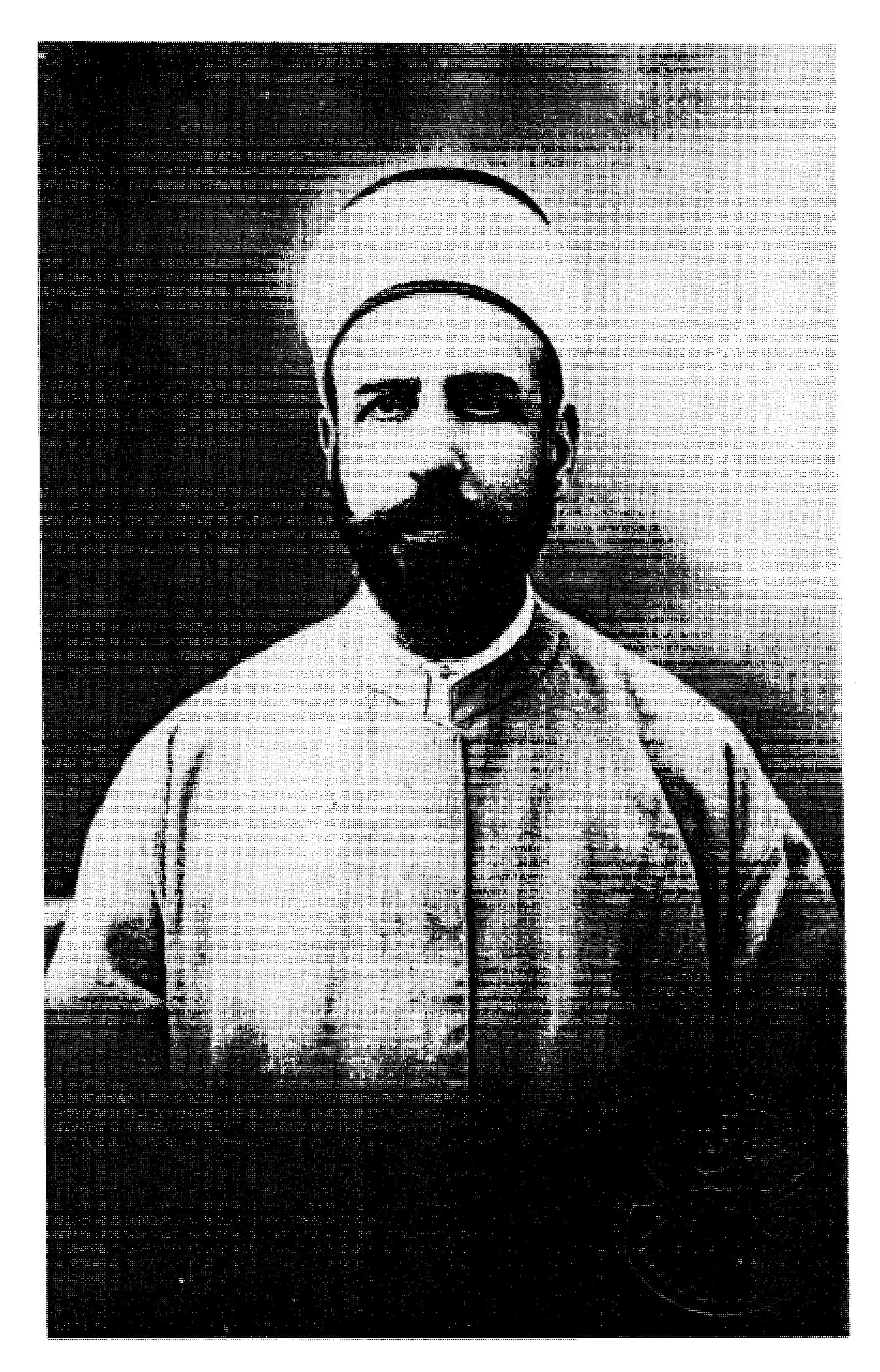
الشيـــخ محمد رضـــا الشبيبـــي



محمد بهجـــت الأثري



محمد حسن أبو المحاسن



عطـا الخطيب



محمد السمـــاوي



المؤلف في حفلة أدبية ببغداد وهو الثاني من اليسار (الصف الاول) والى يمينه الدكتور علي الوردي والى يساره الدكتور مصطفى جواد فجعفر الخليلي ففؤاد عبّاس ، وظهر أنور شاؤل الاول من اليمين في الصف الثاني (سنة ١٩٦٥)



من اليمين اليسار : جعفر الخليلي ، عبد الرحمن التكريتي ، حافظ جميل ، مير بصري ، عبد القادر البرّاك ، خالص خليل عزمي في دار الدكتور عبد المجيد القصاب (ـ سنة ١٩٧٢)



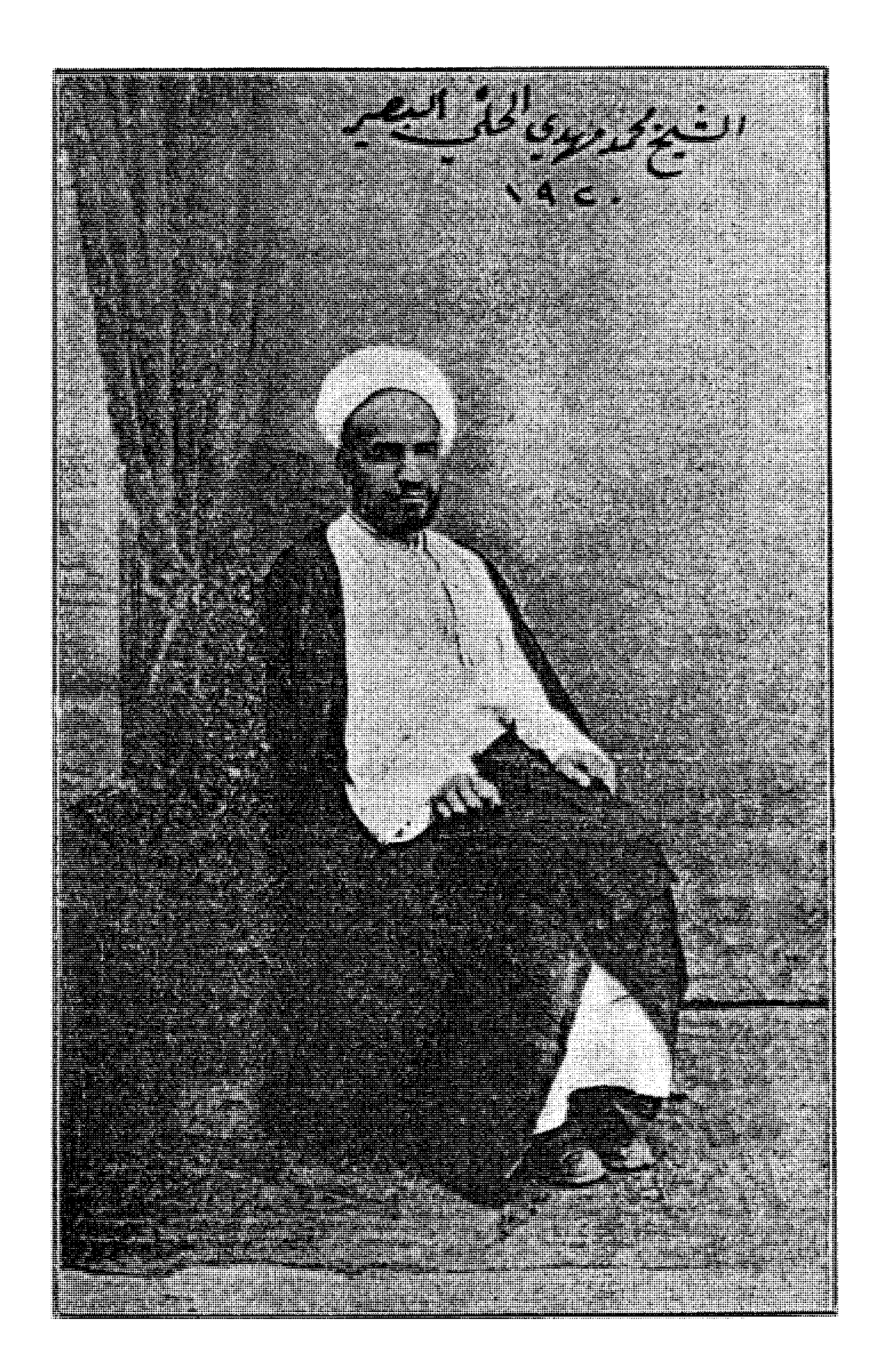
المؤلف مع الدكتور عبد اللطيف حمزة ، الاستاذ المصري ، وعبد القادر عيّاش الاديب المحامي من دير الزور في سورية



مير بصري يلقي قصيدته والى يمينه الحبيب نويره سفير تونس والى يساره الدكتور حمد الكبيسي عميد كلية الشريعة وذلك في حفلة الربيع على العشاء (رز بالبا قلاء) في دار الدكتور القصاب بكرادة مريم ٢٠ نيسان ١٩٧٤



المؤلف في حفلة أدبية : الاول من اليمين ، ثم الدكتور أحمد سوسة ومشكور الاسدي وفؤاد عبّاس
(سنة ١٩٧٤)



محمد مهدي البصيــر



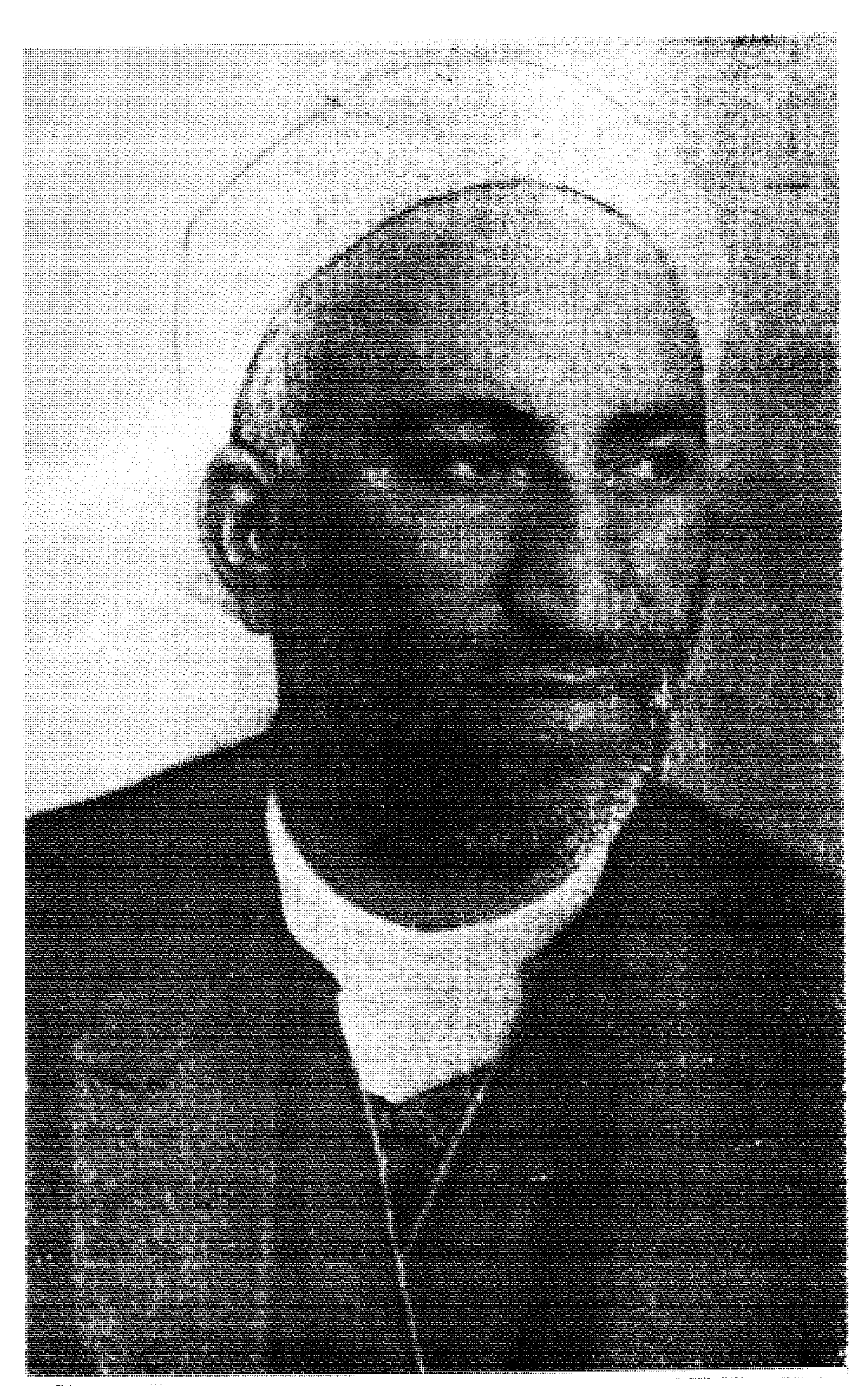
محمد حبيب العبيـــدي



(من اليمين) محمد زكي رئيس مجلس النواب ، محمد رضا الشبيبي وزير المعارف ، المرافق ، الملك غازي ، ساطع الحصري مدير الآثار العام (١٩٣٥) ، في افتتاح القصر العباسي



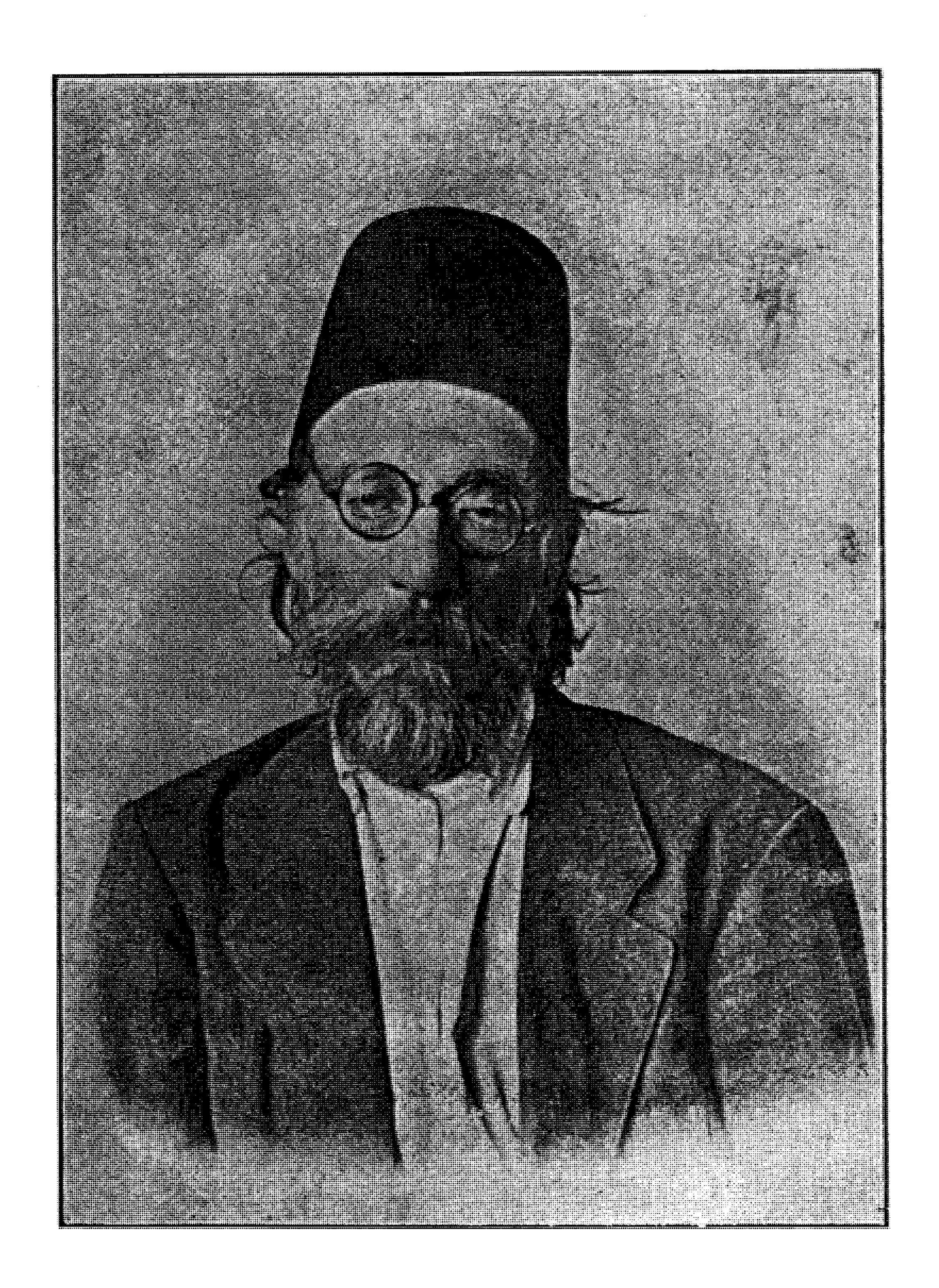
عباس العزاوي



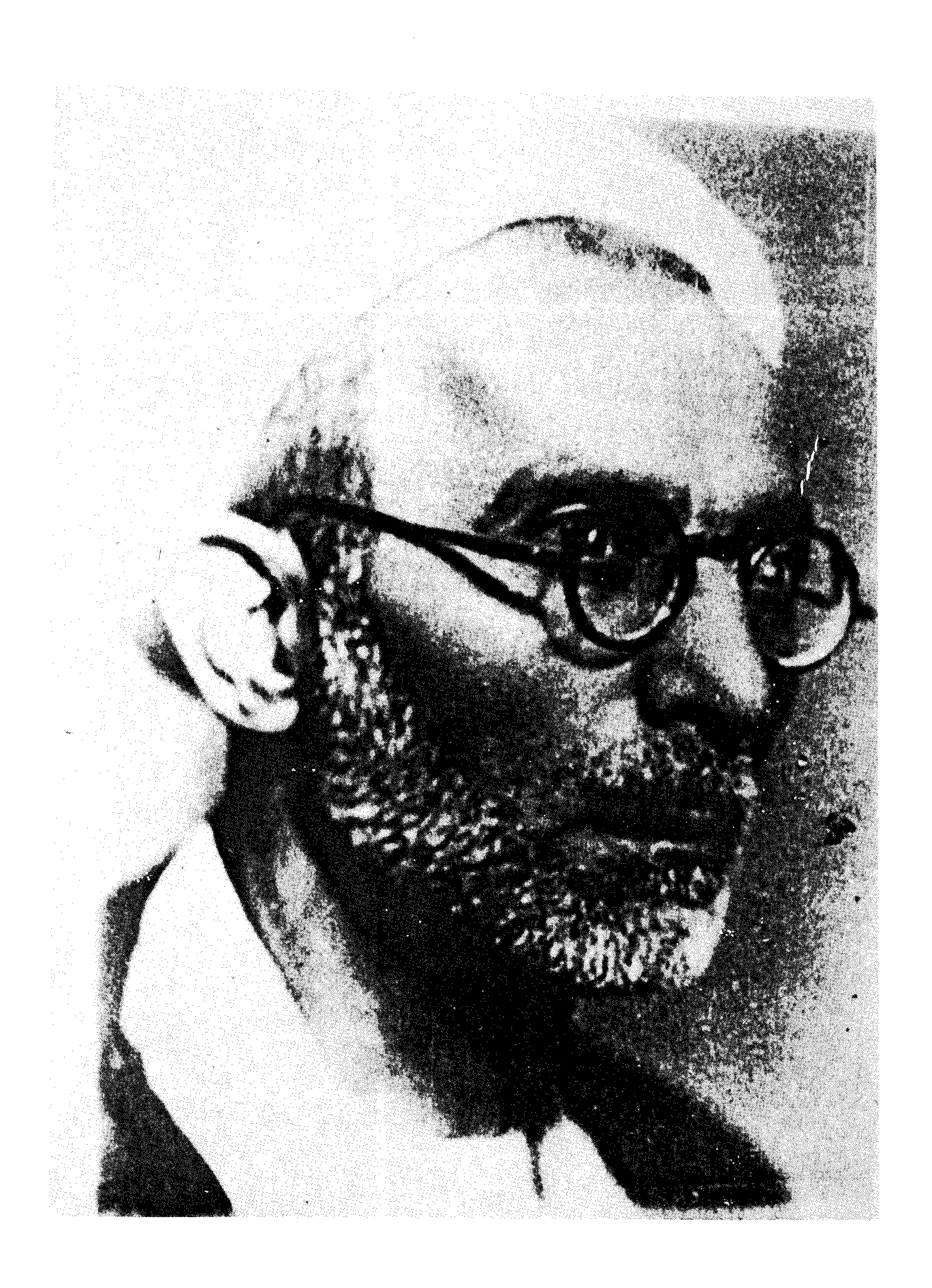
الشيخ محمد رضا الشبيبي
(صورة اخرى له)



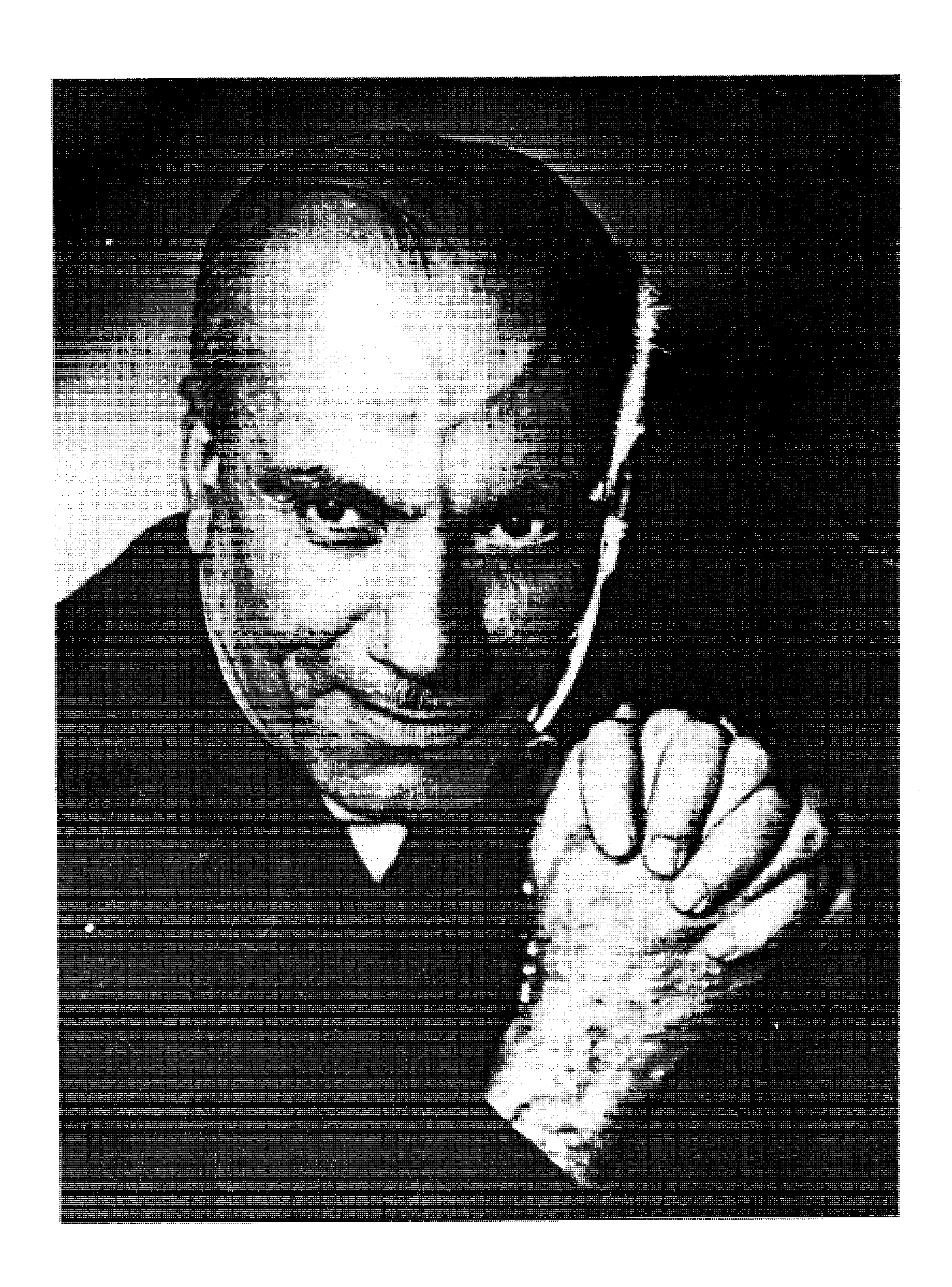
معروف الرصـــافي



جميـــل صدقـــي الزهاوي



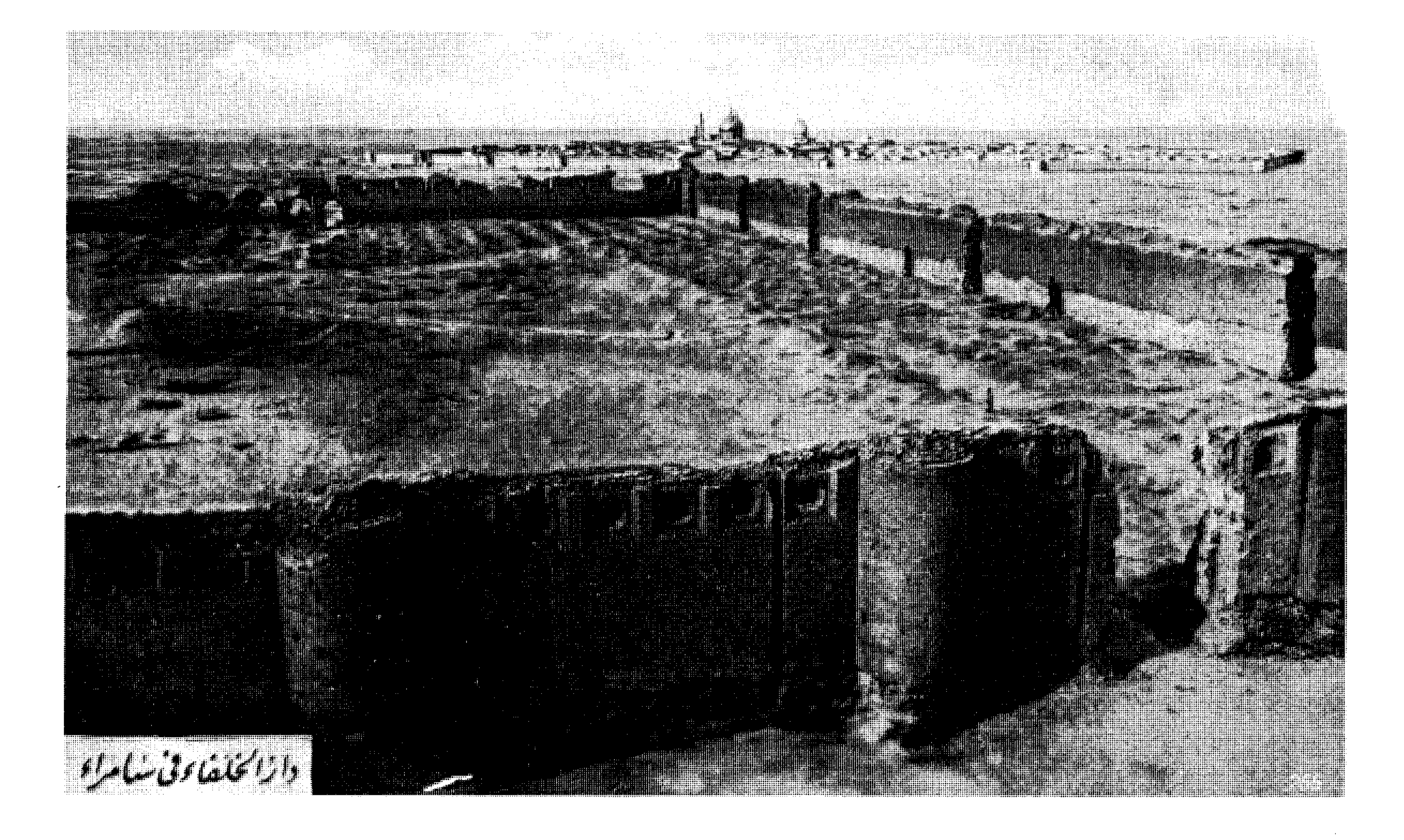
الشيخ عـــلي الشرقـــي



رفائيل بطّي



الجسر القديم في بغداد



دار الخلفاء في سامراء

The insurrectionists are subdued only through the intervention of the Divine Throne."

Of Ma'ruf al-Rusafi (1875-1945), Jurji Says that he is another Iraqi bard of note. "His Arabic has a desert twang, luring and captivating. "I prize my frankness in word and deed, loathing to brook hypocrisy. Never did I cheat another soul, or give my word deceitfully. Little think I that good accrues from holding truth in secrecy..".

"Al-Rusafi links poetical potency and manliness. Hence his invariable continence while writing an ode, on the assumption that his vitality goes into the creation of verse..."

Muhammad Ridha al-Shabibi (1889-1965) is another eminent poet of the period. Several times minister of Education, president of the Senate and the Chamber of Deputies, Prof. Jurgi depicts him, through the changing circumstances of his career, as having his dour religious allegiance remaining unshaken in the shi'ite tradition of his forbears. "His poetry is pietestic and devotional; he views the future with optimism and composure. Nonetheless, he opens his mind to certain scientific shibboleths as "The survival of the fittest", and , in the same breath, assails the contemporary manifestations of idolatry. In the final analysis, he takes refuge in the mighty fortress of fatalism, finding no obstacle therein to the progress of Arab Youth."

The book includes biographies of the eminent and less famous Iraqi poets and writers of the century, e.g. Ali al-Sharqi (1890-1964), Mahmud Shukri al-Aloussy (1857-1924), Fahmi al-Mudarris (1873-1944), Père Anastase - Marie al-Karmeli (1866-1947), Yusuf Ghanimah (1885-1950), Abbas al-Azzawi (1891-1971), Cardinal Ignatius - Gabriel Tappuni (1879-1968) and scores of others. Noted also are the two well - known popular vernacular poets Abbud al-Karkhi (1869-1946) and Hussein Qassam (1897-1958).

It also discusses the literature of the absurd, and concludes with the new wave of the neo-classical, symbolist, M.B. surreaslist and the so-called "free verse" schools.

(1788-1861), Edward William Lane (1801-1876), Henry Wüstenfeld (1808-1899), Rienhart Dozy (1820-1883), Theodor Nöldeke (1836-1930), Edward Henry Palmer (1840-1882) Ignatius Guidi (1844-1935), Ignaz Goldziher (1850-1921), Clement Huart (1854-1927), Edward Glaser (1855-1907), David Samuel Margoliouth (1858-1940), Edward Granvill Brown (1861-1926), Reynold Allen Nicholson (1868-1945), Louis Massignon (1883-1962), Sir Hamilton Alexander Gibb (1895-1971), Prof. Arthur John Arberry (1905-1969)...

* * *

The present book deals with the revival of Arabic literature in Iraq in the twentieth century. It covers all forms of literary arts; poetry, belles-lettres, history, theology and religion, the press, novel and shost story, etc.

Out standing among the poets of the Renaissance were Al-Zahawi, Al-Rusafi and Al-Shabibi. While adhering to the pure classical language, they introduced modern themes of nationalism, freedom of thought, education, emancipation of women, philosophical and ethical subjects, etc.

Prof. Edward J. Jurji, in his contribution to the Encyclopaedia of Literature edited by Joseph T. Shipley (New York, 1946) spoke of the new literary vision. He said, "Jamil Sidqi Al-Zahawi" (1863-1936), in his peculiar rhythm, contagious humour, prophetic tone and cynical style, blends the atheism of Umar al-Khayyam with the scepticism of al-Ma'arri. His "Thawrah fi al-Jahim" (Revolt in Hell), in 430 couplets, is illustrative of his luminous mind - He knows, but does not follow, Dante and al-Ma'arri.

The narrative opens when the angels Munkir and Nakir visit the poet as he rests buried in the grave. He parries their questions with the stock replies of a believing Moslem. Then he stalls:

"I believed, then denied.

Till they thought me a fickle man.

In truth, I am without the means

to say what my belief can be."

... Al-Zahawi's closing pictures of Hell introduce the character of Layla, bride of his verse, and her beloved Samir. A galaxy of bards... are also there. Scholars, scientists, philosophers, all that denied a here-after, people of the region. One of these brilliant inmates invents a fire extinguisher, making possible the revolt against the custodians of hell.

Eminent Men of Letters in modern Iraq.

A history of Modern Iraqi Literature of the Twentieth century.

Foreword

The classical Arabic literature has had an unbroken history extending for fifteen hundred years since the pre-Islamic days known as the "Jahiliyah".

Many poets flourished in the deserts and oases of the Arabian Peninsula as well as in the towns of Yemen, Syria and Iraq, where small Arab principalities thrived.

The Ummayad Dynasty (661-750 A. D.) in Damascus and the Abbassids (750-1258 A.D.) in Baghdad saw long periods of literary regeneration, including poetry, language and grammar, philosophy, history, medicine and science and, of course, Islamic and religious studies. But the subsequent period, called the Era of Decline, extending to the midst of the nineteenth century, marked a decay of the literary arts.

The modern revival started in Egypt and Lebanon to be soon followed by Iraq, Syria and other Arab lands.

Many European Arabists have been interested in Arabic literature, wrote about its history and translated its jems into English, French, German, Russian and other western languages. Recent Arabic poetry, drama, novels and short stories were made available to world readers, and probably the culmination of Arabic literary achievement found its realisation in the award of the prestigious Nobel Prize to the Egyptian writer and novelist Naguib Mahfuz in 1988.

Of the orientalists who studied and wrote on Arabic literature we ought to mention Carl Brockelmann, author of extensive works on the subject. Other prominent Arabists in the last two centuries include George Sale (1680-1736), Antoine Silvestre de Sacy (1758-1838), Etienne - Marc Quatremere (1782-1857), George Wilhelm Freytag

Eminent Men of Letters in Modern Iraq History of Modern Iraqi Literature in the Twentieth Century

by
Meer Basri
With a foreword and notes
by
Dr. Jalil al - Atiyyah



Publishing and Distribution